من حمامة إلى مونتريال

عبد الكريم الحسني

الكتاب : من حمامة إلى مونتريال (رواية)
المؤلف :عبد الكريم الحسني
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٩
رقم الإيداع : ٢٠٠٨/٣٦٤٠
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 012

الناشر
شمس للنشر والتوزيع
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٦٤/٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

حتّى لا ننسى...

من حمامة إلى مونتريال

عبد الكريم الحسني

الكتاب يُميط اللثام عن مشاهد هامة من حياة مـواطن فلسـطيني مـن بلـدة (حمامـة) في مراحل العمر المختلفة في بيئات مختلفة، فهو ليس مدونة تاريخية أو مذكرات تحكي سيرة ذاتية كما قد يبدو من الوهلة الأولى بقدر ما هو وصف للمشـاهد التـي عاشـها عشرات الألوف من الفلسطينيين، وهو ليس حديث سياسي أو تحليل أو نقد أو وصف لمعارك أو سلوكيات بقدر ما هو شهقة حزن لأناس ينتمون إلى وطـن انتـزع مـنهم قسرًا ومـا زال يعيش فيهم.

الكتاب ليس تسفيهًا لأحد، ولم أقل فيه كل شيء، فقد خجلـت أن أحـط مـن إنسـانيتي أكثر، واكتفيت بالتلميح فقط، إنه رسـالة لكـل الأجيـال العربيـة القادمـة التـي لم تحضر الحدث لكي تعرف ما حل بأطفال (فلسطين) وأبنائها من عذابات.

الكتاب ومضةُ معرفة، ووثيقة للباحث، ومصدر إطلاع للقارئ والدارس، ومشهد ثمين لحياة تركت أثرها منذ أن دخل الجنـرال البريطـاني (اللنبـي) مدينـة القـدس بعـد دحـر جيوش الخلافة العثمانية في الحرب العالمية الأولى حين قال قولته الشهيرة: "الآن اسـتطيع أن أقول بأن الحروب الصليبية قد انتهت".

مهندس عبد الكريم الحسني

Montreal, Quebec, Canada.
Email: hampal48@yahoo.ca
http://hamama.ca

١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م

شكر...

أتقدم بالشكر لكل من ساهموا في إنجاز هذا الكتاب بالنصائح، الإهداءات، الأفكار، الإرشادات، وبالتدقيق والمراجعة، الذين لفتوا نظري إلى أمور أثروا بها هذا العمل، ولم يبخلوا بعطائهم ولا بنقدهم الواعي البناء.

عرفانًا وشكرًا لكل الأصدقاء الذين أصروا وشجعوا ودفعوا في اتجاه جعل الكتاب متاحًا لمن يود أن يعرف أكثر عن معاناة الإنسان الفلسطيني خلال فترة الانتقال الرهيب في عام ١٩٤٨م بين الوطن ومواطنيه، بعد أن كان الإنسان الفلسطيني يعيش في وطن، وأصبح الوطن يعيش فيه.

المؤلف

إهداء...

إلى كل أرواح الشهداء الذين سقطوا من أجل (فلسطين)

إلى كل المناضلين والصامدين والمعذبين في (فلسطين)

إلى كل من يؤمن بالوحدة العربية من أجل (فلسطين)

إلى كل الذين يرفضون نسيان ما حدث في (فلسطين)

إلى أهالي (حمامة) الذين يفخرون بالانتماء ل (فلسطين)

إلى الأبناء والأحفاد من الأجيال الفلسطينية القادمة

أهدي هذا الكتاب



P

المقدمة

لا أبالغ لو قلتُ، بأنني قد أصبحتُ في حيرة من أمري ما بعدها حيرة، خصوصًا حينما أردت أن أضع مقدمة لهذا الكتاب، وأما سبب حيرتي فهو ببساطة ليس لأنني غير واقع تحت تأثير معاني الكتاب بل إنني كنتُ كلما أردت أن أعبر عن مضمونه بكلمات قليلة، أجد نفسي عاجزًا عن الإتيان بالمعاني كلها، وبعد عدة محاولات وصبر وأناة وجدت أنني بالفعل عاجز عن الإتيان بمقدمة كما أريدها أو كما يجب أن تكون، فما كان مني إلا أن ثُرتُ على نفسي وشققتُ عصا الطاعة على التفكير الضيق الذي كنت قد وضعت عقلي فيه، ووجدت نفسي عاجزًا عن قول شيء سوى أن الكتاب هو رحلة عمر شاقة من (فلسطين) إلى التيه.

عمري الآن هو خمس وستون عامًا، عبرتُها بالكاد متسلقًا من قاع الحياة، بدأتها بطفولة بائسة إلى أن طفوت على سطحها ومضيتُ فيها مع ألعابرين في رحلة معاناة وغربة، لكنني بعد كل هذه السنين الطويلة أضحيت لا أتذكر منها سوى أنها كانت وما زالت كابوسًا صاحبني كقدر محتوم، لم يرحمني في نومي ولا في صحوتي على مدى الأيام والسنين، فقد حفر في القلب غصة ولم أجد وسيلة للتعبير عنها إلا بالكتابة، فكان مداد هذا الكتاب من دمي، لأن فيه محاولة لوصف كل ما صادفته عيناي في طفولتي ورحلة صباي بما فيها من شقاء وتعب ورحلة شباب حافلة بجهد وتقلبات وصولاً إلى مرحلة الشيخوخة وما فيها من مفاجآت وإحساس بعدم الاستقرار حتى كتابة هذه السطور.

لقد أودعتُ في هذا الكتاب حبي الكبير لـ (فلسطين) وطني السليب، وجعلته يحتضن حنيني لبلدة (حمامة) مسقط رأسي، وكيف لا و(حمامة) هي ابنة آلهة الإغريق القديمة، وأهاليها هم من جعلوها وادي حمى لجيوش صلاح الدين حينما كان يهاجم آخر معاقل الصليبيين في عسقلان الخالدة، كما واستظل فيها أيضًا الفلسطينيون الأوائل أصحاب الممالك الخمس الذين أتوا بالحضارة من خلف البحر، فكانوا أول من أدخل الحديد إلى (فلسطين)، وأصبحوا عنصر القوة لأهلها من أحفاد اليبوسيين والعموريين والكنعانيين أهل تلك الأرض الحقيقيون.

في كتابي هذا أودعتُ عتابًا على أمتنا العربية التي صارت عن جهل تعتنق عقيدة الإقليمية، وتجعلها دينًا وحياة حتى أضحت كلمة عربي لا تعني شيئًا. لقد حاولت من خلال هذه السيرة المتواضعة لإنسان عادي أن أُري القارئ كيف يُحاكي الإنسان الفلسطيني الواقع الذي فرض عليه منذ عام ١٩٤٨م.

المؤلف

الفصل الأول

١-١ (حمامة) قبل عام ١٩٤٨م.

(فلسطين) الحق والتاريخ والنكبة وما قبل النكبة وماذا حدث وكيف حدث، لم تعد شاغل أهل الزمن الرديء، فالذين كانوا شهودًا على المأساة ماتوا وزمنهم سيبتعد مع الأيام والسنين، والمذكرات المُسيسة لا تبوح دائما بكل شيء لأن بها حقائق وعتب يجرحان بالعمق، والرجوع إلى الماضي في معالجة الحاضر لم يعد فضيلة في نظر البشرية الظالمة، الأسف والقهر والبكاء والهجرة وفقدان الوطن، أصبحتْ في زمن القوى العظمى مثل حوادث السيارات والطائرات، تتبوأ مانشتات وشاشات ونشرات وسائل الإعلام وتختفي ويطويها الزمان، لكن الاستمرارية في إعادة نغم الذكريات عند أصحاب الحق تظل باقية، إذن سنظل نتذكر.



(حمامة) – قصيدة(١)

يومًا ما

كانت لنا (حمامة) بيضاء

أحببناها بشغف

أحببناها بجنون

ولأنّ السماء مليئة بالعواصفِ والصواعق

فقد قُتِلتْ الـ (حمامة) فجأةً

هكذا فجأةً

فأخذتُ أنا جناحها الكسير

وعلّمته الكتابة والحروف

فصار يعلّمني الشعر

قصيدةً إثر قصيدة

وكتابًا إثر كتاب
حتّى أصبحتُ شاعرًا
لا همّ له سوى الحديث عن الـ (حمامة)
والجناح الذي صار حرفًا.

١-٢ (حمامة) كانت البداية.

أنا من مواليد بلدة "حمامه" التي تقع على ساحل (فلسطين) المحتلة بين مدينة "المجدل" وبلدة "أسدود" القريبتين، وكذلك ولد أبي وأمي وكل أجدادي هناك، ولم أعرف وطنا غيرها، كان عمري أقل من ست سنوات في عام ١٩٤٨. قالت والدتي بأنني قد ولدت في بيت جدي، وكنا نعيش في البداية مع جدي وجدتي وأعمامي وأسرهم. كان لوالدي ولكل واحد من أعمامي غرفة واحدة في الدار الكبيرة، التي كما أتخيلها كانت شبه مربعة الشكل.

وقد علمت إنه بعد أن كبرت أسرة والدي، وأصبح له أربعة أطفال وأضحت غرفة واحدة لا تكفي للسكن، رأى ووالدتي أن يكون لهما دارهما الخاصة بهم حسب منطق الحياة، فتدبرا أمورهما وحسب أعراف ذلك الزمن اختارا وسعيا واشتريا دارا في حارة أخرى قريبة، وأضافا عليها بعض التعديلات لكي تناسب أسرتنا.



١ -٣ مشاهد من الذاكرة.

هناك بعض مشاهد من طفولتي المبكرة مازالت عالقة في ذاكرتي. في أحد الأيام كنت مع والداي في الدار وقامت والدتي بحلب غنمة لنا، وأحضر والدي أرغفة من الخبز، وأحضر وعاء على شكل صحن كبير من الفخار، وراح يقطع الخبز بيده إلى قطع صغيرة بحجم اللقمة الكبيرة التي توضع في فم الإنسان البالغ، وكان يضعها في ذلك الصحن، ثم أحضر كيسا من القماش ذي اللون الداكن، وفتحه وأخرج قبضتين بحجم اليد الواحدة من السكر، وقام برشها على الخبز ثم أضاف الحليب الذي أحضرته والدتي، وأكلا ورأيت الصحن مملوءًا في البداية، وأتذكر بأنني قد رأيته خاليًا تمامًا ما عدا بقايا صغيرة على سطحه الداخلي كانت تدل فقط على آثار الحليب والخبز.

مشهد آخر مازلتُ أذكره أيضا، فقد رأيت والدي مرة أخرى وكنت أيضًا وحيدًا في الدار معه ومع والدتي، وقد أحضر رغيفين كبيرين من خبز الدار وقام بتحميصهما على النار، وربما كان ذلك في ضحى بعض الأيام، ثم قطعهما وصب عليهما كمية لا باس بها من

زيت الزيتون من إبريق من الفخار، ثم رش على الخليط قليلاً من السكر، أكلت معهما وكان ذلك الطعام لذيذا جدًا.

عدا هذه المناظر القليلة السابقة التي أعتبرها أولى معرفتي بالحياة وما كان يدور حولي، بدأت بعدها بقليل أعرف وأتذكر بشكل مستمر كل ما كانت تقع عليه عيناي من حركة وما أسمع من أحداث وألمس من أشياء حولي.

مازلت أذكر بعد ذلك أنني رأيت يومًا والدي وإخوتي الكبار يقومون بعمل حفرة كبيرة نسبيًا في منتصف مستطيل دارنا، وبعمق ربما متر ونصف المتر أو أكثر قليلاً، وبمساحة مربعة تقريبًا أيضًا لا يقل طول ضلعها عن خمسة أمتار، قام والدي بسقف هذه الحفرة بالأخشاب والألواح المعدنية (الشينكو) وأبقى لها بابًا للخروج والدخول، وحتى هذا فقد أخفاه بعد ذلك تحت التراب بعد أن وضع والدي داخل هذه الحفرة التي كانت تسمى (المطمورة) أكياس القمح والغلال الأخرى من الحبوب، وكذلك جرار الزيتون والزيت وأشياء أخرى، مثل كميات الخضار والفواكه المجففة، التي تلزم لمؤونة الأسرة على مدى فصول السنة خصوصًا في الشتاء.

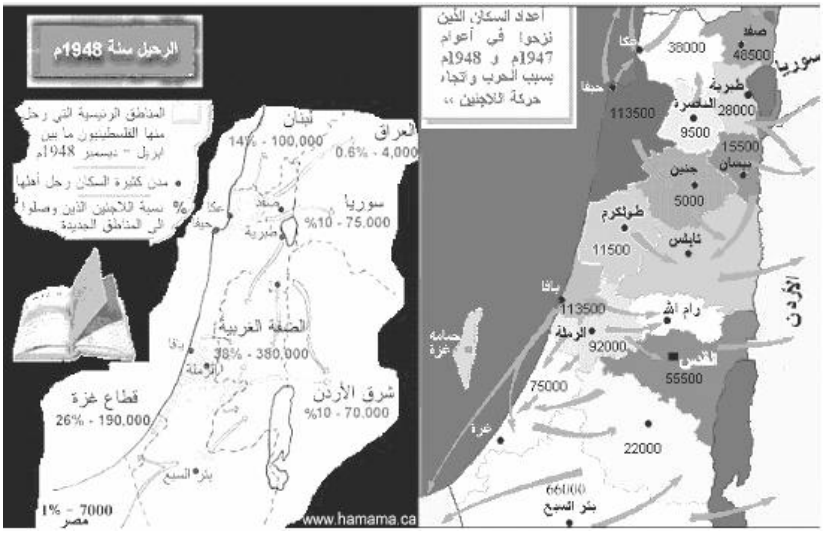
كان لوالدتي بستانا من أشجار الزيتون كانت قد ورثته عن أهلها، وكان يقع على حافة مساكن بلدتنا من جهة الشمال عند مكان يسمى (المَزْيَرَة)، وكنت أعرف ذلك المكان جيدًا، وكان فيه بعض من أشجار المشمش القليلة إضافة لأشجار الزيتون، كانت تكمن أهمية هذا البستان الصغير في كونه كان المصدر الرئيسي لعائلتنا في الحصول على الزيت والزيتون الذي كان يعتبر من أساسيات الغذاء لأهل (فلسطين) على مر العصور، كما أذكر بأنه كان يمثل دخلاً إضافيًا لأسرتنا إلى جانب المصادر الزراعية الأخرى.

كان والداي وكما عرفت بعد ذلك زوجين مكافحين، وكان لكل منهما خصلة يتميز بها على الآخر، وربما تكمل ما عند الآخر، كان أبي رجلاً صلبًا وعاملاً قويًا صبورًا ومثابرًا خصوصًا في الأعمال الزراعية، وكان عنيدًا وقاسيًا وسريع الغضب ولا يتحلى بالمرونة والسياسة، لكنه كان طيبًا وكان ميالاً إلى العنف، وكان صادقًا جدًا، وكريمًا جدًا في حدود إمكانياته، وكان لا يخاف في الله لومة لائم، فقد كان صادقًا صدوقًا يشهد بهذا كل من رأوه وعرفوه عن قرب في حياته من الأصدقاء والمعارف.

أما والدتي فقد كانت من مدرسة أخرى، كانت صبورة إذا أرادت، وتتفوق بهذا الصبر على الحكماء، وكانت قاسية إذا غضبت، وكانت حكيمة ومميزة بين أهلها بفكرها الذي كانت تنافس به أعتى الرجال، وربما قد ساعدها أنها ابنة أسرة من كبار ملاك البلدة.

ورث والدي وأعمامي الثلاثة عن جدي كروم من العنب، والتي كانت محاذية لشاطئ البحر، كانت بالأصل كرمًا كبيرًا واحدًا وتقاسموه، عمل بعض أعمامي بصيد السمك بالإضافة إلى الأعمال الزراعية وكان لبعضهم مراكب لصيد السمك، ولكن والدي كان قليلاً ما يعمل بالصيد، ويبدو أن ذلك بسبب عدم إجادته للسباحة في البحر، ولذلك بقى تركيزه في اتجاه واحد وهو الزراعة، فحقق بعضًا مما طمح إليه من حيث زيادة أملاكه من الأراضي الزراعية.

مازلتُ أتذكر عندما كنت طفلاً وأزور كرمنا الذي كان يقع على ساحل البحر، لم تكن تشدني الأرض هناك بقدر ما كان يشدني البحر ومياهه الواسعة الزرقاء ومسافة ألأفق البعيد، وقد أختزن ذلك المنظر البديع بداخلي لكي يصبح فيما بعد إلهامًا لأتذكر شاطئ (حمامة) الجميل كلما حدث وتواجدت على شاطئ بحر تغطيه الرمال الناعمة الذهبية.



(حمامة) بلدة ساحلية في (فلسطين) ١٩٤٨م

ليس مهمًا أن أذكر اسمي لأنني مجرد إنسان عربي من (فلسطين)، وحكايتي تنطبق على الكثيرين مثلي من (حمامة) أو من قرى ومدن فلسطينية أخرى، ومشاوير حياتهم تلتقي مع ما مررت به على أننا شعب ما زال يدفع ثمنًا لذنب لم يقترفه، وعلى ذلك فإن اسمي الذي يتطابق مع هذا المعنى، هو، إنني أحد أبناء (فلسطين)، ولد في بلدة (حمامة) الساحلية التي احتلها الصهاينة عام ١٩٤٨م، فأنا أحد أبناء (فلسطين) المهجّرين بسبب الترويع الصهيوني الذي كان أكثر ظلمًا وأشد همجية وأكبر استعلاء على الإنسانية على مدى حقبات القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين.

عرفت الدنيا ولم تكن لي شهادة ميلاد رسمية مثل الكثيرين من أمثالي في مجتمعنا الريفي الفلسطيني البسيط، رغم أن أخي الذي كان يصغرني كانت له شهادة ميلاد أصلية موثقة، وربما اتفق الأهل بعد ذلك على تحديد تاريخ ميلادي بمقارنة سني مع أبناء جيلي، وعلى هذا الأساس استخرجوا لي فيما بعد شهادة تقدير عمر.

كم أتمنى الآن أن أوفق في هذا العبور السريع، وأنا أدق أبـواب الـذاكرة مقـتحمًا أوراقًـا ودفاتر ذاكرة طفولتي لكي أقدم وصفًا مماثلاً للحقيقة التي رأيتها ولمستها وعشتها منذ أن فتحت عيناي على هذه الدنيا، لهذا إنني أضع هنا قبسات من رحلة العمر التي لم تزد عن كوني (فلسطين) ي مثل كل الملايين من الفلسطينيين، الذين لا زال جرحهم ينزف شـقاءً وضياعًا وحسرة، نحن الذين ما زالت أجيالنا الجديدة أيضًا تدفع نفس الثمن مـن عـدم الاستقرار في هذا العالم الواسع الضيق علينا فقط.

إنني أقتطع من رحلة العمر فصلاً لأسلط الضوء في ذكرى مرور أكثر من ستين عامًا على إنشاء دولة (إسرائيل) أو نكبة (فلسطين) أو ضـياع (حمامـه)، أقتطـع فصـلاً إنسـانيًا لـه علاقة بمحنة الفلسطيني، وأرغب في وضعه أمام الدنيا بل أمام كل عربي لم يعـرف بعـد حقيقة ما حدث في (فلسطين).

كم أتمنى أن تكسب هذه المحاولة وقفة إنسانية على الأقل من كل عربي يقـع نظـره عـلى هذه السطور فقد نتفق من على بعد على الأقل، بأن القصور العربي القومي على مدى كل السنين الماضية بسبب التخلف ونسيان السعي إلى الوحدة العربيـة الكـبرى، هـو المأسـاة والكارثة الحقيقية، وهو النكبة المستمرة للفلسطينيين والعرب على حد سواء.

قصتنا نحن الفلسطينيين ببساطة، هي، كمن كان آمنًا مستقرًا في بيته وأتى من الخارج مَن هدده واعتدى على أمنه وأمانه، وأمسك به ورماه في الشارع خارج بيته بدون المتـاع، إلا أن ما حدث لنا في الحقيقة كان أكثر من هذا بكثير، لأننا اقتلعنا من وطننا عنـوة، ورمينـا في شوارع الدنيا بلا عنوان.

لقد عشت بعضًا من طفولتي في حياة ريفية فلسطينية سعيدة لفـترة قصـيرة مـن الـزمن، وأكملت تلك الطفولة بفقر وعوز وشقاء، وان كانت هذه الأشياء قد تبدلت للبعض إلا أن الضياع ظل يصاحب كل الفلسطينيين بما فيهم من بدوا مستقرين في بعـض البلـدان،

خصوصًا من ناحية التفرقة العنصرية أو الإقليمية أو الاثنتين معًا، كل هذا حدث بسبب مأساة (فلسطين) نا التي قضت كليًا على استقرار أسرتنا وأسر ألآف الفلسطينيين من أمثالنا، ذلك منذ أن فقدنا أملاكنا وبيتنا في بلدتنا (حمامة).

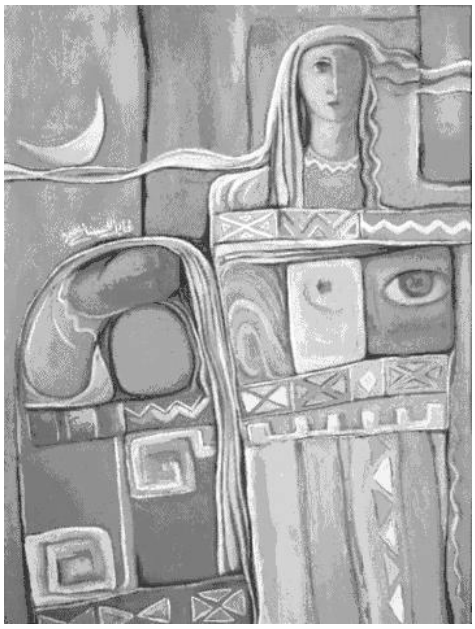
لهذا إنني أشهد مع أمثالي بأنني قد عشتُ مأساة (فلسطين) كلها، سواء منذ أن روّعنا بعد أن كنا آمنين في بلدتنا (حمامة)، أو خلال ما تلا ذلك من تهجير وإرهاب وجوع وحرمان وعوز وبؤس ومطاردة وعدم استقرار في متاهة لا يُعرف لها نهاية، هذا، وإنني سأكتفي في هذا الكتاب بلمحات من هنا وهناك، ليس لأن لا أحدًا غيري قد أتى على وصف المأساة، ولكن عسى أن يكون فيما أمر عليه تأكيدًا آخرًا على أننا شعب له جذوره وله حضارته وله خصوصيته وله كل الصفات التي تؤهله بأن يكون له كيانًا مستقلاً، لأله حقٌ مغتصب، فإن اختفت بعض أحلامنا أو ضاعت بعض آمالنا فإن حقنا ثابت لن يضيع ولن يزول مهما غطاه غبار السنين، لأننا أيضًا نحن العرب الذين عشنا غربي نهر الأردن ممثلين بأجدادنا لسنا غزاة لأرض غريبة، نحن ببساطة أصحاب تلك الأرض، لأن اليبوسيين والعموريين والكنعانيين هم أجدادنا من العرب، وقد كانوا في (فلسطين) قبل أن يأتي العبرانيون إليها، وحتى حينما جاء العبرانيون لم تكن (فلسطين) خالية من السكان، وإلا ماذا يقال عن الحروب التي نشبت بين العبرانيين والفلسطينيين، وهو ما يؤكده أيضًا كتاب التوراة الذي يؤمنون به.

هذا، ومن ناحية أخرى، أن ما كتبته من نواحيه المختلفة لم يكن من وحي الخيال، وليس فيه رتوش أو تزويق أو تجميل أو تلميع، وهو ليس سيرة ذاتية بقدر ما هو محاولة لوصف نموذج حقيقي لأسرة فلسطينية أو لشعب عاش على أرضه منذ آلاف السنين ثم انتزعت منه تلك الأرض فجأة، وأما استعمال ضمير المتكلم كثيرًا في أبواب هذا الكتاب

فهو ليس أكثر من الرغبة في إثبات الحدث وتأكيد صدق المشاهدة وتقديم البينة والدليل حتى لا يكون هناك مجال للشك.

نعم إن ما حدث لي ولأسرة والدي – رحمه الله – ليس فريدًا من نوعه، فقد عاشه بشكل أو بآخر كل الفلسطينيين الذين أُجبروا على ترك مدنهم وقراهم عام ١٩٤٧ و١٩٤٨م، وقد يختلف عني فقط بعض الفلسطينيين الذين عاشوا في تلك الفترة بالاسم أو بأسماء آبائهم أو أمهاتهم، وقد يختلفون عني بأسماء قراهم أو مدنهم الفلسطينية التي فقدوها أو انحدروا منها لكن فصول نكبتنا واحدة، لقد كان الفلسطيني في ذلك الزمن الرديء وما زال، هو ضحية عجز عروبته المتخمة بالإقليمية والفرقة، ولهذا أضحى الشتات هو فراشنا منذ البداية نحن الفلسطينيين بعد عام ١٩٤٨م، وصار الضياع ونحن بلا وطن هو غطاؤنا، وهكذا رحنا نضرب على وجوهنا في كل أصقاع الدنيا، نبحث عن وطن وكرامة ضاعا، ولا زال الجرح مفتوحًا.

لقد غزى الإسرائيليون بلدتي (حمامة) في خريف سنة ١٩٤٨م، وجعلوها أيضًا جزءًا من دولتهم بعد أن أزالوا بيوتها عن الوجود، وأضحتْ حسب مفهوم القوة المادية من وجهة نظرهم لا تمت بصلة لنا، وها هم عشرات الألوف من أهالي (حمامة) ومن هم من نسلهم يعيشون في معسكرات اللاجئين على بعد واحد وثلاثين كيلومترًا منها أو كذلك في قطاع غزة، هذا، عدا الآلاف أيضًا من أهالي (حمامة)، مع أبنائهم وأحفادهم، ما زالوا يهيمون تيهًا في بلاد الدنيا بلا وطن ولا استقرار.



لقد مر على نكبة (فلسطين) أو ضياع (حمامة) عشرات السنين، إذن ليس كثيرًا عليّ أو على أي شخص ممن كان من أصل (فلسطين) ي أن نتذكر مدننا وقرانا في (فلسطين) تلك البلاد التي ولدنا فيها أو ولد فيها آباؤنا وأجدادنا، بل ليس كثيرًا علي كما الآخرين أن أتذكر بلدتنا ومسقط راسي التي ولدت بها وولد فيها أيضًا أبي وأمي وإخوتي وأجدادي، إنها (حمامة) تلك البلدة الوادعة التي ما زالت أرضها تقبع خالدة على مر الزمن عند الساحل الفلسطيني محاذية لشاطئ البحر الأبيض المتوسط، بينما تترامى أراضيها الخصبة متدثرة على استحياء بملاءة الرمال الذهبية المطلة على حواف وادي (حمامة) التي يقع شرقها مباشرة مزارع العنب التي كانت تشتهر بها (حمامة)، وعلى سهول القمح المترامية، وسلام على (حمامة).

شعر: أديب كمال الدين

الفصل الثاني

٢-١ حقائق عن قرية (حمامة)

<table>
<tr><th colspan="2">إحصاءات وحقائق عن قرية (حمامة) (١)</th></tr>
<tr><td>تاريخ الاحتلال الصهيوني لحمامة</td><td>٤تشرين ثاني، ١٩٤٨م</td></tr>
<tr><td>موقع قرية (حمامة) عن مركز المحافظة (مدينة غزة)</td><td>٢٤-٣١ كم شمال شرقي مدينة غزة</td></tr>
<tr><td>مستوى ارتفاع القرية عن سطح البحر</td><td>٢٥ متر عن سطح البحر</td></tr>
<tr><td>العملية العسكرية التي نفذت ضد البلدة</td><td>يوعاف (القسم الثالث)</td></tr>
<tr><td>الكتيبة المنفذة للعملية العسكرية</td><td>جفعاتي</td></tr>
<tr><td>سبب النزوح</td><td>نتيجة اعتداء مباشر من القوات الصهيونية</td></tr>
<tr><td>مدى التدمير</td><td>دمرت بيوت البلدة بالكامل</td></tr>
<tr><td>المدافعون</td><td>الجيش المصري والمقاومون من أهالي البلدة</td></tr>
<tr><td>التطهير العرقي</td><td>لقد تم تطهير البلدة عرقيًا بالكامل ولم يبق لأهاليها اثر</td></tr>
<tr><td>ملكية الأرض</td><td>
<table>
<tr><th>الخلفية العرقية</th><th>ملكية الأرض/دونم</th></tr>
<tr><td>فلسطيني</td><td>٢٦,٨٥٥</td></tr>
<tr><td>تسرب للصهاينة</td><td>١,٦٩٣</td></tr>
<tr><td>مشاع (وقف)</td><td>١٢,٨١٨</td></tr>
<tr><td>المجموع</td><td>٤١,٣٦٦</td></tr>
</table>
</td></tr>
</table>

معلومات عن أراضي قرية (حمامة) عام ١٩٤٥	
التعداد السكاني	
عدد البيوت	
مساجد	كان في البلدة بحد أدنى مسجد واحد

الأراضي وكيفية استخدامها	(فلسطيني) (دونم)	يهودي (دونم)
مزروعة بالحمضيات	٩٦١	٣٩٥
مزروعة بالبساتين المروية	٤,٣٢٥	١٣٤
مزروعة بالحبوب	٢٧,٧٢٦	١,١٦٤
مبنية	١٦٧	٠
صالح للزراعة	٣٣,٠١٢	١,٦٩٣
بور	٦,٤٩٤	٠

السنة	نسمة
١٥٩٦	٤٦٢
١٩٢٢	٢,٧٣١
١٩٣١	٣,٤٠٥
١٩٤٥	٦٠ ٥,٠٧٠يهودي
١٩٤٨	٥,٨١٢
تقدير لتعداد اللاجئين في ١٩٩٨	٣٥,٦٨٩

السنة	عدد البيوت
١٩٣١	٨٦٥
١٩٤٨	١٤٧٦

الحالة التعليمية	كان في البلدة بحد أدنى مدرستين: البلدة كان فيها مدرسة للذكور أسست في

	عـــام ١٩٢١، في عـــام ١٩٤٥ التحـــق في المدرســـة ٣٣٨ طالـــب كـــان يعلمهـــم ٩ معلمين البلدة كان فيها مدرسة للإناث، في عـــام ١٩٤٦ التحـــق في المدرســـة ٤٦طالبة كان يعلمهم ٢ معلمات
اسم البلدة عبر التاريخ	في العهـد الرومـاني عرفـت القريـة بباليـا بمعنى حمامه
اليلدات المحيطة	أراضي قرى أسدود وبيت داراس والمجدل
الأماكن الأثرية	يوجد إلى جوار القرية خربـة تـل الفرهنـد، والسواريف، والشيخ عواد، وخور البلـك، ومكـوس، والمصـلى، والنـاموس، وخسـة، وبزا، ومعابسة، وبشة، وتل الفراني، وحجر عيد.
مجلس قروي	كـان يوجـد مجلـس قـروي يـدير الشـؤون الاجتماعية والعامة لأهل البلدة



أرجوك يا وطني، لا تدعنا نقيم في غربتنا أكثر، فقد ضاعت في تيهها أفراحنا، وتعثرنا كثيرًا في عتمة لياليها وصرنا نبحث عما تبقى في كؤوسنا، لماذا تطيلين علينا الطريق أيتها الأيام حتى صرتي طلاسمًا وأسرارًا، فلا نجد سبيلاً إلا أن نتعلق بأهداب النجوم ونتلمس طريقنا إلى ودع العرافين لنسأل عن الأسرار المخبأة في جوف المستقبل المجهول، هل لك يا قدر أن تنصفنا وأن تعطينا الفرصة ولو لمرة واحدة لكي نلملم وجودنا بعد أن شتته الغياب، ولم يبق منا إلا أنين عشق منقوش على لوحات الذاكرة هناك في الغربة التي لم نعد نسمع فيها أخبارًا إلا تلك التي يحملها لنا الريح فتأتينا كهمس خجل بالكاد نسمعه.

بالرغم من بعد المسافات، فنحن كثيرًا ما نختلي بأنفسنا، نرحل بعيدًا عن أجسادنا، نمتطي خيالنا إليك يا وطن، نجلس على شطآنك ونتيه في صحاريك، نحاكي مياه بحرك وأنهارك وخلجانك، ونعانق زرقة سمائك، مازلنا برغم كل شئ نحفظ كل الصور التي تظل تعاتبنا بالوجد والحنين فنحبها أكثر ونعشقها في كل مرة ولا نجد ما نقوله إلا أن نهرب وندير وجوهنا خجلاً.

برغم برد الشتات ما زلنا نجلس عند حافة الأمل الذي أصبح مزارنا اليومي، نزوره لنتحدث مع طيفك يا وطن بلا فواصل ولا حواجز، نحلم باليوم الذي سنجلس فيه على شاطئ بحرك يا (فلسطين)، أعدك عندها بأننا سنعقد معك صلحًا ونوقع عقدًا أزليًا بأن لا نغادر مهما كانت الظروف، فكل الشواطئ غريبة علينا، فما هي إلا محطات مؤقتة في رحلة سفرنا نحوك.

جلستُ يومًا على شاطئ بحر (المانش) في (بريتاني) في شمال (فرنسا)، كانت تتهادى إلى مسمعي صرخات جرحى الحرب العالمية الثانية كانت تشبه إلى حد كبير صراخ عشاق

الوطن مثلي فالحنين لوطن مسلوب أكثر ألمًا من نيران الحرب وأهوالها، فالألم في الأحلام والخيال على قِصر الوقت الذي يأخذه يكون أضعافًا بل أفظع كثيرًا من الآلام والأهوال مما في واقع الحياة، لقد طال انتظارنا، وطالت دروب النكبة، وأصبحت مدن أحلامنا بلا شطآن، لكننا لم ولن نحرق السفن القديمة، سنعود يومًا إلى بحرنا والى برنا، فنحن مطلوبين لعدالة عشق الأرض وسنابل القمح، فإن كنا قد تعبنا من السفر إليك يا وطن فان عتب الليالي أكثر تعبًا لأنه انتظار في انتظار، ما أصعب الانتظار حينما يتجاوز الستين عامًا.

٢-٢ معلومات عن بلدة (حمامة) قبل الاغتصاب.

كانت القرية تقع في رقعة مستوية من الأرض في السهل الساحلي(٢)، وتبتعد نحو كيلومترين عن شاطئ البحر، وتحيط بها كثبان طويلة من الرمال من الشرق والغرب، وكان الطريق العام الساحلي وخط سكة الحديد يمران على مسافة قصيرة إلى الشرق منها، وكانت (حمامة) مبنية في موقع (تل مشقفة) الذي تبين بحسب مصدر بيزنطي يعود إلى أوائل القرن الخامس للميلاد، إنه موقع (بيلايا) نفسه – وهذا الاسم يعني (حمامة) باليونانية – وكانت تقع قرب الموقع معركة دارت بين الصليبيين والمسلمين في سنة ١٠٩٩م، وانتهت بانتصار الصليبيين، و(حمامة) هي مسقط رأس (أحمد الشافعي)، وهو فقيه مسلم مشهور وعلامة وواعظ في المسجد الأقصى في القدس، في سنة ١٥٩٦م، كانت (حمامة) قرية في ناحية غزة (لواء عزة)، فيها ٤٦٢ نسمة، وكانت تدفع الضرائب على الماعز وخلايا النحل، وأورد الرحالة المتصوف (البكري الصديقي) الذي مر بالمنطقة في أواسط القرن الثامن عشر، إنه زار قرية (حمامة) بعد أن غادر (الجورة) – أنظر أيضًا الجورة، قضاء غزة – كان سكان القرية في معظمهم من المسلمين، وقد بنوا منازلهم في

موازاة الطرق المؤدية إلى القرى المجاورة، وهذا ما أدى إلى بروز نمط من البناء يشابه شكل النجمة بحيث كان مسجد ومدرستان ابتدائيتان: أحداهما للبنين أنشئت في سنة ١٩٢١م، والأخرى للبنات أنشئت في سنة ١٩٤٦م، وفي هذه السنة كان ما مجموعه ٣٣٨ تلميذًا مسجلاً في مدرسة البنين و٤٦ تلميذة في مدرسة البنات، وكان في القرية مجلس بلدي يُدير شؤونها المحلية، كان سكانها يزرعون تشكيلة واسعة من المحاصيل كالحبوب والحمضيات والمشمش واللوز والتين والزيتون والبطيخ والشمام، وبسبب كثبان الرمل، ولا سيما في الجهة الشمالية غرس السكان الأشجار في أجزاء من الأراضي لمنع تأكل التربة وزحف الرمال، وفي سنة ١٩٤٤/١٩٤٥م، كان ما مجموعه ٩٦١ دونمًا مخصصًا للحمضيات والموز، و٢٠٩٩٠ دونمًا للحبوب، و ٤٣٢٥ دونمًا مرويًا أو مستخدمًا للبساتين، وبالإضافة إلى الزراعة كان سكان القرية يعملون في صيد الأسماك، وكانت المنطقة المجاورة لـ (حمامة) تزخر بالمواقع الأثرية الماثلة للعيان، وكانت تضم فيما هو موجود (خربة خور البيك) وخربة (الشيخ عوض).



٢-٣ احتلال القرية وتطهيرها عرقيًا.

تفيد التقارير التي نشرتها صحيفة ((فلسطين)) أن (حمامة) جُرّت إلى الحرب من خلال عدد من الضربات الخاطفة التي بدأت في كانون الثاني/يناير١٩٤٨، ففي ٢٢ من ذلك الشهر، هاجم أفراد من سكان مستعمرة (نتسانيم) المجاورة مجموعة من فلاحي القرية كانت تعمل في الحقول بين (حمامة) و(أسدود)، وأسفر الهجوم، بحسب ما ورد في التقارير عن جرح ١٥ عاملاً عربيًا، منهم اثنان في حالة الخطر، وبعد ذلك التاريخ بيومين، فتحت وحدة أخرى من المستعمرة نفسها النار على سكان من (حمامة) فقتلت هذه المرة واحدًا، وجرحت آخر، وفي الشهر اللاحق، في ١٧ شبا/فبراير أطلقت النار على مجموعة من سكان القرية كانت تنتظر الباص على الطريق العام بين (حمامة) - (أسدود) فجرح اثنان، وجاء في صحيفة ((فلسطين)) أيضًا، أن المهاجمين عادوا إلى مستعمرة نتسانيم.

كتب المؤرخ الإسرائيلي (بني موريس) يقول إن القرية احتلت في المرحلة الثالثة من عملية (يوآف)، التي قام الجيش الإسرائيلي بها – أنظر بربرة، قضاء غزة – في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر، ومع بداية هذه العملية تجمع في (حمامة) كثيرون كانوا ضحية هجمات عسكرية أخرى شُنت في الأشهر الماضية، فقد تعرضت بلدة (أسدود) المجاورة – وهي على بعد ٥ كيلومترات إلى الشمال – لقصف بحري وجوي عند بداية عملية (يوآف) وسقطت في يد الإسرائيليين في المرحلة الثالثة من العملية، وجاء في صحيفة (نيويورك تايمز)، في عددها الصادر بتاريخ ١٨ تشرين الأول/أكتوبر، إن قاذفات سلاح الجو الإسرائيلي حلقت – من دون عائق تقريبًا – نحو أهدافها طوال ثلاث ليال متوالية، وإن

هذه الأهداف كانت تشمل (أسدود)، وقد فر معظم السكان الباقين مع وحدات الجيش المصري المنسحبة قبل دخول الإسرائيليين في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر.

في المرحلة الثالثة من عملية (يوآف) استغل النجاح في المراحل السابقة لاحتلال المزيد من الأراضي، فقد تم الاستيلاء على القبيبة (قضاء الخليل) و(حمامة) في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨ تقريبًا، واستنادًا إلى (موريس) اتسمت المرحلة الثالثة هذه بـ (الفرار من الهلع) وبـ (بعض عمليات الطرد)، وعندما دخل لواء (يفتاح) قرية (حمامة) وجدها ملآنة باللاجئين من (أسدود) وغيرها بحسب ما جاء في تقرير وحدة الاستخبارات فيه، ويضيف (موريس): "وقد فر من بقي من سكان (حمامة)،واللاجئين إليها، نحو الجنوب بعد انتصار الجيش الإسرائيلي، أو إن الجنود شجعوهم على الفرار أو أمروهم بالفرار". وقد ارتكبت مجزرة غير معروفة على نطاق واسع وهي من كبرى مجازر الحرب، خلال هذه المرحلة، في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨، في قرية الدوايمة – في قضاء الخليل، وعلى بعد ٢٥ كيلومترًا إلى الشرق – ويقول (موريس): إن هذه المجزرة تسببت بفرار الكثيرين من سكان المنطقة.

ما تبقى من قرية (حمامة) (٣) اليوم:

لم يبق أثر من منازل القرية، ولا من معالمها، وتغطي الموقع النباتات البرية، ومنها الأعشاب الطويلة والعوسج والعليق، فضلاً عن نبات الصبار، أما الأراضي المجاورة فمتروكة غير مستعملة.

٢-٤ المستعمرات الصهيونية التي أقيمت على أراضي القرية.

في الأربعينات أقيمت متسعمرتان إلى الشمال الشرقي من القرية على أراضيها مع أنهما غير قريبتين من موقعها وهما: (نتسانيم) (١١٥١٢٥) في سنة١٩٣٤م، و(نتسانيم كفار هنوعر)(١١٥١٢٧) في سنة ١٩٤٩م، وبنيت مستعمرة (بيت عزرا) (١١٧١٢٧) على أراضي القرية في سنة ١٩٥٠م، كما أقيمت مزرعة تدعى (إشكولوت) (١١٧١٢٤) على أراضي القرية في الخمسينات.

تقع بلدة (حمامة) في الجنوب الغربي من ساحل (فلسطين) بين مدينة (المجدل) وبلدة (أسدود) القريبتين، فهي على بعد كيلومترين من شاطئ البحر، وعلى مسافة ثلاث كيلومترات شمال مدينة (المجدل)، وعلى بعد واحد وثلاثين كيلومترًا أو كذلك إلى الشمال الشرقي من مدينة (غزة) قريبًا من الخط الحديدي ومن طريق (يافا - غزة) الساحلي، وكانت (حمامة) تتبع قضاء (المجدل) (عسقلان) لواء (غَزّة) وذلك حسب تقسيم الانتداب البريطاني ل (فلسطين) إلى ألوية، كان يمر شرقي البلدة على مسافة خمس كيلومترات أنبوب نفط إيلات (إيلات - أسدود)، وكانت تربط (حمامة) بالطريق الرئيسية الساحلية طرق ثانوية، وكانت بواسطة هذه الطرق ترتبط أيضًا بمحطة السكة الحديدية وبـ (المجدل) وبشاطئ البحر، كان يحدها من الغرب كما بينا شاطئ البحر الذي يمتد من حدود بحر (المجدل) جنوبًا إلى حدود بحر (أسدود) شمالاً على طول ستة كيلو مترات، وكان يحدها من الجنوب أراضي مدينة (المجدل) أي من شاطئ البحر غربا إلى حدود أراضي قرية (جولس) في الشرق على طول ستة كيلو مترات أيضًا، وكان يحدها من الشرق أراضي بلدة (جولس) الممتدة من الجنوب إلى الشمال حتى أراضي قرية (بيت

دراس) على طول ستة كيلو مترات أيضًا، ومن الشمال كان يحدها أراضي قرية (أسدود) و(بيت دراس) على طول ستة كيلو مترات من الغرب حتى حدود (جولس) الشمالية.

تقع أراضي بلدة (حمامة) على شكل مربع من الأرض تقريبًا طول كل ضلع ستة كيلو مترات، أي ست وثلاثين كيلو مترًا مربعًا، أي ما يعادل ست وثلاثين ألف دونمًا، وفي دراسات أخرى فإن إجمالي أراضي (حمامة) هو ما يزيد عن واحدٍ وأربعين ألف دونمًا حتى عام ١٩٤٨م (الموسوعة الفلسطينية)، وربما بسبب تغير الملاك وتداخل أراضي البلدات في المنطقة، أما التضاريس فقد كانت على الشكل التالي، الأرض المحاذية لشاطئ البحر رملية بعرض كيلو مترين أي من شاطئ البحر وحتى حدود بيوت البلدة من جهة الغرب، كان يحيط أيضًا ببيوت البلدة أراضي تسمى أرض (الحواكير) على شكل شريط بعرض نصف كيلو متر تقريبًا، و(الحواكير) هو جمع حاكورة، والحاكورة كما كان يسميها أهالي (حمامة) ومن هم على شاكلتهم من أهالي البلدات الأخرى هي عبارة عن بستان صغير أرضه خصبة بسبب جودة تربتها التي كانت تدر محصولاً جيدًا من الخضروات أو الفواكه لتجاوبها مع مياه الأمطار الموسمية التي كانت تسقط في المنطقة شتاء، هذا، وهناك في (حمامة) أراضي مرتفعة نسبيًا، وهناك السهول أيضًا مثل سهل (بلاس) وسهل (معصبا) وسهل (بَشا) وسهل (أُم رياح)، وهذه كلها أسماء لمناطق من أراضي بلدة (حمامة) الخالدة، كانت توجد أيضًا المنخفضات أهمها بركة (حمامة) الجنوبية بين (المجدل) و(حمامة)، والبِركَة الشمالية بين أرض (الحواكير) و)(لحريرية)، و(الحريرية) هو أيضًا اسم لمنطقة من الأراضي الزراعية في بلدة (حمامة)، وأما البِركة فقد كانت عبارة عن مساحة أو منطقة من الأرض لا يستهان باتساع مساحتها- ما يعادل مساحة عدة ملاعب كرة قدم - كانت تتجمع فيها مياه الأمطار ويزداد منسوبها في فصل الشتاء وكان ينخفض في فصل الصيف، أما الوديان التي تمر في أراضي (حمامة) وكان أهمها وادي (حمامة) الذي كانت

تأتي مياهه من مرتفعات (المجدل) مخترقًا أرض البركة الجنوبية التي أشرنا إليها، وكان يفصل غرب البلدة عن شرقها خصوصًا في فصل الشتاء، ووادي (الجُرَيبة) الذي كان يأتي من الجنوب من مرتفعات بلدة (عراق السودان) و(جولس) مخترقًا السهول الوسطى متجها إلى الغرب، حيث كان يلتقي مع وادي (حمامة) القادم من الجنوب مكونان معًا وادي كبير نسبيًا ويصب في البحر عند مستنقعات (الأبطح)، و(الأبطح) هو اسم اكتسب من القبيلة العربية (الكنانية) الموجودة في (الأبطح) في الحجاز، التي سكنت تلك المنطقة في الزمن الغابر عند مصب وديان (حمامة) لتنعم على ما يبدو بوفرة المياه (كتاب (حمامة)، عسقلان).

يقول الحاج (حسين حسن محمد أبو صفية) عن اسم ومنشأ بلدة (حمامة) تاريخيا: "أفادونا بعض المعمرين عن معلومات متواترة أن الاسم هو إسلامي الأصل حيث كان المكان يسمى (وادي الحِمى) لأن الجيوش الإسلامية التي كانت تحاصر مدينة (عسقلان) الرومانية كانت تعسكر على ضفتي الوادي (وادي حمامة)، وكانت من هذا المكان تكر على (عسقلان) لمحاربة الرومان، وتفر لهذا المكان حيث الماء والدفء، وفي هذا المكان كان يدفن شهداء المحاربين، وأما المؤرخين المستشرقين فقد قالوا إن الاسم هو روماني الأصل".

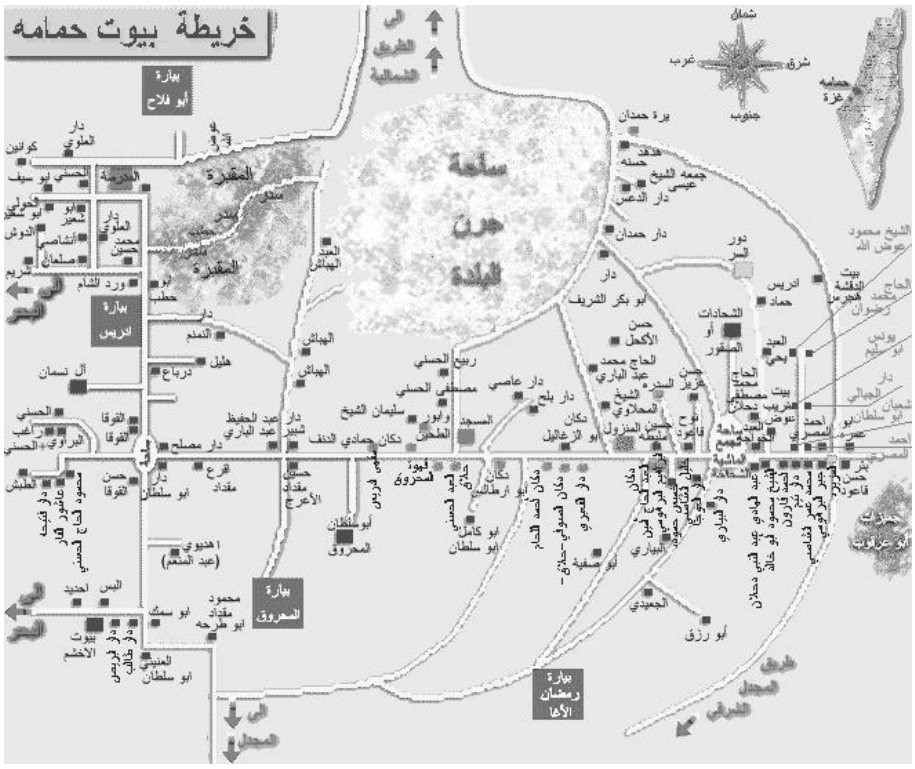
بنيت بيوت البلدة في موقع قرية يونانية عرفت باسم (باليا) بمعنى (حمامة)، ولذا اكتسبت (حمامة) أهمية سياحية لوجود الخرائب الأثرية حولها بشكل غير عادي، وربما تعود هذه الآثار إلى عهود ما قبل اليونانيين، حيث إن الفلسطينيين الأوائل أقاموا عند الساحل ما بين (غَزّة) و(أسدود)، هذا، وإن بيوت البلدة قد أقيمت على منبسط سهلي يرتفع قرابة ثلاثين مترًا فوق سطح البحر، وكانت تحف بهذا الموقع من الشرق ومن

الغرب تلال رملية طولية مزروعة يبلغ ارتفاعها خمسين مترًا فوق سطح البحر، هذا، ولماذا لا تتم المزاوجة بين ما يقوله العرب المسلمين عن أصل التسمية لبلدة (حمامة) بـ (وادي الحِمى) وما يقوله المستشرقين على أنها تعود للتسمية اليونانية (باليا) بمعنى (حمامة)، لأن الاسم اليوناني الذي يستند إلى أسطورة كما ذكر (خليل حسونة) في كتابه (حمامة، عسقلان) لا يتعارض من مفهومنا المتواضع مع الصفة (وادي الحمى) الذي أطلقه المسلمون على المكان، فهناك ظروف مختلفة في كل نواحيها بين الطرحين وكما يبدو لنا فقد أعطت معنى مغايرًا لنفس الاسم (حمامة)، إلا أنه اسم لا يسيء بكل معانيه بل يزيد في نقاء اتصالنا بهذه الأرض ويؤكد بأننا بكل المعاني نستحق وبفخر أن نكون ورثة هذا المكان الذي يسمى (حمامة).

عن الأسطورة اليونانية يقول (خليل حسونة)٤ ناقلاً عن المؤرخ (مصطفى مراد الدباغ) في كتاب (بلادنا (فلسطين)) إن أصل الأسطورة تقول: "وكذلك ظهرت في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد الملكة (سمورامات) في نحو "٨١١-٨٠٨" قبل الميلاد، التي كان لها شأن كبير في عالم الأساطير، اشتهرت باسمها اليوناني (سميراميس) المحرف عن اسمها الأشوري، واعتبرها اليونانيون بمثابة إلهة، ونسبوا إليها كثير من الأعمال الجليلة، وذكرتها الأساطير الواردة في المصادر الإغريقية بأنها كانت ابنة آلهة نصفها سمكة والنصف الآخر حمامة، وأن عبادتها كانت منتشرة في (عسقلان) الفلسطينية.
بعد أن ولدت تلك الآلهة ابنتها (سميراميس) تركتها في ناحية (عسقلان) فأخذها الحمام وصار يرعاها، ثم عثر عليها كبير رعاة الملك فرباها، ولما كبرت تزوجها الملك، والاسم (سمورامات) مركب من كلمتين "سمو" معناها حمامة و"رامات" ومعناها المحبوبة فيكون معناها اسم (الملكة محبوبة الحمام)، وما يسترعي الانتباه بهذا الصدد أنه كانت تقع

على مسافة أربعة أميال للشمال من (عسقلان) قرية يونانية تعرف باسم بمعنى (حمامة) واليوم أو حتى عام ١٩٤٨م تقوم قرية (حمامة) على بقعة بتسميتها اليونانية".
ولـ (حمامة) كانت أهمية اقتصادية أيضًا لكبر مساحة الأراضي الزراعية التابعة لها، حيث كانت الأكبر بين قرى المنطقة الساحلية من ناحية عدد السكان وملكية الأراضي الزراعية، وكان لعنب (حمامة) شهره في (فلسطين).

وتعود أهمية (حمامة) الزراعية أيضًا لأنها تمتد وسط منطقة يُزرع فيها الحمضيات والعنب والتين والزيتون والمشمش واللوز والجميز والبطيخ ومختلف أنواع الخضار والحبوب، وبسبب ملاءمة المناخ لزراعة الحمضيات في (حمامة) فقد اهتم أهاليها بزراعة الحمضيات أو ببساتين البرتقال التي كانوا يطلقون على مفردها (بَيّارة) وجمعها بيارات، وحتى عام ١٩٤٨م كان أهالي (حمامة) يملكون ما ينيف عن عشرين بيّارة برتقال، كانت الزراعة تشتمل أيضًا على الأشجار الحرجية التي زرعت لتثبيت الرمال والحد من زحفها، وتجدر الإشارة إلى أن مساحات واسعة من الكثبان الرملية (البرص) كانت تمتد شمالي (حمامة) بين وادي (أبطح) ووادي (صقرير) و(سكرير)، وكون (حمامة) كانت تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ولكبر عدد سكانها فقد كان قطاع لا يستهان به من أهلها يعملون بصيد السمك.



مخطط تقريبي لبيوت بلدة (حمامة) سنة ١٩٤٨م(١٨)

كان يتخذ مخطط بيوت (حمامة) شكل النجمة بسبب امتداد العمران على طول الطرق التي كانت تصل قلبها بالقرى والبلاد المجاورة، ويظهر نموها العمراني واضحًا في اتجاه الشمال والشمال الغربي، وقد بلغت مساحتها في أواخر عهد الانتداب البريطاني مائة وسبع وستين دونمًا (العمران)، وبلغت مساحة الأراضي التابعة لها نحو ٤١٣٦٦ دونمًا، حيث إن قرية (حمامة) تعتبر من البلدات المصنفة بكثرة سكانها عن باقي قرى الساحل الفلسطيني، وكان في النية تحويل مجلسها القروي إلى مجلس بلدي لتصبح مدينة لا قرية، لولا تغير الظروف وحدوث نكبة ١٩٤٨م، فقد وصل عدد سكان (حمامة) عام ١٩٢٢م إلى ٢٧٣١ نسمة، وفي عام ١٩٣١م بلغ عدد السكان ٣٤٠١ نسمة منهم ١٦٨٤ ذكور،

١٧١٧ إناث، كانوا يقطنون في ٨٦٥ منزلاً، وفي عام ١٩٤٥م وصل عدد السكان إلى ٥٠٧٠ نسمة منهم ٥٠١٠ عربًا و ٦٠ يهودًا، وفي عام ١٩٤٨م بلغ عدد سكان (حمامة) ٥٨١٢ نسمة، وفي عام ٢٠٠٠م يقدر إجمالي عدد سكان (حمامة) بما يقارب (٦٠٠٠٠) ستين ألف نسمة بافتراض أن العدد قد تضاعف على أقل تقدير عشر مرات منذ عام ١٩٤٨م، هذا، و كانت بلدة (حمامة) عبارة عن حارتين رئيسيتين أو جزأين يكونان بيوت البلدة، الحارة الغربية والحارة الشرقية، وسُميت هكذا لأن الوادي كان يفصلها، وكان عبارة عن مجرى لمياه الأمطار التي كانت تمر في هذا الوادي قادمة من جهة مدينة (المجدل) في الجنوب كما أشرنا، كان الوادي يمتلئ بالمياه في فصل الشتاء وإذا كانت الأمطار غزيرة كان يعيق سير الناس ودوابهم لساعات أو يوم أو لعدة أيام، خصوصًا وإنه كان يحد من تنقل السكان من الحارة الغربية إلى الحارة الشرقية أو العكس، كانت الحارة الشرقية هي الأقدم أو أساس البلدة، وكان فيها بشكل لافت للنظر الأسواق، وفي منتصف البلدة تقريبًا كان يقع مسجد (أبو عرقوب)، وهو اسم لأحد الصالحين القدامى الذين عاشوا في تلك الأنحاء والذي تحول ضريحه إلى مسجد يحمل اسمه، أما الحارة الغربية أو الجزء الآخر من البلدة، فقد كانت تعتدي بيوتها قليلاً على خط الرمال القريب من شاطئ البحر، وكانت الأحدث تقريبًا في عمر البناء.

٢-٥ نشاطات أهل قرية (حمامة) (٥).

اعتمد سكان القرية في طعامهم على ما تنتجه أرضهم من مواد غذائية بصفة عامة، إضافة إلى منتجات حيواناتهم، وقد زرعوا المحاصيل التي يحتاجون إليها لتأمين غذائهم مثل القمح والشعير والعدس وغيرها، هذا، وقد اهتم سكان بلدة (حمامة) كما البلدات الأخرى بصناعة ما يحتاجون إليه في حياتهم اليومية، ومن أهم هذه الصناعات:

١. صناعة (الشيد): الشيد مادة تستعمل في البناء، ومادة أساسية فيه وتعتبر في مقدمة الصناعات اليدوية في القرية قديمًا، والشيد يتكون من الحجارة الجيرية، حيث توضع في حفرة كبيرة يتراوح مساحتها ٤×٤م× عمق ٣م، حيث يتم وضع الحجارة الجيرية في الحفرة ويزداد سمكها مع الارتفاع حتى يتم سقفها باستثناء فتحة تترك كمدخنة وفتحة أمامية لرمي الحطب من أجل استمرار اشتعال النيران لتحويل الحجارة إلى شيد وقد تستغرق أربعة أيام، وعندما تصبح الحجارة محروقة وهشة يتم سحقها إلى دقيق ناعم يسمى بودرة الشيد.

٢. الغزل والنسيج: يتم غزل الصوف ونسجه وعمل المزاود والملابس والطواقي منه والكنف لحفظ الخبز.

٣. صناعة القِرَب: تصنع من جلود الأغنام والماعز، وكذلك الدلو لاستخراج الماء من الآبار لشرب البشر وسقاية الماشية.

٤. صناعة الصوامع من الطين والتراب: لخزن الحبوب والطحين والذرة.

٥. طحن الحبوب: كان يوجد في القرية مطحنة واحدة لطحن الحبوب – القمح والشعير والذرة – وعرفت بـ (وابور الطحين)، كذلك استخدمت الرَحَى لطحن القمح ومرش العدس.

٦. عمل الصواني والأقداح: من قش القمح، حيث يتم صبغه بالألوان ويوضع عليها الخبز.

٧. صناعة الدبس: حيث يتم إحضار العنب ووضعه في معصرة – حفرة في الصخر لها قناة توصل إلى تلك حفرة المنخفضة – ثم يجمع الماء المعصور ويوضع في قدر من النحاس بعد إزالة الشوائب منه ثم توقد النار تحته لمدة عشرة ساعات.

٨. صناعة البندورة الجافة: يتم جمع البندورة وتشق الحبة إلى نصفين ثم يوضع عليها الملح وتعرض للشمس، وبعد أسبوع تجمع وتستخدم كغذاء في فصل الشتاء.

٩. صناعة الزبيب والقطّين: يوضع العنب على الأرض لمدة أسبوع ليصبح زبيبًا ثم يجمع ويخزن، أما القطّين فيتم جمع ثمار التين ويجفف على الأرض لمدة أسبوع وأحيانا يظل على الشجر حتى يجف ثم يُجمع.



٢-٦ الأدوات المستخدمة في بيوت القرية(٦).

في المطبخ.

١. الزبدية: يوضع فيها الطبيخ واللبن، وهي مصنوعة من الفخار.
٢. بالإضافة إلى السكاكين، وصحون الفخار/صحن أبو عشرة، والأواني النحاسية، والمقالي النحاسية، والمغرفة الخشبية، والمنخل لنخل الدقيق والمفراك لتحريك الطبيخ وهو على النار.
٣. القور أو القوَّار: وهو عبارة عن وعاء واسع عالي الأطراف مثقوب من الأسفل بثقوب بمقدار سمك الإصبع ويستعمل لإنضاج المفتول على البخار على فوهة طنجرة بها ماء يغلي وفي الغالب كان يصنع من الفخار.
٤. القدرة: وكانت في بداية استعمالاتها من الآجر أو الطين المشوي/الفخار وما لبث الإنسان أن صنعها من النحاس، وهي وعاء ذو قاعدة عريضة وأسطواني الشكل تقريبًا، ولها فوهة إلى أعلى وتستعمل لأغراض الطبخ.
٥. الباطبة: وهي المنسف فيما مضى وكانت تصنع من الخشب وهي كالقصعة واسعة يأكل منها ثلاثون رجلاً أو أكثر وهي للضيوف غالبًا والمناسبات الكبرى.
٦. الدست: حلة كبيرة من النحاس تتسع لحوالي ٤٠ جالون حجمي، تستخدم في طبخ الأرز واللحم في المناسبات الكبيرة أو طبخ الدبس بكميات كبيرة أيضًا.
٧. الأنجر (بتخفيف الجيم): وعاء من النحاس مسطح فتحته من أعلى أوسع من قاعدته ويستعمل في المناسبات للأرز واللحم ويجلس حوله عدد من الأفراد.



أدوات الشرب(٧)

١. الكوز: إبريق كبير من الفخار.

٢. السعة والقربة: وعاء جلدي ينقل به الماء، كما ويستخدم لحفظ الماء به في البراري.

٣. الإبريق والكراز: من الفخار ولكل فتحتان فتحة لتعبئة الماء وأخرى للشرب منه وهو أصغر ويسمى (بعبوز) بينما الكراز أضخم من الإبريق مرتين.

٤. الزير: وعاء لجمع الماء يتسع لحوالي تنكتين وهو من الفخار له قاعدة ليست واسعة لذلك يوضع في تنكة لتتسع قاعدة الارتكاز وله فوهة واسعة بقطر ٢٠سم وهو للماء ويؤخذ الماء منه بالطاسة/الكوب.

٥. الجرة: وهي قريبة من شكل الزير لكنها أكثر اتساعًا وتصنع محليًا من طين الصلصال وقليل من التبن الناعم/الفروح ثم تشوى بالنار فتتحول إلى صلصال يابس وهي للماء.

٦. الزبدية: صحن من الفخار ذو حافة عريضة.

٧. الشربة: وعاء من فخار له عنق إلى أعلى وفتحة واحدة ومنها الملون.

الأدوات التراثية المختلفة(٨).

١. السكة: وهي المحراث البلدي الذي تجره الدواب.

٢. النير: عود غليظ بقطر حوالي ١٥سم وبطول متر ونصف أسطواني الشكل ينبعث من كل طرف له ثقبان، مثبت في ثقب عود بسمك ٥ سم يسمى كل واحد (مغزلاً)، وظيفته الإحاطة برقبة الدابة للحراثة من أعلى الرقبة ويربط طرفي المغزلين (بالشباق) من أسفل رقبة الدابة ويستند على كتفي الدابة على مخدة تسمى (حواة).

٣. المنساس: عود طويل قد يتجاوز المترين من عيدان البلوط الباسقة المستقيمة وأسفله قطعة حديدية مثلثة الشكل مغلقة لحث الدابة على السير.

٤. البرذعة: شوال من الخيش نصفه على اليمين والآخر على اليسار ومن منتصف عرضه يكون أعلى البرذعة، وربما يحتاج إلى شوالين، ويحشى بالقش ثم يغلف بقماش الشوادر ويلقى على ظهر الدابة ومن أعلى البرذعة من جهة الأمام يعلوها حشوة كبيرة تسمى الكرسي وتثبت على ظهر الدواب بحزام يلف بطن أو بقشاط جلدي، ولها مثبتان من خلفها تتصل بمؤخرة الدابة خوف انزلاقها على رقبة الدابة أثناء المشي نزولاً، وتسمى هذه التثبيتة الخلفية (الحياصة).

٥. الرَّسَن: ما يربط به الدابة من حبل/المصيص أو سلسلة حديدية تنتهي بحديدة على شكل حرف T ومربوط على فكي الدابة ورأسها وذلك لكي يمسك الراكب به ويوجه الدابة أو يقودها أو يربطها أثناء عمله أو في البيت.

٦. الخُرج: شوال مفتوح من وسطه عرضًا ويتدلى عن يمين ويسار الدابة لوضع أغراض فيه، ويكون من النوع الممتاز عندما يغزل من الصوف بأصباغ متعددة فيعلق على ظهور الخيل أو الحمير.

٧. اللّجام: قطعة معدنية توضع في فم الدابة يتصل طرفاها بحبلين أو قشاطين متصلين إلى أيدي الراكب، وذلك لكبح جماح الدابة إذا أسرعت أو أثناء العدو لتوجيهها أو إيقافها، وهو بمثابة المقود في السيارة.

٨. الكمكامة: شبكة من أسلاك سمك ٢ملم توضع حول فم الدابة وتربط بحزام مع رأس الدابة لئلا تأكل أثناء الحرث أو الدرس أو العمل لئلا تتلهى في الأكل فتقل مهارتها.

٩. الدلو: وهو نوعان: نوع لانتشال الماء من البئر يتسع البعض لخمسة لترات والبعض عشرة لترات وله علاقة لربط الرشاء به وهو مصنوع من إطار المطاط الداخلي للسيارات، وقد استعمل حديثًا بعد صناعة الكاوتش وكان في السابق من التنك أو المعدن.

١٠. السطل: هو دلو من المعدن أسطواني الشكل قاعدته أقل قطرًا من فوهته وله علاقة متحركة من المعدن ويستعمل للنشل من البئر ونقل الماء من مكان لمكان في مسافة قصيرة.

١١. المغزل: لغزل الصوف أو الوبر أو الشعر وعمل طبب جاهزة للنسيج.

١٢. البشت: الكلمة مستهجنة وربما تكون تركية مثل كلمات كرباج وقشاط وطربوش وغيرها، وهي تعني البردة أو العباءة من الوبر أو الصوف أو الشَّعر.

١٣. الشطانية: كيس كبير يحمل بع التبن.

١٤. الدقران: عود من حطب الأشجار المتينة كالبلوط وفي نهايته مشط من أربعة قضبان معدنية طول كل واحد خمسة وعشرون سم شبه منحنية ويستعمل لجمع القش والزرع.

١٥. المذراة: وهي مثل الدقران لكن المشط من أصابع من خشب لتذرية القش بعد درسه على البيادر.

١٦. لوح الدرس: لوح ثقيل وبه مسامير ومناشير من الأسفل تجره الدواب فوق المحصول لدرس القش حيث يجلس عليه الرجل للضغط عليه.

١٧. الكربال: لتنقية القمح من الشوائب على الجرن وهو كالغربال لكن ثقوبه أوسع والمسراد أوسعها، ويصنع من أمعاء الأغنام الجافة.

١٨. الغربال: وهو لغربلة القمح أو العدس أو الذرة مسافات ثقوبه قريبة تسمح بمرور الشوائب الصغيرة ويصنع نسيجه من أمعاء الأغنام المجففة.

١٩. المنخل: إطار خشبي وداخله من سلك معدني منسوج بدقة وهو لتخليص الطحين من الشوائب.

٢٠. المغرفة: على نظام الملعقة لكنها كبيرة الحجم ولها ذيل طويل وهي من الخشب المتين كالبلوط وتستعمل لتحريك الطعام ووضعه في صحون.

٢١. الطوس: وعاء من الفخار لحليب الأغنام وله فتحة من الأعلى ومقبضين من جهتين متقابلتين.

٢٢. المنشلة: أكبر من القطوسة وهو للحليب ومصنوع من الفخار أيضًا.

٢٣. الطباخة: وهي من الفخار الأسود وصناعتها في (غَزّة) على الأغلب وهي بمثابة وعاء لنقل الطبيخ من مكان لآخر كالخلاء مثلاً.

٢٤. الطابون: يعمل الطابون من الطين الصلصال مع الفروح وله قاعدة واسعة تتسع لخمسة أرغفة ثم يبدأ بالانحسار حتى يتماسك بفوهة بمقدار دائرة الرغيف وبداخله الحصى ثم يكسى في البداية بوقود الحطب والتبن ثم يزبل الغنم والبقر فيحترق على سطحه من الخارج وله غطاء من الحديد ومقبض فيتكون في داخله حرارة كبيرة ينضج فيها العجين والمشاوي حتى اللحوم.

٢٥. المقحار: قطعة من الخشب مستطيلة بعرض ١٠سم لقحر/إزاحة النار عن سطح الطابون ووضع الزبل مكان النار ثم إزاحة بقايا الزبل ليحترق من جديد وهكذا.

٢٦. الطاحونة المحلية/الجاروشة: شقي من رحى حجر الجرانيت ينطبقان على بعضهما وفي وسط السفلي مسمار ثابت يشكل محورًا تدور عليه الرحى العليا حيث بها ثقب في الوسط وقطعة خشب بها ثقب ينزل به مسمار للسفلى والعليا مقبض قائم بارتفاع ٢٠ سم لإدارة الرحى العليا على السفلى ويوضع الحب الذي سيجرش من الثقب الأوسط وينزل من أطراف شقي الرحى ويستعمل لجرش البرغل والفريكة والعدس والكرسنة وكل الحبوب، وكانت فيما مضى لطحن الحب لعمل الخبز.

٢٧. المِرَقّ أو الشوبك: عود أسطواني الشكل من البلوط أو نحوه أملس بطول ٧٠سم تقريبًا لعمل رقائق العجين قطره حوالي خمسة سنتمترات.

٢٨.القربة: جلد ماعز أو الضأن كاملاً عدا الرأس مدبوغ وتم إغلاق أطرافه عدا الرقبة وله في إحدى يديه مقبض من الخشب وفي الرجل الموازية لها مقبض للمخيض (لفصل الزبد عن اللبن الرايب).

٢٩.القدح: وعاء واسع الفتحة بمقدار القاعدة وله حافة دائرية مصنوع من نسيج عيدان قش السنابل وسيقان القمح خاصة ومغطى من الخارج بجلد مدلوغ، وهو وعاء للكيل أو نقل الحبوب أو الخضار أو الفواكه ونحو ذلك.

٣٠.السل: يصنع من عيدان النباتات ذو قاعدة دائرية بقطر ١٥ سم وفتحة علوية تصل حتى قطر متر، ويستعمل لنقل الخضار والفواكه من الحقول.

٣١.المحماسة: وربما التسمية محرفة فهي مأخوذة من التحميص أي تحميص حب القهوة فيها على النار وهي من معدن متين بمقدار الصحن ولها يد طويلة كي تبعدها عن النار.

٣٢.الهُون: وعاء صغير من النحاس توضع به الأشياء الصلبة وله يد منفردة يُدَق بها ما بداخل الهون.

٣٣.البكرج: وعاء من نحاس قاعدته عريضة وله وسط أقل سمكًا من القاعدة وفوهته لها غطاء متحرك مثبت بمحور على الحافة وله فتحة للصب مستطيلة منحنية وهي لغلي القهوة ويحرص كل بيت أن يكون عنده واحدًا أو اثنين.

٣٤.الفردة: شوال كبير مصنوع من الصوف أو الشعر تتسع لأكثر من ١٥٠كغم من الحبوب وهي لنقل أو خزن الحبوب.

٣٥.الخوصة: سكين لها مقبض من عيدان محلية للاستعمالات المتعددة.

٣٦.موس الكباس:سكين يطوى في نصاب وهو مصنوع في الخارج ومنه موس النصراوي.

٣٧. الشبرية: خنجر له جراب "غمد" يوضع فيه طرفاه حادان ورأسه مدبب يستعمل للطعن والذبح أيضًا، ويحمله كل إنسان للدفاع عن النفس أو ذبح الأغنام عند الرعاة أو تقطيع عيدان أو غير ذلك.

٣٨. الطشت: ويدعى أيضًا "اللجن" ويستعمل لغسيل الملابس الكثيرة.

٣٩. السراج: وعاء من التنك يوضع به زيت أو كاز يخرج منه فتيل من فوهة علوية يستعمل للإضاءة ليلاً.

٤٠. المقلاع: خيطان من الصوف المغزول والمجدول بطول ٧٠سم إلى متر وفي نهاية كل خيط قطعة من الصوف أو المطاط مبسوطة يوضع بها حجر ويربط أحد طرفي الخيطين باليد ويبقى الآخر مقبوضًا جاهزًا للإفلات عند الحاجة وذلك لجمع الأغنام من بعد أو الصيد للطيور الكبيرة أو جرح وحش وقد دخلت كسلاح من أسلحة الانتفاضة الفلسطينية.

٤١. الفأس/الكزمة: وهي المعول لنكش الحقول ولها أشكال متعددة واستعمالات متعددة منها الفأس الكرامية، ومنها فأس البصل ومنها فأس القلابة ومنها القشاشية.

٤٢. القُفة: وتدعى المقطف أو القفير، من إطار السيارات الداخلية ولها مقبضان متقابلان وقاعدة عريضة وحافة عالية بارتفاع ٤٠سم لنقل الأتربة والحجارة ونحو ذلك، وهناك القفة المصنوعة من سعف النخيل وتستعمل للتسوق أو وضع الخضار كالبصل الناشف والثوم والبطاطس وما شابه فيها.

٤٣. الكريك: وهو الرفش لنقل التراب به في القلابة وجبل الطين.

٤٤. المجرفة/الطورية: لجرف التراب والتعبئة وجبل الطين والباطون، وما زال الكريك والمجرفة في كل مكان.

٤٥. الشرخ: ويسميه البعض وهو بلطة صغيرة ويد بطول ٥٠سم لتقطيع الخشب والعيدان.

٤٦. القدوم: لتهذيب الأخشاب لدى النجارين وتقطيع العيدان أو نحو ذلك ولضرب المسامير وخلعها من أماكنها ويعمل كالعتلة.

٤٧. المنشار: لنشر الأخشاب وتقليم الأغصان الغليظة وهو أنواع منها: منشار النجار ومنشار البناء ومنشار تقليم الأغصان.

٤٨. مقص التقليم: أو مقص القنابة لتقليم الكرمة والأشجار ومقص الصوف.

٤٩. السحارة: صندوق من الخشب مفتوح من الأعلى مستطيل حوافه عالية يستعمل لنقل الخضار والفواكه من الخلاء للسوق.

٥٠. المَهَدّة: وهي كتلة من الحديد لها يد طويلة لتحطيم الحجارة الكبيرة والصخور.

٥١. الشاكوش: أداة للضرب على المسامير وتصحيح الأشياء المعوَجة من المعادن ولخلع المسامير ومنها شواكيش مغلقة ومنها مفتوحة أحد طرفيها عتلة لخلع المسامير.

٥٢. الصاج: صفيح من المعدن المبسوط قبابي الشكل لعمل الخبز في الخلاء حيث يوضع العجين أعلاه والنار من داخله إلى أسفل ويستعمل لصنع القلية/القمح المحمص.

٥٣. الخابية: وجمعها خوابي من الطين الصلصالي ودقيق التبن ولها فتحة من الأعلى وثقب من الأسفل يغلق عند التعبئة لخزن الحبوب والطحين وبعضها يتسع لحوالي أربع شوالات من الحبوب.

٥٤.الكانون: من الصلصال على ثلاث قوائم من الطين نفسه وله حافة لوضع النار فيه في الشتاء كموقد يجلس حوله الناس، وغالبًا ما يوضع فيه الفحم لئلا ينبعث منه دخان كثير ويستعمل للطبخ أيضًا.

٥٥.المجمرة: ومن اسمها يمكن أن يفهم استعمالها، يتم إشعال الحطب عليها حتى يصبح جمرًا، وتستعمل للتدفئة في أيام البرد.

٥٦.الشبابة: أسطوانية بقطر ٢سم بها ستة ثقوب يعزف عليها الرعاة.

٥٧.الأرغول/المزمار: وهو من القصب مزدوج أي من أنبوبين ولسانين ويحتاج إلى نفس مستمر يؤخذ من الأنف ويخرج من الفم إلى المزمار وله ستة ثقوب في كل أنبوب.

٥٨.الربابة: آلة الشعراء المحليين الموسيقية من الجلد ولها وتر من شعر الخيل وقوس به شعر أيضًا تصدر أنغامًا جميلة ويضعها الشاعر أمامه ويمسكها بيد والوتر باليد الأخرى ويعزف عليها مع الشعر.

٥٩.القالوش: أو المنجل لجمع الزروع في الحصاد ويطلق البعض عليه (سحلية) وهو على شكل نصف دائرة مسننة من الداخل وله مقبض من الخشب.

٦٠.المِسَلّة: من قضيب معدني بسمك ٣ملم ومثقوبة من جهة ومدببة من جهة أخرى وتستعمل لخرازة القرب وخياطة فوهات الشوالات بخيطان القنب المثنية وطولها ١٠سم.

٦١.الميبرة: إبرة طويلة تستعمل لتنجيد الفرشات والتلحيف.

٦٢.الفَخ: وهي أنواع منها فخ العصافير وفخ الحيوانات الكبيرة وكلها لغرض الصيد.

٦٣.السرج: أو الركاب ويوضع على ظهر الحصان أو الفرس لركوب الرجل عليه وحده ومثبت بحزام وله حافة من الأمام ومن الخلف.

٦٤.الحبال بأنواعها: وهي بحسب الأطوال فأطولها حبل الجمل وله عقدة للشد وحبل الدواب الأصغر، وحبل الرشاء لدلو الماء، وحبل الرباط الصغيرة ويسمى (المصيصة)، أو (السلبة) و(المرسة).

٦٥.المكحلة والمرواد: من النحاس، فأما المكحلة فهي وعاء يوضع فيه الإثمد أو الكحل، والمرواد أعواد من نحاس أملس يغمس في الكحل ويسحب داخل العين.

٦٦.المنصب: إطار دائري بقدر قاعدة الطنجرة يرتكز على ثلاث قوائم من الحديد بارتفاع ٢٥سم لإيقاد النار تحته في الطبخ وإعداد الشاي.

٦٧.السنارة: لنسج الصوف وعمل الطواقي والجرازي وهي إما مفردة أو مجوزة.

٦٨.الفرن الريفي: من الصلصال ويحمى بالحطب وهو على شكل طابقين الأرضي للنار والعلوي للخبز.

٦٩.الوتد: قطعة من الحطب بطول نصف متر وأقل لربط الخيمة أو بيت الشعر أو ربط الدواب.

٧٠.الكرباج: وهو السوط من الجلد للتلويح به للدواب لكي تسير وربما ضربها.

٧١.الفروة: لباس خارجي من جلود الضأن الصغيرة وهي ثلاثة أنواع: الخيالة والكبوت، والقصيرة الصدرية.

٧٢.القشاط: حزام من الجلد وله إبزيم مربط للرجال.

٧٣.المقرظة: أو المفرمة.. قطعة من الخشب لتقطيع اللحوم وفرم الخضار عليها.

٧٤.الطبنجة: وهي بندقية بدائية عثمانية الصنع تعبأ بالبارود في رأسها رصاصة أو قلة معدنية.

٧٥.اللامضة: قنديل يعمل على الكاز بفتيل ينغمس في وعاء زجاجي وفوق الشعلة شيشة لإخفاء السناج.

٧٦.الشمعدان: مثل اللامظة ولكنها أعلى منها وعلى قاعدة وعمود لرفعها والضوء إلى الأعلى.

٧٧.البريموس: أو البابور وهو صناعة حديثة نسبيًا ويعمل على الكاز بالضغط بالمضخة.

٧٨.اللوكس: مثل البريموس ولكن على رأسه كيس من القز أو الحرير، ليشع الضوء وهناك اللوكس اليدوي على البطارية الجافة.

٧٩.الرَّحل: برذعة الجمل.

٨٠.الترباس: قضيب معدني عبر مجرى لإغلاق الباب من الجدار.

٨١.الحصيرة: بساط من القش أو سيقان نبات الحصير الصحراوي وكانت تفرش به المساجد أيضًا.

٨٢.الطاسة: وعاء للشرب من الزير أو الجرة ويسمى أيضًا الكوب.

٨٣.الدبوس: عود من حطب البلوط أو السويد وله رأس كبير بطول نصف متر وأكثر وقطره ٤ سم، ويستعمل للدفاع عن النفس.

٨٤.السكرة: أو مغلاق الباب من خشب أو حديد ومفتاح كبير من الحديد أو الخشب، وهو عادة لباب الدار الخارجي.

٨٥.البومة: أداة قتال توضع في أصابع اليد والكف ذات رؤوس حادة، وهي من المعدن بنتوءات شوكية.

٨٦.الكلبك: طاقية يلبسها الرجل من نسيج غليظ مستطيلة من جهة الأمام والخلف.

٨٧.الطربوش: ومنه المغربي يغطي الرأس ذو ارتفاع متوسط ومنه الجوخ الأحمر أكثر طولاً.

٨٨.الجزدان (المحفظة): لوضع النقود فيه من الجلد ويطوى ثلاث مرات وله عدة جيوب.

٨٩.طاسة الطربة: صحن معدني صغير منقوش عليه آيات قرآنية يجلب من الحجاز يوضع فيها الماء لمدة ليلة تحت النجوم ويسقى منها الخائف والمضطرب.



٢-٧ اللهجة الفلسطينية(٩).

هي إحدى اللهجات العربية العامية تتبع طائفة اللهجات الشامية ويتحدث بها أهل (فلسطين) بشكل عام، هذا، وللهجات الفلسطينية الريفية أو الفلاحية مزايا وسمات

مختلفة كنطق القاف كاف تميزها عن باقي اللهجات العربية، أما لهجات المدن فهي بشكل عام شبيهة باللهجات الشامية الشمالية والوسطى.

أسماء الإشارة.

هذا: هادا، هاظا، هاضا.

هذه: هادي، هاظي.

هؤلاء: هدول، هظول، هظولاك، هدوله.

هنا: هون، هونة (المدن الفلسطينية، الشمال، الضفة). هان هانة (الساحل الفلسطيني) ما عدا القطاع وبعض قرى الداخل الفلسطيني.

هين، هينة (قطاع غزة).

الأسماء الموصولة:

الذي، التي، اللذان، اللتان، الذين واللاتي بطريقة واحدة وهي: إللي.

ضمائر المتكلم:

أنا، أنا، أَنتَ، أِنتَ، إِنِتْ، أَنتِ، إِنتِ، أنتم، أنتو، أنتم، أنتو.

الضمائر المتصلة، تدمج هذه الضمائر مع الفعل الذي قبلها:قلت له، ألتلّو، قلتلو، كلتلو، كتبت لها، كتبتلاً، كتبتلها، قلت لكم/لكما، ألتلكم، قلتلكم، كُلتلكُو.

أدوات الاستفهام:

لماذا، ليش، لشو، عشان شو.

ماذا، شو، إِيش.

كيف، كِييف، كِنف.

متى، إيمتى، ايميتين.

أين، وين.

من، مين.

طريقة لفظ الحروف والكلمات.

هناك بعض المناطق التي يقوم أهلها بقلب القاف إلى كاف، ومن هذه المناطق: (طولكرم، جنين، قلقيليا، المجدل)، وبعض قُرى (يافا) ومن أمثلة هذه الكلمات:

قلم، كلم.

قديم، كديم.

قلقيلية، كلكيلية.

كما أن بعض المناطق يقوم أهلها بقلب القاف إلى جـ أو كـَ، ومن هذه المناطق: قرى الخليل والرملة وبعض قرى يافا، غزة، دير البلح، رفح، ومن أمثلة هذه الكلمات:

قلم، جلم.

قم، جم.

قال، جال.

وتوجد بعض المناطق في (فلسطين) يقوم أهلها بقلب القاف إلى (أ) مثل: المدن الفلسطينية مثال: (القدس، نابلس، جنين طول كرم، الخليل، رام الله، بيت لحم، حيفا، صفد، طبريا، عكا، يافا، اللد)، ومن أمثلة هذه الكلمات:قريب، أريب.

عتيق، عتيئ.

قم، أُوم.

كما أن هناك بعض المناطق الفلسطينية التي يقوم أهلها بقلب الكاف إلى ش مثـل: منطقـة رام الله والمناطق المحاطة بها:

كلب، تشلب.

كرسي، تشرسي.

قال، تشال.

وهناك بعض المناطق الفلسطينية التي يقوم أهلها على القاف العربيـة مثـال: قـرى شـمال (فلسطين) مثال بعض قرى صفد و حيفا، ونادرًا يقلبون حرف القاف إلى غين إذ يقال:

غير قادرة: مش غادرة.

هناك مفردات متداولة في أغلب مناطق (فلسطين) ولكن تختلف من حيث التشـكيل، إذ يُضم الحرف الثاني في بعض المناطق مثل نـابلس أو يُجـر في منـاطق أخـرى مثـل صـفد، الأمثلة على ذلك:الفرن: فرُن، فرِن.

حُمْر: حُمُر، حُمِر.

الصبْح: صُبُح، صُبِح.

خبز: خُبُز، خُبِز.

كما أن هناك اختلاف بسيط في نطق الكلمات، كما أن هنـاك بعـض المنـاطق يجـرون نهايـة الكلمة مثل: منطقة الضفة الغربية، القدس، الرملة و (فلسطين) ٤٨م، ومن أمثلـة هـذه الكلمات:طاولة، طاولي.

حلوة، حلوي.

موزة، موزي.

وهناك بعض المناطق ينطقون الكلمة كما هي، أي بفتحها لا بجرهـا مثـل: (قطـاع غـزة، الرمال، بير السبع) وأمثلة هذه الكلمات:الكرسي الكبير، كنباَ.

طاولة، طاولةَ.

حلوة، حلوةَ.

في منطقة (غَزّة) مثلاً يستخدمون بعض الألفاظ المصرية مثل:إديني، بمعنى أعطيني: كده، هكذا.

كما أن المناطق الفلسطينية تختلف في وصف الوقت الحالي مثال:

هسا، هسع، هسعيات (في مناطق الضفة الغربية).

أسا. في شمال (فلسطين) مثال قضاء صفد.

ألحين. مثال معظم قرى الساحل الفلسطيني ما عدا قضاء غزة.

هلقيت. أو هلجيت في قطاع (غَزّة).

هلأ. بعض المدن الفلسطينية.

هأييت. الخليل.

طريقة لفظ الحروف الأخرى:

قلب الهمزة إلى ياء:

مائل، مايل.

ملائكة، ملايكة.

قلب الهمزة إلى واو:

أذن، وذن.

أين، وين.

قلب حرف الظاء إلى حرف الضاد:

الظهر، الضهر.

الظفر، الضفر.

قلب حرف الظاء إلى حرف الزين:

ظاهرة، زاهرة.

ظريف، زريف.

قلب حرف الذال إلى حرف الزين:

أستاذ، استاز.

مذلة، مزلة.

قلب حرف الذال إلى حرف الظاء:

هذا، هاظا.

قلب حرف الذال إلى حرف الدال:

هذا، هادا.

قلب حرف الثاء إلى سين:

آثار، اسار.

ممثل، ممسل.

قلب حرف السين إلى حرف الصاد:

رأس، راص.

فستان، فصطان.

قلب حرف الضاد إلى ظاء:

ضرب، ظرب.

ضبع، ظبع.



كلمات تستخدم في البيت الفلسطيني:

الديوان: المجلس.

السكمبلة: الطاولة الصغيرة.

الشحَّاطة: الكبريتة.

الكرته: أداة تساعد في لبس الحذاء.

مغرفة: أداة لسكب الطعام.

كفكير: لسكب الشوربة.

شزلون: كنباية.

الخوصة: السكين.

خاشوقة: الملعقة.

كلمات تستخدم في المزرعة الفلسطينية:

الكريك: أداة لنقل الرمل.

الصومعة: غرفة كبيرة مصنوعة من الطين اللبن لصنع الطحين.

قلم المشمش: شجرة المشمش.

الشنشرة: أداة لقص الحشيش.

الحاكوره: قطعة أرض تحاط بسياج لمنع دخول الحيوانات.

الكرم: مزرعة العنب والزيتون.

البيَّارة: مزرعة الحمضيات.

الجرن: مكان تجميع الشعير والقمح.

سطل: دلو.

الطورية: أداة للزراعة.

الكلمات الشائعة في (فلسطين) :

فلوس/مصاري.

حذاء/كندرة.

ملابس/أواعي أو حوايج.

أخي/يا خي أو خيا.

أختي/يختي أوخيتا.

أمي/يمَّه.

أبي/يابه.

قوي/أبضاي.

قوية/متينة.

الآن/هلَّأ هلئيت.

الكلمات التي تعود إلى أصل أجنبي:

العمولة/كومسيون.

كنابه/شزلون.

إسعاف/أمبلنس.

صيدلية/فرمشيه.



حنين "قصيدة"(١١)

يا طير يا مسافر على (حمامة)

سلملي على الأحباب

ووزع عليهم شوقنا من غير حساب

وخبرهم يا طير عن أحوالنا

وغربتنا وأسباب الغياب

وبشرهم لا بد يوم نعود

وتلبس (حمامة) ثوب الفرح

بجمعة الأحباب

***

يا طير يا مسافر سلم على الكروم
سلم على التينات والعنبات
وما تنسى التوتة السمرة
اللي ما كان منها في حدا محروم
سلم على الشجرات شجرة شجرة
واحكيلهم طول ما جذورك في الأرض ثابتة
راح نضل شامخين وعزنا راح يدوم
***
يا طير باحملك سلامنا
لجدنا الخمسين أبو عرقوب
والشيخ حامد بالحارة الشرقية
وسلام لمقام أبو جهم في الحريرية
خبرهم يا طير إنا عالعهد باقيين
واوعدهم برجعة كل الحمامية
***
ما تنسى يا طير ترمي السلام على بير البطروخ
وانت مار على الطريق الشرقية
وقله بتذكر يابير كم سر فيك خبينا
يا أمين على أسرار الحمامية
وفي طريقك للمجدل
ما تنسى يا طير تسلم على بير البدوي

اللي كان يجمع المسافرين

ويروي عطش العطشانين

من رعيان وصيادين

***

سلم على توتتنا البيضا وعلى صبر الحواكير

وقول له اصبر يا صبر على الظلم والأسية

وخلي شوكك في عيون العِدا مسامير

عدونا جبان وما إله عندنا مكان

ولا إله عندنا حق ولا دية

***

طير يا طير على سدرة مُعصبا

ملتقى الرعيان وظلهم وقت الهجير

ورفرف على سهول بَشة وصندحنة والحريرية(١٢)

وهدي على تل الفراني والعرقوبية(١٣)

وما تنسى ياطير جدود الحمامية

اللي بنوا (حمامة) وأسسوها

وانثر على قبورهم ريحان وميرمية

***

سلم على المشمش والجميز في الطوق(١٤)

وكل شجرة صامدة في البرية

وسلام خاص لجميزات القوقا(١٥)

اللي أطعمت الكل من ثمرها

وظللت المارين من ضيوف ومحلية

***

يا طير سلم على سهل الأبطح(١٦)

اللي تحت الظلم عم يرزح

وصار مصيف للمحتلين

والعدو فيه عم يسرح ويمرح

***

وفوق وادي (حمامة) طير يا طير

قالوا نشف وتغيرت ملامحه وصار غير

طمنه يا طير واحكيله

دوام الحال من المحال

وراح تعود المياه لمجاريها ويعم الخير

***

سلم يا طير عالمزيرة(١٧)

وسقايف البحر مكان لمة الصيادين

واقسم لهم يا طير بأننا راجعين

نعم راجعين

(حمامة) تاريخ معروف من أيام صلاح الدين

(حمامة) مش قصة بس نحكيها

(حمامة) أرض وعرض وعشق سنين

(حمامة) فرس أصيل ما بينباع
وعالعهد راح تبقى حتى يرجعوا الغايبين
وانثر يا طير حبنا في كل مكان
واسقيه بشوقنا المحمل بالحنين
حتى ينبت مشاتل أمل بالعودة
وتكون زادنا في غربتنا
حتى ترجع (فلسطين)

---

(٢) (٣) الذاكرة الفلسطينية: د، وليد الخالدي.

(٤) (حمامة)، (عسقلان): خليل حسونة.

(٥) (٦) (٧) (٨) التراث الشعبي: نوبا.

(٩) (١٠) اللهجات العربية: المعجم.

(١١) كلمات (علي القوقا) وصياغة المؤلف وتصويب (سلوى حماد).

(١٢) (١٣) (١٤) أسماء أماكن.

(١٥) اسم عائلة من أهالي (حمامة).

(١٦) اسم مكان.

(١٧) مستودع ماء كان يشرب منه الداخلين إلى بلدة (حمامة) والخارجين منها في الماضي.

(١٨) فكرة (محمود عوض) و (علي القوقا) وإعداد المؤلف.

الفصل الثالث



٣-١ كنتِ يا (حمامة)

أهم أرض مررتُ بها في تاريخي قبل رحيل ستين عامًا، وتبقين الأهم بعد ولادة كل عام، أنت بلدتي التي صيغت من فاكهة النجوى وذهب الأحلام، وأنت المنسوجة من الزيتون والكروم وأصداف البحر والرمان، يا أنت، يا من تسكنين شراييني وفي قلبي تنام، يا من تظللي فضائي وتهدلي دومًا في عيناي كسرب الحمام، لن يتغير شيء مني، سأبقى كما عهدتيني، وستبقي عاطفتي متوهجة نحوك، سأورثها لأبنائي، وأحفادي من بعدي، وسأظل وفيًا لهذا الإيمان.

يا وطني يا حبًا يزهر في قلبي في كل المواسم، أحبك في كل الأوقات، فأنت خلاصة البوح وأنت همسات السمر ووشوشات القمر، يكفيني أن أظل أتهجى حروف اسمك حتى أصبح شاعرًا موهوبًا ويكون حبي لك مثل القضاء والقدر، يكفيني فخرًا أن أُنسب إليك وأعشقك وأجهل التاريخ ولا أحسب السنوات وبك افتخر.

(حمامة)، حبي لك نهر لا يتوقف عن الجريان، وبحبك لن يتوقف نبض القلب عن الخفقان، سأتغنى باسمك ولن يتوقف حجل الكلمات عن الطيران، حبي لك كبير ولأنك المحبوبة ولأنك تملئين عيني وفؤادي فلم يعد هناك شيء يملأ عيني، لا الأضواء ولا الزينات ولا أجراس الأعياد ولا شجر الميلاد، حتى شوارع الغربة ومحطات السفر لم تعد تعني لي شيئًا وكذلك السنوات.

أي حبيبتي، (حمامة)، (فلسطين)، لا يسكن ذاكرتي إلا ملامح سهولك، ولا تزين أجندة عناويني إلا دورك، يحلو لي أن أعود إليك بذاكرتي مرتجفًا أتحسس أدوات طفولتي، أتذكر كل من مضوا وأتذكر كيف كنت أنام في عيون أمي بين بساتين الأهداب، لقد أهديتني حبًا أتكئ عليه في غربتي، حبًا هو يراعي الذي أكتب به عنك شعرًا ونثرًا ورواية وسيكتب أبناؤك من الأحفاد.

أتمنى سيدتي لو كنت معك في كل الأوقات الراحلة والقادمة، أتمنى لو أنني كنت ذرة من رمال سهولك أو قطرة في مياه أبارك، أتمنى لو كنت غصنًا عصي على الاقتلاع في إحدى أشجارك، أتمنى أن تكوني حرة لا يفصلني عنك لا أسوار ولا جيوش ولا غرباء ولا سنين ولا جدار.

٣-٢ (حمامة) السكان.



يؤكد التاريخ بأن أهالي بلدة (حمامة) يعودون في حسبهم ونسبهم إلى العرب الأقدمين، الذين ارتبط تاريخهم ب (فلسطين) منذ العصور القديمة، حيث إن ميولهم وأعمالهم ونمط حياتهم وأنشطتهم الاجتماعية ظلت رغم مرور القرون تحتفظ بطابعها العربي القبلي المميز بشكل أو بآخر، فقد ظل أهالي (حمامة) متجانسين في نمط حياتهم، وحتى إنه قد يكون من المرجح أن يكون أصل سكان هذه البلدة من قبيلة واحدة أتت وسكنت مرة واحدة تلك الأرض، وهذا على الأقل حينما تأسست البلدة واستحقت الصفة الكيانية، لأن (حمامة) رغم قربها والتصاقها بمدينة كبيرة كـ (المجدل) مثلاً ذات الشهرة والقوة الاقتصادية والنفوذ في المنطقة على مدى عصور كثيرة، إلا أن ذلك لم يقو على إلغاء الطابع الخاص بأهالي (حمامة)، ولم يقو أيضًا على إلغاء شخصية (حمامة) الكيانية أو جعلها ضاحية من ضواحي مدينة (المجدل) بالرغم من أن بعد (حمامة) عن مدينة (المجدل) حوالي الكيلومترين، ناهيك عن التقارب الاجتماعي والتعامل اليومي بين سكانها، ولهذا فقد تكون القبيلة الأولى التي أسست بلدة (حمامة) هي التي تفرع منها عبر الأزمنة، بطون وأفخاذ أصول الحمايل والعائلات الرئيسية الحديثة التي تنتمي كل

واحدة منها إلى حمولة أو عائلة، إلى جانب أن (حمامة) قد تـأثرت إلى حـد مـا بالموجـات ألعابرة من مناطق الجوار داخل (فلسطين) وخارجها.
تأثرت بلدة (حمامة) حسب موقعها الجغرافي بـ (مصر) في الجنوب مثلاً من ناحية بعـض أنماط الحياة من أدوات وفنون وسلوكيات اجتماعية، وكذلك تـأثرت بـالشرق وبالشـمال أيضًا حيث رأس الهلال الخصيب مـن بـلاد الشـام، وقـد انعكـس ذلـك عـلى تركيبتهـا السكانية، ولهذا توجد العائلات أيضًا التي تعود أصولها إلى مصر أو سـوريا أو العـراق، لكن مهما تواترت الآراء بالنسبة لأصول أهالي (حمامة) فإن من المنطـق والمؤكـد عـلى أن غالبيتهم من نسيج واحد، خيوطه القبيلة والعائلة ولونه العـرق والجـنس والثقافـة التـي تتلاءم مع الجغرافيا والتاريخ في بلاد العرب.

هذا، ومن أشهر ملتقى العائلات – حسـب الترتيـب الأبجـدي للأسـماء – التـي يطلـق عليها (حمولة أو عشيرة) من أهالي البلدة هي (الشـوام والصـقور والعـووض والكلالبـة والمصريين والمقاديد). انظر المخططات الهيكلية للحمايل والعائلات.

بناء على ما سبق فقد تم تقسيم أراضي البلدة إلى خمسة أقسام، سُمي كل قسم منها رَبـع، حيث ضم كل رَبع أراضي حمولة أو أكثر، فكان رَبع العووض والدحالين ورَبـع الشـوام والصقور ورَبع المقاديد وربع المصريين، ورَبع الكلالبة.

٣-٣ إدارة البلدة.

كان يوجد لكل حمولة مختار يُعين أما بالانتخاب والتزكية أو من قبل الحكومة القائمـة في (فلسطين)، كانت مهمة المختار أن يكون حلقة الوصل بين الناس والحكومة، كما كان لـه مقعد أو مجلس أو ديوان يجتمع فيه الناس والأقارب ويتداولون أمور حياتهم واهتماماتهم

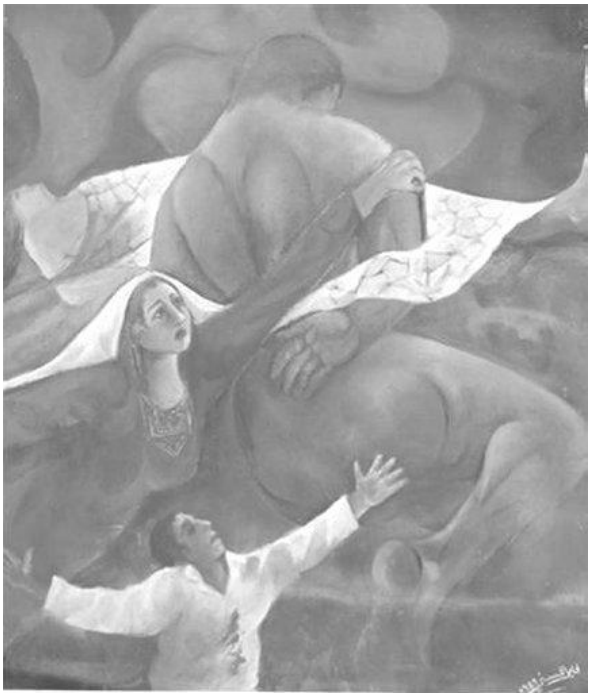
وحل مشاكلهم، وكان يشترط في المختار أن يكون نزيها وعادلاً وثريًا وذو حجة وجاه وعزوة قوية، ولهذا كانت قليلاً ما تصل القضايا إلى دوائر الحكومة، لأن المختار أو من ينوب عنه هو الذي كان يقضي فيها بين الناس ويُشرع الحقوق، عند حصول خلافات حمولتين من أبناء البلدة فكان يقوم بحلها قاضي أو أكثر من حمولة أو حمايل محايدة، وقد تُرفع القضية حسب شريعة العشائر إلى قاضي من بلدة أخرى.

٣-٤ النشاط الاقتصادي.

كانت الزراعة هي العمود الفقري لأهالي (حمامة) الذين كانوا تقريبًا ينتجون كل احتياجاتهم من الحبوب أو الخضار والفواكه المختلفة، ويتم بيع الفائض في المدن المجاورة مثل (يافا) و(المجدل)، كانت الفواكه مثل العنب مثلا تباع في مدينة (يافا) والخضار في مدينة (المجدل) والحمضيات والعنب تصدر إلى الدول الأجنبية، هذا بالإضافة لبعض الحرف اليدوية التي كان أصحابها ينتجون ما يحتاجه الناس من أدوات في مجتمعهم الزراعي مثل أدوات الحرث وأدوات الحمل والنقل مثل الحبال والسبت، وأدوات الصيد كشباك صيد السمك، وكان كثير من هذه الأشياء خصوصًا أدوات الزراعة تباع إلى أهالي القرى والبلدات المجاورة.

كان يوجد أكثر من عَشرِ معاصر(١) لاستخراج زيت الزيتون الذي كانت تكثر أشجاره في (حمامة)، التي كانت تزيد مساحة أراضيها الزراعية عن أربعين ألف دونمًا، وكان يوجد في البلدة وابورين/مطحنتين لطحن الغلال، كانا يفيان بحاجة البلدة وحاجة البلدات المجاورة من الطحين، وكان بعض سكان (حمامة) ينتجون الأقمشة للاستهلاك المحلي بواسطة أجهزة النول اليدوي التي كانت شائعة في تلك الأيام وتشتهر بها مدينة (المجدل)، كان كبر عدد سكان (حمامة) نسبيًا بالمقارنة مع سكان القرى المجاورة ميزة

أوجدت التكامل الاقتصادي والاجتماعي للبلدة، وجعلتْ الاقتصاد والحياة تزدهر وتتكامل عند السكان، وأوجدت فرص العمل والتجارة والإنتاج، هذا عوضًا على أن قطاعًا لا يستهان به من أهالي (حمامة) كان يعمل في صيد السمك، وكان كثير من أهالي البلدة يملكون قوارب صيد.



٣-٥ تقسيم الأراضي(٢).

في العهد العثماني كان يُعتمد نظام (القراريط) في توزيع الأراضي الزراعية، والذي بموجبه أن كل رب أسرة له أن يستغل قيراطًا واحدا للزراعة ولا يملكه، وذلك في كل منطقة زراعية، حيث الأرض تعتبر مشاعًا عامًا لأهل البلدة، وأرض وقف لا يحق لأحد أن ينفرد بملكية خاصة لأي قطعة منها، ولأن تقسيم الأرض ليس ثابتًا، فكان المزارع

ينتقل من القطعة التي استغلها إلى قطعة أخرى، أما الأرض غير الصالحة للزراعة فقد كانت لرعي الماشية لجميع أهالي البلدة.

أما في العهد البريطاني فقد ثُبّتَ التقسيم القديم للقرية وأراضيها. كتاب (حمامة عسقلان).

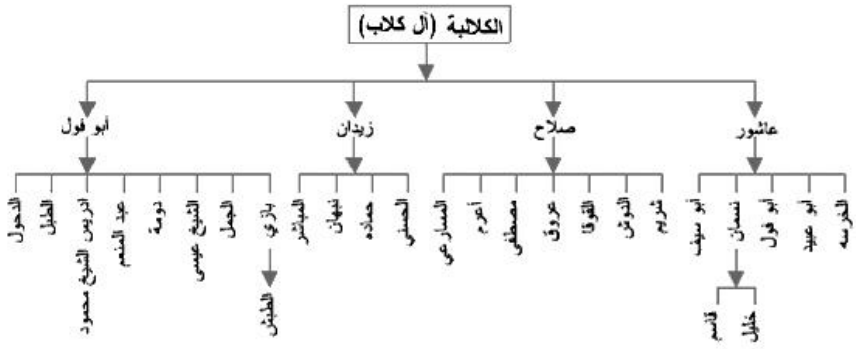
فقد ظلتْ خمسةُ أجزاء، أخذ كل جزء اسم رَبع حسب الحمايل، ولقد قُسم الرَبع في ذلك الحين بالتساوي على أرباب أسر الحمولة الذين تواجدوا حين إقرار هذا النظام.

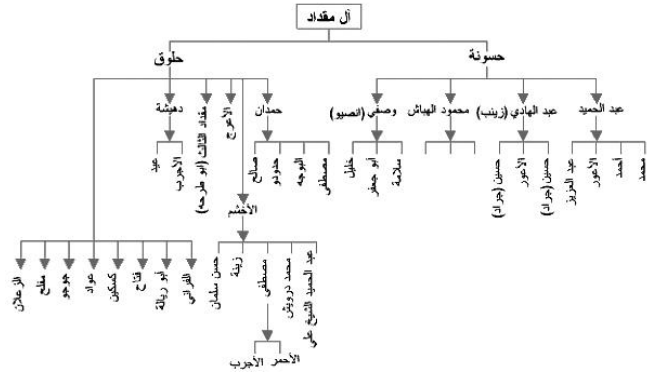
يقول (محمد حسن شرَاب) عن بلدة (حمامة) في كتابه (معجم بلدان فلسطين): ومن أشهر عائلاتها (المقدادية)، وينسبون إلى (المقداد بن الأسود الحضرمي)، ولهم أقارب في حوران في (بصرى)، (والكُلابية) الكلالبة، ومنهم ذرية الشيخ (أبو عرقوب) المدفون في جامع القرية، ويقال إنهم عُمريون ينسبون إلى (عمر بن الخطاب)، عن طريق (علي بن عليل) المدفون في قرية (الحرم – سيدنا علي)، وقد نزح جماعة من العراقيب إلى قرية (دورا) من أعمال (الخليل)، و(الصقور)، واشتهر منهم رجل يدعى (أبو صقر)، ظهر في القرن التاسع عشر، وكانت له سطوة على (المجدل) و(حمامة)، وبقوة بأسه كان يمنع هجمات البدو على القرى.

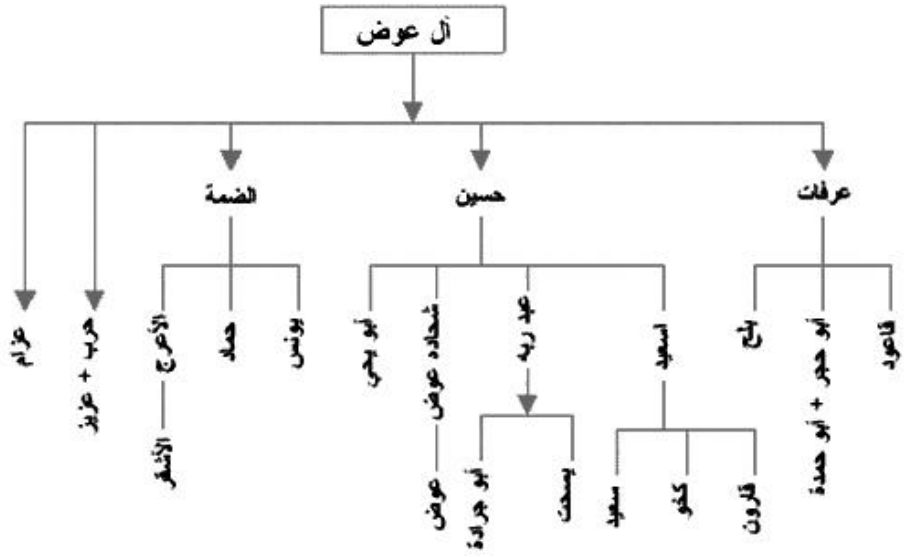
ومن المشاهير (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد داوود الكناني الشافعي)، ولد في (حمامة) سنة ٨٠٩ هجري، ودرس فيها ثم انتقل إلى مدينة (غَزّة) والرملة وجاور في مكة سنة ٨٤٢ هجرية، ثم سكن (القدس) وتولى الخطابة فيها، وتوفى في (القاهرة) عام ٨٧٠ هجرية، ويجاور (حمامة) خَرْبَة(٥) الشيخ (عواد) على شاطئ البحر، وخربة (المصلى)، و(الناووس).

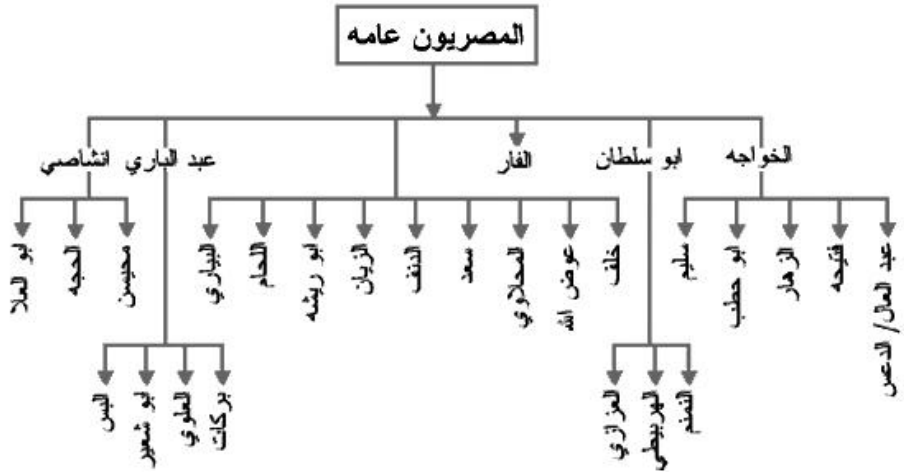
هذا، وقد ظل أهالي بلدة (حمامة) مثل كل الفلسطينيين يحبون بلدتهم ويتمسكون بحقهم في أرض الآباء والأجداد، ورغم الشتات الذي ابتليوا به على مر الحقبات والسنين فقد ظلوا أوفياء لحقهم الشرعي في (حمامة)، يستطيع المرء أن يدرك ذلك إذا ما توجه بالسؤال إلى أي طفل من أهالي هذه البلدة الخالدة وسأله عن بلدته أو وطنه، فيجيبه على الفور إنه من (فلسطين) ومن (حمامة)، لو لم يولد في (حمامة) وكذلك أبوه وربما جده الأول أيضًا لم يولد في (حمامة)، لكن هكذا هو الحق يتناقله الابن عن الأب والحفيد عن الجد.

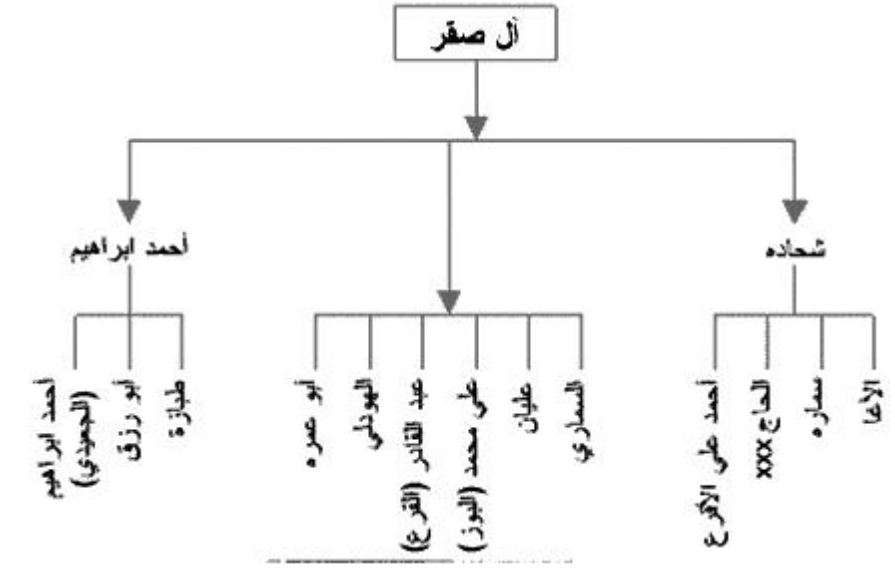
٣-٦ مخطط الحمايل والعائلات.

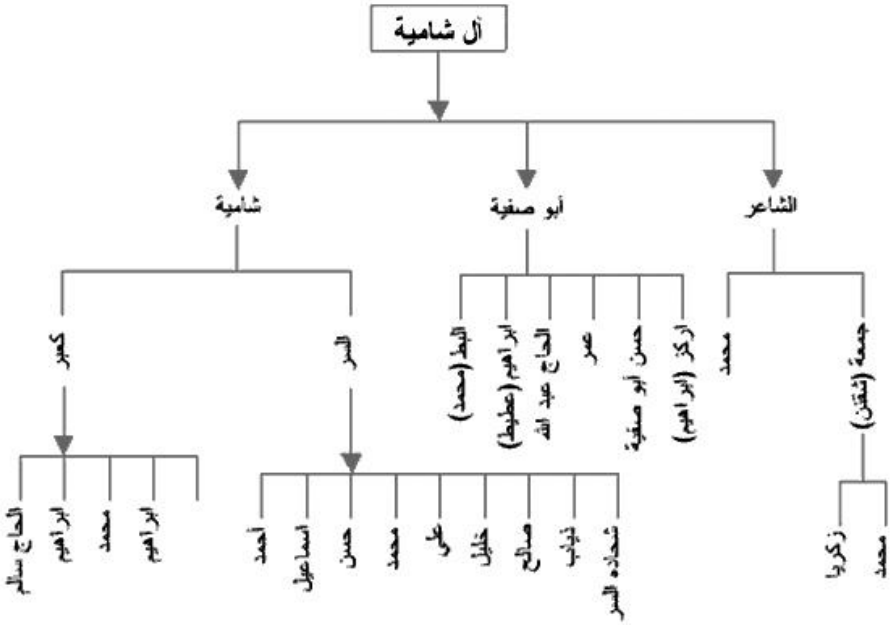


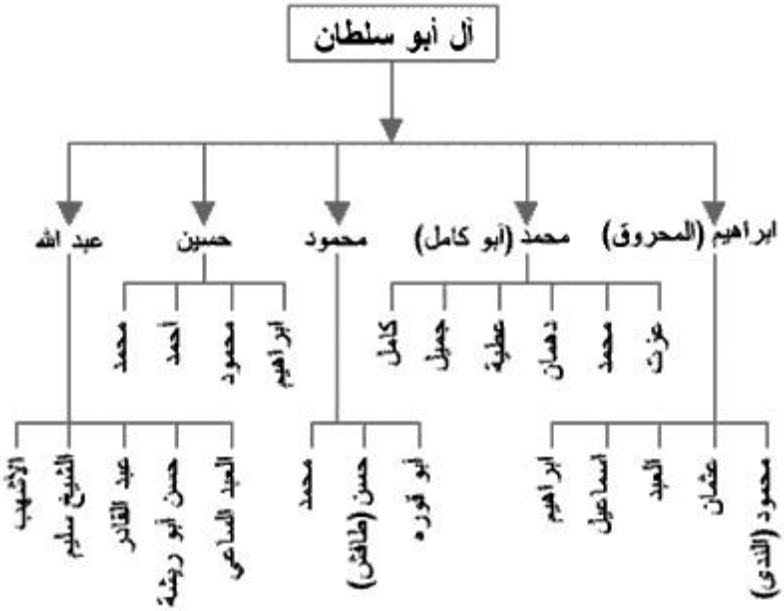


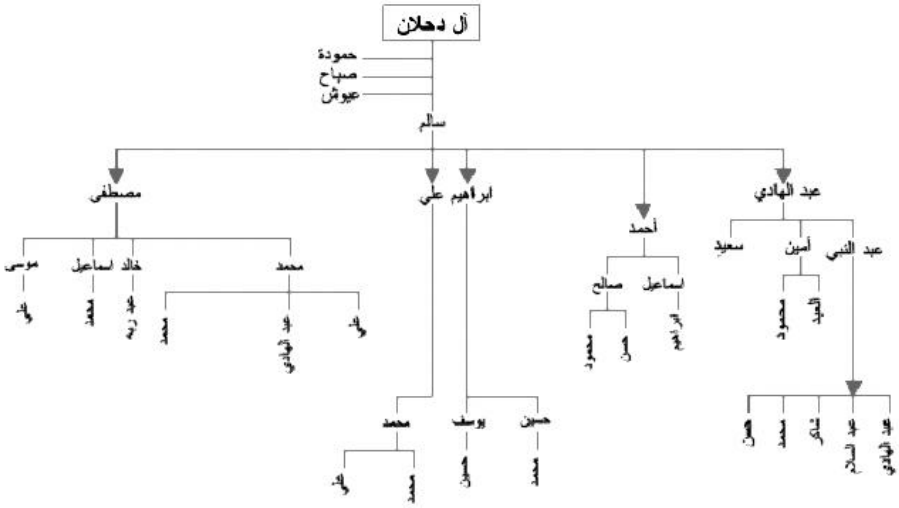

آل عوض
عرفات
حسين
الضمة
حرب + عزيز
عزام
قاعود
أبو حجر + أبو حمدة
بلح
اسعيد
عبد ربه
شحاده عوض
أبو يحي
قارون
كفو
سعيد
بسحت
أبو جرادة
عوض
الأشقر
الأعرج
حمد
يونس

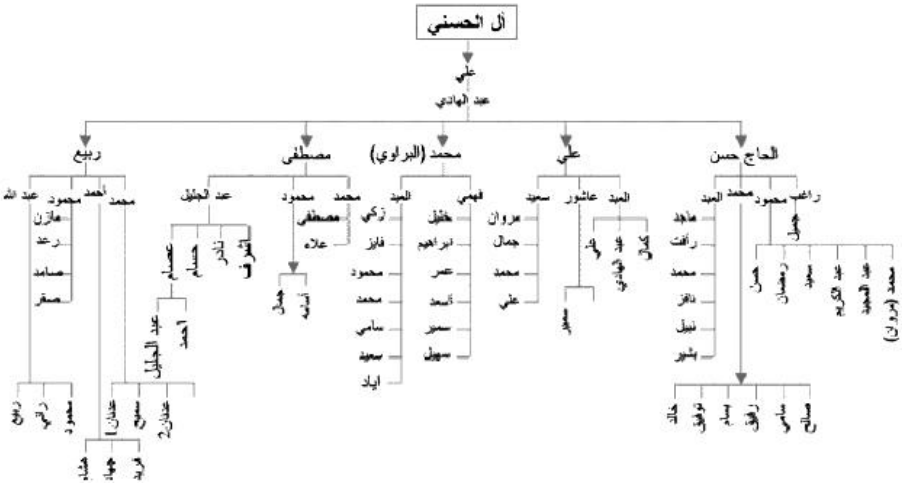

المصريون عامه
الخواجه
ابو سلطان
الفار
عبد الباري
انشاصي
عبد العال/ الدعس
فتيحه
الزهار
ابو حطب
سليم
خلف
عوض الله
المحلاوي
سعد
الدنف
الزيان
ابو ريشه
اللحام
البيارقي
مجيبين
الحجه
ابو العلا
النمنم
الهريبطي
العزازي
بركات
العلوي
ابو شعير
البس

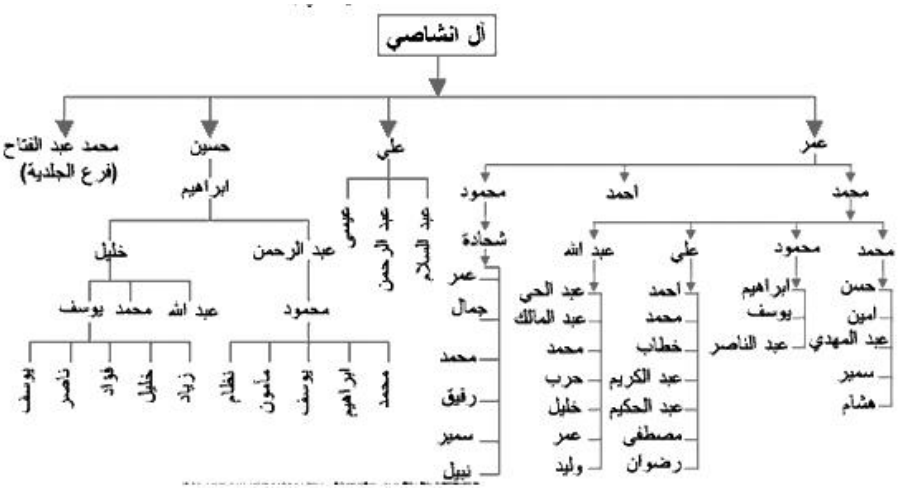

آل صقر
شحاده
أحمد علي الأكرع
الحاج xxx
سماره
الأخوة
أحمد ابراهيم
أحمد ابراهيم (الحميدي)
أبو رزق
طبازة
علي محمد (البوز)
عليان
السماري
أبو عمره
البوذلي
عبد القادر (القرع)

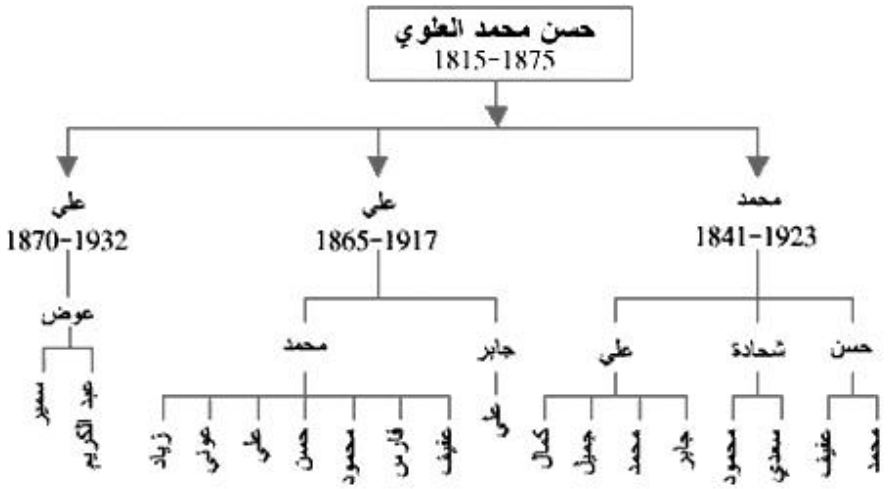

آل شامية
الشاعر
محمد
جمعة (لقمان)
زكريا
محمد
أبو صفية
ارکز (ابراهيم)
حسن أبو صفية
عمر
الحاج عبد الله
ابراهيم (عطيط)
البط (محمد)
شامية
السر
شحاده السر
ذياب
صالح
خليل
علي
محمد
حسن
اسماعيل
أحمد
كبير
الحاج سالم
ابراهيم
محمد
ابراهيم

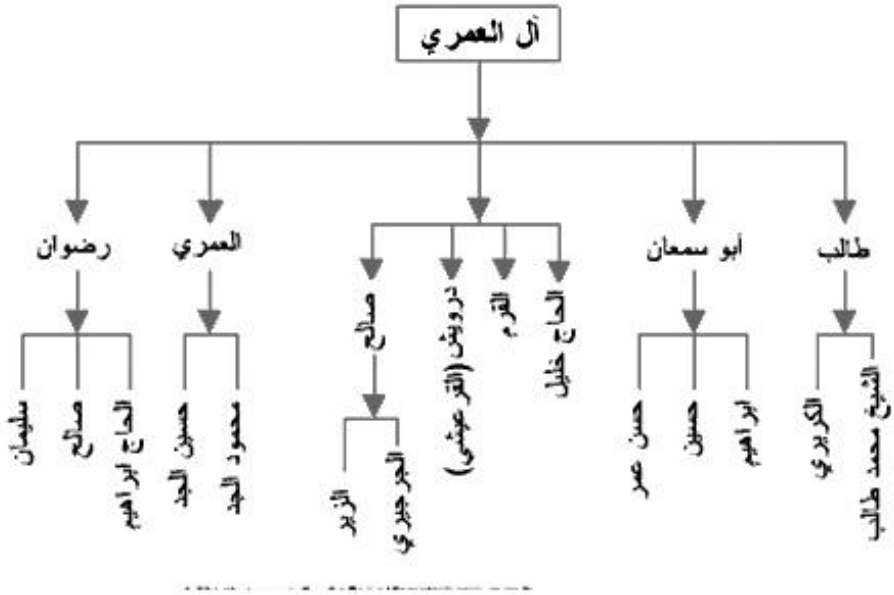

آل أبو سلطان
ابراهيم (المحروق)
محمد (أبو كامل)
محمود
حسين
عبد الله
عزت
محمد
دهمان
عطية
جميل
كامل
ابراهيم
محمود
أحمد
محمد
محمود (الندى)
عثمان
العبد
اسماعيل
ابراهيم
أبو قوره
حسن (طاقش)
محمد
العبد الساعي
حسن أبو ريشة
عبد القادر
الشيخ سليم
الأشهب

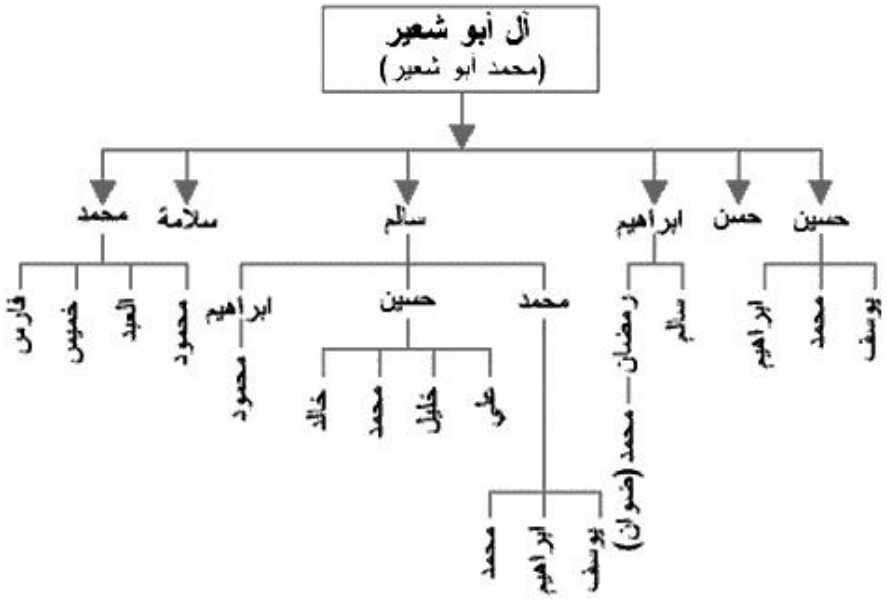

آل دحلان
حمودة
صباح
عيوش
سالم
عبد الهادي
أمين
سعيد
عبد النبي
محمود
العبد
أحمد
اسماعيل
صالح
ابراهيم
محمود
حسن
ابراهيم علي
مصطفى
محمد
يوسف
حسين
محمد
علي
محمد
عبد الهادي
علي
موسى
خالد
اسماعيل
عبد ربه
محمد
علي
حسن
محمد
شاكر
عبد السلام
عبد الهادي

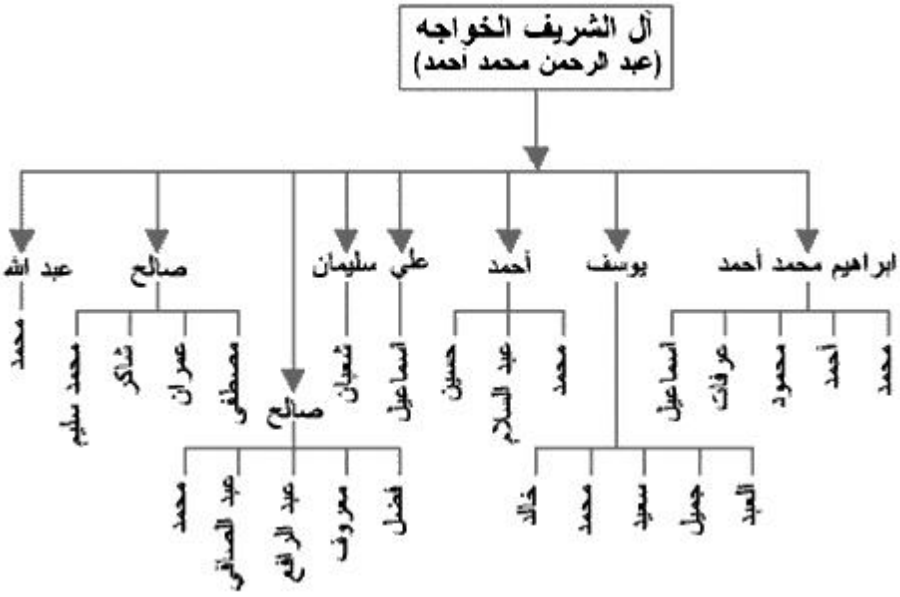

آل الحسني
علي
عبد الهادي
ربيع
مصطفى
محمد (البراوي)
علي
الحاج حسن
عبد الله
محمود
أحمد
محمد
عد الجليل
محمد
محمد
زكي
فهمي
سعيد
المجيد
راغب
محمود
محمد
المجيد
مازن
رعد
صامد
صقر
عصام
حسام
نادر
اشرف
مصطفى
علاء
جمال
أسامة
خليل
ابراهيم
عمر
أسعد
سمير
سهيل
مروان
جمال
محمد
علي
عاشور
المجيد
ناجي
عبد الهادي
كمال
سمير
ماجد
رافت
محمد
ناظر
نبيل
بشير
جميل
رمضان
سعيد
عبد الكريم
عبد المجيد
محمد (برود)
عدنان1
سمير
عدنان2
عبد الجليل
أحمد
رفيع
زكي
محمود
شاد
جواد
فريد
خالد
توفيق
أسعد
رفيق
سامي
صالح

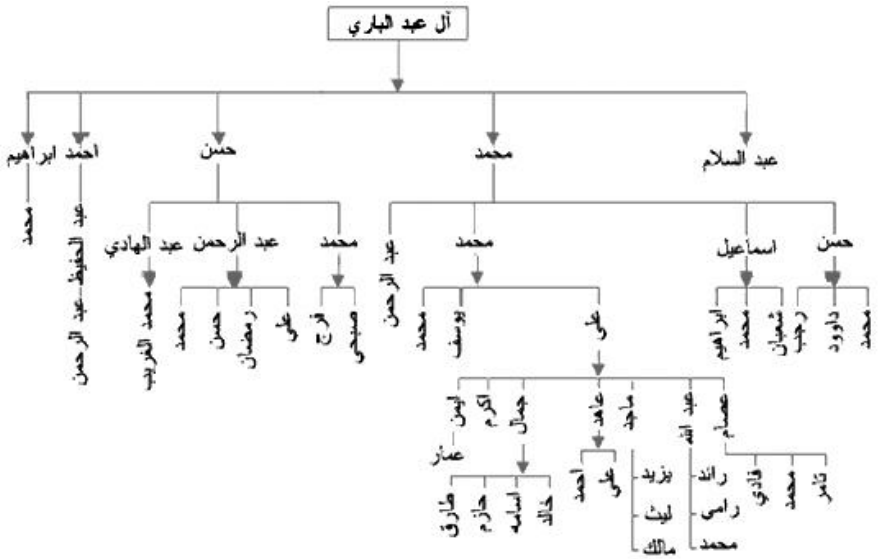

آل انشاصي
محمد عبد الفتاح
(فرع الجلدية)
حسين
ابراهيم
علي
عمر
عيسى
عبد الرحمن
عبد السلام
محمود
أحمد
محمد
شجاعة
خليل
عبد الرحمن
عبد الله
علي
محمود
محمد
عمر
جمال
محمد
رفيق
سمير
نبيل
يوسف
ناصر
فؤاد
خليل
زياد
محمود
نظام
مأمون
يوسف
ابراهيم
محمد
عبد الحي
عبد المالك
محمد
حرب
خليل
عمر
وليد
أحمد
محمد
خطاب
عبد الكريم
عبد الحكيم
مصطفى
رضوان
ابراهيم
يوسف
عبد الناصر
حسن
امين
عبد المهدي
سمير
هشام


حسن محمد العلوي
1815-1875
علي
1870-1932
علي
1865-1917
محمد
1841-1923
عوض
سمير
عبد الكريم
محمد
جابر
حسن
شحادة
علي
زياد
عوني
علي
حسن
محمود
فارس
عفيف
علي
كمال
جميل
محمد
جابر
محمود
سعدي
عفيف
محمد


آل العمري
رضوان
العمري
صالح
درويش (القرعيشي)
القرم
الحاج خليل
أبو سمعان
طالب
سليمان
صالح
الحاج ابراهيم
حسين الجد
محمود الجد
الزبر
الجرجيري
حسن عمر
حسين
ابراهيم
الكربري
الشيخ محمد طالب


آل أبو شعير
(محمد أبو شعير)
حسين
حسن
ابراهيم
سالح
سلامة
محمد
يوسف
محمد
ابراهيم
سالم
رمضان — محمد (ضوان)
محمود
ابراهيم
علي
خليل
محمد
خالد
محمود
ابراهيم
حسين
محمد
العبد
خميس
فارس


آل الشريف الخواجه
(عبد الرحمن محمد أحمد)
ابراهيم
محمد
أحمد
محمود
عرفات
اسماعيل
يوسف
أحمد
محمد
عبد السلام
حسين
علي
سليمان
صالح
عبد الله
محمد
العبد
جميل
سعيد
محمد
خالد
فضل
معروف
عبد الرافع
عبد الصادق
محمد
اسماعيل
شعبان
صالح
مصطفى
عمران
شاكر
محمد سليم



---

(١) (٢) كتاب: (حمامة..عسقلان).

(٥) الخربة: موقع أثري قديم.

الفصل الرابع

٤-١ موسم الحصاد.

صاحتْ في وجهِ الجُندي(١)
لماذا قَتلتَ وَلدي يا ابنَ الكُفار؟
قالَ وَسنهدمُ البيتَ ثانيةً فترحلون.
قالتْ يا ابنَ القراصنة.
نَحنُ أَصحابُ الأرض
وَرِثنا سيمفونيةَ هذهِ الأرض
نَزرعُ فَتنبتُ السنابل
نَحصدُ فَنصنعُ الخبز
إِذنْ نَحنُ باقون...



كان والدي يذهب إلى حقل القمح الذي نملكه ويحضر أثناء عودته حزم من سنابل القمح المملوءة بالحبوب، كان يقوم بإشعال نارًا خفيفة في ساحة الدار ويضع حزمات سنابل القمح في النار حتى تحترق السيقان ولا يبقى إلا حبات القمح الطرية المشوية، وكانت والدتي وإخوتي الكبار يأخذون حفنة من القمح المشوي ويفركونها بين باطني الكفين، ثم يقومون بنفخ القشر ليتبقى قمح مشوي لذيذ الطعم يسمى (فريكة).

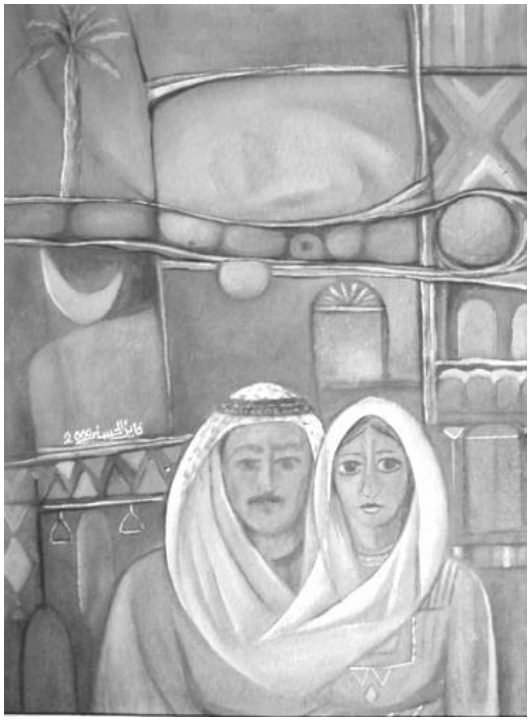
من المشاهد التي مازالتْ عالقة بالذاكرة هي عندما كانت تلد إحدى البقرات وكانت والدتي تقوم بحلبها بعد الولادة مباشرة وتقوم بغلي هذا الحليب، كنت أرقب تحولات الحليب إذ إنه ينفصل بعد الغلي إلى طبقتين: جزء عبارة عن ماء عكر إلى حد ما، وجزء جامد لونه أبيض كنا نأكله من الوعاء مباشرة وكان لذيذ الطعم.

كان موسم الحصاد في كل عام مهرجان للحياة عند أهالي بلدة (حمامة)، فهو مهرجان اقتصادي، اجتماعي، تراثي، لقد كان يمس حياة كل فرد في الأسرة تقريبًا وكل عائلة في البلدة، وكان له انعكاسات عامة وخاصة عند الكثيرين، وكان له آثار مباشرة وغير مباشرة على الكثيرين أيضًا بل على أغلب أهالي البلدة.

كان الناس يستعدون لموسم الحصاد ويبدلون في نمط حياتهم استعدادًا للحدث، ويصبحون كخلية نحل، يعدون أدوات الحصاد والملابس الخاصة بالحصاد، يحضرون الطعام الذي سيأخذونه معهم، كانت فترة الحصاد تمتد إلى عدة أيام وتتطلب التحضير لمكان للنوم في منطقة الحصاد، كما إنهم كانوا يحضرون ما يلزم من الدواب التي ستصاحبهم.

لم يكن الأهل في موسم الحصاد يصحبون أطفالهم القصر بل كانوا يُأمِنُون إقامتهم عند الأقارب في البلدة في فترة غيابهم، وكانوا يذهبون إلى أماكن الحصاد في جماعات، كان

موسم الحصاد موسم الانتعاش لسكان البلدة، إذ كانت تزداد الحركة التجارية من بيع وشراء عينًا ونقدًا، وكان العائد من بيع المحاصيل الزراعية هو المصدر المادي لهم.



٤-٢ جني المحصول.

كانت العائلات البسيطة تنتظر تحرك العائلات الكبيرة التي تمتلك حقولاً كبيرة من القمح وأملاكًا واسعة، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الدواب والماشية حتى تتحرك معها للاستفادة بالخدمات المجانية المتاحة كالحماية والحصول على المياه، كانت هذه العائلات الكبيرة تملك آبارًا للمياه في مناطق سهول القمح النائية، وكانت هذه الآبار قد تحتاج سنويًا إلى بعض أعمال الصيانة لكي توفر مياه الشرب سواء للبشر أو لماشيتهم، كانت

لحقول القمح أهمية كبيرة حيث كانت كل أسرة تحرص على أن تمتلك أرضًا تصلح لزراعة الحبوب لتأمين حاجة أسرهم من الحبوب والطحين.

لقد كان الحصاد عملاً مميزًا عن باقي الأعمال الأخرى التي كان يمارسها أهالي (حمامة)، كان الحصَّادُون في سهول القمح التي يملكونها يشرعون في وقت واحد وبلا موعد، ويقومون بإيقاعات متماثلة خلال الأيام التي يقضونها في حصاد حقولهم، كانوا مثلاً، فريقًا يحصد وفريقًا آخر يجمع الحصاد وينقله إلى الخلف ليضحي كومة واحدة، وكان يتم ذلك بتناغم وببرمجة غريزية تحدث بالتقادم وبالتكرار ويضحي خلالها الإنسان أحد عناصر المشهد والحدث، وأيًا كان الحقل كبيرًا أم صغيرًا، فقد كنتُ ترى مجموعة من الحصادين في صف واحد تفصل بين الواحد والآخر مسافة جانبية لا تقل عن عشرة أمتار، كانوا يشرعون في الحصاد بدأ من المكان الذي تقرر تجميع الحصاد فيه، وخلف كل واحد منهم كان يقف رجل أو امرأة لجمع ونقل ما حُصد إلى مكان التجميع العام، وكلما مضى الوقت اتسعت المساحة المنجزة وتضحى اللوحة أجمل وأكثر إيحاء ومعنى، وأمامهم يكون بحر من سهول القمح المنتظر حصاده، سنابله تتدلى على استحياء من ثقل حملها، وتتأرجح في حركتها الجانبية بفعل رياح الصيف الكسولة، بينما الشمس تكشف كل ما تستطيع لعين الناظر في كل الاتجاهات، موسم الحصاد هو حالة يتناغم فيها البشر والطبيعة ليصنعوا ملحمة بقاء.

كان يحرص الناس في مكان الحصاد أن يعملوا بجد، كلٌ وكأنه في سباق للانتهاء من حصاد محاصيلهم في نفس التوقيت مع رفاقه حتى لا ينتهي به الحال وحيدًا في مناطق الحصيد النائية، كان إذا صادف سوء الطالع أحدًا وتأخر عن حصاد حقله بسبب المرض المفاجئ مثلاً، كان عليه أن ينتظر بعضًا من أقاربه حتى يفرغ من حصاد حقله أولاً، ومن ثم يأتي هذا القريب بصفة خاصة لمعاونته، هذا على ما في ذلك من تأخير في كل شيء،

واحتمال تضرر المحصول حتى قبل حصاده من جراء الدواب التي قد تمر وتحطم بحركتها المستمرة المحصول، تلك الدواب التي كان الناس يتركونها في المنطقة بعد موسم الحصاد لتستفيد مما تخلف من حبوب ونباتات مفيدة لتلك الحيوانات، وحيث كان أصحابها لا يولون اهتمامًا كبيرًا لرقابتها خصوصًا وأن الرعاة بصفة عامة كانوا وكما هي عادتهم يراقبون مواشيهم عن بعد، ويفترضون في العادة أن موسم الحصاد قد انتهى لأن الفلاحين شرعوا في العودة إلى البلدة، ولأن العادة أيضًا هي أن يأتي الجميع مرة واحدة ويعودون مرة واحدة.

٤-٣ منتصف النهار.

خلال أيام الحصاد – وتلك لمحة أخرى أيضًا – كنتَ تجد هؤلاء الحصادين مثلاً عند الظهيرة وهم في قمة عطائهم خصوصًا حينما كان يحين موعد استراحة منتصف النهار، كانوا يستجيبون كلهم وبتناغم إلى صوت نقر على أداة معدنية، كان يقوم بفعلها أحدٌ ممن يحصدون في أحد الحقول المجاورة، كأن يُدق على صفيحة معدنية أو يعمل على صدم معولين ببعضهما البعض لكي يصدران رنينًا أو طرقًا يتلوه صدى، كان الحصادون في بقية الحقول التي تلي أو تحد الحقل الذي صدر منه الرنين أو الدق إذا ما سمعوا هذا الصوت أو الطرق، كانوا يعملون على تقليد هذا الصوت أو النغم بأدواتهم أيضًا، ومن ثم كان يقلدهم من يليهم في الحقول المجاورة التي تحدهم، وبذلك كانت تتسع الدائرة ويسمع الجميع ممن هم في الحقول البعيدة، ويعرفون أن وقت الراحة أو الغداء قد حل، وبهذا كان يتوقف الجميع للراحة وتناول الطعام.

بعد ذلك، كان سكان (حمامة) يجلبون محاصيلهم الزراعية من القمح أو الشعير وغيرها، وكانوا ينقلونها من الحقول إلى البلدة، وكانوا يضعونها في ساحة جرن البلدة، الذي هو

عبارة عن مسطح من الأرض الخالية، فقد كان مرتفعًا قليلاً عن مستوى أراضي تجميع مياه الأمطار، وكانت تبلغ مساحته حوالي أكبر قليلاً من ضعفي مساحة ملعب كرة القدم، ويقع عند الحافة الشمالية الغربية للبلدة، كان الأهالي يأتون بهذه المحاصيل إما محمولة على ظهور الدواب، مثل الجمال والبغال والحمير أو بواسطة سيارات النقل القليلة التي كانوا يستأجرونها لهذا الغرض، وكان يتم ذلك على نقلات أو دفعات إلى أن يُحضر الملاك كل ما حصدوه، وكان يستغرق ذلك عدة أيام أحيانا.

٤ - ٤ درس المحصول.

كان موسم الحصاد ودرس الحصيد مهرجانًا حقيقيًا لسكان بلدة (حمامة)، وكان الناس يسرون به كثيرًا وكانوا يتمتعون به، ولأن المتعة تكون ممزوجة بالجهد والنشاط الاجتماعي والعائد المادي فليس أحسن منها متعة، ولذلك كان يعتبر من أفضل المناسبات التي كان ينتظرها الأهالي في كل عام، وأي مناسبة أفضل من الحصول على قوت الإنسان أو تجهيز رغيف الخبز الذي يقضي المرء جزء كبيرًا من حياته ساعيًا لأجله.

كان سكان البلدة يتركون أكوام محاصيلهم لعدة أيام في مواقعها في ساحة الجرن، وذلك لأجل إتمام جفاف المحصول كاملاً حتى يسهل بعد ذلك درسه وفصل الحبوب، لقد كان شيئًا عاديًا أن يُرى الناس، فهذا قادم من السوق إلى الجرن خلال النهار وهذا محضر بعضًا من الدواب والأحمال، وهذا محضر طعامًا لأفراد الأسرة الموجودين في الجرن لحماية المحصول من الدواب الضالة التي قد تستبيحه بالتهامه طعامًا أو البروك عليه وإتلافه، بين الذين يكونون هناك كان عدد غير قليل من الأطفال من أمثالي ومن شتى الأعمار، كان كل واحد منا معتدًا بكبر وارتفاع حجم محصول أسرته فهو في نظرنا ربما كان كناية عن الشعور بالغنى، وكثيرًا ما كنا نقترب نحن الأطفال من بعضنا البعض خصوصًا

حينما كان يدلف أحد الأهل إلى بعض الأسر الأخرى المجاورة لموقع محصولنا أو في ساحة الجرن، كنا نستمع إلى أحاديث الكبار فنكتسب التعود على طريقة تحدثهم لبعضهم البعض التي كانت لا تخرج عن حدود اهتماماتهم داخل شئون البلدة، وفي إطار الحياة الروتينية اليومية التي كانت لا تتبدل.

خلال قربنا المؤقت نحن الأطفال والذي كان يحدث على غير موعد، كانت تدور بيننا أحاديث صامتة بسبب عدم تعارفنا، وكنا ننعم كثيرًا بهذا الاقتراب، كانت نشوتنا لا تقاس حينما يبدأ درس المحصول، فقد كان الأهالي يبدؤون درس المحصول بجعل الدواب مثل البقر والحمير أو البغال وحتى الجمال تمر على المحصول في حركة دائرية لفترة من الوقت قد تأخذ بضعة أيام، فيعمل هذا على تكسير سيقان عيدان القمح الجافة مثلاً، وذلك بسبب وقع حوافر الدواب أو أخفافها عليها، فينخفض ارتفاع المحصول، ويصبح بعد ذلك أسهل استعمال لوح الدرس المصنوع من الخشب المثبت بجانب بعضه البعض بسمك ربما خمسة سنتمترات للواحدة، ولوح الدرس في العادة هو على شكل مستطيل ربما وكما كنت أشاهده، طوله مترين وعرضه متر ونصف، ومثبت عليه من أسفل أدوات معدنية متماثلة تشبه مناشير الخشب التي نعرفها الآن ولكن بتصاميم خاصة، كانت الحيوانات تجر لوح الدرس في حركة دائرية وتقوم بتمريره على المحصول، فيعمل هذا على تقطيعه، وكان يستمر هذا العمل لعدة أيام إلى أن ينتهي درس المحصول كاملاً.

بعد ذلك كان يبدأ فصل الحبوب عن التبن، وذلك بالتذرية في الهواء، وكان يتم هذا على أساس قانون الجاذبية، فحينما ينثر خليط من محتويات المحصول الذي تم درسه في الهواء بواسطة شوكة إلا أن أصابعها من الخشب وليس من المعدن ويطلق عليها المذراة، فإن مكونات هذا الخليط تكون مختلفة الكثافات، ولهذا نجد أن الحبوب تعود إلى الأرض

ساقطة باتجاه رأسي تقريبًا، أما القصل أو التبن فإنه كان ينتشر في مكان غير المكان الـذي سقطتْ فيه الحبوب بتأثير الرياح العادية، وهكذا.

كان المنظر بعد الدرس يختلف عنه في البداية، ولهـذا كنـتَ تجـد أكوامًـا مـن المحاصـيل والناس موزعة مع ماشيتهم وأدواتهـم وأطفـالهم، كنـا نحـن الأطفـال نسـتمتع في كـل المراحل، كنا نسير مثلاً خلف الحيوانات وهي تمر عاملـة عـلى تكسـير المحصـول، وكنـا نصعد فوق ألواح الدرس التي تجرها الدواب فوق المحصول لنعمـل عـلى زيـادة الثقـل فوق ألواح الدرس لأجل أن يكون لها أكثر فعالية في تقطيـع المحصـول، وهـذا مـا كـان يشجعنا على فعله الكبار في كثير من الأحيان، وكنا نلعب فوق أكوام القمح بعـد فصـله عن التبن الخفيف والأشياء الخشنة الأخرى، وكنـا نتعامـل معـه كالرمـال الخشـنة، كنـا نتدحرج عليه ونقفز من مكان إلى آخـر كـما هـم الأطفـال في شـتى بيئـاتهم عـلى مـدى العصور، كان الكبار ينهروننا بالجري خلفنا وكأنهم يتسلون معنا، لقد كـان القمـح أكثـر حنانًا من الرمل لأنه لا يؤذي مهما كان عنف الحركة فوقه، فحباته أكبر فلا يدخل عيوننا أو يؤذي جلودنا.

كانت المناظر في تلك الأيام خلابة ومسلية وسارة، وكنا كأطفال في نهاية كل موسم حينما يبدأ عدد الموجودين من الناس في ساحة الجرن يقل، كنا نحزن وكانت الذكريات تدغدغ خواطرنا، وكأننا لن نعود ثانية إلى هذا مرة أخرى، لقد كان ما يحدث في موسم الحصـاد من أنشطة عامة وخاصة، أكثر كثيرًا مما أتينا عليه من وصف هنا.

---

(١) من قصيدة (سيمفونية البقاء) للمؤلف.

الفصل الخامس

٥-١ الصيف في (حمامة).

كانت أسرتنا أسرة متوسطة بمقاييس ذلك الوقت، وقد اخترت أسرتي كنمط متواضع من أهالي (حمامة) وليس أكثر، وحيث تتوفر المعلومات الخاصة بي التي تساعدني في وصف حياة الفلسطيني منذ أن كان آمنًا في وطنه قبيل الاحتلال مرورًا بما أصابه على يد الصهاينة من ترويع وتشريد حتى وصل به الحال مشردًا في أرجاء المعمورة، ليت كل (فلسطين) ي يستطيع أن يُوثق كل ما في ذاكرته ويحكي ما حدث لأسرته ولبلدته حتى لا ينسى أحفاده ما حل بشعب (فلسطين)، لقد حمل اليهود شعارهم إلى بابل حين تم سبيهم، وكانت سلواهم وهم يعملون عبيدًا سخرة لكي ينسوا عبوديتهم، كان اليهودي يدندن لنفسه: "لتنسني يميني لو نسيتك يا أورشليم".

اعتدنا أن نقضي شهور الصيف كل سنة خلال موسم الفواكه في كَرْمٍ كان يملكه والدي، وكان يقع شمال البلدة، كان لي في ذلك الكرم ذكريات كثيرة سواء حينما كانت الأسرة تقضي الصيف فيه أو كنت أصحب الوالد حينما كان يتواجد فيه للعمل أيضًا، كانت قصص الوالد عن رحلاته مع جده شيقة جدًا، وكانت تداعب خيالي وهو يقص عليّ ذكرياته حينما كان يذهب مع جده في تلك الرحلات البعيدة، التي كان يقال عنها بعيدة لأن وسائل النقل والاتصال كانت بدائية إلى حد ما، كان يحدثني والدي عن مغامراتهما حينما كانا يضلان الطريق وهما على ظهور الجمال نائمين بينما الجمال خلال الليل تسير في الطريق سواء خلال رحلة الذهاب أو حين العودة من وإلى مدينة (يافا)، حيث كانوا يبيعون محصول العنب هناك مستخدمين الجمال كوسيلة نقل وتنقل.

من المشاهد التي مازالت عالقة في ذاكرتي في فصل الصيف وذلك قبل سنة ١٩٤٨م، وهي توافد بعض سيارات النقل إلى كرمنا على الطريق الزراعي لتحميل صناديق العنب لإرسالها للبيع في مدينة (يافا)، كانت الصناديق مصنوعة من الخشب والتي من شقوقها الواسعة كانت تتدلى بعض أطراف عناقيد العنب الذهبية الجميلة والذي تشتهر به بلدة (حمامة).



كان لنا كرم آخر يقع ربما على بعد كيلومترين من موقع الكرم الذي تحدثت عنه أعلاه توًا أصغر مساحة منه، وكان محاذيًا مباشرة لساحل البحر، وكان به أشجار العنب بصفة عامة وقليلٌ من أشجار التين، وكان لوالداي أراض أخرى متفرقة إلا أن درة أملاك الوالد كان الكرم الرئيسي الذي كنّا نقضي الصيف فيه، كان جزء من هذا الكرم يعادل

النصف، كان على شكل هضبة رملية مسطحة فيها أشجار العنب وبعض شجيرات التين، هذا بالإضافة إلى الأرض الطينية الحمراء الأخصب كثيرًا والتي كان يزرع فيها التين والعنب والجميز، كما كان يوجد فيها بعضًا من أشجار الفواكه الأخرى القليلة نسبيًا، كونها كانت لا تمثل دخلاً للأسرة بقدر ما كانت للاستهلاك الخاص، هذا بالإضافة إلى الخضار الموسمية، كم أود لو أستطيع أن أتذكر كل شيء كي أستطيع وصف سعادتي في تلك الأيام.

كانت أملاك الأقارب تحد كرم والدي من الشرق ومن الغرب لكرمنا، فهذا كرم لصهر الوالد وذالك لخال الوالد، وتلك ملكية لعمة متزوجة في أسرة أخرى وهكذا، وكان شائعًا أن يكون أهل البلدة بكيفية أو بأخرى أقارب لبعضهم البعض سواء من قريب أو من بعيد، ولذا كان الرجل ينادي الآخر من باب المجاملة بابن العم لأنه من أسرة تلتقي في النهاية مع جذور الحمولة والتي هي كناية عن القبيلة في المجتمع البدوي، وقد ينادي الرجلُ الرجلَ الآخر بابن الخالة لأن جدته مثلاً تعود بقرابة لأم هذا الشخص، ما أذكره أن شهور الصيف كانت مهرجانًا بمعنى الكلمة، وكما يقول عنه أهل (فلسطين) : "الصيف واسع"، أي إن الإنسان يتحرر فيه من الملابس الثقيلة ومن الأمطار والبرد المصاحب للشتاء، ويستطيع فيه الإنسان أن ينام مثلاً في باحة الدار وفي الخلاء وتحت الأشجار وأينما وجد ظلاً.

كان والداي كما باقي السكان، يُعدّون بيتًا في كل موسم صيفي من الأغصان ومن سعف النخيل ومن السيقان الجافة لنبات الذرة الشامية، وكان يسمى هذا البيت بـ (الخُصْ)، وهو عبارة عن غرفة واحدة واسعة وكان لفصل الصيف فقط، وكنا نرى خلال شقوق الفضاء كل من كان يمر حول الخص إن كان إنسانًا أو حيوانًا، إلا أن الجلوس داخل

الخص خصوصًا في منتصف الظهيرة كان ممتعًا ومريحًا جـدًا للـنفس البشريـة، خصوصًـا حين الجلوس مباشرة على الرمال الباردة.

كان الشباب والمراهقون أيام العزب أو التعزيب – فترة التصييف – يتنقلون بين الحقـول وعلى حواف الطرق الزراعية، وكان يغريهم ويجذبهم في مختلف الاتجاهات اللحاق بحركة الطيور التي ينوون صيدها من الحقول، كانوا أحيانا يوجهون العصفور إلى فخاخ الصـيد إما بحركات اليدين أو برمي بعض الحجارة في اتجاهات من زوايا معينة لحث العصـفور مثلاً على أمل أن يطير من مكانه لينتقـل إلى شـجرة أخـرى يكـون منصـوب تحتهـا فـخ الصياد المخفي تحت التراب، والذي كانت تربط به بكيفيـة معينـة دودة صـغيرة لجـذب العصفور، أحيانا كثيرة كان الصيادون يستعملون الصفير أوالتصفير بواسطة الفم لجـذب انتباه العصافير أو لاكتشافها، وكان هذا الأسلوب شائعًا، كان كثير من الشـباب بـارعين في إطلاق الصفارات من الأفواه، أتذكر أن بعـض إخـوتي الكبـار وأبنـاء العمومـة مـن أمثالهم ممن كانت تقضي أسرهم مثلنا الصيف في الكروم، كانوا يأتون قبل مغيب الشمس من رحلة صيد العصافير حاملين معهم حصيلة صيدهم من العصافير.

في المساء كانـت تهـدأ الحركـة في أسرتنـا وكـذلك الكـروم المحيطـة بنـا، ويلـزم النسـاء والأطفال أخصاصـهم (بيـوتهم) وينعمـون بالاسـتماع إلى قصـص الجـدات والأمهـات والأخوات اليافعات وهن يقصصن على الصغار الأحاديث المسلية بينما النعاس يغـالبهم، وكثيرًا ما كنا نستمع إلى تلك الحكايات وعيوننا مغلقة أو نصف نائمين، وكنـا كثـيرًا مـا نغفوا ونصحو على حدث مثير في الحكاية أو الحدوتـة ويبـدأ رجاؤنـا الممـزوج بالـدلال والنعاس ونقول كلامًا غير مفهوم فيضحك علينا الأمهـات والإخـوة الحـاضرون، بينـما يكون كل واحد منهم تقريبًا في فراشه، وبعد ذلك، حينما كانـتْ تنتهـي الجـدة مـن سرد

حكايتها، كنا نغط في النوم وكنا نذهب في أحلامنا التي كانت تحمل الكثير من أحداث الواقع.

كان يأسرني أيام العزب منظر الغروب وبرودة الرمال بعد مغيب الشمس، وكنت أتسلى وأستمتع كثيرًا عندما كان يلتقي إخوتي الكبار مع بعض أبناء عمومتنا وكنتُ أصغرهم سنًا، كنتُ أشاهدهم يلعبون فأحاول تقليدهم، وكنتُ أتدخل في ألعابهم حبًا في الظهور أو لفتًا لأنظارهم، وكان يركض بعضهم خلفي، وإذا ما أمسك بي هذا كان يجرني بكيفية معينة وكان يقلده الآخرون، وسرعان ما كنتُ أصبح أنا أداة لعبتهم، كانوا يقذفونني من أعلى الهضبة العالية ذات الرمال الناعمة البيضاء المائلة إلى الصفرة والخالية من الغبار، كما كان حال الرمال في تلك المنطقة لأنها قريبة نسبيًا من شاطئ البحر، كنتُ أتدحرج على سفوح الرمال المائلة إلى انحدار، كانت الرمال من جراء هذه الأفعال تدخل تحت ملابسي وأحيانا داخل فمي، إلا أن ذلك رغم خشونته كان بالنسبة لي ممتعًا وكانت سعادتي لا توصف.

كنت أستمتع كثيرًا قبل النوم، وبالذات حينما يكون ضوء القمر ساطعًا، وحينما كانت تزداد إضاءته بسبب سقوط أشعته على الرمال البيضاء التي تميل إلى الاصفرار، فقد كان مدى الرؤية في الليل بعيدًا إذ إن الخص عادة ما يُنصب على أرضٍ مرتفعة وفسيحة، وكان يُساعدنا أنّ الأشجار في المنطقة المنشأ عليها الخص في النصف الغربي من الكرم كانتْ قليلة، ولهذا كانت الرؤية في الليل جيدة، كنتُ أستمتع جدًا بسماع صوت نباح كلبنا، وهو في تصوري في ذاك الوقت يرد متحديًا على نباح الكلاب الأخرى التي تأتي إلى أسماعنا من جهات مختلفة خلال الليل.

كان الرجال والكبار من الأبناء خلال الليل أيام العزب وخلال أشهر الصيف يسهرون في المقعد أو الشق أو المجلس، وكان هذا يُنصب عادة عند رجل كبير في السن من الأعمام أو الأقارب أو الأصهار، والسهر يحلو في ليالي الصيف حيث التسامر والتعلل واحتساء القهوة العربية، كان يستمر سهر الكبار حتى حوالي منتصف الليل، وبعدها كان يتفرق الجميع عائدين إلى عائلاتهم وإلى أخصاصهم للنوم.

كان الريف بصفة عامة قبل عام ١٩٤٨م هو حياتنا وحياة كل سكان بلدتنا، كان هو عيشنا وسكننا وحياتنا الاجتماعية وكان يزيد إيماننا بعظمة الخالق، أسئلة كثيرة كانت تروادني... تُرى كم من القصص وكم من الحكايات التي طوتها الأيام ولا زالت مدفونة في (حمامة)؟ ما حكايات كل الذين ولدوا في (حمامة) قبل سنة ١٩٤٨م؟ ما هي حكايات الآباء والأجداد الذين اختلطت عظامهم برمال تلك الأرض وأضحى عرقهم ثراها؟

كان الفلاحون في (حمامة) يكثرون من ذكر الله لأنهم يتأثرون أكثر من غيرهم، ربما كونهم أقرب إلى حياة الفطرة ومن لمس الأشياء الطبيعية ومشاهدة المخلوقات المختلفة من إنسان وزرع وحيوان، ولأن طبيعة عمل الفلاح كله شاق من حيث الجهد والعرق، فإنه كان يحاول دائمًا الاستعانة بقوة قاهرة خفية لتقويه على مصاعبه، ولهذا فإنه ينشد الله دائمًا أن يعينه على رفع الأشياء الثقيلة، وأن يعطيه محصولاً جيدًا، وأن يحقق له الأماني والآمال، وكانت تنعكس حياة الريف أيضًا على فكر الفلاح وعلى قيمه ومُثله، فترى مثلاً أن روح العمل الجماعي هي القاسم المشترك بصفة عامة بين الناس، لأنهم جميعًا موقنون بأنهم يومًا سيحتاجون أحدًا ليعينهم في أمر ما، ولأن حياتهم متجانسة في كل شيء تقريبًا، كانوا يستمدون أيضًا حكمهم من واقع حياتهم وبيئتهم الخاصة، وكانت هناك تعابير متعارف عليها من كل السكان، كأن يقول أحدهم بأنني قد ابتعت بالطو للشتاء لونه كالثور الأعطر، أو أن العباءة سوداء كالغراب، وأن الطماطم حمراء كالدم،

وأننا وجدنا البطيخة بعد شقها بالسكين كالجمر أو حمراء مثل الجمر وهكذا، لكن تظل هذه هي خصوصية الريف في (فلسطين) أو خصوصية (حمامة)، تلك البلدة الأسيرة التي وقعت في قبضة الاحتلال.

كانت الحياة بسيطة وسهلة وممتعة في (حمامة)، وكانت لذيذة في كل شيء كوننا لا نعرف غيرها، كان الناس يأكلون كل الأشياء المتاحة لهم في البيئة، لكي يعوضوا الطاقات المبددة في الجهود الجسمانية التي كانت تحتاجها حياتهم، وكانوا ينامون جيدًا وأيضًا بسبب المجهود الجسماني الذي يبذلونه بصورة يومية تقريبًا، كانوا إذا ضحكوا ضحكوا من قلوبهم، أو ليست السعادة هي في متعة العيش والاستقرار في الوطن، وطن الطفولة ومسقط الرأس الذي يحمل أولى همسات الحياة وأسرارها، لهذا كان قلق الناس مهما كان في (حمامة) محدودًا لا يستمر أكثر من موسم أو عدة شهور في العام أو ريثما ينضج المحصول أو يسوى أمر ما له علاقة بكيفية أو بأخرى بأمور العمل الزراعي، وكون العمل في الريف الفلسطيني كان موسميًا كما كان حال بلدتنا، فإن فراغًا كبيرًا كان يتوفر عند الناس، ولهذا فقد كانت هناك المناسبات الكثيرة التي كان يحتفل بها الناس، وكذلك كانت الهوايات أيضًا، وفي الحقيقة، كان هذا هو نمط العيش والحياة الاجتماعية في هذه الشريحة من أهل الساحل الفلسطيني ممن هم على شاكلة أهالي (حمامة).

في نهاية الموسم الصيفي تقوم الأسر بالعودة إلى البلدة والاستعداد لموسم جديد ونمط معيشي يتناسب معه.

هذه هي الحياة الوادعة التي كنا نحياها في بلدتنا، وهذا ينطبق على كثير من قرى وبلدات الساحل الفلسطيني، كنا آمنين راضيين عن ما لدينا من نعم، وفجأة اكفهرت السماء وهبت عاصفة هوجاء عام ١٩٤٨م اقتُلعتنا من أرضنا ودارت طاحونة النكبة.



أنا رجلٌ يُحب (فلسطين) "قصيدة"(١)

أنا رجلٌ يحب (فلسطين)
وأقسم أن أظل على حبي لـ (فلسطين)
وأن أعلن فلسطينيتي أمام عيون القبيلة
فمنذ الطفولة كنت أكحل عيني بليل (فلسطين)
وكنت أحني يديّ بطين (فلسطين)
وكنت أزين ثوبي ليشبه زيتون (فلسطين)

أنا رجلٌ لا يشابه أيَّ رجل

مزاجي أن أتزوج يومًا
صهيل الخيول الجميلة
فكيف أقيم علاقة حبٍ
إذا لم أتعمد بماء البطولة؟
أنا رجلٌ لا أزيف نفسي
وإن مسني الحب يومًا فلست أجامل
بصراحة
أنا رجلٌ من ساحل (فلسطين)
فبين عيوني تنام حضارات كنعان
وفوق جبيني تمر شعوبٌ وسلاطين
فحينًا أنا لوحة من حطين
وحينًا أنا راية صلاح الدين
وطورًا أنا ظل كرمة فوق قبر في جنين
وليلة عرسي هي تحرير كل (فلسطين)

زواجي تحت ظل السيوف وضوء المشاعل
وزفافي أهازيج أمٍّ شهيدٍ وزغاريدُ رصاصٍ وقنابل
وماذا يريد الرجال من الحب
إلا وقفة عزّ وقصيدة شعر
وامرأة تماثل
وماذا يريد الرجال من المجد
أكثر من أن يكونوا

بريقًا وهاجًا
في عيون صبايا تقاتل.

سلامٌ على ذكرياتي بشاطئ البحر
سلامٌ على طائر الماء يرقصُ في ضوء القمر
سلامٌ على الشمس تسقط فوق الكرمل أبد الدهر
سلامٌ عليه أبي وهو يُهدي إليَّ حِكم العمر
سلامٌ على وجه أمي الصبوح كوجه البدر
سلامٌ على توتة الدار تطرح أشهى الثمر
سلامٌ على قهقهات الرعود وحزن المراكب قبل السفر
سلامٌ على قطرات المطر

(فلسطين)..
(فلسطين) إذا ما ذكرتُك
أورق في شفتيَّ الشجر
فكيف سألغي شعوري
وحبك مثل القضاء ومثل القدر
لماذا (فلسطين) ؟
لماذا؟
لماذا الهوى كله ل (فلسطين) ؟
لماذا جميع القصائد تذهب فداء لوجه (فلسطين) ؟
لأن الصباح يا إخواني هناك لا يشابه أيَّ صباح

لأن الجراح يا إخواني هناك لا تشابه شكل الجراح

لماذا (فلسطين) ؟

لماذا تفيض دموع المحبين؟

لماذا يفيض هناك نهر روبين؟

لماذا جموع (يافا) هناك تختزن الوجد والحنين؟

لماذا الموال الفلسطيني يدخل في قلبنا في أي حين؟

لماذا الصلاة في القدس تعادل ألف صلاة؟

لماذا تقاتل (فلسطين) عن العرب بالوكالة؟

وتحرس الأقصى بالوكالة؟

وتحمي شرفهم بالوكالة؟

وتحفظ عروبتهم بالوكالة؟

لماذا يموت الفلسطيني حتى يؤدي الرسالة؟

وأبناء العروبة سكارى وما هم بسكارى؟

يحبون شرب الخمور

ولحم الغزال ولحم الحبارى

لماذا يموت الفلسطيني

والآخرون يغنون هندًا ويستعطفون نوارا؟

لماذا يموت الفلسطيني؟

والتافهون يهيمون كالحشرات مساء،

ويضطجعون نهارا؟

لماذا يموت الفلسطيني
والمترفون بحانات أمريكا
يستنطقون الديارا؟
ولولا كتائب الأقصى والشعبية
لكانوا مداسًا
ولولا حماس لكانوا عبيدًا
ولولا الجهاد لصاروا غبارا.

يقولون
إن الكتابة إثم عظيم فلا تكتب
وإن الصلاة أمام الحروف حرام فلا تقرب
وإن مداد القصائد سمٌّ فلا تكتب
فإياك أن تشرب
وها أنا ذا قد شربت كثيرًا
فلم أتسمم بحبر الدواة على مكتبي
وها أنا ذا قد كتبت كثيرًا
وأضرمت في كل نجمٍ حريقًا
فما غضب الله يومًا عليّ
ولا استاء مني النبي

لماذا أحب (فلسطين) ؟
لماذا؟

أيا ليتني قد ملكتُ الخيارا

ألم تكن القدس يا ناس أولى القبلتين

وكانت على مر التاريخ منارا

لهذا وأكثر يا إخواني أنا أحب (فلسطين)..

---

(١) القصيدة اقتبسها المؤلف من قصيدة الشاعرة (سعاد الصباح) (أنا امرأة قررتْ أن تحب العراق)، وقام بعمل التعديلات المناسبة واستفاد من الإطار العام للقصيدة الأصلية.

الفصل السادس

٦-١ الأعياد والمناسبات(١).

لو أردتم لا تصغوا إليَّ، ولكن دعوني أقول لكم بأمانة والله إني أنا الفلسطيني ما زلت بشرًا، في كل يوم أصعد إلى السماء كنجم وحيد وأهيم، كأن لا نجوم غيري في المجرات الأزلية، كأنني في عالم جديد مسئول عن صياغتهِ، فما أكاد أغفو في نرجسية إلا وأصحو على صوت طلق ناري يتسلق جدار سمائي، ويستفرد بأذناي، أشعر وكأن حواسي الأخرى غير موجودة، فأعود مرة واحدة إلى الأرض، وأتذكر حجمي الصغير بين المارين على حواف الطرق المتهرئة التي يكاد الغبار يخفي ملامحها التي كانت معبدة يومًا.
أنا دائمًا أبحث عن وجهي التائه الملامح، وعن هويتي الضائعة، وعن حصادي العصي على النضوج، وعن عاداتي التي غيرتها محطات السفر، وعن أعيادي التي نسيتها هناك في (حمامة) عندما خرجنا منها، دائمًا أتساءل هل أنا حقًا أنا؟ أحيانا أصدق نفسي بأن الكون يقبلني لأنني فريد في طقوسي، فأنا (فلسطين) ي، وأفخر بأنني كذلك إلى حد الخيلاء، أنا أوهم نفسي، وأتخايل أمام نفسي فأصدقها، وأتوهم بأن الآخرين واهمون مثلي فيزيدونني خيلاء على خيلائي، لكن سرعان ما أطل على نفسي وأراها عارية، وما أكاد حتى أجردها من كل الألوان التي أوهمتها بها لأصبح قصائد ليس لها عنوان.

سيدتي (فلسطين).. اسمحي لي يا سيدتي الوحيدة أن أفضفض لك، وأن أهذي بين كفيك، فأنا وأنت مثل الحياة، وعندما خلعوني منك، وزرعوني في أراض بعيدة، أدمنتُ السفر والترحال كقطعة عائمة من جزيرة اقتطعها البحر الهائج بعد أن استفرد بها وأبقى لها الآهة فقط، وإزاء هذا التموج وهذا الهذيان سأظل أبحث عن هويتي وعن اللغة التي تصفني وتميزني وأعلقها قرطًا في أذني حتى تطغى على غيرها في أسماعي، في رحيلي الذي

لا يتوقف، في عالمك ذو الجاذبية القوية الذي يتحدى بها المجرات، فقد ابتعد لأبعد نقطة على الأرض، ولكن سيبقى القلب والعقل والذكراة معلقين بك سيدتي (فلسطين).

أنا لا أريد حربًا شعواء إلا إذا كانت من أجل البناء لا الهدم والدمار، أنا لا أريد سِلمًا لان السِّلم لا يعطيه إلا من ليس لهم حقوق، لهذا أنا أغبطك على صمودك في ذاكرتي، وعلى عدم تنازلك وعلى حربك من أجل اللقاء، أنت لستَ عامل يأس لي أيها الوطن الأسطورة، لأنني بصراحة، أشعر أحيانا بأنني أكبر وأقسى من الحروب، وأقوى من الصمود، وحتى إذا جاءني النوم أوهم نفسي بأنني أدخل في تنظيمه للاستعداد حتى أقاتل من أجلك ولو حتى في الأحلام.

ها هي الأفكار تترامى يا وطني، وتتبعثر ويصعب فرزها كما ترى، وها هو العجز يحتلني بلا هوادة مع مصير لا يمل الانتظار، أنا ما زلت أتكئ على سياج الأيام الذي دائمًا لا يغيب عني ويلفت انتباهي أحيانا كريشة تحملها الرياح فتذكرني بأنها لطائر كان محلقًا وانتهى إلى ريشة واحدة، اعذرني يا وطني، فقطار العمر مضى، وها أنا قد أصبحت لا أساوي الكلمات التي أكتبها لأنني لستُ من عشاق الروايات، وكلماتي تموت دائمًا أسفل السلالم، فأكثر الألم وضوحًا دائمًا يتشكل من الجمل التي لا يصغي إليها أحد، لا تصغوا إليّ، فأعيادي تركتها هناك في (حمامة).



تزخر حياة الشعوب القديمة بتراكمات ثقافية تختلط فيها العادات والتقاليد وتمتزج بالمعتقدات الدينية، و (فلسطين) كحاضنة للأديان السماوية الثلاثة التي أتت على أساس عريض من عتبات الرقي على سلم الأديان العلوية التي عبرت عليها الأجيال صعودًا جيلاً بعد جيل منذ بدء كتابة التاريخ، إذن فلا غرابة في أن يكون عبير الأعياد في (فلسطين) له رائحة عبقة مختلفة وصيرورة تأخذ من الماضي الرغبة وتبث بها نفحات مستوحاة من الحاضر الذي تتناقله الأجيال في مسيرة لا تنتهي، ذلك لكي تكون حجة لا تقبل المجادلة بأن (فلسطين) هي لأهل (فلسطين)، وأنهم أصحابها منذ أن وجد الإنسان على الأرض.

كانت الأعياد عند أهالي بلدة (حمامة) خصوصًا الدينية، تُستقبل بكل اهتمام وانشراح وتفاؤل، فقد كانت ضرورية عندهم ومهمة كأهمية العمل والمأكل والملبس أو أي منحى من مناحي الحياة، ولهذا كانوا ينتظرونها ويستعدون لها أيما استعداد ويبتهجون لقدومها، ورغم أن العيد في أغلب الأحيان كان يومًا واحدًا فقط إلا أن أثره في النفوس كان أكبر بكثير إذا ما تخيلنا كم من الأيام يكون فيها الاستعداد لاستقبال يوم العيد، وبعد انقضائه يبقى أثره كباقي المشاهد الحية التي تحفظ في الذاكرة.

٦-٢ أفراح العيدين.

كان أهالي (حمامة) عند اقتراب عيد الفطر أو عيد الأضحى في كل عام يستعدون لاستقبال هذا اليوم وأفراحه ومظاهره البهيجة، لهذا تراني بينما أنا أخط هذه السطور تنتابني حالة لا أستطيع وصفها بالكلمات، لأنها تذكرني وتُحضر في مخيلتي كل ذكريات طفولتي حينما كنت في بلدتنا (حمامة) أستقبل يوم العيد قبل نكبة عام ألف وتسعمائة

وثمان وأربعين ميلادية، فيوم العيد عند أهالي الساحل الفلسطيني كان عرسًا لكل الناس، للكبار وللصغار، للأغنياء والفقراء، في يوم العيد كان الناس ينسون الفوارق الاجتماعية ويعودون إلى طيبتهم وصفائهم وكرمهم وزهدهم، فتجد الابتسامة تحتل كل الوجوه، والحنو على الصغير والضعيف والفقير، وتتجلى العلاقات الإنسانية لتصبح في أبهى صورها.

أيام الطفولة كنا نستمع إلى الأمهات وهن يذكرن أحداثًا أو يقلن ماذا تبدل في بلدتنا أو ما حدث في أعياد السنوات الخوالي، وكثيرًا ما كان الناس يؤرخون مناسباتهم في وقت العيد، فيقولون فلان تزوج في عيد رمضان، أو عيد الأضحى، كان الناس في بلدة (حمامة) يستعدون للعيد قبل وقت كاف وبما يليق به، ولم لا فقد كان لديهم الاستقرار والوقت وفوق هذا كله كانت راحة البال وكانت عذوبة الحياة وصفاء أهل الريف الوادعين، فالفتيات مثلاً يقمن بتطريز ثيابهن الجديدة لارتدائها في العيد، وكن يتسابقن في إظهار براعتهن ومهارتهن في التطريز حتى يظهرن في أجمل مظهر، فكان العيد مناسبة تجمع كل العائلات.

أما الرجال خصوصًا ميسوري الحال فقد كانوا يلجأون إلى الخياطين لتفصيل طاقم الروزا من الحرير العاجي اللون وهو عبارة عن قمباز (دماية وبالطو "ساكو") وهو زي أهل الريف عند سكان ساحل (فلسطين)، أما بالنسبة لمتوسطي الحال من الناس وغير الميسورين من الرجال فقد كانوا يعدون قمبازا من القماش المخطط أو سروالاً/شروالاً من المالطي أو البَفت الأبيض وقميص مناسب كل على قدر إمكاناتهم.

استعدادًا لاستقبال العيد كانت النساء يقمن بتنظيف بيوتهن، وغسيل الأغطية المستخدمة في المجالس، وكن أيضًا في أحايين كثيرة يتجاوزن ذلك من أعمال فيقمن مثلاً بتليس حيطان سقائفهن وغرف الدار بالطين المخلوط بالقصل الذي كان الأهالي يحصلون عليه

بعد درس محاصيل الحبوب، أما تلييس البيت من الخارج كما كان يسميه الناس في تلك الأيام يُعتبر من أعمال الصيانة شبه السنوية بالنسبة لكثير من الناس، كانت عملية التلييس هذه تشكل مظهرًا من أجمل مظاهر التعاون بين أهالي البلدة أو كما هي حياة الريف دائمًا، حيث كان يشارك مثلاً في إحضار الماء اللازم بالجِرار المصنوعة من الفخار من البير معظم بنات الجيران، وقد كانت النساء في العادة يقمن بهذه العملية من ألفها إلى يائها،

كانت حركة الناس استعدادًا لاستقبال العيد تشتد كلما اقترب يوم العيد، وكان يزدحم سوق مدينة (المجدل) المجاورة بأهالي (حمامة)، الكل كان يبحث عن حاجته هناك، لقد كان سوق (المجدل) الكبير الذي كان يُعقد في كل يوم جمعه هو ملتقى لأهالي العديد من القرى والبلدات المجاورة مثل قرية (الجورة) و(نعليا) و(الخصاص) و(بربرة) و(بريـر) و(بيت دراس) وغيرها هذا إضافة إلى أهالي بلدة (حمامة).

من مظاهر الاستعداد لاستقبال العيد أو كما اعتاد عليه الناس في (حمامة) قبل سنة ١٩٤٨م هو اشتداد المنافسة مثلاً بين الجزارين من بائعي اللحوم في البلدة، كان أحدهم مثلاً يزين بالريحان وأغصان الأشجار الخضراء جزورًا/جَمَل، وكان يطوف به مع صبية من ذويه وجمهرة من الأطفال الآخرين في شوارع القرية وبينما هم كذلك فقد كانوا يصيحون بأعلى أصواتهم في تناغم وإيقاع صوتي كان الناس يميزونه سماعيًا من بعيد وحتى قبل مشاهدة زفة الجمل المنوي ذبحه في يوم العيد، كان الجمع يصيح، "جازور يا لحم، جازور يا لحم" معلنًا أن هذه هي ذبيحة يوم العيد، وكان بهذا يشد انتباه الناس إلى جزارته بينما الموكب يعبر حواري البلدة واحدة بعد الأخرى.

وتجد جزار آخر يطوف بعجل أو بخرفان مزينة أيضًا، وكان غلمانه يصيحون، "كل الخروف ولا تندم، يا من تأكل لحم الجمل عند المرق تندم". وكان الأطفال بصوت

واحد يرددون في فرح وبهجة تلك الأهازيج بينما الناس كانوا يطلون من أبواب دورهم خصوصًا النساء والأطفال، وكانوا يتمتعون بمقدم البهجة التي راحت تهل عليهم مع بشائر العيد، كانت تتكرر تلك المشاهد لمدة ثلاثة أيام قبل العيد على الأقل.

أما في ليلة العيد أو ما قبلها بعدة أيام فقد كانت النساء تعد العدة لإعداد حلويات العيد ويتبارين في تطبيق ما توراثن عن أمهاتهن وجداتهن، ومن حلويات العيد أذكر، الكعك والمعمول والمُسَفَن – فطائر من الدقيق وزيت الزيتون ملونة بالعصفر الأصفر تزينها حبيبات السمسم – كانت النساء يخبزن الحلويات في أفران بدائية صغيرة مبنية من الطين اللبن، وكانت هذه الأفران غير موجودة في كل بيت بسبب استعمالاتها القليلة التي كانت مقصورة على المناسبات فقط، بعكس الفرن العادي الذي كان يستعمل يوميًا لإعداد الخبز، لهذا كان يوجد في كل حارة مثلاً فرن أو اثنين فقط لهذا الغرض، كان عمل هذه الأنواع الحلويات هو جزء من العادات والتراث ومناسبة رائعة فيها تناغم من نوع خاص، والمرء له أن يتخيل كيف أن معظم نساء البلدة أو كلهن تقريبًا كن مشغولات ومنهمكات غُدوًا ورواحًا من دور أسرهن إلى دار الأقارب أو الجيران التي يوجد فيها الفرن في ليلة العيد، هذا عدا رائحة الكعك والمعمول الساخن التي كانت تفوح في شوارع وحارات البلدة في ذلك المساء ذو الصباح المتحفز.

كانت عملية خبيز الكعك في الأفران فرصة لالتقاء نساء البلدة، فهن كن يتجمعن عند الأفران العامة المخصصة لهذا الغرض، وكانت كل واحدة منهن تستعرض مهاراتها أمام الأخريات.

من مآثر العيد التي وجب ذكرها، هو التكافل، إذ إن ميسوري الحال كانوا يقومون بالعطف على فقراء الحارة، وكان الجيران يتبادلون أطباق الحلويات، فكل سيدة تقريبًا

كانت ترسل مع ابنها نصيبًا من كعكها إلى فقراء الحارة وكانت تقول له، سلم على أم فلان وقل لها هذا من كعك أمي.

كنا نحن الصغار في تلك الأيام نتواجد حول الأفران حيث كانت النساء بسخاء وطيبة نفس يقمن بتوزيع كعك العيد والمعمول والمسفن علينا، وقد توارث الناس هذه العادات وأضحى توزيع مثل هذه المأكولات من الطقوس الدينية التي يخلص فيها الناس ويقدمونها للغرباء عن طيب خاطر، كانوا كرماء ويقدمون للغير بسخاء، إن أعطوا يعطون عن طيبة نفس، وإن كرموا كرموا بسخاء غير عادي، أو كأن مثل تلك الحلويات أو المأكولات كانت تُعد لتوزيعها على الغير، أو كأن الواجب والإيمان الديني يفرض ذلك أو كأنها نوع من العبادة، أو كما لو أنها الأدعية الطيبة التي تعود بالخير على من يكرم الآخرين بسخاء وصفاء نفس، بينما نفحات الإسلام تهب على أهالي تلك البلدة الوادعة.

أذكر عندما كنا صغارًا، كنا لا ننام في ليلة العيد لشدة شوقنا وطول انتظارنا لهذه المناسبة، في فجر يوم العيد كان يصحو أهل البلدة على صوت مؤذن مسجد البلدة مع أحد المدّاحين بعد صلاة الصبح، وهما يذكران الناس بحلول صلاة العيد، كان المؤذن والمداح يرنمان بالأناشيد الدينية والأنغام الجميلة ذات الروعة والطعم الخاص التي لا زالت ترن في أذني ولم أسمع مثلها منذ أن أجبرنا على ترك (حمامة) في عام ١٩٤٨م.

كان المؤذن والمداح يُذكّران الناس بقولهما "الصلاة خير من النوم"، وكانا يكرران ذلك لعدة نداءات ثم يصدح في النهاية المؤذن بالنشيد الإسلامي الأزلي "الله أكبر الله أكبر..."، فور سماع الأذان كان يتوجه الرجال إلى مسجد البلدة فيصلّون الصبح خلف الإمام، ثم يصلّون بعد ذلك وحسب الميقات صلاة العيد، ومن ثم يتبادلون التهاني في محبة وسرور.

كانت لا تكاد صلاة العيد تنتهي ويهم الناس بمغادرة المسجد حتى ترتفع صيحات الجزارين الذين كانت محلات جزارتهم تطل تمامًا على ساحة باب الخروج للمسجد، فيدلف الناس الخارجين من المسجد إلى محلاتهم، كان الغني يشتري لحم الخروف الضأني وأما الأقل ثراء فقد كان له الجزور أو الوتيش(٣)، وأما الفقراء فقد كانوا يكتفون أحيانا بشراء الهرسة وهي عظام أرجل الجمل حيث يهرسها اللحام أو يحطمها بأدواته فيغلونها ويحصلون على فتة دسمة ويقرقشون ما تبقى من عروق أو بقايا لحم حول العظم، هذا، وقد كان الكثير من عائلات البلدة يضحون بالذبائح في يوم العيد خصوصًا في عيد الأضحى.

ومن المقولات التي كانت تقال عن الهرسة، يقال إن المرأة كانت تقول لزوجها "إذا لم تأت بالهرسة فلن أقعد جنبك على الفرشة"، وهذا كناية عن دسامة الهرسة وأهميتها لما تحتويه من النخاع الغني بالفائدة،

بعد شراء اللحم كان الرجال يعودون إلى بيوتهم فيتبادلون التهاني مع زوجاتهم وأولادهم الذين يرتدون ثياب العيد الجديدة، كان يقوم الأب بتقبيل أبنائه بعد أن يقبلوا يده، وكان يقدم العيدية لهم وهي عبارة عن قروش معدودة ولكنها كانت تعادل مال الدنيا كله بسبب ما كانت تضفيه من بهجة وفرح، تقوم النساء بتحضير طعام الإفطار مما يتيسر لديهن إلى جانب حلويات العيد، وبعد أن تتناول الأسر إفطارها، يتوجه الرجال إلى المقعد أو المجلس والذي غالبًا ما يكون في بيت المختار أو أحد وجهاء العائلة، يتبادل الرجال التهاني وتتردد العبارات مثل "كل عام وانتم بخير"، "عيدكم مبارك"، "كل سنة وأنتم سالمين" وعبارات أخرى كثيرة بهذا المعنى، ويتم توزيع القهوة العربية ويشربونها وهم وقوفًا وذلك للعدد الكبير برغم سعة المكان.

في تلك الأيام اشتهر شخص اسمه (السمسماوي) أو هكذا كان لقبه، كان خادمًا في أحد مجالس وجهاء البلدة حيث كان يقوم بصب القهوة العربية للضيوف، وكان شخصية فولوكلورية مميزة في بلدة (حمامة) في ذلك الوقت، فقد كان رجلاً بسيطًا وفقيرًا إلا أنه كان مقبولاً ولبقًا ومسليًا وخدومًا، وكان يعتمد في كسب قوته على تقديم أحاديثه المسلية وتقديم الخدمات مثل إشعال النار وتقديم القهوة العربية وما شابه، بالإضافة إلى ذلك كان يقوم ببعض الخدمات الخاصة التي كان يقدمها لأهالي البلدة كأن يُخرج السم من جسم مصاب بلدغة ثعبان أو لدغة عقرب، فقد كان له طريقة لعمل ذلك، إذ إنه كان يقوم بامتصاص السم المختلط مع دم المصاب من مكان الإصابة، ثم يبصقه للتخلص منه، كما كان يقوم بدور مهم لتوصيل الأخبار أو الإبلاغ عن مفقودات مادية أو حيوانات سائبة، وذلك عن طريق المناداة بصوت عالٍ بين الناس في شوارع البلدة خاصة عند مغيب الشمس لضمان سماع غالبية سكان البلدة.

الواجبات والمراسم.

بعد شرب القهوة العربية والخروج من بيت الوجيه أو المختار في ضحى يوم العيد، كان يتجمع الأقارب وكانوا يسيرون في موكب واحد وقد ملأ كل منهم جيبه بالقروش والتعاريف (أنصاف القروش مفردها تعريفة) والشلنات والبرايز(البريزة ١٠ قروش)، وتلك هي الوحدات النقدية المعدنية من النقود التي كانت متداولة في تلك الأيام، وذلك لتوزيع العيديات النقدية كهدايا للأطفال، وكان موكبهم يرد أولاً دور وبيوت الأرحام، كنا نحن الصغار نستقبلهم بالبسمات وننـدفع نحوهم نقبل أياديهم وكانوا يبادلوننا بقبلات على الوجنات، وأما عيوننا فقد كانت تراقب أياديهم بينما هي تتحرك في جيوبهم، وذلك لتقديم العيدية التي كنا نطير بها فرحًا، كان الرجال يعيدون أرحامهم، خصوصًا النساء وكبار السن من الأقارب، وذلك بمبالغ كل قدر طاقته أو حالته المادية، بعد هذا

كان الجمع يتفرق، وكان يعود كل واحد إلى عائلته فيتناول معها طعام العيد الذي غالبًا ما يكون من الأرز المسلوق مع الشعيرية تُتوجه قطع اللحم أو الفتة، وهي أكلة شعبية معروفة عبارة عن خبز الشراك المسقي بالمرق (الشراك عبارة عن رقائق خبز يتم خبزها في البيت) بالإضافة إلى الأرز واللحم.

كانت دكاكين الحارة تكتظ بالأطفال الذين يتدافعون لشراء ما يرغبون به من عيديّاتهم التي حصلوا عليها، كانوا يشترون القضامة (حمص مملح مشوي) أو الفستق والفول السوداني أو الملبس والدربس (نوع من السكاكر) أو عجوة التمر أو الكسبة أو التمر، ولم تكن هناك ألعابا للأطفال، ولم يعرف الأطفال في تلك الأيام ألعابا تُباع كما يعرف أطفال الحقبات التي تلت بعد ذلك عدا البالونات والصفارات وبعض الأشياء البسيطة، هذا، وقد اعتاد بعض الناس في الأعياد الدينية زيارة المقابر، وكانوا يأخذون معهم الكعك والمعمول والمسفن، وذلك لتوزيعها عن أرواح موتاهم للمساكين وأبناء السبيل ومن شابههم، ثم كانوا يطلبون من المقرئيين أن يقرأوا القرآن، والذين كان معظمهم فاقدي البصر يقودهم أبناؤهم أو بناتهم الصغار إلى المقابر وكانوا يحملون سبتًا أو كيسًا، كان هؤلاء المقرئين يتحركون من قبر إلى آخر وكانوا يقرأون بعض ما تيسر من القرآن الكريم، وحين ينتهون من ذلك كان أقرباء الميت يُعطونهم ما تيسر أيضًا من كعك أو معمول أو مُسفن وأحيانا قروشًا قليلة، كان المشهد أحيانا مسليًا للشخص العادي الذي يراقب ما يحدث من بعيد، فقد كان القراء يتنافسون ويتسابقون وهم يتنقلون من قبر إلى آخر وقد يجتمع منهم اثنين أو ثلاثة عند قبر واحد خصوصًا إذا كان ذوي الميت الموجودين عند القبر في تلك الساعة من العائلات الغنية من أهالي البلدة، كان القراء من هؤلاء يقرأون القرآن بأعلى أصواتهم على غير العادة أحيانا، وكأنهم كانوا يعلنون عن وجودهم، وكان من أشهرهم (أبو فريني) الذي كان يتبعه أكثر من واحد من أقاربه

ليحمل حصيلة ما كان يجمعه من أشياء مقابل قراءته للقرآن، كان لنا دورنا نحن الصغار في تلك الأيام، وتلك كانت إحدى مظاهر متعتنا أيضًا، كنا نسير مع قراء القرآن عند القبور، وكنا نرشدهم عبر الممرات بين القبور، وكنا نحصل مقابل هذا على شيء من العائد سواء كان ذلك مباشرة من أهالي المتوفى الذي قُرأ له القرآن أو من المقرئين أنفسهم الذين كانوا يعملون حتى عصر يوم العيد.

كانت هناك بعض النشاطات الخاصة بالعيد يقوم بها أهل البلدة كسباقات الخيل، والتي كانت عادة ما تقام في منطقة جرن البلدة الذي كان يتسع لمثل هذه الأنشطة، وعلى طول الطريق الشمالية المؤدية إلى خارج بيوت البلدة المتصلة بالجرن، فكان كل من يملك خيلاً يتوجه للمشاركة في هذه السباقات، كانت أرض السباق ترابية، وكان حينما يبدأ السباق يعج المكان بالتراب والغبار بسبب ضربات حوافر الخيل، وكان هذا يسد النظر ويختلط هذا مع تعالي صيحات المشجعين، وكان الصغار هم الأكثر سرورًا والأشد صياحًا، في ذلك المكان كان جمهور كبير من أهالي البلدة يحضر سباق الخيل، وكان الناس يصلون إلى قمة النشوة قي يوم العيد مع مثل هذه الأنشطة المسلية والمفرحة حتى إنهم كانوا يعودون إلى دورهم في نهاية اليوم حاملين معهم الذكريات والحكايات التي تحفظها ذاكرة الناس لتضيف جزء هامًا لخصوصية هذه المنطقة ولتراثها المميز.

في عصر يوم العيد أيضًا كانت تُعقد حلقات الدبكة والرقصات الشعبية على أنغام الناي أو الشِّبابة والأرغول أو اليرغول، وكانت هذه الحلقات الأكثر جذبًا للرجال والأطفال على حد سواء.

كان العيد في (حمامة) يحمل معنى العيد، وإن كانت الحياة بسيطة إلا أن بساطتها كانت رُقيًا وغنى وسعادة مكتملة براحة البال والنفس بأقصى ما توفر عند الناس في تلك

الأيام، نعم كان العيد ليوم واحد ولكنه كان يحمل معاني كبيرة وعميقة في نفوس الأهالي يورثها كل جيل لمن يليه من الأبناء، كان العيد عظيمًا برهبته وقدسيته وروحانيته التي لا تقبل مجرد مسها بالتفكير أو الشك أو الجدل، وكان العيد عند أهالي بلدة (حمامة) جمالاً ورقيًا وسعادة وبهجة وسرورًا وتأريخًا لتراث شعب يضرب في عمق تاريخ تلك الأرض التي تحمل بين جنباتها معاول ووقع أقدام الآباء والأجداد.

هذا، ولم يكن عيد الفطر وعيد الأضحى هما العيدان اللذان كانا يحتفل بهما أهالي (حمامة) في (فلسطين) قبل نكبة عام ١٩٤٨م فقط، فقد كانت هناك مواسم أخرى وأعياد محلية واجتماعية يحتفلون بها أيضًا وبعضها كان مستمدًا من الديانات الأخرى غير الإسلام أو الديانات القديمة أو من المذاهب الإسلامية غير مذهب أهل السنة، ولكنها قد تركت أثرها عند الناس وتوارثوها وأصبحت من أيام مفاخرهم وتراثهم وحضارتهم الاجتماعية.

٦-٣ عيد وادي النمل.

من تلك الأعياد أو المواسم على سبيل المثال لا الحصر مثلاً، كان عيد أو موسم (وادي النمل) ويقال بأن من اقترح هذا العيد هو (الناصر صلاح الدين الأيوبي) القائد المسلم الذي أعاد تحرير القدس من الصليبيين، وكان الغرض من عيد وادي النمل كما رآه (الناصر صلاح الدين الأيوبي)، هو إرهاب الصليبيين عن طريق عرض المسلمين لكثرتهم كمظهر من مظاهر الوحدة والقوة، وكان مكان الاحتفال بعيد وادي النمل هو ساحة كبيرة تقع في أرض (عسقلان) المدينة الفلسطينية الأثرية القديمة، وحيث كان يشارك في الاحتفال كل أهالي المنطقة بكل ما فيها من قرى ومدن، وكان يحضر هذا العيد

أيضًا أناس من كافة أنحاء (فلسطين) تقريبًا، كان الناس يحضرون إلى وادي النمل وقد لبسوا أجمل الثياب، وكانت تباع هناك الحلويات والطقطق الذي هو خليط من المكسرات والملبس والحلقوم وغيرها، كان الناس يأتون إلى هناك وكانوا يحضرون معهم طعامهم أيضًا، فالمطاعم لم تكن شيئًا مألوفًا في تلك الأيام عدا بيع الحلويات، كان أشبه بالمهرجان وفيه يكون الناس في حركة دائمة طيلة ذلك اليوم وقلما كانوا يستريحون لأن في كل ركن هناك كان يوجد شيء جديد يجذب الاهتمام والانتباه، فهنا ساحر يقدم ألعابا سحرية ويبرز مهارته، وهناك عن بعد شخص آخر يقدم ألعابا بهلوانية جسدية، وقد فرش كل من هؤلاء أو أمثالهما منديلاً ليجمع به ما يجود به الناظرون والحاضرون من نقود، وفي ناحية أخرى من المكان، كنتَ تجد شخصًا آخر يسير على الحبل وقد أمسك بيديه عصًا خاصة وطويلة ليحفظ بها توازنه، وعلى يسار هذا كنت تشاهد حلقة دبكة شعبية يرقص فيها الرجال على أنغام الناي واليرغول بينما (اللّوّيح) – وهو الراقص الذي يتصدر مقدمة بداية حلقة الدبكة وعادة ما يكون الأمهر بين أقرانه – كان يمسك بيده مسبحة أو منديل جيب أو ما شابه ذلك وكان يحرك المسبحة أو المنديل بسرعة وبحركة دائرية أفقية ويده مرفوعة بمستوى رأسه أو أعلى قليلاً بينما هو يقفز ويؤدي ألعاب الدبكة، عادة ما كان اللويح يقود الدبكة وينشد زجلاً شعبيًا اجتماعيًا يحمل معنى الفخر والكرم والوطنية، وتارة أخرى معنى الغزل والشجو، وكان يمضي المتفرج بين هذه الجموع والكتل البشرية فيصل ويقع نظره على حلقات المصارعة التي كانت تسمى (التَّبان) فيجد جمهورًا غفيرًا هناك من هواة تلك اللعبة، والتَّبان لعبة شعبية راقية، وهي شبيهة بالمصارعة، وتختلف قواعدها عن المصارعة في بعض الأمور، وهي خالية تمامًا من العنف، وهي تعتمد على خفة الحركة، وكنا نتمتع كثيرًا بمشاهدتها، وأما الصبية الذين كانوا يحضرون مع أقاربهم فقد كانوا ينجذبون مقلدين الكبار في لعبة التَّبان، وكانت

لعبتهم هي (البِطاح)، وكانت قواعد اللعبة تنحصر في تماسك وتعارك كل اثنين باستعمال الأيدي فقط والفائز هو من يستطيع السيطرة على الخصم بأي كيفية ويعمل على رميه أرضًا بحيث يقع هذا على ظهره، ولعبة البِطاح كانت تتشابه مع لعبة التَّبان التي كان يمارسها الكبار من ناحية وجوب طرح الخصم على ظهره بحيث تلامس ألواح كتفيه من الخلف أرض المصارعة أو أرض اللعب، عمومًا كان الفائز من الكبار في لعبة التَّبان يقف في الساحة معتدًا بقوته يستمع إلى مديح أقاربه أو أصدقائه أو أبناء بلدته إذا كان صراعه مع أحد أبناء أهالي البلدات الأخرى من الذين حضروا إلى المكان في ذلك اليوم، وكان الخاسر في حلقة الصبية كثيرًا ما يخرج حانقًا ومغتاظًا وباكيًا وهاربًا من المكان، أما الزائر المتفرج فقد كان يمضي في ذلك العيد فيجد الزجالين هناك أيضًا الذين في الغالب كانوا ينشدون زجلاً وطنيًا يثير المفاخر ويجمع الناس حول قادتهم الوطنيين من أمثال (الحاج أمين الحسيني) رئيس الهيئة العربية العليا التي كانت تجسد نضال الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال البريطاني، في مساء عيد وادي النمل كان يعود الناس إلى قراهم ومدنهم، وكانت عودة الناس في ذلك اليوم وهم زاحفون بجمهور كبير كل همه هو دخول البلدة كان منظرهم يبعث بمعاني كثيرة لا يستطيع المرء وصفها في هذه السطور، لكن المرء يستطيع أن يقول عن ذلك اليوم، لقد كان عيد وادي النمل أقل ما يقال فيه، إنه يوم رائع ويوم مشهود من كل عام من أيام (فلسطين).

٦-٤ موسم روبين.

وأما في (روبين) أو عيد روبين وذلك نسبة إلى النبي (روبين) فقد كان يقع مكان الاحتفال به في الخلاء، في منطقة كانت تحمل نفس الاسم وتقع جنوب مدينة (يافا)، إلا أن عيد روبين لم يكن عيدًا بالمعنى الذي سبق، وإنما كان مناسبة وموسم اصطياف يقضي

فيه الكثيرون من أهالي مدينة (يافا) وبعض أهالي المدن والقرى المحيطة أوقاتا سعيدة، كان الناس ينصبون خيامهم في ذلك المكان لمدة قد تصل إلى شهرين أو أكثر، وكانت المنطقة هناك تتحول بشكل يومي تقريبًا إلى ما كان يشبه ما يحدث في عيد وادي النمل، وكان المكان كما لو أنه قد أصبح قرية مؤقتة، كان غالبية رواد هذا الموسم أو المصيف أو العيد هم من أهالي المدن القريبة من مدينة (يافا)، وحيث إن سكان المدن يهفون في العادة إلى الخروج من المدن والى قضاء فترة من الزمن في الريف إن استطاعوا، ولو حدث ذلك فهم هنا يمارسون متعتهم مثل مُلاك الأراضي من أهل الريف الذين كانوا يقضون فترة الصيف أيام العِزِب في كرومهم، إلا أن عيد روبين كان مميزًا لكثرة الناس الذين كانوا يفدون إلى المكان، وما قد يجلبه أهل المدن معهم من أنشطة وأطعمة وأشياء مميزة، كانت تقام في روبين العروض بكل أنواعها والدبكات والسباقات على أنواعها، وكانت تعرض فيها كافة ما يحتاجه الناس من مأكل أو مشرب أو ملبس، وكان عيد روبين في هذا أكبر وأمتع من عيد وادي النمل، كان كثير من أهالي (حمامة) يذهبون إلى روبين لقرب بلدتهم نوعًا ما من المكان، وكان البعض منهم يعتاش من بعض الأعمال التي كان يمارسها في ذلك الموسم هناك، كان الناس هناك يتمتعون يوميًا بكل أنواع الأنشطة ابتداء من سباقات الخيل إلى شراء المأكولات والهدايا وغير ذلك، كان موسم روبين له طعم ووقع خاص أيضًا في نفوس الناس، فقد كان فيه راحة وترويح للنفس، وكان فيه التمتع بمشاهدة الجديد في مهرجان مستمر لفترة طويلة نسبيًا، كان روبين بالنسبة لأهالي مدينة (يافا) أكثر من هذا، حتى إنه لا ندري كيف أضحى الناس يمازحون أهالي مدينة (يافا) في تلك الأيام ويقولون عنهم، إن المرأة من أهالي (يافا) تقول لزوجها في كل موسم "إما تروبني أو تطلقني"، أي بمعنى إما نقضي هذا الصيف في روبين وإما عليه أن يطلقها، وطبعًا هذا قول فيه مبالغة كبيرة إلا أن معناه في السياق الأبعد هو أن أهالي المدن الكبيرة

كما هي (يافا) مثلاً هم أرقى في معيشتهم من كل النواحي من أهل الريف وتعودهم على الرفاهية ليس جديدًا عليهم، وكون موسم روبين أو عيد روبين كان وسيلتهم للتمتع بحياة الريف والخلاء وفرصة لميسوري الحال منهم فربما كان يبدو هذا دافعًا للمنافسة بين الأسر لإظهار الغنى وحضور المناسبة، وربما لهذا السبب كانت المرأة من مدينة (يافا) في تلك الأيام تقول ما تقول لزوجها، إلا أن عيد روبين أيضًا يؤكد خصوصية أهل (فلسطين) وعمق انتمائهم إلى تراث اعتادوا عليه، لأن الأعياد والمواسم والصفات الخاصة لأي شعب أو أمة هي هويتها بين الآخرين.

٦-٥ أربعاء أيوب.

هذا، ومن الأعياد التي كان أهالي (حمامة) يمارسونها ويحتفلون بها أيضًا، عيد "أربعاء أيوب" وكان هذا يسبق موسم وادي النمل في توقيته، وفيه كان يذهب الناس إلى شاطئ البحر أو إلى منطقة الشيخ عوض على شاطئ (حمامة)، ومنطقة (الشيخ عوض) هي مقام لأحد أولياء الله الصالحين، ويقال بأن الشيخ (عوض) هو ابن (أبو عرقوب) الذي يحمل مسجد البلدة اسمه، وأخ لـ (أبو جهم) وهو أيضًا من الأولياء، ومقام الشيخ (عوض) يقع على شاطئ البحر جنوب غرب بيوت البلدة، كانت النساء في عيد أربعاء أيوب يتفاءلن حين الذهاب إلى ذلك المكان عند الشاطئ، فقد شاعت خرافة في تلك الأيام تقول، بأن المرأة العاقر إذا سبحت أو استحمت في البحر في تلك المنطقة فإنها بإذن الله ستحمل، ولذا كانت النساء من هؤلاء يتسابقن للاستحمام والسباحة في بحر تلك المنطقة، وكانت تتسابق أيضًا في إلقاء أنفسهن في البحر خصوصًا وقت الغروب، وذلك انتظارا لتحقيق الأمنية المنشودة أو هكذا كانت طقوس الخرافة.

٦-٦ عاشوراء.

كان أهالي (حمامة) أيضًا يحتفلون بيوم عاشوراء فقد كان الناس فيه يحتفلون بالصيام وكثيرًا ما كان المُحسنون يعدون طعامًا للفقراء وعادة ما كان المفتول أو الجريشة، وكلاهما كان يُضاف إليه اليخن المحتوي على اللحم، وهو ما كان يقدم للفقراء في تلك المناسبة.
ويقال عن عاشوراء إنها اليوم العاشر من شهر مُحَرَّم الذي هو أول السنة الهجرية بالأشهر الهلالية (القمرية)، وقد ورد أنه اليوم الذي أَنْجَى الله فيه (موسى)وقومَهُ، وأغرق فيه فرعون وقومَهُ، فصامه (موسى) وصامه اليهود، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "نحن أحَقَّ بموسى منكم" فصامه، وأمر بصيامه، وكان قد فُرِضَ أولاً، ولَّما فُرِضَ رمضان أصبح صيامه نافلةً، لكن فيه فضل كما في الصحيح عن (أبي قتادة) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "صيام يوم عاشوراء يُكَفِّرُ السَّنَة التي قبله".

٦-٧ عيد خميس البيض.

يقال إن أعياد الربيع في (فلسطين)، هي طابعًا دينيًا، رغم أنها تعود إلى زمن أقدم بكثير من ظهور الأديان التوحيدية الثلاثة، واستمرت، بتأويلات مختلفة معها، ولهذا يواصل المواطنون، بشكل غير مخطط أو واع، طقوس الاحتفالات بقدوم الربيع، كما مارسها أسلافهم منذ آلاف السنين، ولكن هذه المرة تتخذ طابعًا دينيًا، ما زال الفلسطينيون مثلاً يستخدمون عبارات تعود للآلهة القديمة الكنعانية والفينيقية، فيما يخص التقويم الزراعي الفلسطيني، الذي يكاد يكون مجهولاً، حتى في أوساط المثقفين، ومفردات أخرى في الاستخدام اليومي، فمثلاً أكثر ما يتردد الآن على السنة الفلاحين الفلسطينيين، هو خشيتهم من خسارة محققة في الزراعة البعلية، التي تعتمد على الأمطار، والإشارة هنا

واضحة إلى (بعل) إله الأمطار والرعود، الذي مضى عهده منذ زمن ولكنه بقي حيًا في مصطلح يتداول بشكل دائم، والأمر أيضًا ينطبق على لفظة (معشرة) للإشارة إلى حمل إناث الأغنام والبقر والدواب، والإشارة إلى (عشتار) آلهة الخصب، وتوجد بعض الألفاظ التي أصبحت جزءًا من اللغة الفصيحة، منذ زمن غير معروف، مثل (عانة) للإشارة إلى شعر أسفل البطن، ويعتقد أنها اشتقت من اسم الآلهة (عناة) الكنعانية، ورغم أن العالم أجمع، يرنو إلى (فلسطين)، في نهاية شهر كانون الأول (ديسمبر) من كل عام، وهو موعد بدء فصل الشتاء، والأمطار والخير، بسبب أعياد الميلاد، التي تحظى بتغطية إعلامية كبيرة، إلا أن الأهم بالنسبة للسكان المحليين في (فلسطين) والحجاج، هو أعياد الفصح التي تنطلق منذ بداية الربيع، وتتواصل طوال شهر نيسان/أبريل، وأكثر مظاهر هذه الاحتفالات شعبية، هو ما يطلق عليه اسم (خميس البيض)، في ثاني يوم خميس من شهر نيسان/أبريل، حيث تعمد الفلسطينيات المسلمات والمسيحيات، إلى صبغ بيض الدجاج، وبطرق بدائية، ومن مواد متوفرة في الطبيعية، مثل قشر البصل والأعشاب الخضراء، ويتم تبادل هذا البيض بين العائلات، والجيران، والأكثر فرحًا بهذا البيض الملون هم الأطفال، الذين ينتظرون خميس البيض بشوق، ليتبارزوا في عمليات كسر البيض، الذي يبدأ يتوفر بكميات أكثر من شهر الشتاء مع ازدياد خصوبة الدجاج في الربيع، في زمن مضى، كان صبغ البيض يتم، ضمن طقوس، حيث يعمد الأطفال في المنازل فيما يشبه الكرنفال الاحتفالي، لجمع البيض، وهم يغنون ويهزجون، ثم صبغه بشكل جماعي.

لهذا إن عيد (خميس البيض) كان يحتفل به في (حمامة)، فقد كانت العائلات تعمل على إحضار كمية من بيض الدجاج وكانت تعمل على صبغه أو تلوينه من الخارج، وذلك بأن تضيف خلال عملية سلق البيض قشر البصل الناشف أو بعض النباتات الخضراء إلى

الماء المغلي لكي يصبح البيض المسلوق جاهزًا للأكل وملون من الخارج، وكان البعض يعمل على تزويق البيض من الخارج بالنقش يدويا على القشرة الخارجية، وذلك بالألوان المتاحة في بيئته، وكل شخص أو عائلة بطريقتها الخاصة، كان أهم الأنشطة التي يمارسها الشباب والصبية في حارات البلدة في عيد خميس البيض كما كان يطلق عليه، هو عملية مكاسرة البيض مع الآخرين، كان من يكسر بيضة الآخر بالبيضة التي يمسك بها بيده له الحق في أخذ بيضة الخصم، وهكذا كانت تتكرر العملية، وكان يمارس لعبة مكاسرة البيض الشباب والصبية، كان الواحد من اللاعبين يمسك البيضة بقبضة يده بثبات جاعلاً طرفها الحاد أو الأصلب وكما يظن إلى أعلى محاولاً بقدر الإمكان أن تكون قبضته مغطية بقدر ما يستطيع محيط البيضة خصوصًا كلما اتجه إلى أعلى لتكون داعمة وساندة للبيضة بقدر الإمكان لإبراز مهارته، وذلك لإعطاء قشرة البيضة دعمًا إضافيًا إضافة إلى صلابتها الطبيعية لأجل أن تقاوم الكسر، هذا إذا كان اللاعب هو من يتحدى لاعبًا آخر ليشرع هذا الآخر بالمطاقشة أو مكاسرة البيض، وإن كان على اللاعب هو من عليه أن يضرب ببيضته بيضة الطرف الآخر فهو أيضًا كان يمسك البيضة بخفة وبكيفية تميل إلى محاولة ضرب بيضة الطرف الآخر من الجانب ولو قليلاً لأن الكسر بهذه الكيفية يكون أسهل، وذلك لضعف المقاومة كلما اتجه به الأمر إلى أسفل، كان المهم في كل الحالات سواء كان اللاعب هو الذي يشرع بضرب بيضته ببيضة اللاعب الآخر أو كان العكس فإن الهدف العام هو أن تظل بيضته سليمة، لأن كل بيضة تنكسر قشرتها كانت تُفقد أو يخسرها صاحبها وتصبح من حق الخصم، هذا، وقد يغير اللاعب متى شاء ويلعب مع شخص آخر إلى أن ينتهي اليوم ويضحي البيض المسلوق مع الشباب كله منقرًا أو مكسرًا من نقاط التصادم مع بيضات الخصوم، وكانت مطاقشة أو مكاسرة البيض في ذلك العيد تتم قي البيوت أيضًا بين الإخوة والأخوات، أو عند أبواب الدور والحارات

مع أبناء الجيران أو في الساحات العامة وسط البلدة، وفي النهاية كان هناك الرابحون وكان هناك الخاسرون أيضًا، وكان يعود الشباب والصبية بعد الظهر إلى بيوتهم وعدد البيضات التي خرج بها كل واحد منهم من البيت ليس هو نفس العدد إلى حد ما فإما أكثر أو أقل، وقد يكون عيد البيض أو خميس البيض كما كان يطلق عليه هو في الأساس عيد ديني مسيحي كما هو مثلاً عيد عاشوراء الإسلامي الذي يشير إلى استشهاد الإمام (الحسين بن علي) في كربلاء أيضًا.

هذه هي (حمامة)، وتلك هي أعيادها ومواسمها، وقريبًا أو بالتأكيد، مهما طال الزمن سيعود الحمام الزاجل إلى وطنه حتى لو كان ذلك في صورة الأبناء والأحفاد، ويومها حتما ستقام الأفراح والمواسم وسيحتفل الأهل في (حمامة) بالأعياد مرة أخرى ويستأنفون إثراء التراث.

---

(١) بمساعدة علي القوقا.

(٢) لحم الجمل المسن نوعًا ما.

الفصل السابع

٧-١ الزواج

الزواج كما نعرف هو سنة من سنن الخالق لا تشذ عنه كل المخلوقات بما فيها الإنسان، ومهما كانت المعاني والتبريرات أو الاجتهادات في اختلاف الآراء أو الحضارات في هذا العصر أو في العصور الماضية بالنسبة لطقوس الزواج يبقى لكل اختلاف نكهته وتميزه، وبما أننا نتناول مناحي الحياة في بلدة (حمامة) أجد بأنه من الواجب المرور على وصف الزواج عند أهالي بلدة (حمامة) في تلك الأيام الخوالي قبل سنة ١٩٤٨م، السنة التي احتل فيها الصهاينة تلك البلدة الخالدة في قلوب الذين ولدوا فيها ومن جاء من نسلهم.



كان استقرار الأسرة وقوتها في (حمامة) هدفًا مركزيًا تتمحور حوله أفكار كل أولياء الأمور، فما إن يصل الأبناء الذكور إلى سن الزواج حتى يبدأ الأبوين في عملية البحث عن عروس تحقق لولدهما حياة زوجية مستقرة، وتورث أبناءها وبناتها صفاتها الحسنة والتي بلا شك ستنعكس على الأبوين إيجابيًا في سن شيخوختهما من خلال علاقة طيبة مع زوجة ابنهما، حيث إنه درجت العادة على أن يعيش الابن وزوجته في نفس بيت العائلة مع أبويه وإخوته وأخواته، ولذا فإن على زوجة الابن أن تكون على خلق وحسن تربية وتعاون، حتى يسود الوئام والاستقرار في الأسرة وتستمر الحياة.

وتفاديًا لأي مشاكل كثيرًا ما كان الأهل يخطبون بنت العم أو العمة أو ابنة الخال أو الخالة أو ابنة الجيران أو الأصدقاء أحيانا منذ طفولتها المبكرة لأحد أبنائهم، وذلك لاطمئنانهم إلى أخلاقها وإلى تربيتها، فيقولون مثلاً هذه لابننا فلان، فإذا قَبِلَ أهل البنت ذلك حتى وإن كانت طفلة، قالوا: "خليه يشد حيله، إحنا عاوزينه رجال"، ويصبح ذلك كالعهد يستلزم الوفاء من جانب أهل البنت، وكثيرًا ما كان يوفى بهذا الوعد والعهد، وقلما كان يُنقض لأسباب منها مثلاً أن البنت قد تبدى بها شخص آخر ممن هو أكثر قرابة لها من الخاطب السابق، أو أن الخاطب لم يعد يعجبهم لأنه لم يصبح ذلك الشاب الذي تمنوه زوجًا لابنتهم، أو إن فيه عيب فاضح لا يغتفر من قبلهم.



٧-٢ الخطبة.

في الأحوال العامة والعادية، فإن أهل الشاب هم من يفاتحونه بالزواج ويشرعون في البحث له عن عروس ممن يتوسمون فيها صفات الزوجة المناسبة، لا أذكر أنني سمعت في حياتي ونحن في (حمامة) أن شخصًا وأحدًا أثار موضوع الزواج مع أهله بشكل مباشر طالبًا الزواج سوى ما ندر من السذج والبسطاء أو الذين كان يظلمهم أهلهم بتجاهلهم، فقد كان في نظر المجتمع إذا راح الشاب يلح على أهله في طلب الزواج يعتبر وقحًا وعديم الحياء، وقد جرى العرف أن الأهل هم الذين يدعون الشاب إلى قبول فكرة الزواج ويدللونه بالإغراء تارة وحتى بالتوبيخ أحيانا والنقد إذا أصر على عدم التجاوب لمدة طويلة، كانوا يقولون له في بعض الأحيان، ألستَ رجلاً؟ وإن لم تكن كذلك لماذا لا توافق على فكرة الزواج، ويظلون يلحون عليه إلى أن يقبل، والوالدان في العادة كانا يراقبان ابنهما، وكانا يتحسسان رغبته عندما يبدأ بالاهتمام بنفسه خصوصًا بمظهره الخارجي سعيا للفتْ أنظار الجنس الآخر، كان في العادة يختلي الأب مع الأم أحيانا وكانا يبحثان الأمر في هدوء وجدّية ويبدآن في استعراض مَن يعتقد أن بصلاحيتها لتكون زوجة للابن "كِنة المستقبل".

جرتْ العادة على أن تقوم الأم بالبحث حتى يقع اختيارها على إحدى الفتيات وتخبر ابنها حتى يراها ولو من بعيد لتكمل باقي الخطوات، إذا وجدت الأم تجاوبًا وقبولاً من ابنها تبدأ مرحلة السؤال عن سلوك الفتاة وسلوك أمها وشقيقاتها وخالاتها وعماتها وشهامة رجال عائلتها من أب وأخوة وأعمام وأخوال، وذلك من خلال المعارف والجيران الذين على صلة بأهل الفتاة، في الحقيقة كانت المصاهرة تتم لأجل صفات أُسر العروسين، فكما أن الأسرة الخاطبة لولدها عروسًا يهمها أسرة أهل العروس، كانت أسرة

العروس أيضًا يهمها أن تتباهى أيضًا بمن تصاهر من العائلات المعروفة بين أهالي البلدة، ثم تأتي عملية نقد الفتاة استعدادًا لإكمال باقي الخطوات، وهنا تذهب أم العريس بصحبة ابنتها الكبرى أو إحدى سيدات العائلة الموثوق فيهن لزيارة بيت الفتاة كبداية تعارف ومحاولة لمعرفة ما يمكن معرفته عن عروس المستقبل، كانت أم العروس تستقبل الزائرات مدركة على الفور معنى الزيارة وغرضها بحاستها السادسة، وأحيانا كانت بعض النساء يذهبن خلسة إلى بيت أهل العروس كعابرات سبيل ليس أكثر أو متعللات بأسباب واهية ليست ذات قيمة، ويبدأن المهمة الصعبة مهمة الاختبار والتفحص، بالنسبة للزائرات فإنهن يعملن على تقييم درجة الاستقبال إذا كانت الزيارة واضحة، ويتحسسن حرارة الاستقبال فيدركن القبول أو الرفض المبدئي حتى بدون الشروع في الطلب أو الحديث عن الغرض، وكان يبدو ذلك من خلال المكان الذي تدعى الزائرة للجلوس فيه ومن مستوى الترحيب والبشاشة التي تلاقيها الزائرة أو الزائرات وما شابه ذلك من مثل هذه الأمور، أما إذا كانت هناك بالفعل علامات للقبول المبدئي من جانب أهل العروس، جلست العروس للتسامر مع الزائرات اللاتي كن يبدآن بالتغزل بها بالمدح والمجاملة، وذكر مناقبها وتحسس شعرها ولمس جسمها وقد يطلبن شربة ماء لمراقبة مشيتها أو يقدمن حبة لوز طالبات كسرها بأسنان الفتاة المنشودة، وذلك للتأكد من سلامة الأسنان أيضًا، ولم لا؟ فهن يتسوقن لاختيار عروس عزيزة لشاب هو الأعز، كل هذا كان يتم بطريقة دمثة فيها لباقة ومقبولة ومتعارف عليها بين أهالي نساء البلدة، إذا شعرت الأم براحة لأهل الفتاة تدخل بالموضوع وتبدأ بالحديث عن ابنها فتستعرض رجولته المبكرة، وقدرته على تأمين حياة مستقبلية جيدة وذلك من خلال تعديد مناقبه ومميزاته وقدراته، ثم يجيء دور أم الفتاة بإظهار القبول المبدأي بقولها، أهلاً وسهلاً بكم

ونسبكم يشرفنا ولكن الكلمة للرجال، وهم أصحاب الحل والربط، وإن شاء الله نرد عليكم بعد التشاور، أعطونا أسبوعًا.

كانت مثل هذه العبارات أو المعاني هي المتداولة في مثل هذه اللقاءات.

ثم تعود بعدها أم العريس ومن كان معها من النساء إلى دار العريس ويجتمعن مع باقي أفراد العائلة لإعطاء ملخص للزيارة وانطباعهم عن العروس وأهلها لاتخاذ الإجراءات اللازمة للخطوة التي تليها، إذا كانت الفتاة ذات جمال مميز متفوق على مثيلاتها راح الكل يتحدث عن جمالها وعن عينيها وهلم جرا، وإن كانت عادية كان الأمر يكون صعبًا إلى حد ما ويبدأ التساؤل، يقول البعض، إن فم الفتاة كبيرًا نوعًا أو إن أسنانها بعيدة عن بعضها أو إن شعرها خشن أو إنها قصيرة، ويرد طرف آخر، لكنها بيضاء وست بيت متمرسة وعيناها جميلتان وهكذا، وقد يصرف النظر عن هذه الفتاة ويبدأ البحث عن غيرها، وقد تكون هي القسمة والنصيب.

يقوم أهل الفتاة بالسؤال عن العريس وعمل بحث كاملٍ عنه وعن عائلته، والسؤال عن حسبه ونسبه، ويشاورون أقربائهم خاصة من لهم أبناء في سن الزواج، فقد كان العرف يقضي بالأحقية لابن العم في الزواج من ابنة عمه إذا لم يكن فيه ما يعيب بشكل ظاهر، ولذلك كان أهل الفتاة قبل أن يعطوا كلمتهم بالموافقة لأي طالب زواج من ابنتهم من الغرباء أن يُعلموا أقاربهم وبسؤالهم مباشرة بالكيفية التالية، هل من يود الزواج منكم من ابنتنا فلانة، كان هذا ما يقوله والد الفتاة المرشحة للزواج أو بهذا المعنى لأقربائه، أما السبب في ذلك فهو أن العرف والعادة والاقتناع عند الناس في تلك الأيام، هو، أن من حق ابن العم أن يخطف ابنة عمه خلال عرسها إن كانت تزف لشخص غريب دون عرضها عليه إن كان مستعدًا للزواج، وقد شاع مثل بين الناس ظلوا يتناقلونه جيلاً بعد جيل، وهو، "إن ابن العم يُنزل ابنة عمه عن الفرس"، بمعنى: إنه يستطيع أن يوقف

زواجها من أي غريب حتى لو كانت في يوم زفافها لهذا الغريب، وحتى إن ابن العم أو أهله كانوا أحيانا يشيعون بين الناس، أن الفتاة الفلانية من أقاربهم هي للزواج من أقاربها، فيصل الخبر إلى الباحثين عن الزواج منها من الغرباء فلا يذهب أحد من الغرباء ثانية لطلب تلك الفتاة، هذا، وقد يُرسل أحد أقارب العروس أو الفتاة المرشحة للزواج من أحد الغرباء من يُعلم أسرة العريس الغريب المتقدم للزواج من تلك الفتاة، بأن عليهم ألا يستمروا في محاولة إتمام الزواج، هذا إذا أصر والد الفتاة من تزويجها في أسرة غريبة، أما إذا تيسر الأمر وكانت الطريق ممهدة للخاطب الغريب، قالتْ أسرة الفتاة لأمها مثلاً، ردي على الجماعة أو على النساء اللاتي أتين هنا أو على طالبي المصاهرة وأخبريهم بترحيبنا، وإن لم يحظ الطلب بالقبول قالوا لأم الفتاة، أخبري الجماعة أن أحد أقرباء البنت قد تَبَدُى بها، وذلك كحجة مثلاً لإبعاد هؤلاء الناس عن تكرار المحاولة، وقد يكون هذا الرد صحيحًا في بعض الأحيان، وقد يكون ردًا دبلوماسيًا لإبعاد الخجل والإحراج والكسوف، ولكن المعنى العام هو رفض المصاهرة، إلا أنه كان يحدث في كثير من الأحيان خصوصًا إذا كان المتقدم للخطبة من عائلة أخرى غير عائلة العروس أن الرفض بحجة ابن العم يكون صحيحًا، ولهذا كانت خطبة العروس تنجح من أول مرة أو من أول محاولة وقد لا تنجح، وقد تتكرر المحاولة أكثر من مرة حتى يحصل النصيب، وفي العادة تطلب أم العروس المراد خطبتها من أم العريس أن يرسلوا "سوقة" أو جاهة وعندها يدعوا أبو العريس عددًا من وجهاء عائلته، وقد يرافقهم واحدٌ أو أكثر من وجهاء البلدة بغرض رفع شأن أهل العروس وإشعارهم بالاحترام الزائد، كما أن ذلك كان يعتبر تزكية وتشريف من جانب الوجهاء للعريس وأهله أيضًا.

هذا وبناء على موعد محدد كان يلتقي الجمعان في بيت أهل العروس، حيث إن أبو العروس أيضًا يكون قد دعا عددًا من أقاربه للحضور ليستقبلوا معه رجال "السوقة"

الغرباء، وأما كلمة السوقة هنا فقد كان لها مفهوم محدد، هو طلب المصاهرة بين الناس، وكلمة السوقة لا تتعدى معنى الالتماس وطلب الموافقة، في مجلس السوقة كانت العادة أن يبدأ الرجال من الحضور بالأحاديث العامة القصيرة مبتدئين بالمجاملة والسلامات والترحيب، وهذا كان يحدث من قِبل أهل العروس لضيوفهم لأنهم أصحاب الدار، ثم يشرع كبير جماعة "السوقة" الحديث المباشر قائلاً بل خاصًا كلامه لكبير أهل العروس: "أبو فلان الله يمسيك بالخير، نحن جئنا إلى بيتك العامر هذا طالبين القرب منكم، وخاطبين كريمتكم فلانة على سنة الله ورسوله إلى ابننا فلان." ويكمل، "نحن أبناء بلدة واحدة، يعرف كل منا الآخر أبًا عن جد، نحن جِمَالك – مفرد جَمَل – وحمل وإحنا نشيل، أنت تفصل وإحنا نلبس". ومعنى هذا هنا أو حسب العادات السائدة في تلك الأيام، أن أهل العريس يَقْدرون على تلبية طلبات أهل العروس، لأن هذه العروس ونسب أسرتها يستحقان كل هذا، وأن الأسرتين معًا تستحقان التقدير، لأن في هذا القول أيضًا معنى أن أسرة العروس أسرة تشرف من يصاهرها، وأسرة العريس أيضًا أسرة قوية وغنية وكريمة المنبت والأصل، بعد انتهاء كلام وجيه السوقة أو كبيرها المتنفذ يرد والد العروس أو وجيه المستقبلين قائلاً، "أهلا وسهلا بكم"، ويضيف، "لقد استشرنا أقرباءنا، والجميع موافقون، وليس هناك أي اعتراض على قبولنا لمصاهرتكم ليختلط دمنا بدمكم، ونصبح بعونه تعالى عائلة واحدة، شركاء في الخير إن شاء الله".

في هذا الجو العاطفي الذي تحفه الطيبة وتباركه بشاشة الوجوه وأسارير الفرح والرضا المرسومة عليها، يتداول الحضور عبارات الثناء والمجاملة ثانية، وينتقل الحديث بعد ذلك إلى التفاصيل، كتحديد مهر العروس (فصل المهر) وشروط إتمام الفرح، فيتوجه كبير السوقة لأبي العروس قائلاً: " أطلب يا أبو فلانة، أو ما هي طلباتكم" ويفهم من هذا أن القصد هو تحديد المهر أو الصداق الشرعي على سنة الله ورسوله، يرد والد العروس

محددًا المهر قائلا، "ابنتنا مهرها المقدم كذا والمؤخر كذا وكسوتها كذا وذهبها كذا وكذا"، وفي العادة كان لا يخلو في البداية مبالغة في طلبات أهل العروس، يعني مثلاً إذا كان المهر الحقيقي حسب العرف الساري بين الناس في تلك الأيام هو حوالي ثلاثمائة جنيه، كان والد العروس يطلب في البدلية مهرا مقداره عشرة آلاف جنيه، وتبدأ بعد ذلك المفاوضات لتحجيم الطلبات واختصارها وردها إلى ما كان العرف متفق عليه فيحذفون شيئًا لوجه الله والنبي "خمسة آلاف جنيه مثلاً"، ومبلغًا آخر للزعيم الوطني فلان "ألف جنيه مثلاً"، ومبلغًا آخر للوجيه فلان "ألف جنيه مثلاً"، وشيئا لخاطر رجال السوقة الحاضرين وعددهم أربعة "خمسمائة جنية لكل واحد مثلاً"، ويستمر الحال هكذا إلى أن يصل المبلغ إلى ثلاثمائة جنيه فقط، وقطعًا هم سيصلون إلى اتفاق ما دامت النية قد عقدت والرغبة قد توفرت بين الطرفين والقبول قد حدث، على هذا يقرأ الحضور فاتحة القرآن الكريم التي كانت بمثابة عقد اتفاق مبدئي يلتزم به الطرفان التزامًا كاملاً يندر إبطاله، فيقمن النساء من أهل البيت اللاتي كن يسترقن السمع بالزغاريد والأهازيج، كإعلان لنجاح الطلب وإشهار الاتفاق، وهكذا تسير الأمور ويتحدد يوم لتحرير عقد الزواج الشرعي على سنة الله ورسوله.

أيوبها، ضليت أركض ورا الأجواد لناسبهم(٢)

أيوبها، هب الهوى ورماني على مصاطبهم

أيوبها، دعيت رب السما ينصرهم

أيوبها، نصره عزيزة تجبر بخاطرهم.



٣-٧ عقد القرآن وجهاز العروس.

في بلدة (حمامة) كان إمام الجامع أو مؤذن المسجد هو من يقوم بتحرير عقد القـرآن، وفي اليوم المحدد يحضر موكب الفرح إلى بيت العروس ويحرر عقد الزواج أو كَتْـبِ الكتـاب كما شاعت تسميته، وذلك حسب الأصول الشرعية المعروفة، ويُقدّم المهر ويتم الإشـهار وتكثر الأهازيج والزغاريد وتسمع أصوات المهنئين بالمباركة لآل العروسـين وخصوصًـا لآل العريس، ويتخلل هذا معانقـة الأقـارب والأصـدقاء المهنئـين للعـريس وقـد يُقَبـل العريس هناك يد والد العروس عنوانًا بسعادته بالمصاهرة والطاعة وإظهارًا للاحترام ولا يكون من والـد العـروس إلا أن يـدعو الله بـدوره للعـريس بـالتوفيق، تُقـدم العصـائر والحلويات للحضور ابتهاجًا بإتمام كتب الكتاب في جو من البهجة والسرور والزغاريـد والمهاهاة.

بعد ذلك تبدأ الخطوات التنفيذية التي تبدأ عادة بالجهاز، أي تحضير جهاز العروسة من الكسوة والحلي وما يتوجب، وفي يوم شراء الكسوة تتوجه العروس ويرافقها في العادة جماعة تتكون من أم العريس وعدد من قريباتها وكذلك أم العروس وعدد قليل من قريباتها أيضًا، وذلك إلى دكان القماش في ميدان (أبو عرقوب) وسط البلدة حيث كان يوجد دكان (حمادين الدنف) ودكان (إبراهيم الدنف)، وهما بالمناسبة تاجرا القماش المعروفين في بلدة (حمامة) في تلك الأيام، كان يتم شراء قطع الأقمشة التي تحددها النساء الموجودات والتي يتفق الطرفان عليها مقدمًا أحيانا، وكان معظم المشتريات هي ثياب للعروس وبعض الهدايا لأهلها أحيانا وكذلك للعريس وأهله أيضًا، هذا، ولا بد من عمل حساب الأعمام والأخوال بالنسبة للعروس ومراضاتهم بدماية "قمباز" لكل واحد مثلاً، كان يتم أيضًا شراء ما يلزم لتجهيز عدد من اللحافات والمخدات والفرشات مما كان يُعتبر جزأ مهمًا من لوازم الزواج، إلا أن هذه كان يشتريها أو يُعدها أهل العريس وليس بالضرورة أن يتم شراؤها يوم الكسوة، بعد ذلك يأتي دور شراء المصاغ/الحلي الذهبية، وكذلك صندوق العروس الذي هو صندوق يُصنع من الخشب المزركش بالألوان الزاهية، وكان يُعتبر هذا الصندوق جزأً مهمًا لا بد من وجوده كجزء أساسي من أثاث الزوجة حسب عادات الزواج في (حمامة)، كانت تضع العروس في الدرج الصغير لهذا الصندوق مصاغها ونقودها، وفي الحيز الباقي من الصندوق كانت تضع بعض ملابسها وخصوصياتها، وكان للصندوق قفل حتى لا يعبث الفضوليون أو الأطفال بمحتوياته، كل المشتريات من أقمشة ومصاغ ولوازم أخرى كان يتم شراؤها، وكانت تحمل عادة إلى بيت العريس أولاً ثم يُحدد يوم لتقديمها إلى العروس،

وفي ذلك اليوم المحدد لتقديم الكسوة للعروس، يُعد موكب من نساء أهل العريس يقمن بحمل الأقمشة التي تم شراؤها على صواني نحاسيه فوق رؤوسهن، وتحمل إحدى

النساء الصندوق أيضًا، وتتوجه النساء اللاتي يزغردن ويصفقن مع أهازيجهن المتواصلة على طول الطريق إلى بيت العروس، بينما يصطف المارة على جانبي الطريق، وكثيرًا ما كانت النساء يفتحن أبواب بيوتهن لمشاهدة الموكب فيشاركن بالزغاريد والمهاهاة، وقد ينضم البعض منهن إلى الموكب للتعبير عن مشاركة أكثر جدية، لا يكاد الموكب يصل إلى بيت العروس حتى ترتفع الزغاريد ويشتد التصفيق ويعلو صوت الطبلة وتتسابق القادرات على المهاهاة في المشاركة بانفعال وفرحة غامرة حين استقبال القادمين، وهكذا يلتقي الجمعان وتنشغل النساء هناك مثلاً بالرقص الريفي الموروث على أنغام الطبلة، وكثيرًا ما كان ذلك يتم في بيت أحد جيران أهل العروس إذا كان أوسع من دار أهلها، وذلك بعيدًا عن مكان ومشاهدة الرجال حتى تأخذ النساء حريتهن في الرقص والتعبير في ممارسة طقوس الفرح المتعارف عليها في ذلك الزمن، هذا، ومنذ الساعة تبدأ العروس وأهلها في إعداد الجهاز استعدادًا للزفاف فالخيّاطة أو الترزية تقوم بدورها، والقطان أو المنجد يُعد الفراش في بيت أهل العريس، وكان هذا يتم عادة خلال فترة يتفق عليها الطرفان قد تكون شهرًا أو شهرين أو ربما أكثر.

في هذه الفترة المتبقية كانت أحيانا تقام حفلات للرجال عند بيت العريس، الرجال من أهل العريس وأصدقاؤه كانوا يُقيمون حفلاتهم في أكثر من أمسية، وكانت مُجملها حفلات غنائية شعبية تراثية شجية لها وقع وطابع مميز، كانت الأدوات الإيقاعية التي تصنع بها موسيقى الفرح هي زجاجات فارغة تضرب برفق بواسطة قطع حديدية صغيرة وصواني نحاسية يطرقون عليها وطبلة، وتتناغم جميعها مع الموال والعتابا والميجانا مع أغاني ظريف الطول ودلعونه وغيرها من الأغاني القديمة التي كل منها كان له لونه في الأداء الموسيقي البسيط حسب موضة تلك الأيام، وقد تقام حلقة دبكة على أنغام الشبابة/الناي واليرغول، وقد يرقص بعض الشباب طربًا وفرحًا وانفعالاً بالمناسبة،

كانت هذه الحفلات تكثر وتتقارب في أيام حدوثها وتتكرر مع اقتراب موعد الزواج أو الزفاف، في أغلب الأحوال كانت النساء عند حفلات الرجال لا يشاركن بل يقفن على أحد الجوانب من تلك الساحة لأجل متعة المشاهدة متأخرات قليلاً أو بعيدًا عن مركز حلقة الرقص وذلك حياء وحتى لا يستطيع أحد بسهولة معرفة أو تمييز إحداهن من ناحية من هي أو ابنة من أو زوجة من تكون من الناس، وكان بعضهن في خضم الحشرة والكثرة يطلقن الزغاريد في لحظات معينة أو إذا توجب الأمر وحسب انفعال الفرح والبهجة غير عابئات لأن أحدًا من الرجال لا يستطيع تمييز من الفتاة أو من هذه المرأة التي تطلق الزغاريد، هذا، وأما في حفلات النساء قبل يوم الزفاف التي كانت تُقام أحيانا عند بيت أهل العريس، كانت النساء تأتين في جماعات من حاراتهن البعيدة عن حارة أهل العريس أو العروس وذلك للمشاركة في سهرة الفرح، وكن يتجملن باستعمال شيء اسمه (شيح أُنفُخ) وهو عشب بري كانت النساء يستعملنه بفركه على الوجه والشفتين فيثير احمرارًا في الوجه وحيوية، وكن يعددن المشاعل حيث كانت مثل هذه الأفراح تقام مساءً بعد غياب الشمس، كانت النساء تضيء المكان بالمشاعل التي هي عبارة عن عصي يُلف على أطرافها قطع قماش قديم مثلاً ثم يرطب أو يبلل هذا القماش بالكيروسين أو الزيت وتشعل اللفافة فتضيء الطريق للنساء الذاهبات للاحتفال في بيت العريس، وعلى طول الطريق كانت تظل الزغاريد والأهازيج والتصفيق، كثيرًا ما كان الصبية المراهقون والصغار يتبعون موكب النساء بفرح، وكانوا يجدون ضالتهم في التسلية والجري واللعب، كانوا يدخلون مع الموكب إلى حلقة النساء المنشغلات بحمل المشاعل والغناء والسير الحثيث، وكانوا يتسللون خلال هذا الصخب والحركة فيعملون بخلسة وحذر شديدين، وكانوا يقومون بممارسة مزاح ثقيل مع النساء، وذلك بربط ما تدلى من أطراف أغطية رؤوس النساء الريفيات بعضها ببعض، وحينما كانت تبتعد الواحدة من النساء

عن رفيقتها قليلا خلال المشي، كان يتعرى رأس إحدى النساء فتسرع بشد منديلها أو غطاء رأسها لتعيد وضعه لتستر رأسها فيتعرى رأس المرأة الأخرى التي ربُط منديلها مع منديل المرأة الأولى، وتبدأ كلتاهما كل واحدة تشك بالأخرى وتمسك بغطاء رأسها وأحيانا كانتا تظنان أن كل واحدة منهن هي التي تقوم بمداعبة أو بمضايقة الأخرى بذلك المزاح الثقيل إلى أن تكتشفا أن ذلك من فعل الصبية، خصوصًا حينما كن يكتشفن عقدة ربط المنديلين مثلاً، وهنا كانت تبدأ المتضررات من أفعال الصبية في تلك الأيام بتوجيه الشتائم إليهم، وكان الصبية يقبلون هذه الشتائم بغبطة وسرور، وكنّا كصبية في تلك الأيام ندافع عن أنفسنا بقول الواحد منا، لست أنا، لست أنا، وكلما كانت شتائم النساء قاسية كنا ندرك كم كان مزاحنا قاسيًا عليهن وهو ما كان يفرحنا، بعد السهرة كان الجمع يعود إلى حارته التي أتى منها في البلدة، وكان الصبية يعودون ثانية أيضًا إلى مضايقة النساء بعد أن أخذن حذرهن بالنسبة لعدم ربط مناديلهن ثانية.

كنا في طريق العودة نعمل بين الفينة والأخرى على رمي التراب على المشاعل التي كانت النساء تحملها لتضيء طريق العودة إلى حاراتهن فنعمل على إطفائها أو نحاول، وكنا بالفعل ننجح في إطفاء بعض هذه المشاعل حتى لو تحملنا بعض الكدمات التي كانت تصيبنا بها بعض الفتيات المدافعات، إلا أننا كنا أيضًا نسعد كثيرًا حينما كانت تشتد محاولاتنا ونُظلم طريق النساء، وبهذا كانت تبدأ أحيانا مطاردة لهن ليس لها معنى سوى أننا كنا نشعر بأننا جعلنا هؤلاء النسوة يتفرقن قبل وصولهن إلى بيوتهن، فيضحين مجموعه هنا ومجموعة هناك في ظلمة الليل، بينما هن يقمن بين الحين والآخر بعمل محاولات هجومية ضدنا لزجرنا وليس أكثر، وإطلاق التهديدات التي لا نكترث بها، لأننا الأسرع في العدو إذا ما حاولن الإمساك أو الإضرار بنا، كانت الأفراح والمشاعل

وكل ما كان يصاحبها هي لون مكرر في كل أفراح البلـدة في تلـك الأيـام، لكنهـا رغـم ذلك لم تكن مملة فقد كانت متعة يفرح الناس فيها من قلوبهم الطيبة.

٧-٤ ليلة الحناء.

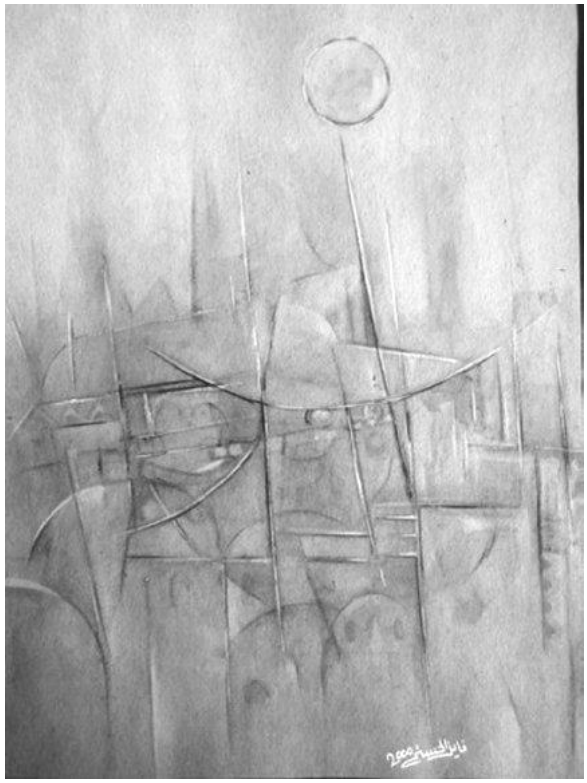
سبل عيونو وماد إيدوا يحنولو
غزال زغير بالمنديل يلفولو
أيويها، بحنة مكة جيت أحنيكي
أيويها، يا بدر ضاوي وألحلى كلو ليكي
أيويها، ما بتلبق الحنة إلا لأيديكي
أيويها، يا زينة العرايس لعريسك راح اوديكي
- زغاريد -
أيويها، يا شعرك شعر السلسبيلي
أيويها، ويسلمي هالكم الطويلي
اويها، ريتو يحرصك الله
أيويها، من عين الحاسد والعزولي.

هذا، وفي الموعد المحدد كان يبدأ الاستعداد لليلة الحناء عند مساء اليوم المتفق عليه، وهو في العادة اليوم السابق ليوم الزفاف الرسمي، وفي ذلك المسـاء كانـت تحضر الماشـطة، و هي تلك المرأة المتخصصة في إعداد العروس ليوم الزفاف حتى تكون العـروس في أبهـى صورها أو على أجمل ما يمكن أن تكون، عند حوالي غياب شـمس ذلـك اليـوم تتجمـع الفتيات والنساء من قريبات العريس وصديقاتهن وكذلك قريبات العروس وصـديقاتهن

أيضًا لتضع كل واحدة منهن الحناء على يديها، وبعضهن كن يضعن الحناء على الأرجل أيضًا، وأما النقش أوالشناظر كما يسمونه وهو حجر النشادر الذي كان يضاف للحناء ليحولها من اللون الأحمر إلى الأسمر بعد التصاقها على اليدين فقد كان من مهمة الماشطة التي كانت تتفنن في نقش يدي ورجلي العروس وصديقاتها وقريباتها وكذلك قريبات العريس وصديقاتهن، وقد تشارك في هذه المهمة امرأة ماشطة أو أكثر ممن اكتسبن الخبرة في هذا المجال، في سهرة الحناء النساء يحضرن حول العروس بينما الماشطة تقوم بمهمتها، وكن تُرنمن بالتحانين بأصوات أهزوجية ناعمة وهادئة، والتحانين كما كان يطلق عليها هي أشعار وأزجال بالعامية كانت تقولها أو ترنم بها النساء في هذه المناسبة بلهجة أهالي (حمامة) المميزة، وكانت تنشد بها واحدة أو أكثر من النساء الموجودات، مثل: "سَبل عيونه ومد إيده يحنونه" وغيرها من الأهازيج مما لا نستطيع الآن تذكره أو الحصول عليه، وكان يرد على النشيد الحاني الأخريات من النساء الموجودات، وذلك بتكرار فقرة الزجل السابقة مثلاً وبنفس درجة الصوت أو بموجات أعلى أو أقصر فيصنع بهذا التجاوب إيقاعًا له طعم حلو ومميز ومحبب.

كانت ليلة الحناء ليلة عمر بالنسبة لمن يعنيهم الأمر كالعروس مثلاً، وكان يسودها الهدوء بصفة عامة لأنها منعطفًا مميزًا في حياة الفتاة التي ستنتقل غدًا إلى بيت آخر وحياة أخرى، وكانت تمتد السهرة حتى ساعات الفجر الأولى، وذلك لإعطاء الحناء والنقش حقهما في التأثير على اليدين وأينما وضعا، بعد ذلك كانت تقوم النساء بغسل أيديهن من الحناء وكن يتحررن من قيد لفافة اليدين والأصابع وقد صبرن ساعات طويلة لأجل هذا، كن بعد ذلك يذهبن إلى بيوتهن استعدادًا للمشاركة في حفل الزفاف، في ظهر اليوم التالي وهو يوم الصمدة أو الزفاف تُعد العروس لتجلس على عرشها، وكان هذا عبارة عن مقعد خاص يوضع في مكان مرتفع قليلاً في ساحة عرس النساء في بيت أهل العروس،

هناك تكون العروس بثوبها الجديد ونقشها البهي وقد زينتها الماشطة بمكياج تلك الأيام، وأعدت شعرها وزينت وجهها وأحاطت بها النساء والفتيات من قريبات وصديقات وأهالي الحارة، فالكل يود أن يمتع نظره بمشاهدة العروس، كانت النساء في تلك المناسبة تتسلين بالأحاديث عن جمال هذه العروس والمقارنة بينها وبين عروس أخرى زفت قبل شهر أو عام من حيث الجمال بمقاييس تلك الأيام، كان العرس يبدأ بنقرات الطبلة وصوتها الواسع الذي يسمع من بعيد وبالتصفيق والرقص والزغاريد والمهاهاة أي الأهازيج، وكلما امتد الوقت ومالت الشمس نحو الغروب ازداد عدد النساء المشاركات أو الحاضرات عند الصمدة خصوصًا بعد صلاة العصر، حيث موعد خروج العروس إلى بيت العريس.



٧-٥ زفة العريس.

في هذا الوقت يكون أهل العريس منشغلين في إعداد وليمة طعام كبرى للرجال الذين سيرافقون العروس في موكبها إلى بيت عريسها، وأما العريس فيأخذه حسب العادة أحد أصدقائه الحميمين أو أحد أبناء عمه من الذين يسكنون في حارة غير حارة أهل العريس، وذلك بهدف الاستحمام، ومن هناك ليُزف في شوارع البلدة المؤدية في النهاية إلى دار أهله، بعد الاستحمام يكون الشباب من أصدقائه وأقاربه، وحسب ترتيب مسبق قد تجمعوا عند البيت الذي كان يستحم فيه العريس، وتبدأ من هناك زفته التي يشارك فيها الرجال فقط ويتبعهم أحيانا بفاصل قليل النساء، كان يمارس في زفة العريس الرقص والدبكة والأهازيج على طول الشوارع وعند الساحات كلما توقف الجمع، كان البعض خلال زفة العريس يحملون سعف النخيل وباقات الرياحين وكرسي ليجلس عليه العريس كلما مروا على ساحة أو في حارة ونصبوا حلقة للدبكة أو للاستراحة، كان بعض أهالي البلدة حينما يتوقف موكب الزفة أمام دورهم يقدمون للعريس وللمشاركين في الزفة الشراب الحلو حتى إن بعض الناس كانوا إذا مرت الزفة من أمام دورهم، كانوا هم يصرون على إيقافها ليُشرع في الرقص أو الغناء والدبكة أمام دورهم لأجل إكرام العريس وصحبه بالمباركة وتقديم الشراب، كانت زفة العريس من الأشياء المحببة مشاهدتها عند الناس، لأن لها طعم معين وفيها تسمع أو تشاهد أهازيج خاصة وربما لأن معظم المشاركين إن لم يكن كلهم كانوا من الشباب الأقارب والأصدقاء الذين كانت تقارب أعمارهم سن العريس، هكذا كانت تستمر الزفة، وكانت تزداد حرارتها وجديتها كلما اقترب الموكب من دار أهل العريس، بعد هذا يبقى عدد قليل من الشباب عند العريس الذي كان لا يصاحب الذاهبين لإحضار العروس من بيت أهلها.

أهزوجة في تلبيسة العريس:

مبارك الملبوس والبسه يا عريس مبارك الملبوس
وعينك عا العروس ثمك يحاكيني وعينك عا العروس
مبارك العقال والبسه يا عريس مبارك العقال
ثمك يحاكيني وعينك عالغزال
ومبارك الجوكيت والبسه يا عريس مبارك الجوكيت
ثمك يحاكيني وعينك عا الجورجيت.

٧-٦ موكب العروس.

في بيت أهل العريس أيضًا كان يتجمع الأهل والأقارب، نساء ورجالاً مع عدد لا بأس به من الوجهاء والأصدقاء والجيران، وكانوا يتجهون صوب دار أهل العروس آخذين معهم حصانًا أو فرسًا لتُحمل عليه العروس حين طلعتها من بيت أهلها، بعد أن يصل موكب أهل العريس إلى دار أهل العروس كانوا يجدون في انتظارهم أهل العروس وكل أقاربها وخاصة الأعمام والأخوال وجمع غفير من النساء والعامة، وهنا يتقدم ولي أمر العريس ليستأذن ولي أمر العروس لاستلام عروسهم ومصاحبتها إلى بيتها الجديد، هنا يلتفت الثاني - أي والد العروس أو أخيها أو المتنفذ في عائلتها إلى أقاربه وأهله - مستأذنًا أيضًا، فيعترض الأعمام أو الأخوال، وفي أغلب الأحوال كان يفعل ذلك أحد إخوة العروس، وكان هذا في مجمله لا يتعدى عن مزحة أو تمثيلية أو مسرحية ثقيلة، وكان لا بد من مراضاة هذا الشخص بشيء رمزي يسير من النقود وكانت تلك عادة سائدة وإحدى طقوس الزواج في تلك الأيام، ربما كان الهدف من هذه العملية أو من هذه الطقوس هو الإيحاء بأن للعروس عزوة وأهل يقفون لعونها إذا ما احتاجت يومًا،

وأنهم قادرون ولو رمزيًا بالحصول لأجلها على ما يطلبون، ولهذا كان لا بد من عمل حساب لهؤلاء إذا ما حصل خلاف أو اختلاف يومًا بسبب هذه المصاهرة لا سمح الله، وما دام الأمر كذلك فإن أهل العريس يقدمون المبلغ الرمزي لأهل العروس أو للشخص الذي كان يقف عنوة في طريق العروس ويمنعها من مغادرة الغرفة التي تكون منتظرة فيها أمر الخروج، كان المبلغ الذي يدفع على هذه الكيفية يسمى الإبوابَهْ أو البوابة، وكان في بعض الأحيان يتفق على مقدار هذا المبلغ قبل الزفاف، وأما إظهاره أمام الناس فهو ليس أكثر من مسرحية لتأدية غرض أن هذه العروس غالية على أهلها، في أحيان كثيرة كانت تحدث مفاجآت وكان يفاجأ أهل العريس بأن المبلغ النقدي المطلوب للتصريح بإخراج العروس هو غير عادي، وكانوا يتضايقون إذا ما تشدد الطرفان برأييهما، فقد كان يحدث بعض التأخير بسبب هذا في خروج العروس ريثما يضغط الناس أو يرجون الطرفين في التساهل والتضحية كل من جانبه لأجل تمرير هذا اليوم، كان مثل هذا التعنت يحدث لسببين إما بسبب فوارق الأصالة والكرم بين الفرقاء، أو بسبب الطمع أو نكاية في أحد الأشخاص لأن أهل العروس مثلاً ظُلموا في يوم الكسوة أو بسبب قصور في أمر معين من قبل أهل العريس تجاه أهل العروس، فلا يجد أهل العروس والحال هذا إلا أن يختاروا شابًا مثلاً من عائلتهم طليق أو لا يخجل من المطالبة باللامعقول ويقوم بالمسرحية على أنه لن يستمع لأحد مهما كان إلا أن يرضى هو، وهكذا، في النهاية ومهما حدث يُسوى الأمر وتخرج العروس وتُعد الفرس المنوي وضع العروس على ظهرها، وتزين بالريحان والورود ويتقدم والد العروس أو أخيها الأكبر ليسمح لها بالخروج إلى بيت عريسها، هذا، وتكون هذه الدقائق في العادة هي ألأقسى على نفس العروس ونفوس أهلها فتذرف الدموع سواء دموع العروس أو أمها وأحيانا دموع والدها وإخوتها وأخواتها، وكأنها ستغادر البيت لآخر مرة، وتلك هي دومًا

لحظات الفراق... لها تأثيرها، وأما في الحقيقة فالعروس تودع حياة العزوبية وتبدأ نمطًا جديدًا من الحياة في بيئة جديدة قد تختلف كليًا وفي كل شيء عن البيئة التي نشأت وترعرعت فيها، يمضي قليل من الوقت مع الوداع والدموع والدعوات المصحوبة بالوصايا والتمنيات والتجهيز، وتحتضن الأم ابنتها وتطمئنها بأن الجميع إلى جانبها وتعطي الابنة عهدًا بأن تظل وفية مطيعة لأمها ولا تقاطعها.

بعد هذا توضع العروس على ظهر الحصان بمساعدة أحد أقرب المقربين إليها وهي ملفوفة من رأسها إلى قدمها بعباءة أو دماية "قمباز" مخطط وسط الأهازيج والزغاريد المتواصلة، بينما تمسك بيديها سيفًا مشرعًا منصوبًا رأسيًا أمام وجهها وهي مُخفية وجهها بباقة من الورود والريحان، يمسك أحد أخوتها مثلاً لجام الحصان ليقوده أثناء المسير، بينما أقرباؤها يلتفون وقوفًا حولها أو حول الحصان، ويتحرك موكب العرس، الرجال من أهل العريس وأهل العروس وأقاربهم في الأمام، والنساء على بعد أمتار قليلة تتقدمهن العروس على الحصان بينما يحمل بعضهن أشياء العروس وفراشها وحاجياتها وصندوق أدواتها على رؤوسهن، وتمضي زفة العرس متجهة إلى بيت أهل العريس بصخب الفرح وجلبة السعادة المعهودة.

كانت النساء والصغار يُطلّون من البيوت على جانبي الطريق الذي تمر فيه زفة العرس، وكان بعض النسوة من هؤلاء يطلقن الزغاريد مشاركة ومجاملة للعابرين من أهل العرس، وأما في الحقيقة فإن أي عرس أو زواج كان يتم في البلدة كان عرسًا للبلدة كلها، وكان يترك أثرة ليومين أو أكثر في الحياة الاجتماعية بين الأهالي سواء رؤية ملابس العرس الجديدة على بعض الناس، أو من خلال الأحاديث اليومية العامة، والتي أهمها ما كانت تُبديه النساء أو الفتيات اللواتي قدمن أشياء جديدة أو رقصات مميزة خلال العرس، أو عن الرجال الذين قالوا شيئًا أو فعلوا أشياء خلال الفرح كمظهر نخوة أو

قدموا هدية أو حتى رقصوا أو اشتركوا بطريقتهم في حلقات الدبكة أو الرقص الشعبي، أو حدث شيء ما أو قيل شيء نادر في مناسبة هذا الفرح، في النهاية، كان يصل موكب العرس إلى غايته وكان ينتحي الرجال جانبًا مفسحين الطريق للنساء والعروس ليدخلن دار العريس.

أهزوجة لأم العريس:

قولوا لأمه تفرح وتتهنا
ترش الوسايد بالعطر والحنة
ياداري هنا وابنيها يا بنا
والفرح النا والعرسان تتهنا
والدار داري والبيوت بيوتي
واحنا خطبنا يا عواذل موتي
يابو العروس لا تكون عبوسي
واسمح بوجهك واعطيه هالعروس
يا بو العروس لا تكون طماع
والمال يفنى والنسب نفاع.

وهناك تُنزل العروس من على ظهر الحصان وتُدخل إلى غرفتها المُعَدة سلفًا في دار عائلة العريس، ويدخل معها متاعها وأدواتها مما خف حمله وغلا ثمنه، ولا بد أن تُلصق على باب الغرفة من الخارج من أعلى قطعة من العجين أو الخميرة، وذلك بركة وتيمنًا وأملاً بالخير والقدوم والخلف الصالح.



وعند دخول العروس بيت زوجها يوم الزفاف تغني لها النساء:

يا ريتك مباركة على السلف والسلفة

وتبكري بالصبي وتكثري الخلفة

يا ريتك مباركة على الحماة يا كنة

وتبكري بالصبي وتزولي الهم

يا ريت كمباركة على العريس لحاله

وتبكري بالصبي وتعمري داره

يا ريتك مباركة علينا

وتبكري بالصبي تا يلعب حوالينا.

هناك في المكان المعد لاستقبال الرجال يُقدم طعام الوليمة لجموع الرجال الـذين حضروا لتوصيل العروس مع الزفة، والوليمة في العادة كانـت تتكـون مـن قصـعات أو صـواني اللحم والأرز والفتة أو الأكل الشعبي "المفتول"، قبل أن يترك الرجال المكان إلى بيوتهم كان يقوم أقارب العريس بتقديم النقوط، والنقطة هي مبلغ من المال يُقدم نقدًا للعـريس أو لوالد العريس من كل واحد من أقاربه كهدية أو مجاملة أو مسـاندة وعـون للعـريس وأهله الذين تكفلوا بكل نفقات الفرح كما هو العرف وكما هي العادة، كـان العـريس أو أهله يقدمون مهر العروس وحُليها وأثمان ملابسها، وحتى من يلبسـون ملابـس جديـدة من أقربائها المقربين من أعمام أو أخوال أو أخوة، وحتى أثمان الحنـاء وأدوات التجميـل وأجرة من كُن يقمن من النساء بـذلك، ولهـذا كـان أقـارب العـريس يقـدمون النقـوط للعريس وأهله كعون وكرمز للتعاضد والمساعدة.

حسب طقوس الفرح والعادات في تلك الأيام كان الفرح يُفض وينتهي بعد وقت قصير من إدخال العروس إلى غرفتهـا وكانـت النسـوة يعُـدن إلى بيـوتهن عـدا قلـة مـنهن: أم العروس أو خالتها أو أختها أو ما شابه ذلك، كن تبقين لفـترة في بيـت أهـل العـريس، وذلك لأجل العلم والتأكد ولو إلى ساعة متأخرة من الليـل بـأن العـروس كانـت بكـرًا وأنها عفيفة عذراء ولم يمسها أو يتعامل معها جنسيًا رجـل قبـل العـريس أو قبـل تلـك الليلة، من ناحية ثانية، وكنوع من إثبات رجولة العريس وسمعة أهله كان عليـه أن يُـتم فض بكارة العروس بأسرع ما يمكن، وإلا فإن أقرب الناس إليه إذا ما استَطْوَلوا انتظاره قاموا وراحوا يطرقون ويدقون باب الغرفة التي يكون فيها مع عروسه، وراحوا يوجهون إليه النقد اللاذع ويطلبون منه الإسراع في إتمام العملية الجنسية مع عروسة بلفظ وعبـارة "اذهب وادخل على عروسك"، كان الأقارب - إن حدث وخرج العـريس مـن الغرفـة لأي سبب قبل أن يفض بكـارة العـروس - كـانوا يضربونـه بالأيـدي وحتـى بـالعصي

الرفيعة وبالصفعات لغرض إثارته كما كانوا يدّعون، وكانوا يوجهون إليه الشتائم ويعيدونه قسرًا بالركل والدفع بالأيدي إلى غرفته مع توعده بالثبور وبعواقب الأمور، هذا، وليس بالضرورة أن يكون سلوك كل الناس إتباع هذا الأسلوب مع أبنائهم العرسان، فقد يتبعون نفس ما ذكرناه بالنسبة لطريقة حث العريس لفض بكارة عروسة بالسرعة الممكنة، وقد يراوحون بين ما ذكرناه سابقًا وبين بعضًا منه فقط، أو حتى في بعض الأحيان كان لا يتعدى حث العريس أو نقده من قبل الأهل باللوم اللفظي الخفيف أو غير المباشر أو حتى بالنصيحة فقط، إلا أن الفظاظة والضرب في التعامل معه كانت هي الشائعة بصفة عامة في تلك الأيام، أما حينما كان ينجح في المهمة ويخرج العريس من غرفته ويُسر لأقرب شخص يقابله في تلك اللحظات وعادة ما تكون امرأة، أمه أو أخته، وبأنه قد أتم الدخول على عروسه، تدخل أم العروس على ابنتها للتأكد من إتمام عملية فض بكارة العروس، لأن ذلك كان يتعلق بشرف عائلة العروس، يشاع الخبر على الحضور وتنطلق الزغاريد والأهازيج لفترة قصيرة من الوقت ويعود الهدوء مرة ثانية، بعد هذا يُحضر أهل العروس من دارهم في تلك الليلة وحسب عادات تلك الأيام طعام العشاء للعروسين، ويكون عشاء خاصًا، كان العشاء في الغالب يحتوي على زغاليل الحمام "طير الحمام غير المسن"، أو الدجاج أو نصف خروف صغير مع الأرز والصنوبر موضوع في صينية معدنية ومغطى بشاش... وتمضي تلك الليلة.

٧-٧ صباحية العروس.

في ضحى اليوم التالي كان يأتي أهل العروس نساء ورجالاً في موكب تحفه أهازيج النساء وزغاريدهن إلى دار العريس، وذلك لتأدية الواجب في يوم الصباحية لتهنئة العروس والمباركة لها وتقديم النقوط، كان يقدم لهؤلاء الرجال في هذه المناسبة حلويات تلك

الأيام مثل المسفن والطزيز وما شابه، وهي حلوى الصباحية التي كان أهل العروس يعدونها ويحضرونها معهم إلى بيت أهل العريس عند الصباحية، "صباحية العرس" كما كانوا يسمونها، وبعد هذا كان يقوم الرجال من أقارب العروس ويدخلون عليها في صف يقف فيه الواحد خلف الآخر، ويقدم لها كل واحد منهم ما استطاع من النقود وهذا كناية عن هدية لها ومباركة، ثم ينصرف الجمع فرادى أو في جماعات صغيرة أو على حريتهم، ويغلق ملف هذا الفرح وتمضي الأيام.

بالنسبة للنقوط الذي كان يقدمه كل واحد من الأقارب للعروس، في أغلب الأحوال كان يعطيه والد العروس لهؤلاء الأقارب بمعنى إنه يُخصص جزأً من مهر العروس الذي استلمه من أهل العريس لتلك المناسبة، وذلك بأن يوزع على أقاربه في الصباح أو على من حضر منهم مبالغ متساوية من النقود ليقدمونها للعروس لكي تظل تشعر ولو رمزيًا بأن أقاربها جميعًا ملتزمون بها في كل وقت، فهي ابنتهم أو أختهم، وهي أولاً وأخيرًا عرضهم الذي يجب أن يُحافظ عليه عند من تزوجها، هذا، وقد يحدث أن بعض الأقارب أحيانا يرفضون إلا أن يدفعوا النقطة للعروس من مالهم الخاص وألا يأخذوا من والدها مثل الآخرين بل ويضيفون أحيانا على هذا مبلغًا آخر ويقدمونه للعروس، وفي الحقيقة فإن الجميع يتمنعون في البداية عن الأخذ من والد العروس إلا أنه في أغلب الأحيان كان يصر الأخير على أن يأخذوا منه مبلغ النقطة، فهو لا يود أن يُحمل أحدًا عبئًا هو قادر عليه، ولأنه كان أيضًا قد قبض مهرًا من أهل العريس فهو لا يدفع من جيبه، وحتى لا يُتهم بين أقاربه بالبخل أو بالاستغلال.

ومن ضمن الأغاني و الأهازيج التي تغنيها النساء لأهل العريس و أهل العروس، (الهيهاويات) حيث تصدح بها أصوات النساء في يوم العرس وليلة الحنة والسهرات

والصباحية، (الهيهاويات) عبارة عن جمل قصيرة ذات نهايات موسيقية تبدأ كل جملة منها بكلمة (أويها)، وفي بعض المناطق تكون الكلمة المستخدمة (يـوي.. إيـه)، حيـث تتنـوع وتتعدد الهيهاويات في المناطق الفلسطينية:

أويها

يابو محمد يا خيمتنا

أويها

و محمد قاعد فيها

أويها

و يا أحمد يا شمعتنا

أويها

لا عاش مين يطفيها.

أويها

يا ولاد (اسم العيلة) يا نمل الشجر

أويها

يا خالقين المال من تحت الحجر

أويها

حلفتكو بالله مين كبيركو

أويها

كبيرنا أبو محمد عالباشا عبر.

أويها

يا خيبي يا محمد يا قرنفل ملات أيدي

أويها

يا طاعم الزاد يا خلفة الأجاويدي

أويها

يا ندرٍ علي لو جاك الفرح يا سيدي

أويها

يا دابح دبايح و الحقهن تراويدي.

أويها

يا ويش هالليل الرايق

أويها

يا وتجمعت فيه كل الخلايق

أويها

يا هادا فرح محمد

أويها

عقبالكو يا رفايق

أويها

يا عريس يا عريس لا تندم على المالِي

أويها

حواجب عروستك خطين القلامِي

أويها

يا حواجب عروستك سيفين محمية

أويها

يا تسوى بنات حمولتك مية على مية

أويها

يا صحن رايب

أويها

يا عليه السمن دايب

أويها

و أنا بهاهي لأحمد

أويها

لو كان في الغربة غايب

أويها

يا بو محمد من هيبته

أويهاالله يسّلم شيبته

أويهايوم ما جوّز محمد

أويها

تك الدهب من جيبته

أويها

يا خيي محمد بارودتك بايش شروتها

أويها

و مشنشله بالذهب لحد عروتها..

أويها

و كل من تكرهك يا محمد

أويها

تموت قتيلة و نمشي في جنازتها.

أويها

يا بو محمد و ولادو

أويها

يا زي الصوان في وتادو

أويها

مسمار من عند الحداد

أويها

يقلع عين حسادو

أويها

يا ولاد (اسم العيلة) يا كلكو ورد في بستان

أويها

يا بينكو محمد زي هليّل ابن شعبان

أويها

و ايش حال لو زرر الجوخة على القفطان

أويها

كلكو عساكر و هو بينكو سلطان

أويها

يا زادنا وافي

أويها

يا أكلنا دافي..

أويها

يا كلو يا جماعة

أويها

يا ريتو صحتين و عوافي

أويها

يا والحمد لله يالله

أويها

يا زالت الهموم ان شالله

أويها

و أنا طلبت و أعطاني ربي

أويها

يا والنصر من عند الله

أويها

يا قاعدة عالمراتب قعدة البنا

أويها

والكحل بعيونك زقفتلوا غنا

أويها

حطّي القدم عالقدم ما سمعتلوا رنّا

أويها

يجعل البطن يلّي حملك مسكنوا الجنة

أويها

يا وافتحوا باب الدار

أويها

يا و خلو المهني يهني

أويها

و أنا طلبت و أعطاني ربي

أويها

و ما خيب الله ظني

أويها

وعلى فرحنا تعالو هنوا...

كانتْ تظل العروس في بيتها أو في بيت أهل العريس أسبوعًا لا تخرج من محيطه الصغير، بعد الأسبوع الأول على الزواج كانت تقام حفلة صغيرة للعروس في بيت أهلها فيقولون "ذهبتْ لبيت أهلها لتفرد"، وتشارك فيها صديقاتها الحميمات وقريباتها وبنات الجيران وأهل الدار، هذا، ويكون هذا أول خروج للعروس من بيت زوجها، في العادة يكون زوجها بصحبتها ويُقام على شرفهما وجبة غذاء رسمية، وتُقدم لها الهدايا، وفي نهاية اليوم كانت تعود مع زوجها إلى بيتهم محملة بالهدايا والأشياء الجميلة ومتعة الحفاوة والإقامة.

هكذا كانت تقام في (حمامة) الأفراح، والليالي الملاح، بسيطة لطيفة كبساطة أهلها ولطفهم، ولا شك أيضًا، بأن أهمية هذا السرد ليس للتشويق أو التسلية، وإنما هو تراث نُصر برغم طول سنين الغربة على إبقائه حيًا في وجداننا، وإن كان بسيطًا فهو همسة علها تُحي ذاكرتنا كي لا ننسى أن لنا بلدة خالدة اسمها (حمامة)، هي ملك لكل أجيالنا

القادمة مهما طال الزمن، كانت لنا وأُخذت منا عنوة بـلا ذنـب اقترفنـاه، دمرهـا الغـزاة وأبعدنا عنها قسرًا فغابت أفراحنا منذ ذلك الحين.

لو خرجنا من أفراح أهالي (حمامة) إلى الدائرة الأوسع فسـنجد الأهـازيج الفلسـطينية لا تتوقف وما زالت مستمرة لإبقاء الأمل، وفيها ما فيها من حشـد وشـحذ للهمـم لجعـل الفرح والزواج واستمرار الحياة مشروطة للوصول إلى الغايات النبيلة.



أهازيج فلسطينية(٣)

إحنا الفلسطينيات مهرنا غالي
ما بنوخذ غير الشاب اللي جبينه عالي
ما بنوخذ غير الشاب اللي بيحمي أرضه

واللي كل حبة تراب هي دمه وعرضه
إحنا الفلسطينيات مهرنا معروف
وبين كل الناس مشهور وموصوف
ما بنوخذ غير الشاب اللي روحه على كفه
اللي بيتحدى الموت مهما العِدا اصطفوا
إحنا الفلسطينيات بنات ذات الهمة
وحياة كل حبة تراب لنرد الأعادي
ومهما طلبت الدار بنعطيها وزيادة
إحنا الفلسطينيات ما بنهاب الردى
جنب رجالنا عاطول بالحرب والفدا
يا الله يا أهل البلد خلو الأيد عا الأيد
وافرحوا وملوا العرس زغاريد.

على ضفاف النكبة نحبس الأنفاس وننظر إلى الوطن البعيد، عبء ثقيل تحملناه طويلاً سقط كصخرة سُحقت أمننا فتلاشى كل شيء، ما ذنب آبائنا وما هي تهمتنا، ألم تضع يا وطني منذ أيام الخلفاء ومنذ القرن التاسع الميلادي؟ وحينما اشتعلت النار وذعر كل شيء حتى الطيور وصار الشتات وطننا؟ لكننا نفرح ونغني ونرقص فالشعب الذي ليس له أهازيج ليس بشعب.

---

(١) خليل حسونة: (حمامة..عسقلان).
(٢) أهزوجة تصدح بها إحدى النساء.
(٣) أهازيج فلسطينية.

الفصل الثامن

٨-١ التعليم.

لقد قيل إن العلم نور، وتلك الجملة صحيحة فعلاً، فالعلم من شأنه أن يُزيل ظلام العقول ويمحو الجهل، الذي هو ظلمة في العقل تحجب عنه الحقائق، وتجعله عاجزًا عن فهم ما يدور حوله علي نحو سليم بصرف النظر عن الذكاء الفطري لدي بعض الناس، لأن الجهل يعتبر حجابًا أو حاجزًا سميكًا أمام العقل الإنساني، ومن هنا فإن كل جهد يُبذل في إزالة الغشاوة عن العقول يُعد بمثابة رد للاعتبار الإنساني للفرد الأمي وتأكيد لإنسانيته، فالجهل ينزل بالإنسان إلي مرتبة أدنى مما يستحق فعلاً، ويجعل أمه أو شعبًا في السياق العام متخلفًا عن شعب آخر.

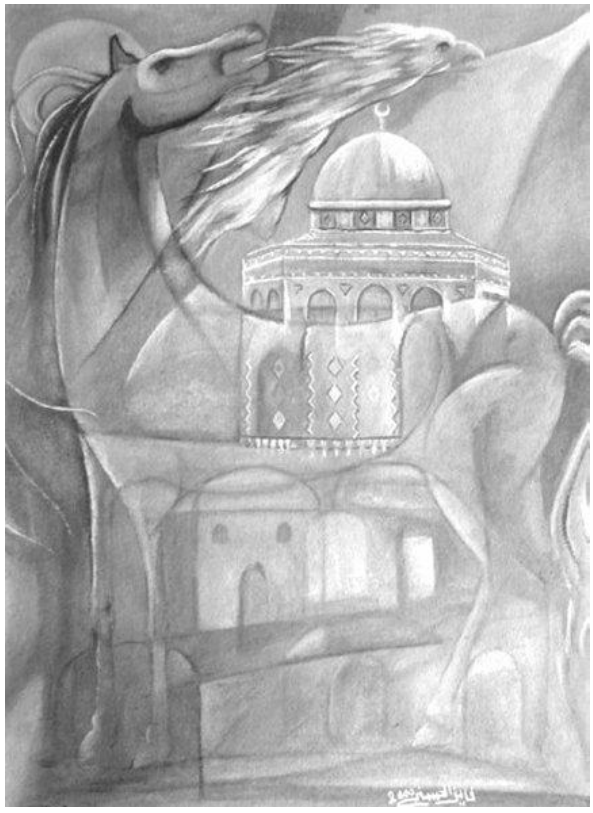
لهذا اهتم أهالي (حمامة) بالتعليم لبناء أولادهم بناء جيدًا رغم افتقار القرية إلى الدعم والمساندة الحكومية، سواء كان ذلك في عهد الأتراك أم بعد مجيء الإنجليز، ولذلك كان الشائع في البلدة هو مدارس الكتاتيب التي بلغ عددها في (حمامة) على مدى السنين المنظورة حتى سنة ١٩٤٨م أكثر من عشرة كتاتيب، فلم تكن هناك مدارس زمن الوجود التركي، بل كان يقوم بالتعليم والتدريس، رجال درسوا في الأزهر الشريف بمصر، أو انخرطوا في الكتاتيب نفسها، ومعظمهم كانوا من أبناء القرية، وحيث كانوا يقومون بتحفيظ القرآن، وقراءة المصحف الشريف، وفك الخط، أي القراءة البدائية، وكانوا يقومون أيضًا بتعليم الأطفال بعض مبادئ الحساب مثل: العد، والجمع، والطرح، والقسمة، وذلك مقابل أجر كان يدفعه أولياء الأمور، كان الأجر عبارة عن بضعة قروش أو جزء من الغلة من القمح أو الشعير أو البيض، وربما زيت الزيتون وخلافه من

إنتاج الفلاحين، وحينما كان يختم التلميذ المصحف الشريف، كانت تُقام له حفله كبيرة، وكان يُعد من المتعلمين.

هذا، ونظرًا لأن القرية كانت تتأهل للتحول إلى مركز بلدي/مدينة، لذلك أُطلق على أحد شيوخ البلدة لقب (مختار أول) بمعنى رئيس البلدية، ذلك تمهيدًا للتشكيل المستقبلي الجديد/المجلس البلدي، وعلى هذا الأساس تم التفكير بافتتاح مدرسة للذكور وأخرى للبنات حسب التخطيط الجديد، ولقد أُنشئت في البداية في عام ١٩٢١م مدرسة بفصلين للذكور، وتطورتْ إلى أن أضحت مدرسة ابتدائية كاملة، بلغ عدد التلاميذ فيها عام ١٩٤٦-١٩٤٧م حوالي (٣٣٨) ثلاثمائة وثمانية وثلاثين تلميذًا، كان يعلمهم تسعة معلمين، كانت تدفع القرية أجور أربعة منهم، وأما مدرسة البنات فقد تأسست عام ١٩٤٥م، وكان بها (٤٦) ست وأربعين تلميذة.

وأما في الحقيقة فقد كان أهالي (حمامة) دائمًا يتحفزون للتعليم وكان يدفعهم في الأساس إلى ذلك الثقافة الإسلامية التي تحضهم دائمًا على العلم، كان إمام مسجد البلدة قبل عام ١٩٤٨م مثلاً يدعو الناس إلى الاهتمام بأبنائهم وأن يربوهم تربية إسلامية حسنة، وكان يقول إن أمورهم لن تستقيم إلا إذا تعلموا القراءة والكتابة وبالذات قراءة القرآن الكريم، لهذا عمل بعض المتعلمين على فتح مشيخات/كتاتيب في دورهم بدافع انتظار الأجر في الدنيا من قبل أهالي التلاميذ، وفي الآخرة عملاً بالحديث الشريف "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"، كان المشايخ يستقبلون عددًا من الأطفال الذين كان أهاليهم يتأثرون بما كان يقوله إمام المسجد في خطب صلاة الجمعة من جهة أهمية التعليم وربطه بالإيمان بالله، لهذا كان في مدارس الكتاتيب دائمًا عدد من الأطفال الملتزمين بالحضور يوميًا إلى دار الشيخ أو الأستاذ، عدا يوم الجمعة، كانتْ أدوات ووسائل التعليم بسيطة

ومتواضعة في تلك الأيام، وكانت تعتمد على الابتكار الارتجالي الذي كان يحاول الأستاذ المسن الذي يعرف قراءة القرآن وإلمام لا بأس به باللغة العربية ويعتاش من هذا النوع من العمل، لهذا كان الأستاذ يُعد للأطفال أدوات التدريس، ووسائل يصنعها بنفسه لهم، وكان يقوم بتوزيعها عليهم حيث إن العائد المادي أو العيني الذي كان يقدمه أهالي التلاميذ أسبوعيًا للشيخ كان متواضعًا بمستوى ركاكة الحياة في تلك الأيام الغابرة، ولهذا لا يتوقع أن تكون الأدوات المستعملة في التدريس شيئًا باهرًا.



٨-٢ مدارس الكتاتيب.

قال (علي القوقا) عن أول يوم أخذته أمه فيه عند الشيخ أو الأستاذ سنة ١٩٤١م: "وفي صبيحة اليوم التالي لبستْ أمي ثوبها الجديد وجهزتني بحقيبة من القماش ووضعتها في رقبتي، وكانت فارغة، وتوجهتْ بي أمي إلى دار الأستاذ (محمود مقداد – أبو طرحه)، حيث استقبلنا الرجل مُرحبًا، منها إنه قد جاءه مورد رزق جديد – قرش في كل أسبوع يضاف إلى دخله من الآخرين، ويساعد في تحسين أحواله – سألت أمي الأستاذ عن اللوازم التي يجب أن تُوفرها لي، فأجابها الأستاذ (أبو سامي) بأنها تتكون من لوح من الصاج طوله شبرين وعرضه شبر، ودفتر وقلم رصاص وجزء (عمّ) من القرآن الكريم، وحبر، وتبرع هو بالبوصة التي كان يُجهزها للكتابة على اللوح المعدني وتُسمى الريشة، وعلي أن أُحضر قرش واحد كل يوم خميس من كل أسبوع، وما كادتْ أمي تهم بالانصراف وتتركني عند الأستاذ في ذلك اليوم حتى وجدتني أتعلق بثوبها، مبديًا رغبتي في العودة معها، إلا أن الأستاذ صاح "ها... أقعد"، وهزّ مطرق الرمان - عصا رفيعة وطرية - بحركة سريعة فصدر منه ذلك الصوت المرعب فاستجبت هلعًا وجلستُ مع الأولاد متربعًا، وقد لَمتُ يداي على صدري كما رأيت الآخرين يفعلون علامة على الانصياع والأدب".

ويكمل (علي القوقا): "جلستُ على أرضية رملية في عريشته/دار الأستاذ التي أعدها للتعليم وعيناي تراوحان بين النظر إلى أمي المغادرة ودموعي تذرف خوفًا، والى الأستاذ الذي لا بد أن أمتثل إلى أوامره وأجتنب نواهيه، أمضيت يومي الأول مستطلعًا ومحاولاً أن أفهم رموزًا حولي وسلوكًا كان يدور من كل من الأولاد والأستاذ، فعلى أحد الجدران علّق الأستاذ مجموعة من المطارق اللدنة والخيزرانات وعصا غليظة شد طرفها بحبل عرفت فيما بعد أنها "الفَلَكَة"، وهي إحدى وسائل العقاب الرهيب، كما كان هناك

لوح أسود خلف مقعد الأستاذ الذي كان عبارة عن صندوق خشبي، كان الأولاد خلال الدرس يُعلقون في رقابهم حقائبهم المحاكة بواسطة أمهاتهم والمصنوعة من قماش بسيط، حيث كان بها لوازمهم المدرسية التي سبق الإشارة إليها، وكان أمام كلٍ منهم زجاجة الحبر.

بدأ الأستاذ بي أولاً، وشرح لي ضرورة إحضار اللوازم المدرسية في اليوم التالي مشددًا على عدم النسيان، وهازًا عصاه تعبيرًا عن العقوبة المنتظرة في حال عدم الاستجابة، ثم نادى على التلاميذ على التوالي، فهذا يقدم له لوحه المعدني ليكتب له كلمة أو حرفًا أو جملة ويطالبه بكتابتها عدة مرات في لوحه، وذاك يستمع له يرتل سورة القرآن الأخيرة التي علّمها له بالأمس، وثالث يُصحح له ما كتب، وكان كلما أنهى عملاً مع أحد التلاميذ طلب منه أن يجلس منفردًا ليتابع عمل ما طُلب منه في حينه بعد أن يكون قد صحح له ما تَعلم بالأمس وأعطاه واجبًا جديًدا ليعمله، وكان الموقف الرهيب الذي لن أنساه، وهو أن أحد الأولاد من أمثالي، لسبب لم أدركه في حينه، وبإشارة من الأستاذ للتلاميذ، وما هي إلا ثوان حتى اندفع خلفه معظم الأولاد لكي يُحضروه وهكذا فعلوا، كان الولد يبكي ويتلوى وكان يبدو عليه الهلع، وكان يُقسم بالتوبة، ولكن هيهات فقد حق عليه العذاب "الفلكة"، أمسك به الأولاد ووضعوا الفلكة حول رجليه، ولفوا الحبل على العصا وأمسك واحد طرف العصا من ناحية وأمسك آخر بالطرف الآخر للفلقة، وأمسك عدد من التلاميذ يدي المسكين لتثبيته، ثم انهال الأستاذ يضربه بقسوة بعصا الرمان على باطن قدميه، فضُرب عدة مرات وسأله الأستاذ، هل تتوب؟ فأكد صاحبنا التوبة واللا عودة لمثل فعلته، ففكوا وثاقه وقام المسكين غير قادر على المشي على قدميه، ثم جلس يفرك باطن قدميه لتخفيف آلامه، كان العقاب البدني مشروعًا للأستاذ، يمارسه متى يشاء وكيفما يشاء، دون حسيب أو رقيب، وكان الأولاد يخافون حتى من

ذكر ذلك لأهلهم الذين كانت على لسانهم - في حال علمهم بذلك - كلمة واحدة، تستأهل، بمعنى تستحق العقاب".

ويُضيف (علي القوقا): "في المساء عدتُ إلى البيت وطالبتُ باللوازم التي كانتْ أمي قد أعدتها لي سلفًا بشرائها من دكان كان يقع في الحي قريبًا من دارنا، وأما حبر الكتابة فقد صنعته لي أمي - رحمها الله - من سنا السراج، وهو ما كان يتجمع على السطح الداخلي من أعلى لمبة فانوس الإنارة الذي كان يعمل بواسطة الكيروسين، فقد رفعت الفتيل في ذلك اليوم - إطالة فتيل الفانوس على غير العادة - وذلك لكي يخرج منه دخان أسود كثيف وبطيء الحركة، كان الدخان سرعان ما يتكثف ويثبت على السطح الداخلي للمبة الفانوس المصنوعة من الزجاج وهو ما يُطلق علية سنا السراج، كانت أمي بعد أن يتجمع كمية لا بأس بها من السنا ترفع اللمبة وتستعمل ريشة دجاج لإسقاط السنا من اللمبة ثم تغليه على النار مع قليل من الماء وتضعه في زجاجه صغيرة، وكان ذلك هو الحبر السائد في الاستعمال قبل أن يصل الحبر الجاهز المستورد، وفي اليوم الثاني ذهبتُ إلى الأستاذ وكان معي كل ما طلب مني إحضاره، وهناك كتبْ على لوحي (أبجد)، وطلب مني أن أنظر كيف كان يكتبها، وطلب مني تقليده في ذلك بكتابتها على اللوح بعد أن قال: "هذه أبجد"، عندما تحفظها سأكتب لك غيرها، وتركني ليتعامل مع الآخرين كما فعل بالأمس كل واحد منهم بشكل مختلف عن الآخر، بمعنى إنه مثلاً كان يستمع ويتابع لأحد التلاميذ مثلاً تلاوة سورة من سور القرآن الكريم، وكان في نفس الوقت يكتب لي كمبتدئ (أبجد) لأتعلم كتابتها، وقد يُصحح مسألة حسابية لتلميذ آخر، وكل ذلك كان يتم في آن واحد، وهكذا، وبذلك ترى التلاميذ في حركة دائمة لأن الحوافز متاحة لمن يُنجز بسرعة ليتقدم أو ينافس الآخرين، وتجد الحركة الدائمة والنشاط من الجميع، فهذا متجه صوب الأستاذ وهذا عائد إلى مكان جلوسه، وهذا منتظر دوره،

وذاك على وشك أن يأخذ دورًا لـه في الانتظـار، هـذا، وإن الأسـتاذ كـان لا يمـل هـذه الحركة الدائمة، ويبقي وقته مشغولاً، ولكن بلا ملل لأنه كان يشعر بنشوة المعلم والعالم، وأنه يعلم كل شيء، ويعرف في أي شيء، ويستطيع أن يتعامل في أمور الدين والدنيا من حيث تدريس القرآن والعبادات وتعليم الحساب والقراءة والكتابة.

وفي الحقيقة كان (على القوقا) مُوفقًا جدًا في العبارات السابقة التي صورتْ الحياة والبيئة الاجتماعية في تلك الأيام تصويرًا جيدًا مـن ناحيـة مـدارس الكتاتيـب، وبيّنـت عباراتـه مستوى الوعي عند الناس في تلك الأيام، وأرتنا بساطة الحياة وكيف كان يعيش أهلنا في (حمامة)، ولا يجد المرء صورًا أخرى اجتماعية يتحدث عنها في هذا المجال.

باختصار كان هذا هو النظام السائد في التعلـيم في القـرى والبلـدات الفلسـطينية بصـفة عامة، فهو نظام قديم منذ العصر العثماني، وقد كان إجادة حفظ وقراءة جزء (عـمَّ) مـن القرآن الكريم يعتبر إنجازًا باهرًا بين أهـالي البلـدة، هـذا بالإضـافة إلى تعلـيم الوضـوء والصلاة، ومن الحساب كانت مدارس الكتاتيب تُعلم عمليات الجمع والطرح والقسـمة كي تساعد المرء على قضاء حاجاته اليومية البسيطة، كان هـذا للأطفـال ممـن هـم تحـت السن القانوني ممن سيلتحقون بمدرسة البلدة الحكومية، فقد كانـت هـذه المدرسـة تقبـل الطالب المستجد ممن كان يبلغ السابعة من العمر.

هذا، وإن كثيرًا من الناس في تلك الأيام كانوا يكتفون في سن الطفولة بتعليم أبنـائهم في مدارس الكتاتيب لسنة أو سنتين، وبذلك يشعر المرء أنـه تعلـم شـيئًا ثـم يـذهب الابـن ويلتحق بعمل الأسرة في ميدان الزراعة، ولا يذهب للمدرسة الحكومية الرسمية، وذلك لحاجة الأرض إلى الخدمة وعدم استغناء الأهل عن مساعدة الصبي المُنتَظَر منه أن يساعد والديه في الأعمال الزراعية التي لا تنتهي على مـدار العـام، ثـم لمـاذا يُرسـل الأولاد إلى

المدرسة ما دام ليس هناك دولة وطنية توجد الأعمال المناسبة للمتعلمين من أبنائها، كان هذا في الحقيقة، هو الحال السائد في (حمامة) في تلك الأيام، نظرًا لفقدان الحوافز للتعليم عند الناس، فقد كانوا أحيانا يقيسون الرجولة والكفاءة ليس بالتعلم والمسالمة والرقي والبساطة أو الإنسانية وإنما بالخشونة والعنف، بسبب قسوة البيئة وصعوبة الحياة لشعب فيه ناس يُولدون ويموتون في ظل وجود سلطة أجنبية تستعمر بلادهم وتحتل حياتهم ولا يثقون بها، فيشعرون وكأن عليهم الاعتماد على أنفسهم، ويكون هاجسهم الأمني دائمًا هو الأهم خصوصًا أمن الأسرة واستقراها المادي والمعنوي بين الناس، كان من الطبيعي - والأمر كذلك - كون الناس يميلون إلى العنف والتطرف في ظل غياب نظام تربوي سلطوي يوجه إلى خلق مجتمع سليم ومعافى، مبني أساسه على الخير والطمأنينة، لهذا كان يشاع بكل فخر مثلاً أقاويل وحِكَم بين الناس، مثل، "إن السجن للرجال"، بغض النظر عن السبب الذي كان يُسجن لأجله الإنسان، سواء كان خيرًا أم شرًا، ولهذا أيضًا كان كثير من الناس لا يهتمون بإرسال أبنائهم إلى المدرسة الحكومية، وبعضهم كان يرسل من أبنائه وأحدًا فقط في أغلب الأحوال إلى المدرسة، وكان يختار من أبنائه الابن ضعيف البنية الجسمانية الذي لا يأمل منه أن يقوم بالأعمال العنيفة في الحقول أو رعي الماشية، لكن ورغم ذلك فلم تكن هذه قاعدة عامة عند أهالي بلدة (حمامة) مثلاً.

٨-٣ مدرسة البلدة.

كان بالمدرسة الحكومية حتى عام ١٩٤١م كما قال (علي القوقا) مُدرسان، وكان يشار للأول بالأستاذ العتيق/القديم، وللثاني بالأستاذ الجديد، كانت المدرسة تتألف من حجرتين للدراسة وثالثة للمدرسين، في الحجرة الأولى كان يجتمع الصف الأول والصف الثاني وكان يقوم عليها مدرس واحد، وفي الحجرة الثانية كان يجتمع الصف الثالث

والصف الرابع وكان يقوم عليها المدرس الآخر، كان التعليم في المدرسة الحكومية يتم على فترتين صباحية تمتد حتى الظهيرة يعود بعدها الطلاب إلى بيوتهم لوجبة الغداء والراحة ثم يرجعون إلى المدرسة لقضاء فترة أخرى، كان التعليم في بلدة (حمامة) في المدرسة الحكومية ينتهي عند الصف الرابع، ومن شاء من الطلاب أن يدرس في صفوف أعلى فعليه أن يلتحق بمدرسة مدينة (المجدل) المجاورة، وذلك حتى يستطيع أن يستمر في الدراسة حتى الصف السابع، بعد الصف السابع كان يستطيع الطالب الاستمرار حتى الصف الثاني ثانوي وهو أعلى صف دراسي في مدينة (المجدل) في تلك الأيام، إلا أن إكمال الدراسة بعد الصف السابع كان وقفًا على المتفوقين بصورة مميزة، وكان هذا من سياسة دول الاستعمار كي تظل الشعوب المستعمرة متخلفة، وإن سعت إلى العلم أو الرقي في كنف الاحتلال يكون تقدمها بطيئًا بسبب العقبات التي كانت توضع على شكل قوانين تعمل على وأد الحوافز وقتل الآمال، علمًا بأن الأمم المستعمِرة ك(بريطانيا) ظلتْ لا تعدم وسيلة أو دراسة أو بحث من أجل معالجة فئة من أبنائها لا تنشد إلى إكمال دراستها، بل إنها منذ أكثر من قرن من الزمان وهي تحاول أن تفسح السبيل وأن تشجع أبناءها على التعلم مهما كان سن المتعلم، ولا زالتْ تُبتدع الوسائل لرفع مستوى التعليم في مجتمعها، وهو عكس ما فعلته في (فلسطين) قبل عام ١٩٤٨م، نحن نعلم أن الإنسان أو الشاب قد يُبدع في مرحلة ما من مراحل عمره بعد أن يكون قد أخفق أو كاد في مرحلة سابقة، وكثيرٌ من الشباب كانوا في طفولتهم غير متفوقين في الدراسة، وفي مرحلة لاحقة أو بعد ذلك كانوا يتفوقون، مثل أن يكون الطالب ضعيفًا في دراسته خلال المرحلة الابتدائية، ويُصبح متفوقًا في المرحلة الثانوية أو الجامعية، لقد حدث هذا كثيرًا في الحياة العامة، علمًا بأن العكس ليس بالعكس، بمعنى إن من النادر أن يصبح المتفوق ضعيفًا في تحصيله العلمي، خصوصًا في مراحل الدراسة، لهذا، وبسبب هذه

السياسة التي كانت مفروضة من قِبَل الاستعمار البريطاني في (فلسطين)، أُجبر كثير من شباب بلدة (حمامة) على ترك دراساتهم بعد الصف السابع وذهبوا للبحث عن العمل بدلاً من أن يكملوا دراساتهم الجامعية بسبب عدم إفساح المجال لهم، وبالفعل فإن كثيرًا من شباب (حمامة) ممن لم تُتح لهم فرصة إكمال دراساتهم العليا قد عملوا بالتدريس في مدارس القرى المجاورة، وقد عمل بعضهم مدرسًا في مدرسة البلدة لاحقًا.

حتى عام ١٩٤٨م نمت مدرسة البلدة، وازداد إقبال الطلاب على المدرسة الحكومية، وراح الناس يدركون أهمية التعليم، ويقول (علي القوقا) عن كونه قد التحق بها آنذاك: "إن مدرسة (حمامة) نَمَتْ منذ عام ١٩٤١م بصورة تدريجية، ولهذا اتسع بناء المدرسة وأضيفت إليها غرف جديدة، وهكذا بدأ عدد المدرسين يتزايد، وحدث التطوير الملحوظ، وتوسعتْ المدرسة بحيث أصبح كل صف يشغل حجرة خاصة به، كما بدأ عدد المدرسين بالتزايد".

نذكر للتاريخ هنا، أن من المدرسين الذين عملوا في مدرسة (حمامة) وتتلمذ على أيديهم طلائع المتعلمين من أبناء البلدة: الأستاذ (حسن أبو جبل) من قرية (إبرير)، و (علم العلمي)، وأخوه (مروان العلمي)، و(عبد الكريم الغصين)، وأخوه (عبد المعطي الغصين)، والشيخ (محمد صيام) من (الجورة)، والأستاذ (شاكر) من (إبرير)، والشيخ (جاد الله) من (السوافير)، و(علي السيد الحداد) من (المجدل)، و (فؤاد شبلاق)، و(خليل الخطيب) مدير التعليم السابق في قطاع (غَزّة) رحمه الله، كما عمل أيضًا في مدرسة (حمامة) كل من (علي عبد الباري)، و(فايز الدقشة)، و(خميس أبو عودة)، و(إبراهيم أهديوه) وهم من أبناء (حمامة)، هذا وكان معظم المدرسين ممن هم ليسوا من أبناء (حمامة)، يُقيمون في مدينة (المجدل) وكانوا يحضرون إلى عملهم بالدراجات أو مشيًا على الأقدام، فـ(المجدل) لا تبعد أكثر من مسافة كيلو مترين عن بلدة (حمامة).

ويقول (علي القوقا) أيضًا عن أهالي (حمامة) قبل عام ١٩٤٨م: "كان أهالي (حمامة) وما زالوا يحترمون المتعلمين ويُقربونهم، بل وينقادون إليهم، وأذكر أن من المظاهر التي لا أنساها، صورة الاحتفال الذي كان يُرافق من تقرر أسرته إرساله للدراسة في الأزهر بمصر، فقد كان الأهل يعدّون له احتفالاً مهيبًا ويُلبسونه الزي الأزهري المعروف، وكان يخرج مع أهله وذويه، ويخرج معه معظم أهالي البلدة بينما تدق الطبول على أنغام الفدعوس - فرقة موسيقى - حتى محطة سكة الحديد شرقي مدينة (المجدل)، وذلك لتوديعه في السفر إلى مصر بواسطة القطار.

إن دل هذا على شيء، فإنه يُشير على أن أهالي (حمامة) كما هم كل أهالي مدن وقرى (فلسطين) لهم عمق تاريخي واجتماعي وحضاري في تلك الأرض مثل كل الشعوب التي سارت في طريق التطور والنهوض، وإن الوطن لم يكن في أي وقت بالنسبة لهم مجرد بيت أو أرض بقدر ما كان حياة وذاكرة وامتدادًا تراثي ووجداني لا ينفك عن تلك الأرض، مَن يشك في هذا فليذهب - لو استطاع - إلى أرض بلدة (حمامة) في (فلسطين) المحتلة ليستمع إلى الحديث الصامت الذي تقوله آثار البيوت المهدمة وأرضها المقدسة، ويستمع إلى أكثر مما قيل في هذه العجالة.

الفصل التاسع

٩-١ التراث.

تزخر ذاكرة بلدة (حمامة) بحكايا شعبية(١) مختلفة ومتنوعة عن العديد من القضايا والهموم، وتشكل علامات مهمة في حياة الناس تنعكس على واقعهم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، كان الناس في القرية يتلقفون الحكايات الشعبية والخرافات بسرعة وتشوق كلما أرادوا معالجة قضية، أو هدفوا إيصال رأي أو فكرة، والحكاية من المحاكاة أو التقليد، وهي ترتبط بمحاكاة الواقع وعلى أقل تقدير واقع نفسي، يقتنع أصحابه بحدوثه، ولا بأس من التوسع في التصوير، توسعًا يُسبغ على الواقع بالجمال والتأثير، ولا نستطيع أن نعرف متى بدأت الحكاية الشعبية، ويجوز لنا الاعتقاد بأنها بدأت أولاً على يد رواة متأدبين ثم أهملتها الطبقات الخاصة، إلا أن العامة تلقفتها واحتفظتْ بها بعد أن هضمتها ومنحتها طابعها الشعبي.

إن محصلة الحكايات الشعبية على جانب كبير من التداول، فقد ظلتْ الجدة العجوز تحكي حكاياتها أو حواديتها أو "خراريفها" كما يطلق عليها في القرية، للأجيال الطالعة كل مساء خاصة في فصل الشتاء، كما أن ابن القرية لا زال يتناقلها أبًا عن جد حتى في الغربة والمهجر، ولا زال الأمل في العودة والتحرير يلتصق ببداية ونهاية الحكاية، "الله يغير هالحال بأحسن حال" أو "الله ينصر أمة محمد" وأيضًا "الله يعيدنا إلى بلادنا سالمين غانمين"، كذلك فإن الجدة – بعد الخروج من (فلسطين) عام ١٩٤٨م – ظلتْ تعتبر الحوادث المجسمة في الحكاية كما هي وفي مناطقها الأصلية – أي البقاع التي حصلت فيها حوادث الحكاية، وظل عقلها الباطن موضوع الهجرة والنزوح من (فلسطين)، فصورت الحكاية القصة كما وقعت على أرضها الأصلية في قولها:

"قطع الشاطر محمد المسافة بين (المجدل) و(حمامة) في نصف ساعة"، أو "قطع الشاطر محمد المسافة بين (حمامة) و(يافا) في يومين، وركب علي الفرس وطار زي الطلق، وركب علي الفرس ونزل بها عن سافية عالية (تلة رمل) زي سافية الحاج هليل، كانت عندهم بقرة ما شاء الله أي بقرة حمدان، أكبر من علية دار الأغا شحادة، والا قول زي علية سليمان الشيخ، وجلس يرتاح في قرية (حمامة) تحت ظل جميزة أقرع الحاج علي".

وهنا محاولة لاختصار الزمن بسرعة كبيرة للوصول إلى الهدف، وهنا أيضًا يبرز رفض العقل الباطن للاغتراب، وبمعنى آخر استنهاض حلم العودة والبناء الوطني، واختصار الزمن من أجل الإسراع بقطف النصر، حيث تقول الجدة في حكايتها: "تع يا يوم، روح يا يوم، إلا وصار اللي بدو إياه (نص انصيص)".

وأما في نهاية الحكاية فتقول الجدة: "هذه خريفتي وطار عجاجها، مليحة مليحة والا عليكوا ذبيحة، وهنا يقول الأولاد: "مليحة بدنا غيرها"، وأحيانا تقول الجدة بدافع التشويق، عندما تود الانتهاء من حكايتها "ولقد تزوجت الفتاة ابن الملك، وحضرتُ عرسهم".

وأما الدور التربوي فيظهر بوضوح في قول الجدة: "كان الشاطر محمد زيك يا علي، طويل وعينيه واسعة، ويسمع كلام أهله"، وهنا نلاحظ الهدف الكامن في هذا التداخل بين الشاطر محمد وبين حفيد الجدة (علي).

البطل الفرد في الحكاية الشعبية، تستند سيماه الفكرية إلى مجموعة غيبيات تراكمت عبر الأجيال غير محدودة، وبالتالي تشكلتْ شخصيته المتفردة غالبًا من مجموعة صفات مطلقة، فهو الذي يستطيع دائمًا أن يُطيح برأس الخصم المستبد الذي يُقلق الأهل والجيران والناس باستمرار، والبطل ذو قوة خارقة أو عقل جبار (نص انصيص)، وهنا

نرى أنه نتاج الظروف السيئة والشديدة القسوة التي تعيشها الطبقات الدنيا في المجتمع، وهو يأتي وفق منظورهم ليمكنهم – الأفراد – طريق تحقيق ما يصبون إليه، وإظهار ما يعتمل في نفوسهم، فهو المسحوق الطامح إلى الغنى الفاحش، وهو المقهور جنسيًا، وفي ذاكرته حلم اليوم في فراش أميرة يُصارعه عليها أمراء عديدون من طبقة معادية له ولطبقته، وهو القاهر الذي بالاستناد إلى السحر والمصادفات الخارقة لا بد وأن ينتصر حتى ولو اعترضه جبل استوجب أن يحفر فيه نفقًا وحده، للوصول إلى شاطئ الأمان، والفوز بقلب الأميرة، وبتحديد آخر تُشكل هذه الطموحات جميعًا لدى البطل انعكاسًا صادقًا لأحكام طبقته المسحوقة، التي نجد فيها تعويضًا كبيرًا، أو إعلانًا عن واقع حالها وبؤسها، تتناقلها لتضفي عليها أحلامًا جديدة، تتشكل عندما تصلنا تراكمات لا حصر لها صنفتها بالأساس أجيال عديدة متعاقبة.

من جانب آخر، يجب أن نلاحظ أن هناك فرقًا واضحًا بين الحكاية والأسطورة، فالحكاية هي واقع نفسي يقتنع أصحابه بحدوثه، أما الأسطورة فهي مفرد أساطير، يُقصد بها أساطير السلف، وأساطير الآلهة والأبطال وأنصاف الآلهة، ومعظمها وردت لتفسير تعقيدات الظواهر الطبيعية، أو لإرضاء طموحات النفس وعذاباتها، وهي حقيقة ثقافية بمضمون بالغ التعقيد يمكن تناولها وتفسيرها من وجهات نظر عديدة ومتكاملة، مفهومها يشمل كل ما هو ليس واقعيًا أي كل ما لا يُصدقه العقل، فكل قصة تعتمد على أسس غير عقلية، أو تُبرر بمبررات غير عقلية لا يكون ثمة شك في أنها نتاج لخيال أسطوري.

ونظرًا لأن الشعب الفلسطيني شعبٌ مؤمن فلا يوجد في أساطيره الآلهة المتعددة، ولذا فإنها تدور حول الأولياء الصالحين الذين يقومون بالخوارق كشفاء الأمراض وهزيمة الأعداء، كالشيخ (أبو عرقوب) الموجود ضريحه في القرية الذي استطاع هزيمة

الصليبيين، ومن أولاده الشيخ (رضوان بغزة)، ومن أقاربه الشيخ (عجلين)، من سلالة (عمر بن الخطاب) الذي يعتقد الناس، أن لهم العديد من الكرامات، لهذا نسجوا العديد من الأساطير حولهم، خاصة الشيخ (أبو عرقوب)، كون ضريحه مقام في القرية، كما استطاع (أبو عرقوب) نزع عرقوب أحد الجمال النافقة، ودخل به القتال وجاهد به وانتصر، وهنا نلاحظ قدرة الولي الخارقة، من جانب آخر يرى أهل قرية (حمامة) أن الولي يعاقب غير المؤمنين. {انتهى النص المباشر من كتاب (حمامة..عسقلان)}

هذا، وسنورد في الصفحة التالية، إحدى الحكايات أو "الخرايف" ومفردها "خُريفة"، من كتاب (حمامة..عسقلان) من نمط الحكايات التي كانت شائعة في المجتمع الحمامي ما قبل ١٩٤٨م، وأما في الحقيقة فإننا سنقوم باقتباسها على طريقتنا الخاصة مع بعض المعالجة المتواضعة، ذلك خلافًا لما جاءت أصلاً على شاكلته في الكتاب المشار إليه، وسنقوم عن قصد بسردها باللغة الفصحى أو كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، لأن القارئ يختلف عن الباحث المعني بلهجة معينة، والقراء عمومًا يلتقون مع اللغة العربية الفصحى أكثر من التقائهم مع لهجة عربية معينة.



حكاية الشاطر محمد(١).

كان في قديم الزمان يوجد رجل وزوجته ولهما سبعة أبناء ذكور، والزوجة تعبة من عمل البيت وخدمة الأولاد، ولهذا كانت دائمًا تتمنى بأن يكون لها ابنة كي تساعدها في أعمال البيت، دعتْ ربها كثيرًا وظلتْ ترجو ذلك، وفي أحد المرات دعتْ، بأن ترزق بنتًا حتى لو كانت غولية "غولة"، مرتْ الأيام متثاقلة، والمرأة تكرر رجاءها بالدعاء، وإذ بها تحمل جنينًا في أحشائها ثم تضع مولودًا أنثى، فرحت الأم وسرّت كثيرًا بالابنة وأعدت لها لفافة وسريرًا يليق بمن تمنتها طويلاً، ومرت الأيام وكبرت البنت، وابنة القصة تكبر بسرعة أو كما يقولون.

وفي أحد المرات في الليل، قامت الابنة ورفعتْ غطاءها وتحركت ببطء حتى لا يصحو عليها أحد من أهلها، نزلت من سريرها، وراحت تبحث عن الغنم في الدار، فاهتدت إلى البايكة في الدار، وهو ما كانت توضع فيها الغنمات، لكن أحد إخوانها وكان الأصغر سنًا، وكان اسمه الشاطر محمد، كان مستيقظًا منذ البداية إلى النهاية، ورأى كل ما فعلت أخته، لأنه صحي على صوت حركة غير عادية في دارهم، كانت غير طبيعية في عمق الليل، فتح عينيه فضولاً ليعلم مَن مِن أهله يفعل ذلك، وألقى نظرة عابرة على مضاجع نومهم، فراعه ما رأى بعد ذلك، فقد وجد الجميع في أماكنهم ما عدا أخته الطفلة، لم تكن في سريرها الصغير، تلك التي كانت لا تستطيع خدمة نفسها في ذلك السن، رأها وقد أمسكتْ بإحدى الغنمات وقطعتْ رقبتها وأنشبت أنيابها فيها، فشربتْ دماء الغنمة قطرة قطرة وأكلتها، ولم تترك منها أثرًا، وعادت متسللة اللي سريرها الصغير، ووضعتْ على نفسها الغطاء وعادتْ للنوم، وكأنه لم يحدث شيء.

في الصباح قال الشاطر محمد لأمه، ابنتك غولة يا أمي، وقال لإخوته ووالده نفس الشيء، وقال لهم غدًا ستأكلكم إذا لم تأخذوا حذركم وتتصرفوا، وذكر لهم كل ما فعلتْ

خلال نومهم في الليلة الماضية، الأب والأم لم يصدقوا ما قاله الشاطر محمد، لأنه كان الأصغر بين إخوانه، فهو من منظورهم لا يعي جيدًا ما يقول ولا يميز الأمور أو خطورتها لصغر سنه، إلا أن الوالدين أمروا أبناءهم السبعة بأن يسهر كل واحد منهم ليلة على مدى أيام الأسبوع، وذلك لمراقبة لماذا كان يتناقص عدد غنماتهم، فقد لاحظا بأن غنمة في كل ليلة كانت تختفي من الدار، سهر الأخ الأكبر في الليلة التالية إلا أنه لم يستطع الصمود في السهر طوال الليل، ونام، وفي الصباح وجدوا إحدى الغنمات وقد اختفتْ، بعد ذلك كان الدور في السهر على الأخ الثاني وحدث معه ما يشبه ما حدث للأخ الأكبر، وفي الصباح دقق على الغنمات أيضًا، فوُجدت إحداها ناقصة، ونفس الشيء حدث مع كل الإخوة الآخرين.

وحينما جاءت نوبة الشاطر محمد، قال لهم، أنا الذي سأمسك أختكم الغولة بالجرم المشهود، وظل مستيقظًا طوال الليل، ولم يغفو له جفن، وبقي متحفزًا للإثبات صدقه وجديته ونباهته، في عمق الليل رأى أخته تفك رباطاتها، وترفع أغطيتها، وتنزل من سريرها بخفة، وتخرج مباشرة إلى موضع الغنمات في البايكة، وفور أن شاهدها، وكانت تمسك بواحدة، وتشرع في أكلها، ما كان منه إلا أن قام، وأيقظ أمه وأبيه وإخوته جميعًا، وقال لوالديه، أنظروا ماذا فعلت ابنتكم، وكانت توا قد أنهت أكل إحدى الغنمات، وراحت تعود إلى سريرها، صاحت الأم، الله أكبر، هل تقول عن أختك غولة، ماذا دهاك يا ولد يا مجنون، أختك تخرج للعب مع البنات والجلوس مع النساء، لا لشيء آخر، أنت لا تعرف أمور النساء، في الصباح قال وقد كذّبه أهله: "والله إنني سأرحل، وسأترك البلاد التي أنتم فيها"، ومضى في أرض الله الواسعة تاركًا وراءه أهله، بعد أن نصحهم بالمغادرة معه لينجوا جميعًا من الغولة، مضى الشاطر محمد في أرض الله، ومر على بلاد وبلاد، ورأى في طريقه أقوامًا شتى، وفي إحدى الديار لفتَ نظره وجود خيمة

في أحد مضارب العربان، كانت في ناحية متطرفة من الخيام الأخرى "بيوت الشعر"، وجد في الخيمة امرأة عجوز لا أحد عندها، ولكن عندها الكثير من الغنم والجمال والحلال، طرح عليها السلام، وسألها إن كان له عمل عندها، ليستطيع العيش وتدبر أموره، كان الشاطر محمد تبدو عليه الوسامة، والصحة واليفاعة، وطيبة الخلق، وحسن المظهر، وخفة الحركة والنشاط، وكان من نوع البشر القريب إلى النفس، لهذا لم تتردد المرأة العجوز بأن تقول له، أنا وحيدة يا بني، ومقطوعة ولا أحد يعينني، أهلاً وسهلاً بك، أنت هديتي من السماء، وأنا ليس لي أولاد، وأنت بمثابة ابن لي، ورزقك ورزقي على الله.

وفي كل يوم، كان الشاطر محمد يخرج في الصباح، وكان يذهب لرعي ماشية المرأة العجوز التي أضحت بمثابة أم له، وكان يعود في المساء ويقوم بباقي الأعمال، مرت الأيام، ومر غيرها وغيرها وهو على هذا الحال، وفي أحد الأيام، وبينما كان يقوم برعي الغنم والإبل في السهول والوديان لفت انتباهه، أن لبؤة "أنثى الأسد" في تلك الأنحاء كانت في حالة ولادة، لكن يبدو أن ولادتها كانت متعسرة، راح يساعد اللبؤة في الولادة لتضع جراءها، وفعلا راح يساعدها، فوضعتْ الشبل الأول، وأمسك به وأخفاه في عُبه، وأمسك بالثاني ووضعه في عبه أيضًا دون أن تنتبه اللبؤة على ما كان يفعل، المهم أنهى مساعدتها وترك لها بقية الأشبال، مضى عائدًا إلى خيمة أمه العجوز ومعه الأسدين الصغيرين، أعطى الأول لقب "شياح"، وأعطى الثاني لقب "رياح"، وصار يرعاهما ويطعمهما لحمًا ويسقيهما حليبًا إلى أن أصبحا أسدين حقيقين، وأحبهما كثيرًا، وأحبتهما أيضًا أمه العجوز، وتعلق به الأسدان، وجعل لهما مربطين خارج الخيمة، مرتْ الأيام وجاءت الأيام، وروح يا زمان وتعال يا زمان، وتبدلت أحوال، ولكن الشاطر محمد لا ينسى أهله ولا يسكتْ على ضيم، واشتاق لأهله، قال لأمه العجوز: أود أن أزور أهلي،

وأن أرى ماذا حدث لهم بعد هذا الغياب، والبلاد يا أمي قد اشتاقت لأهلها، ردت عليه العجوز بعطف وحنان، وقالت: توكل يا بني على الله، ربنا يوفقك يا وجه الخير والسعد يا شاطر محمد، قال الشاطر محمد لأمه العجوز: لكن لي عندك وصية يا أماه، قالت ما وصيتك يا شاطر محمد، قال وصيتي يا أمي، هي، أن تضعي في غيابي بجانب الأسدين وعاءين، في أحداهما سكن "رماد نار" وفي الآخر عسل نحل، إن رأيت الأسدين يلعقان من وعاء العسل ويتلذذان به، فهذا يدل على أني بخير، وابقيهما مربوطين وإياك فكهما، وإن رأيتهما يتمرغان في السكن بجنون وفزع، أطلقي سراحهما بسرعة ولا تترددي فهذه علامة على أني في ضيق وأحتاج إلى المساعدة.

مضى الشاطر محمد إلى أهله، وسار ومر على وديان وسهول وصحاري، وأضحى على مشارف بلدته التي تركها منذ سنين، فإذا به يرى ما لا يصدق، رأى بلدته خالية من الناس، لأن الغولة قد أكلت كل الناس بما فيهم أمه وإخوته، وأن أباه قد أضحى مستغولاً، وصار غولاً مع أخته الغولة، وأكلا معًا الإنسان والحيوان في بلدته، ورآهما عن بعد يلاحقان من على فوق سطوح البيوت ديك دجاج أعور "بعين واحدة" هو آخر أحياء البلد، وأن البلد أضحت خالية، وتبدو خراب وكأنها من آثار الأزمنة السحيقة في القدم، لأنها كانت مهملة ومهدمة وخالية من السكان، رأى وتأكد الشاطر محمد مما حدث لبلدته وأهلها، وكان يعتلي في تلك اللحظات ظهر ناقته، وهمّ بالرجوع إلى أمه العجوز قبل أن تكتشفه الغولة، فإذا بالغولة تراه من بعيد، وأضحى عاجزًا عن فعل شيء، لا هو يستطيع أن يهرب، ولا هو قادر على الاحتماء من شر الغولة، لأنها أسرع في الجري من ناقته لو حاول الهرب، ولم يبق له سوى أن يستسلم لقدره ويرى ما هو فاعل، وهكذا بقي واقفًا بينما أخته الغولة متجهة نحوه مسرعة، حينما وصلته، قالتْ له، أهلاً وسهلا بأخي الشاطر محمد، والله زمان يا شاطر محمد، أخذته إلى الدار، وأجلسته في

ناحية، وربطت ناقته في ناحية مذرية بعيدة عن الأنظار، بعد قليل دخلتْ هي وأبوها على الناقة، هجما على إحدى أرجلها الأماميتين وكسراها وأكلاها، وخرجتْ الغولة لتقول للشاطر محمد: لماذا ناقتك يا أخي بثلاث أرجل؟ فَهِم الشاطر محمد ما حدث، وأجاب الغولة: تلك عاداتنا وتقاليدنا أن تكون الناقة عندنا بثلاث أرجل، ثم تحادثا معه قليلاً، وحينما شعرا بالجوع ثانية، دخلاً إلى ناحية مكان وجود ناقته، وأكلا الرجل الأمامية الثانية، وخرجا ليقولا له: لماذا ناقتك برجلين فقط؟ وهم يهدفان من ذلك إلى ترويعه، وإخافته، وجعل قلبه ينخلع من شدة الخوف وجعله يشيب قبل زمانه، بعد ذلك دخلتْ الغولة وأبوها إلى الناقة وأكلا الرجل الثالثة، وخرجا يسألان الشاطر محمد ما سألاه من قبل، ورد عليهما أيضًا أن ذلك من عاداتنا في بلادنا، بعد ذلك دخلا ليأكلا الرِّجل الرابعة، وبينما هم كذلك راح الشاطر محمد يُحادث نفسه، ما العمل، لو استمر الحال هكذا، بعد ان يأكلا الناقة كلها سيأتيان عليّ، وهما أيضًا في نفس الوقت الذي كان يحادث الشاطر محمد نفسه فيه، كانا يهزآن بالشاطر محمد، وبينما هما يأكلان الرجل الرابعة قالا في حيرة لا تخلو من المكر والحقد المبيت، كلما سألناه ملعون الوالدين، لماذا ناقتك هكذا، رد علينا بأن ذلك من عاداتهم في بلادهم، حسنا سنريه ذلك بعد الانتهاء من أكل الناقة، وبينما الأمر على هذا الحال، راح الشاطر محمد في قلق شديد، ومضى يُجهد تفكيره، كيف يتخلص من هذا المأزق اللعين، واهتدى إلى أنه طلب من الغولة إبريق الماء لكي يتوضأ للصلاة، ذلك بعد أن انتهت من وجبتها وعادت إلى أين كان يجلس، قالت: نعم توضأ يا أخي واشكر الله واحمده، وهاك إبريق الوضوء، وتوضاء هنا يا أخي قريبًا مني، قال لها: لا، سأتوضأ فوق السطح، فعاداتنا هي أن نفعل ذلك حين الوضوء. وأخذ الإبريق وصعد إلى السطح، فوق السطح علّق عباءته على عرف شجرة يابس، ووضع قطعة قماش قديمة وسد بها فتحة الإبريق وأماله قليلاً لينسكب منه الماء ببطء، وجعل

قطعة القماش تبتل وراح الماء يسقط في باحة الدار على شكل قطرات من الماء مستمرة، وكان يهدف من ذلك أن يوهم الغولة بأنه موجود، وعند ذلك راح هاربًا بأقصى ما عنده، وجرى، عساه أن يفلتَ من الغولة، وظل يقفز فوق السطوح، من سطح بيت إلى آخر، والغولة لاهية في أكل ما تبقى من ناقته، ووصل إلى خارج بيوت البلدة، واستمر في العدو، بعد ذلك استطول الغول والغولة الشاطر محمد، وقالا لنفسيهما الآن ينزل من على السطح، بعد قليل ينزل، إلى أن ملا الانتظار، وصعدت الغولة إلى السطح تستطلع الأمر، فلم تجد الشاطر محمد، وأدركت بأنه قد هرب، ونظرتْ في كل الجهات، فرأته بالكاد من على بعد، ورأته يعدو في أرض قفراء خارجًا من البلدة المنكوبة، راح الغول والغولة يعدوان خلف الشاطر محمد بأقصى سرعة، وهما طبعًا الأسرع في العدو، اقتربا منه وكادا أن يمسكا به، وبينما هو على هذا الحال لا يملك سوى العدو والهرب، رأى شجرة جميز وحيدة في تلك المنطقة، فأسرع قليلاً، وصعد عليها ليحتمي من الغولة، لأن الغيلان لا تستطيع الصعود على الأشجار، وصل الغول والغولة إلى الشجرة ووقفا تحتها وهما بكل ثقة وقد ازداد حقدهما على الشاطر محمد، كانا يدركان بأن نهايته حتمية، وما هي سوى لحظات ويسقط في أيديهما صيدًا سهلا ووجبة شهية، نادته الغولة: انزل، قال: لن أنزل، قالت: إذا لم تفعل طواعية، سأنفخ عليك بفمي وسأجعلك أنت والعرف الذي تقف عليه تطيران في الهواء، قال لها: انفخي، ففعلت، وإذا بالعرف الذي كان يقف عليه يُقصف وينكسر فتعلق بالكاد بغصن آخر، وأنذرته ثانية ورفض هو الإنذار فنفخت الغولة، وتكرر ذلك إلى أن بقي الجذع فقط من الشجرة وهو متشبث فوقها، قالتْ له: انزل أو أجعلك تطير أنت والشجرة معًا، قال الشاطر محمد: لن أنزل، راحت الغولة والغول يقشران جذع الشجرة بأنيابهما إلى أن أضحى الجذع رفيعًا، وراحت الشجرة تتمايل يمنة ويسرة، وحينما أدرك الشاطر محمد، أن لا فائدة من هذا الحال، طلب من

الغولة أن يقول شيئًا قبل أن ينزل طواعية ويسلم نفسه، قالت وهي موقنة من نهايته: لك ما تريد، قل ما تريد يا أخي الحبيب اللدود، كان قد تذكر في تلك اللحظات الأسدين اللذين رباهما ورعاهما وتركهما عند أمه العجوز، حينها نادى بأعلى صوته، قائلاً، كلاما ليس في معناه بالنسبة للغولة، سوى أنه يودّع الدنيا وينعى مصيره المحتوم، قال: يا شياح، يا رياح، صاحبكم الشاطر محمد اليوم راح.

والغولة لا تدرك أن ما ناداهما الشاطر محمد هما الأسدين الضرغمين، هزأت الغولة مما قاله الشاطر محمد لأنها لم تفهم على ماذا كان ينادي المسكين، وقالت له: نادِ مرة ثانية وودّع الدنيا يا شاطر محمد، وجد الشاطر محمد أن الخدعة مرّت على الغولة، وها هو يُعطى فرصة أخرى لينادي الأسدين، وفعل ذلك ثانية وما خاب، وصل نداء الشاطر محمد إلى أسماع الأسدين اللذين رباهما ورعاهما وأحبهما وحماهما من كلاب القبيلة حينما كانا صغيرين، فراحا يتمرغان في السكن وفي الطين، وانتبهت وشاهدتهما أمه العجوز التي أحبته كثيرًا واستطولت غيبته واشتاقت إليه، فقامت على وجه السرعة، وفكتْ رباطهما فانطلقا بسرعة البرق، وما هي إلا لحظات وغابا عن الأنظار، لم يمض وقت طويل بعد ما أنهى الشاطر محمد نداءاته وكررها "يا شياح، يا رياح، صاحبكم الشاطر محمد اليوم راح". وإذ بالأسدين قد وصلا، ولم ينتظرا وانقضا فورًا على الغول والغولة وراحا يأكلانهما، وبينما الشاطر محمد كان ينزل عن الشجرة، كان يوصي الأسدين بأن يبقيا على جلدي الغول والغولة لأن له معهما عمل، أخذ جلد الغول والغولة، وعاد إلى أمه العجوز سالمًا غانمًا فرحًا بلقائها ومسرورة بلقائه، ووضع في عين الشمس جلد الغول والغولة إلى أن أصبحا جافين بحيث يصعب طيهما من شدة اليباسة، وصار بعد ذلك يحك الجلدين بعضهما ببعض فيتألمان ويصدران أصواتًا، كان صوت الغولة يقول للغول:

مش قلت لك يا مخصي، هيا نأكله، فيرد جلد الغول: لو كنت أدري لوضعتُ رأسه في القدرة.

حكى لأمه العجوز كل ما حدث معه منذ أن استأذنها لزيارة أهله حتى عودته، فحمدت الله على سلامته وسُرّت بعودته، وحينها قال لها: سأريك شيئًا، قالت له: أرني، قام وأمسك بجلد الغول والغولة، وعمل على حكهما ببعض، وراحا يندمان كيف أفلت الشاطر محمد منهما ولم يأكلاه، فكانت أمه العجوز بعد أن تسمع ذلك تشمت بهما وتقول: هذا جزاؤكما يا غيلان، بعد ذلك عاد الشاطر محمد لرعي حلال أمه العجوز، وكان يأخذ معه جلدي الغول والغولة، وكان في حضور الرعاة يحك الجلدين بعضهما مع بعض، فيتشاجرا بالأصوات والرعاة لا يعرفون حقيقة ما حدث ويستغربوا ما يسمعوا، ومن ذلك حصل الشاطر محمد على نقود من الناس الذين كانوا يأتون لسماع الجلود التي تتحدث مثل البشر حينما تحك ببعضها، وكان بعضهم يعطون الشاطر محمد قمح وشعير وغنم مقابل ما يفعله من سحر وخوارق، باعتبار أن الجلدين وما يصدر عنهما من أصوات هو نوع من الخوارق، أصبح الشاطر محمد ميسور الحال بل واغتنى وتزوج، وعاش في هناء وأمان وسرور.

وفي نهاية القصة أقول أنا الكاتب، كعادة العجائز اللواتي كن يقصصن مثل هذه الحكايات على أحفادهن في بلدة (حمامة)، أقول: وهذه حكايتي يا قراء، مليحة مليحة، أم عليكم ذبيحة؟

بالنسبة للحكاية، فلا تعليق لنا نضعه في هذا المقام حتى لا يؤثر ذلك لو حدث، على انطباع القراء الذين سيخرجون بالتأكيد بانطباعات مختلفة ومتعددة، هذا، وسيُترك الأمر للقارئ لكي يكون حرًا في تصوره وانطباعه، لكن السؤال الذي ولد كبيرًا منذ بداية الحكاية أو الخُريفة السابقة، والذي راح يكبر أكثر ويتضخم مع عبور السطور، حتى

فرض نفسه وسد الرؤية، هذا السؤال الذي يكاد أن ينطق، ويقول، ترُى كيف نستطيع نحن الذين استمعنا إلى حكايات الجدات والأمهات إبان أيام عيشنا في (حمامة)، نحن الذين أضحينا جزء من هذه الكلمات ولا ننفصل عنها، وأصبحنا مادة تراثية لا يمكن فصلها عن معنى الوطن، كيف نستطيع أن ننقل لأبنائنا ولأحفادنا صورة الوطن ومحبته متجسدًا في بلدتنا الخالدة (حمامة)، كيف ننقل لهم عشق الوطن المعمد بأسمائنا وذاكرتنا، ترُى، هل يشعر الأبناء والأحفاد مثلما نشعر حينما يمرون على مثل هذه الحكاية؟

٩-٢ صور تراثية.

خبز الطابون.

خبز الطابون لذيذ جدًا، وهو أحد أنواع الخبز، مشهور في الريف الفلسطيني، وفرن الطابون من التراث.

العجين.

كانت الفلاحة الفلسطينية تضع حفنات من الطحين في الباطية الخشبية أو اللقان الفخاري، وتعجنها جيدًا مع الماء وقليل من الملح والخميرة، وعندما تتخمر العجينة تقطع ويعمل منها الأرغفة وتنضج في الفرن.

الفرَّان.

كان عامل الفران هو من كان يقوم بفرد العجين الذي يصبح بعد ذلك أرغفة، وإذا كان العجين غير مختمر يسمى عويص، والفران (الخبّاز) يقوم بتجرين الرغيف بأطراف أصابعه تمهيدًا لوضعه في الفرن قرب النار.

المفتول.

يُعتبر المفتول من أهم الأكلات الشعبية الشائعة والمحبوبة في قرى (فلسطين) الجنوبية، ويفتل من طحين القمح الجيد ويُهَبَّل على بخار اليخنة/الطبيخ أو على الماء المغلي، ويتبل بزيت الزيتون والسمن، وقبل ذلك تدق الجرادة والفلفل والبصل، وتوضع الدقة بين حبات المفتول أثناء التهبيل، ثم ينزل من المصفاة في وعاء واسع، ويغرف عليه اليخنة المكونة من البصل والبندورة والقرع والحمص وقطع اللحم، كان يقول الناس، ما أزكى المفتول مع لحم العجول (البقر).

خبز الصاج.

الصاج عبارة عن صحن رقيق من الصفيح الأسود، أحد سطحيه مُجوف والآخر مُحدب، والتجويف يكون مقابل النار أي إلى أسفل، وتفرد قطعة العجين حتى تصبح رقيقة جدًا بأقصى ما تستطيع المرأة، وعندما يصبح الصاج ساخنًا توضع قطعة العجين على السطح العلوي المحدب، وخبز الصاج عملي جدًا لأنه بالإمكان استخدام اللقمة من الفرشوحة كملعقة، إذ عند طيها على شكل ودن قط يمكن تناول الطعام أو الغموس بها.

الطاحونة.

يطحن القمح وغيره بواسطة الجاروشة أو الطاحونة أو حجر الرحى، وعملية الطحن كانت النساء في العادة يقمن بها، ويبدأ الطحن في ساعات الصباح المبكرة أو بعد الظهر، كانت النساء خلال استعمالهن للطاحونة تغنين أحيانا أغنياتهن التراثية، فيختلط صوت المرأة مع صوت الطاحونة، ولا أحد يفهمه سواها، وربما هي تغني من أجل أن توهم نفسها بأنها لا تسمع صوت الطاحونة المزعج والذي لا بد منه.

التطريز.

في المناطق الساحلية من (فلسطين)، لا تجد المرأة متسعًا من الوقت لتطريز ثيابها، مثل ثوب الجلجلي وأبو ميتين والجنة والنار والمحير وأبو سبعين وأبو سفرتيه كما ترى في المنطقة الجنوبية، وخصوصًا في (حمامة) و(عسقلان) و(المجدل) وغيرها من بلدات الساحل، أما في الجبل فتكثر الوحدات الزخرفية من نباتية وحيوانية في تطريز ثياب نساء أهل الجبل، وزي ما قال المثل: الفضاوة، بتعلم التطريز.

النول.

ما أجمل أن يعود عامل النول إلى بيته من قاعة النسيج الموجودة في المشغل متعبًا من عمله في النول أو الدوارة أو المسدية المنصوبة على طول الطريق ليجد زوجته جالسة وراء الدولاب وابتسامة حلوة ترتسم على شفتيها وعلى محياها وهي تلف خيوط الغزل من الشلل عبر الطيار إلى مواسير البوص أو المعدن مخففة عن زوجها عبء التعب وعناء المشقة.

خضاضة اللبن (القربة).

معظم الفلاحين وملاك الأراضي كانوا يملكون قطعانًا من الأغنام والخراف أو الأبقار، وكانوا يُوكلون مهمة رعاية القطيع لراع يعمل لديهم طيلة العام، هذا عند الأغنياء، ويسمى الراعي راعي الدشارة، وتبدأ النعاج مثلاً في إعطاء حليبها في الربيع، وتنهمك الفلاحة في تحضير اللبن والجبن، كما أنها تضع اللبن في السعن المصنوع من جلد الحيوان (القربة)، وتبدأ في خضه للحصول على السمن والزبد، وقيل: خض القربة تطلع زبده.

الشعيرية.

تجلس النسوة وأمامهن العجين على الطبلية يقطعن منها قطعًا بحجم راحة اليد، تضغط المرأة على قطعة العجين وتفركها لتخرج من تحت أصابعها خيوط الشعيرية التي تنزل

على ظهر الغربال، ثم توضع تحت أشعة الشمس لتجف وبعدها انتشرت المعكرونة والإسباجتي، كان الناس يقولون: خزين الصيف بينفع للشتاء.

حاملات الجرار.

كان النبع والعين والبئر أبو دلو وحبل الليف هي مصادر وأدوات جلب الماء إلى البيوت، وكانت الواردات من النساء يذهبن إلى البئر أو النبع، وأهازيج الصبايا عند العين صورة جميلة، وحكاية فلان حب فلانة عند العين، "ما أحلى الحرة وهي حاملة الجرة"، وهنا كانت صبايا القرية يحملن الجرار أو العسالي الفخارية على رؤوسهن متوجهات إلي النبع أو مورد الماء، وكن يرتدين أجمل الثياب المطرزة، وشباب القرية يتدلهون إعجابًا بمشية الواردة على العين، "مش كل مرة تسلم الجرة".

حجر البد.

قبل الموتور والقشط والمحرك الكهربائي، كانوا بعد جني الزيتون يعصرونه على البد كما في الصورة، والبد طريقة قديمة، وكان حجر البد يُدار بواسطة الدواب المغماة العيون، حيث كانوا يربطونها بالحبال المتصلة بدوار اليد الخشبي، والقطفة الأولي كان ينتج منها زيت الأكل، ومن القطفة الثانية زيت الصابون ومن الثالثة للإضاءة وما تبقى من جفت فيستخدم كوقود، ولأن حجر البد كبير وثقيل، كان البعض يشبهون بعض الأشخاص أو الأشياء ويقولون مثلاً: "تقيل زي حجر البد".

رتق الثياب.

قالوا من غاب عنه ماضيه ضيع حاضره، منذ زمن ليس ببعيد، كانت الحال غير الحال، وكانت المرأة المدبرة هي تلك التي تقوم بترقيع ثياب الأسرة لكي يطول عمر استعمالها،

وذلك نظرًا لفقر الحال وقلة المال عند البعض من الناس، و"على قد لحافك مد رجليك"، و"مِن رقعت ما عريت، ومن دبرت ما جاعت"، واللي ما إلها خلَقَ ْ ما إلها ثوب"، بمعنى أن المرأة المدبرة التي تستعمل ثوبها القديم يكون عندها ثوب جديد تتباهى به، لأنها تظل محافظة عليه بسبب استعمالها للثوب القديم.

٩-٣ الألعاب التراثية.

الرجل الفلسطيني والمرأة الفلسطينية مميزين بين النسيج العربي الاجتماعي سواء في البادية أو في الريف أو في الحضر، و (فلسطين) على صغر مساحتها نسبيًا فإن فيها فئات مختلفة تتباين تدريجيًا ما بين الريف والمدينة والبادية، وبين الساحل والجبل وبين الشمال البارد نسبيًا والجنوب الحار نسبيًا، ولهذا راحت البيئة والظروف الاجتماعية تضع أثرها وتشكل هوايات الإنسان في (فلسطين) في خصوصية تتكامل مع لون المجتمع العربي بصفة عامة، ولا فرق هنا بين الكبار والصغار، تأثر الطفل والصبي والفتاة الفلسطينية كل ببيئته الجغرافية والاجتماعية وموقعه في الأسرة والحارة، وأصبح لكل واحد لونًا في ممارسة هواياته وألعابه المفضلة، كان الأطفال في بلدة (حمامة) قبل عام ١٩٤٨م لهم هواياتهم وألعابهم في مجتمعهم الريفي البسيط مثل كل أطفال العالم.

هنا بعض الألعاب التي كان يمارسها الأطفال في تلك الأيام، وهي ألعاب شاعت في (حمامة) وفي محيط (حمامة) من البلدات المجاورة، واختلفت نفس الألعاب في بعض الأحيان بين الساحل والجبل مثلاً أو بين الشمال والجنوب في (فلسطين)، إلا أنها ظلت ألعابًا فلسطينية تجمع الخصوصية بين أهل (فلسطين) وإن كانت بعض الألعاب المشابهة يُمارسها الأطفال أحيانا في بعض البلدان العربية الأخرى، وهو ما يدل على أن (فلسطين)

مسكونة منذ القدم بأهلها الذين طردوا وشتتوا حينما أقيمت دولة (إسرائيل) على أنقاض وطنهم، وجعل (إسرائيل) تنسب لليهود الإسرائيليين بعض عادات الفلسطينيين وألعابهم الشعبية، وحتى مأكولاتهم، لطمس الحق التاريخي للفلسطينيين في وطن الآباء والأجداد، بل هنا نعرض بعض الألعاب التي كان يمارسها الأطفال والصبية الفلسطينيون في بلدتهم التي أزالها الإسرائيليون عن الوجود وبنوا على أنقاضها أربع مستعمرات يهودية، لا يفوتنا أن ننوه بقيمة ما قدمه موقع المركز الفلسطيني للإعلام في مجال البحث عن الألعاب الشعبية التي كانت شائعة في (فلسطين)، وهو ما أرشدنا ومكننا من أن نمسك بطرف الفكرة، وأن ننقل بعض الألعاب مما نشر في الموقع المشار إليه ونضيف عليها ونضع الصورة الخاصة التي كان يمارس الأطفال في بلدة (حمامة) الخالدة ألعابهم فيها قبل النزوح المشئوم عام ١٩٤٨م.

الحَجْلَة.

عدد اللاعبين: اثنين إلى أربعة من الصبية أو الفتيات، وفي الغالب من الفتيات.

طريقة اللعب: تقوم الفتيات باختيار مساحة من الأرض في حدود ستة مترات مربعة، ويكون شكل هذه المساحة من الأرض على هيئة مستطيل مقسم إلى ست مربعات أو مستطيلات.

ويبدأ اللعب بأن تمسك إحدى الفتيات بقطعة من النقود وتختار الأخرى أحد وجهيها، ثم تقذفها في الهواء، فإن ظهر الوجه الذي اختارته، تكون هي أول من يبدأ اللعب، وإلاّ فإن من حق زميلتها التي اختارت الوجه الآخر أن تبدأ اللعبة، أو باستعمال أي نوع من القرعة لاختيار من تبدأ أولاً.



تقوم الفتيات التي تبدأ لعبة الحَجَلة باختيار قطعة فخارية أو حجرية مبسطة أو حتى قطعة من الخشب السميك وتضعها على الأرض في أول مربع من مربعات المستطيل وعادة ما يكون المربع الأيمن. وتقوم الفتاة بدفع القطعة بإحدى قدميها إلى الأمام، بينما تكون القدم الثانية مرفوعة عن الأرض، بحيث لا تلامسها أبدًا طيلة اللعب، وما دامت اللاعبة داخل المربعات التي أشرنا إليها دون أن يدوس قدمها الخطوط الفاصلة بين مربعات اللعب عليها أن تتحرك بالقفز، وتحاول الفتاة أن تجعل القطعة تستقر في المربع التالي بواسطة دفعها بقدمها التي تلامس الأرض، ثم الذي يليه، وهكذا وبحيث تجتاز المنعطف وحتى المربع الأخير، فإذا توقفت الفتاة على الخط الذي يفصل بن المربع والذي يليه، أو لامست قدمها المرفوعة عن الأرض، أو داست قدمها التي تستخدمها في دفع القطعة على ذلك الخط تكون قد خسرت اللعبة ولا يحق لها أيضًا أن تدفع القطعة مرتين في المربع الواحد، ويحق لزميلتها أن تحل مكانها على أن تبدأ اللعب من جديد.

إذا أكملت الفتاه التي شرعت باللعب المرور بالقطعة على كافة المربعات وطردت قطعة اللعب خارج المربع الأخير، استمرت باللعب ثانية مُبقية زمام المبادرة لها، تقف أمام المربع الأول وتقذف بيدها قطعة اللعب هادفة أن تستقر في المربع الثاني ثم تقف الفتاة على رجل واحدة وتمر قفزًا عن طريق المربع الأول إلى المربع الثاني لتضرب بقدمها قطعة

اللعب لتدفعها إلى المربع الثالث وهكذا إلى المربعات الأخرى حتى تخرجها بنفس الطريقة من المربع الأخير بدون أخطاء، وتشرع بعد ذلك برمي القطعة إلى المربع الثالث وتلعب بنفس الطريقة إلى أن تفعل نفس الشيء مع المربع الأخير.

بعد الانتهاء من اللعب بتكرار اللعبة عند كل مربع كما أسلفنا، تشرع الفتاة بممارسة اللعبة بطريقة أكثر تعقيدًا وهنا بروز المهارة والدقة الأكثر في اللعب، وذلك بأن تكرر طريقة اللعب السابقة بدء من المربع الأول باختلاف فقط طريقة رمي قطعة اللعب إلى كل مربع، وذلك بأن تدير ظهرها لمربعات اللعب وترمي قطعة اللعب في كل مرة من وراء ظهرها، ويتوجب طبعًا أن تسقط قطعة اللعب في المربع الأول ثم تستدير الفتاة وتبدأ النط ودفع القطعة بقدمها في كل مرة لتطردها إلى المربع التالي، ويستمر اللعب هكذا برمي القطعة من وراء الظهر إلى أن تخطئ اللاعبة ليصبح زمام المبادرة للاعب أو اللاعبة الأخر...

تُزاول هذه اللعبة في ساعات النهار، وبخاصة في فصل الربيع، وحينما تشرق شمس الصباح الدافئة، من بعد أمطار تكون قد هطلت.

لعبة الحصان.

عدد اللاعبين: مجموعة من الأطفال الذكور.

طريقة اللعب: يقوم الصبية بالاصطفاف على شكل خط مستقيم وتكون قاماتهم منحنية، بحيث توضع أيديهم على ركبهم ووجوههم إلى أسفل على نحو ما يفعل المصلون حين يركعون، ويقوم آخر صبي في الصف بالقفز (النط) فوق زملائه الذين أمامه وأحدًا إثر واحد حتى ينتهي منهم جميعًا، ثم يقف في المقدمة وينحني كبقية الصبية ويبدأ بالقفز الذي كان يليه في بداية اللعب، وهكذا يستمر القفز بهذه الطريقة، وتمارس هذه اللعبة في

الشوارع والحارات المفتوحة الشبه مستقيمة أو على الشواطئ حيث يستمر تحرك اللاعبين من مكان إلى آخر.

القلول أو البنانير.

والقلول ومفردها "قُلْ" وهو كرة معدنية صغيرة، والبنانير مفردها "بنوره" وهي كرة زجاجية صغيرة جدًا بألوان ونقوش مختلفة.

عدد اللاعبين: اثنان أو أكثر.

يتفق لاعبان على أن يبدأ اللعب ومن يستطيع بضربة واحدة أن يصيب ببنورته بنورة الأخر ويُسقطها في الحفرة الصغيرة يكون هو الرابح وهكذا.

طريقة اللعب: يُمسك كل واحد من اللاعبين قُلاً أو بنوره، ويقذفها بضربة من إبهامه محاولاً أن تصيب البنوره أو القل الذي على الأرض، فإن أصابته ووقع الاثنان في حفرة اللعب والتي يسمونها "ماق" تكون تلك البنورة أو القل من حق الفائز، وتستمر اللعبة ويبدآن من جديد، ويكون الفائز هو من حاز على أكبر عدد من القلول أو البنانير، ويحرص كل صبي على عرض أنواع مختلفة من البنانير التي كسبها مزهوًا ببراعته في اللعب.



اللعب بالبنانير متعدد وله طرق كثيرة: فإما حسب الشرع السابق وأحيانا يكون ليس بهدف الربح وكسب البنانير بقدر ما هو بهدف التسلية، فقد يتفق اثنان من الصبية مثلاً بينما هما ذاهبان على الأقدام مشيًا إلى المدرسة أن يلعبا بالنانير على أرض جافة تسمح بتدحرج البنانير عليها، يمسك كل واحد بنورة ويرمي أحدهما وهو سائر بنورته على الأرض ويسير مترقبًا ماذا سيفعل الآخر الذي سيقوم بالتصويب وبقذف بنورته في اتجاه بنورة زميله التي توقفت هناك ويحاول إصابتها، وقد يُصيب وقد يخيب الهدف، وتتوقف البنورة الثانية في مكان متقدم آخر إلى الأمام في الطريق، وهنا يأتي دور اللاعب الأول ليقوم بالإصابة أو التصويب، ويستمر اللاعبان حتى يملا أو حتى لا يستطيعان ممارسة اللعب في الطريق العام أو إذا وصلا المدرسة أو مبتغاهما.



الغماية (الاستغماية).

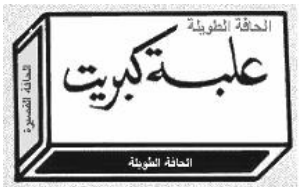
عدد اللاعبين: ٦:٣ أشخاص ذكور وإناث أو أكثر.

طريقة اللعب: يضع الأطفال أو الصبية عصابة محكمة بقطعة قماش على عين من تقع عيه القرعة، في حين يختفي الباقون، وتكون مهمة الفتى معصوب العينين البحث عن زملائه، فإذا استطاع أن يعثر ويمسك بواحد منهم وأن يعرف اسمه نُزعت العصابة عن عينيه، وجعل الشخص الممسوك يحل محله، وإذا لم يتمكن من الإمساك بأحدهم يظل معصوب العينين ويجري في كافة الاتجاهات إلى أن يوفق في الإمساك بأحد أقرانه ليحل محله، وهكذا تستمر اللعبة وكل واحد يحاول ألا يُعرف عن نفسه خصوصًا إذا تم الإمساك به من قبل معصوب العينين، وتكون المهارة في أن المحيطين بمغمض العينين يظلون قريبين منه، ويقومون بأفعال أو حركات أو أصوات مثل لمسه أو وكزه بأطراف أيديهم بطريقه خفيفة، ذلك لتوجيهه ناحيتهم وإن كان سريعًا والتفت بسرعة وأمسك بأحدهم، راح الممسوك يحاول ألا يبدو بصوته حتى لا يتعرف عليه مغمض العينين، الذي يشرع في تمرير يديه على وجهه أو رقبته أو ملابسه وأذرعه بهدف التعرف عليه، وحيث يكون له تصور لكل شخص من أبناء الحارة إن كان نحيفًا أو ممتلئ أو ذو ملابس مميزة، وهكذا تستمر اللعبة، وعادة ما تمارس هذه اللعبة بعد غياب الشمس في الظلام أو في ضوء القمر في أغلب الأحوال، حيث ينشط الصبية ويمارسون لعبهم المفضلة كلعبة الغماية.

لعبة علبة الكبريت.

المكان: بيت، شارع أو ساحة.

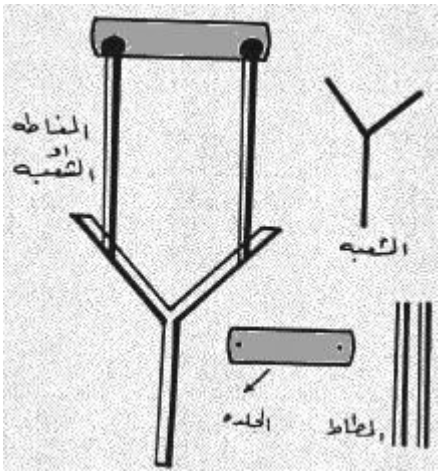
عدد اللاعبين: ٣ أطفال من الذكور أو الإناث.



طريقة اللعبة: لما كان لعلبة الكبريت ثلاثة جوانب متتالية فإنه عندما تُقذف من قِبَل اللاعب على الأرض وتقف على الحافة الصغيرة القصيرة سُمي من قذفها حاكمًا، أما إن وقفت على الحافة التالية للأولى، سُمي قاذفها بالجلاد، وإن وقعت على الناحية العريضة سمي قاذفها قط أعور، من هنا لا يكون فيها مفتش وإنما الحاكم هو الذي يطلب من الجلاد جلد القط العدد الذي يراه مناسبًا، وعلى هذا الشكل تعاد اللعبة برمي علبة الكبريت، ولو صادف أن أحدًا قد رمى العلبة وأصبح حاكمًا ورمى الشخص الذي يليه العلبة ثانية ووقفت أيضًا على الجانب الذي يعطي حاكما فإن الرامي الأخير يكون هو الحاكم، وعلى الآخر أن يقوم برمي علبة الكبريت ليحصل على مركز في اللعب وهكذا تدوم اللعبة.

لعبة الشفاطة أو الشعبة.

عدد اللاعبين: واحد ذكر.



طريقة اللعبة وصنعها: يعمل على قص شريطين متساويين من إطار داخلي لدراجة هوائية بطول ٢٥:٣٠ سم وبعرض ١سم تقريبًا، ونُحضر عود ذو شعبتين نقطعه من أغصان الشجر وهو على شكل حرفY بالانجليزية ثم نحضر قطعة من الجلد بطول ٥ سم ونثقبها من طرفيها في المنتصف تقريبًا، بحيث يكون الخرق أو الثقب مساوي لسمك شريط المطاط، نثبت طرفي المطاط كل واحد على فرع من الشعبة وذلك بربطها بخيط قوي، ثم نربط كل طرف للمطاط في الخرق (الثقب) في الجلدة، وبذلك نكون قد عملنا المغاطة أو الشفاطة.

طريقة اللعب بها: يختار اللاعب حجارة مناسبة "حصوة صغيرة"، ويضعها داخل الجلدة، ويمسك الشعبة باليد والجلدة وبداخلها الحجر باليد الأخرى ويشد الحصوة والجلدة لينفرد المطاط ليعطي قوة قذف حين إفلات الجلدة والحصوة لكي تذهب الحصوة كالرصاصة حينما تنطلق من سلاح ناري أو هوائي إلى الهدف، يسدد نحو العصفور بحيث يجعل العصفور داخل الشعبة في المنتصف من الأعلى، فيطلق اليد التي تمسك الجلدة كما أشرنا مع تثبيت اليد الأخرى فيصيب العصفور أو يفشل.

هذا، وما دام الشيء بالشيء يذكر فقد استعمل الشفاطة أو الشديدة كما يحلو للبعض تسميتها كثير من الصبية والمراهقين في مضايقة قوات الاحتلال الصهيوني في الضفة الغربية وقطاع (غَزّة) إبان الانتفاضات ضد الاحتلال الإسرائيلي، فقد كانت الشفاطة سلاح فعال في يد الصبية، وكثيرًا ما أربكت وأصابت العديد من جنود الاحتلال وأدمت وجوههم، تلك التي أصلا كان قد ابتكرها الفلسطينيون القدماء لأجل صيد العصافير.

لعبة شفت القمر.

العدد: اثنان من الذكور أو الإناث.

طريقة اللعبة: يقف الطفلاًن ظهرًا بظهر ومتلاصقان مادًا كل منهما كلتا يديه إلى الوراء وبطريقة فنية تشبك الأيدي ليبدأ أي منهما اللعبة بحيث يحني جسمه إلى الأمام نحو الأرض فيكون الثاني قد ارتفع على ظهره وهكذا يكون لكل منهما دور في الانحناء والركوب أو الحمل على الظهر، مع تكرار ذلك مرارًا، وفي كل مرة يقول الحامل للمحمول "شفت القمر؟" فيرد عليه المحمول قائلاً "شفته"، فيسأله الأول "شو تحته؟" فيجيب الثاني "حمص مقلي"، فيقول الأول "طيح عني يا عقلي"، فينتهي دور الحامل على هذه الطريقة ليبدأها الثاني مع ترديد كل منهما كما في دوره ما ذكرا سابقًا، وبهذه الطريقة تستمر اللعبة.

طاق طاق طاقية.

عدد اللاعبين: مجموعة من الإناث والذكور أو من نوع واحد.



طريقة اللعب: ينتظم الصبية من المراهقين الصغار من بنين وبنات ويتراصـون عـلى هيئـة دائرة، ويقوم أحد الصبية النشطين بنزع طاقية رأسه أو أي طاقية متوفرة للشروع باللعبة، ويدور خلف الأولاد الجالسين على الأرض على شكل دائـري، وفي أثنـاء دورانـه يُـردد قائلاً:

طاق طاق طاقية

طاقيتين وعُلّيه

رن، رن يا جرس

حوّل واركب عالفرس

طاق طاق طاقيه

رين رين يا جرس

محمد راكب عالفارس

والدبه طاحت في البير

وصاحبها واحد خنزير

مين هوه مين؟

طاق طاق طاقية

طاقيتين بعلية

رن رن يا جرس

حول واركب عالفرس

والتعلب فات فات

في ذيله سبع لفات.

أو أهازيج على هذه الشاكلة إلا أنها تبدأ بـ (طاق طاق طاقية) وتنتهي بـ(حول واركب على الفرس) أو (محمد راكب على الفرس) مثلاً.

وطيلة دورانه لا يجوز لأحد من الجالسين الالتفات أو النظر إلى الخلف، وبخفة يد، ودون أن يشعر به أحد يلقي الصبي الطاقية خلف أحد الجالسين، فإن أحس الجالس بذلك التقط الطاقية ووقف على رجليه بسرعة وراح يعدو خلف الآخر وحاول اللحاق بالفتى وضربه بالطاقية كلما تمكن من ذلك وهُمَا يتسارعان في دورانهما خلف دائرة الصبية الجالسين، إلى أن يتمكن الصبي الهارب إلى الأمام جريًا من الجلوس مكان الصبي الذي يُمسك بالطاقية ويضربه بها، وبذلك يفوّت الفرصة على هذا الفتى الذي يظل يدور مرددًا (طاق، طاق، طاقية، رن، رن يا جرس)، ويبدأ الصبي الممسك بالطاقية بفعل كما فعل الأول مع الصبية الآخرين، وعادة ما يختار صبي آخر أو حتى نفس الولد الأول ليضع خلفه الطاقية، إلا أن الأهم في اللعبة هو خداع الجالسين بترديد الأهزوجة واغتنام الفرصة لاختيار من هو غير منتبه من الصبية أو من يمكن خداعه ليضع خلفه الطاقية دون أن يشعر، وبفراسة يحاول الصبي الممسك بالطاقية أن يختار فريسته من الأولاد الجالسين ممن يكن غير منتبهًا أو ساذجًا ليضع خلفه الطاقية دون أن يدري الجالس أن الطاقية خلفة، ويستمر في نداءاته (طاق طاق طاقية) إلى أن يُكمل الدورة ويصل إلى الشخص الموضوعة خلفة الطاقية فيمسك بها ثانية ويبدأ بها ضرب الصبي الجالس فيقف هذا مذعورًا ويبدأ الجري أمام من يضربه بالطاقية إلى أن يُكمل الدورة ويعود ويجلس في مكانه ثانية، تستمر اللعبة هكذا إلى أن يكتشف أحد الجاسين ممن توضع الطاقية خلفه ما فعل الواقف أو من وضع الطاقية فيمسك بها ويبدأ العدو لضربه بها كما بينا في البداية إلى أن يفلح في وضع الطاقية خلف شخص لا يحس به، فإذا أكمل الدورة وعاد إلى هذا

الشخص التقط الطاقية وضربه بها، وطلب منه أن يحل مكانه جزاء على عدم انتباهه، وهكذا تستمر اللعبة.

لعبة كسر (طقش) البيض.

عدد اللاعبين: غير محدد من الذكور أو الإناث.

طريقة اللعبة: في شهر نيسان من كل سنة وفي يوم الخميس الثاني من نفس الشهر، ويسمى (خميس الأموات)، يحتفل الناس بيوم (خميس البيض)، تقوم كل عائلة بسلق كمية من البيض لأكله، والتصدق بعدد منه، ويكون للأطفال نصيبًا منه، يأكل حاجته، أو أن يخرج إلى حيث يتجمع الأطفال ويتفقون على "المطاقشة" مثلاً رأس البيضة لرأس وقاع بيضة أخرى لقاع بيضة أخرى، أو الرأس للرأس وهكذا، بهذا تتم العملية، فإن كان الرأس للرأس وطقش أحدهما بيضة الآخر أي (كسرها) فإنه يكسبها ويأخذها له، وبهذا يكون رابحًا وخاسرًا من بين الأطفال، وفي هذه اللعبة تكون البهجة عامة بين الأطفال، تعتمد اللعبة على خبرة معينة من قبل الشبان في طريقة المطاقشة من ناحية كيف يمسك كل من المتحدين البيضة بقبضته ليصنع نوع من المقاومة أو ليجعل أسلوبه في الكسر فعالاً، على أن الكبار من الشبان أو الصبية هم فقط من كانوا يقومون بهذه اللعبة، وهي شائعة جدًا وفي جميع أماكن التجمعات السكانية تقريبًا في البلدة، وقد يلون البيض أحيانًا مما يعطيه جاذبية، تحبب الأطفال به، وذلك بإضافة قشر البصل مثلاً إلى الماء عند سلق البيض ليعطيه لونًا مشابهًا لقشر البصل، أو إضافة بعض النباتات الخضراء إلى الماء ليحصل على اللون الأخضر، وأحيانًا كان البعض يلون بعض البيضات بألوان وخطوط معينة اعتزازًا بأنها لم تكسر بعد أو ربح اللاعب بواسطتها الكثير من البيضات التي تطاقشت معها.

في آخر اليوم أو بعد الظهر في العادة، وبعد أن يتم تكسير معظم البيض مع شباب البلدة، كان الواحد منهم يعود ومعه عدد من البيضات أكثر من العدد الذي خرج به من دارهم، والبعض كان يعود خاسرًا.

لعبة حاكم جلاد.

عدد اللاعبين: ٤ من الذكور أو الإناث لكن في أغلب الأحوال يكون اللاعبون من الذكور على ما في اللعبة من عنف.

طريقة اللعب: تُقص ورقة بيضاء إلى أربعة أقسام متساوية في الشكل، وتطوى بعد أن يُكتب على واحدة حاكم، وأخرى جلاد، والثالثة مفتش والرابعة لص، وتطوى كل ورقه على حدة لكي يختفي ما كتب فيها، ويحضر الأطفال أو الصبية (حزام) للضرب.

يُمسك أحد الأطفال الورقات الأربع في يده ويغمض عليها، ومن ثم يُلقيها على الأرض بين الأطفال وهم قعود، فيلتقط كل واحد منهم ورقة، فيقرأ كل ورقته، بعد أن يعرف كل واحد ما في ورقته فالذي تقع في يده الورقة المكتوب فيها حاكم، يَسأل:

أين المفتش؟ فيرد عليه الطفل الذي كتب في ورقته مفتش قائلاً: نعم، فيسأله: أين اللص من بين الأطفال الباقين؟ فإن عرف المفتش اللص فعلاً طلب من الحاكم أن يجلده الجلاد الذي التقط حزام الضرب بعد أن فتح ورقته وعرف أنه الجلاد، وهنا يُصدر الحاكم للجلاد حكمًا بجلد اللص عدد من الجلدات على يده، وهو حر – أي الحاكم – في اختيار عدد الجلدات، وهكذا، أما إذا لم يعرف المفتش اللص، كأن يؤشر على الجلاد مثلاً، فإن الحاكم يحكم عليه بالجلد العدد الذي يراه مناسبًا، وبهذه الطريقة تستمر اللعبة وتُعاد من جديد ويكون فيها إثارة.

الحَيّبْ أو الحاب.

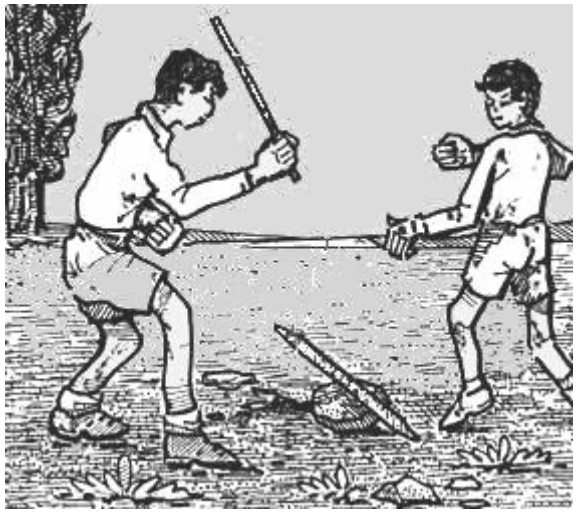
من بين الألعاب التي كان يُمارسها الأطفال والصبية في حارت البلدة وشوارعها لعبة (الحَيّبْ أو الحاب)، والحاب هو قطعة الخشب الصغيرة التي تكون عادة من غصن شجرة، بطول ٦ بوصات مثلاً، وبقطر نصف بوصة أو حوالي ذلك، يأتي به الصبية ارتجاليًا من أي شجرة قريبة أو غصن ملقى بالشارع أو في محيطهم، ويُعمل من أطرافة بسكين مثلاً ليصير بما يشبه برية قلم الرصاص من الطرفين عن قصد.

عدد اللاعبين: اثنين.

توضع القطعة الخشبية المدببة الطرفين أو الحاب بشكل مائل فوق حجر أو فوق حفرة ضحلة في الأرض لا يزيد عمقها عن بضعة سنتيمترات، بحيث يكون أحد طرفيها ملامسا إلى حد ما قاع الحفرة والطرف الآخر معلقًا في الهواء ليكون في وضع مثالي حتى إذا ما ضربه اللاعب بالعصا عند الحافة العليا انطلق في الهواء بمستوى اللاعبين أو أكثر (الصورة)، وهذه الحفرة تكون مستطيلة الشكل إلى حد ما، وقد يصل طولها إلي نحو عشرين سنتيمترا، ويطلق الصبية على هذه الحفرة "مور".

يتم اختيار اللاعب الأول أو من يبدأ اللعب أولاً عن طريق القرعة، وذلك بوسائل الأطفال المتعددة، ويقوم اللاعب الذي يربح القرعة بوضع الحاب في المور ثم يبدأ اللعب بضرب الحاب بالعصا بقوة معقولة على رأس الحاب العلوي، فتنطلق القطعة الخشبية المدببة في الهواء إلى أعلى، وهنا يقوم اللاعب نفسه الذي ضربها بعصاه بتلقيها بعصاه قبل أن تسقط على الأرض وضربها ثانية بكيفية لكي يطردها بعيدًا إلى أبعد مدى ما يستطيع أفقيا بعيدًا عن مكان الحفرة، وقد يطير الحاب في الهواء، كما يرمى الحجر باليد بعيدًا وقد يكون في ارتفاعه أو يصل إلى مستوى سقف أحد البيوت - وأحيانا كان يسقط الحاب على أحد الأسقف أو في داخل الدور وهنا تبدأ عملية الإنقاذ وتعتمد على مرونة

أصحاب الدار وتعاونهم - وقد يأتي الأطفال بقطعة أخرى ويبدأون اللعب من جديد أو ينتهي اللعب خصوصًا إذا ما كانوا قد أمضوا وقتًا طويلاً في اللعب، إما إذا فشل اللاعب في ضرب الحاب الذي طار في الهواء بعد الضربة الأولى عند بدء اللعب وحدث أن سقط على الأرض دون أن يتلقاه بالعصا ويبعده عن المكان فإن اللاعب في هذه الحالة يعتبر قد خسر، وهنا يأتي دور اللاعب الآخر ليبدأ من جديد، المهم بعد ضرب الحاب وطرده بعيدًا في الهواء يسقط على الأرض.



وهنا يأتي دور اللاعب الآخر ند الصبي المنافس للاعب، يذهب هذا الند إلى أين سقط الحاب ويمسك به ويقف بقدميه، أين سقط الحاب، يضع اللاعب الأول عصاه التي أطار بها الحاب بعيدًا على الحفرة الصغيرة التي انطلق منها الحاب في البداية بشكل أفقي فوق حفرة البداية، يقوم الند بالتصويب ورمي الحاب نحو موقع الحفرة بهدف أن يجعل الحاب يلامس العصى أو يُصيبها عند سقوطه، إن أفلح في ذلك تكون اللعبة قد انتهت وأخذ الند زمام المبادرة وصار هو الذي يقوم باللعب كما اشرنا في بداية اللعب.

في أغلب الأحيان لا يصيب الند بالحاب عصى اللاعب الأول، خصوصًا إذا كانت المسافة بعيدة، وهنا يذهب اللاعبان إلى أين سقط الحاب بعيدًا أو قريبًا من الحفرة، ويصبح اللاّعب الأول حسب قواعد اللعبة فرصة لضرب الحاب ثلاث ضربات بهدف إبعاده عن موقع الحفرة التي بدأ منها اللعب ليظل هو سيد اللعب، يبدأ الضربة الأولى بأن يُلقي نظرة عامة على المحيط وعلى اختيار أي طرف عليه أن يضرب الحاب بعصاه بشرط ألا يلمس الحاب أو يحركه في مكانه، وفي العادة يكون الأمر صعبًا على اللاعب الأول إذا سقط الحاب بجانب حائط أو على أرض طينية أو رملية رخوة مما لا يساعد على ارتفاع الحاب في الهواء حين ضرب أحد أطرافه بالعصا لكي يرتفع لمكان تلقيه بالعصا ثانية وضربه بعيدًا كما فعل عندما ضرب الحاب في بداية اللعب، حينما وضعه في الحفرة الصغيرة وضربه لكي يرتفع ومن ثم تلقاه بضربه أخرى، يكون على اللاعب الأول أن يكرر هذه العملية مرتين أخرتين، وعلى الند بعد ذلك أن يذهب ويُمسك بالحاب ثانية وأن يرميه باتجاه الحفرة التي ابتدأ منها اللعب، هكذا تتكرر العملية بعد كل ثلاث ضربات للاعب الأول، إلى أن يتمكن اللاعب الند أن يصيب بالحاب العصا التي استعملها اللاعب الأول وهي موضوعة على الحفرة، وإذا نجح في ذلك يصبح الند هو اللاعب الأول وهكذا يمضي الصبية وقتًا وهم يلعبون.

---

(١) اقتباس من كتاب: (حمامة..عسقلان).

الفصل العاشر

١٠-١ حرب ١٩٤٨م.

بينما كنتُ طفلاً صغيرًا في بلدتنا الأصلية (حمامة) لم أُحمّل أية مسئولية، ولم أُكلف كالإخوة الكبار بأي عمل، فقد كنتُ أقضي معظم اليوم ألهو هنا أو هناك، كنت ألعب مع أطفال حارتنا، وأذكر أننا كأطفال خلال اللعب كنا نُوجهُ أسئلةَ إلى بعضنا البعض في تحدٍ، وكانت تنم عن معنى ومعرفة، ولا أذكر لماذا كان يحدث ذلك أو ما هو الدافع إليه، أذكر بأن سؤالاً وأحدًا كنا نتقاذفه جميعًا بيننا نحن الأطفال، وكنا نرميه على بعضنا وكنا ننتظر له جوابًا، كان بعض الصبية يوجهون لي ذلك السؤال على الصورة والصيغة التالية: "هل أنت مع الإنجليز أم مع الألمان؟" وهم كانوا يقصدون الحرب العالمية الثانية، كنت أجيب - وأغلبنا كان يفعل ذلك إذا ما كان السؤال موجهًا إليه - كنا نقول، نحن مع الألمان، ولم أدر في ذلك الوقت لماذا كنا نقول هذا.

بعد ذلك مر علينا خليط من الأحداث التي لا أستطيع وصفها بعقل وذاكرة الطفل الذي لم يتجاوز عمره الخمس سنوات بعد، أو بإمكانياتي الفكرية في تلك الأيام، وبدأت أسمع على غير العادة أحاديث كثيرة للكبار، وكانت كلها متضاربة أو هكذا كنت أظنها، وكانت أحاديث غير نمطية وغير ما اعتدنا عليه من اهتمامات أهل بلدتنا بالزراعة والأرض والمحاصيل والاستعداد للمواسم الدينية وقضاء الصيف في الكروم/المزارع، وراحت تتكرر في تلك الأحاديث بطريقة شبه مفاجئة كلمات محدودة لا أعرف حدود معانيها، إلا أنها كانت كلمات غير مستحبة وغير محببة إلى نفسي، بل وكنت لا أحب سماعها لأن مجرد الحديث عنها كانت نتائجه ترتسم على قسمات وجوه الأهل والأقارب والجيران الذين كانوا يتلفظون بها، كنت أسمع مثلاً تكرار كلمة إنجليز وطغت عليها

بعد ذلك كلمة يهود، كانت تتضارب تلك الكلمات على تباعد وتكرار ذكرها وعدم حبي لسماعها مع عبارات كنت أحب سماعها ولكن لا أشاهد أثرها، كنت أسمع عن الجيش المصري مثلاً، وعن الحاج (أمين الحسيني)، وعن (موشيه شاريت) وهو أحد زعماء اليهود الذين ساهموا بجهد كبير في إنشاء الدولة العبرية في (فلسطين)، وقد سمعت مرة امرأة عجوز من بلدتنا كانت تتمنى لـ (موشيه شاريت) الشر وسوء الحال، وقالت، "الله يشرتح ملابسه عليه" قياسًا على تشابه اسم أسرته (شاريت) مع فعل يُشرتِحْ، أي يمزق أو بهذا المعنى.

بعد ذلك وعلى غير العادة أيضًا، صرتُ أرى بعض الأغراب من الناس في بلدتنا، فقد كان زيهم ولهجتهم يختلفان قليلاً عنا، فقد كانت مثلاً أثواب النساء طويلة وعليها زخارف مطرزة بخيوط الحرير الحمراء أكثر مما كنت أراه على ثوب أمي مثلاً، رأيت أيضًا ولكن ليس كثيرًا نساءً يلبسن أثوابًا طويلة بيضاء ومزخرفة أيضًا بخيوط الحرير الحمراء والسوداء والخضراء، ولكن برسوم كانت مختلفة أيضًا عن الأخريات وعن ملابس نساء أهل بلدتنا، كان هؤلاء الناس محبوبين من أهالي بلدتنا وكان الكل يرحب بهم، وأضحى الأهالي يتسابقون في استقبالهم وكانوا يُسكنوهم في بيوتهم، كان موضع فخر وشموخ لأي من سكان بلدتنا الذي كان يفوز بإحضار أسرة لتسكن في داره مع أسرته من هؤلاء القادمين الجدد، فهمت بعد ذلك أن هؤلاء الناس هم من القرى والبلدات الأخرى الفلسطينية ممن اضطروا إلى الهجرة قراهم وبيوتهم خوفًا من اليهود.
كان الرجال والنساء من أهل بلدتنا يخرجون إلى أطراف البلدة والى مداخلها الرئيسية من جهة الشمال ومن جهة الشرق، وكانوا ينتظرون القادمين الجدد عسى أن يفوزوا بلقاء أسرة لاجئة إلى حمى بلدتنا التي استعصت على دخول عصابات اليهود المسلحة حتى ذاك الوقت، وقد سمعت والداي يتحدثان بهذا المعنى، أذكر بأنني رأيت أمي وكانت تجلس

في صحن دارنا وكانت معها امرأة من النساء اللواتي كن يلبسن الأثـواب الغامقـة التـي كانت مزركشة بالحرير المميز، وكانت تلك المرأة تعطي أمي حاجياتها من الذهب والحـلي وربما نقودًا أيضًا وذلك لتخفيها عندنا، كانت أمي تتسـلم حاجيـات تلـك المـرأة قطعـة قطعة وكأنها كانت تُعدها وتُشهد عليها صاحبة الأشياء.

١٠-٢ الدبابة البريطانية وأشجار العنب.

كنتُ يومًا مع والدي في أحـد كرومنـا المزروعـة بالعنـب ورأيـت دبابـة نصـف مجنـزرة انجليزية، وقام قائدها بمحاولة تغيير اتجاهها كي تعود مـن حيـث أتـت، ولأن الطريـق الزراعي كان ضيقًا على مثل ذلك النوع مـن الآليـات، ولم يسـتطع قائـد الدبابـة تفـادي دهس بعض فروع أشجار العنب الممدد أغصانها على الأرض، رأيت والدي الـذي كـان لا يتحدث الإنجليزية يلوم قائد الدبابة بحركات معينـة بيديـه وكلـمات لم أفهـم كنهها، ورأيت قائد الدبابة يوقفها عن الحركة ويخرج منها بعد أن أنهى استدارة الآلية، وفي تلك الأثناء جاء شخص أو اثنين من أصحاب الكروم المجاورة لكرمنـا، ودار عـلى مـا يبـدو حديث متقطع بالانجليزية مع قائد الدبابة، سمعتُ الشخص الذي قـام بعمليـة الترجمـة بعد ذلك يقول لوالدي بعـد أن غـادرت الدبابـة ذلـك المكـان، ولم يبـق سـوى صـوتها يصرصر من بعيد، قال الرجل لوالدي ناقلاً ما قاله الإنجليـزي، "قـل لصـاحب العنـب وصاحب هذا الكرم، إن هذه الأرض ليست لكم، وستكون قريبًا لليهود، فلا تقلق مـن إتلاف بعض أغصان شجر العنب".

كانت تلك الحكاية بعد ذلك حديثا للتندر من والدي في الـدار ومـع أقاربنـا وجيراننـا، وكان والدي يكرر تلك الحكاية مستهزأ بما قاله الإنجليزي، لكننا لم نكن ندري ماذا كان يخبئه لنا القدر.



١٠-٣ التحرشات الصهيونية.

مرّتْ فترة على هذا الحال ولا أظنها كانت طويلة، إلا أن كل شيء كان قد أخذ أسلوبًا جديدًا ولونًا جديدًا، وكأننا في عالم مختلف عما سبقه، فجأة بدأت أسمع في كل مكان وبكثافة شديدة عن شيء اسمه يهود، وبدأت أسمع أن لهم (كيبوتسات) ومستعمرات، وربما هذا لأنني كبرت أكثر وبدأت أعي أكثر ما كان يدور حولي بفضول واهتمام الأطفال، ولأن ذلك أضحى جزأ من أحاديث والدي اليومية في البيت، ولو أنني لم أستمع إليها كثيرًا، إلا أنها كانت أكثر الأشياء التي بدأت أصحو عليها في هذا الكون، ورغم سني الصغير في ذلك الوقت فقد عشت كل شيء منذ ذلك الحين لحظة بلحظة،

وحُفر في ذاكرتي وفي كياني كله، ولا أظن بأن ذلك سيُمحى أبدًا من ذاكرة كل الفلسطينيين الذين عاشوا فصول الغربة وضياع (فلسطين).

في تلك الأثناء رأيت بعضًا من سكان بلدتنا بينما كنت أخرج من دارنا إلى الشارع في أكثر من يوم، رايتهم يذهبون ويعودون، وكانوا يحملون ألواح الصاج المعدنية "الشنك" أو "الزينكو"، وكانوا يأتون أيضًا بالأخشاب بأنواعها، وكذلك بأبواب وشبابيك مستعملة وكأنها انتزعت توًا من أماكنها، لم أعهد أنواعها في بلدتنا من قبل، كان بعضهم يحمل هذه الأشياء على أكتافهم أو على رؤوسهم أو كانوا يجرونها خلفهم، وبعضهم كان يستعمل الدواب لحمل أو جر هذه الأشياء، فهمت خلال هذا، أن هذه المواد كانت تُجلب من بقايا معسكر للجيش البريطاني كان قد أخلاه الإنجليز، وفهمتُ بعد سنوات فيما بعد أن ذلك كان تمهيدًا لإنهاء الانتداب البريطاني على (فلسطين) من قِبَل (بريطانيا)، الذي استمر منذ أن هزمت تركيا في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧م، رأيت الكبار من أهلنا في تلك الأيام مستغربين من سلوك بعض اليهود خصوصًا من سكان المستعمرات القريبة من بقايا ذلك المعسكر البريطاني، حيث إن هؤلاء اليهود كانوا يغتنمون الفرصة كلما خفتْ أرجل الفلسطينيين في المعسكر - لأن الفلسطينيين هم الأكثر في المنطقة - كان اليهود يأتون ببعض السيارات وعلى عجالة من أمرهم كانوا يختلسون الوقت المناسب، وكانوا يحملون أكياس الرمل من بقايا خنادق الإنجليز، وكانوا ينقلونها إلى مستعمراتهم المجاورة، كان سكان بلدتنا يهزؤون باليهود على هذا السلوك بطريقة تتهم هؤلاء اليهود بعدم الفهم والغباء، لأنه كان في مفهوم أهل البلدة أن الأجدر هو أن يأخذ الناس الأشياء المفيدة، وفي الحقيقة يبدو أن نظرة اليهود كانت بعيدة وأهلنا كانوا ساذجين، لأن اليهود كانوا منهمكين في تحصين مستعمراتهم بأكياس وزكايب الرمل، وكانوا يستعدون لحرب قاسية غير عابئين بما يهتم به الفلسطينيون أو ما تبقى من معسكرات الجيش

البريطاني مثل ألألواح المعدنية والأخشاب وأجزاء مباني معسكر الجيش من المواد الأخرى، وبالفعل جلب والدي أيضًا مثل الكثيرين من أبناء بلدتنا وبمساعدة من استطاع من الإخوة الكبار، جلب كثيرًا من هذه الأشياء من بقايا معسكر الجيش البريطاني، وبنى من هذه الأشياء أكثر من غرفة على نمط مباني المعسكرات داخل دارنا.

لكن الأمر بعد ذلك أضحى مختلفًا وكأننا أصبحنا نعيش في عصر آخر، وأصبحتْ اهتمامات أهل بلدتنا هي غير اهتماماتهم السابقة أو كما عهدنا، أصبحتُ أرى الناس يحملون بنادق نارية، وأضحيت أرى الأسلحة الفردية المختلفة الأنواع كشيء عادي، كان المهتمون بهذه الأشياء هم الرجال البارزون في المجتمع، والذين تعودت أن أشاهدهم في التجمعات والمناسبات الاجتماعية خصوصًا في الأفراح ومواسم الاحتفالات، بدأنا نسمع عن الجيش المصري وعن الحرب مع اليهود، وتكونت جبهة من المناضلين من رجال بلدتنا، واستطاع هؤلاء في إحدى المرات أن ينصبوا كمينا لقافلة آلية عسكرية يهودية على الطريق المؤدي إلى بعض المستعمرات القريبة من بلدتنا وقتلوا عددًا قليلاً من اليهود واستولوا على ناقلتي جنود مصفحتين، رأيت بأم عيني إحدى هاتين المصفحتين ومناضلينا يستعرضونها في وسط البلدة، وكان هذا من الأشياء السارة للناس وقد تركتْ في نفسي إحساسًا خاصًا لم أعهده من قبل، لأنه شعور مختلف تعرفت عليه أول مرة.

بعد ذلك أصبحت من خلال الأحاديث التي كنت أسمعها وأتأثر بها بالإيحاء أشعرُ وكأَن الصراع أو العداء أضحى متكافئًا بيننا وبين اليهود بصفة عامة بعد أن كانت اليد الطولي لنا، أضحتْ بلدتنا بعد ذلك هدفًا لليهود، وراحت تتعرض بين حين وآخر - خصوصًا أثناء الليل - إلى تحرشات العصابات الصهيونية قبل أن تنشا لهم دولة، وقد حاولوا أكثر من مرة اقتحامها فلم يتحقق ذلك لسببين:

الأول هو، أن بلدة (حمامة) كانت كبيرة نوعًا ما بالنسبة لعدد السكان، وكبر مساحة أراضيها الزراعية وغير الزراعية وترامي هذه الأراضي لمساحات شاسعة، قد أعطى هذا للمناضلين فيها مجالاً أوسع لمرونة الحركة والتحرك بحرية والمقدرة على الالتفاف والعودة من أكثر من اتجاه، هذا عوضًا عن أنه كان فيها مجموعة لا بأس بها من المقاتلين الأشداء، وكانت ذائعة الشهرة بين البلدات المجاورة وكذلك عند سكان المستعمرات اليهودية القريبة، وكثيرًا ما ذهب المقاتلون من (حمامة) لنجدة بعض القرى التي كانت تتعرض للهجوم من قبل اليهود أو اشتركوا معها في هجوم ضد إحدى المستعمرات أو نصبوا كمينًا لقافلة.

السبب الثاني هو أن عددًا ليس بقليل من أهالي (حمامة) كانوا يعملون بصيد السمك، وكان لهؤلاء خبرة كبيرة في إعداد واستعمال متفجرات خاصة كانوا يستعملونها في صيد السمك، كان يحصل الصيادون كالعادة على هذه المتفجرات من الجيش البريطاني بطريقة أو بأخرى، وكانوا يعملون على فك اللغم الأرضي مثلاً، وكانوا يحصلون على ما به من مادة (ت.إن.ت) الشديدة الانفجار، وإذا ما أراد الواحد مثلاً أن يصنع قنبلة لصيد السمك فما عليه إلا أن يحشر كمية من هذه المادة في علبة المشروبات الغازية المعدنية أو علب الطعام المحفوظ الفارغة أو علبة عصير معدنية فارغة، وأما الشائع فقد كان علبة اللحوم الفارغة من بقايا الجيش البريطاني في مناطق النفايات قرب تواجد معسكرات جيش الانتداب المقيمة في (فلسطين) آنذاك، استغل أهالي (حمامة) خبرتهم في هذا المجال، وكثيرًا ما استعملوا هذه القنابل في إرهاب المهاجمين اليهود الذين كانوا يُحاولون اقتحام البلدة في الليل، كون هذه القنابل تُصدر صوتًا عاليًا حين انفجارها ولا تؤذي جسديًا سوى الشخص الذي كانت تنفجر القنبلة بين يديه،

يبدو أن أخبار الحرب على الجبهات الأخرى في (فلسطين) أو لنقل المناوشات بين العرب وبين اليهود كانت أيضًا ترد إلى بلدتنا، ولهذا كنتُ أشاهد وكنت أسمع بلبلة بين أهل البلدة وعدم استقرار، سمعت منذ صغري ومنذ تلك الأيام أن مذابح قد أحدثها اليهود في (دير ياسين) مثلاً، وكنا نسمع عن ذبح اليهود للفلسطينيين كما تذبح النعاج، وإنهم - أي اليهود - كانوا يسطون في الليل على القرى وبهدوء يعملون على ذبح الناس بالسكاكين الحادة، كان ذلك يترك هولاً ورعبًا في نفوس الناس من أهل بلدتنا، فترى على وجوه النساء أثر ذلك وكأنهن قد ذُبحن أكثر من مرة، بالنسبة لي كان أثر ذلك مخيفًا في نفسي وأضحيتُ أشعر بعدم الأمان، وصرتُ لا أجد حمى بين كنفي الوالدين، لأن ما قد يحدث كان أكبر مما يستطيعان له ردًا، لهذا أضحيت مستنفرًا دائمًا، وكنت شاعرًا بأن اليهود قد يأتون في أية لحظة، وقد يفاجئوننا بهجوم مُباغت، كانت أي حركة أو إشاعة أو حكاية غير عادية أو تصرف مشبوه يحدث في البلدة وحتى لو كان نتيجة تجمع صغير لمجموعة من الناس، كان بسهولة يُحدث بلبلة إذا رآه الآخرون عن بُعد خصوصًا في تلك الأيام، فقد كانتْ تكبر الإشاعات بسرعة، وكانت تنتقل من بيت إلى بيت ومن حارة إلى حارة، حتى إن ذلك كان ينعكس على التجمع الذي كان مصدر الهاجس والجزع، فيبدأ الناس جميعًا بالنفور، ويبدأ سكان البلدة في الهروب إما جنوبًا في اتجاه مدينة (المجدل) أو إلى الغرب في اتجاه شاطئ البحر، حيث الكثبان الرملية التي لا تساعد على سير الآليات إذا ما كان هناك هجوم يهودي حقيقي على البلدة.

كان منظر النساء وهن يجررن أطفالهن ويتزاحمن في الطرقات الضيقة للبلدة مندفعات للخروج بعيدًا عن البيوت محزننًا، وكان الذعر يفتت القلوب، خصوصًا حينما يقف المرء مع نفسه بعد مضي عشرات السنين ويبدأ في تقليب صفحات الذاكرة، كنت أحيانًا أصحب الوالدة حينما يحدث مثل هذا الذعر، وفي أحايين كثيرة كنتُ أسير وحيدًا أينما

يذهب الناس حينما أكون خارج دارنا وبعيدًا عنها أو عن الحارة، كوني لا أدري مَن خرج أو مَن بقي من الأهل في الدار، لذلك كان كثيرًا ما تتمزق الأسر مؤقتًا حينما يحدث شيء مفاجئ مثلما ذكرنا هنا، وكان الناس إذا ما التقطوا أنفاسهم، كانوا يشرعون في مهمة إعادة لم شمل الأسر التي قد يكون بعضها قد نفر مع من تركوا بيوت البلدة في اتجاهات مختلفة، وقد يكون بعض أفرادها في الحقول يقضون مهمة ما بينما هو لا يعرف ماذا حدث في البلدة، وقد يبتعد الأطفال مع جموع الناس عن أسرهم في أماكن متباعدة، وفي كل مرة كان أهل البلدة يخرجون على هذه الشاكلة، كانوا ينتظرون لعدة ساعات خارج بيوت البلدة، ثم يأتي من يقول، إن اليهود لم ينجحوا في دخول البلدة أو أن لا صحة للهجوم المزعوم، وينتهي الأمر وكثيرًا ما كان يبدأ تساؤل الناس عمن أشاع ذلك الخبر غير الصحيح أحيانًا.

لن أنسى أبدًا ما حييت ذلك الخوف الرهيب والمعاناة التي كانت تحدث لي في تلك الأيام، لأن كثيرًا ما كانت أمي توقظني في الليل فأُذعر وكأنني أَصحو مرة واحدة على هول، والمرء يتساءل الآن ونحن نسطر هذه الذكريات، تُرى ما هي حكايات وقصص ما حدث لأمثالي من أبناء البلدة من مختلف الأعمار، وكيف كان شعورهم في تلك الأيام، بل ما هي قصص الآخرين من أبناء القرى والمدن التي رُوِّعت في عام ١٩٤٨م، والله إن المرء ليتساءل هل جُسدت معاناة البشرية فيما قد حدث لشعب (فلسطين) وما زال، الغريب أن العالم يتبدل وكل الشعوب تقريبًا استعادة كرامتها أو بعضًا من الكرامة إلا نحن الفلسطينيون، فما زالت كرامتنا تُهدر وحرماتنا تستباح ووطننا ينهب أمام أعيننا وحتى كتابة هذه السطور.

كانت أمي توقظني في أغلب الأحيان في الليل قائلة، قم يا بُني، هيا، قم اليهود قدموا وهم يطلقون الرصاص على الناس، هيا بنا نهرب قبل أن يقتلوننا، كنت أصحو وأصدق

والدتي لأنني كنت أسمع أصوات الرصاص وأصوات الانفجارات، وربما كان بعضها هو أصوات انفجارات قنابل صيادي السمك من أهل بلدتنا التي كانوا يُخيفون بها اليهود الطامعين في احتلال (حمامة).

لقد خرجتُ مع أمي وإخوتي أكثر من مرة خلال الليل هاربين مذعورين من البلدة إلى الحقول للاختفاء فيها، وفي بعض الفترات أضحى ذلك واقعًا معيشيا لنا، فقد كنا نقضي النهار في البلدة ونقضي الليل في خلاء الحقول، كنا ننام تحت الأشجار خصوصًا في أواخر صيف عام ١٩٤٨م، كنت أخاف جدًا من اليهود وكنت أكره صوت الانفجارات، كنت لا أغفو في الليل خصوصًا حينما كنا نقضي الليل في الحقول هاربين إليها أو مختبئين فيها، كنت أصرخ كلما حدث انفجار، وما أكثر ما حدث من انفجارات، في تلك الأيام خلعت والدتي شعرة بيضاء من شعر رأسي، وقالت: "مسكين هذا الولد لقد شاب من الخوف"، وقالتْ أيضًا وقد سمعتها: "كم هو مسكين هذا الجيل".

اشتد لهيب الحرب بعد ذلك واشتد لهيب نار المعارك، ولأن (فلسطين) كلها مدن وقرى متقاربة، فإن من السهل أن يشعر الناس بكل ما يحدث فيها بسهولة تقريبًا، في تلك الأيام أصبحنا فجأة نشاهد ونرى أفوالا من الآليات العسكرية المصرية التي كانت تمر على الطرق العامة متجهة إلى الشمال من موقع بلدتنا، وكنت أرى النساء الفلسطينيات من أهالي بلدتنا عن بعد يطلقن الزغاريد اغتباطًا وترحيبًا بالجيش المصري العربي المتجه لمحاربة اليهود، كان الجنود المصريون عن بعد أيضًا يلوحون لنا بأيديهم وبخوذاتهم العسكرية، كنت أرى وأنا أصحب الوالد أو الوالدة إلى بعض حقولنا ولكن عن بعد أيضًا، كنت أرى طائرة كبيرة بطيئة السرعة ومنخفضة تحوم في وضح النهار، وكانت تطلق نيران رشاشاتها في عز الظهر، وكنت أسمع الناس ممن كانوا حولي يقولون، بأنها تطلق رصاصها على الجيش المصري في المنطقة.

بعد ذلك أضحينا مستسلمين لقدرنا، أو هكذا كنا نبدو، أو كنت أظن ذلك بمقياس تقييمي أو إحساسي بالأمور في ذلك الوقت، أو قل بمقياس استطاعتي على تصوير ما حدث لنا فيما بعد، مع عدم رغبتي في الابتعاد عن طريقة تصور الطفل في تلك الأيام لأجل أن يبقى السرد هنا واقعيًا، أضحى عادة مألوفة، أن توقظني أمي في الليل وتقول لي: هيا، قم إلى الاستقام/الخندق، أو ما يسمى في العلوم العسكرية الحديثة جحر الثغلب، وهو عبارة عن حفرة مستطيلة الشكل، كانت أسرتنا تستعملها للحماية مما قد يحدث من انفجارات على سطح الأرض، وربما كان الاستقام يتسع لجلوس عشرة أشخاص على الأكثر أو هكذا تخيلته، كان والدي قد حفره حينما اقتضت الحاجة في ساحة الدار، وقام بسقفه بألواح الخشب وأشياء أخرى، وكنا ندخله حانين ظهورنا فلم يكن عميقًا، وكان بارتفاع وقفة الإنسان العادي أو أقل، كنا نبقى في هذا الاستقام ما دامت هناك طائرة تحوم في ليل سمائنا، وأضحى لا يُغرِنا الذهاب خارج البلدة في الليل، لأن الغالبية من الناس في ذلك الوقت كانوا يظنون بأنهم لا يستطيعون الهروب من الطائرة التي يراها الإنسان فوقه أينما اتجه، كان صوت طائرات اليهود خصوصًا التي كانت تأتي في الليل مميزًا، فقد كانت ليست نفاثة وليست سريعة مثل الطائرات التي عرفتها فيما بعد، كانت من النوع ذات المراوح أو المحركات العادية، ويبدو أن قائد الطائرة كان يود أن يوفر الوقود لطائرته لكي يُبقيها أطول مدة ممكنة في الجو، ولذلك فربما كان يغلق المحرك أحيانًا أو يجعله بأقل سرعة دوران ممكنة، ولذلك كنت أسمعها في تلك الأيام على صورة خاصة، محرك يدور ثم تنخفض سرعته إلى حدها الأدنى، ثم يقوم دائرًا مرة أخرى، ولهذا كنت أسمعه يعلو وينخفض، ولكن ليس بشكل فجائي حاد، ولهذا لم ولن أنسى مثل تلك الأصوات الشريرة وقد ظلت مخبأة في كياني، وبقيتُ بعد ذلك وحتى هذه الأيام(٢٠٠٨م) كلما سمعتُ فجأة دون أن أرى بالعين صوت

ماكينة أو آلة مشابهة لصوت تلك الطائرات، قلتُ بسذاجة وبدون أن أدري، ما هذا الصوت الذي يشبه طائرات اليهود.

استمر حالنا خليطًا من هذا وذاك، وكانت حدة الذعر تخف بين أهالي (حمامة) أحيانًا، وكنا نسمع عن أن هناك هدنة أو أشياء من هذا القبيل، وسمعت أن الكونت (برنادوت) وسيط (الأمم المتحدة) السويدي الجنسية قد قُتل على أيدي اليهود لأنه حاول في أحد تقاريره وتوصياته إنصاف عرب (فلسطين) في الأمم المتحدة، ولأن الحياة لا بد أن تستمر كان والدي يقوم على عجالة في بعض الأحيان بإنجاز بعض الأعمال في أملاكنا في أكثر من مكان حول البلدة، وكان كثيرًا ما يصحب معه، ولكن...

الفصل الحادي عشر

١١ - ١ المقاومة.



في الحرب العالمية الأولى، كانت خطة (بريطانيا) والحلفاء هو التوجه نحو المضائق التركية حتى تتمكن من فصل الأتراك عن حلفائهم الألمان وإضعافهم في الجبهة الأوروبية، وكعمل احترازي عمل الألمان على قطع الطريق على الحلفاء لتنفيذ خطتهم، فأوعزوا إلى حليفتهم تركيا بالقيام بحملة لاحتلال منطقة قناة السويس وقطع الطريق على الحلفاء وإفشال خطتهم، لهذا عمل الإنجليز على السبق وغزو (فلسطين)، وفعلاً عبر الجيش البريطاني إلى (سيناء) ومنها إلى رفح وخانيونس، وعانى سكان مدينة (غَزّة) ومناطقها مثل أهالي قرية (حمامة) الأمرين من ويلات تلك الحرب التي عمل فيها الأتراك

العثمانيون على أمر الناس بالنزوح عن المدينة وعن بعض المناطق، وعملوا على تسخير كل إمكانات الفلسطينيين من مؤن وأدوات نقل وغيره، ووضعوها لخدمة الحرب، مما أدى إلى تفشي المجاعة والأوبئة والأمراض فرحل أهالي مدينة (غَزّة) إلى مناطق بلدات وقرى شمال مدينة غزة، وهنا بالمناسبة نذكر بعض أسماء أهالي (حمامة) ممن حملوا رتبًا عسكرية خلال خدمتهم بالجيش التركي في العهد الأخير للإمبراطورية العثمانية وحتى مجيء الإنجليز إلى (فلسطين)، منهم: (الشيخ محمود أبو خالد دحلان) ورتبته ضابط(١)، (محمد الفراني) ورتبته ضابط، الحاج (إسماعيل على الخواجة) ورتبته ضابط، (عبد الهادي فتحية) ورتبته صف ضابط، (عبد الرحمن محمد حسونة) برتبة صف ضابط، (عرندس سلامة) برتبة صف ضابط، (محمد عبد الحميد) برتبة صف ضابط، وأما الجنود من أهالي (حمامة) ممن خدموا في الجيش التركي فلا متسع هنا لذكر جميع أسمائهم لأنهم كثر.

كانت المعركة الفاصلة في (فلسطين) بين الإنجليز والأتراك في مدينة (غزة)، وعلى أثرها دخل الإنجليز (القدس) وأتموا احتلال ((فلسطين))، وأقاموا إدارة برئاسة اليهودي الإنجليزي (هربرت صموئيل)، الذي بقي في منصبه لمدة خمسة أعوام، ليعمل على تحقيق الحلم الصهيوني في إنشاء الوطن القومي اليهودي على أنقاض شعب آخر، خلال فترة رئاسته عمل على تعيين يهودي صهيوني ليكون مسئولاً عن سَن القوانين والأنظمة في (فلسطين)، وعين يهودًا آخرين: واحدًا مسئولاً عن الهجرة والتنقل، وآخر للسياحة، هذا، وأعلن اللغة العبرية لغة رسمية بجانب العربية والإنجليزية، وكتب على النقود والطوابع بالعبرية بجانب العربية والإنجليزية أيضًا، وعمل على تمليك الطائفة اليهودية الأراضي الأميرية، وفتح أبواب الهجرة لليهود القادمين إلى (فلسطين).

وعلى أثر هذا راح الغليان يعم الشعب الفلسطيني في كل القرى والمدن والأنحاء، وكانت الشرارة القوية حينما أعلن وعد بفور في الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٧م، فعمت

المظاهرات والإضرابات وراح الشعب الفلسطيني منذ تلك الأيام يقدم فاتورة ثمن إنشاء وطن لليهود، نحن الآن في عام ٢٠٠٨م وما زال الشعب الفلسطيني يقدم التضحيات بالبشر والأرض تحت إشراف ومساندة القوى الغربية التي مصالحها في المنطقة العربية تلتقي مع وجود (إسرائيل) قوية، وليس هذا فحسب بل ليكون جودها قوية ومهيمنة على العرب جميعًا.

في تلك الأيام وردًا على قيام اليهود بتشكيل عصابات مثل (الهجانا) و(شتيرن) وغيرهما، هبّ عرب (فلسطين) للذود عن الأرض والكرامة فتكونت فرق المقاومة بأطيافها وتسمياتها، وكوّن أهالي (حمامة) كانوا إحدى فرق المقاومة، وكان ذلك في عام ١٩٣٦م بقيادة الشيخ (محمود عبد ربه دحلان) الذي عمل قبل مجيء الإنجليز ضابطًا بالجيش التركي كما أشرنا، وخاض معارك الحرب العالمية الأولى إلى جانب الأتراك، كان ضمن فرقة المقاومة التي رأسها الشيخ (محمود عبد ربه دحلان) من أهالي (حمامة) كل من (محمد مصطفى مقداد(٢)، محمد أبو مشايخ الفراني، يوسف أبو سلمى انشاصي، العبد شاكر دحلان، محمد طبيش صقر، حسين عباس أبو العمرين، محمد "السردينة" العمري، عمران الخواجة، ذيب عبد الصمد عوض، محمود أبو العظم الدوش، رمضان داوود الأغا صقر، عمر الفار، ابراهيم الفار، اسحق الفار، رباح أبو صفية، محمد الشيخ سالم، محمد الجالوس أبو العمرين، محمود محمد أبو شعير، خليل ابراهيم أبو سلطان، محمد أحمد عباس، الحاج محمد أبو ريالة، محمد علي موسى دحلان، حسين مصطفى أبو العمرين، صلعان مقداد، محمود عبد الحميد مقداد، دهمان مقداد، شحادة علي محمد شحادة، خميس دحلان.

(كتاب حمامة..عسقلان).

اشتدت المقاومة لليهود في توجههم لامتلاك الأراضي، وفرض حقوق قانونية لهم على أرض الواقع، وهكذا راح القتال يشتد مع الفلسطينيين، وعمل الطرفان على نصب الكمائن والهجوم والهجوم المضاد على البلدات الفلسطينية والمستعمرات اليهودية الناشئة، وكذلك قام اليهود برمي القنابل ووضع الألغام في أماكن الازدحام مثل سوق (يافا) على سبيل المثال، وضع غلاة الصهاينة لغما في سوق (يافا) وأدى الانفجار إلى قتل وإصابة العديد من الفلسطينيين، كان منهم من أهالي (حمامة): (ذيب أحمد سلامة)، (خليل السر شامية)، وجرح (إبراهيم عبد الحميد حسونة)، هذا، وبسبب تواطؤ الإنجليز مع اليهود، هاجم الثوار الفلسطينيون بعض مراكز الجيش البريطاني مما جعل الإنجليز يعملون على قمع الفلسطينيين خصوصًا في القرى والمناطق التي كانت تقوم بالأعمال العسكرية ضدهم مثل (حمامة)، ولما حاولت (بريطانيا) تهدئة الأوضاع مع الفلسطينيين عملت بمفاوضة قادتهم، اتصل الإنجليز ببعض رجالات قرية (حمامة) من ذوي النفوذ، ومنهم، الحاج (إبراهيم إركز أبو صفية)، ووعدت بفك أسر المعتقلين من أبناء البلدة والعفو عن المعتقلين، وفعلاً تم فك أسر (مختار آل شامية)، والحاج (حسن أبو صفية) الذي كان متهمًا بدعم الثورة وبشراء الأسلحة ودعم الثوار ماديًا، وكذلك تم تحرير أبناء الحاج (حسن أبو صفية)، وهما (حسن ورباح) اللذان كانا مطاردان ضمن مجموعة ضمت كل من: (شحادة شحادة، رمضان أبو سمعان، يوسف الفار، إبراهيم الفار، عمر الفار، محمد الغريب عبد الباري، علي الفار، صبحي عبد الباري، كسكين أبو لبن).

وسمحت السلطات البريطانية بإعادة بناء منزل الحاج (حسين حماد عوض)، مختار آل عوض، الذي دمر بيته بسبب رفضه الوشاية بالثوار الذين التحقوا من أبناء القرية بالقائد (عبد الرحيم الحاج محمد).



وعندما أخلّت (بريطانيا) بوعودها للفلسطينيين بناء على ما كان يصدر عنها من قوانين، كالكتاب الأبيض الذي يشير مثلاً إلى عمل التوازن في الحقوق بين اليهود والفلسطينيين في القرى والمستعمرات، عاد الأهالي وراحوا يعادون اليهود والإنجليز معًا، ومضوا يقومون بعمليات مقاومة صغيرة وفردية وكيفما استطاعوا، وكان أهالي (حمامة) ممن نشطوا في تلك الفترة كل من: (العبد أحمد الجعيدي صقر، إبراهيم أحمد طالب، العبد طالب، محمد شحادة السر شامية، صبحي عبد الباري، يوسف خليل انشاصي، موسى عبد الرحمن حسين، أحمد يونس عودة، عبد السلام شحادة فتحية، سالم شامية).

وكان يقود هؤلاء ويخطط لهم، (سليمان محمد شحادة عجاج)، وحينما تنبهت (بريطانيا) إلى هذا الخطر، قامت بحملة ضد القرى التي كان ينطلق منها أمثال هؤلاء المناضلين،

وكانت تقوم بالقبض عليهم وتعمل على نفيهم إلى (بئر السبع)، من الذين تم نفيهم من أبناء (حمامة) إلى بئر السبع كل من: (سليمان محمد شحادة عجاج، العبد أحمد إبراهيم الجعيدي، إبراهيم أحمد طالب، محمد شحادة شامية)، وقد ظل هؤلاء في المنفى حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية حيث أطلق سراحهم لكي يعودوا للنضال ثانية من أجل نفس الأهداف.

بعد ذلك، عمل العرب الفلسطينيون على إنشاء فرق المقاومة ضد الإنجليز، ذلك بناء على نداء الهيئة العربية العليا بقيادة الحاج (محمد أمين الحسيني)، وعلى ذلك تكونت فرقة (النجادة) في مدينة (يافا) مقابل فرقة (الهاجانا اليهودية)، وعلى أثر ذلك تكونت فروع (النجادة) في القرى والمدن الفلسطينية ومنها قرية (حمامة)، ترأس فرع النجادة في (حمامة)، (رمضان داوود أغا شحادة)، وكان يتبع فرع النجادة برئاسة (كاظم بسيسو) في مدينة غزة، كان أعضاء الفرع يتدربون على استعمال الأسلحة الخفيفة سرًا، وفي الظاهر كانوا يبدون أمام الإنجليز كفرق تمارس تمارين الرياضة البدنية والألعاب، كان الناس يصطفون على جانبي الطريق، وكانوا يحيون النجادة حين مرورهم واستعراضاتهم، وكان هذا يبث الحماس فيهم، وكان لـ (النجادة) نشيد مطلعه:



نجاد يا وجه العلا وخفقة العلم
كن للبلاد الأمل والسيف والقلم
في حالكات النوب لا نهب
واهتف بلاد العرب للعرب

بعد ذلك تحول اسم فرق (النجادة) إلى فرق (الفتوة)، وكانت برئاسة المناضل (عبد القادر الحسيني)، وراح الصراع يأخذ وجها آخر، وهنا راح أبناء (حمامة) يشكلون مجموعة من الثوار، منهم: (عثمان خالد الخواجة، محمود إبراهيم الخواجة، حسين مناشة اللحام، محمد طبيش صقر، محمود إدريس أبو عودة، ذيب عبد الصمد عوض، حسين أبو العمرين، محمود عبد الحميد الحاج مقداد، عبد الوهاب الفار، عمر الفار، علي الزهار، محمد شحادة شامية، يوسف العيس أبو سمعان، العبد يحي عوض، صبحي عبد الباري، مصطفى القرم، فارس شحادة صقر، رباح أبو صفية، عبد الله موسى أبو ريالة، محمد صلعان مقداد، هليل حمدي مقداد، محمد أبو شنب الروابعة، عمر حسن مقداد، عثمان أبو سلطان).

بعد ذلك تشكلت اللجنة القومية لدعم المقاومة من الأهالي، وكانت تضم كل من: (سليمان الشيخ، محمد عبد الله صلاح، الحاج محمد عبد الباري، العبد عبد الحفيظ، سعيد سعيّد عوض، إسماعيل أبو سلطان، وكان يساعدهم يحي انشاصي، مصطفى سعيّد، صبحي عبد الباري، فارس شحادة، عبد الوهاب الفار، مصطفى القرم، أحمد اللحام، العيس أبو سمعان).

ومن الوجهاء الذين ساهموا في دعم المقاومة من أهالي (حمامة) خصوصًا بعد إقرار (الأمم المتحدة) لمشروع تقسيم (فلسطين) عام ١٩٤٧م، (سليمان الشيخ محمود أبو عودة،

عثمان أبو سلطان، العبد الهباش مقداد، خميس أبو خالد دحلان، ذيب عبد الصمد، شاكر الخواجه، هليل مقداد، محمود الحاج، نوح قاعود، يوسف عبد القادر حمودة، محمد عبد الباري، صالح العزازي، إبراهيم رضوان، شحادة شامية، الأكحل الخواجة، العبد يوسف الخواجه، محمد الأخشم مقداد، حماد عوض، يحي أبو يحي، عبد العزيز عبد الحميد).

١١-٢ الفوضى.

وقد أشاد (محمد طارق الإفريقي) قائد الجيش المصري في منطقة مدينة (المجدل) وقُرَاهَا بروح الجهاد عند أهالي قضاء (المجدل)، واندفاعهم في بيع مصاغ نسائهم لشراء الأسلحة والذخائر، هذا، وقد فرضت اللجنة القومية ضريبة على أهالي قضاء (المجدل) مقدارها عشرة قروش عن كل فرد شهريًا، وذلك لتغطية تكاليف بعض المتطوعيين وتأمين شراء بعض الأسلحة والذخائر.

اتبعت بلدة (حمامة) في البداية أسلوب إرسال النجدات كلما تعرضت بلدة في المنطقة لاعتداءات العصابات الصهيونية، وكانت تلبي الطلب كلما استنجدت أي قرية مجاورة وطلبت المساعدة، وقد بدى هذا الأسلوب فعالاً وعمليًا في البداية في تلك المرحلة، وإما في الحقيقة فقد شارك أبناء (حمامة) في نجدات القرى المجاورة منذ عشرينات القرن العشرين.

وعن قرية (حمامة) في تلك المرحلة وعن دورها في النضال وإرسال النجدات، يقول (هارون هاشم رشيد)، في كتاب سيرته الذاتية تحت عنوان (إلى حمامة، وبداية التحرك الشعبي)، قال: "شاء القدر أن أكون في (حمامة)، قريبًا من مواطن الاحتكاك تصلني كل

يوم أخبار الأحداث المتلاحقة عن هجمات اليهود على القرى العربية وتعرضهم للآمنين من الفلاحين والمزارعين، كانت (حمامة) من حين لآخر ترسل نجدة من شبابها كلما وصلتها استغاثة من القرى المجاورة تطلب النجدة، وأشهد أن الشباب الحمامي شباب وطني مندفع ملتهب الحماس، حتى نساء القرية وشيوخها ما كانوا أقل حماسًا واندفاعًا من الشباب...".

ويتابع (هارون هاشم رشيد) قائلا: "برز اسم (حمامة)، ولمعت أسماء شبابها حتى قبل أن يفد إليها ضابط من أولئك الذين كان يبعث بهم المفتي لجمع الصفوف ويحدد الهجمات والنجدات، وما هي إلا أيام حتى اختلف الشباب مع الضابط، رفضوا تعليماته التي تدعو إلى الاستكانة والتي تنبئ عن جهله للأمور العسكرية وأصولها، وواصلوا تحركهم السريع ومواجهاتهم العاجلة دون الرجوع إليه أو الانصياع لأوامره...".

وأما أصل الحكاية السابقة، هو، كون الضابط (محمد رشدي ذياب) عارضه شباب (حمامة)، ورفضوا قيادته لهم، بأمر من (حسن سلامه)، وقام المناضل (مصطفى القرم)، بتحريض شباب القرية على رفض أوامره ثم طرده.

ويقول (هارون هاشم رشيد) في مذكراته عن شجاعة وبأس شباب بلدة (حمامة) إبان الثورة على الإنجليز "رصد شباب (حمامة) ضابطًا (بريطانيا) كان مكلفًا بمرافقة سائق القطار العامل على خط (غزة – يافا)، وكان منحازًا لليهود، كان ما أن يقترب القطار من المستعمرات اليهودية حتى يطلب من السائق أن يهدئ السرعة لكي يتيح لليهود الصعود إلى القطار والاعتداء على الركاب بالقتل أو بالأسر أو السرقة، وقد تكررت فعلته هذه عدة مرات، ترصد الشباب لذلك الضابط، وراقبوه، عرفوا مواعيد عمله، فنصبوا له كمينًا في طريق (غزة – يافا) وكانت ترافقه زوجته، جردوه من كامل ملابسه العسكرية ومسدسه، واستولوا على مسدس زوجته، وتركوه في الشارع وانطلقوا، قامتْ الدنيا ولم

تقعد، مندوبو (بريطانيا) العظمى في غدو ورواح على رئيس بلدية (المجدل) (أبو شرخ) في محاولة لإقناع شباب (حمامة) برد اعتبار الدولة البريطانية وإعادة حلة الضابط ورتبته ومسدسه، أكثر من مره داهموا القرية، وهددوا أهلها، ورفعوا أصواتهم على مخاتيرها وكبارها، وباءت كل محاولاتهم بالفشل، فلجأوا إلى (حسن سلامة) قائد المنطقة الجنوبية، وعلى كل حال، حضر (حسن سلامه) لتسلم سلاح الضابط البريطاني وبدلته، وتمركز في مدرسة القرية، وبعد حوار طويل مع رجالها، رفض الرجال إعطاءه مسدس الضابط قائلين على لسان أحدهم وهو (حسين عبد الرحمن اللحام)، الملقب مناشه: "السلاح الذي نختطفه هو حقنا للدفاع عن نسائنا وأطفالنا وأرضنا، ولك ما شئت غير ذلك"، وعاد (حسن سلامه) ذلك المساء ووراءه قواته ورجاله وأسلحته، مصطحبًا معه بدلة الضابط البريطاني فقط، وكما أراد المقاتلون الخمسة: مصطفى القرم، حسين عبد الرحمن اللحام، يوسف أبو سمعان، العبد يحي عوض، عثمان خالد الخواجه) وكانوا من أبرز وأشجع شباب القرية.

هذا، وقد اعتمد مقاتلوا(١) (حمامة) أسلوب قطع الطرق على قوافل الإمداد الصهيونية للمستعمرات، وقد نجحوا كثيرًا في هذا العمل، وسقط منهم شهداء خلال تلك المهمات، منهم: (راتب السكر حرب، محمود الحاج جميل، أحمد أبو عودة، أبو بوز صقر، وأما الذين أصيبوا في تلك العمليات وكتبت له الحياة فهم، عرفات أبو سلطان، ذيب عبد الصمد عوض، محمد الاخشم مقداد، حسن البوجه مقداد).

من ناحية أخرى ظل مناضلوا (حمامة) يقومون بالذود عن بلدتهم ويهبون لنجدة القرى المجاورة كلما تعرضت لاعتداءات الصهاينة الذين اتبعوا أسلوب الاستفزاز ضد سكان القرى الآمنين بغرض التغطية على كميات السلاح والذخائر التي كانوا يجلبونها من

الخارج ويعملوا على تخزينها تمهيدًا للمعركة الحاسمة مع العرب، وقد واجه مناضلو (حمامة) مع سكان القرى المجاورة تلك الاستفزازات ولم يتأخروا أو يترددوا في تقديم الضحايا، فخاضوا معركة (محور الفالوجة) في مارس ١٩٤٧م، ومعركة (وادي سكرير) في ديسمبر ١٩٤٧م وكان الإنجليز في معظم المعارك يقفون بجانب المقاتلين اليهود، هذا، وقد واجه أهالي (حمامة) الإنجليز فيما سمي بمعركة (وسط البلد)، فقد تصدى المجاهدون من رجال القرية لدورية من الفرسان البريطانيين الذين اعتادوا المرور من وسط القرية بخيولهم لإرهاب الناس واستفزازهم، ولكنهم بمجرد أول مواجهه من المناضلين ولوا هاربين، وفي نفس اليوم وبعد الظهر تقدم رتل من المصفحات التابعة لقوات الاحتلال البريطاني نحو القرية من الجنوب، ولم يلبث هذا الرتل إلا أن وجد نفسه مطوقًا من جميع الاتجاهات، فاضطر الجنود إلى أن يتركوا مصفحاتهم ويختبئوا في الوادي الكائن بجوار الطريق، وبقوا كذلك محاصرين حتى حضر وجهاء بلدة (المجدل)، وتوسطوا فقُبلتْ الوساطة شريطة ألا يدخل البريطانيون القرية بعد اليوم، كما خاض مناضلو (حمامة) عدة معارك واجهوا فيها القوافل الصهيونية والقوات البريطانية التي كانت في كثير من الأحيان تهب لنجدة اليهود كلما تعرضوا لخطر محدق.

في إحدى المرات واجه المناضلون قافلة صهيونية فيما سمي بمعركة (شرقي البلد) التي حدثت في فبراير سنة ١٩٤٨م، وفيها كالعادة سارع الإنجليز لنجدة اليهود واشتبكوا مع المناضلين، ونتج عن تلك المواجهة أن استولى مقاتلو (حمامة) على سيارتي لوري بريطانيتين وكمية لا باس بها من العتاد العسكري، وأسروا ثلاث جنود بريطانيين لم يطلق سراحهم سوى القائد (حسن سلامه) بعد أن حضر إلى البلدة مع بعض رجالات النضال الفلسطيني في تلك الأيام، من الأعمال البطولية التي تحسب لمناضلي (حمامة) أيضًا، المواجهة مع الدورية البريطانية التي كانت تحرس خط السكة الحديد لتامين مرور

العتاد الحربي لليهود والبريطانيين، وسميت بمعركة (ربة أبو الدهن) في فبراير ١٩٤٨م، استطاع فيها مناضلو (حمامة) إعطاب الآلية البريطانية، وأجبروا الدوريات البريطانية بعد ذلك على استعمال الطريق الرئيسي فقط وعدم المرور في أراضي (حمامة).

وهكذا راحت المجموعات العسكرية بقيادة الشيخ (حسن سلامة) الذي كانت إقامته في مدينة (الرملة) تقوم بواجبها المقدس في الذود عن الأرض والعرض والحقوق، إلى أن جاء من قبل الهيئة العربية العليا التي كان يرأسها الحاج (محمد أمين الحسيني) أحد القادة والذي أقام في مدينة (المجدل)، حيث أضحت حركة المقاومة في (حمامة) تحت قيادته، وعلى أثر ذلك فقد نالت (حمامة) شهرة منذ تلك الأيام بين أهالي البلدات المجاورة، وذلك لنضال أهلها وقوة بأس مقاتليها الذين كتبوا صفحات مشرقة في تاريخ التمسك بالوطن، وحتى إن تلك الشهرة قد انعكست بعد ذلك في قطاع (غَزّة) حيث نزح أغلب أهالي (حمامة) سنة ١٩٤٨م، وظل أهالي (حمامة) يشتهرون بكثرة من التحقوا بالجيوش وبحركات التحرير العربية والفلسطينية لمقاومة (إسرائيل) على مدى عشرات السنين، هذا وقد ساعد مناضلي (حمامة) في أن يحصلوا على الشهرة في عام ١٩٤٨م هو كثرة السلاح نسبيًا الذي توفر في أيديهم مما غنموه من الإنجليز ومن قوافل (الهاجانا) الصهيونية التي كانت تذهب من مستعمرة يهودية إلى أخرى، حيث كان مناضلو (حمامة) ينصبون لها الكمائن ويشتبكون معها في قتال ضاري، وقد انتصروا عليها في أكثر من معركة خلال مراحل الصدام، وقد خاض مناضلو (حمامة) المعارك التالية:

معركة أبو سويرح(٣).

و(أبو سويرح) هي منطقة ضمن مناطق بلدة (أسدود)، وقد انتصر مناضلونا هناك على العصابات الصهيونية، حيث أبيدت القوة المعادية كلها، ومن الذين شاركوا فيها: (محمود

الحاج مقداد، حسن محمود أحمد، العيس أبو سمعان، فارس عرندس، فارس الخواجة، أحمد أبو عودة، أحمد السمسماوي أبو عودة، محمد العبد يوسف الخواجة).

معركة بيت دراس.

و(بيت دراس) أيضًا هو اسم لقرية فلسطينية أخرى تقع قريبًا من (حمامة)، وهناك صد مناضلونا مع أهالي (بيت دراس) اليهود المهاجمين وكبدوهم عدة إصابات، وسقط ثلاث شهداء من أهالي (بيت دراس) وجريح واحد من أهالي (حمامة)، هو، (محمود حسين أبو رياله)، ويبدو أن ذلك كان كجس نبض من قبل اليهود الذين جاءوا بعد ذلك بقوات كبيرة من عدة جهات وبمصفحات قتالية بهدف العمل على احتلال بلدة (بيت دراس)، وراحوا يمهدون لذلك بقصف مدفعي كثيف على (بيت دراس) مما مكنهم في البداية من الوصول إلى أطراف البلدة بل واحتلوا مدرستها، واستمرت المعركة حامية، وهب المناضلون من كل سكان القرى المجاورة لنجدة (بيت دراس)، ودارت معركة حامية دُحر فيها اليهود وتكبدوا خسائر جسيمة وانسحبوا، اشترك من مناضلي (حمامة) في تلك المعركة الحامية كل من: محمد طبيش صقر، فارس شحادة صقر، محمود الجعيدي، محمد حسين، إسماعيل النجار، صبحي عبد الباري، محمود الحاج مقداد، محمد إسماعيل مقداد، مصطفى القرم، عبد الوهاب الفار، حسن الزهار، محمد إبراهيم أبو ريالة، محمود إبراهيم أبو ريالة، إبراهيم عوض الله، حسن الندى أبو سلطان، محمد شحادة شامية، خليل المحروق أبو سلطان، عثمان أبو سلطان).

وكانت هذه المعركة من أكثر المعارك شراسة، حيث قُتل فيها من اليهود مائتين وأربعين، وفي قول آخر أن قتلاهم لم يتجاوزوا المائة وخمس وسبعين فقط، وقد جرح من أبناء (حمامة) في تلك المعركة اثنان هما: (محمود إبراهيم أبو ريالة)، و(محمود الجعيدي صقر)، على أثر تلك المعركة بدأ سكان (بيت دراس) بالرحيل إلى (حمامة) واستقبلهم الأهالي

بالترحاب وفتحوا لهم دورهم، وبعد أن وصلت الإمدادات من أمريكا لليهود عاودوا الهجوم على (بيت دراس) واحتلوها.

معركة جولس.

و(جولس) هي أيضًا قرية كانت تقع إلى الشرق قريبًا من (حمامة)، ومعركة (جولس) (خَسَّه) نسبة إلى معسكر للجيش البريطاني أصبح مهجورًا، وكان اليهود يكمنون فيه وكانوا يطلقون نيران أسلحتهم على الفلسطينيين في تلك المنطقة، دامت تلك المعركة اثنا عشرة ساعة، استعمل فيها اليهود كل أنواع العتاد الذي توفر لديهم في تلك الأيام، فقد استعملوا المصفحات والطائرات، وفي النهاية انهزم العدو وفر هاربًا تاركًا خلفه مصفحتين في حالة جيدة وصالحتين للعمل مع بعض العتاد، وقد اشترك في هذه المعركة من مناضلي (حمامة) الذين كتبت لهم الحياة كل من: (صبحي عبد الباري، محمد الحاج إسماعيل الخواجة، عبد الله عاشور، مصطفى القرم، عرفات العبد أبو سلطان، محمود عبد الحميد مقداد، محمد الصليبية، محمد النمنم، عبد الوهاب الفار، إسماعيل النجار "طفل صغير").

وفي تلك المعركة فوجئ مجاهدو (حمامة) بنيران رشاش أحد الجرحى اليهود فقضى منهم خمسة شهداء وآخر من (المجدل) وجريح واحد، كان شهداء معركة جولس: (حسين محمد اللحام، يوسف أبو سمعان الملقب بـ (العيس)، محمود إبراهيم الخواجة (محمود زهرة)، العبد يحي عوض، عثمان خالد الخواجة)، وأما شهيد مدينة (المجدل) فقد كان (خليل أحمد القزاز)، وشهيد (أسدود) هو (سالم مسلم أبو شوقة)، وجُرح في المعركة (حسين أبو صفية)، وقد اشترك في تلك المعركة عدد لا بأس به أيضًا من مناضلي القرى المجاورة، مثل (أسدود) و(بيت دراس) و(جولس) و(المجدل) و(الجورة) و(غزة)، هذا وقد استعرضت المصفحتين المستولى عليهما في شوارع (حمامة) و(المجدل).



معركة دوار المجدل.

قُتل وجرح في تلك المعركة الكثير من قافلة عصابة (الهجانا) الصهيونية، وفيها راقب المجاهدون القوافل اليهودية المتجهة إلى المستعمرات الحديثة في النقب، والتي كانت تمر من الطريق الرئيسي القريب من الدوار، وقد بدأت المعركة حينما انفجرت الألغام التي زرعتها وحدة التدمير عند دوار (المجدل) شرق المدينة، وكان ذلك في منتصف النهار، وعلى أثر ذلك انقلبت إحدى المصفحات اليهودية، واشتدت المعركة وتقدم مجاهدو

(حمامة) وقاموا بالهجوم، وكان يساعدهم في ذلك زملاء لهم من أبناء القرى المجاورة، استطاعوا إحكام الطوق على أحسن وجه حول الصهاينة، واستمرت المعركة حتى الغروب، وغنم المناضلون سيارة شحن ومصفحة محطمة وكمية من الأسلحة الخفيفة، وأنقذ ما تبقى من قافلة اليهود على أيدي القوات البريطانية.

معركة محور برير (٣ ابريل سنة ١٩٤٨م).

وأما في الحقيقة فقد حدثت ثلاث معارك في هذه المنطقة، وكان المناضلون يتعرضون لقوافل الإمداد الصهيونية المتجهة للنقب، واشتدت المعارك وعاون الإنجليزُ اليهودَ كالعادة، مما جعل اليهود بعد ذلك يستولون على قرية (برير)، ويرتكبون مذبحة فيها ويطردون، بقية السكان.

هذا، وقد حدثت هذه المعارك وغيرها من التي أتينا على ذكرها قبل دخول الجيوش العربية إلى (فلسطين)، وقبل وصول الجيش المصري إلى منطقة (حمامة) قادمًا من الجنوب من جهة مدينة (غَزّة) أي قبل الخامس عشر من مايو سنة ١٩٤٨م.

ومن المعارك التي خاضها مناضلو (حمامة) في نفس الفترة، معركة (الجورة)، حدثت معركة (الجورة) أيضًا واستعمل فيها العدو الزوارق الحربية بالتنسيق مع مستعمرت (نيتساليم) المجاورة، وفور أن تلقى مناضلو (حمامة) نداء الاستغاثة من مختار (الجورة)، لبوا النداء وهرعوا للدفاع عنها، وفعلا اكتفى الصهاينة بسبب ذلك بإطلاق قذائف زوارقهم من البحر ولم يجرؤوا على مهاجمة البلدة.

عندما وصل الجيش المصري إلى (حمامة)، كان مناضلوها ثابتين في مواقعهم إلى أن تسلمها الجيش المصري الذي عمل فورًا على نزع سلاح المقاومة الفلسطينية، وجرّدها من أداة النضال مما ساهم كثيرًا في الإسراع في تحقيق نكبة (فلسطين)، فقد قام اليهود بمهاجمة

(يافا)، واختل ميزان القوى، وتعرضت قرى (عاقر) و(المسمية) و(قسطينة) و(المغار) و(المجدل) إلى هجوم الصهاينة، واستقبلت (المجدل) و(أسدود) و(الجورة) جحافل النازحين من (يافا) والقرى المجاورة لتبدأ مأساة اللاجئين الفلسطينيين.

في ليلة ١٦ مايو ١٩٤٨م دخلت الجيوش العربية بعض المناطق في (فلسطين)، تلك المناطق التي لم تكن قد احتلت قبل ١٥ مايو ١٩٤٨م، وذلك على أثر انتهاء الانتداب البريطاني وجلاء القوات الإنجليزية وإعلان دولة إسرائيل، وصلت في تلك الليلة أولى طلائع الجيش المصري إلى (المجدل)، هنا حاول اليهود عرقلة تقدم الجيش المصري شمالاً، فقاموا بمهاجمة (حمامة) من ثلاث جهات بغرض احتلالها، الشمالية عبر الطريق الزراعي، والشرقية عبر الطريق العام المعبد الذي يربط (يافا) بـ (غزة)، والغربية عن طريق ساحل البحر، ولم يهاجموا من الجهة الجنوبية، وذلك لحث الأهالي على النزوح من بلدتهم إلى (المجدل)، كانت المعركة حامية واستبسل فيها المناضلون ومن معهم من أبناء القرى من الذين نزحوا إلى (حمامة)، ولما اشتد ضغط اليهود وكثفوا من هجومهم على البلدة لما عندهم من إمكانات وأعتدة، وشارفوا على أطرافها الشمالية، عند ذلك لجأ إلى طلب المساعدة من الجيش المصري الذي وصل إلى (المجدل) كل من المختار (محمد يوسف الخواجة) الشهير بـ (أبو سلمان)، (عثمان أبو سلطان)، (العبد محمود الهباش)، (محمود الحاج مقداد)، (عبد الوهاب الفار)، (مصطفى القرم)، (يحي أبو يحي)، (حسن أبو صفية)، وكان رد القائد المصري بالرفض لأسباب قال عنها إنها استراتيجية في حين اعتبرها أهالي (حمامة) مخيبة للآمال، وقرروا الاعتماد على أنفسهم إلى أبعد الحدود، وهنا عملوا على إعداد كمية غير عادية من نوع القنابل التي كان يستعملها صيادو السمك في (حمامة) والتي كانت تحدث صوتًا مخيفًا إذا ما انفجرت في الهواء، وفعلا نجحوا في ذلك وأرعبوا اليهود المهاجمين خلال الليل، الذين ظنوا أن لدى المقاومين أسلحة جديدة

وقوية وهكذا فشل الهجوم على (حمامة)، من الذين عملوا على إعداد الكمية غير العادية من عتاد قنابل صيد السمك والذين كانت لهم خبرة في هذا المجال وكانوا من المخضرمين في أعمال البحر كل من: (محمد الأخشم مقداد، محمود الحاج، العبد القوقا صلاح، إسماعيل النجار، أحمد أبو عودة، حسن كسكين، عبد الهادي الأخشم، علي الأخشم، خليل أنصيو، محمد أبو عبد الله عاشور، ذياب أبو سلطان، مصباح أبو صفية، رباح أبو صفية، خميس قاعود).

١١-٣ العرب يدخلون الحرب.

عمت أهالي قضاء (المجدل) فرحة عارمة مع وصول طلائع الجيش المصري، وفي (المجدل) أعد احتفال مهيب ترحيبًا بالجيش المصري، وقد أقيم الاحتفال في ساحة وسط السوق العمومي بمدينة (المجدل)، ألقى فيه (البيك طه) القائد المصري كلمة شكر، حيا فيها كل المحتفين بالجيش المصري، ثم تبعه اللواء (محمد نجيب) الذي أصبح فيما بعد قائد لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وأول رئيس لجمهورية مصر (حمامة..عسقلان).

وطُلب من الشعب الفلسطيني تسليم أسلحته للجيش المصري على أن يعطيها له بعد النصر ليطلقها في الهواء كيفما شاء أو متى شاء، وأن يُرشد الجيش المصري على كل من يتعاون مع العدو، التحق للعمل مع الجيش المصري من أهالي (حمامة) كل من: (محمود الحاج مقداد، مصطفى القرم، سليمان بريص، عبد الله حمتو الهباش، محمد طبيش صقر، فارس شحادة، عبد الوهاب الفار، جمعة فتاح، محمود الدوش، حسن بلوق، محمد مصلح، سليم بركات).

راح الجيش المصري يتجه شمالاً إلى أن سيطر حتى وصل شمال (أسدود) واتجه شرقًا، وهكذا دخل كل القرى التابعة لقضاء (المجدل)، وراح يعد لمعركة احتلال مستعمرة

(نيتساليم) الواقعة بين (حمامة) و(أسدود) والتي كان اليهود يقومون منها بغاراتهم على القرى المجاورة، حضر (محمد نجيب) شخصيًا إلى (حمامة)، ودعى مخاتير البلدة إلى الاجتماع به في منزل (إدريس الشيخ محمود) مختار (الكلالبة)، وطلب مساعدتهم ودعمهم للقوات المصرية التي ستقوم بالهجوم على المستعمرة، وطلب من أبناء (حمامة) المشاركة في الهجوم على المستعمرة المذكورة، وفعلاً هب أهالي (حمامة) جماعات وقام المناضلون من أبناء البلدة بواجبهم مع الجيش المصري وتم اقتحام واحتلال المستعمرة، واستشهد من أبناء (حمامة) في تلك المعركة: (أحمد أبو عودة، وجرح كل من، محمد الأخشم، محمود أبو ريالة، عرفات العبد أبو سلطان)

فور توقيع اتفاقية الهدنة بين (إسرائيل) ومصر وشروع الجيش المصري بالانسحاب إلى مدينة (غَزّة) تاركًا خلفة (حمامة) و(المجدل) والقرى المجاورة بلا غطاء عسكري أمام الصهاينة، أضحت القرى والبلدات الفلسطينية مكشوفة لأنها لا تملك أدوات الدفاع ولذلك أجبر الأهالي تحت الإرهاب الصهيوني على ترك مدنهم وقراهم.

شهداء (حمامة) في ثورات ١٩٣٦م - ١٩٣٨م حسب الترتيب الأبجدي للأسماء هم:

(خليل حسين السر شامية، العبد النجار، محمد أبو مشايخ الفراني، محمد علي موسى دحلان، محمود عباس أبو العمرين، يوسف انشاصي أبو سلمى).

ومن شهداء (حمامة) في الأعوام ١٩٤٧-١٩٤٨-١٩٤٩م، حسب الترتيب الأبجدي للأسماء. "المصدر كتاب (حمامة..عسقلان)" هم كل من:

(أبو سليم الخواجة، أحمد أبو عودة الملقب (الداحول)، أحمد إبراهيم حرب، أحمد الطبش، أحمد جمعه جعفر مقداد، إبراهيم الفار، إبراهيم حمدان مقداد، إبراهيم سالم أبو شعير، أحمد إبراهيم محمد أبو عودة، إدريس إبراهيم كعبر، إسماعيل شعبان انصيو مقداد، جمعة يحي عوض، حسن بلوق صالح مقداد، حسن حلوق مقداد، حسن سلامه سلمي،

حسين محمد اللحام الملقب (أبو مناشا)، حمتو العزازي، حمدان حمدان مقداد، خليل حسين شامية، درويش عبد ربه عوض،ذيب أحمد سلامه، ذيب الحاج هدى رضوان، راتب محمد السكر حرب، زهدي عروق صلاح، سالم حسن صالح شامية، سالم طه عوض، شاكر الخواجة، شحادة علي شحادة صقر، شعبان النجار، شعبان محمد انشاصي، صبحة عطية أبو سلطان، طه أبو فول،عبد الرحمن محمود أبو العمرين، عبد السلام شحادة فتحية، عبد الله عيد مقداد، عبد الهادي محمد الفراني، العبد حسن خليل النجار، عبد ربه محمود الهباش، عبد شاكر عبد النبي دحلان، العبد محمود الهباش مقداد، العبد يحي عوض، عثمان خالد الخواجة الشريف، علي الزهار، علي محمد محمد دحلان، عمر عبد الرحمن أبو العمرين، عمر يوسف الفار، عمران الخواجة، فاطمة موسى أبو ريالة، فخري أبو يونس عوض، فخري يونس عوض، محمد أحمد درويش، محمد أحمد أبو عودة، محمد اسحق الفراني، محمد إسماعيل القوقا، محمد الزهار، محمد الغريب عبد الباري، محمد عبد الرحمن أبو العمرين، محمد عبد الهادي دحلان، محمد محمد عبد الصمد، محمد مقداد الملقب (صلعان) العبد مقداد، محمد موسى على دحلان، محمد يوسف أبو سمعان الملقب بـ (العيس)، محمود إبراهيم الخواجة الملقب (محمود زهرة)، محمود إبراهيم صقر، محمود اعرم كلاب، محمود الزهار، محمود المقزمر عوض، محمود جعفر أبو عودة، يوسف عبد ربه عوض).

على أثر حرب عام ١٩٤٨م وما نتج عنها، نزح أهالي (حمامة) إلى جنوب (فلسطين) واستقر السواد الأعظم منهم في قطاع (غزة)، في معسكرات هيئة الإغاثة الدولية خاصة الكبرى منها والتي أقيمت خصيصًا للاجئين في (جباليا) وشاطئ (غَزّة) و(خان يونس) و(رفح)، مع وجود تجمعات لهم أقل في معسكرات اللاجئين الأخرى في كل من (النصيرات) و(البريج) و(دير البلح)، وراحوا مع غيرهم يواجهون واقعًا مأساويًا قلّ أن

تشهد له البشرية مثيلاً، لأن الفلسطينيين - وهذا قدرهم - هم الشعب الوحيد في هذا العالم الذي يعيش لاجئًا على أرضه، ولهذا ليس غريبًا أن يكون أهالي (حمامة) ومن هم من نسلهم، جيلاً بعد جيل، من طلائع الشعب الفلسطيني الذين يرفعون شعلة النضال من أجل استرداد الحقوق، ورفض الأمر الواقع، مهما طال الزمن أو دالت الدول.

اتفاقيات الهدنة بين العرب وإسرائيل:

١. الهدنة الأولى وقعت في ١١/٠٦/١٩٤٨م

٢. الهدنة الثانية وقعت في ١٥/٠٧/١٩٤٨م

٣. الهدنة الدائمة وقعت في ٢٤/٠٢/١٩٤٩م

كتاب: (حمامة..عسقلان).

الفصل الثاني عشر

١،١٢ الرحيل





في أحد أيام عام ١٩٤٨م، كنت مع والدي في نفس الكرم/المزرعة الذي اعتدنا أن نقضي الصيف فيه، وكان ذلك في فصل الخريف، فقد كان والدي بعد انتهاء فصل الصيف وكعادته، كان يذهب إلى الكرم، وكان يعمل على تقليم أشجار الفواكه وإصلاح مساندها، وكان يعمل على وضع السماد حول الجذور تمهيدا لفصل الأمطار، وكان يعمل على أصلاح الأسوار إن وجدت، وعلى تسهيل مجاري سيول الأمطار.

كان أبي منهمكًا في ذلك اليوم في عمله المعتاد، أما أنا فلا أذكر فيما كنت ملهى به، إلا إنني كنت بعيدًا عن موقع مكان عمل الوالد، ولكنني كنتُ تحت نظره، وفجأة سمعت

صوت امرأة فالتفتُ فرأيتها وحيدة على بعد، كانت تحمل على رأسها بعض الحاجيات الشخصية، وكانتْ تسير على الطريق الزراعي المحاذي لأرضنا، وكانت قادمة من الشمال من جهة بلدة (أسدود) المجاورة لبلدتنا، سمعت المرأة تولول وتبكي، وكانت تحادث نفسها أو تلومها، وكانت تندب حظها وحياتها، وتلعن ما جرى لها أو من هذا القبيل، وكانت تبكي وتنوح خلال سيرها.



رأيت أبي وكان قد سمعها أيضًا، رايته يترك ما كان يفعله في تلك الأثناء، ورأيته يتجه نحو تلك المرأة، وراح يسرع بخطوات واسعة على شكل قفزات، وبهمة غير عاديه مصحوبة بحديث على شكل نداءات بأنصاف كلمات وبقلق، سمعته يقول وهو يلهث وفي اتجاه المرأة العابرة ومناديًا عليها: يا امرأة، يا امرأة ماذا هناك، ما بك، ماذا؟؟

ما كان من تلك المرأة إلا أن التفتت في اتجاه صوت نداءات والدي وكأنها فوجئت به، ردتْ عليه بجملة واحدة: "اليهود يا أخي دخلوا أسدود".

ولم تتغير مما هي فيه، وبقيتْ ماضية في طريقها وأكملت سيرها، ولم تلتفتْ ولم بطيء حركتها في المسير أيضًا، يبدو أن ما قالته المرأة قد عنى لوالدي الكثير، لأن بلدة (أسدود) تقع بجوار (حمامة) وها هي تسقط بيد اليهود، واختلط ما شاهدته على تصرفات تلك المرأة مع ما بدا من والدي بعد ذلك، كنت أعرف أن قرية (أسدود) تقع قريبة من بلدتنا فقد كنتُ أسمع عنها وعن مدينة (المجدل) فقط، كان الموقف رهيبًا ورغم أنني لم أتجاوز كثيرًا الخمس سنوات إلا أنني أحسستُ بأنني بلا وزن وكأنني كبرتُ مرة واحدة، وأدركت شيئًا لم أعهده من قبل، وأحسستُ بخوف وبرعب شديد، ونسيتُ كل شيء في تلك اللحظات، نسيت ماذا كنت أفعل أو ألهو به، وأحسستُ كأنني غريق لا حول لي ولا قوة، وشعرت بأن والدي أيضًا عاجز عن إنقاذي، وتلك أثقل الأشياء وقعًا على نفس الطفل، لقد كان الرعب من اليهود قد غزا كياني كله من قبل، وربما من أثر الأحاديث اليومية التي كنت أسمعها من خلال الأسرة، ومن الناس من حولي في مجتمع البلدة، لقد تجرعت الهلع الذي أثاره اليهود في قلوب أهل بلدتنا، وأضحى ذلك خوفا يُقطّع أوصالي، وضياعًا يلغي سعادتي واستقراري، ووحشًا غريبًا ضالاً، لا ينشد إلا افتراسي، وبحرًا هادرًا له رهبة غريبة، يُقزّم وجودي ويبتلع بقايا أحلامي في لجه.

لم أكلفُ أبي أكثر من أن يقول: "هيا يا بني"، فاتجهت إليه مسرعًا وأنا لست بحاجة لأكثر من ذلك، ركبتُ معه الحمار وعدنا جنوبًا تاركين الكرم ومتجهين إلى دارنا في القرية.



في طريق عودتنا بين الحقول، كان الطريق موحشًا فلم أر كالعادة أناسًا كثيرين، وكانت الحركة شبه معدومة، مضينا حتى وصلنا إلى أطراف بيوت البلدة من جهة الشمال، فلمسنا هدوء غير عاديًّا أيضًا، كنا كلما تقدمنا في المسير إلى زقاق حارتنا، نجد الناس يسوقون بعضًا من دوابهم، ويحملون حاجيات لم أستطع في تلك اللحظات أن أميز ماهيتها بسبب اقتراب مغيب الشمس، اقتربنا أكثر من بيوت الجيران، فشعرتُ أن داخل ساحاتها تحدث حركة وجلبة غير عادية، وأصوات متداخلة على شكل أوامر مقتضبة يتلوها سكون ثم تستأنف، وقد سمعت كلمة ترددت كثيرًا في تلك الأثناء، كانت تقولها الأصوات الأحادية داخل الدور منادية أو قائلة: هيا هيا هيا (يَلا)، كان صمت الوالد على غير العادة وأنا معه على ظهر الحمار ثقيل كالجبال، حتى إنني غبت عنه ورحت بعيدًا، وبطريقتي صرتُ أتصفح الخواطر والخلجات التي كانت تحدثها المشاهد التي كنا نمر عليها، ويبدو أن كل واحد منا كان قلقًا بطريقته وفي توهانه، وكأن ليس عنده فراغ

لكي يأخذ قلقًا من الآخر، بالنسبة لوالدي ربما بسبب مسئوليته الأسرية، أو لعدم خبرته في مواجهة تحدي عاتي أخذ يلوح في الأفق، وراح هذا الخطر يقترب بسرعة غير معهودة من دارنا، ويود أن يفصلنا عنها بكل ما تعني لنا كلمة وطن، وبالنسبة لي كانت أيضًا تجربة جديدة، فلم أتعود على مثل ذلك القلق الذي تجاوز كل الحدود، وراح ينطلق إلى المجهول، في تجاربي السابقة كنتُ أخاف وأقلق مثلاً حينما أتخيل الموت، وكنت أخاف من اليهود خوفي أكثر من الموت، وخفت منهم أكثر مما سمعت عن الضبع الذي كان يعترض الفلاحين في الطرق وفي الحقول، والذي كنتُ أسمع عنه من أحاديث الكبار، وإنه كان يقترب خلال الليل من مضاجع نوم الأطفال حينما تتاح له الفرصة وهم نائمون بجانب أمهاتهم خصوصًا في الحقول، بل خفت من اليهود أكثر من الغولة التي كانت تأكل الأطفال، والتي كانت حكاياتها تُقص علينا من قِبَل الأمهات والجدات للتسلية وخصوصًا في الليل وقبل النوم، كان خوفي من اليهود يسحق كل فكري وكان يجعلني أحيانًا لا أشعر بشيء وكأنني قشة طائرة في الهواء أو ذرة رماد خفيفة كالدخان، وكنتُ حينما أُمعن في هذا الخوف، كنت أهرب من واقعي غير مخير مستسلمًا لذلك الرعب والتمزق الذي يوحيه تواجد اليهود في حياتنا، لقد كان وجودهم في ذاكرتي يعني الخوف والقلق واختفاء سعادتي، وكما هم الآن في ذاكرة كل عربي.

وصلنا دارنا وصحوت من هواجسي على نفسي، فإذا بي أراها في ساحة الدار، استقبلتنا والدتي وقالت لأبي وهي تهم بربط الحمار في وتده: سأعد لكم العشاء. وردّ أبي بعصبية وبدون أن يلتفت ناحية الوالدة: إن أهل (حمامة) قد خرجوا، ألا تعرفين ذلك؟
كان رد والدي على أمي بهذه الكيفية كأنه أمر نهائي انعكس على سلوكنا جميعًا بعد ذلك، وهكذا ترجم هذا الرد إلى حركة محمومة يصاحبها كلمات من هنا وهناك، وصرت أسمع أوامر والدي، مكلفًا الإخوة الكبار بمهام محدده، كانوا يحضرون له شيئًا أو يعدونه بناء

على طلبه، ومضتْ والدتي تتناول بعض الأشياء، التي كما بدا لي لم تقع في إطار جهود الوالد أو اختصاصاته، وسمعتُ بعض العبارات التي كانت تُصدر عن والدي إلى والدتي على شكل نصائح تذكيرية، وخرجنا من الدار إلى قدر جديد بل من (حمامة) الحبيبة مسقط رؤوسنا.

أذكر بأننا قد خرجنا من بلدتنا ولم يحل الظلام الكامل إلا بعد أن توارت عنا بيوتها، التي لم أرها منذ ذلك الحين، قال والدي إننا سنبتعد في سيرنا عن الطريق العام المؤدي جنوبًا إلى مدينة (المجدل)، وسنحرف عنه في الاتجاه الجنوبي الغربي نحو الساحل، لأجل أن نتخطى مدينة (المجدل) من جهة الغرب، ونسير على الطرق الرملية التي تعترضها كثبان الرمال التي تطل هنا وهناك على شاطئ البحر، ذلك لأجل ألا يُعيقنا الجيش المصري الذي بدأ انسحابه قبلنا من مدينة (المجدل) التي كانت معقله الرئيسي ومقر قيادته، وربما كان انسحاب الجيش المصري، هو ضمن قرار الهدنة بين العرب واليهود عام ١٩٤٨م، الذي فرض على العرب بصفة عامة، ليضحي الأمر في (فلسطين) على شاكلة جديدة، كنت في تلك الأيام أعرف شيئًا واحدًا هو الخوف، وكنت أرى الذعر على وجوه الجميع واقعًا يعيشه كل من رأيت من أهل بلدتنا في الطرق التي كانت تضربها أقدامنا في ذلك المساء.

كان والدي قد التقط خبرًا من الهائمين على وجوههم من أمثالنا الذاهبين إلى الشتات، كان الخبر يقول: إن الجيش المصري ينهر الناس في أماكن تحركاته، خصوصًا على الطرق التي تصلح لسير الآليات، وذلك لأجل تفادي أمر اكتشافه من قبل المستعمرات اليهودية، التي كانت كثيرًا ما تُهاجم القطاعات العسكرية المصرية ومُراكز التقاء الطرق أو تنصب فيها الكمائن العسكرية.

وفعلا ما كدنا نبدأ خط سيرنا المعدّل، حتى وجدنا أعدادًا هائلة من الناس، كانت تتحاشر في الطريق الرملي المتعرج الذي راحت تعبده الأقدام من كثرتها ومن شدة عنف حركتها، كان الظلام يخيم رويدًا رويدًا، وشمسنا أفلت في الغرب على ميمنتنا، ولم تترك إلا شفقًا أحمرًا باهتًا، وظلامًا سرمديًا يسدل خيوطه خلفنا، ومع كتل أخرى من الظلام الحالك تترامى أمامنا، وستارة هشة من رقعة سماء ملبدة بالغيوم فوقنا، وكان الظلام دامسًا، كانت تسوقنا الأهوال مطرودين من أرضنا التي امتزج ترابها بذرات أجساد الأجداد، وربما كانتْ أرواحهم في ذلك المساء المشئوم تناجي التاريخ شفقة علينا وتلعن البشرية التي لم ترحم جحافلنا المذعورة.

كنا نسير جماعات وقطعانًا من مختلف القرى والبلاد الواقعة جنوب مدينة (يافا)، وكنّا على شكل أكوام من البشر، وكان يُغطينا الظلام الذي لم يفارقنا منذ ذلك الحين... رأيتُ الناس يحملون أمتعة متنوعة ومختلفة، ولكنها ليست كثيرة، وكان بعضهم يحمل أمتعة على ظهور الدواب، ولكن ما لفتَ نظري هو عدم سماعي لصياح الأطفال على غير العادة حينما تكون الجموع غفيرة، ويبدو أن الأطفال جميعًا في ذلك المسير قد أصابهم أيضًا الخوف والذهول، ويبدو أنهم كبروا بلا طفولة في تلك الظروف، لقد كان شيئًا عاديًا وقد حدث كثيرًا لبعض الأسر، وقد كنت أسمع عنه خلال أحاديث الكبار، وذلك قبل أن نترك بلدتنا في ذلك اليوم، وهو أن كثيرًا من الأطفال من أبناء مناطق شمال (فلسطين) التي سبقتنا في الهجرة والتي خرجت من ديارها أيضًا، كثيرًا ما كان يفقد الأطفال في معترك الأحداث المفجعة التي كانت تفاجئ أهلهم، فقد كان عاديًا أن لا تستطيع الأم التقاط ولدها من الشارع إذا اقتحمت العصابات اليهودية المسلحة البلدة، وكان يتخلى الوالدان المقهوران عن أطفالهما، لأجل أن يتمكنا من الهرب، وليبتعدا بسرعة عن اليهود الذين كانوا يطلقون النار تقتيلاً وإرهابًا، كانوا يقتلون عشوائيًا عددًا من

الناس لأجل أن يخاف أهالي البلدة الآخرون ويتركون ديارهم فارين من الموت، لقد كنا نحن الأطفال نسمع عن هذه الأخبار المرعبة، ولهذا كنا نلتزم بأوامر الوالدين أكثر مما كان يطلبه الأهل منا، إن قالوا اجلسوا هنا، فعلنا، وإن قالوا لا تتحركو، فعلنا، وهكذا بدأت النكبة منذ أيامها الأولى ترضع الأجيال الجديدة، فصول العذاب والشقاء التي ستتحدث عنها الأيام.

١٢-٢ الخروج بلا متاع.



والدتي حملتْ على رأسها جرة صغيرة من الفخار بها بعضًا من مربى العنب الذي كانت تُعده في نهايات أشهر الصيف، والذي كان يُصنع من العنب منزليًا بطرق بدائية، بعض الإخوة الكبار حمل حوالي خمسة عشر كيلوجرامًا من الدقيق في كيس على ظهره، والدي حمل على كتفه أخي الذي كان يصغرني وكان عمره سنتين ونصف، أما أنا فقد كنتُ أكثر المعذبين في تلك الهجرة، أو هكذا ظننت، لم أُكلف لأن أحمل شيئًا كما فعل الآخرون من الإخوة الكبار، ولكنني سمعتُ أبي أكثر من مره يقول في تلك الليلة، وكلما رآني متباطئًا

في المسير من شدة الإعياء:"إذا قال هذا، إنه تعبان فسنتركه لليهود"، وكنت كلما سمعت هذه الجملة أو أي عبارة مشابهه لها تحمل نفس المعنى في ذلك الليل المخيف الموحش الحالك السواد، كنت أقفز كمن كان نائمًا وفزع من نومه، وكنتُ أركض أمام السائرين وأجلس على الأرض لأستريح قليلاً، حتى إذا ما وصلني الركب أو اقتربُ، قمتُ مرة أخرى وفعلت نفس الشيء، فهمت بعد سنوات أن هدف والدي كان رغبة منه في حثي على المسير ليس أكثر، لأنه إذا أُجبر على حملي أيضًا في تلك الأثناء فسيكون على حساب المتاع القليل الذي حملته الأسرة.

استمر الحال هكذا إلى أن وصلنا إلى بلدة (عسقلان)، ولا أدري هل نمنا هناك أو كم نمنا، أظن أنني نمت، أتذكر في الصباح أنني قد رأيت نارًا مشعلة من الحطب ورأيت أُمي تخبز على الصاج، ورأيت من موقعنا على امتداد البصر أكوامًا من الناس من أمثالنا يجلسون أُسرًا وجماعات، كانت الساحة الرملية التي كنا فيها، ربما كانت على شكل بيضاوي أو كذلك، وكانت كما رأيتها وتخيلتها بمساحة حجم ملعب كرة القدم أو أكثر قليلاً، هذا عدا الساحات الأصغر التي كانت تتداخل مع الأشجار وتتواصل مع الساحة الكبيرة الواسعة أو هكذا، كانت تلك الساحة خالية من الأشجار إلا عند أطرافها حيث كانت توجد أشجار ضخمة ذات جذوع سميكة لم أر مثلها من قبل، وربما اختلط علي الأمر في ذلك المكان بسبب الجوع والنعاس والإرهاق، وكان هناك بالجانب المحاذي لشاطئ البحر قطع لمباني سميكة جدًا، وكذلك صخور ضخمة، يعتقد بأنها آثار لمباني قديمة موغلة في القدم، وكان حجم الواحدة ربما بحجم بيت صغير، كان يطلق على ذلك المكان (وادي النمل)، وقد سمعت كثيرًا بهذا الاسم من قبل، وربما لهذا علاقة بالنبي (سليمان بن داوود) عليهما السلام، والنمل الذي ورد عنه في القرآن الكريم، إلا أن وادي النمل كان يعني أيضًا الكثير لأهل (فلسطين) وخصوصًا قبل الرحيل، لقد كان

موقعًا لإقامة مهرجان سنوي أو عيد، وكان يحدث ليوم واحد فقط حيث كان الناس يأتون إليه من القرى والمدن الواقعة في تلك المنطقة بما فيها أهل بلدتنا، وكان يطلق على هذا الموسم أيضًا (موسم وادي النمل)، فقد كانت تقام في ذلك الموسم - كما كنت أسمع من أحاديث الكبار - سباقات الخيول وألعاب الفروسية، وكانت تُحيا فيه الرقصات الشعبية، والألعاب النادرة المسلية، وكانت تباع هناك الحلويات بأنواعها ضمن تراث شعبي واجتماعي يحمل عبق التاريخ والذكريات، كنت منذ صغري، ومنذ أن بدأت أسمع عن وادي النمل أتوق لأن أحضره ولو لمرة واحدة، لأجل أن أرى وأستمتع كما يستمتع الآخرون، لقد كانت الأحاديث عن تلك المناسبة خصوصًا قبل حدوثها واستعدادا لها أو بعد انتهائها وما حدث فيها، كانت تشدني كثيرًا وأنا أسمع أحاديث الإخوة الكبار عنها، ولم لا والأحاديث المتداولة في القرية تكون قليلة، ولقلتها يكررها الناس كثيرًا، ولأن البيئة ضيقة بصفة عامة فإن كثيرًا من الاهتمامات تضحي مشتركة بين الكبار وبين الأطفال، ويضحي الفرق أن الأطفال يعدون الأيام ليكبروا ويفعلوا مثل الكبار، عمومًا لم يتحمس أحد في السابق أن يأخذني معه إلى ذلك المكان، وشاء القدر أن أكون في ذلك المكان في يوم الرحيل المشئوم، حينما كانت يداي تعبث بالرمل في ذلك المكان، كانت تنتابني الهواجس خصوصًا حينما كنت أرى وألمس قشور مكسرات البندق والجوز الذي نسميه عين الجمل، وكذلك قشور الفول السوداني، والتي كلها كانت تُذكر بذلك الموسم من بقايا زوار المكان في العام الماضي.

عند ذلك المكان كان بعض الناس من معارف والدي من أمثالنا، كانوا يأتون ويتحدثون مع والدي ولكن لا يمكث الواحد معنا كثيرًا أو كأن الجميع كانوا في حيره لم أعرف كنهها في تلك الأثناء.

١٢-٣ الشتات الفلسطيني.

بعد ذلك انقسمت أسرتنا، أمي وأحد إخوتي، ولا أدري كيف تركونا وذهبوا مع عمي الذي كان يملك مركبا لصيد السمك، وكان عمي قد استعمل المركب لرحيل أسرته، وذلك بركوب البحر من (حمامة) إلى مدينة (غزه)، وكان قد حط كما علمنا فيما بعد في منطقه تقع بين ميناء مدينة (غزه) القديم و(الشيخ عجلين)، وكان يسمى ذلك المكان بمنطقة (الفرفارة) واسمه الحالي في سنة ٢٠٠٨م هو (الرمال الجنوبي)، (الفرفارة) التي كانت هناك هي عبارة عن طاحونة هوائيه قديمة كانت قرب بئر مهجور كان يقع على أطراف الغابة قرب شاطئ البحر.

في اليوم التالي تحركت بقية أسرتنا، من منطقة (وادي النمل) أو (عسقلان)، وذلك مع جحافل أخرى من البشر ووصلنا إلى بيارة للحمضيات تابعة لقرية (هربيا) القريبة من قطاع (غزة) من جهة الشمال، أقمنا هناك قرب بقايا كتيبه للجيش المصري كانت تستعد للرحيل أيضًا، وكانت تضايقها الطائرات الإسرائيلية مثل كل الأماكن التي تواجد فيها الجيش المصري على التراب الفلسطيني، وكان منظرًا مألوفًا أن نرى عن بعد هذه الطائرات تحوم على الطرق وحول المستعمرات وأينما وجد الجيش المصري، ولهذا كان الأهل على صواب حينما اختاروا في تحركاتنا الابتعاد عن الطرق الرئيسية وعن المستعمرات اليهودية، في ضحى اليوم التالي، وبعد أن نمت قليلاً لا أدري من أيقظني من الأهل، وأعطاني صحنا كبيرًا من الفخار وقال لي، اذهب إلى هناك، وأشار إلى اتجاه أماكن تواجد الكتيبة المصرية، وقال لي أيضًا، اطلب منهم أن يعطوك طعامًا، وفعلاً ذهبت ووجدت صبيانا وبناتا في مثل عمري، وكانت معهم أواني طبخ مختلفة الأحجام، والجميع بناء على أمر الجندي وضعوها على الأرض وفعلت مثلهم، وصب لنا أحد الجنود المصريين طبيخ العدس من دست كبير، وذلك بواسطة مغرفة كبيرة.

في تلك الأثناء بدأ ينفذ ما معنا من مؤونة وأضحى لا يقع نظري على شيء حولي أستطيع أن آكله، وكنت لا أملك إلا الجلوس بين أشجار البرتقال الخالية من الثمر، وربما كان عندنا بعض الأشياء القليلة، وربما اختار والدي أن يخفيها لأيام قادمة قد تكون أشد سوء، بعض الإخوة الكبار عاد إلينا مرة في عصر أحد الأيام مع بعض من أمثاله، وقد أحضر معه بعضًا من عيدان قصب السكر، وربما جلبها من بعض الحقول التي هجرها أصحابها في تلك المنطقة، كان ينقصنا كل شيء تقريبًا، إلا أن بعض عيدان قصب السكر قد ساعدتنا كثيرًا في ذلك اليوم، وبالنسبة لي كانت أكثر من ذلك.

بعد هذا وفي يوم آخر، تحرك ركبنا واتجهنا جنوبًا ومضينا سائرين في الليل أيضًا مستترين بالظلام، ووصلنا إلى قرية (بيت لاهيا) على أطراف قطاع (غَزّة) من الجهة الشمالية، إلا أننا بقينا مقيمين في المزارع الرملية الخالية من الثمار أيضًا، لأننا كما بدا لي كنا في أواخر الخريف، وأضحى الشتاء يدق الأبواب، وقد زاد القلق بين الكبار من الناس، خصوصًا الآباء والأمهات من الأسر التي كنا معها في تلك الأثناء، ذلك لقلق الجميع على دورهم التي تركوها خلفهم في القرى والمدن، وعلى الأشياء الكثيرة الهامة التي تركوها وراءهم أيضًا، وقد صادف أن سَرَت دعاية في تلك الفترة، على أن الأمور قد حُلت وأضحى الوضع آمنا، وأضحى الرهان على العودة أكثر من الاستمرار في الهجرة، ابتسم الناس لتلك الأخبار وعلت بعض الابتسامات الوجوه، وأضحى الجميع يتنافسون كيف سيبدأون طريق العودة إلى حد أن سرت إشاعة مكملة للأولى، وعملتْ أيضًا في نفس الاتجاه، قيلت مغالاة في ذلك، بأن البعض قد عادوا بالفعل إلى بلادهم، وقيل أيضًا، أن الخطر قد زال تمامًا.

سَرَتْ تلك الأخبار السارة كالنار في الهشيم بين الناس، وانتشرت أكثر لأنها امتزجت وتناغمت مع أحلامهم ومع ما يودونه أن يحدث، وفعلاً بدأت جحافل الناس تتحرك

شمالاً، وعدنا إلى أطراف بلدة (هربيا) ثانية، ووصلنا إلى مكان غير الذي غادرناه قبلاً منها، لم نكد نحط الرحال على أطراف (هربيا)، ولم تمض ربما سوى سويعات قليلة، إلا أن الناس قد عادت مرة أخرى تُكذب ما أكدته بالأمس، وأقنعهم بذلك أكثر أصوات الرشاشات التي كانت تعوي منطلقة من المستعمرات اليهودية في تلك المنطقة وعن بعد، فما كان منا إلا أن عدنا ثانية في اتجاه مدينة (غَزّة) ولم نتوقف هذه المرة في أي من القرى التي كانت تقع على حدود قطاع (غَزّة) كما فعلنا في المرة السابقة.

وصلنا خلال الليل إلى مقبرة كانت تقع في مدينة (غزة)، وذلك عند مكان يقال له (السدرة)، وكانت توجد بالفعل في ذلك المكان شجرة سدر حقيقية كبيرة بشكل يلفت النظر، أمضينا تلك الليلة هناك بلا خيار وكنا بين القبور، وقد رأيت والدي في تلك الليلة وقد كان ضوء القمر ساطعًا، رأيته واقفًا بين أضرحة الأموات البيضاء اللون، التي كان ينعكس عليها ضوء القمر، وشاهدته واقفا وكانت تبدو عليه الحيرة، رأيته وكان يضع يديه على خاصرتيه ويمكث ساكن الحركة لفترة، ثم ينزل يديه من على خصره، ويدير بجسده إلى اتجاه آخر وهو في نفس المكان دون أن يغادره، ثم يعدله ثانية في الاتجاه الأول ويعيد وضع يديه على خاصرتيه ثانية... كنت أشاهده حائرًا أو متحفزًا وكمن لا حول له ولا قوة، رأيت بعض الناس - وكما فعلنا نحن من شدة الإعياء - يلقون بأنفسهم على الأرض بين أضرحة القبور، وكانوا يذهبون في النوم بلا حراك، فيضحون كالجثث المسجاة في المقبرة التي تنتظر أن توارى تحت التراب.

في الصباح توجهنا إلى منطقة الفرفاره حيث - وكما علمنا - إن والدتي وبعض أقاربنا قد حطوا الرحال هناك، أخذنا طريق شارع (عمر المختار) في (غزة)، وكان معنا بقرة وحمارًا، وسرنا مشيًا في بيئة غريبة لم أتعرف عليها قبلاً، ولا أدري فقد انتابني في ذلك

اليوم شعور يائس على ما كنت فيه من حال بائس، وكأنني أسير إلى الجوع واليأس والمجهول، وربما لأنني لم أتناول شيئًا من الطعام.

اتجهنا إلى الغرب في شارع (عمر المختار) إلى أن وصلنا إلى ميناء (غَزّة) القديم على شاطئ البحر عند نهاية شارع (عمر المختار)، ولامسنا مياه البحر بأقدامنا العارية، بعد ذلك اتجهنا جنوبًا مارين على خط مياه البحر بمحاذاة سور الأسلاك الشائكة الذي كان يحيط بمعسكر جديد للجيش المصري الذي حط الرحال هناك، على شاطئ البحر مررنا على جمل ميت قيل إنه كان يموت من شدة التعب، فتركه صاحبه وجاء أحد الرجال وذبحه أو حاول، رأينا كثيرًا من الناس كل بطريقته الخاصة وبأسلوب بدائي كان يحاول أن يأخذ منه لحمًا للأكل، وفعلنا نحن أيضًا، فهمتُ فيما بعد أنه أكلُ الكفاية وليس أكل الشبع، لأن الجمل كان قد مات قبل الذبح، التقينا بعد ذلك بوالدتي وببقية الأسرة هناك، وبدأنا مرحلة لم نكن نعرف أين سنصل بعدها، ولما كان اهتمام والدي قبل الرحيل ينصب أكثر على شراء الأرض فلم يكن يملك نقودًا كثيرة حينما وجدنا أنفسنا فجأة نعيش في الغابة، فقد علمت في تلك الأيام بأنه حضر إلى (غَزّة) ولم يكن معه سوى أربعة جنيهات ونصف فقط، وعلمت أيضًا بأن كل ما كان يهتم به الوالد هو شراء الأراضي، فقد كان ذلك كل أهدافه وجل هواياته واهتماماته، خصوصًا بعد أن شعر بأن الأسرة تكبر وتزداد بسرعة خصوصًا بعد أن أصبح له ستة أطفال، ذلك قبل أن تتوفى الطفلة الصغرى، كان الوالد يود أن يشتري أراضي ويكثر منها حتى يتمكن من أن يورث الأبناء ما يستطيعون به أن يتغلبوا على أمور حياتهم ومعيشتهم في المستقبل، وكما كان يفعل معظم أهالي الريف في (فلسطين)، ولهذا سرعان ما كان الوالد يوفر بضعة جنيهات وكان يستدين أحيانًا عليها قليلاً من الأقارب أو الأصدقاء، وكان يذهب لشراء قطعة

أرض جديدة، ولهذا كثرت نسبيًا قطع الأراضي التي استطاع الوالد شرائها بصورة ملفتة للنظر بالنسبة لما كان يملكه أنداده.

كانت الأرض وبقيت عند الفلسطينيين هي الوطن والعيش والكرامة، لهذا نادرًا أن تجد في الريف الفلسطيني من لا يملك أرضا زراعية.

١٢-٤ عيش البؤساء.

تم اختيار منطقة تحت الأشجار الكثيفة في الغابة، في موقع مستور من الرياح، وكذلك فعل الكثيرون من أمثالنا، كنستْ والدتي ما تحت إحدى الأشجار من أوراق جافة وعيدان صغيرة، وهيأ والدي بعض الأغصان التي قد تعترض حركة البشر وجلسنا تحت شجرة كبيرة، كان الطقس شتاء وممطرًا في ذلك اليوم، وأشعل الوالد نارًا للتدفئة في ذلك المكان وكان الحطب ليس جافًا وقد آلمنا الدخان وضايقنا كثيرًا، وكثيرًا أيضًا ما كانت مياه الأمطار تتجمع على الأغصان وتصنع مزاريب غير منتظمة وهي تنهمر علينا وحولنا، كان يتغير مكان سقوطها حسب تغير اتجاه الرياح أو حسب شدة المطر، ولهذا كان شيئًا عاديًا أن نُوقظ نحن الأطفال في الليل لنتبع إرشادات الأهل، وذلك في تغيير أماكن واتجاهات نومنا تحت الشجرة، وكنا في الليل نصحو أحيانًا بينما أحد الوالدين يجرنا بهدوء مغيرًا قليلاً من أماكن نومنا ليبعدنا عن سيول المياه.

كانت أمي تخبز على الصاج ولا أذكر في تلك الفترة أنني رأيتها تطبخ، لأنه ربما لم يكن يوجد ما نطبخه أو هكذا كان، كانت النار أهم الأشياء التي كنا نملكها ونحتاجها في تلك الفترة على حد سواء، في نهاية كل يوم كان يزاح الرماد وبقايا النار حيث تكون الأرض دافئة من أثرها، وكنا ننام مكانها اتقاء شر البرد، وفي الصباح كنا نشعل نارًا

أخرى، ولا أذكر بأنني عرفت الاستحمام بالماء في تلك الفترة، أو أن أحدًا من أفراد أسرتنا عرفه أيضًا، ولو أردنا فكيف وأين وما حولنا سوى الناس تحت الأشجار كأننا وهم نعيش جميعًا في ساحة دار واحدة، كنا حتى ذلك التاريخ خمس أولاد بالإضافة إلى أبي وأمي، وكان أبي حسب ما علمت بعد ذلك يملك في تلك الأثناء مبلغا زهيدًا من المال.

في أحد الأيام ونحن ما زلنا نعيش في الغابة، ذهبت أمي في الصباح سيرًا على الأقدام، وذلك إلى مكان يقع في مدينة (غزة) على مسافة لا تقل عن ثلاث كيلو مترات من مكان إقامتنا، قيل إنه يوزع إعانات غذائية للاجئين، واستطاعت في ذلك اليوم أن تحصل من الهيئة الخيرية الأمريكية (كويكرز) على حوالي لتر واحد من الحليب السائل، وكمية من الأرز المسلوق تعادل حجم كوب واحد من الماء، وعادت إلينا في حوالي غروب الشمس بسبب كثرة الزحام في مكان التوزيع، كنا نلجأ أنا وبعض إخوتي إلى معسكر الجيش المصري الواقع عند ميناء (غَزّة) أو مكان فندق (فلسطين) في (غَزّة) حاليًا، والذي لم يكن بعيدًا عن مكان إقامتنا في ذلك الوقت، وكنا نطلب من جنود الحرس عند سور المعسكر، أن يعطونا خبزًا أو أي شيء يؤكل، إلا أننا قليلاً ما كنا نحصل على بقايا طعام الجنود من كسرات الخبز اليابسة وطبيخ العدس والفول، وكنا نصادق بعض الجنود ممن كانوا في المعسكر، وذلك بأن نقوم على تأدية بعض الخدمات السريعة لهم، كأن نذهب مثلاً ونشتري لهم سجاير من دكان قريب في المنطقة، وفي مقابل ذلك كنا ننتظر منهم أن يحفظوا لنا ويبقوا ما كانوا يلقونه في الزبالة من بقايا الطعام، وقد كانت أي أسرة من أمثالنا يحصل أبناؤها الصغار على مثل تلك الأشياء، كانت تعتبر محظوظة في تلك الأيام.

بعد ذلك اشترى والدي من السوق، وبشراكه مع بعض إحدى أسر الأقارب، (بيت شَعر) كالذي يستعمله العربان في البوادي، ونصبه والدي مع الرجل الآخر في مكان اختاراه مناسبًا في الغابة، وسكنا نحن وأسرة قريبنا تحته، إلا أن هذا لم يقينا مياه الأمطار، فما كان من الأسرتين إلا واقتسمتا بيت الشعر مناصفة، وذلك بقطعه بآلة حادة، وذهبت كل أسرة تدبر أمورها بطريقتها الخاصة.

كانت إقامتنا وكذلك غيرنا من الناس في الغابة شيئًا عارضًا أو يبدو أنه كان مؤقتًا، فقد حاولت كل أسرة واجتهدت بعد ذلك أن تصلح من أحوالها، اختار والدي مع قريب آخر أيضًا، أن نذهب جميعًا ونقيم في بلدة (الشيخ عجلين)، التي كانت تقع إلى الجنوب قليلاً من منطقة (الفرفارة) على هضبة عالية، وكانت تطل مباشرة على شاطئ البحر، ويبدو أن أهل القرية أو بالتحديد صاحب أحد الكروم هناك قد سمح لنا بالسكن فوق أرضه، قامت أسرتنا والأسرة الأخرى بعمل مساكن لهما كل على طريقتها، أما والدي فقد استفاد من حصتنا من قطعة بيت الشعر، وقام وأنشأ شيئًا لا أستطيع حتى الآن أن أعطيه اسما مألوفًا أو شائعًا يمكن أن يتناغم مع الظروف العامة التي نعرفها في هذه الأيام، فقد صنع لِنَقُل خُصًا مشابها لما كنا نعده في الكرم الذي كنا نقضي الصيف فيه في بلدة (حمامة)، وكان معدًا من جذوع الأشجار وأغصانها، إلا أنه كان أكثر اتساعًا نسبيًا، ولحّفه أو غطاه بأجزاء من بيت الشعر ثم حزّمه بحبال وأسلاك كثيرة وأضحى كالمغارة في ظلمته خلال النهار، وكالكهف الذي كان يعيش فيه الناس منذ ما قبل عصور التاريخ، فقد كان ملاصقًا لسفح هضبة رملية تغطيها النباتات البرية، وكانت الهضبة لتستره من الرياح التي تهب من جهة الجنوب الغربي من جهة البحر شتاء، كان هذا السكن مريحًا بالقياس لما مررنا به خلال الشهور الماضية، وذلك منذ أن خرجنا من بلدتنا، وقد أعطانا شيئًا من الإحساس بالأمان خصوصًا لما كان يوفره لنا - أو هكذا

نظن - من حماية، وخصوصًا في كونه مستورًا من قذائف مدفعية البحرية اليهودية التي أنشأوها على عجل بعد إعلان الدولة، والتي كثيرًا ما كانت تقصف مدينة (غَزّة) من البحر في تلك الأيام مستهدفة أكثر مواقع الجيش المصري، خصوصًا التي كانت تقيم على مستوى إقامتنا على الساحل في المنطقة التي كانت تقع جنوب ميناء (غَزّة) القديم مباشرة، إلا أن ذلك البيت كان لا يقينا قنابل الطائرات الإسرائيلية التي كانت تلقيها على قطاع (غَزّة) أيضًا، والتي كانت تستهدف أكثر معسكرات الجيش المصري، لقد كانت تلك الطائرات تصيب كثيرًا من المدنيين العزل فيذهبون ضحايا تلك العربدة، رأيت مرة قرب موقع سكننا في منطقة (الشيخ عجلين) إحدى قنابل الطائرات الإسرائيلية التي لم تنفجر، كانت تشبه قمعًا مغلقًا على هيئة بيضة لكنها كبيرة، وكانت تشبه إلى حد ما جرة الماء الفخارية، وكان سطحها الخارجي معدني، وكان يُقال إن بداخلها كرات من الرصاص وأشياء أخرى معدنية.

لا أعرف بالضبط كم مكثنا في تلك المنطقة – الكاتب: آنذاك ٦ سنوات – ولكن الذي كنت أعرفه، أن أهل (الشيخ عجلين) كانوا رحماء، وكانوا يتحلون بالطيبة والخلق والمسالمة، لم أذكر بأننا رأينا منهم ضيما، وكنت أرى إخوتي ووالدي يجوبون حقولهم، ويحضرون بعض النباتات، لتقديمها طعامًا لبقرة كانت لنا وكذلك للحمار، وكنت كثيرًا ما أذهب مع بعض الإخوة وكنا ننام في صالة كبيرة في دار أحد وجهاء القرية، وذلك حينما يكون البرد قارسًا في الشتاء، فقد كان بيتهم مبنيًا من الحجارة وغيرها، وكان واسعًا ودافئا.

في تلك الأثناء بدأت تعديلات كثيرة تدخل على حياتنا كأسرة وأفراد، وأضحت واقعًا نعيشه في صحونا وفي نومنا، وكأننا قد عبرنا تاريخا، كل الإخوة الذين كانوا يكبرونني سنًا وكذلك الوالد، عادوا رغم الأخطار تسللاً إلى بلدتنا التي تركناها مرغمين على

الأقل لمرة واحدة لكل منهم، وذلك لجلب بعض الحاجيات من دارنا هناك، وخصوصًا بعض الأشياء التي كانت تلزم لضرورات الحياة، وبحمولة الشخص الواحد الذي يسير على قدميه، فما بالنا إذا كان أكبر الإخوة في تلك الأثناء لم يتجاوز الثالثة عشر عامًا، كانت تلك الأفعال مغامرة خطرة، وكثير من أبناء بلدتنا قتلوا حينما كان يفاجئهم اليهود سواء وهم في طريق الذهاب أم في طريق العودة أو داخل شوارع البلدة حينما كانوا يحاولون الوصول إلى بيوتهم لإحضار بعض أشيائهم الخاصة منها مثلما فعل والدي وإخوتي، إلا أن هذا لم يمنع والدتي من أن تحسد إخوتي على حظهم في زيارة دارنا في (حماة)، كانت تقول عني وعلى مسمعي: مسكين هذا لم ير (حماة) منذ أن خرج منها لأول مرة. وربما كانت هذه هي طريقتها لإظهار حزنها لعدم تمكنها شخصيا أيضًا من العودة إلى (حماة)، وفي الحقيقة لم آخذ قول أمي في ذلك الوقت بنفس معنى تأثرها وحزنها على من يحرم من رؤية وطنه ومسقط رأسه إلى الأبد كما آخذه الآن.

وهكذا فقدنا استقرارنا وبقينا كذلك وانتقلنا من مستوى إلى مستوى كان بالتأكيد هو الأسوأ، ثم أي مستوى سيء هذا وصلنا إليه إذا كنا قد تحولنا إلى لاجئين في وطننا، لهذا مكثنا نمني النفس في كل لحظة وفي كل صبح ومساء بأننا سنعود إلى بلدتنا غدًا أو خلال عام أو كذلك وبقي هذا الإحساس يراودنا ولا يغيب عنا أبدًا، فما زال الفلسطينيون في (١٥ مايو) في كل عام يُحيون ذكرى النكبة، وكأنهم يجددون العهد والقسم، أن يظل العهد هو العهد، والقسم هو القسم، والعودة هي حق وتاريخ، والوطن ما زال ينتظر عودة الطيور المهاجرة، ولهذا لم يذُب الفلسطينيون كغيرهم بسهولة في أي مجتمع أقاموا بين ظهرانيه، ولهذا أيضًا ظلت أجيالنا اللاحقة بعد ذلك تشير إلى أصولها ومسقط رأس الآباء والأجداد سواء في (حماة) أو في غيرها.

كان لسوء أحوال أسرتنا وفقداننا لكل شيء قد أضاع هيبتنا أمام أنفسنا، ولا نظن أن أحدًا في هذه الدنيا يعرف معنى وقيمة الوطن أكثر من الفلسطيني، أو هكذا نظن.

بعد عام ١٩٤٨م مباشرة أصبحت أسرتنا غارقة وسط الفقر والحرمان، ولم نجد إلا أن نعيش في العراء تقريبًا عند حافة بلدة (الشيخ عجلين) الواقعة عند الأطراف النائية لمدينة (غَزّة) عند شاطئ البحر، كانت حياتنا في تلك المنطقة خليطًا من الشقاء والمعاناة اليومية، وكانت صراعًا حقيقيًا من أجل البقاء بالنسبة لأسس الحياة الضرورية، وكانت محاولاتنا المضنية التي لا خيار فيها لأحد مستمرة، لم يكن لنا خيار سوى الذهاب إلى البحر أو إلى الأراضي المحاذية له من أجل أن نحصل على قوتنا اليومي، أما بلدة (الشيخ عجلين) فقد كانت فقيرة نسبيًا، وكانت قرية تعتبر نائية ومعزولة عن مدينة (غَزّة)، بل كانت تعيش في شبه عزلة، في أيام البرد القارص كنا نشرب بعضًا من الشاي كل أسبوع تقريبًا أو حوالي ذلك، أذكر أن والدي كان يُعد الشاي على النار في إبريق قديم مصنوع من المعدن المطلي بالخزف المشوَّه من كثرة ما تعرض للنار، وكان من الأشياء القليلة أو مما تبقى لدينا من أدوات بيتنا في (حمامة)، كان والدي يضع إبريق الشاي على النار التي وقودها عيدان وأغصان الأشجار الصغيرة التي كان يشعلها أمام مدخل البيت، وكان يضع في الإبريق الماء والسكر والشاي مرة واحدة، وكان ينتظر حتى يغلي الخليط وتلك كانت علامة نضوجه، كنت أحصل على كوب صغير من الشاي، وكان للشاي وقع خاص وبهجة داخل الأسرة، وكان أمتع وألذ ما كنا نتناوله من مأكل أو شراب في تلك الأيام، بل كنا نستعمله كغموس بدل الطبخ، كنا نشرب الشاي إن وجد في أكواب كانت تصنعها أمي من بعض الزجاجات الفارغة المتعددة الألوان، والتي كنت والإخوة عشوائيًا نجدها أحيانًا مصادفة على شاطئ البحر والتي كانت تقذف بها الأمواج إلى اليابسة، وربما كانت من مخلفات السفن المختلفة التي كانت تجوب البحر، كانت أمي مثلاً تأتي بالقارورة

الزجاجية وتأتي بقطعة قديمة من أي قماش وكانت تبللها بقليل من الكيروسين وتلفها حول النصف السفلي للزجاجة المطروحة على جانبها على الأرض ثم تشعل فيها النار، وخلال ثوان قليلة كانت أمي بآلة حادة أو بحجر تضرب برفق النصف العلوي من الزجاجة فتنكسر وتنقسم إلى جزئين علوي وسفلي هذا إذا كان العمل ناجحًا، عادة ما كان ينكسر نصف الزجاجة العلوي وكان يدخل عامل الحظ ليقرر إن كانت العملية ناجحة أم لا، في أغلب الأحوال كانت تتكسر الزجاجة بطريقة غير منتظمة ولا تحصل أمي على شيء مفيد منها، وفي أحايين قليلة كانت توفق فتحصل على جزء متماثل من النصف السفلى للزجاجة الذي قد يصلح للاستعمال، إلا أن الأكواب إن توفرت بهذه الكيفية كانت بالطبع مختلفة الأحجام والارتفاعات، أما ألوانها فكانت ألوان الزجاجات الأصلية التي كسرت أو قطعت منها، كانت نسبة الحصول على شيء مفيد بهذه الكيفية من محاولات أمي تقدَّر بعشرة بالمائة وفي أحيان كثيرة كانت النسبة تساوي صفرًا، من عشرة زجاجات مثلاً كانت تعالجها أمي بالنار بكيفية ما سبق كانت تحصل أحيانًا على كوب واحد لاستعماله لشرب الشاي، وإن كانت موفقة كانت تحصل على اثنين، وفي أوقات كثيرة كان الكوب الذي تحصل عليه يُشرخ فور أن يصب فيه الشاي الساخن لأن نوع الزجاجة الأصلية التي استخلص منها لا يصلح للسوائل الساخنة، ولهذا كان الوالد كثيرًا ما يقوم برفع حرارة الأكواب، وذلك بتدفئتها قليلاً بواسطة تعريضها إلى بخار الشاي المغلي قبل الاستعمال، كنا نلتف حول الوالد ونجلس على الأرض الرملية، وكنا نبدأ بارتشاف كوب الشاي، وكنا ندفئ أيدينا بحرارته، وذلك بلمس السطح الخارجي للكوب إلى أن نشعر بالدفء، وبعد ذلك نأتي على شربه كله، فننعم بحلاوته ونشعر بقليل من الدفء داخل أجسادنا، كنا نملك حمارًا هزيلاً أصابه الإعياء من قلة الأكل ومن الإرهاق خلال هجرتنا من (حمامة) إلى (غَزّة) بسبب الأحمال الثقيلة وقلة التغذية،

وكنا نربط الحمار في وتد مثبت في الأرض أمام البيت، كان عندنا في تلك الأثناء بقرة، وكانت عزيزة علينا كثيرًا، وكانت أثمن ما نملك، وكانت مع الأمل فقط هي كل ما نملكه في الدنيا، فقد كانت لأكثر من سبب تنام معنا داخل ذلك السكن، كان الثلث الداخلي تقريبًا من البيت مخصصًا للبقرة والباقي للأسرة، لم نكن نملك أشياء كثيرة في تلك الأيام،م لأن أشياءنا بقيت في (حمامة) وأصبحت صعبة المنال، وأتذكر أنه كان لدينا لوح معدني صدئ من كثرة ما كان يتعرض كل يوم تقريبًا للنار، وكان مصنوعًا من الحديد الأسود وكان محدبًا، كان هذا اللوح يُستعمل لإعداد الخبز الذي كانت تقوم بصنعه والدتي على النار في الهواء الطلق، ولهذا كان هذا اللوح أو كما كنا نسميه بـ (الصاج) يُترك عادة في موقعه قرب مكان إشعال نار الخبيز أو الخبز، كان لدينا أيضًا حَلّة معدنية لإعداد الطبخ، وكان طبيخنا شيئًا متواضعًا وكانت أهم مكوناته هو الماء مضافًا إليه أيا من النباتات البرية التي كان الإنسان يلجأ إليها إذا لم يتوفر ما اعتاد عليه، أو بعض الحبوب الشائعة كالعدس، أذكر أننا كنا نفتقد إلى ملح الطعام في بعض المواسم لأننا كنا نستهلكه كثيرًا، وكان شيئًا عاديًا في الصباح أن نستعمله كغموس أساسي لنا مع الخبز، لقد كان شيئًا عاديًا أن نأخذ لقمة من الخبز ونضع فوقها حفنه من الملح ونبدأ الأكل، وكان هذا لذيذًا لأن في أغلب الأحيان لم يكن الخبز متوفرًا، وحتى الملح في تلك الأيام مرت علينا فترة لم نجده، وهنا أذكر للتاريخ بأننا كنا نُضيف قليلاً من ماء البحر المالح إلى حلة الطبخ وهي على النار عوضًا عن الملح الذي لم يتوفر في تلك الأثناء، كنا نقضي الساعات الطوال منتظرين حتى تخبز أمي في المساء لتجتمع الأسرة ونتناول الوجبة الرئيسية معًا، وكانت أمي كثيرًا ما تُخفي بعض أرغفة الخبز منّا نحن الصغار حتى لا يزيد استهلاكنا، كنا نملك أيضًا بعض الأغطية التي تستعمل للنوم وكنا ننام على حصير قديم، وكنا نملك أيضًا بعض الأدوات المنزلية البدائية البسيطة والقليلة، وكان لدينا ربما

جرة واحدة من الفخار وكذلك شيء متسع من الفخار لإعداد العجين فيه (لقّان)، وكان عندنا أيضًا إبريق مصنوع من الفخار للشرب، كان لوالدتي صندوق من الخشب القديم وكان عزيزًا عليها لأنها كانت تحفظ فيه أشياءها الشخصية، ولأنه كما عرفت كان أول ملكية لها عند الزواج، ولهذا فقد حملته على رأسها خلال ضنك الهروب من (حمامة) وأحضرته إلى (غزة).

الأشياء التي ذكرتها هنا هي كل ما كانت تملكه أسرتنا أو ما تبقى لنا من (حمامة) الوطن بعد أن كنا آمنين نملك ونحصل على ما نحتاجه من أسباب ووسائل الحياة والاستقرار، في تلك الفترة، كنّا في الصباح نصحو من النوم، وكانت تُزاح أغطية النوم البسيطة، ويُرفع الحصير ويوضع جانبًا، ويعمل على إخراج البقرة لتربط في وتد مثبت بالأرض خارج البيت في الهواء الطلق، كنا نأكل بقايا الخبز من إعداد اليوم السابق، وكنا نستمتع ببقايا الطبيخ البارد الموجود في قاع ماعون الطبخ، كان والدي شغوفًا لأن يعمل في مهنة الزراعة التي يجيدها ويعشقها، وكان يعرض نفسه على أهل المنطقة، وكان يسألهم عما إذا كان هناك فرصة، فعسى أن يحصل على عدة قروش في اليوم، إلا أنه كالعادة لم يوفّق في الحصول على هدفه، وذلك لعدم توفر العمل، ولأن ملكيات أهل المنطقة وأعمالهم كانت قليلة ومحدودة، وكانت أسرهم تكفي حاجتهم من الأيدي العاملة، وكانت المنطقة بصفة عامة شبه صحراوية ورملية كما هو مناخ (فلسطين) كلما اتجهنا جنوبًا جهة مصر وصحراء سيناء، في أحسن الأحوال كان والدي يعمل أحيانًا في مناطق أبعد قليلاً مقابل أن يحصل على الحطب الذي كان يلزمنا لإعداد الخبز والطبخ والتدفئة، وأيضًا في مقابل جمع بعض الأعشاب والنباتات من أرض من كان يعمل عندهم إن وجدت، وذلك لاستعمالها غذاء للبقرة والحمار، عدا ذلك كان والدي يقوم ببعض الأعمال حول البيت مثل الاعتناء بالبقرة والحمار وتقوية البيت.

كان يقع على والدتي عبء الأعمال المنزلية وخصوصًا ما كان لـه علاقـة بـالخبز والطـبخ ورتق الملابس الممزقة، أما أنا وبقية الإخوة فقد كان يذهب كل واحد منا إلى سـبيله، إلا أننا كنا نبقى في حدود المنطقة، لأن ما بعدها كانت كلها حقول شبه رملية وفقيرة، ولهذا كنا لا نبتعد كثيرًا، كان بعض الإخوة يذهبون إلى مسافات متباعـدة في الحقـول، وذلـك لجمع الأعشاب لغذاء البقرة والحمار، وبعضهم كان يتلقى أوامر الوالد ويذهب إلى جمـع الحطب اللازم لإعداد الخبز والطبخ، كنت كثيرًا ما أحاول بلا تكليف أن أقلِّـد مـا كـان يفعله الإخوة الكبار، لأن حياتنا أو المتاح من الحياة لنا كان في اتجاه واحد وهو البقاء على قيد الحياة وليس أكثر، لم أذكر أنه كان يُعتمد عليَّ في شيء في تلك الأيام، وربما لأني كنت ما زلت صغيرًا في نظر الوالدين، كنت أيضًا تراني مثل أخوتي على مسافة من بعضهم بين الحقول، وكنت التقط بعض النباتات البرّية التي تكون قريبة في تكوينها من الخضار التي تؤكل جافة مثل شيء كنا نسميه (حَبَلَّق)، كـان هـذا النبـات الصـغير يُثمـر قرونًـا مثـل البازلاء، وكنا نأكلها نيئة، وكنا نأكل الحماصيص البرية، وهـي نباتـات حامضـة وتؤكـل مطهية أيضًا، وكنا نأكل الجلبانة والحلبة وغيرهما من النباتات البرية، كان أكلي لمثـل هـذه الأشياء يسد رمقًا كبيرًا من حاجتي إلى الطعام، رغم أنني كنت أشعر بـالجوع الـدائم في تلك الأيام، وإلا لماذا أذهب وأبحث عن النباتات البرية حتى أتناولها،

كان الأطفال والنساء والكثيرون من الرجال أيضًا مـن أمثالنـا نحـن اللاجئـين في تلـك المنطقة إذا نظرت إليهم في فترة ما قبل الظهر أو في منتصف النهار، كنت تراهم منتشرين مثل قطيع الغنم أو الخراف أو مـا شـابه ذلـك، تـرى بعضـهم يجلـس القرفصـاء مـثلاً، وآخرين وقوفًا، وبعضهم منحنيين يستعملون أياديهم في التقاط بعض النباتات ويضعونها في أفواههم أولا بأول، صار هذا الحال بعد ذلك يأخذ صورة الوضـع الـدائم، وأصـبح الناس من أمثالنا يحاولون أن يستمروا وأن يقووا على أمور حيـاتهم، وراحـوا يحـاولون،

وكان أسهل الأشياء علينا كأسرة أن نتحول إلى البحر كما أسلفت، فلم يكن صعبًا أن يتجه الإخوة إلى الاحتكاك بأهل (الشيخ عجلين) الذين كان غالبيتهم يعملون بصيد السمك، ولا أدري إن كان ذلك بسبب الموقع أم لفقر الأراضي الزراعية هناك، وهكذا استفدنا من الاحتكاك بالصيادين وبدأنا نحصل على مصدر أساسي وهام من الغذاء، إلى أن ازداد اعتمادنا على أكل سمك السردين بصفة عامة كأهم مادة غذائية في تلك الأيام، كان التوجه إلى البحر كنزًا وكأننا نكتشفه أول مرة.

ولهذا توجه والدي نحو الاتصال بعمي الذي كان ما زال يملك مركبًا للصيد، وهو القارب الذي أتي به من (حمامة) عند الرحيل، والذي كان لا يزال يسكن قرب منطقة (الفرفارة) التي عشنا فيها أول مرة في (غَزّة) على شاطئ البحر، وهكذا أصبح والدي يعمل مع عمي في بعض الأيام، وأضحينا نحصل على بعض النقود القليلة التي كانت تعني الكثير في تلك الأيام، وأصبحنا أيضًا نحصل على السمك بصورة شبه دائمة ما دام البحر ليس هائجًا، كنت كثيرًا ما أذهب حول الصيادين في المنطقة خصوصًا حينما كانوا يخرجون من البحر عند الصباح، ويعملون على نزع أسماك السردين من الشباك، وكنت أحضر إلى البيت عدة سمكات في كل مرة، كنا نأكل سمك السردين بعد قليه أو شويه كغموس مع الخبز، وكنا نأكله بدلاً عن الخبز، وكنا نصنع الفسيخ المملح لنستعمله غموسًا في أيام أخرى خصوصًا في الشتاء، قال الجيل الذي عاش تلك الفترة من اللاجئين من أمثالنا إنه ما كان له أن يتغلب على معيشته لولا أن الله كان قد من عليه في تلك الأيام بصيد السمك الوفير، الذي لم يعهده بعد ذلك الناس لعشرات السنين.



١٢ - ٥ المغامرة.

ومرت الأيام متواترة ومتثاقلة وراحت تمضي ونحن بعيدين عن (حمامة) الوطن والكرامة والغنى، كنا نسعد كثيرًا في موسم صيد السردين، إلا أن هذا كان موسميًا وكان يمر على شكل أيام فقط وغير منتظمة، ولا يمكن أن تصبح حياة الأسرة معتمدة على الرهان أو على الحظ، فقد كان توفر سمك السردين لنقل كل شهر أو شهرين وليومين أو ثلاثة أو أسبوع فقط، لكن بعدها كان يعود الحال شحيحًا قطرة قطرة، بعد هذا صرنا نتعرض لقسوة الحياة أكثر فأكثر، وراح العوز والحرمان يؤلمان، وراح الفقر يعض من كل ناحية، وبدأنا مرحلة تقشف مفروضة علينا لا خيار لنا فيها، فقد بدأت الحياة تضيق بنا وتسوء أكثر فأكثر، وأصبح العيش شحيحًا ومات حمارنا الضعيف أصلاً، والذي كان وسيلتنا الوحيدة لقضاء الحاجيات من سوق (غَزّة) البعيد، أو لننقل عليه كيس الطحين أو نحمل عليه حزمة حطب ثقيلة من مكان بعيد نسبيًا، احتار والدي ماذا يفعل فقد أضحى هناك صعوبة أيضًا في توفير الغذاء ليس فقط للأسرة ولكن للبقرة أيضًا، وأصبح

بعض أصحاب الحقول في المنطقة يتـأففون مـن مرورنـا في حقـولهم لجلـب الغـذاء لهـا، وأصبحنا ضيوفًا ثقيلين على أهل المنطقة، لأننا كنا أيضًا نأكل خلسة من بعض مـا كـانوا يزرعون أو مما كانت تثمره بعض الأشجار القليلة الموجودة في تلك المنطقة.

سمعت والدي في ضحى بعض الأيام وكان جالسا على الأرض خارج ما كنا نسميه بيتًا، وكان متكأ قليلاً على بداية تلة الرمل التي نصب على سفحها البيت العتيد. سـمعته بيـنما كان يتداول الأمر مع أمي وهي واقفة أمامه، قال لها: "لا بد مـن شراء حمـار جديـد يـا امرأة". ردت عليه: "اذهب إلى سوق (غـزة)" ثـم أكملـت قائلـة: "يقولـون إن هنـا في (غَزّة) سوقًا أكبر من سوق مدينة (المجدل) التي نعرفها، وفيه من الحـامض إلى الحلـو". وهذا مثل دارج أو تعبير عن أن السوق يحتوي على كل ما نحتاجه من الأشـياء، وفعـلاً، ذهب والدي بعد ذلك في أحد الأيام مع أخي الذي كان يلي أخي الكبير، وأحضرا حمارًا قويًا لم أرى مثله عندنا قبلاً، وقال والدي إن ثمنه جنيهان ونصف، وكانت هـي كـل مـا وفرناه من هنا وهناك خصوصًا حينما عمل والـدي وبعـض الإخـوة بصـيد السـمك في الموسم الماضي، هذا بالإضافة إلى ثمن ما بعناه مـن أدوات نحاسـية، كـان قـد أحضرهـا الإخوة من دارنا حينما عادوا مرة إلى بلدتنا المحتلة في الأيـام الأولى لمغادرتهـا أول مـرة، رأيت أخي فرحًا بالحمار وكان يتدبر أمره ويعتني به وكأنـه هـو الـذي اشـتراه أو مالكـه الوحيد، وفي صباح أحد الأيام صحوت فلم أر للحمار أثرًا، وكذلك افتقدت أخي لعـدة أيام فلم أعد أرهُ أيضًا بيننا، عرفت بعد ذلك من أحاديث والدي مع أمـي وقلقهـما عـلى أخي، أن أخي هذا قد ذهب وأخذ الحمار محاولاً أن يعود إلى بلدتنا (حمامة) التي احتلهـا اليهود، وذلك لأجل أن يحضر بعض المؤن وبعض الحاجيات من دارنا في (حمامـة) التـي احتلها اليهود، كما علمت بعد ذلك أيضًا أن أخي كان صغيرًا بالنسبة إلى الرجال الـذين اعتادوا على مثل تلك المغامرة، فلم يتجاوز سنه حينها الثالثة عشر مـن العمـر، ولهـذا لم

يدعه الكبار يسير معهم، ربما خوفًا من اكتشاف أمرهم من قبل اليهود حينما يتخطون حدود قطاع (غَزّة) إلى المناطق المحتلة، ولهذا وكما علمنا أن المسكين بقي طريد الجماعة في تلك المغامرة، وظل يسير خلفهم وبقي يتبعهم من بعيد دون أن يشعروا به هو وحماره طيلة ليلة الذهاب إلى (حمامة)، إلى أن وصلوا جميعًا إلى (حمامة)، وأضحى وجوده بعد ذلك بينهم حقيقة وواقعًا لا يستطيعون إنكارهما، وتحول هذا بعد ذلك إلى إعجاب به من قبلهم.

اتفق جميع من كانوا في تلك المغامرة على نقطة تجمع لهم خارج البلدة يلتقون عندها بعد غروب شمس اليوم التالي بعد أن يذهب كل منهم إلى داره في (حمامة) ويتدبر أموره ويحضر ما يستطيع من متاع أسرته، وهكذا اتجه كل واحد إلى موقع داره فيها ومعه دابته، ما كاد أخي يقترب من إحدى مفارق طرق البلدة فإذا به يسمع من خلفه من ينادي عليه بلكنة عبرية، فما كان منه وقبل أن يرى أحدًا، إلا وترك الحمار وفر هاربًا إلى أحد أزقة البلدة، وبعد ذلك سمع عدة طلقات رصاص مزقت السكون، دخل أحد الدور، ورمى بنفسه في إحدى الغرف المملوءة بالتبن/القش، وعمل على دفن نفسه تحت التبن وهو يرتعد خوفًا، قال: كنت أشعر في تلك الأثناء أن اليهود سيأتون إلي في ذلك المكان ويطلقون عليّ الرصاص، ولهذا كنت أرتعد من الخوف وأنا تحت التبن، وربما شعرت بالموت مرات كثيرة في ذلك اليوم. قال أخي أيضًا، ابن الثالثة عشر عامًا في تلك الأيام: "وبينما أنا على ذلك الحال، وكنت أحاول أن أخرج رأسي من تحت التبن، لأجل أن أتعرف إن كان هناك خطرًا مباشرًا عليّ أم لا، في أثناء ذلك أحسستُ تحت جسدي بأن هناك كيسًا من القماش بحجم رغيف الخبز الكبير ولكن أكثر منه سمكا، وأحسست بداخل هذا الكيس أشياء حادة صلبة، انشغلت بهذا الكيس الذي بدأت أتحسسه بيداي خلال الظلام الدامس دون أن أراه، وقد أنساني هذا للحظات ما كنت فيه من رعب،

اعتدلت ورفعت رأسي من تحت التبن، وأظهرت الكيس خارج التبن وتحسسته فوجدته مغلقًا برباط، فككت الرباط وأحسست ما بداخله بيدي، فإذا بي أجد أن ما بالكيس هو ذخيرة من رصاص البنادق".

قال أخي: "في تلك اللحظات ازددت رعبًا أكثر، وخفت أن يأتي اليهود ويروا عندي هذه الأشياء، مرت علي ربما ساعة أو أكثر وأنا على هذا الحال في مكاني، وأضحى الوقت قرب مغيب الشمس، واختفت أصوات الرصاص التي كنت أسمعها من بعيد في مختلف الاتجاهات، واستُبدلت بأصوات حركة آليات ميكانيكية، وربما قد شعر اليهود في تلك المنطقة بوجود حركة غير عادية في البلدة، وربما قد قبضوا على من أتوا معي إلى هنا وحصلوا منهم على معلومات عن وجود غيرهم... كانت قد اختلطت عندي هواجس كثيرة عما حدث للآخرين ممن أتيت معهم، وصحوت على نفسي قليلاً وخطر ببالي الحمار، وربما سأعود إلى الأهل في (غَزّة) إن بقيت حيا خالي اليدين، وفاقدًا الحمار الذي يُعتبر أفضل ما حصلنا عليه في تلك الأيام، وفجأة لمعت فكره في رأسي، وقررت أن آخذ كيس الذخيرة معي، فهو ليس عبأ في حمله، وقد يكون له قيمة مادية أو أي شيء آخر، نسيت خوفي من اليهود ولم يخطر ببالي إمكانية مسائلة الجنود المصريين لي الذين يتمركزون في قطاع (غزة)، والذين قد يصادفونني عند الحدود إذا ما وصلت إليها في طريق العودة، فقد كانوا قساة على كل من يجدوا معه ذخيرة أو سلاحًا ناريًا من الفلسطينيين".

قال أخي: "لم أخرج في ذلك المساء من مخبأي، وأصبحتُ حائرًا إضافة إلى ما أنا فيه من خوف، وأمضيت يومين وحيدًا في ذلك الدار، إلا أنني لم أعد أقضي كل الوقت تحت التبن، بحثت عن الطعام في كل أنحاء الدار فلم أجد شيئًا، فأكلت أي شيء، ولم تكن هذه مشكلة قد تعرض حياتي للخطر، أكلت حبوب القمح اليابسة وشربت ما وجد من

بقايا مياه أمطار في بعض الأوعية المكشوفة، وفي اليوم الثالث أحسستُ أن حركة آليات اليهود قد خفت من منتصف البلدة، وقررت الخروج... في حوالي مغيب الشمس تقريبًا، تركتُ البلدة وأخذتُ معي كيس الرصاص، ووصلت بحذر إلى نقطة التجمع التي اتفق عليها من أتيت معهم فلم أجد أحدًا في البداية، اختفيت هناك بين بعض الأشجار وبينما كنت كذلك سمعتُ حديثًا خافتًا بين اثنين، وقد ساعدتني الرياح كثيرًا في تمييز لغته العربية، إلا أنه قد بدا لي بعيدًا، أطرقت السمع أكثر فشعرت بنبرة المتحدثين وعرفت أصواتهم، قلت بصوت مسموع، من هناك، أنا فلان، رد أحدهما علي وقال، أين أنت، واتجهت إلى المكان الذي كانوا يختفون عنده، وعلمتُ منهم أن بعضًا من الآخرين سيحضرون الليلة أيضًا إلى نفس المكان، والبعض الآخر عادوا في اتجاه (غَزّة) منذ اليوم الأول ومنذ أن اكتشف أمرنا من قبل اليهود ولم يعرف عنهم بعد ذلك شيئًا، وبالفعل حضر الباقون الذين كنا ننتظرهم، والكل قد فقد حماره الذي أحضره معه، والجميع لم يحضروا شيئًا من البلدة ذا قيمة، وذلك لعدم وجود الدابة التي يمكن أن تُحمل عليها الأشياء التي يمكن أن يأتوا بها من دورهم، تحركنا في اتجاه (غَزّة) بنفس الطريقة التي استعملناها في الحضور إلى (حمامة)، وتجنبنا الطرق الرئيسية وسرنا في الأماكن الوعرة بين الكثبان الرملية حتى لا يرانا اليهود كما فعل الأهل منذ عام تقريبًا حينما غادرنا (حمامة) أول مرة.

أثناء العودة شعر البعض أن معي شيئًا أخفيه عنهم، لأنني ربطت كيس الذخيرة على وسط جسمي وتحت ملابسي، اقترب مني أحدهم وبحركة فجائية حتى لا أقفز لأنني الأسرع في العدو لصغر سني، مد يده على ما كنت أخفيه وكان سهلاً عليه أن يعرف ما هو، لأنه بقي ممسكًا بثوبي إلى أن عرف ما معي، خاف الجميع مما كنت أحمله ووبخوني وخيروني إما أن أرمي الآن هذا الشيء أو أن أتركهم، قلت لهم سأرمي ذلك ولكنني

سأتأخر لأدفنه في مكان على جانب الطريق، وعسى أن أعود يومًا وأستفيد منه، وفعلاً، تأخرت وغبت عنهم في الخلف إلا أنني قد غيرت مكان إخفائه بأن علقته في رقبتي ولكن من الخلف، ولحقت بالمجموعة وقلت لهم إنني فعلت ما أمرتم به، ولاحظوا أن لا شيئًا على وسطي مما رأوه سابقًا، وقد ساعدت ظلمة الليل كثيرًا في إخفاء ما عندي، بعد ذلك شك بعض الرجال بأنني لا زلت بكيفية معينة أحمل معي كيس الرصاص، فقال أحدهم مناديًا علي من بعيد، "نود أن نفتشك يا فلان". رددت عليه فورًا بصوت عالي، وهددتهم بأنني سأصرخ وربما تسمعنا دوريات الإسرائيليين وحينها سيقتلونا جميعًا، كنتُ مستميتا في إيصال ما معي لوالدي لأننا كنا في حاجة أي شيء، وأنا أعلم أن والدي قد اشترى بما معه من النقود الحمار الذي افتقدته، قلت لمن نادى علي اتركني بحالي فماذا تريد مني، وعند هذا خاف الجميع وهدأوني عن بعد ورجوني بأن أخفت صوتي، وأكملنا المسير ولم يقترب مني أحد بعد ذلك".

قال أخي: "بعد أن دخلنا حدود (غَزّة) وبدأت خيوط الفجر تمزق عتمة الليل، اكتشفوا ما كان معي ولكن بعد فوات الأوان".

خلال فترة غياب أخي في تلك المهمة، قلق عليه الوالد كثيرًا وكذلك الوالدة وكلنا وقد أصبح أخي حزننا وحديثنا وانتظارنا، وكدنا أن نفقد الأمل في عودته، لأن الزمن الذي كان يحتاجه الناس للذهاب والعودة إلى (حمامة) هو يومين فقط، إلا أن أخي هذا كان قد تجاوز كثيرًا تلك المدة، عوضًا عن كونه صغير السن وخبراته محدودة، وقد زاد يأسنا حينما علم الوالد أن بعضًا ممن ذهبوا في تلك المهمة مع أخي قد عادوا بعد يومين وأخبروا عما حدث لهم حينما اكتشف اليهود وجودهم في البلدة مع الآخرين، واستسلم الوالدان حينها للقضاء والقدر، وذهبت وساوسهم في قلقهم على أخي بأنهم كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بما كان يقوله أخي الأصغر مني، الذي كان عمره ٣ سنوات في

ذلك الحين، كان الوالدان يسألونه هل سيعود أخيك فلان مع الحمار أم لا، أذكر بأنه كان يرد، سيعود أخي أما الحمار فسيأخذه رجل إلى بعيد، وكان يشيح بإحدى يديه عشوائيًا في اتجاه ما.

كانت عودة أخي بالنسبة للوالد مزيجًا من النصر والإحباط، ومزيجًا من الحزن والسرور، عاد أخي بسلامة الله وخسرنا الحمار الذي كنا قد فرحنا كثيرًا حينما اشتريناه، بعد عودة أخي بعدة أيام فطن والدي إلى كيس الرصاص الذي أحضره أخي معه، ورأيته وقد عرّض الرصاصات مباشرة لأشعة الشمس خارج البيت حيث وضعها على قطعة من الخيش لتفصلها عن الأرض، وقال، لأجل أن تظل صالحة، وهكذا قد أصبح عنده شيئًا يعرضه للبيع، وراح يُعلن لمعارفه لمن يريد الشراء، وفعلا استطاع أن يبيعها بحوالي جنهين على ما أعتقد، وبذلك عوض كثيرًا مما فقده من ثمن الحمار، إلا أننا لم نعد ثانية لشراء حمار آخر، هذا، وإن كثيرًا من الرجال قتلوا وهم يحاولون أن يحضروا أشياء ضرورية من بيوتهم في مدنهم وقراهم المحتلة بسبب ضيق الحال، وكانت (إسرائيل) تقتلهم وتدعي بأنهم مخربين، وتلك إحدى مآسي الشعب الفلسطيني التي لم يعرفها العالم.

١٢-٦ حافة الحياة.

بعد ذلك، يبدو أن والدي وإخوته من الأعمام وبعض أسر العمات، قد اتخذوا قرارًا بأن تسكن جميع أسرهم في منطقة واحدة، وفعلاً ما كان من الجميع إلا أن تجمعوا في منبسط أرضي على شكل هضبة كبيرة، كان يقع شمال بلدة (الشيخ عجلين) أيضًا ولا يبعد عن بيوتها سوى بضع مئات من الأمتار، وكان هذا المكان يرتفع عن سطح البحر بشكل

لافت للنظر، بعض الأعمام نصب خيمة لأسرته، عمي الذي كان يملك قاربًا للصيد صنع من قماش الأشرعة القديمة للمركب شيئًا للسكن لا هو بالخيمة ولا هو بشيء آخر إلا أنه شيئًا يستظل به، والدي نقل تقريبًا بيتنا المكون من أغصان الأشجار، وأكمل عليها ما لزم وغطى هذا أيضًا بقطع بيت الشعر الذي استعملناه بطرق مختلفة أكثر من مرة منذ أن اشترياه، الآخرون من الأعمام والأقارب الذين سكنوا معنا كل تدبر أمره بكيفية أو بأخرى وصنع له شيئًا متواضعًا على نمط معيّن لكي يأويه وأسرته، تستطيع أن تقول بأن منظر بيوتنا كان مثل بيوت القبائل البدائية التي تعيش في أطراف وحواف الدول والمناطق النائية مثل سكان استراليا الأصليين أو ما تبقى من الهنود الحمر في شمال أمريكا وما شابه هؤلاء، ذلك بعد أن كان لنا بلد وبيوت وأملاك، كانت المنطقة التي أقمنا عليها سكننا قاحلة وليس فيها شجر وليس فيها عشب، بل كانت ملأى بالحصا الصغيرة، وكان يفصلنا عن مزارع العنب ذات التربة الصالحة نوعًا ما أسوار قديمة من الأسلاك الشائكة، وهكذا أصبحنا وكأننا داخل سور ما عدا الجهة المواجهة لشاطئ البحر، وظل البحر أيضًا هو مصدر رزقنا الوحيد في تلك الفترة ذلك بعد أن تنبه أصحاب المزارع في المنطقة كيف يحافظون على مزارعهم منا.

أضحت الحياة صعبة أكثر، وأصبح الحصول على ضرورات الحياة مضنيًا، بعض الإخوة الكبار كان يذهب بعيدًا والى أماكن لم أرها ولم أعرفها من قبل، وذلك لأجل جمع الحطب أو إحضار غذاء للبقرة، إلا أن أصحاب المزارع أيضًا الآخرين في تلك المناطق البعيدة كانوا قد تنبهوا مثل أصحاب الأملاك في منطقتنا، وأضحت إقامتنا في ذلك المكان صعبة، وأضحينا على مشارف مرحلة أخرى مختلفة من الشقاء وشظف العيش وسوء الطالع، حتى إن كل شيء أضحى له ثمن في (غَزّة)، وأضحينا على مشارف ألا نملك شيئًا نستطيع به شراء شيء، لقد سمعت امرأة في تلك الأيام تقول لأمي متسائلة،

انظري يا أختي حتى البندورة تباع في (غزة)، وكانت تقصد الطماطم لأن أهل قرى منطقة (حمامة) بصفة عامة، قبل عام ١٩٤٨م كانوا لا يشترون الطماطم من بعضهم البعض بل كانوا يزرعونها في حقولهم على قدر استهلاكهم، خصوصًا أهل الريف منهم، أما إذا كانت الزراعة بغرض البيع فقد كانت تباع بالصناديق أو بسعات أخرى في المدن وذاك أمر آخر، أما سكان القرية ممن ليس عندهم بضع شتلات طماطم للاستهلاك الخاص لأن محاصيلهم الزراعية من أشياء غير الطماطم مثلاً فقد كانوا يحصلون على الطماطم لاستهلاكهم الخاص من حقول الأقارب أو الجيران أو الأصدقاء، كنا قبل النزوح من بلدتنا (حمامة) في عام ١٩٤٨م إذا كان والدي أو أمثاله في زيارة مثلاً لأحد حقول الأقارب أو الأصدقاء، يعطي ذلك القريب لوالدي كمية من الطماطم أو الخضار الأخرى أو الفاكهة مما تنتج أرضه، وكان يقول مثلاً، خذ هذه يا أبو (فلان) للأولاد، وهي عبارة كانت تقال للمجاملة لتكون أقل إحراجًا بدلاً من القول خذ هذه لك، وإذا كان التكليف بينهما مرفوعًا، كان يقول الصديق لوالدي مثلاً قبل أن تغادرنا عليك أن تدخل الحقل وتأخذ شيئًا من الموجود، وموضوع الحديث عن والدي ليس حالة استثنائية إنما كان هذا هو السلوك الاجتماعي والإنساني الشائع بين الناس، هذا، وأذكر في تلك الأيام عند بلدة (الشيخ عجلين) أن كل ما كنت أستطيعه من هوايات متوفرة هو الاستحمام في البحر، إلا أن تلك الهواية كانت تكلفني كثيرًا، لأن الاستحمام في البحر والجهد الجسماني الذي كان يصاحب ذلك من سباحة وغيره خصوصًا عند الأطفال من أمثالي الذين على استعداد إذا كانت ظروف أهلهم المادية حسنة أن يتناولوا الطعام ما داموا يتحركون، أما أنا وأمثالي من أبنا اللاجئين فقد كنا نقضي أغلب اليوم جائعين، وأما أنا أيضًا فقد كنت أسعد فقط بالوجبة الرئيسية عند المساء التي كانت تعدها أمي، خصوصًا بعد إعداد الخبز وطبخ بعضًا من الأعشاب التي كانوا يقولون عنها خضارًا أو

بعضًا من العدس أو الفول الجاف، لهذا أضحى الوضع في ذلك المكان بالنسبة لأسرتنا ولغيرنا لا يطاق، وأصاب الملل جميعنا وبدأت كل أسرة تفكر جديًا في التصرف بدون خيار والهروب من هذا الكابوس الذي يجثم على الصدور، في تلك الأثناء رأيت بعضًا من أسر أقاربنا يزيلون بيوتهم ويحملون أمتعتهم القليلة ويرحلون للسكن في مناطق أخرى من قطاع غزة، وذلك على أمل أن يكون الحال في تلك المناطق أفضل مما هو عليه في المنطقة التي كنا نقيم فيها، رأيت الدموع في أعين الكبار من النساء وحتى بعض الرجال من أقاربنا خصوصًا وقت الرحيل والوداع، وكأنهم لن يتقابلوا معنًا ثانية وربما كان هؤلاء يبكون حزنًا لأننا نعيش في منعطف تاريخي من حياتنا سماؤه ملبد بغيوم الأيام الكئيبة التي لن تسلم منها الأجيال اللاحقة، لم أدر في تلك الأثناء أيضًا أن تلك الدموع لتي كانت في عيون هؤلاء البشر البسطاء كانت بسبب ضيق سبل العيش التي تمنعنا من البقاء في منطقة واحدة ريثما تأتي الظروف بحل منصف لأبشع ما حل بنا، كان كلما رحلت أسرة من أقاربنا من منطقتنا تستعد الأسر الأخرى للرحيل، وكأن ذلك أضحى تقليدًا أو شيئًا متفقًا عليه أو أمرًا طبيعيًا، فترى الأسر الأخرى مثلاً تنتظر لحظة رحيل تلك الأسرة ثم يبدأ الوداع المحزن ثانية ويبدأ البكاء، وكنا نحن الأطفال نبكي حينما يبكي الكبار.

أذكر حينما همَّت أسرة إحدى عماتي بالرحيل، كان ذلك مؤلما جدًا لي، فقد كان لتلك العمة ابن ربما كان يكبرني بسنة واحدة من العمر، إلا أنه كان مع ابن عم آخر لي بمثابة صديقيّ الطفولة في تلك الفترة، كان رحيل تلك الأسرة قاسيًا على نفسي فقد وضعتْ أشياءها على ظهر الجمل الذي كانت تملكه ومضت في سبيلها، ووجدت نفسي أسير خلفها وكأنني لا أود أن تتركنا هذه الأسرة أو أنني أود أن أبقى معها أو حتى إن أذهب معها، ويومها لم يرني أحد من أهلي وابتعدت عن أماكن السكن سائرًا خلف أسرة

عمّتي، لم تجد تلك الأسرة بدًا من التوقف وراحت تساومني تارة بالتحايل وأخرى بالترهيب وأنهم سيعودون بي إلى أبي الذي قد يعاقبني على ما أفعل، ولكنني أغلقت أذناي فقد، بقي في مخيلتي بأنني سأفقد صديقي لو تخليت عن المتابعة، أخيرًا جاء ابن عمتي عن كره أو أرضاء لوالديه وهزني قائلاً عد إلى أهلك لا تسر خلفنا، حزنت مما سمعت وتوقفت في مكاني إلى أن غابت الأسرة عن الأنظار ولم أدر ماذا أفعل، وعدت، وكأنه قد كتب على الفلسطيني منذ عام ١٩٤٨م ألا يعيش العمر في مكان واحد.



١٢-٧ الخيمة بيتنا.

بعد ذلك لا أدري كيف، وربما بترتيب مسبق، جاء دورنا للرحيل أيضًا، وفعلاً أخذَنَا والدي إلى منطقة يقال لها (معسكر الشوا)، وربما لأن تلك الأراضي الرملية كانت تملكها

أسرة (الشوا) الشهيرة في (غزة)، كانت تلك المنطقة تقع بالتحديد شمالي المركز الرئيسي للشرطة (السرايا) في مدينة (غزة)، هناك تسلم والدي من وكالة الغوث الدولية خيمة واحدة كنا نطلق عليها في تلك الأثناء (خيمة الجرس) لأنها هرمية دائرية على شكل مخروط أو بهيئة الجرس النحاسي اليدوي، لأن العمود الخشبي في وسط الخيمة كان يتدلى بشكل لسان الجرس، أما الخيمة فقد كانت مصنوعة من القماش أوالمشمّع الخاص، وكانت دائرية وفي وسطها عمود من الخشب الزان المتين، وكانت حينما تنصب تثبت فوق الرمال بواسطة عدة أوتاد تربط بالحبال وتدق في الأرض حولها، في تلك الأثناء رأيت سيارة نقل كبيرة، كانت تقذف بالخيام على الأرض، وكان يقول رجل كان يسير على قدميه مصاحبا لتلك السيارة لكل رب أسرة يعطيه خيمة، كان يقول انصبها هنا وكان يشير بيده إلى منطقه قريبة من المكان على الرمال، رأيت الناس في جميع الاتجاهات وكأنهم جيشًا حديثًا وصل توًا إلى منطقة جديدة، وراح يبدأ الحياة من جديد، فقد كان الناس كلهم يتسابقون في نصب خيامهم، كان توزيع الخيام منظمًا وكان أهالي كل مدينة أو قرية من اللاجئين من أمثالنا يوضعون في منطقة واحدة، وكان يفصلهم عن غيرهم من خيام القرى والمدن الأخرى من اللاجئين مسافة مائة متر تقريبًا وأحيانًا أقل من ذلك، وكانت المنطقة التي نصبت فيها الخيام على شكل مربع أو مستطيل من الأرض ومع الوقت وازدياد عدد المقيمين هناك توسعت في كل الاتجاهات.



وهكذا أضحى لكل أسرة خيمة في تلك المنطقة، وكانت هناك أيضًا بعض الخيام الكبيرة جدًا وكانت تسمى الصوان، وكان يوضع عادة فيها ربما أربع أسر أو أكثر، وكان هذا النوع من الخيام مزود بقواطع داخلية من نفس القماش تقريبًا، وذلك للفصل بين الأسر، كان الطقس في تلك الأيام صيفًا، وكانت الرمال ساخنة في أغلب ساعات اليوم، وكانت توجد حنفية ماء/صنبور للشرب في كل منطقة قامت بإعدادها هيئة الإغاثة الدولية، كان هناك مراحيض/دورات مياه مصنوعة من الصاج، وكانت عبارة عن ساتر له باب وكرسي حمام إسمنتي بسيط موضوع على حفرة في الأرض، كان عمال وكالة غوث اللاجئين يصنعون تلك المراحيض، وكانت تلك المراحيض توضع على مسافات متساوية من بعضها في الهواء الطلق كما هي الخيام، وذلك في شكل صف بمسافة تفصل ربما خمسون مترًا أو أكثر بين كل حمّام/مرحاض وآخر، وكانت بترتيب مرحاض للنساء وآخر للرجال وهكذا، وكان يكتب للتمييز بين المراحيض بالخطوط الكبيرة البيضاء على جوانبها الخارجية كلمات "للنساء" أو "للرجال".

أضحت الخيمة بيتنا الجديد، وكما إن الإنسان يحب التملك بطبعه، فهو ميال للاستقلال بسبب غريزة حب البقاء وأنانيته الطبيعية، ولهذا فقد راح الناس من أمثالنا يصنعون خصوصية لكل أسرة، فهذا يعمل حدودًا حول خيمته، وهذا يصنع من الرمل الأبيض الذي لا يوجد غيره هناك رواقًا وحافة وواجهة حول وأمام باب الخيمة، وكأنه كان يصنع سورًا كحدود لملكية خاصة، كان آخرون يزرعون بعضًا من ألواح الصبار الشوكية لأنها تستطيع النمو في الرمال أو لأنها نباتات صحراوية، البعض الآخر من الناس كان يذهب إلى غابة لم تكن بعيدة عنا، وكان يحضر بعضًا من أغصان الشجر الغليظة، وكان يصنع منها عريشًا أمام الخيمة، وذلك لاتقاء حرارة الشمس لأن الخيمة كانت لا تطاق في ذلك الفصل الحار من السنة، كان الصيف بصفة عامة أرحم من الشتاء، لأن الحياة

فيه أسهل وأوسع كما يقال، ولأن مناخ (فلسطين) بصفة عامة معتدل نوعًا ما فقد كان الصيف رحيمًا خصوصًا إذا ما وجد الإنسان ظلاً ينام أو يجلس تحته، في الشتاء كثيرًا ما كنت أصحو في أي وقت من الليل على صراخ النساء وبكاء الأطفال خصوصًا الناس الذين كانت تعصف رياح الشتاء الشديدة بخيامهم فتزيلها من أماكنها أو تمزقها، ويصبحون بلا مأوى، كان صراخ الأطفال والنساء في حد ذاته نداء لطلب المساعدة فيهرع الرجال والقادرين من الخيام الأخرى إلى أسرة الخيمة المنكوبة لكي يقدموا شيئًا من المساعدة، كان البعض منهم يسند عامود الخيمة والآخرون يُعيدون تثبيت الأوتاد بالأرض.

أضحت حياتنا نحن اللاجئين في تلك الفترة بدائية جدًا بعد أن أضحينا لا نملك إلا أقل القليل من ضرورات العيش، وصارت الأحوال تسوء بعد أن نفذ أو كاد كل شيء تقريبًا أحضره الناس من مدنهم أو قراهم الأصلية التي استولى عليها اليهود، وحتى إن الغالبية قد باعوا ما كان عندهم من أدوات قليلة وحيوانات أليفة كانوا قد أحضروها معهم، في تلك الفترة بين عشرات الألآف من اللاجئين الذين سكنوا تلك المنطقة التي كانت خالية قبلاً، لم أر أحدًا يمارس عملاً ولم أر الأعمال، لأن كل ما كان يملكه الناس في تلك الأثناء هو الخيمة التي كانت تبلى مع مرور الأيام، والتي بعد عام أو كذلك أضحى الناس يُضيفون أشياء عليها، وبدأ يتغير شكلها الخارجي أو منظرها من بعيد بعد أن أصابها التلف بسبب العوامل الجوية، كان البعض مثلاً يقوم بسد الثقوب التي تحدث بالخيمة بالقيام بوضع رقع من القماش وأي قماش، وآخرين باستعمال بعضًا من المواد كالقار أو الإسفلت لسد الثقوب، وكان البعض أيضًا يقوم بصنع شيء ما على شكل كوخ للسكن من أغصان الشجر ومن النباتات البرية، وكان يغطي هذا أو بعضه بما تبقى صالحًا من أجزاء خيمته القديمة وهكذا فعل والدي، كنت أسمعه يفتخر بما فعل وكان

الناس يحسدونه على ذلك البيت المتين الذي كان يوحي لمن يراه بأنه ثقيل الوزن ولن تؤثر فيه الرياح.

في أحد الأيام صحوت من النوم على أصوات جلبة غير عادية، وسمعت الناس يثيرون ضجة مستمرة في الليل وكان ذلك عام ١٩٥١م، كان الرجال والنساء في تلك الليلة منهمكين في هز قماش خيامهم أو بالضرب عليها بأيديهم على السطوح الداخلية لخيامهم ومن جميع الجهات، وذلك لإزاحة الثلج الذي كان قد تساقط في تلك الليلة على (فلسطين)، في الصباح حينما خرجت من الخيمة رأيت أكوامًا من الثلوج وكانت الأرض كلها مغطاة بالثلج، وكان الطقس قارصا من البرد الشديد، عند الضحى في نفس اليوم راح الثلج يذوب، وفي المساء كان الثلج قد زال عن (غَزّة) ولم أعد أرى شيئًا منه.
كان عيشنا هو الاعتماد على ما كانت توزعه هيئة الإغاثة الدولية من الغذاء البسيط والكساء القليلين، ولكنهما كانا المصدرين الهامين لبقائنا على قيد الحياة، كان والدي أحيانًا يجد الفرصة، فيذهب ليعمل مع عمي في صيد السمك، وأحد الإخوة راح يستفيد ويحصل على قروش قليلة من بيع أكياس الورق التي كان يصنعها من أكياس الإسمنت الفارغة، كان الوالد يأخذ معه بعض الإخوة ويذهب بعيدًا عن محيط معسكر الخيام، وكان يستغل خبرته في الزراعة وكيفية التعامل مع الأرض، وكان يحضر كميات من الحطب من جذور الأشجار الميتة للاستعمال الخاص، وكان أيضًا يحضر كميات من قطع الحديد الخردة خلال بحثه عن الحطب تحت الأرض خصوصًا قطع أجزاء القنابل من بقايا أثار الحرب العالمية الأولى، وكان أيضًا يحضر معه بعض قطع النحاس، وكذلك الرصاص، ولكن هذه كانت بكميات قليلة إذا ما قورنت بكميات الحديد، كنا نبيع الحديد حسب ما أذكر في تلك الفترة كل ثلاث كيلوجرامات بقرش (فلسطين) ي واحد.

في تلك الأيام وضعت أمي بنتا وفرحنا بها كثيرًا، لأن كل من بقوا أحياء من خلف الوالد كانوا ذكورا، ولهذا فرحت أمي كثيرًا بالابنة الجديدة، إلا أن هذه الطفلة أيضًا توفاها الله وعمرها أقل من سنة، وقد حزنتُ عليها كثيرًا فقد كانت مريضة والرعاية الصحية كانت عندنا شبه معدومة في تلك الأيام، رأيتها وكانت الديدان تخرج من فمها باستمرار تقريبًا، وكنت أرى الديدان بعيناي فقد كانت المسكينة كالكبار تفتح فمها فتفهم أمي بأن دودة (الحنشأن) كما كنا نسميها قد أضحت في فمها بعد أن صعدت ربما من معدتها وتخطت حلقها إلى منطقة اللسان، كانت أمي تمد أصابعها في فم أختي، وكانت تلتقط الدودة التي كان طولها عادة حوالي ثلاث بوصات، وكانت تخرجها من فمها وكانت تلقي بها على الرمل، كنت أرى أمي تفعل ذلك حتى حينما كانت تغط في نومها العميق، كانت أمي تصحو ليلاً من نومها على صراخ أختي بينما يصدر من فمها حركات تدل على أن هناك ما يضايقها فتعمل على إخراج الدودة من فمها، كانت توجد في المنطقة عيادة واحدة وكانت بعيدة وكانت لعلاج الأشياء الخارجية والسطحية مثل الجروح أو الأوبئة الجلدية التي كانت منتشرة بين الناس بسبب انعدام النظافة العامة،

مرت الأيام ومضينا إلى سنة ١٩٥٢م وبدأت أتفهم الأمور أكثر في معسكر الخيام أو (معسكر الشوا) كما كان الناس يطلقون عليه، وقد أصبح عمري ثمان سنوات، وراحت نظرتي للأمور تتغير وتختلف عنها حينما كنا نعيش في منطقة (الشيخ عجلين)، ولأن الإنسان هو ابن بيئته فقد رحت أيضًا أقلد بعض ما كان يفعله الإخوة ولكن بدون الابتعاد كثيرًا عن منطقة خيمتنا، كنت مثلاً أخرج إلى أطراف الغابة في تلك المنطقة، وكنت أحبذ ذلك خلال الأيام التي تهب فيها الرياح الشديدة التي تحرك الرمال، كنت أغتنم هذا فألتقط وأجمع قطع الحديد الصغيرة والمتوسطة التي تكشف عنها الرياح تحت الرمال، وكنت أملأ بها جيوبي قبل عودتي إلى الخيمة، كنت أيضًا أجمع كرات الرصاص

من بقايا القنابل المتفجرة، وكذلك بعض العملات القديمة جدًا المصنوعة من النحاس، وكان ما أجمعه قليلاً نسبيًا، وكان ما أستطيع أن أحصل عليه من النقود من جراء بيع هذه الأشياء ربما قرش أو نصف قرش كل شهر مثلاً، كنت أستمتع بمشاهدة الشبان الكبار الذين كانو يمارسون بعض الهوايات التي تحتوى على نوع من الجري، وكنت أميل لأتسلى بمشاهدة الطائرات الورقية المربوطة بخيوط، كان الصبية يتبارون في صنع طائرات من هذا النوع، بدأت أمارس تلك الهواية مع أقراني ممن هم في حدود سني، وأضحيت أبحث عن الخيوط في أي مكان، وحتى القطع الصغيرة من خيوط القماش التي تكون في حدود ثلاثين أو أربعين سنتيمترا، فقد كنت أقوم بربطها مع بعضها البعض، وكنت أكوّن منها خيطًا طويلاً يمكن استعماله في ربط الطائرة الورقية، التي كان يصنعها لي بعض الإخوة من الورق البسبط، سمعت مرة أمي ترد على أحد الإخوة الكبار خصوصًا حينما انتقدني قائلاً، انظري ماذا يفعل ابنك هذا طيلة اليوم، وكأنه يلومني وأنا أمارس هوايتي المفضلة في تطيير طائرة ورقية بسيطة قرب خيمتنا، أذكر بأن والدتي قد ردت عليه بصوت منخفض ولكنني سمعتها، قالت موجه كلامها لأخي الذي كان ينتقد طريقتي في اللهو، قالت: "اتركه يا بني لكي يلعب، ودعه يلهو، فعلى الأقل هو يحصل على شيء الآن، وكفاه الجوع الذي يتضوره طيلة اليوم". ويومها فرحت كثيرًا بما قالت أمي، وشعرت كأنني قد انتصرت على أخي، ولهذا لم أتوقف عن ممارسة هوايتي على الأقل، ولم أدر حينها أن أمي كانت تحزن على حالنا الذي هو حالها أيضًا، وأن أعمق الأحزان هو أن يحزن الإنسان على نفسه أو على أفراد أسرته الذين لا يستطيع إسعادهم، في تلك الأيام وصلنا وأمثالنا إلى ذلك المستوى من الإذلال والمهانة وتحطيم الكرامة والهيبة.



١٢-٨ أصبحت تلميذًا.

في أحد الأيام سنة ١٩٥١م كنت كالعادة أقوم بجمع الحطب لوالدتي من أزقة مدينة (غزة)، وذلك لكي تستعمله في إعداد الخبز بواسطة فرن بدائي بنته من الطين أمام الخيمة، كان نوع الحطب الذي يلزم لذلك هو من نوع الحطب الخفيف الذي يشتعل بسرعة وينتهي بسرعة، وربما كانت أمي تستعمل هذا النوع من الحطب لعدم توفر شيئًا أفضل منه، لهذا كانت تغريني وتلح عليَّ بأن آخذ كيسًا صغيرًا/زنبيل لجمع الورق وقطع الكرتون الصغيرة وسيقان نباتات الملوخية بعد قطف أوراقها الخضراء التي كانت تُلقي بها ربات البيوت في أزقة مدينة (غَزّة) على أبواب دورهن، أو أن آتي بأي شيء يصلح لإشعال النار مثل قشر البرتقال الجاف وما شابه ومهما كانت الكمية قليلة، وصلتُ في ذلك اليوم لا أدري كيف بينما أنا أبحث عن الحطب إلى (حارة الزيتون) التي تقع في الجنوب الشرقي لمدينة (غزة)، حاولت هناك أن أجد شيئًا من الحطب ولكنني أيضًا لم أوفق، فتوغلتُ أكثر في تلك الحارة وربما أن عدم توفيقي في إيجاد ضالتي من الحطب في

ذلك اليوم أيضًا هو ما أنساني وجعلني وأنا لا أدري أصل إلى ذلك المكان البعيد نسبيًا الذي لم أصله من قبل، في أحد شوارع (حارة الزيتون) رأيت أطفالاً في مثل سني كانوا يدخلون من باب كبير واسع، كان يقع ضمن سور مبني من حجارة صخرية جميلة، عندما اقتربت من ذلك الباب شاهدت ساحة كبيرة في الداخل لم أر مثلها من قبل، ورأيت صبيانًا وأطفالاً من مختلف الأعمار يتحركون في تلك الساحة، دخلت البوابة متوجسًا وحذرًا، وكنت لا زلت أحمل كيس الحطب الفارغ، قمت بطي الكيس الصغير ووضعته تحت إبطي لأنني لم أشاهد أحدًا من الأولاد الذين كانوا هناك معه شيئًا مثله، بعد ذلك سمعت صوت جرس يقرع، وعلى أثر ذلك شاهدت الأولاد يركضون ويذهبون في اتجاهات مختلفة، راحوا يدخلون غرفًا منشأة في صف واحد، وكانت من بعيد متشابهه في كل شيء تقريبًا، بقيت مجموعة من الأولاد ممن هم في مثل سني، وكانوا حوالي خمسين طفلاً أو أكثر قليلاً، توجهت نحوهم متفحصًا الأمر، كان يقودني فضولي وأنا لا أدري ماذا أفعل،

وقفت بجانب الأولاد ولم أتحدث مع أحد منهم لأني لا أعرفهم، كانت ملابس أغلبهم نظيفة وأنيقة ومرتبة إلى حد ما، ولا أذكر أن أحدًا منهم كان حافي القدمين مثلي، لم يمض وقت طويل على هذا الحال، حتى جاء رجل كان يلبس بنطالاً وقميصًا وكان يبدو مسئولاً، وأشار للجميع بأن يدخلوا في إحدى الغرف، وفعلا اتجه الأطفال إلى باب تلك الغرفة، أما أنا، فقد بقيت متخاذلاً ولم أتحرك من مكاني، بل إنني بدلاً من الاستعداد مثل الآخرين للتوجه معهم استدرت في الاتجاه المؤدي إلى البوابة الخارجية التي دخلت منها، وفعلاً بدأت التحرك نحوها، لم أكد أحرك قدماي وربما بخطوتين أو ثلاثة، وإذا بالرجل الذي أشار للجميع بالدخول إلى الغرفة يقول مناديا علي: "إلى أين أنت ذاهب يا ولد؟"، وأكمل قائلا، "الغرفة من هنا وليست هناك"، وألحقها بجملة توبيخية أخرى ونهرني،

وقال بعنف وبصوت أعلى في هذه المرة موجها كلامه لي أيضًا: "تحرك يا ولد، تحرك"، فور سماعي لما قال، نظرت بسرعة تجاهه ثم نظرت في اتجاه البوابة الخارجية أيضًا، وشعرت وقتها بالإحباط، وذلك لإحساسي ببعد البوابة الخارجية، ولإحساسي بالعجز لعدم استطاعتي الجري والهرب، ظننت حينها بأنني لو جريت فإنني لن أبتعد كثيرًا عن المكان الذي كنت أقف فيه قبل أن يقبض عليّ ذلك الرجل الشاب الواسع الخطوات لو جرى خلفي، ما كان مني والأمر كذلك إلا أن أخفيت نفسي عنه خلف الصبية الآخرين، وسعيت أن أدفن نفسي بين جمعهم خوفًا منه وحتى لا يراني، مضيت معهم ودخلنا جميعًا غرفة بسيطة شبه مظلمة، وكانت مبنية من غير المواد التي بنيت منها الغرف الأخرى وكانت بلا نافذة، جلسنا جميعًا على أرض الغرفة، وعند الباب الذي كان مصدر الضوء الوحيد لتلك الغرفة، والذي كان لا يتسع إلا لشخص بالغ واحد تقريبًا، وضع الرجل الذي أدخلنا إلى المكان مقعدًا خشبيا وجلس عليه، وقال لنا آمرًا: "ممنوع الهمس".

جلسنا في ذلك المكان ربما لساعتين، وتردد على الرجل الجالس على الكرسي عدة مرات رجل آخر أكبر منه سنًا، وكان في كل مرة يطلعه على بعض الأوراق المكتوبة، وكان يتحدث معه بعدة جمل، وأحيانًا كان يأخذ توقيعه على بعض الأوراق التي كان يُحضرها إليه، فهمت في تلك الأثناء بأنني في مدرسة، وأن هذه المدرسة تعمل على فترتين، الأولى صباحية لأبناء مدينة (غَزّة) من المواطنين، والثانية مسائية تبدأ بعد الظهر لأبناء اللاجئين من أمثالي، وفهمت أيضًا بأنني كنت أجلس مع أطفال كانوا سيسجلون لأول مرة في مدرسة (الزيتون الابتدائية) للفصل الدراسي ١٩٥١/ ١٩٥٢م، وأن من كان يجلس على الكرسي، كان هو الأستاذ المناوب في ذلك اليوم.

في نهاية اليوم المدرسي جاء نفس الرجل الذي كان يحضر الأوراق للأستاذ المناوب، وعرفت بعد ذلك أنه ساعي المدرسة، أحضر ساعي المدرسة بعد ذلك دفاتر وأقلام رصاص عليها شعار هيئة (الأمم المتحدة)، ومررنا على الأستاذ المناوب وأحدًا تلو الآخر، وسجل أسماءنا على ورقة، وأعطى كل واحد منا دفترًا وقلمًا، وأعلمنا بأن نحضر كل يوم ظهرًا إلى المدرسة ما عدا أيام الجمع.

خرجت من باب المدرسة وكانت الشمس تقترب من المغيب، وعدت قافلاً في الطريق إلى معسكر الخِيام أو أين كنا نعيش، كانت الأفكار تتجاذبني في تلك الأثناء فقد حدث شيئًا في حياتي لم أعهده من قبل، واختلطت الأمور في داخلي، صحوت بعد ذلك خلال عودتي على أن لدي مشكلة، وهي أنني في ذلك اليوم لم أحضر لأمي شيئًا من الحطب، فأنا عائد الآن وكيس الحطب فارغ، إلا أنني في طريق العودة إلى الخيمة وجدت نفسي غير مهتم أيضًا بالبحث عن الحطب، فقد كنت بإحدى يداي أمسك وأضع على صدري بحرص وعناية دفترًا وقلمًا، ولا أود لها أن تتسخ أو تتضرر، وأبقيت اليد الأخرى ممسكة بالكيس، وكان الوقت أيضًا متأخرًا في البحث عن الحطب، وصلتُ إلى الخيمة بعد مغيب الشمس بقليل، فقد كانت المسافة بعيدة من المدرسة إلى المعسكر وتقدر بليس أقل من كيلومترين، وصلت إلى خيمتنا وجلست بين الأسرة وقصصت ما حدث معي في ذلك اليوم وأطلعت الجميع على الدفتر والقلم وصدقوني وتناولت العشاء ونمت.

في الصباح كان أمرًا واقعًا بأنني أصبحت تلميذًا، فما كان من أمي إلا أن ذهبت إلى بائع قماش واشترت قطعة قماش بسيطة قامت بنفسها بحياكتها بالإبرة والخيط لا بسبب المهارة ولكن لتوفير إيجار الحياكة، وصنعت لي على طريقتها لباسًا قصيرًا أشبه بالملابس الداخلية في هذه الأيام، وصنعت لي أيضًا قميصًا بسيطًا مغلقا عند رقبته، وقالت لي: "هيا شد حيلك". وصنعت لي أيضًا من نفس القماش شنطة كنت أعلقها في رقبتي،

وكنت أضع بداخلها دفتر الكتابة والأشياء المدرسية البسيطة، كان اللباس الـذي صـنعته أمي لي بسيطًا، إلا أنني فرحت به في البداية، ثم تألمت بعد ذلك حينما أيقنت بأننـا فقـراء إلى ذلك الحد خصوصًا حينما قال لي الأستاذ في أحد الأيام: "أين حـذاءك، ثـم مـا هـذه الملابس التي تلبسها". ربما كانت المشكلة، هي أن أهالي تلاميذ تلك المدرسة بصفة عامـة وحتى اللاجئين منهم، كانوا من ذوي الأحوال المادية الحسنة من أصحاب الحرف المهنية وصغار التجار ولذلك سكنوا المدينة أو قريبًا من المدرسـة ولم يكونـوا في حاجـة لسـكن الخيام التي كانت تقدمها الهيئات الخيرية العالمية للمنكوبين، ولـذلك كـان أبنـاؤهم عـلى جانب من الرفاهية، وأما سكان معسكر الخيام كأسرتنا مثلاً فقد كانوا فقراء لأن أغلبهم كان من أصحاب الأملاك أو العقارات التي لم يستطيعوا نقلها من مواطنهم الأصـلية إلى أماكن اللجوء، تمنيت في تلك الأيام لو أنني أملك نقودًا كثيرة لأشتري أفضل ما يملكـه البشر كلهم من الأشياء الشخصية، وتمنيت ألا أكون من اللاجئين، ولكن كيف؟

لم أكن في تلك ألأيام بذاك الوعي الذي أستطيع به أن أعطي تصورًا كاملاً لأبعاد النكبـة التي حلت بنا في عام ١٩٤٨م، والتي على أثرها أجبرنا بكـل الوسـائل عـلى تـرك مـدننا وقرانا وممتلكاتنا، إلا أنني كنت أسمع أن هناك معسكرات أخرى للاجئـين الفلسـطينيين في أماكن أخرى غير معسكرنا.

١٢-٩ السكن في معسكر الشاطئ.

دارت الأيام وراحت النكبة تكبر وتتمطى واختفت ذكرى الأيام الخـوالي التـي كنـت لا زلت أحس بحلاوة ذكراها بين الحين والآخر خصوصًا في فترة ما بعـد رحيلنـا مبـاشرة من (حمامة)، أذكر قبل هجرتنا من (حمامة) أن الأهـل كـانوا أحيانًـا بعـد بـيعهم بعـض الخضار أو الفواكه في مدينة (المجدل) مما تنتج أملاكنا في (حمامة)، كانوا يشترون لي بدلة

أو طقم مكون من قطعتين، قميص وبنطال صغيرين أنيقين، كنت ألبسهما وكنت أستمتع بهما حينما كان الإخوة الكبار والأقارب يجرونني أو يقذفونني لأتدحرج فوق تلال الرمال الصفراء في بعض حقولنا، الأيام الحلوة التي أشرت إليها أصبحت ذكرى بعيدة ومضت تختفي مع الأيام من ذاكرتي وكأنني وأمثالي قد لبسنا ثوب النكبة الذي لا يزول.

في عام ١٩٥٣/١٩٥٤م شرعت وكالة غوث اللاجئين في إنشاء المعسكرات الدائمة للاجئين عوضًا عن معسكرات الخيام البالية، فانتقلنا إلى معسكر الشاطئ بغزة، وقد سُكّن كل أهالي بلدة من البلاد التي احتلت عام ١٩٤٨م في منطقة واحدة تقريبًا، وكان يقال مثلاً، هذا معسكر بلدة (حمامة) وذاك معسكر بلدة (أسدود) أو معسكر (المجدل) وهكذا بقية البلدات والمدن، وكان يفصل بين كل معسكر وآخر أو بين كل معسكر بلدة أو مدينة وأخرى شارع عريض نسبيًا مقارنة بالشوارع الأضيق التي كانت تفصل أبنية المعسكر التي كان يطلق على كل واحدة منها عمارة، كانت تمنح الأسرة غرفة واحدة أو غرفتين، وكان يتم ذلك حسب عدد أفراد الأسرة، الخمسة أفراد مثلاً غرفة واحدة، وأكثر من ذلك حتى ثمانية أشخاص غرفتين، وإن زاد عدد أفراد الأسرة عن ذلك فثلاث غرف وهكذا، وقد تم حفر بئر ارتوازي في كل منطقة وركب على فتحته مضخة يدوية، وكان على من يحتاج إلى الماء من سكان المعسكر أن يأتي بجرة فخارية أو ماعون لحمل المياه بواسطته، وعليه أن يذهب إلى موقع المضخة، وأن يستعمل جهده الجسماني بواسطة المضخة للحصول على الماء، في شوارع المعسكر الرئيسية نصبت دورات المياه (المراحيض) ولكن بلا مياه أو مثل المراحيض التي كانت في معسكر الخيام.

حصلت أسرتنا على غرفتين في المعسكر الجديد، وهكذا، فقد أضحينا مرة ثانية نسكن على شاطئ البحر، في السابق سكنا منطقة (الفرفارة) وقرب بلدة (الشيخ عجلين)

جنوب ميناء (غَزّة) القديم، وهذه المرة نسكن المعسكر الدائم شمال ميناء (غزة)، وهكذا أضحى البحر جزأ منا نحن لاجئي مدينة (غَزّة) أو صرنا نحن جزأ منه، نحن الذين ابتدأنا حياة جديدة أخرى في هذا المعسكر الذي وحَدَنا في كل شيء تقريبًا ماديًا ومعنويًا وثقافيًا، إلا أننا بقينا متميزين عن بعضنا فقط بأسماء مدننا وقرانا التي احتلها اليهود، وصرنا لا ندري ماذا ستصنع بنا الأيام بعد ذلك وأين ستكون المحطة القادمة.

هذا، وقد لعب القدر في تلك الأيام دورًا في حياة البعض من الأسر خصوصًا ممن حصل بعض أفرادها على وظائف مع أجهزة خدمات هيئة غوث اللاجئين الدولية، كان لأسرتنا في سنة ١٩٥٤م حظًا أتاها من السماء حينما تم تعيين أخي الأكبر بوظيفة مدرس وهو لم يتم بعد شهادة الثانوية العامة بسبب الحاجة الماسة لتعيين مدرسين لتدريس أبناء اللاجئين، كان لتعيين أخي هذا مدرسًا مع وكالة الغوث الدولية قصة طريفة لعب فيها القضاء والقدر دورًا لم يتوقعه أحد من أسرتنا، وكما قد يقال فقد أتت الرياح هذه المرة بما اشتهت السفن، القصة هي أن أخي ألأكبر كان الوحيد من الإخوة الذي أرسله والدي إلى مدرسة (حمامة) الابتدائية، لأن بنيته الجسمانية كما رآها الوالد قبل الهجرة، كانت لا تؤهله للقيام بأعمال الزراعة ورعي الحيوانات، أو كما رأه الوالد والوالدة كما قلنا، ولهذا أرسله للمدرسة في (حمامة)، كان أخي عاديا في كل شيء إلا أن مظهره العام كان يبدو للوالد أكثر مدنية من غيره ممن تلاه في ترتيب الأسرة من الإخوة الآخرين الأكبر مني سنًا، وكان نصيبه أن يذهب إلى المدرسة والإخوة الأصغر منه سنًا لم يساعدهم الحظ لان الوالد كان يريدهم أيضًا للأعمال الزراعية، ولذلك فقد أضحى هذا الأخ بعد ذلك هو المتعلم الوحيد من الإخوة الكبار، وأضحى أيضًا المنقذ الوحيد ماديًا لأسرتنا.

على أثر تعيين أخي مدرسًا تحسنت كثيرًا ظروفنا وحياتنا في تلك الفترة، وأضيف إليها أن أخي الذي يلي أخي المدرس وكذلك الأخ الآخر الذي يلي الذي يليه كانا قد التحقًا

بالجيش الفلسطيني الذي كانت تشرف عليه مصر في قطاع (غزة)، وكان من الطبيعي أن تتحسن ظروف أسرتنا أكثر، أو كما يمكن أن نقول إن أسرتنا قبل عام ١٩٥٤م وصلت إلى مستوى تحت حد الفقر، والآن أصبحت عند حد الفقر بسبب رواتب الإخوة المتواضعة نسبيًا، كان راتب الجندي مثلاً أربعة جنيهات شهريًا، لكن هذه الرواتب كانت تعني الكثير وكانت في الحقيقة نقلة نوعية حقًا في حياة أسرتنا، فقد أصبح الخبز متوفرًا دائمًا، وعلى أثر ذلك فقد تزوج أحد الإخوة وكدنا أن نلتقط أنفاسنا من ناحية أساسيات الحياة، وأصبحنا نحن أهالي معسكر الشاطئ بـ (غَزّة) كما كل الفلسطينيين من سكان المعسكرات، سواء في معسكرات اللاجئين الموجودة في قطاع (غَزّة) أو في الضفة الغربية أو في الأردن أو في سوريا أو في لبنان، صرنا كلنا ننتظر ماذا يخبئ لنا القدر وأي محطة أخرى تنتظرنا.

الفصل الثالث عشر

١٣-١ حرب ١٩٥٦م.

شهدت أعوام ١٩٥٥/١٩٥٦م توترًا عسكريًا بين (إسرائيل) ومصر، ولعبت الظروف الدولية دورًا في ازدياد هذا التوتر الذي ما كان يحتاج إلى أكثر مما هي عليه تلك المنطقة من العالم من غليان وانفجار دائم، (إسرائيل) أُقيمت بالقوة على أرض العرب، وطردت أصحاب الأرض الشرعيين، والثورة المصرية التي أطاحت بالنظام الملكي في مصر استدارت لتصادق الاتحاد السوفيتي الند اللدود للغرب في ذلك الزمن أيام الحرب الباردة، ولقد شهدت تلك الفترة مناوشات عسكرية على الحدود بين (إسرائيل) ومصر في أكثر من منطقة وأكثر من مرة خصوصًا على حدود قطاع (غَزّة) الذي كانت تديره مصر في تلك الأيام، وتصاعد الموقف في اتجاه الصدام.

على أثر ذلك شنت (إسرائيل) بالتنسيق سريًا مع (بريطانيا) و(فرنسا) هجومًا جويًا وبريًا وبحريًا على مصر، وكان لكل دولة أسبابها في الهجوم وكان لها أهدافها الخاصة، واستطاعت (إسرائيل) على أثر تلك الحرب أن تحتل قطاع (غَزّة) وصحراء سيناء، (بريطانيا) و(فرنسا) كان هدفهما من الحرب ضد (مصر) بسبب تأميم(قناة السويس)، و(إسرائيل) كان هدفها هو توجيه ضربة إجهاض لـ (مصر) التي راحت تتنامى قوتها العسكرية خصوصًا بعد الثورة، وبعد الإطاحة بالنظام الملكي وحصولها على الأسلحة الحديثة من دول الكتلة الشرقية، وأما السبب الآني فقد كان غرض (إسرائيل) هو التخلص من الفدائيين الفلسطينيين الذين كانوا ينطلقون من قطاع (غَزّة) وكانوا يقومون بعمليات في العمق أوجعت (إسرائيل).

وهكذا أفقت على دنيا جديدة وكأنني في حلم طفولي جديد ومرحلة وعي أكثر عما كان في الماضي حينما كنت طفلاً صغيرًا، وهكذا قد عبر أبناء جيلي إلى تجربة المرحلة الثانية من فصول النكبة، لقد جاء الرعب ثانية وجاء الخوف وجاء معه الخطر، جاء الخوف بعد أن ذقنا الفقر والحرمان والجوع على مدى السنوات التي قضيناها في العيش في الغابة والبراري والأرض القاحلة وفي العراء وفي الخيام وحتى بعد استقرارنا في معسكرات اللاجئين الدائمة.

احتل الجيش الإسرائيلي قطاع (غَزّة) في اليوم الثالث لبدء الهجوم، قبل دخول الجيش الإسرائيلي إلى قطاع غزة، كان راديو (إسرائيل) يُعلن تحذيراته إلى سكان قطاع (غزة)، بألا يلجأون إلى أية مقاومة لأن مصر بعيدة عنهم ولن يحميهم أحد من غضب جيش الدفاع الإسرائيلي، في البداية كان الناس يهزأون بما كان يذيعه راديو (إسرائيل) من تحذيرات ومن ادعاءات بتحقيق النصر العسكري على مصر، فقد أضحى عند كل العرب والفلسطينيين في تلك الأيام قناعة بأن مصر أكبر عدديًا من (إسرائيل) وأقوى منها وأن مصر قد استفادت من دروس هزيمة العرب في حرب ١٩٤٨م ووعت الأسباب، وفي الحقيقة استطاع الإعلام المصري القوي في تلك الأيام أن يصور (إسرائيل) في أذهان الناس على أنها ليست أكثر من عصابات سرعان ما سيقضي عليها العرب وتعود الأمور إلى طبيعتها، وتعود (فلسطين) إلى أصحابها، كان التركيز في الحرب على الجيش المصري الذي كان يوجد داخل الحدود الدولية المصرية، وكنت أرى الطائرات الحربية النفاثة الإسرائيلية مثل طائرات سوبر مستير الفرنسية الصنع تتجه أسرابًا وأسرابًا إلى جنوب قطاع (غَزّة) في اتجاه مصر، عابرة إما فوق سطح البحر القريب من الشاطئ وإما عند الشريط الفاصل بين قطاع (غَزّة) و(إسرائيل) من جهة الشرق، في بداية الحرب حاولت بعض الطائرات القديمة الإسرائيلية ضرب بعض مواقع الجيش المصري والمجندين

الفلسطينيين في قطاع (غَزّة)، وخصوصًا ضرب بعض مواقع الدفاعات الجوية التي كانت لا تعدو كونها عن مدافع قديمة بلا رادارات وربما لهذا كانت ترسل (إسرائيل) طائراتها القديمة وربما طائرات التدريب لمناوشة المواقع في قطاع (غَـزّة) بغـرض التمهيـد لـكسر المعنويات وليس أكثر، وأبقت الطائرات الحديثة بل أرسلتها إلى ما هـو أهـم في صـحراء (سيناء) وداخل (مصر) ذاتها.



١٣-٢ حكاية الأسطول الروسي.

في صباح اليوم الثالث لبداية الحرب وبينما كنا مـع الأسر الأخـرى ومـع أنـاس كثـيرين نحفر الخنادق على شاطئ البحـر للاحـتماء مـن خطـر الطـائرات الإسرائيليـة ولمواجهـة الإسرائيليين إذا أتوا من البحر، خلال هذا رأينا مع خط الأفق في عرض البحر مـداخن لسفن كبيرة لم نعهدها من قبل، كانت تبدو بعيدة جدًا في البداية ثم راحت تظهر وتتضح

رويدًا رويدًا في تحرك ثابت وواثق وبدون أي تغيير أو رد فعل من قبل الجيش المصري المنصوبة مدافعه البحرية قبالة ساحل مدينة (غزة)، وكانت سفنًا حربية كبيرة العدد والحجم ولم نر مثلها من قبل، شاع بين الناس من أمثالنا في البداية بأنها سفن روسية وقد جاءت لحمايتنا، لأن ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي يومها كان يعتبر صديقا لـ (مصر)، وأخيرًا وصلتْ تلك السفن إلى قبالة شاطئ (غَزّة) ورمت مراسيها هناك، وكان أقربها لا يبعد عن الشاطئ بأكثر من حوالي كيلو مترين بعيدًا عن اليابسة وتوزعت في وضع استراتيجي، وربما كان عددها حوالي عشر سفن أو أكثر قليلاً، كانت عبارة عن أنواع مختلفة من السفن فقد كان منها حاملات الجنود والعتاد الضخم ومنها مدمرات وطرادات وأشياء لا أعرف أسماءها، كان معسكر الشاطئ للاجئين تبدأ حدوده من حوالي مواقع معسكر الجيش المصري عند الميناء القديم عند نهاية شارع (عمر المختار) عند شاطئ البحر في مدينة (غزة)، ومن هناك كان يمتد شمالاً، ولهذا لم نكن بعيدين عن موقع الحدث وكان كل شيء يبدو أمامنا واضحًا بالعين المجردة، وعلى مدى أقل من كيلومتر واحد،

في البداية أُنزل من إحدى تلك السفن قارب خاص بمحرك، ورأيت فيه حوالي عشرة رجال أو أشخاص، وكان يرفع القارب علمًا لا أدري ما هو، واتجه القارب نحو الشاطئ ناحية موقع معسكر الكتيبة المصرية، ولم يمكث كثيرًا هناك ثم عاد ثانية في اتجاه السفن، فهمت بعد عدة أيام أن ذلك القارب كان قد قدم إنذارًا إلى الحاكم العسكري العام المصري لقطاع (غَزّة) وطلب منه قبول استسلام قطاع (غَزّة) بلا شروط.

كانت الروح المعنوية عند سكان قطاع (غَزّة) عالية في ذلك اليوم، وكنا نستعد لملاقاة من يأتي من جيش (إسرائيل) من جهة الساحل، وكان الناس كما ذكرت يحفرون الخنادق على طول شاطئ البحر، وكانت الأسلحة اليدوية والذخائر متوفرة إلى حد ما لدى الكثيرين،

خصوصًا مع قوات الفدائيين وقوات الحرس الوطني، هذا عدا الجنود الذين كانوا في المواقع الأمامية التابعة للجيش النظامي عند حدود قطاع (غَزّة) مع إسرائيل، كان الجميع وكأنهم في مهرجان أو موسم، فكيف يكون هذا الحشد يزخر بالمجد وبملاقاة الإسرائيليين وجعلهم يذوقون مرارة الهزيمة أو ليفهموا بأن نهاية احتلالهم لبلادنا إن لم تكن هذه الأيام فهي قادمة لا محالة، هذا هو الحال بل الشعور العام الذي كان سائدًا في تلك الأيام من مستوى الوعي العام عند تلك الشريحة من الشعب الفلسطيني الذي كان يعيش في قطاع (غَزّة) في ذلك الزمن،

كان الجو صحوًا ويالسبحان الله فقد كان في موسم الخريف أيضًا، وهو الموسم الذي تركنا فيه بلدتنا (حمامة) سنة ١٩٤٨م أو قبل ثمان سنوات من تلك الأيام، أتت طائرة مروحية في ذلك اليوم من الشمال من جهة (فلسطين) المحتلة، وكانت تطير فوق مياه البحر، رأيتها وقد حامت فوق بعض السفن ربما للتعرف عليها أو لمحاكاتها لاسلكيًا أو أي شيء آخر أو هكذا ظننا، وقد بدت صديقة لهذه السفن ثم عادت أدراجها ثانية من حيث أتت، وجمد الوضع بعد ذلك وكأن عقارب ساعة الوقت قد توقفت وأضحى العباد تائهين لا يدرون ولا يعرفون ولا يفهمون ماذا يحدث حولهم، لا إطلاق نار رأينا أو سمعنا ولا حرب حدثت، وسفن حربية قابعة أمام الشاطئ لا نعرف كنهها ولا نعرف هويتها، راح بعد الظهر بوقت قليل يطفو بين الناس بلبلة وهمس وإشاعات وقلق، وتبين فيما بعد بأن السفن التي رست قبالة ميناء (غَزّة) سفن كانت فرنسية مما اشتركت في حملة (السويس)، راح الناس يهجرون الحفر والخنادق التي أعدوها عند الشاطئ لملاقاة الإسرائيليين، وراحوا يعودون إلى دورهم في المعسكر وراحوا بشكل جماعي يهجرون شاطئ البحر، فلا هم وجدوا العدو الذي ظنوا أنه سيأتي من البحر كما

قيل لهم، ولا أن الطائرات الإسرائيلية أتت لتضربهم في المعسكر، ولهذا السبب حفروا الخنادق بعيدًا عن البيوت.

كانت دارنا الموجودة في المعسكر لا يفصلها عن البحر سوى دار واحدة أو هي على مسافة مائة متر من حافة ماء البحر، وكان هذا يجعلنا دائمًا في مواجهة البحر، وحتى المعسكر الكبير الذي كان يشمل عشرات الألوف من اللاجئين الذين نسكن فيه كان يسمى معسكر الشاطئ، كان رقم دارنا في معسكر الشاطئ على سبيل الذكرى هو بلوك ٨٥، وهو رقم منطقة وتسلسلي كُتِبَ على الحائط الخارجي من قبل إدارة معسكر الشاطئ التابعة لوكالة الغوث الدولية للاجئين الفلسطينيين، وكان الرقم يقع تحت اسم والدي رحمة الله عليه.

١٣ -٣ الإسرائيليون يدخلون غَزّة.

بعد ظهر ذلك اليوم أضحى الوضع العام باهتًا أكثر، وعاد الناس إلى دورهم كما ذكرت وقد أضحوا قلقين من المجهول وفي ضياع لا يوصف، وكدت لا تسمع الناس يتحدثون كعادتهم وحتى مع أفراد أسرهم فأي تيه هذا، كان أغلبهم نساء ورجالاً يجلسون القرفصاء أمام أبواب دورهم من الخارج لكي يشعروا بالونس بتواجد جيرانهم بجانبهم بالمشاهدة على الأقل، وكانوا حائرين لا يدرون أين يتجهوا بعقولهم أو أجسادهم، وراحت في تلك الأثناء تسري بينهم أقاويل بأن (مصر) قد هُزمت، بالطبع هم لم يحصلوا على تلك المعلومات من الإذاعات المصرية، لأنها كانت وظلتْ تقول دائمًا بأننا منتصرون على الأعداء وأن كل شيء تحت السيطرة، إلا أن الناس بدأوا يميلون إلى تصديق الدعاية الإسرائيلية على ما يبدو، لأن كثيرًا مما كانت تقوله الإذاعة الإسرائيلية كان الناس في قطاع (غَزّة) يلمسونه على أرض الواقع، وكانت تؤكده الإذاعات الأجنبية الأخرى التي

كانت شائعة ولها شهرة بين الناس مثل إذاعة (بي بي سي) البريطانية التي كانت تبث من لندن، (بريطانيا)، كان راديو (إسرائيل) باللغة العربية يكرر باستمرار وعلى مدار الساعة تقريبًا، إن على سكان قطاع (غَزّة) ألا يقاوموا قوات جيش الدفاع الإسرائيلي، لأنهم أضحوا معزولين عن (مصر)، وإن الجيش المصري قد تم دحره وتم تحطيمه، وفي الحقيقة فقد أضحى الحال لا يختلف كثيرًا عن حال الناس خلال فوضى عام ١٩٤٨م عشية تركنا لبلدتنا (حمامة)، إلا أن حركتنا في (غَزّة) والحال كذلك كانت شبه مقيدة لضيق المنطقة مقارنة بالظروف المشابهة في سنة ١٩٤٨م حيث كان المجال أوسع والحركة أكثر حرية، لأن الخيارات كانت أكثر من حيث أين نذهب.

بعد الظهر توجهت جنوبًا تاركًا حارتنا في المعسكر مستطلعًا بفضول ابن الثالثة عشر وكما فعل غيري من أمثالي من أبناء المعسكر، ذهبنا جهة منطقة الميناء عند بداية شارع (عمر المختار) الشهير في مدينة (غزة)، وبينما كنت أقترب من المكان حدثت بلبلة من حولي بين السائرين على الطريق من أمثالي وانتبهت فجأة، فإذا بي أرى الأشخاص القلة الذين كانوا بالصدفة مثلي سائرين هناك، رأيتهم مذعورين يلوذون بسرعة إلى جوانب الطريق الذي كانت تحفه شبه أسوار معدنية قديمة متآكلة مع بعض الشجيرات الصغيرة الأخرى، وانتبهت أكثر فإذا بي أرى عن بعد على شارع (عمر المختار) سيارة جيب واحدة كانت تحاول الاستدارة عائدة إلى الشرق، وكانت ذات لون أخضر غامق، ولم يكلفني كثيرًا أن أفهم بسرعة أنها كانت سيارة جيب عسكرية إسرائيلية، فقد كانت كل أحاسيسي وكذلك كل شعوري الداخلي في حالة استنفار مستمر بسبب القلق والخوف، على أثر ذلك فقد سمعت أصوات عدة رصاصات تطلق وكانت صادرة من موقع سيارة الجيب الإسرائيلية، ثم علا صوت محرك السيارة وأسرعت واختفت في شارع (عمر المختار) متجهة شرقًا، تصرفت في تلك اللحظات كرد فعل فطري بدون تخطيط أو حساب مسبق

مثلما فعل الآخرون تقريبًا بان حاولت الاختفاء، وحاولت بقدر الإمكان ألا أكون ظاهرًا لمن في تلك السيارة، بل عدت مسرعًا عائدًا في اتجاه بيتنا في المعسكر، على الطريق القصير الذي كان يؤدي إلى بيوت المعسكر، شاهدت على جوانب الطريق بعض الملابس العسكرية الملقاة على قارعة الطريق والتي كان يلبسها عادة جنود الجيش، ورأيت بعض أدوات الجنود كالشارات العسكرية وأغطية الرأس، ورأيت تحت الشجيرات القليلة على جوانب الطريق في أكثر من مكان بعض الذخيرة وبعض القنابل اليدوية، رأيت ربما بندقيتين في مكانين مختلفين في تلك المنطقة، كانت تلك الأشياء من بقايا الجنود المصريين في ذلك اليوم، رأيت أيضًا على الطريق أحد الجنود المصريين الشبان من ذوي الأجسام الكاملة الحسنة المظهر، وكان بملابسه العسكرية، وكان يسير في منتصف الطريق وكان مكشوف الرأس، وكان متجها صوب شارع (عمر المختار)، كان الجندي الشاب بلا سلاح وكان يحمل بيده اليمنى وهو رافعها بمستوى رأسه بشكير أبيض/منشفة وجه مُعلنًا استسلامه، كان يقبض على البشكير كمن يرفع راية الاستسلام بل هو كان كذلك في تلك المتاهة بعيدًا عن وحدته العسكرية التي ربما انسحبت إلى (مصر) قبل أن يسقط قطاع (غَزّة) في قبضة الاحتلال، أو ربما أُبيدت أو أُسرت في الميدان، وأضحى ليس له اتصال مع أحد لكي يعينه أو يشير عليه ماذا يفعل أو أين يتجه وهو بين أناس في مدينة (غَزّة) حالهم ليس بأحسن من حاله، رأيته على تلك الشاكلة التي حُفرت منذ ذلك اليوم في وجداني والتي لن تمحى أبدًا ما حييت، كان في حدود العشرين عامًا من العمر، وكان ممتلئ الجسم حسن المظهر، وكانت الدموع جافة على وجنتيه، وكانت تبدو عيناه حزينة وتائهة، وقسمات وجهه بائسة متحجرة وهائمة لا تدري إلى أي مصير ستقوده قدماه، كلما تذكرت ذلك الجندي على مدى عشرات السنين التي مرت بعد ذلك رأيت نفسي في شخصه، وعشت شعورًا مختلفًا لكنه لا يختلف عن حال وصورة الظروف التي كان فيها

الجندي المصري العربي، مررت على ذلك الجندي الذي انطبعت من ذلك اليوم صورته في وجداني، ولكن الحال الذي رأيته عليه في تلك اللحظات العابرة قد أشعل ذاكرتي بأحاسيس كثيرة، وتذكرت ما عرفته وما استوعبته في ذلك السن عن الدور القومي العربي لمصر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م التي كان وجهها زعيم ذلك (العصر جمال عبد الناصر)، كانت اللمحة العابرة التي رأيت فيها ذلك الجندي المصري الشاب مثار هيجان وثورة في نفسي، ولم يكن ينقصني انتماء أو حماس لـ (مصر) بعد أن عبأنا الإعلام المصري بالحلم القومي العربي، لقد بقي حبي لـ (مصر) بعد ذلك ينافس حبي لـ (فلسطين)، أليست (مصر) هي (فلسطين) و(فلسطين) هي (مصر)، وكلتاهما قطعتان غاليتان من الوطن العربي، وأما في الحقيقة فإن (مصر) قد ضحت كثيرًا من أجل (فلسطين) بصور كثيرة، لكن صورة ذلك لجندي الباكي بصمت ظلت في أعماقي، وكلما تشابه الحديث في أي مناسبة عن تلك الأيام أجدني بليغًا في استعمال التعابير التي يوحيها حال ذلك الجندي الشاب وهو على ذلك الحال المحزن.

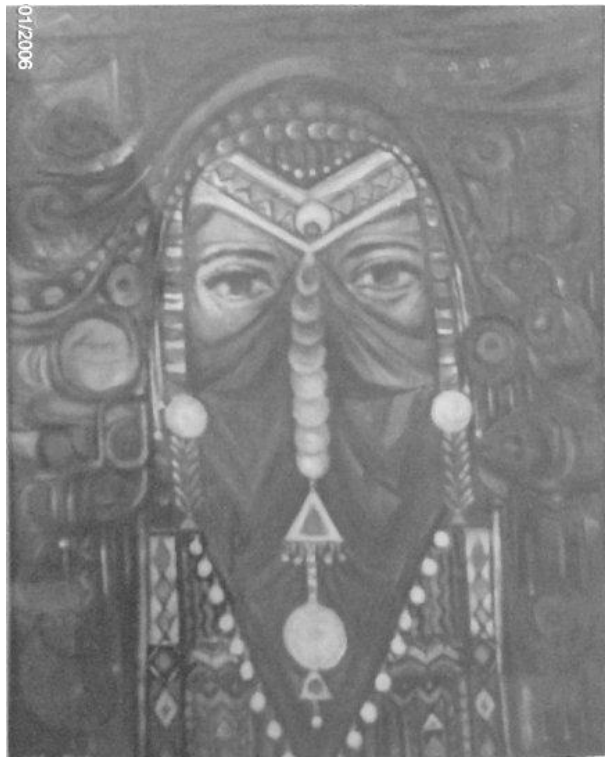
عدت أدراجي ثانية في اتجاه حارتنا في المعسكر ووجدت أخبار الحال العام الذي رأيته عند ميناء (غَزّة) يتحدث به أهل الحارة والجيران، رأيت الوجوم على جميع الوجوه، ورأيت الناس متساويين في كل شيء وكأنه يوم الحشر والحساب والعقاب، كان الكل تقريبًا قد استسلم لقدره، وكان لا يفرق بينهم اليسر المادي - إن وجد عند أحدهم - ولا تميزهم المهنة أو الوظيفة أو أي شيء آخر على خلاف ما كانوا قبل ذلك اليوم، وأما في الحقيقة فقد كان الجميع ينتظرون قدرًا لا يملكون فيه قرارًا، بل إن الذعر الذي هم فيه كان لا يعدو عن امتداد لما حدث لهم في سنة ١٩٤٨م ولكن بمشهد آخر، و ٨ سنوات بين عام ١٩٤٨م و ١٩٥٦م لا تبدو بعيدة لأبناء الجيل الذي عاشها، رأيت وأحسست في تلك الفترة أن كل إنسان كان داخله مستسلمًا ومذهولاً وتائها ولا يحس

بأحد غير نفسه بل هل هو مع نفسه حقيقة ليحس بها، كان الخوف من اليهود قد سيطر على العامة منذ عام ١٩٤٨م، وزاد الخوف أكثر في عام ١٩٥٦م بسبب تكرار راديو (إسرائيل)، أن قطاع (غَزّة) قد أصبح في قبضة (إسرائيل)، وأنها ستصل كما كانت تقول إلى أعشاش الفدائيين الفلسطينيين فيه وستقضي عليهم، وهذا يعني أن هناك قتل سيحدثونه بدم بارد، وقد فهم الناس من هذه التهديدات بأنهم سيتعرضون إلى مذابح جماعية، وأصبحوا لا يدرون من الذي سيذبح ومن الذي سيترك.

وأرجو المعذرة فالكاتب هنا يسرد واقعًا في منطقة معينة ومحدودة في مرحلة تاريخية معينة إبان الصراع العربي، الإسرائيلي، والأمر هنا ليس للدفاع أو للتمجيد أو الإسفاف أو تقديم صورة إعلامية لخدمة أمر معين بقدر ما هو حقيقة ولوحة لمشهد قد رسمها مُشاهد ينتمي إلى أحد أطيافها، وليس بالضرورة أن تتطابق مع فهم الآخرين لتلك الظروف بسبب اختلاف الأعمار في سنة ١٩٥٦م.

مر عصر ذلك اليوم طويلاً على غير العادة، وكأن ما مررنا به من أحداث هو حقبات وقرون وتاريخ طويل، جاء المساء وظل الناس جالسين بشكل جماعي عند أبواب دورهم في طرقات المعسكر الضيقة حتى قرب منتصف الليل، وكأنهم وهو الأقرب إلى الصواب، كانوا يحسون بنوع من الأمان أكثر إذا ما بقوا مع بعضهم البعض، ولكن حركة كل منهم كانت محدودة بسبب التحسب والترقب، فلم يبتعدوا كثيرًا عن بيوتهم أو حاراتهم كما كانوا يفعلون في العادة في الأيام الماضية قبل الحرب، وحتى الأطفال الصغار كنتَ لا تشاهدهم قرب مجالس أهلهم في ذلك اليوم، بل إنهم كانوا مختفين، وكأن ذلك المجتمع ليس به أطفال، تُرى هل أخبرهم أهلهم بما هو حادث؟ أم حذروهم أم خوفوهم بما

يخافون منه من اليهود؟ بل من قال إن الأطفال لا يخافون ولا يعرفون ماذا يدور حولهم؟ وإن بدوا أحيانًا أو تظاهروا بأنهم لا يعرفون شيئا؟



١٣ - ٤ النساء يُطعمن الجنود المصريين.

في المساء لجأ كل من كان جنديًا في صفوف الفدائيين بسلاحه إلى الغابة التي لم تكن بعيدة عن معسكر الشاطئ للاجئين والتي كانت تقع في شمال وشرق هذا المعسكر، وكان هدفهم هو التخفي عن أنظار الجيش الإسرائيلي إذا ما دخل بكثافة إلى مدينة (غَزّة) خوفًا على أرواحهم ومصيرهم المجهول في القطاع الذي أصبح سجنًا كبيرًا لكل من كانوا فيه آنذاك، هذا، وقد امتلأت الملاجئ التي بنتها وكالة غوث اللاجئين في الساحات

العامة التي كانت تقع في مناطق المعسكر، وذلك بغرض حماية الناس من أخطار القنابل والأنشطة العسكرية، إلا أن هذه أيضًا - أقصد الملاجئ - قد امتلأت بالجنود المصريين الذين لم يتمكنوا من اللحاق بقواتهم الرئيسية التي انسحبت على عجل عبر صحراء (سيناء) متجهة إلى (مصر)، كان أولئك الجنود بلا طعام وبلا ماء، وقد رأيت الناس بعد غياب الشمس خصوصًا الأمهات المسنات يأخذن الخبز والزيتون والأشياء الأخرى وكن يقدمنها إلى أولئك الجنود، وقد فعلتْ أمي نفس الشيء أو ما استطاعته في ذلك المساء، وقد سمعتها تقول لإحدى الجارات: "نعم لقد ذهبتُ مع من ذهبن وقدمنا ما استطعناه، وعسى الله يُعيد لنا أبناءنا بالسلامة من أمثالهم".

ثم نمنا الليلبعد أن أعيا الجميع القلقُ والخوف، وفي الصباح كان الوضع كما هو، وظل الجميع بنفس شعور الأمس مع التيه المستمر، فامتقعت الوجوه أكثر وهكذا أيضًا مر مساء اليوم التالي... بعد ذلك، وفي الصباح الباكر وقبل الفجر، راحت فجأة منطقة معسكر الشاطئ تشتعل بلعلعة صوت الرصاص من جميع الجهات، ولأن الليل يتيح للصوت أن يكون أوضح، فقد كان الكل في دور المعسكر يشعر وكأن الرصاص موجه نحو بيته، ولأن بيوت المعسكر أيضًا كانت مكشوفة وغير مغلقة جيدًا، فقد كنا نرى الرصاص يتقاذف في كل الاتجاهات، وشعرنا في ذلك الفجر أن كل ما كان الناس يتحسبوه من بطش اليهود حادث لا محالة، كان الجيش الإسرائيلي الذي دخل المنطقة يفعل ذلك إرهابًا وعقابًا، وخوفًا من حدوث مقاومة مسلحة، لأن (إسرائيل) حقيقة كانت في ذعر من بعض عمليات الفدائيين التي كانت تحدث في تلك الأيام قبل اندلاع الحرب، تلك العمليات التي قُتل فيها أعداد لا بأس بها من الإسرائيليين.

لزم الناس بيوتهم ولم يخرجوا منها أبدًا لأي سبب لمدة ثلاثة أيام أخرى متتالية، وبعد ذلك سُمح لنا بعد الظهيرة يوميًا الخروج لقضاء الحاجات الضرورية للمعيشة ولمدة ساعتين فقط في اليوم.

استمر الحال هكذا واستمر إطلاق النار الذي لم يتوقف أبدًا خصوصًا في الليل، وهو في أغلب الأحوال كان يطلقه الإسرائيليون خوفًا على حياتهم وإرهابًا للناس، استمر إطلاق الرصاص الذي أودى بحياة كثير من المدنيين في حوادث فردية متفرقة في هذه الناحية من المعسكر أو تلك، واستمر عدم الخروج من البيوت مهما كان الأمر أو السبب، كانت بعض النساء فقط الطاعنات في السن، يتسللن من هنا أو هناك أحيانًا، وكن تأتين بالأخبار العامة عن أحوال الأقارب أو الجيران والناس، من قتل ومن عاد إلى أهله ممن كان جنديًا ومن اعتقل، كانت النسوة مثلاً يخبرن، أن فلانًا مثلاً قد قُتل، وأن ابن فلان قد اختفى ولم يعد إلى البيت، وقد أضحى ذلك شيئًا عاديا وكانت السعادة لأي إنسان في تلك الأيام، هي، إنه أو أحد من أسرته الصغيرة لم يُصب بأذى أو لم يُقتل في تلك الفترة، كان النساء والأطفال من الصبية هم الذين يمكن أن يقوموا بالمغامرة أو لا يُطلق عليهم الرصاص من قبل دوريات جيش الاحتلال بشكل عام إذا ما خرجوا مثلاً من دار إلى دار لسبب قاهر، وكانوا إذا قابلهم الجنود الإسرائيليين في طرقات المعسكر، كانوا يتعرضون للضرب الجسدي والركل بالأرجل والتهديد بالسلاح، ومع هذا وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد قُتل ابن جارتنا برصاص اليهود وكان في مثل سني أو أصغر قليلاً، كانت دوريات الجيش كثيرة وكانت كثيفة في طرقات المعسكر، فإذا لم تجد اليهود في الطريق بجانب أي بيت يسكن فيه الناس كنت تجدهم في الطرقة التي تقع في الناحية الأخرى، كان الجنود يسيرون في مجموعات من ثلاثة أفراد إلى أربعة، وأما على الطرق الرئيسية في المعسكر فقد كانت توجد إضافة إلى ذلك العربات العسكرية خصوصًا عند

المداخل والتقاطعات وفي الساحات العامة، في وسط هذا الوضع البائس الذي يحتاج إلى ورق وأقلام كثيرة للمرور على كل تفاصيله، كان قلق الوالدين وقلقنا جميعًا على مصير أخواي اللذين كانا وأمثالهما من أهالي (حمامة) وغيرهم جنودًا في اللواء الفلسطيني الذي كان تحت قيادة الجيش المصري في قطاع (غزة)، كان هذا اللواء مع قيادته المصرية قبل اندلاع الحرب يقف في المواقع العسكرية الأمامية الواقعة بين (إسرائيل) وقطاع (غزة)، كان مظهر القوة الغاشمة الإسرائيلية التي تقتل المدنيين العزل في المعسكر يوحي بأنه ربما سحُقَ كل من كان جنديًا مع الجيش المصري في تلك المواقع.

كان شيئًا عاديًا أن نرى بعض الناس بلا جنازة شعبية يقومون بدفن القتلى في مقبرة كانت تقع قريبًا من شاطئ البحر، وكان يتم ذلك بلا غسل للموتى وبلا أكفان، وكان الناس في أغلب الأحيان يدفنون قتلاهم قريبًا من سطح الأرض، لأنهم كانوا يحفرون القبور بأيديهم لضيق الوقت، وبسبب منع التجول المفروض عليهم ليلاً ونهارًا، كنت أتساءل وكنت أحلم أن تكون هناك نهاية لهذا الترويع، يا الهي، ما هذا الذي أُبتُلينا به ولماذا نحن الفلسطينيين دون غيرنا.

١٣ - ٥ قتل الفلسطينيين بدم بارد.

في اليوم الرابع من الاحتلال كان الوقت كما أظن ربما قبل الظهر بقليل، وكنت في تلك اللحظات أنا وأخي الذي كان يصغرني مباشرة نتحرك في ساحة الدار، وإذا بصوت حركة الجنود الإسرائيليين على باب دارنا، وسمعت أوامر بالعربية بلكنة ليست عربية، وفجأة ضرب أحد الجنود اليهود بأخمص سلاحه الرشاش باب دارنا، ففتح الباب وحده دون أن يساعد أحد منا في فتحه، رفعت أنا وأخي الذي كان يصغرني رؤوسنا ارتباكا ورهبة، في نفس الوقت الذي كان فيه أبي أيضًا يقف خلفنا، ولم أدر كيف وصل أبي

بتلك السرعة من إحدى الغرف، كان يهم الجندي الإسرائيلي الذي دق الباب بطرف سلاحه وفتحه أن يدخل باحة الدار إلا أنه توقف ولم يدخل دارنا، وقال موجهًا كلامه إلى والدي، أين الهَوايا؟ وهو يقصد الهوية أي البطاقة الشخصية، ورد أبي، هي هنا يا خواجة، ومد يده إلى جيب الصدر في القُمباز الذي كان يلبسه، وقبل أن يخرج أبي بطاقته الشخصية سأله الجندي، من معك في الدار، فأجابه والدي مرتبكًا ومترددًا أن يذكر له كل من في الدار في ذلك الوقت، لكن والدي هذين الصبيين فقط يا خواجة، وكان يشير لليهودي علي وعلى أخي، فبادره الإسرائيلي قبل أن يُكمل، أغلق الباب ولا تخرج "بِيِسْمَعْ إِنْتْ". وأغلقنا الباب.

كان جنود الدورية كما شاهدناهم ثلاثة، وكانت هيئاتهم تبدو أوروبية مثل الإنجليز الذين كنا نشاهدهم أيام الانتداب في (فلسطين) قبل إقامة (إسرائيل)، وكان أحد جنود الدورية يبدو عملاقًا وضخمًا بشكل لافت للنظر، وهو الذي فتح بابنا وتحدث مع أبي ويبدو أنه رئيس المجموعة، ورأيت رأسه أعلى من سور دارنا، أي إنه يستطيع أن يرى ساحات الدور من فوق الحيطان بدون أن يدخلها لو أراد، كان مجال المناورة للأطفال أسهل من الكبار وحتى من النساء لأن النساء عرض وشرف.

بعد أن تَرَكت الدورية دارنا وشأنها، خرجت بحذر وخرج أيضًا بعض الصبية من أبناء الجيران إلى الشارع، وذلك بدوافع الفضول، ولكي نلم بما يحدث في محيطنا الصغير على الأقل، ولنخبر أهالينا بما نرى أو يستوجب، بالنسبة لي كانت المرة الأولى التي أرى فيها الجنود اليهود عن قرب، رأيتهم يتخطون دارنا ويسيرون بمحاذاتها متجهين إلى الدار التي تقع خلف دارنا وملاصقة لها مباشرة كما هي دور المعسكر المتشابهة في كل شيء تقريبًا، ورأيت الإسرائيليين يسوقون أمامهم ثلاثة من الشبان الذين كانوا رافعي الأيدي في تلك اللحظات إلى أعلى من أبناء حارتنا، وكان أحدهم هو ابن أسرة من جيراننا

المباشرين، هو (محمد ذيب رضوان)، إلا أن الثلاثة كانوا من أبناء (حمامة) أيضًا، بقيت مع عدد قليل من الصبية نراقب أين ذهبتْ وأين وصلت الدورية الإسرائيلية، وكنت أعود تباعًا إلى الأهل بالمعلومات، مثل، اليهود دخلوا دار فلان أو دار فلان من أهالي حارتنا في المعسكر وأين وصلوا وهكذا، رأيت جنود الدورية يدخلون كل دار في المنطقة وخلال دقيقتين أو كذلك كانوا يمضون إلى غيرها غير مستثنين أحدًا من البيوت، بعد ذلك أخذوا من إحدى الدور، شخصًا رابعًا وضموه مع الثلاثة الذين كانوا يقودونهم، وقد أضحى الأربعة واضعين أيديهم على رؤوسهم ثم اتجهوا بهم إلى شاطئ البحر، وبعد أن خرج الجنود الإسرائيليين والرجال الأربعة أمامهم نحو الساحات المفتوحة على رمال الشاطئ، رأيت الجنود من عند حافة إحدى حيطان الدور المحاذية لشاطئ البحر مع اثنين في سني تقريبًا، رأينا الجنود يتمهلون في مشيتهم قليلاً بينما استمر الشبان الفلسطينيون الأربعة في السير، وفجأة ومرة واحدة سمعت صوت رشاشات الجنود الإسرائيليين تنطلق وكانت تهتز في أيديهم، ومن خلف ظهور الجنود رأيت الرصاص الفارغ ينساب متناثرا كنوافير المياه، لحظة إطلاق النار ارتبكت وأنا على بعد، وكأنني لم أصدق نفسي أو مما أرى، وكنت مذهولاً ومرعوبًا من أصوات الرشاشات ولا أميز شيئًا أو ماذا كان يحدث، وسرت رعشة في كياني كله، واحترت أين أتجه، وخلت وكأن الرصاص قد أُطلق على وجهي، وربما فور سماعي أصوات الرصاص كنت قد أغمضت عيناي للحظة، في تلك اللحظات الحرجة سرى في داخلي إحساس غريب ودفعني فضولي أن أتابع بعدما عدت إلى الخلف منتفضًا بعدة خطوات وخائفا في البداية، المهم إنه بطرف عيني من خلف الحائط استمريت أجمع المناظر وأغذي بها ذاكرتي وأنا لا أقوى أو أتحمل من شدة الخوف أن يلتفت الجنود خلفهم نحونا ونحن نرقبهم خلسة بأطراف وجوهنا خلف أحد الحيطان.

بعد أن توقف الجنود الإسرائيليون عن إطلاق الرصاص وبعد زختين متواصلتين ألحقوها ببضع طلقات متفرقة أخرى، سقط الشبان الأربعة على الأرض، بعد ذلك استدار الجنود الإسرائيليون في اتجاه الشرق بانحراف قليل نحو جهة الشمال وعادوا إلى دور المعسكر ثانية، وربما لكي يكملوا تفتيش البيوت التي لم يمروا عليها بعد، ولم أعد أراهم واختفوا عن الأنظار في حارة أخرى من حارات المعسكر.

عدت على أثر ما شاهدت مسرعًا إلى دارنا لأخبر الأهل بما حدث، وقبل أن ادخل دارنا رأيت النساء والأطفال وقد راحوا يخرجون من دورهم، وشاهدت بعض الرجال أيضًا يقفون أمام أبواب دورهم ولكن من الجهات الداخلية للدور، متفادين بذلك إمكانية رؤية اليهود لهم، وكأن الجميع كانوا في تحسب ومراقبة وكأنهم كانوا يعرفون كل شيء، في البداية خفت وترددت أن أجيب على أسئلة بعض نساء حارتنا، فقد سألتني إحداهن على من أطلقت نيران الأسلحة التي سمعوها عند شاطئ البحر، وأخرى قالت، ماذا حدث يا بني، دخلت دارنا ووجدت أهلي في قلق وفي ريبة لا تختلف عما شاهدته على وجوه أهل الحارة فالجميع قد سمعوا صوت الرصاص، وأعلمتهم باقتضاب عما رأيت، فقال لي والدي أسكت ولا تحكي هذا لأحد خارج باب الدار، وكان يبدو أنه يشك في صحة ما ذكرت، وأن مثل هذا الخبر قد يسيء إلى عائلتنا إذا ما سمعه الناس خصوصًا أهالي الذين قلت عنهم بأنهم قد قتلوا خصوصًا إذا ما تبين عدم صحة ذلك، وقد نكون في نظر بعضهم كمن تمنى أن يحدث لأبنائهم مكروه، ولكن يبدو أنني لم آبه بما سمعت من والدي لأنني رأيت كل شيء بأم عيني، واستدرت ماشيًا في ساحة الدار قليلاً ولم أمكث هناك كثيرًا، وسرعان ما توجهت نحو باب الدار خارجًا ولم يعترض أحد من الأهل على خروجي ثانية، لأنهم كانوا يشعرون بوجود الناس في الشوارع ونكاد أن نسمع كل ما يقال خارج الدور.

رأيت أُم أحد الأربعة من الذين أطلق عليه الرصاص خارجة من باب دارها بهمة، وهي لا تقول شيئا، واتجهت نحو الشاطئ لتفحص الأمر، عرفتُ في اليوم التالي أن أهل الميت قد دثروه ببطانية ودفنوه بعد دقائق من إحضاره إلى الدار في منطقة ليست بعيدة عن المنطقة التي قُتل فيها عند شاطئ البحر، وذلك بأن حفرت النسوة بأيديهن قليلاً ثم غطين الجثة بالتراب، بعد فترة ليست وجيزة من الزمن ثار البحر وهاج، وعملت أمواج البحر عند الشاطئ على كشف أجزاء من الجثة، وكانت الأوضاع قد تبدلت وعلى أثر ثلك نُقلت الجثة بعد ذلك إلى المقابر العامة.

قُتل الكثيرون على شاكلة الرجال الأربعة من أهالي (حمامة) ومن غيرها من سكان معسكر الشاطئ، وأضحى هذا شيئًا عاديًا صباح مساء، وأحس الناس بضيق ممزوج بالخوف يكتم على الأنفاس، وأضحى الجميع يشعرون وكأنهم في سجن، وحتى السجن فيه يشعر الإنسان ببعض الأمان، أما نحن فلا أمان ولا عيش سهل ودائمًا قلقين على حياتنا وعلى حياة من نحب، بعد أن قتل اليهود الرجال الأربعة من أبناء حارتنا، ظهر القلق على أسرتنا وتخيلنا لو أن اليهودي الذي لم يدخل دارنا دخلها واكتشف أخي الذي كان يجلس في فراش النوم، كان لجنود الجيش الإسرائيلي ثلاث علامات مميزة لمن كانوا يختارون قتله، إذا تواجدت إحداها أو انطبقت على أحد من الناس فإنهم يقومون بأخذه من داره وقتله، العلامة الأولى، أن يكون شعره قصيرًا، وتلك كانت علامة الذين كانوا جنودًا من الفلسطينيين في الجيش المصري، فمن عادة الجنود أن يكون شعر رؤوسهم قصير، الثانية، إذا كان الشاب الذي يجده الجنود الإسرائيليون متأخرًا في نومه أو لا زال جالسًا في فراشه، كان يعتبر اليهود أن هذا الإنسان قد عاد توا من المواقع العسكرية حيث التعب والإرهاق، الثالثة، إذا كان الشخص لا يحمل بطاقة مدنية فمعناه أيضًا أن له بطاقة عسكرية وطبعًا هو جندي، وكانت كل العلامات متوفرة في أحد الإخوة الذي

عاد توًا من مدينة (خان يونس) بعد أن انهارت قيادة الجيش المصري في القطاع، لو أن الجنود اليهود قد اكتشفوا وجوده في الغرفة في ذلك اليوم فمن المؤكد بأنهم كانوا سيأخذونه مع من قاموا بقتلهم بدم بارد، وربما لكانوا أخذوا معه الأقارب من الشباب الذين أتوا لكي يسلموا عليه أيضًا وكانوا معه في الغرفة حينما فتح الجندي باب دارنا، انعكس القلق على أخي الذي نجا من الموت حتى ذلك الوقت بعد أن تجاوزه الموت في الموقع العسكري الأمامي مقابل مدينة (خان يونس) وقنابل المدفعية الإسرائيلية وطائراتها التي دكت الخطوط الأمامية في قطاع (غَزّة) بقنابلها، ونجا من الموت بعد أن أعطى سلاحه لأحد البدو واستبدله بلباس مدني مهلهل، ثم وصل إلينا بالليل بأعجوبة إلى معسكر الشاطئ قادمًا من جنوب مدينة (غزة)، كان قلقنا ربما أكثر من أي شخص آخر في الدار على أخي هذا، بعد أن حدث ما حدث للأربعة الذين قتلهم اليهود من أبناء حارتنا، رأيت أخي وقد خف تناوله للطعام وأضحى قلقًا ومرتبكًا، وفي الحقيقة كان والدي ووالدتي يهمسان بذلك وقد سمعتهم أكثر من مرة وهم يتجرعون الحزن عليه لإحساسهم بأن اليهود سيعودن مرة أخرى وسيأخذونه، كان أخي يسأل دائمًا، أين ذهب بقايا الجيش المصري والفدائيون الذين لجأوا منذ البداية للاحتماء تحت الأشجار في الغابة، قال له والدي، هناك من قاد أولئك الجنود في الليل عبر (فلسطين) المحتلة إلى الضفة الغربية التي كانت تخضع قبل الاحتلال الإسرائيلي للمملكة الأردنية الهاشمية، وربما هناك أفراد قلائل لا زالوا يذهبون إلى الضفة الغربية ولكننا لا نعرف من يأخذ الناس ومن يرشدهم إلى الطريق، قال أخي، إذن إذا حضر اليهود مرة ثانية إلى هنا أو قبضوا علي، فإنني سأتظاهر بالطاعة وعند أي منعطف في شوارع المعسكر الضيقة سأحاول الفرار بين البيوت، وعلى الأقل ستكون هناك نسبة للنجاة بدل أن أتركهم يطلقون الرصاص علي في النهاية من الخلف، ولو نجوت سأحاول أن أتوجه إلى الغابة

فعساي أجد من أرافقه مع من يذهبون متسللين إلى الضفة الغربية، فـ (الأردن) ومن ثم العودة إلى (مصر)، تضايقت كثيرًا وأنا أسمعه يقول ذلك وأصبت بخوف ورهبة وتخيلات مأساوية، حزنت عليه كثيرًا، هذا الذي كنت أعرفه لا يخاف أحدًا، والذي كان يُعطيني الملابس العسكرية ويعطيني قطع النقود وكان يشجعني في الدراسة، كنت أتمنى لو أستطيع أن أفعل له شيئًا أو أعيد إليه الأمان، كانت سبل الحياة شحيحة والقلق والخوف على كل شيء من الإسرائيليين ملازمًا لنا ليل نهار.

في تلك الأيام عمل الجيش الإسرائيلي على قتل الكثيرين من أبناء قطاع (غَزّة) خصوصًا من سكان المعسكرات في الشاطئ وفي معسكر (جباليا) ومعسكر مدينة (خان يونس) ومعسكر (رفح) ومعسكرات المناطق الوسطى أيضًا وكذلك في المدن، إلا أن مدينة (خان يونس) ذاقت الأمرين وقتل منها أناس كثيرون.

كنا في الليل ننام جميعًا في غرفة واحدة لنؤنس بعضنا بعضًا، وحتى داخل الغرف كنا نخاف أن نتحدث مع بعضنا البعض إلا همسًا، وذلك خوفًا من أن يسمعنا جنود الدوريات الإسرائيلية الذين كانوا يجوبون الشوارع ليل نهار، كان لدينا جهاز راديو يعمل بالبطارية السائلة التي تشبه بطارية السيارة أو هي نفسها، وكان والدي لمرة واحدة كل ليلة وفي ساعة معينة يفتح جهاز الراديو، وكنا نستمع إلى نشرة الأخبار من القاهرة، كانت أختي الصغيرة في تلك الأيام مريضة وكان عمرها لا يتجاوز السنتين وشهورًا قليلة وكانت تَسْعُل من شدة المرض، وكانت فور أن تبدأ بالسُعال كان مَن بجانبها من أفراد الأسرة يضع يده أو أية قطعة قماش على فمها خوفًا من أن يسمعها الجنود الذين يتمشون في طرقات المعسكر وحتى لا يدخلون دارنا ونتعرض لخطرهم أو مضايقتهم خلال الليل.

وبينما نحن على هذا المنوال والأيام تمضي متثاقلة وحتى تلك الفترة فلم تردنا أية أخبار عن أخي الآخر الذي كان ملتحقًا بالجيش أيضًا، وبقي الحال ضبابيًا، وبقيت إرهاصات تلك الأيام خليطًا من كل ما يُحزن ولا يسر، في صباح أحد الأيام وقبل شروق الشمس، سمعنا صوت آلية تجوب شوارع المعسكر الرئيسية، وكان يتحدث منها الميكروفون، وكان ينادي على الناس من سكان المعسكر معلنًا، إنه يتوجب على كل الرجال من سن السادسة عشرة إلى سن الستين، عليهم أن يتواجدوا في مدة أقصاها الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم في ساحة مدرسة الرمال الابتدائية - أصبحت بعد دخول السلطة الفلسطينية سنة ١٩٩٤م دائرة الترخيص والمرور - كان الخوف قد تملك قلوب كل الناس فلم يتخلف أحد عما طلبه اليهود، لأن الخوف من اليهود كان قد غزا قلوب الفلسطينيين جميعًا، وذلك منذ أيام عام ١٩٤٧/١٩٤٨م، هناك في ساحة المدرسة قيل إن كل الرجال أمروا بأن يجلسوا على الأرض، وأمروا بالمرور وأحدًا تلو الآخر أمام سيارة جيب كانت مغطاة من الخلف بقماش وتحت ذلك الغطاء كان هناك فتحة صغيرة يستطيع من خلالها الإنسان أن ينظر إلى من يمر أمامه، قيل أن أحد عملاء (إسرائيل) من الجواسيس الفلسطينيين كان يجلس بداخل السيارة، وربما كان أكثر من شخص، وكان هذا العميل بإشارة خاصة منه يجعل الجنود الإسرائيليين، يشيحون لكل شخص يمر أمام تلك السيارة بأن يذهب إلى اتجاه معين،، وفعلاً تم القبض على كل من كان جنديًا في اللواء الفلسطيني، كان أخي من الذين أُخذوا في ذلك اليوم واختفى مرة أخرى، وأسلمنا قدرنا ثانية إلى الله في أمر الأخوان الغائبان، ولم يعد باليد حيلة، ولم نعد نستطع لهم شيئًا، في ذلك اليوم رأيت أمي وزوجة أخي تبكيان بعد أن عاد والدي ومعه أخي المدرس إلى البيت ولم يعد معهم الأخ الذي كان جنديًا.

١٣-٦ الجنود الإسرائيليون يستبيحون الأعراض.

استتب الأمر في قطاع (غَزّة) للإسرائيليين وتسلموا كل الإدارات العامة بما في ذلك أجهزة الخدمات، وأضحوا السلطة الحقيقية في البلاد، ومنذ تلك الفترة عرفنا كيف كان الاحتلال بغيضًا في كل العصور، وأن الاحتلال الإسرائيلي هو الأسوأ، من التصرفات التي ضايقت الناس كثيرًا في معسكرات اللاجئين وأزعجتهم وحدثت أكثر من مرة، كان قيام أفراد من الجيش الصهيوني على صورة مجموعات صغيرة، كانوا يدخلون بعض البيوت في الليل خلال منع التجول، وكانوا يقومون باغتصاب النساء أمام أزواجهن، أو أحدهما يأخذ الزوج على ناحية وآخر يقوم بعملية الاغتصاب، كان لمثل تلك الأحداث وقع الصاعقة على عقول الناس، وقد قُدمت الشكاوي الكثيرة من قبل الناس إلى قيادة الجيش الإسرائيلي في القطاع، ووعدت تلك القيادة بمنع حدوث مثل ذلك إلا أن شيئًا من هذا لم يحدث، ورأى الناس بأن يعتمدوا على أنفسهم فاتفقوا إنه إذا دخل أحد الجنود بيتًا في المعسكر في الليل، فإن على أي شخص من أهل ذلك البيت أن ينادي مستغيثا بأعلى صوته، وأن على الجيران وكل من يسمعون ذلك الصوت أن يقوموا بنفس العمل أيضًا أي يستغيثون، وذلك لأجل أن يخاف الجنود الإسرائيليين ويهربون، وفعلاً تشجع الناس ونجحوا في أغلب الأوقات في تطفيش العابثين بأعراض العباد، إلا أن ذلك لم يثن الإسرائيليين عن تكرار ذلك إلى أن ذهب الناس في ظنهم أن ذلك قد يكون نوع من التنكيل والعقاب المخطط له من قبل الجهات العليا في السلطة الإسرائيلية، استمر الحال هكذا والناس في قلق وخوف دائمين وأضحوا متشائمين أكثر، وكأنهم لا يتوقعون إلا الجديد الأسوأ، وفي الحقيقة لقد أُستفز الناس كثيرًا وقد سمعت أهل حارتنا يذكرون بالاسم، أن الجنود الإسرائيليين قد اغتصبوا إحدى النساء في أسرة كانت تسكن في منطقتنا، وفعلاً في إحدى المرات صحونا على صوت إحدى النساء المستغيثات، ورأيت

كل سكان حارتنا من الكبار يخرجون إلى الشوارع في عز الليل، والكل كان متحمسًا وجادًا في مطاردة الجنود، حتى إنني شاهدت أحد الرجال الطاعنين في السن وكان ضريرًا وكان يقوده حفيده، كان يقول على طريقته، أين هم الأوغاد، أمسكوني بأحد منهم لأضربه ضربًا مبرحًا، وكان يقصد الجنود الإسرائيليين الذين حاولوا الاعتداء على بعض النساء في أحد بيوت المعسكر، على أثر ذلك وبناء على الشكاوي الكثيرة التي كانوا يقدمونها إلى الجهات المختصة في الإدارة الإسرائيلية في قطاع غزة، فقد حضر إلى المعسكر أكثر من مسئول إسرائيلي خلال ساعات النهار وتناقش وتحاور الناس معهم، وحاولوا تهدئة العامة من الناس بالعهود والوعود، ورغم ذلك لم تتوقف تلك الأعمال اللا أخلاقية التي كان يقوم بها الجنود في الليل، في أحد الأيام، صحونا في الصباح على سماع خبر حادث مروع، كان الناس يتناقلونه بينهم، كان مفاده أن جنودًا إسرائيليين قد دخلوا بيت أحد المواطنين خلال الليل، وكان اسمه (صلاح اللبابيدي)، وهو أصلا من لاجئي مدينة (يافا)، وكان يعمل مدرسًا للمواد الفنية في مدرسة (غَزّة) الجديدة الإعدادية التي كنت أدرس فيها في تلك الأيام، قالت الرواية إن اليهود قد حاولوا ليلاً، أن يغتصبوا زوجته فرفض وقاومهم بما استطاع فقتلوه رميًا بالرصاص، ثم قاومتهم الزوجة بشراسة لحماية عرضها فقتلوها أيضًا، وكانت الإدانة واضحة وآثار العنف ظاهرة على جثتي الضحيتين، وكان المؤلم إلى كل من سمع ذلك الخبر المفجع، أن طفلين برعمين صغيرين هما (عَوْني و تُحْفَة) وجدا في الصباح حول جثث والديهما وكانا يبكيان، وأما في الحقيقة فقد كان الخبر بالنسبة لنا عاديًا كوننا تعودنا منذ عام ١٩٤٨م على الموت ورؤية الجثث والموتى، ثم إن الذي حدث لهذه الأسرة ليس هو الحادث الوحيد الذي حدث في تلك الفترة، إلا أن موقع سكن تلك الأسرة بالنسبة لمدينة (غزة)، ولوقوعه على الطريق العام الذي كان يستعمله موظفي مراقبي الهدنة التابعين لهيئة (الأمم المتحدة) من الذين كانت

إقامتهم في تلك الناحية على شاطئ البحر، فبسبب وجود هؤلاء الموظفين الدوليين، أُعطي الخبر قوة أكثر وجعله يتصدر نشرات الأخبار العربية والعالمية، وصدرت على أثره إدانة لممارسات (إسرائيل) في قطاع (غَزّة) خصوصًا وأن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت (دوايت أيزنهاور) كان غير راض عن (إسرائيل) في تلك الفترة، وذلك بسبب تآمرها مع (بريطانيا) و(فرنسا) بدون علم الولايات المتحدة الأمريكية في الاعتداء على (مصر) عام ١٩٥٦م، ذلك بعد أن قامت (مصر) بتأميم الشركة العالمية البحرية لقناة السويس، وحيث كانت أمريكا تسعى لميراث نفوذ الإمبراطوريات القديمة مثل (بريطانيا) و(فرنسا)، وهي هنا لا تحبذ السماح بتقوية هاتين الإمبراطوريتين الهارمتين مرة ثانية، ولذلك وجدتْ أمريكا أن حرب (بريطانيا) و(فرنسا) و(إسرائيل) ضد (مصر) تتعارض مع استراتيجياتها الوطنية، بعد ذلك الحادث المؤلم الذي تعرض له الشرف والكرامة الإنسانية وقُتل فيه بريئين تركا خلفهما طفلين في عمر الزهور، أدى ذلك إلى توبيخ عالمي لـ (إسرائيل)، وأدى إلى توقف الجنود الإسرائيليين عن محاولات اغتصاب النساء في قطاع غزة.

في شهر مارس سنة ١٩٥٧م فجأة وبدون سابق إنذار، فُرض على قطاع (غَزّة) كله ليلاً ونهارًا نظام منع التجول، كان الطقس سيئًا وكانت الرياح شديدة، وخارج الدور كان لا يُطاق كثيرًا بسبب قسوة الجو والبرد، ولهذا كان الجو نفسه يساعد على قلة الحركة، استمر حظر التجوال على معسكرنا من الصباح الباكر حتى صباح اليوم التالي، وقبل شروق الشمس مرت في طرقات المعسكر سيارة إسرائيلية سمعناها فقط ولم نرها، كانت تنادي من خلال ميكروفون لن تفهم منه عائلتنا شيئًا ولم تثر تلك السيارة أية شبهة في نفوسنا، في الصباح وكعادتنا نحن الصبية رحنا نتفحص الوضع المحيط بدورنا ثم بحارتنا إن لم يكن هناك جنود، وكان نفس الشيء تقريبًا يفعل الآخرون من أمثالي في الشوارع

والحارات الأخرى، خرجت في ذلك اليوم وكان الجو مشمسًا، وخطوت في الطرقة التي كانت تقع أمام باب دارنا ودور الجيران، ثم اتجهت إلى الشارع الأوسع في منتصف الحارة، وقبل أن أقترب من طلمبة المياه/مضخة المياه التي كان يأخذ منها الناس ما يحتاجونه من مياه، فإذا بي أسمع من بعيد من يقول، إن اليهود قد انسحبوا من (غَزّة)، ما كدت أسمع ذلك فإذا برجلاي تسبقاني متجهة بي إلى جنوب المعسكر، وهي الجهة التي تؤدي إلى منطقة الميناء فشارع (عمر المختار) فوسط مدينة (غزة)، في البداية جريت شوطًا ربما لمسافة ثلاثمائة متر متواصلة بعيدًا عن دارنا، ثم توقفتْ كما فعل غيري أيضًا، وذلك لنتأكد من أن المنطقة التي نمر فيها من المعسكر أيضًا تؤيد أن اليهود قد خرجوا من (غَزّة)، وكما سمعنا في البداية خصوصًا وإننا كنا متوجسين خيفة وشكًا كوننا كنا بالأمس فقط تحت نظام منع التجوال، حينما اقتربنا من الطريق الذي يصلح لسير السيارات الذي كان يؤدي إلى خارج المعسكر، فإذا بي أشاهد مئات من أمثالي في سباق ومزاحمة للدخول إلى ذلك الطريق، وكأننا قد وصلنا كلنا توا ومرة واحدة إلى ذلك المكان إلا أننا أكملنا طريقنا في اتجاه الميناء، لفت أنظارنا هناك من كانوا يحرسون مركز التموين التابع لوكالة غوث اللاجئين، كان أول مرة في حياتي أرى مثل أولئك الجنود فقد كانوا يختلفون في كل شيء عن الجنود الإسرائيليين، كانوا يختلفون في لون بشرتهم وفي تماثلهم في كل شيء، وكانوا يختلفون في سلوكهم تجاهنا أيضًا، ويكفي أننا كنا إذا نظرنا إليهم وتقابلت أعيننا، كانوا يشعروننا بأننا لسنا غايتهم بعكس الجنود الإسرائيليين الذين كان كل ما يصدر عنهم، هو ضربنا أو ركلنا أو محاولة ذلك، وإذا اقتربنا منهم كانوا يشتموننا ويأمروننا بالوقوف ويحقروننا ولا يخطئون في ركلة أو دفعة بقبضة اليد، وفي الأماكن العامة من بعيد إذا كنا مجموعة كانوا يطلقون النار من أسلحتهم فوق رؤوسنا، كان الجنود الذين يحرسون مركز التموين في ذلك اليوم هم من أفراد القوة النرويجية التابعة لقوات حفظ السلام الدولية التي تسلمت قطاع (غَزّة) من إسرائيل، حاولنا من بعيد أن

نحييهم فلم يفهموا علينا ولم يفهموا معنى هتافاتنا التي كانت تنادي بالوحدة العربية ولا لتدويل قطاع (غَزّة) لأن (إسرائيل) دعتْ إلى تدويله كشرط من شروط انسحابها منه حتى لا تعود إليه الإدارة المصرية المعادية لإسرائيل في تلك الأيام.

استمرت في ذلك اليوم سيول من البشر من مختلف الأعمار تنضح من معسكر الشاطئ متجهة إلى منتصف مدينة (غزة)، ولم أعد إلى دارنا لإعلام الأهل بما رأيت لأنني ظننت أن هذه الأخبار ستظل مستمرة وربما عرفوا الآن مثلي أيضًا، والمهم أن الإسرائيليين قد خرجوا ولن يعودوا بعد ذلك، عند المركز العام للشرطة وهو مركز تجمع الإدارات الحكومية في مدينة (غزة)، وكان يسمى بـ (السرايا) وكان يقع بين منتصف مدينة (غَزّة) تقريبًا من ناحية المساحة الجغرافية أو الأقرب قليلاً نحو شاطئ البحر من منتصف المدينة، التقينا مع جموع وكتل من البشر كان لا يتسع لها شارع (عمر المختار) ولهذا راحت تفيض إلى الشوارع الجانبية أيضًا، وكانت تضغط من شتى الاتجاهات على شارع (عمر المختار) الشهير، ابتداء من شاطئ البحر وحتى حارة (الشجاعية) في أقصى الشرق والى مداخل (غَزّة) المؤدية إلى المدن والبلدات الأخرى في القطاع، في ذلك اليوم أُجبرت قيادة البوليس الدولي التي استلمت من (إسرائيل) قطاع (غزة)، أن تفرج عن الزعيم الوطني الفلسطيني (منير الريس) الذي كان مسجونًا من قبل (إسرائيل) في ذلك الحين، لم أر مثل تلك الحشود البشرية في حياتي، وكانت كلها تهتف بشعارات مختلفة، وكانت فوقها تموج يافطات كثيرة مكتوب عليها شعارات مختلفة أيضًا، وكان الجميع يهتف للعروبة وللوحدة العربية ولـ (جمال عبد الناصر)، واستمرت تلك المظاهرات لأسبوع كامل، وبعد فترة ليست وجيزة وتحت ضغط المطالبة الشعبية بعودة الإدارة المصرية لقطاع (غزة)، وربما لم تمض سوى عشرة أيام على خروج (إسرائيل) إلا وعادت الإدارة المصرية محتفى بها إلى قطاع (غزة)، لكن الكابوس الإسرائيلي بقي في الذاكرة.

الفصل الرابع عشر

١٤-١ فتى من اللاجئين.

كنت أحتاج إلى ملابس تناسب سني وتتمشى مع غيري من أبناء الحارة في وقت أضحى للملابس أثرٌ كبير على نفسية المراهق وعلى نظرة الآخرين له، وهكذا وقعتُ فريسة لصراع نفسي عميق أخذ اتجاهين مختلفين راح كل واحد منهما يحاول الانتصار على الآخر، الاتجاه الأول أنني كنت ثائرًا وغاضبًا وكنتُ أود أن أخرج من الحرمان الذي أنا فيه بأية طريقة، والاتجاه الثاني هو المقاومة الناتجة عن التمسك بالعصامية والرزانة على حساب المظهر العام ومقاومة الاعتزاز المفرط بالنفس.

ربما كان تعريفي لتلك الحالة النفسية التي كنتُ أعيشها في تلك الأيام ليس بهذه الدقة أو العمق في مثل ذلك العمر، ولكنه كان شيئًا من هذه المعاني، لذلك بقيت أدفع الثمن وأنا صامت، باستثناء بعض الملاحظات العابرة التي كنت أرميها أمام أمي في اتجاه الغمز في قناة أن لا أحدًا يهتم بي.

لجأت كثيرًا خصوصًا في وقت الإجازات، وذلك إلى السعي للحصول على بعض القروش، عن طريق بيع بعض السمكات التي قد أحصل عليها من حول من يصطادون السمك بالديناميت من البحر، وأحيانًا كنت أذهب مع بعض أبناء حارتنا، وكنا نقوم بالمتاجرة ببعض الفواكه كالجميز مثلاً، كنا نشتري منه في كل مرة من إحدى الكروم البعيدة حوالي عشرة كيلو جرامات، وكنا نحضره بواسطة سلة خاصة، وكنا نحمله بالتناوب على أكتافنا، ثم نقوم بالمرور به بين طرقات المعسكر أو على شاطئ البحر أمام المصطافين، وكنا نبيعه على الناس بالكيلو، وكنا أحيانًا نكسب قرشًا أو قرشين في اليوم الواحد وكنا نتقاسمها.

كان عام ١٩٥٨م حاسمًا في حياتي، وفيه أصحبتُ شابًا ما زال في سن المراهقة، وأصبح لي شخصية مميزة، وأخذت لنفسي لونًا خاصًا ورحت أودع الطفولة إلى الرجولة، أصبحتُ في الصف الرابع الإعدادي، وكانت مرحلة عامة بانتهائها كنت سأنتقل إلى المرحلة الثانوية، وكان هناك امتحان يُرسل عادة من (مصر) من وزارة التربية والتعليم كما هو الحال بالنسبة لامتحانات الثانوية العامة، كان نظام التعليم المصري الذي كان مُطبقًا في قطاع (غَزّة) في ذلك الوقت أربع سنوات ابتدائي تنتهي بامتحان عام لكل المدارس، ويحصل الطالب بعده على شهادة الابتدائية العامة، وبالمناسبة فقد حصلت في الشهادة الابتدائية على مرتبة الأول مع اثنين آخرين على ثمان فصول في مدرسة (الرمال) الابتدائية في عام ١٩٥٤م، المرحلة التالية كانت الإعدادية ومدتها أربع سنوات أيضًا ثم تليها المرحلة الثانوية، ومدتها ثلاث سنوات وكان يحصل الطالب بعدها على شهادة الثانوية العامة.

كنتُ مع مجموعة من الطلبة من أبناء حارتنا خلال الصف الرابع الإعدادي في سباق من أجل النجاح والتفوق، كانت تلك السنة قمة ما استطعته ودرة الجهد الذي قدمته في حياتي الدراسية، كنت أعرف شيئًا وأحدًا فقط كل يوم، كنت أصحو في الصباح وكنتُ أذهب إلى المدرسة، وبعد الظهر كنت أعود إلى الدار، وكنت أتناول طعام الغداء الذي أضحى متوسط الحال أو حسنّا مستواه، وبعد ذلك كنت آخذ أحد الكتب وأمضي إلى شاطئ البحر، ثم أتجه شمالاً على الأقدام بينما أنا أطالع دراستي في الكتاب متنقلاً على مهل فوق رمال الشاطئ، لم أكن الوحيد الذي كان يفعل ذلك، فقد كان المئات من أمثالي يفعلون هذا، كنت أستمر هكذا لمسافة أربع كيلومترات أو كذلك، وكنت أقبع عائدًا في اتجاه الجنوب إلى المعسكر، وما أن أصل إلى هناك إلا وتكون الشمس على وشك الغروب، وكنت أعود إلى الدار فطعام العشاء فالسهر على ضوء مصباح الكيروسين

الصغير للدراسة ثانية فالنوم، كان هذا يحدث في أغلب أيام الصيف، وحيث إن حرارة الشمس تكون محتملة على الشاطئ بعد الظهر، أما في الشتاء وحيث إن الرياح الباردة كانت تضايقنا على الشاطئ، وكذلك أمواج البحر العاتية التي كثيرًا ما كانت تفاجئنا وتبلل ملابسنا إذا ما داهمتنا فجأة خلال سيرنا على حافة الماء واليابسة، في الشتاء كنا نذهب إلى الغابة وكنا نجلس في ذروة الأشجار اتقاء للرياح أو في أسفل تلة رمل وكنا نقوم بالدراسة ومطالعة واجباتنا المدرسية، وكنا نمكث هناك حتى يقترب مغيب الشمس ثم نعود ثانية إلى بيوتنا، أذكر بأنني في تلك الأيام قد تفوقت على نفسي وكنت أحفظ مواضيع الدراسة عن ظهر قلب من كثرة إعادة دراستها، بل إنني كنت أحفظ بالإضافة إلى ذلك أبوابًا كاملة من كتاب التاريخ المقرر أو كتاب الجغرافيا، هذا عدا النصوص وقصائد الشعر وسور من القرآن الكريم، كنت أحفظ هذه الأشياء بما فيها حروف الجر وحروف العطف، وكنت إذا سأل المدرس سؤالاً، ورفعت يدي للإجابة وأشار لي، فإذا ما أعطاني الفرصة لأجيب، كان بعض الزملاء يتابع في الكتاب وأنا أقول ما عندي، في بعض المرات وبعد خروجنا من الدرس، قال لي أحد التلاميذ من زملائي، ما هذا؟ أنت يا (عبد الكريم) تحفظ الكتاب صمًّا/أي عن ظهر قلب، في امتحان الشهادة الإعدادية حصلتُ على ترتيب الثامن عشر على كل الذين تقدموا لذلك الامتحان في ذلك العام في قطاع (غَزّة) وكان عددهم ٥٥٠٠ طالبًا وطالبة، وأضحى تفوقي في الدراسة ملموسًا لدى الكثير من الأقارب والمعارف، وازداد رصيد احترامي عند والدي أكثر وراح بتفاؤل يراهن على مستقبلي، وكان ذلك يدفعني أكثر إلى الاستقامة والتمسك بالفضائل، وحذاني هذا بأن أضحي في أحيان كثيرة فيما يهتم به الشبان من أمثالي من هوايات ولهو خوفًا من أن تُشوه صورتي لدى الكثيرين الذين كانوا يعطونني احترامًا أكبر من سني وخصوصًا والدي، كانت الدراسة عند الطالب اللاجئ حياة أو موت، وكان من ينهي

الثانوية العامة يكون قد وصل إلى بر الأمان في نظر المجتمع، لأن ذلك يعني بأنه سيحصل على وظيفة مدرس فورًا، وسيرفع من مستواه ومستوى أهله، لهذا كان الغالبية مهتمين بالدراسة، وهل كان يوجد عند الفلسطيني شيء غيرها.

في أول العام الدراسي التالي، قبلت للدراسة في السنة الأولى ثانوي في مدرسة (فلسطين) الثانوية، كانت تلك المدرسة في تلك الأيام أفضل مدارس قطاع (غَزّة) قاطبة، وكانت المدرسة النموذجية، وكان كل طلبتها يُختارون فردًا فردًا، وما عداهم كان يُرسل ويُوزع على المدارس الثانوية الأخرى في قطاع (غَزّة) أو المدارس المهنية كالتجارة والزراعة، منذ أن أعُلنت نتيجة امتحان الإعدادية العامة، أرسلتُ طلبًا للقبول في مدرسة (فلسطين) الثانوية، وبناء عليه فقد رُشحت مع آخرين على أساس التفوق ومجموع العلامات العالية التي حصلنا عليها.
أذكر في أول يوم حضرت فيه إلى مدرسة (فلسطين)، أدخلنا إلى قاعة احتفالات كبيرة أو ربما كانت قاعة مسرح، ومر علينا ونحن جالسين في المقاعد مدير البعثة التعليمية وكان من (مصر) في ذلك الوقت، واخترنا واحدًا واحدًا وأمر بكتابة أسماء الذين اختارهم منا، وأمر بتوزيع الباقين أيضًا على المدارس الأخرى، وربما اختار هذه المرة صغار السن ومن يبدو عليهم الميل للدراسة وكنت منهم.

كان دخولي مدرسة (فلسطين) الثانوية من أجمل الأشياء في حياتي، وكنت فخورا بنفسي أيضًا لانتمائي إليها، في اليوم الثاني لبدء الدراسة تم اختياري من قبل المدرس الأول المسئول لأكون عريفًا الفصل ورئيسًا لمجلس الفصل المكون من ستة طلاب، وأضحى لي أصدقاء جدد وكنا كلاجئين لنا نكهة خاصة مختلفة عن إخواننا المواطنين من أهل مدينة (غزة)، صحيح أن ظروفنا المادية كانت خجولة، إلا أننا تدربنا على شظف العيش وعلى

الشقاء وقسوة الحياة، ولهذا كان ينعكس هذا على تصرفاتنا أمام الآخرين وطريقة أحاديثنا ونمط تفكيرنا، وكذلك عند سماع لهجاتنا التي لا زلنا نحملها متواصلين بها مع أهالينا، وحيث إن غالبية الطلبة في مدرسة (فلسطين) كانوا من المواطنين وهم الطابع الغالب، وكان يظهر الفرق جليًا بين ما نلبس نحن أبناء اللاجئين وبين ما يلبسون، وما يحملونه في جيوبهم وما يمكن أن يكون في جيوبنا من نقود، كنت أرى بعض الطلبة خلال فترات الاستراحة يلتفون حول بائعي المأكولات والحلوى ويخرجون من جيوبهم نقودًا كثيرة، كانوا يشترون ببعضها ويعيدون ما تبقى في جيوبهم! كنت أتساءل مع نفسي، كم يأخذ هذا الشاب نقودًا كل صباح من أهله، وهاهو سيعود إلى داره ومعه نقود أيضًا، وسيعطيه أبوه أو أمه في صباح اليوم التالي نقودًا أخرى! كنت أرى بعض الأهالي ممن هم على هذه الشاكلة يُحضرون طعامًا إلى أبنائهم في المدرسة بحجة أن هؤلاء الأبناء كانوا قد خرجوا زعلانين في الصباح لأمر ما ولم يتناولوا طعام الإفطار! مثل هذه الأشياء لم تكن تحدث بالنسبة لي أو لأمثالي، فلم يكن مقرر لي مصروفًا يوميًا أو أسبوعيًا أو حتى شهريًا، وكان عليّ أن أتدبره بطريقتي الخاصة، ولكن كيف أستطيع ذلك ووقتي لا يسمح بأن أبيع أو أشتري، ثم إنني لست موفقًا كثيرًا في مثل هذه الأشياء، كما كنت دائمًا غير موفقٍ في محاولاتي للسرقة منذ أن كنت صغيرًا جدًا، حينما كان الجوع هو أغلب الأيام في السنة.

في مدرسة (فلسطين) الثانوية أضحيت قلقًا منذ اليوم الأول لبدء الدراسة فيها، وذلك بسبب الفارق الاجتماعي والمادي الذي كان بيني وبين زملائي، وكانت أكثر مشكلة عندي، هي أنني كنت أعتز بنفسي كثيرًا، وكنت في قرارة نفسي لا أشعر بأن أحدًا أفضل مني، أو أليست هذه هي سنة الحياة وسر من أسرار الخالق يُودعها في العباد، كانت لياقتي البدنية جيدة وكنت قويًا وكنت رئيس مجلس الفصل ليس لأنني أكبر الطلبة سنًا بل لأنني ربما في نظر المدرسين أستحق ذلك، وبمناسبة سني مقارنة بالآخرين ممن كانوا

معي في ذلك الفصل، تحضرني حكاية بسيطة وطريفة للدلالة على ما أقول، وهي إنه في أولى الأيام منذ أن بدأت الدراسة في مدرسة (فلسطين) الثانوية، وبعد أن تقرر أن أكون عريف الفصل، في أحد الأيام دخل رجل مهندم إلى فصلنا بين الفترات، ولم يكن عندنا أستاذ داخل الفصل في ذلك الوقت، فوجئت بالرجل المهندم يهم بالدخول إلى فصلنا، قلتُ لطلبة الفصل، قيام، كعادتنا في تلك الأيام لتحية المدرس حينما يدخل الفصل من الخارج، وفعلاً وقف الطلاب بناء على ندائي إليهم، وضحك البعض أما الرجل الذي أوقفت له الطلبة فقد بدا عليه بعض الخجل، ولم أتأكد من السبب إلا حينما دخل وجلس على مقعد بين الطلبة، وهمس لي بعض الطلبة بصوت خافت، هذا طالب مثلنا أيضًا في هذا الفصل، وبعدها شعرتُ أنا بالخجل أيضًا.



١٤-٢ المدرسة الداخلية.

كانت القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقول المثل، هي أن أحد أصدقائي في الفصل وكان اسمه (خالد)، وقد نسيت باقي اسمه مع الأيام، كان (خالد) من أحب الناس إلى قلبي في تلك الأيام فقد تم التعارف بيننا بسرعة البرق منذ اليوم الأول لبدء الدراسة، وراحت صداقته تتوطد بسرعة قصوى، وأصبحنا لا نتفارق إلا إذا غادرنا المدرسة، كان (خالد) من أبناء المواطنين من أهالي (غَزّة) الذين يسكنون في المدينة وليس في معسكر اللاجئين.

في أحد أيام الجُمَع مررتُ على بيت (خالد) وكان قد أعطاني عنوان سكنه، وكنا قد تواعدنا لمشاهدة مباراة لكرة القدم في الملعب الرئيسي في (غَزّة) كانت ستجرى بعد ظهر ذلك اليوم في ملعب مدرسة (الإمام الشافعي)، ذهبت إليه مبكرًا في حدود الظهر، وكنت أظن بأنه سيخرج لي فور أن أدق باب دارهم لنتمشى في مدينة (غَزّة) ريثما يأتي موعد المباراة، إلا أنه تمسك برأيه وأجبرني وأنا في قمة خجلي أن أدخل إلى دار أهله، وأجلسني في غرفة في الدار فهمت أنها غرفته الشخصية، لأن حاجياته كانت فيها، وكان فيها سرير للنوم أيضًا، وبعد قليل أحضر طعام الغداء، وقال، هيا سنأكل كل هذا، لم أجد مفرًا وأعتقد بأنني أكلت ولا أدري كم أكلت، إنما كانت رغبتي في الأكل مكابرة ليس أكثر، وكنت لا أود له أن يلاحظ ارتباكي أو ما أشعر به، وذهبنا إلى المباراة، وكان يقول لي ونحن نشاهد اللعب، أنت يا (عبد الكريم) على غير عادتك، فأنت لست طبيعيًا هذا اليوم! وفعلاً لم أكن طبيعيًا، فقد صحوت في ذلك اليوم على نفسي، وكأنني قد قطعتُ زمنين أو مرحلتين، وكان علي أن أفهم النصف الآخر من الحياة، وكنت خلال سنين مضت قد أقنعت نفسي بأن الحياة هي ما تعيشه أسرتنا وما يعيشه اللاجئون حولنا،

أنا ليس لدي غرفة خاصة بي لنومي وأشيائي الخاصة مثل صديقي (خالـد)، وأنـا لـيس عندي أو عند أي فرد من أسرتنا سرير لينـام عليـه، وأنـا لا أحكـم وغـير مصرح لي أن يكون لي كيان كي أسمح بإدخال صديق قد يأتي ليزورني من بعيد أو أقدم له طعامًا يليق به مثلما فعل (خالد)، في المقابل كنا ستة أفراد ننام في غرفة واحدة في معسكر اللاجئـين، ثم أين الخصوصية حتى أحضر صديقي لأجلس معه، وهل سيكون مناسبًا لأجلس مـع صديقي ذي الخامسة عشر عامًا، ونستطيع أن نأخـذ راحتنـا وأن نتحـدث كـما نفعـل في ساحة المدرسة أو كما كنت في داره.

راحت الأيام تمر متثاقلة خلال النصف الأول من العام الدراسي، وأضحينا عـلى وشـك أن ننهي امتحانات نصف العـام، وبينـما نحـن كـذلك فـإذا بي أقـرأ إعلانًـا عـلى لوحـة الإعلانات في مدرسة (فلسطين) الثانوية التي أدرس فيهـا، قـال الإعـلان مـا معنـاه، إن مركز التدريب المهني التابع لوكالة الغوث الدولية في قطاع (غزة)، على اسـتعداد لقبـول دورة استثنائية جديدة لتعليم المهن ممن حصلوا على الشهادة الإعدادية، وأن المركز سيقبل في شهر فبراير ستة عشر طالبًا في قسم ميكانيكا السيارات، ومثلهم لقسم النجارة، ومدة الدراسة النظرية والعملية هي أربع وعشرين شهرًا متواصلة في المدرسة الداخليـة، ومـن يقبل من الطلبة الجدد سيمنح أيضًا مبلغ جنيها واحدًا كمصروف جيـب في الشـهر عـلى مدى مدة الدراسة.

قرأت الإعلان السابق بالصدفة، ولم تكن من عـادتي أن أقـف أمـام لوحـة الإعلانـات، ولكن هذا حدث في ذلـك اليـوم، وهكـذا لعـب القـدر دورًا، لا أدري حتـى الآن كـم ربحت أم خسرت فيه.

بعد انتهاء الدراسة في ذلك اليوم عدت كعادتي كل يوم مشيا عـلى الأقـدام إلى دارنـا في المعسكر، وخلال الطريق لا أدري كيف وجدت أن ما قرأتـه عـلى لوحـة الإعلانـات في

المدرسة يفرض نفسه على تفكيري، ورحت لا أشارك زملائي أحاديثهم خلال السير، واكتفيت بالتظاهر وكأنني أستمع لمن كانوا يتحدثون، إلا أنني في الحقيقة رحتُ في رحلة متخيلاً فرضًا ومتسائلاً، ماذا لو أنا تقدمت بطلب إلى مركز التدريب المهني لأدخل قسم ميكانيكا السيارات مثلاً، إذا لم أُقبل فأنا لن أخسر شيئا، ولو قبلت فسأحصل على مميزات أنا بطبيعتي أميل إليها، سأحصل أولا على جنيهًا كاملا كل شهر، وسيكون الأكل في السكن الداخي أفضل بكثير مما نأكله في دارنا، إن الحياة أيضًا كما عرفت ممن يدرسون في مركز التدريب المهني سهلة، والرياضة البدنية متاحة بأنواعها، وكذلك يتوفر كثير من المجلات والجرائد التي أحب قراءتها، وفوق هذا كله بعد سنتين من الآن أكون قد حصلت على شهادة مهنية ستؤهلني بالعمل، وربما أستطيع أن أذهب إلى الكويت التي كانت الأعمال متوفرة فيها، والتي تعطي رواتب يستطيع الإنسان بها أن يساعد نفسه ومن يحب أيضًا، قضيت ما تبقى من اليوم وجزء من الليل قبل النوم وأنا أفكر وحائر في موضوع المدرسة المهنية.

في اليوم التالي لا أدري لماذا تأخرت عن الحصة الأولى في المدرسة، ووجدتني أذهب إلى مكتب السكرتير، وأعلمته عن رغبتي في تقديم طلب إلى مركز التدريب المهني، فرد علي: "أنت تبدو صغيرًا في السن وهناك في المركز يفضلون الطلبة الكبار ومن كانت مجاميع علاماتهم ليست عالية، وذلك ليتيحوا لهم فرصة العيش الكريم مستقبلاً"، وسألني الرجل: "كم عمرك يا شاطر؟" قلت له: "عمري خمسة عشر عامًا". أخيرًا أعطاني الطلب وساعدني في تعبئته وأعدته إليه، وقال لي سيعمل على إرساله، علمت بعد ذلك أن ما يقارب الخمسمائة طلب قدمت للمركز المهني من كل قطاع (غَزّة) استجابة للإعلان، وذلك لكي يُختار منها اثنان وثلاثون طالبًا فقط، نصفهم لقسم الميكانيكا والقسم الآخر لقسم النجارة.

منذ أن قدّمت الطلب لم أعد جديًا في الدراسة في مدرسة (فلسطين)، وأعلمتْ كل زملائي في الفصل بذلك، وبدأت بسرعة عجيبة أنسحب من بيئتهم واهتماماتهم، وأضحت ثلتنا من الطلبة لا تتقابل كالعادة في الصباح قبل طابور تحية العلم، ولا نتقابل كذلك خلال الفسح بين الدروس، واعتذرت عن مسئوليتي كعريف للفصل، بحجة أنني أحتاج أن أراجع مكتب السكرتير لأكمل بعض الأوراق بين وقت وآخر، لم يعرف أحد من أسرتنا بما فعلتْ، ولم يخبرهم أحد كذلك، لأن لا أحد من أبناء الجيران من أمثالي قد قبل للدراسة في مدرسة (فلسطين) الثانوية في ذلك العام، استمريت أذهب يوميًا إلى مدرسة (فلسطين) الثانوية ولكن بدون جدية، لا أتذكر الآن كم من الوقت قد مر على تقديمي للطلب، وربما بعد أسبوعين قرأت إعلانًا جديدًا على لوحة إعلانات المدرسة أيضًا، قيل فيه أن إدارة مركز التدريب المهني تدعوا قائمتين من الأسماء من ضمنهم اسمي، أن يبادروا في يوم السبت القادم للمقابلة الشخصية في المركز المذكور.

في اليوم المقرر دخلت على لجنة المقابلة، وكان أمامهم طلبي وفيه كل المعلومات اللازمة، وكانوا يهتمون أيضًا بالعلامات العالية المدونة في استمارة الشهادة الإعدادية، وكانت هذه ليست ذات مشكلة لدي، وبالذات لأنهم كانوا يركزون في الاختيار على من كانت علاماتهم عالية في الرياضيات وفي اللغة الإنجليزية، كانت علاماتي في الرياضيات مائة بالمائة، وفي الإنجليزي ثلاث وتسعين بالمائة، وكان هذا مرضيًا جدًا للجنة التي قابلتها، وكان ذلك باديًا على وجوه أعضائها الأربعة، كان السؤال الوحيد الذي سُئلته، لماذا لا تدخل قسم النجارة بدلاً من قسم الميكانيكا؟ قلتُ، أنا أفضل الميكانيكا لأنني تدربت في أحد جراجات تصليح السيارات في الصيف الماضي. ولم أكن صادقًا، في داخلي كنت أريد الحصول على رخصة لقيادة السيارات مجانية كان يمنحها المركز، ويبدو أنهم قد قبلوا تلك الكذبة، بعد ذلك لم تمض سوى أربعة أيام إلا وأرسلتْ إدارة مركز التدريب المهني

إلى إدارة مدرسة (فلسطين) تطلبني للحضور إلى المركز يوم الخميس القادم، أي غدا بالنسبة لذلك اليوم، في يوم الخميس أخذوا مني استمارة الشهادة الإعدادية العامة، وقالوا لي ولمن حضر مثلي ووقع عليهم الاختيار، اذهبوا الآن إلى بيوتكم، وصباح السبت ودّعوا أهاليكم وتعالوا للعيش في السكن الداخلي، مساء ذلك اليوم قلت لوالدي، إن إدارة مدرسة (فلسطين) أعطتني استمارتي وقالت لي، اذهب إلى مركز التدريب المهني للدراسة هناك، وإن لم تفعل فليس لك مدرسة هنا، لم يستغرب والدي الأمر ولم يشك فيما قلته له ومرّت عليه كذبتي أيضًا، لا أذكر بأن أمي قالت شيئًا في هذا الصدد، وأخي المدرس سمع الخبر ولم يعترض أو يسأل ولم يقل شيئا، وكأن ما فعلته شيئًا عاديًا أو لا يستحق المساءلة، كنا وقتها كلاجئين لا نملك شيئًا ثمينًا، وأهم شيء هو أن نفعل شيئًا، أي شيء، وألا نتوقف أبدًا، فالحاجة ملحة وقسوة الحياة المادية تؤلم باستمرار.

التحقت بمركز التدريب المهني وأصبح بيتي الجديد وحياتي الاجتماعية صبحًا ومساءً، كنا في مركز التدريب المهني ندرس طيلة أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة، ولكن أيضًا كان الكثيرون يمكثون في السكن الداخلي للمركز في أيام الجمع أحيانًا، كان المركز يضم أقسامًا أخرى من المهن عدا ميكانيكا السيارات والنجارة، فقد كان هناك أقسام الحدادة والخراطة والكهرباء والراديو وكذلك البناء، كنا جميعًا نسكن هناك، وكانت الحياة منظمة والخدمات صحية وجيدة.

كنا في الصباح نصحو ونعيد ترتيب أسرَّة النوم بأنفسنا، ثم نتوجه بعد ذلك إلى قاعة تناول طعام الإفطار، وكنا نتناول الإفطار وكل الوجبات الأخرى في نفس القاعة وفي أوقات محددة، بعد الإفطار كنا نتوجه إلى طابور الصباح، وكانت ملابسنا صيفًا أو شتاء موحدة، وكانت توزع علينا الملابس في كل موسم، كنا ندرس المواد النظرية في قاعات الدرس، والتدريب العملي في ورش معدة خصيصًا لكل قسم، وفي أغلب الأحيان كان

هناك المدرسون المتخصصون لإعطائنا المنهج المقرر، بعد الظهر كنا نعود إلى السكن الداخلي ثم نذهب إلى قاعة الطعام لتناول الغداء، وبعد ذلك نذهب كل إلى حاله، بعضنا كان يذهب لممارسة هواياته، والآخر للنوم بعد الظهر للراحة، وآخرون للمطالعة أو قراءة الجرائد، كان محظورًا علينا الخروج بعد انتهاء الدرس إلا في ظروف ضيقة وبإذن خاص من مدير السكن الداخلي، ويجب أن يكون عذرًا مقبولاً للحصول على تصريح الخروج، كان المركز يُعد لنا أسبوعيًا أو شهريًا بعض الأنشطة العامة التي كانت كل الإدارات تشترك بها، مثل المناسبات التي كنا نقوم فيها بالمسابقات الرياضية والترفيهية وما شابهها، كان المستوى الاجتماعي في المركز متقدمًا عما هو المعدل العام في المجتمع خارجه، وذلك بسبب التأثر بعلاقة المركز بموظفي الهيئة العالمية، ولوجود كبار مدراء الإدارات من الأوروبيين أو الأمريكيين، كانت فترة السنتين اللتين قضيتهما في المركز شيئًا هامًا في حياتي وفي مسارها الخاص، كنتُ أغلب الأحيان أقضي يوم الجمعة في المركز، وكنت لا أذهب كثيرًا إلى دارنا في المعسكر، وإن حدثَ وذهبتُ فلا أجد جديدًا يشدني في تكرار الزيارة المنتظمة للدار، كان الوالد مُحبا لتوجيه الأسئلة، وكانت له طريقته السلسة البسيطة التي لا تصدر إلا عن طيبة، كان يلح بالسؤال ولا يجعل المرء إلا أن يُجيب على ما يطرحه من سؤال أو تساؤل، كان يسألني عما أفعل في المركز وعما أدرس وماذا استوعبت حتى الآن، وكنت أُمنيه بمستقبل لي جيد، وكنت أقول له عندما أتخرج، سأعمل إما مع وكالة غوث اللاجئين في قسم الصيانة الميكانيكية أو أن أذهب إلى الكويت أو ليبيا للعمل كميكانيكي هناك، كانت تلك الأحاديث وما كنت أؤكده للوالد من مستقبل جيد كان ينتظرني يجعله يعيش على أمل، وفي نهاية كل حديث كان يقول: "الله يوفقك".

خلال دراستي في مركز التدريب المهني، أبديت تجاوبًا إيجابيًا وكان ذلك شيئًا طبيعيا بالنسبة لمتمرس في الدراسة وجاهز للاستيعاب واختار بمحض إرادته ما هو فيه، لم تمض سوى عدة شهور إلا وظهرت نتائج بعض الامتحانات الدورية، وظهر تفوقي من خلال نتائج الامتحانات بصفة عامة، وبعدها تصدرت مع عدد قليل من طلبة قسم ميكانيكا السيارات في الناحية العملية أيضًا، في نهاية فترة الأربعة والعشرين شهرًا التي درستُ وتدربت فيها في مركز التدريب المهني، كنت الأول على قسم ميكانيكا السيارات في المواد النظرية والعملية، وحصلتُ أيضًا على رخصة لقيادة السيارات مجانية وكانت ضمن مناهج التدريب وعلى نفقة وكالة الغوث الدولية.

في إحدى الأمسيات تم الاحتفال بالخريجين من أمثالي، وكان احتفالاً بهيجًا، وحضره مدير وكالة غوث اللاجئين في الشرق الأوسط، وكنت أول من نُودي على اسمه من الخريجين بما فيهم الأقسام الأخرى غير قسم ميكانيكا السيارات، وتسلمت شهادة التخرج من مدير وكالة الغوث الدولية، وقال لي بلكنة أجنبية: "مبروك".
كان لتخرجي أثر حسن في محيط الأسرة، وكان ما لفت النظر هو أنني كنت الأول على المتخرجين عام ١٩٦١م.
بعد هذا حاولتُ أن أفعل شيئًا، فقد شجعني والدي بأن أعطاني قروشًا لشراء كمية من طوابع البريد، وذلك لأجل أن أرسل طلباتْ عمل إلى السعودية والكويت، خصوصًا إلى الشركات العالمية المعروفة هناك، كان أغلب ردودها سلبيًا إما بالاعتذار أو بالقول بأن طلبي لديهم وسيكتبون لي حين الحاجة.

١٤-٣ محاولة السفر إلى ليبيا.

كان لي صديق بالمراسلة من المملكة الليبية - سابقا - وكنت قد بدأت مراسلته بالبريد منذ عدة سنوات خلتْ، بعد أن حصلت على اسمه وعنوانه من إحدى المجلات المصرية

في زاوية هواة المراسلة، وكان في مثل سني، وقد تبادلنا على مرور السنوات رسائل كثيرة وصورًا شخصية، وفي نفس العام الذي أنهيتُ فيه دراستي في مركز التدريب المهني، كان هو قد أنهى الثانوية العامة في مدينة (بني غازي) بـ (ليبيا)، وعلى أثر ذلك عرفتُ بأنه قد بدأ العمل في المطبعة العصرية في مدينة (بني غازي)، كتبت له واقترحت عليه أن أزوره في بلده، علّي أجد فرصة للعمل هناك، وكانت (ليبيا) أيضًا في ذلك الوقت دولة منتجة للبترول، وكان بها قواعد عسكرية للقوى العظمى، وهذا يوفر فرص للعمال الجدد، طلبت من صديقي الليبي أن يرسل لي دعوة خطية بتوقيعه لأجل تقديمها لجوازات الإدارة المصرية في (غَزّة) لإصدار أول وثيقة سفر لي، ولعمل فيزا زيارة لدخول (مصر)، وأسافر إلى (القاهرة) أولاً، ومن ثم أعمل على تقديم طلب إلى السفارة الليبية هناك، لأجل الحصول على فيزا إلى (ليبيا)، استغرق هذا بعضًا من الوقت واحتاج إلى بعض الوساطة لدى بعض المتنفذين في الإدارة المدنية في (غزة)، وأخيرًا وبعد جهد جهيد حصلت على مبتغاي.

كان سفري إلى (مصر) قرارًا بمبادرة وبتشجيع من الوالد ولا أحدًا سواه، فقد كنت الأوسط بين الإخوة، ثلاثة أكبر مني سنًا وثلاثة أصغر، وقد عملنا أنا وهو في تلك الأيام كفريق لأجل الوصول إلى غاية، وهي تحسين الوضع المادي للأسرة، وبدافع من الغيرة حيث كان الكثيرون من أبناء قطاع (غَزّة) يعملون في دول البترول التي تعطي رواتب عالية، كان المدرس الذي يعمل بشهادة الثانوية العامة في دولة بترولية، يتقاضى راتبًا شهريًا مقداره ما يعادل مائة جنيه مصري، في الوقت الذي كان فيه المدرس الذي يعمل مع الحكومة بنفس المؤهل في مدينة (غَزّة) مثلاً، كان يتقاضى راتبا شهريا مقداره أحد عشر جنيهًا فقط، ومثيله العامل مع وكالة الغوث التي كانت تدفع رواتب عالية، كان يتقاضى خمسة عشر جنيها فقط في الشهر.

كانت درايتي عن العالم خارج قطاع (غَزّة) محدودة ونظرية، وكان مجتمع قطاع (غَزّة) محافظًا بالمقارنة بغيره من سكان المدن الكبرى والعواصم الأجنبية، وكانت القاهرة في تلك الأيام أكثر العواصم العربية حضارة ورقيًا، كان والدي سخيًا معي، فقد أعطاني خمسة وسبعين جنيهًا مصريًا، هي كل ما ادّخرته الأسرة في ذلك الوقت، وصنعتْ لي والدتي حزامًا من القماش العريض، ربطته على وسطي تحت الملابس الداخلية مباشرة على الجلد لأخفي به النقود، وسافرتُ إلى (القاهرة) بالقطار على أمل أن أذهب إلى (ليبيا)، كانت الرحلة مرهقة بالقطار، ابتدأت من (غَزّة) في الساعة الخامسة صباحًا ووصل القطار عبر صحراء (سيناء) إلى (القاهرة) في حوالي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، ذهبت بسيارة أجرة إلى فندق (فلسطين) الذي كان يقع آنذاك على أول سوق (الموسكي) من جهة شارع (بور سعيد)، وكان يملكه كما علمتُ أحد الفلسطينيين من سكان (غزة)، ولهذا نُصحت بأن أذهب إليه وأن تكون إقامتي فيه خلال ترددي على السفارة الليبية في (القاهرة) باعتبار أنها ما هي إلا عدة أيام وأحصل بعدها على فيزا لدخول (ليبيا)، في مكتب الاستقبال بالفندق قدمت وثيقة سفري، ودفعتُ أجرة الليلة الأولى مقدمًا بناء على طلب الموظف، وأوصلني أحد السعاة إلى غرفة متوسطة المساحة، كان بها ثلاثة أسرة أحدهما لي، والآخران لنزيلين آخرين.

لم أوفّق في الحصول على فيزا لدخول (ليبيا)، في آخر مراجعة لي لسفارة (ليبيا) آنذاك سائلاً عن طلب الفيزا على مدى شهر كامل، أجابني القنصل بأن الرد لم يصل بعد من (ليبيا)، وحينما قلتُ معترضًا، أي رد هذا الذي يأخذ شهرًا بطوله، قال القنصل: "إن (ليبيا) لا تسمح لا للراقصات ولا للفلسطينيين بزيارتها".

مكثت في (مصر) ستة أشهر مقيمًا في الفندق، وعند عائلتين مصريتين في (القاهرة) و(الإسماعيلية) تعرفت عليهما لأنهما تحملان نفس اسم أسرتنا، وكنت قد صرفت كل

النقود التي أعطاها لي والدي، وأخيرًا عدت إلى (غَزّة) بخفي حنين محملاً باليأس والفشل الذريع وبحالة نفسية سيئة.



١٤-٤ التخبط.

وصلتُ إلى مدينة (غَزّة) ولم يُعاتبني أحدٌ من الوالدين أو من الإخوة الآخرين، وربما كان ذلك اتفاقًا أو قرارًا وافق عليه الوالد، وذلك لحساسية وشفافية علاقتي المميزة به، لا أبالغ أبدًا ولا أعطي نفسي شيئًا لا أملكه وكل الإخوة يعرفون أن علاقتي مع الوالد كانت ذات خصوصية ومختلفة عن علاقته مع كل الإخوة في كل المراحل، فقد كنت الأوسط كما أسلفت بين الأبناء، إلا أن علاقتي بالوالد كانت الأولى، وربما تعود إلى قناعته بجديتي واستقامتي منذ أن كنت طفلاً وصبيًا، وكنت حتى الأمس وأنا في المرحلة

الإعدادية، حينما كنت أذهب في كل يوم حين آذان الصبح، وكنت أصلي صلاة الجماعة خلف الإمام في المسجد، وحينما أعود إلى الدار كنتُ أيضًا أرتل القرآن بطريقتي البسيطة، وكان الوالد يشجعني وهو يستمع إلى ترتيلي، وكان يكافئني كل يوم بكوب من الشاي، وحينما يصحو الجميع بعد ذلك كان يصب لي كوبًا آخر مثل الآخرين.

كان اللاجئون في قطاع (غَزّة) يعرفون أهمية التعليم أولاً وثانيًا وثالثًا، وألفًا، وكانت نسبة التعليم لجيلين متتاليين تتطابق تقريبًا مع المائة بالمائة في قطاع (غـزّة)، لأن اللاجئين لا يملكون شيئًا إلا العلم، وقد كان العلم أرخص الأشياء التي قد يحصلون عليها مقابل الجهد، كان التعليم معناه الوظيفة، ومعناه توفير الطعام للأطفال وللكبار، وكان معناه بناء الأسر والاستمرار في الحياة، كان الناس - وكان ذلك شيئًا طبيعيًا - يقيمون الأفراح في البيوت وفي الحارات حينما يحصل أحد الطلبة على النجاح في الثانوية العامة مثلاً.

بعد عودتي من (مصر) إلى قطاع (غزة)، كان كل من كانوا في مثل سني أو على شاكلتي قد أنهوا الثانوية العامة، واتجهوا إلى الجامعات في (مصر)، وكانت الجامعات تقبل المتفوقين خصوصًا في الكليات العملية كالطب والهندسة وما هو على شاكلتها من التخصصات، وصحوت على نفسي بعد كل هذا فوجدت أن دبلوم المدارس الصناعية الذي حصلت عليه ليس له قيمة، وبدأ عذاب الضمير ووقعت فريسة للضياع، كنت أموت مرات أحيانًا كل ليلة، خصوصًا حينما يكون الجو رطبًا في فصل الصيف، وحينما كنت أنام ليس بعيدًا عن مجلس والدي في ساحة الدار خارج الغرفة، وكان يجلس ساهرًا عند الوالد بعض الأقارب أحيانًا، كنت أسمع الوالد في تلك الأثناء بينما أنا متظاهرا بالنوم، كان يقول للساهرين معه: "إن عبد الكريم قد ضيع نفسه، وكما ترون فهو لم يدخل الجامعة، وكنا نود له أن يصبح محامي أو ضابط بوليس أو مهندس أو شيخ دين

فقد كان شاطرًا في الدراسة". كان وقع مثل هـذه الكلـمات التـي كنـت أسـمع والـدي يكررها وهو لا يدري أنني أسمعه خصوصًا وأنا مسـتلقي في الفـراش قبـل أن أغـط في النوم، كانت عذابًا يؤرقني، وتعبًا يضنيني وعبئًا ثقيلاً عـلى قلبـي، كنـتُ أشـعر وكـأنني أيضًا في قفص، ولا أجد مخرجًا منه.

أصبحت وحيدًا وفريدًا في الحارة، أبناء الجيران من أمثـالي ذهـب كـل واحـد مـنهم مـع ظروفه الجديدة، والقريبون مني ذهبوا إلى الجامعات في (مصر) بعد أن أضـحى حصـول الفلسطيني على الشهادة الثانوية شيئًا شبه عادي ولم تعد توفر له عمـلاً، ولم يبـق لي غـير مجالسة كبار السن في البيوت عند الوالد وفي بيوت الأقارب، وكذلك الجلوس في المقاهي حول العاطلين عن العمل والغير متعلمين مع أبناء الجيل الماضي الذين فاتهم قطار العلم.

وفي أحد الأيام رافقت أحد الأصدقاء القدامى ممن كانوا قد حصلوا على الثانوية العامة، وصعدت معه في إحدى حافلات النقل العام، واتجهنا إلى دائرة التربية والتعليم في (غَزّة) وكان اسمه (عبد الحليم)، وكان هدفه أن يقدم طلبًا مـن أجـل إمكانيـة تقـديم امتحـان الثانوية العامة في نهاية العام، عساه أن يحصل على مجموع أعلى وأن يحصـل عـلى شـهادة حديثة للثانوية العامة، لأجل أن يتسنى له القبول بالجامعات المصرية، وحيث إنه قد كان شرطًا أساسيًا في تلك الأيام أن يكون النجاح حديثًا في الثانوية العامـة لمـن يـود دخـول الجامعات المصرية، خلال جلوسي بجانب صديقي على المقعـد في البـاص، قـال لي، لمـاذا أنت أيضًا لا تستفيد من فرصة وجود نظام دراسة الثلاث سنوات بعد الإعدادية لتقـدم أيضًا امتحان الثانوية العامة، وما عليك والحالة هذه إلا أن تدرس مواد الثلاث سـنوات وأنت تعرف منها الكثير، ولديك الاستعداد النفسي لذلك، وقد كنتَ متفوقًـا كـما يعلـم الكثيرون.

كان يقصد أن قانون التعليم المصري في تلك الأيام، كان يسمح لكل من مضى على حصوله على شهادة الإعدادية العامة ثلاث سنوات، بأن يُقدم بموجب نظام خاص امتحان يقال له نظام الثلاث سنوات، وإذا نجح فإنه يحصل على الثانوية العامة، وقال لي صديقي في ذلك اليوم، إن اليوم هو آخر فرصة لمن يود أن يُقدم طلبًا لذلك، رددتُ على صديقي أن الوقت أصبح متأخرًا كما ترى، فأين الطلب وأين الصور الشخصية اللازمة، ثم ليس معي أيضًا تسعين قرشًا - هي الرسوم التي يتوجب دفعها اليوم - وأن ساعات العمل الرسمي قد قاربت على الانتهاء، فقال أنا أداينك ما معي من النقود لتدفع الرسوم، أما الصور الشخصية فدعنا نمر على المصوّر فربما يُعدها أيضًا اليوم بحالة خاصة، أما هو فيستطيع أن يقدم طلبه في يوم آخر، لأن النظام الذي سيقدم الامتحان بموجبه هو نظام مختلف عما هو متاح لي لأنه سيقدم امتحان السنة الأخيرة وليس كنظام الثلاث سنوات.

لا أدري كيف قبلتُ عرض صديقي، وسارت الأمور كما اقترحها وتخيلها، وهكذا أصبحتُ مرة أخرى طالبًا في المدرسة، ولكن بلا مدرسة فقد كنت أدرس نظام منزلي، اطلعت على الأنظمة المعمول بها في التربية والتعليم في قطاع (غزة)، وأحضرتُ الكتب من مختلف المواد، وتبرع لي بها كثير من المشجعين لي للدراسة من الأقارب والأصدقاء، وأضحى لدي كل الكتب المقررة في نظام الثلاث سنوات، وما عليّ إلا أن أدرس وأستوعب وأقدم للامتحان في آخر العام، بدأت أدرس بحماس وكان الأمر سهلاً وأكثر سهولة مما توقعت، استطعت خلال الشهر الأول أن أنجز دراسة كل الكتب المقررة ما عدا مادتي اللغة الإنجليزية وبعض الأجزاء المقررة في اللغة العربية، وقد أراح والدي كثيرًا ما كنت أفعله، وراح يشجعني إلى أن كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.

في إحدى الأمسيات وخلال فترة الراحة القصيرة التي كنت أقضيها بعد العشاء في مجلس الوالد، عرضت على والدي بحضور الإخوة الكبار أن يشتري أو يشتروا لي بدلة، لأجل أن يكون عندي بدلة مثل الكثيرين ممن هم في عمري في تلك الأيام فلم أجد تجاوبًا من الوالد الذي أنهى نقاشه القصير معي بطريقة غير مباشرة حينما قال: "والله إن الذي يُريد بدلة الآن وهو طالب، هو غير مهتم بالدراسة، والدراسة عنده تعتبر ليست أولويات اهتماماته". الإخوة الكبار لم ينبسوا ببنت شفة، وكان ردي الصمت على ما قاله والدي، ولم أكن أملك الجرأة أن أقول شيئًا أو حتى إن أكرر الطلب ثانية، لكنني كنت واقعًا تحت تأثير ما شاهدته خلال تواجدي في (مصر) من مظاهر اجتماعية وكيف يمكن أن يكون الشاب أنيقًا، فقد كانت البدلة والقميص الأبيض وربطة العنق مثال الوسامة عند الشباب.

في تلك الأمسية بعد أن تركت مجلس والدي لم أستأنف الدراسة كعادتي كل ليلة بل قلتُ في الصباح لمن قابلته من الإخوة سواء الكبار أو الصغار ولأمي أيضًا، وفي تحدٍ واستفزاز بسبب ضيقي وغضبي، إنني لن أدرس، وأن فكرة الدراسة قد ذهبتْ، وذهبتُ أبعد من ذلك، وجعلتُ سببًا أخلاقيًا آخر لتوقفي عن الدراسة، وقلت للجميع بتفكير طفولي بفكر المراهق وعلى أساس المفهوم الحضاري الشرقي، الفرد للأسرة والأسرة للفرد، قلتُ أنا كنت أدرس حتى إذا ما تحسنت ظروفي المادية بعد ذلك، ستعود الفائدة على جميع أسرتنا، إذن أنا أدرس لمصلحة الأسرة جميعها حتى أنقذ هذه الأسرة من ضيق الحال، وعدم التقدم الملموس الذي ينعكس على معظم أفرادها، أما الآن فإنني غير ملتزم، فأما حاجتي الشخصية فأنا أستطيع أن أعمل في أي مهنة مهما كانت بسيطة، وبها أستطيع أن أغطي ما أحتاجه في هذه الحياة من ضروريات شخصية.

هكذا كان تفكيري ضحلاً في هذه الجزئية، وطبعًا هذه كانت فلسفة خاطئة من أولها إلى آخرها، وكان طيش شباب، ولكنني لم أدرك آنذاك بأنني مخطئ فانقطعتُ وتوقفتُ عن الدراسة، وابتعدت عن محيط والدي وجلساته، وانزويت في غرفة صغيرة كانت لأسرة أخي الذي خرج وزوجته بعيدًا عن الأسرة الكبيرة وراح الآن يسكن في مكانًا آخر، وقد ساعد أيضًا لأكون بعيدًا عن الحرج أيضًا، إن والدي كان قد اشترى الدار المقابلة لدارنا من أحد الجيران الذي اشترى بدوره دارًا أخرى في مكان آخر لتناسب أسرته التي كبرت خلال السنوات، كانت الدار الجديدة عبارة عن غرفتين أساسيتين من صنف غرف المعسكر، وبنى والدي غرفة ثالثة لتكون له ولاستقبال الناس والضيوف فيها، ولتعطي حرية أكثر للأسرة، بعد أن غضب مني والدي وغضبت منه أنا أيضًا واعتكفت، وأضحت علاقتي فقط مع أخي الذي كان يكبرني مباشرة أكثر من أي شخص آخر من الأسرة، ولا أدري ربما تقاربنا كان بسبب أن ظروفه المادية كانت شحيحة وغير موفق في العمل أيضًا، أما الآخرون فقد كانوا ماديًا أفضل حالاً، ولكنه كان أفضل اجتماعيًا، وكان يسأل عني في الغرفة التي كنت أنام فيها وحيدًا، وكان يُتيح لي ما كان يملك من نقود قليلة وكذلك استعمال ملابسه الشخصية.

مضت الأيام ومضت بضع شهور وأنا على هذا الحال لا أدري أين المفر، كنت أخرج مع قلة من الأصدقاء الذين أيضًا تعثر معهم الحال ولم يذهبوا للجامعة ولكن لأسباب غير الأسباب التي لدي، إلا أن المهم هو أنهم كانوا أسعد أسريًا مني، ولا أدري أكان الفضل يعود لأهلهم أم لهم، والله أعلم، كنت أقضي وقتًا طويلاً مع هؤلاء الأصدقاء، وكنا نسهر في الليل ونجلس على رمال الشاطئ، وكنا أحيانًا نذهب لمشاهدة بعض أفلام السينما في مدينة (غزة)، وكنا نفكر دائمًا وكنا نحلم بكل شيء...

في أكثر من مرة بينما كنا نلتقي على شاطئ البحر قرب مغيب الشمس كنا ننظر إلى البحر والشمس تبتعد غربًا والشفق الأحمر يختلط مع ضوء النهار وعتمة الليل القادمة، كثيرًا ما راودتنا فكرة اختطاف أحد لنشات صيد السمك الصغيرة، وأن نذهب به إلى بلاد بعيدة في الاتجاه الغربي، عسى أن نجد فرص أو بيئة أفضل مما نحن فيه من بيئة وظروف اجتماعية، لكننا لم نخطو في هذا الاتجاه خطوة واحدة، فلم نعد خطة لذلك وربما كانت تلك مجرد أحلام وخيال.

في تلك الفترة أعلنتْ مُديرية الشرطة في (غَزّة) عن حاجتها إلى دفعة جديدة من أفراد الشرطة المستجدين، وكان المؤهل المطلوب هو شهادة الإعدادية واللياقة البدنية والنجاح في الفحص الطبي، تقدمتُ أنا وأحد أصدقائي بطلباتنا بعد أن فكرنا طويلاً ووجدنا أن هذا أفضل الخيارات، بل إننا مع مرور الأيام أضحينا أكثر قناعة بهذه المهنة عن أي مهنة أخري يمكن أن نسعى إليها، وحيث إنه لا توجد أسرار في هذه الدنيا، فقد عرفتْ الأسرة عن توجهي الجديد، وباركه الجميع وحاول والدي أن يوسط أحدًا ممن لهم علاقات أو معارف ممن يعملون في جهاز الشرطة، وفعلاً سمعت ورأيت تحركات ووعود وآمال، وفعلت ما يتوجب علي من شروط القبول، وربما كنت مُن القلائل الذي يستوفون الشروط لأكون رجل أمن، إلا أن ذلك لم يتحقق ولم يُنشر اسمي ضمن المقبولين وكذلك صديقي الذي تقدمت وإياه إلى هذا المجال، وأصبتُ بخيبة أمل جديدة، وأضحى طالع النحس يلازمني أو هكذا بدا لي وللبعض من أسرتنا.

١٤-٥ خيط الأمل.

في تلك الفترة كان قطاع (غَزّة) يموج بغليان عدم الاستقرار، وكانت البطالة عالية وبشكل غير عادي وربما تجاوزت الخمسين بالمائة بين السكان، وأضحى في منطقة صغيرة

لا تتعدى مساحتها ثلاثمائة وخمسين كيلو مترًا مربعًا - هي مساحة قطاع (غزة) - أضحى بها خمسة ألآف شاب يحملون الثانوية العامة بلا عمل، ولا يستطيعون وذويهم تحمل مصاريف الجامعات في (مصر)، هذا عدا الفئات الأخرى من المجتمع الفلسطيني، كان اقتصاد قطاع (غَزّة) هزيلاً، وكان سكان القطاع كمن يعيشون في معتقل، كان سكان قطاع (غَزّة) محسوبين على (مصر) وعلى (جمال عبد الناصر)، ولم يكن يُرحب بهم كثيرًا في بلاد البترول العربية، لأنهم يحملون وثائق سفر تُصدرها (مصر) التي كان نظامها معاديًا لأنظمة حكم عربية متعددة ينعتها بالرجعية، كان أيضًا سكان قطاع (غَزّة) غير مصرح لهم بالإقامة في (مصر) إلا بمبررات وشروط صعبة كأن يكون الشخص طالبًا مثلاً، ربما كان تَحَفُظ (مصر) لأجل أن يبقى الناس في منطقتهم، أو فيما تبقى من (فلسطين)، لأجل أن تبقى قضيتهم حية أمام العالم، ولهذا أيضًا كان على كل زائر يود الذهاب إلى (مصر) من سكان قطاع (غَزّة) أن يحصل على فيزا دخول إلى (مصر) مع ما يصاحب هذه من أوراق وإجراءات وكفالات ورسوم وضريبة، شاعت في تلك الأيام نكته كان يتداولها الناس في قطاع (غَزّة) ويقولونها تندرا، النكتة كانت تقول: إن أهالي قطاع (غَزّة) من كثرة سفرهم اليومي إلى (مصر) هم الذين نقلوا على نفقتهم معبد (أبي سنبل) في (الأقصر) إلى موقعه الجديد بعد بناء السد العالي، ذلك من كثرة ما دفعوا رسومًا إلى دائرة الجوازات في (غَزّة) في تلك الأيام. وكانت منظمات دولية قد شرعت في الدعاية لنقل معبد (أبي سنبل) والحاجة إلى المال لتنفيذ ذلك، فصدرت المنشورات وطوابع البريد والملصقات التي تفرض أن يدفع المسافر مقابلها نقودًا مقدارها ٨٨ قرشًا مصريًا كرسوم إضافية على كل فيزا، كانت لأجل المساهمة في نقل معبد (أبي سنبل) إلى المكان الجديد الذي قررته دائرة الآثار في (مصر) بنقلها من مجرى نهر النيل بعد بناء السد العالي في (مصر)، إن ظروفًا كهذه راح يعيشها الناس لا بد أن تفعل فعلها وتنعكس على

استقرار المنطقة سياسيًا، و(مصر) عادت إلى قطاع (غَزّة) بعد احتلال (إسرائيل) له عام ١٩٥٦م بفضل إصرار الجماهير الفلسطينية، لهذا وذاك وبسبب كثرة التيارات السياسية والحزبية اشتعل قطاع (غَزّة) بالمظاهرات ضد كل شيء، بعضها كان يتهم (الأمم المتحدة) بالتآمر على الشعب الفلسطيني، لأنها تعمل على إعداد مشاريع التوطين خارج أرضه المحتلة، وبعضها لم يجد مفرًا إلا أن يهاجم الإدارة المصرية السيئة للقطاع التي تقوم على الرشوة والمحسوبية والتعسف ضد البسطاء.

على أثر هذه الاعتراضات اهتم كبار المسئولين في الإدارة المصرية كثيرًا بما يحدث في (غزة)، لأن معناه هو خسارة مباشرة لهؤلاء المسئولين، لأنهم كانوا يتمتعون برواتب خيالية، وبامتيازات لا يوجد مثيل لها لأي ممن هم أعلى منهم مراكزًا في (مصر) ذاتها، هذا بالإضافة إلى جدية الأمر وخطره على سمعة (مصر) عربيًا وعالميًا، فقد كانت (مصر) في تلك السنوات تتفاعل مع من حولها من الأمم في إفريقيا وآسيا، وكان (عبد الناصر) أحد أقطاب الحياد الإيجابي في العالم، في ظل هذه الأوضاع المعيشية المزرية في القطاع، وبسبب توجهات (مصر) السياسية، والتزامها الأدبي والأخلاقي أمام الشعب الفلسطيني، قررت (مصر) تعيين كل من يحمل شهادة الثانوية العامة أو ما يعادلها في الدوائر الحكومية والوزارات المصرية داخل (مصر) نفسها، وعلى أثر ذلك أجري حصر لمن يود العمل في (مصر) من الشباب الفلسطيني، وفعلاً تم توزيعهم على مناطق ومدن (مصر) في القاهرة وفي الصعيد، وقد عُينوا على نظام الكادر المصري المتواضع الرواتب، وبهذا تم إلهاءهم وإبعادهم عن (غزة)، ولم يكن لذلك أي أثر اقتصادي إيجابي على أهل القطاع، ولم تتحسن ظروفهم المعيشية، بل ساعد فئة صغيرة على ترويج البضائع الأجنبية التي كانت تُباع في (غزة)، وكان يتم المتاجرة بها بكميات قليلة في مصر، في البداية كان بواسطة الموظفين الجدد العاملين في (مصر) خلال ترددهم في أيام الإجازات من وإلى

قطاع (غزة)، ثم بواسطة المسافرين إلى (مصر) بصفة عامة، الذين كانوا يـأتون خصيصًـا بحجة السياحة في رحلات جماعية إلى قطاع (غزة).

بالنسبة لي لم أكن متحمسًا للعمل والإقامة في (مصر) بعد تلك المدة الطويلة التي قضيتها فيها، وبالنسبة لي أيضًا إن من يود أن يعيش في (مصر)، إذا لم تكن لديـه النقـود الكافيـة التي يصرفها بشكل ملموس، فإنه كمـن لا يعـيش فيهـا، لـذلك لم أفكـر في الإقامـة في (مصر)، ولم أتحمس للعمل بالذات هناك.

ذهب تقريبًا معظم الشباب الحاصلين على الثانوية العامة بكل فروعها إلى (مصر) للعمل بناء على قرار جمهوري صدر من (مصر)، ما عدا خريجـي مركـز التـدريب المهنـي الـذي درست أنا به، وأُعلمنا أن إدارة الشئون الاجتماعيـة في (غَـزّة) تتبنـى قضـيتنا أمـام إدارة تقيـيم الشـهادات في (القـاهرة)، تلـك الإدارة التـي قالـت، إن نظـام التعلـيم في مركـز التدريب المهني الذي تخرجنا منه يختلف عمّا هو في المدارس الثانوية الصناعية في (مصر)، ولذلك فليس لنا فرصة في الوقت الحاضر للذهاب والعمل في (مصر) أسوة بغيرنـا مـن خريجي الثانوية العامة، ومن في مستواها من أهل قطاع (غزة)،
يبدو أن إدارة الشئون الاجتماعية في مدينة (غَزّة) كانت مصرة عـلى حـل مشـكلتنا، وإن تعليمات المسئولين توحي لتلك الإدارة بأن لا تدع أي مشكلة عالقـة تخـص الشـباب في قطاع (غَزّة)، والذين كانوا يُستقطبون في تلك الأيام بسهولة من قبل الأحزاب السياسية في القطاع، كحزب (البعث العربي الاشتراكي) و(الحزب الشـيوعي) و(حركـة القـوميين العرب) وكذلك حركة (الإخوان المسلمون)، وكانت هذه كلها فعّالـة في قطـاع (غـزة)، وهي المنافس السياسي للناصرية التي كانت تقودهـا (مصر) في الشـارع العـربي في تلـك الأيام.

حينما شعرنا في إحدى الفترات أن حل مشكلتنا مشكوك فيه، تجمعنا على باب مركز التدريب المهني، وكان عددنا فوق المائة، وذهبنا على الأقدام إلى إدارة الشئون الاجتماعية ولم تكن بعيدة عن قيادة الإدارة المصرية في قطاع (غزة)، وكانت تقع شرقي مبنى مجمع الدوائر الحكومية، هناك خرج يستقبلنا مدير الشئون الاجتماعية، وكان رجلاً عسكريًا برتبة عقيد، وهدأ خواطرنا ورجانا أن نقدم أحدًا منا ليسمع منه لماذا حضرنا بهذه الكيفية التظاهرية التي لا يحبذها، أشار أغلب الحاضرين وعلت أصواتهم باسمي ورشحوني متحدثًا عنهم. قال العقيد: "أين هو؟" ورفعت يدي مُعلنًا عن موقعي بين الواقفين في الساحة أمام كان يقف مُعتليًا مصطبة إسمنتية أمام مكتبه، فقال: "تعال معي إلى المكتب وقل لي ما تريد". قلت له: "لن أذهب معك إلى المكتب لأنني لو فعلت فإنك ستدع من عندك يعتقلني ويزج بي في السجن، وأنا هنا بين الزملاء أفضل واستطيع أن أرد على الأسئلة".

كان الحكم في (مصر) في ذلك الزمن قوميًا عروبيًا إلا أن البيروقراطية والروتين والفساد الإداري أدى إلى وجود طبقة من المسئولين لم تكن مؤهلة بأن تتصرف مع الآخرين من الشعوب العربية بروح ونهج القيادة السياسية في (القاهرة) التي كان يمثلها (عبد الناصر) أمام الشعوب العربية، فكثيرًا ما حدث تململ في المجتمعات العربية التي اقتربت قياداتها السياسية من الحكم في (مصر) في صور اتحاد وما شابه، حدث أن (سوريا) قد انفصلتْ عن (مصر) لأسباب عدة منها تعالي المسئولين المصريين على أندادهم السوريين، وحدث أن تململ اليمنيون بعد أن تقدمت (مصر) وأرسلت جيوشها لمساعدة ثورة (اليمن)، وأهل (غَزّة) كثيرًا ما اعترضوا بمظاهرات صاخبة ضد الإدارة المصرية في القطاع، كانت تظاهرتنا امتدادًا لما كان يحدث من صور الاعتراضات سابقًا في مدينة (غَزّة) كلما شعر الناس بضيق بسبب أمر ما، لكن العقيد كان رجلاً كبيرًا في السن،

وكانت تبدو عليه الأبوة والكياسة والسمو، أقسم لي بشرفه العسكري أمام من كنت بينهم بأنه لن يعتقلني ولن يدع أحدًا يمسني بسوء، وقد كان.

دخلت مع اثنين آخرين من زملائي وشرحنا له وضعنا وضياعنا وانتظارنا غير المجدي، وقلت حينها بعض العبارات ربما غير المناسبة في تلك الظروف بأسلوب المراهق المتهور، قلت مثلاً: "أنتم المصريون جئتم إلينا وتعاملوننا كالاستعمار بالضبط". فلم تُسر العقيد هذه العبارة، إلا أنها تركت أثرًا بعد ذلك في سرعة حسم مشكلتنا وإيجاد حل لها.
هذا، وتكررت اعتراضاتنا حتى بعد أن تقرر أن ترسل (مصر) بعثة تعليمية خاصة للعمل على تدريسنا في مدرسة (ناصر) الثانوية الواقعة شمال مركز قيادة الشرطة الرئيسي في قطاع (غَزّة) بجانب (ملعب اليرموك)، وكان الغرض من عمل تلك الدورة الدراسية الخاصة لنا، هو، إعطاءنا المواد التي لم ندرسها في مركز التدريب التابع لوكالة غوث اللاجئين الذي تخرجنا منه، ومن ثم من ينجح منا يُرسل إلى (مصر) لإكمال الدراسة في السنة النهائية في المدارس الثانوية الصناعية، ومن ينجح يُعيّن فنيًا في مصانع القطاع العام التي تملكها الدولة في (مصر)، خرجنا في عدة مظاهرات صغيرة في أكثر من مرة، وكنا نذهب إلى ملاذنا: مديرية الشئون الاجتماعية، ونفضفض عن أنفسنا أمام العقيد، ولم يحدث أن استعمل العنف معنا خلال تلك المظاهرات، ربما لأن غالبيتنا كانت من خريجي تلك السنة، وكان صغر أعمارنا ربما لم يدع مجالاً للشك بأننا أبرياء في نظر السلطة، وأننا لا ننتمي إلى تيار سياسي مخالف لنظام الحكم في مصر.

١٤-٦ معادلة الشهادة.

في منتصف العام الدراسي عام ١٩٦٢/ ١٩٦٣م أنهينا الدورة التعليمية الخاصة في (غزة)، وقد كنت الأول في نتيجة الامتحانات العامة على تلك الدورة، ونُشر اسمي مشارًا إليه بهذه المناسبة، وقد صادف صدور أول عدد من جريدة أخبار (فلسطين) التي

بدأت تصدر في (غَزّة) في ذلك العام، وتقرر إرسالنا إلى (مصر) لكي نكمل ما طلب منا، ووزعنا على المدارس الصناعية حسب التخصصات، وتقرر صرف مساعدة حكومية نقدية لكل منا قدرها سبعة جنيهات ونصف شهريًا، ساعدت كثيرًا في مصاريف الدراسة، وأما في الحقيقة فقد كنتُ وأمثالي أفضل كثيرًا من الناحية العملية وأصول الصناعة من زملائنا من الطلبة المصريين حتى ونحن في (القاهرة)، وذلك بسبب اختلاف نظام التعليم في مركز التدريب المهني والمدارس الصناعية في (مصر)، في مركز التدريب المهني كان الهدف تخريج الطالب مهنيًا بالمعنى الصحيح، وكان التركيز مباشرة على العلوم التي لها علاقة بالمهنة كالرسم الصناعي والرياضيات واللغة الإنجليزية والمهنة نفسها وما شابه، وأما في المدارس الصناعية فقد كان التدريس لا يختلف كثيرًا عن المدارس الثانوية العادية من ناحية تدريس المواد النظرية كالتاريخ والجغرافيا واللغة العربية، هذا بالإضافة إلى أقل القليل من الناحية العملية والمهنية، ولهذا كان خريج مركز التدريب المهني يخرج للحياة العامة العملية وينجح، وخريج المدرسة الصناعية يعمل إداري فقط ولا يُجيد مهنة التخصص.

كان توجهي للدراسة في (مصر) بهدف الحصول على شهادة المعادلة نوعًا من المغامرة أبقيتها لنفسي سرًا ولم يعلم بها أحد، لأنني لم أكن أهدف إلى العمل في المصانع المصرية، ولكن لأنني اطلعت يومًا على دليل الجامعات الذي يُصدره مكتب التنسيق في الجمهورية العربية المتحدة في (مصر)، ورأيت فيه، أن الطالب الذي ينهي الثانوية الصناعية ويحصل على مجموع فوق الخمس والسبعين بالمائة (٧٥%)، يحق له أن يُقبل في المعاهد العليا الصناعية التابعة لوزارة التعليم العالي التي تُخرّج المهندسين، ووجدتها فرصة قد تتيح لي يومًا أن أدخل ضابط احتياط في الجيش، كما كان يحدث للمهندسين والأطباء وكما هي هوايتي المفضلة، لأن الدخول إلى الكلية الحربية بعد الثانوية العامة مثلاً، كان بالنسبة لي

مستحيلاً، كانت الكلية الحربية المصرية تقبل من الفلسطينيين أربعة أو خمسة على الأكثر من خريجي الثانوية العامة في كل عام، وكان هؤلاء يُأخذون عادة من أوساط غير الطبقة التي كنت أنتمي أليها، وقد فشلت يومًا أن التحق حتى بمدرسة الشرطة المحلية في (غزة)، لهذا كان المشوار إلى الكلية الحربية طويلاً وليس قبل الحصول على شهادة البكالوريوس، وبعدها يخلق الله ما لا تعلمون.

وضعتُ تلك البذرة في داخلي ومنذ اللحظة الأولى، وربما كنتُ الوحيد مِن كل من كانوا معي في تلك الأيام الذي سعى إلى هذا الهدف، في (مصر) وضعنا في السنة النهائية كما تقرر، ورغم أن العام الدراسي كان قد مضى فيه أكثر من النصف، ونصف المنهج الدراسي أُعطي للطلبة المصريين خصوصًا المواد النظرية التي تحتاج إلى الحفظ، ورغم أن ما سمعته وما شاهدته من استهتار من قبل بعض الطلبة المصريين تجاه أمثالي، خصوصًا حينما كنت أرد على أسئلتهم العلمية بالذات حينما كانوا يقولون: لماذا جئت تدرس هنا يا (عبد الكريم)؟ فكنت أقول لهم: (لأجل أن أحصل على أكثر من نسبة الخمس والسبعين بالمائة في نهاية العام ولأدخل أن أقبل في أحد المعاهد العليا الصناعية، لكي أصبح مهندسًا). لقد كان الطلبة المصريون معذورين لأن مستواي التعليمي في تلك الأيام كان بمستوى من لم يحضر إلا منذ أيام إلى المدرسة، وكنت أكاد أن أكون لا أعرف شيئًا مما يدرسون، وكانوا على حق حينما كانوا يتغامزون بعد أن أجيب على أسئلتهم.

كان في داخلي مشوار من المعاناة لا يعرفه أحد ولكن كان هناك تصميم وإرادة كثيرًا ما أتذكرها الآن إلا وأحمد الله على تلك النعمة، لأني بدونها لم أكن أكثر من عامل فني بسيط، كان لا يغيب عني أبدًا أنني لاجئ لا أملك شيئًا في هذه الحياة، وليس لي أمل إلا من خلال التعليم، وبالعلم فقط قد أستطيع أن أفعل شيئًا لنفسي، وللكثيرين من أفراد

أسرتي الذابلة، ورغم صعوبة المهمة فإن أفضل ما كان معي هو الثقة بالنفس، وكل تصرفاتي لا تعني إلا شيئًا وأحدًا هو أنني ذاهب إلى الدراسة الجامعية بلا ريب ولم يبق إلا كيف.

لم يمض إلا حوالي شهر إلا وتوطدت علاقتي مع أكثر طالبين في الفصل تفوقًا، وأضحتْ تربطني بهم علاقة جيدة، (سمير بكري)، وآخر اسمه (روبي السيد)، كان أحدهما لا يبعد عن سكني سوى ربع ساعة مشيًا على الأقدام، أما الثاني فقد كان يسكن بعيدًا، وعليه أن يأخذ وسيلة مواصلات عمومية.

كنتُ قد استأجرت غرفة مفروشة متواضعة في منطقة (شبرا الدوار) بـ (القاهرة)، ومن هناك بالمترو كنت أذهب إلى مدرسة الصناعات الميكانيكية بـ (شبرا)، أذكر بأنني لم أحضر الدراسة النظامية في المدرسة سوى حوالي شهرين وبعدها خضعنا للظروف كعادة الدراسة في نهايات العام، خصوصًا عندما تكون الدراسة للشهادات النهائية العامة، حينما يتوقف الطلبة إلا البعض من حضور الفصول كل يوم، ويكتفون بالمراجعة والدراسة في البيوت، شرعتُ أدرس في غرفتي ليلاً ونهارًا على مدى أيام الأسبوع، ولم أذكر سوى مرة أو مرتين خرجت فيها لزيارة بعض الأصدقاء لمساعدتي في فهم بعض المواضيع الدراسية، ما عدا ذلك كان في حدود الشارع لأجل شراء رغيف الخبز وقطعة الجبن التي كنت أتناولها مع البطيخ أحيانًا أو مع الشاي، وقليلاً ما كنت أكافئ نفسي وأدخل مطعمًا يُقدم اللحم أو الأسماك.

كان الصديقان (سمير وروبي) يمران عليّ في السكن كل يوم تقريبًا، وفي القليل كنت أذهب إلى بيوتهم، وكنت أعد قائمة بالأسئلة كل يوم حتى يجيبون عليها وعما يصادفني من أمور لم أستطع استيعابها بنفسي مباشرة من الكتب، وكانوا برغبة وإخلاص يشرحونها لي، لا أدري لماذا توطدت علاقتي بهذين الطالبين بالذات أو كيف حدث

ذلك، فلم أذكر أنني أهديت أحدهما شيئًا أو وعدته بشيء أو دعوته على شيء ذي قيمة أو ملفتٍ للنظر.

أذكر إنه في نهاية العام ذهبنا لأخذ أرقام الجلوس استعدادًا للامتحان، وكان من عادة الطلبة في تلك الأيام أن يختبروا بعضهم بعضًا في تجمعاتهم الصغيرة خصوصًا قبل الامتحان، وكنوع من مراجعة المنهج الدراسي، وعادة ما تكون الأسئلة ارتجالية وعشوائية في المواد المختلفة، أبديت في ذلك اليوم مقدرة لفتت أنظار من كانوا واقفين معنا، خصوصًا من عرفوني في بداية التحاقي بتلك المدرسة، ولمسوا مدى استيعابي للمنهج الذي لفت الأنظار، في ذلك اليوم حدث أن وجه أحد الزملاء سؤالاً لي ظنه معجزة، وكان السؤال خاصًا بأحد المواضيع الدراسية الهامة من المنهج المقرر، فما كان من صديقنا (سمير بكري) إلا أن رد على السائل مستهزئًا: "أظن أن أخي (عبد الكريم) أضحى أكبر كثيرًا أن يضيع وقته في الإجابة على سؤال بسيط كهذا"، وهو يقصد أنني أصبحتُ جاهزًا.

كان امتحان آخر العام عبارة عن امتحانات المواد النظرية، والامتحان العملي في مهنة السيارات التي تخصصت فيها في مركز التدريب المهني في (غزة)، وكنتُ أفضل حالاً من الآخرين بالنسبة للعملي، لأن المتاح لنا في (غَزّة) كان أكثر وأفضل مما هو متاح في المدارس الصناعية في (مصر) من ناحية الإمكانات من ورش وعدد وأجهزة ومدربين متخصصين، في النتيجة النهائية آخر العام حصلت على نسبة سبع وثمانين بالمائة في المواد النظرية، وعلى نسبة خمس وتسعين في المائة في العملي، وكنت من القلائل جدًا الذين نجحوا في تلك السنة ممن أتوا من (غَزّة) في مثل ظروفي، وكنت الوحيد بعد ذلك من كل قطاع (غَزّة) منذ أن تأسس مركز التدريب المهني عام ١٩٥٤م، الذي استطاع أن يدخل كلية الهندسة في الجامعات المصرية.

كان لنجاحي وتفوقي دوي هائل في أسرتنا، واستعدتُ مكانتي التي كنت أتمناها في نظر الوالد، وها هو قد عاد يراهن عليّ ثانية، وارتفعت معنوياتي كثيرًا بين المعارف والأقارب، وأضحيت محل احترام ومحط الأنظار في مجتمع بسيط فقير يرى التفوق الدراسي أملاً، والحصول على العمل احترامًا، ولكن الطريق بالنسبة لي لا زال طويلاً فمهما كانت الحقائق والآمال فإنها تبقى كالعصافير البعيدة التي تقف على الأشجار العالية.

في الوقت المناسب جهزتُ طلبات الدخول إلى المعهد العالي الصناعي حسب لوائح مكتب تنسيق الجامعات، وذهبت إلى (القاهرة) وقدمت الطلب إلى مكتب التنسيق وعدت إلى غزة، شعرت في تلك الفترة بارتياح وكنت كمن يقضي إجازة صيف مريحة في (غَزّة) فانا مستوفي شروط القبول في الجامعة، وبقيت متلهفًا فقط لإعلان نتيجة القبول وتحديد المدينة في (مصر) التي ستكون دراستي فيها.

في تطور لافت للنظر، اتفقت أسرتنا مع أسرتين أخرتين من أبناء عمومتنا على شراء سيارة مرسيدس جديدة، وعلى تشغيلها كسيارة أجرة بهدف الاستثمار، كما كان شائعًا في تلك الأيام، وفعلاً أخذت كل عائلة من العائلتين الأخرتين الثلث، وأما الثلث الآخر فقد اشترك فيه والدي مثالثة مع الأخوين الكبيرين المتزوجين، وهكذا أيضًا أصبحنا نملك سيارة أجرة، واللافت للنظر أيضًا أن شراء السيارة كان مشروطًا بأن يعمل أحد إخوتي سائقًا على تلك السيارة، وكانت تبيت قرب دارنا، كانت السيارة تدر ربحًا لا بأس به، وبهذا أصبح أخي المدرس يتمتع بحرية أكثر براتبه الشهري وأضحى لا يقدم إلا القليل من راتبه للأسرة، لأن دخل الوالد من حصته من السيارة كان عاملاً هاما في تسهيل معيشتنا، بعد أن أضحيت متوجهًا إلى الجامعة، أصبح والدي يُعطيني بعض

الجنيهات كل شهر كمصروف جيب شهري بعد أن خبر أنني لا أستغني عـن المصروف، واتفق الجميع منذ ذلك الحين على أنني مبذر.

١٤-٧ منحة دراسية من (الأمم المتحدة).

في أحد أيام ذلك الصيف الجميل الذي بدأت فيـه الـدنيا تبتسـم لي، ذهبـت أنـا وأحـد الأصدقاء لنتمشى عشوائيًا في المنطقة التي كـان يقـع فيهـا مكتـب شـئون الجامعـات في مدينة(غَزّة)، الذي أصبح دائرة المحاكم بعد دخول السـلطة الفلسـطينية، وذلـك بهـدف تفحص مدى ظهور نتائج القبول بالجامعات المصرية في ذلك العام، وصلنا هنـاك وكـان الوقت ظهرًا، ورأينا صفين طويلين من الشباب يقفون متراصيين، بعضـهم كـان يسـتظل من الشمس بحيطان المبني، والأكثرية كانوا يقفون تحت أشعة الشمس الحارقة وليس لهم خيار، كانوا حوالي ثلاثمائة شاب أو كذلك، اقتربت أنـا وصـديقي مـن أولئـك الشـباب وسألنا بعضهم، ماذا تفعلون هنا وماذا يحدث، فأجاب بعضهم نحن المرشحين للحصول على المنح الدراسية من كـل قطـاع (غَـزّة) في هـذا العـام، وأضـاف آخـر، نحـن الـذين ستقابلهم اللجنة العليا المكونة من إدارة الشـئون الاجتماعيـة، ووكالـة الغـوث الدوليـة، ومكتب شئون الجامعات في القطاع.

كان الحصول على منحة مالية من (الأمم المتحدة) حلم كل طالب في تلك الأيام، كانـت تلك المنحة عبارة عن خمسة عشر جنيها مصريًا تُدفع شهريا للطالب الذي يحصل عليهـا، هذا بالإضافة إلى مصاريف الكتب خلال العام الدراسي، وأيضًا أجـرة المواصـلات لمـرة واحدة من (غَزّة) إلى (القاهرة) في كل عام أيضًا، وكان يستمر دفـع هـذه المنحـة مـا دام الطالب يدرس وينجح كل عام حتى نهاية التخرج، كانت شروط أخـذ المنحـة التعليميـة أن يكون الطالب متفوقًا في امتحان الثانوية العامة، وألا يكـون أحـد أفـراد أسرتـه ممـن

يسكن معهم يعمل مع وكالة غوث اللاجئين، وألا تملك أسرته سيارة أجرة أيضًا، بمعنى أن يكون متفوقا في الدراسة ومحتاجًا فعلاً، وهكذا كان يبدو من المستحيل أن أحصل على منحة من وكالة الغوث الدولية، لأن أخي الأكبر كان مدرسًا مع وكالة غوث اللاجئين، وكنا نملك سيارة أجرة، هذا عوضًا عن أن طلبات التقديم إلى المنح كان يُشرع فيها من أيام تقديم امتحانات الثانوية العامة، أي قبل ذلك اليوم بشهور، ونحن الآن في حوالي منتصف شهر أغسطس، وإن هذين الصفين من الشباب هما محصلة طلبات ومتابعة ودراسة وبحث اجتماعي دقيق، وهما نتيجة عمل شهور من قبل تصفيات المختصين.

استدرت بعد الاكتفاء من معرفة سبب وجود هؤلاء الشباب في ذلك اليوم لأقول لصديقي هيا نمضي ونترك المكان، وقبل أن يحدث ذلك بلحظات، شاهدت سيارة لاندرو فر بلون سيارات وكالة الغوث الدولية الزرقاء، شاهدتها تتوقف في الساحة أمام المبني، ونزل منها ثلاثة أشخاص، وفي لحظة واحدة تقابلت عيني بعين أحد الرجال الثلاثة فقد كان هو العقيد المصري مدير الشئون الاجتماعية في قطاع (غَزّة) بالذات، الذي كنا نذهب إليه ونشكوا له حالنا منذ عام تقريبًا، كان هو أحد أعضاء اللجنة العليا التي تقرر مصير من يأخذ المنح في ذلك اليوم، بل إنه صاحب الإرادة النهائية، أليس هو ممثل الإدارة المصرية للقطاع التي تحكمه ولا يرد له طلب.

كان هو بالذات من تقابل نظري معه وتذكرني فورًا وعرفني وناداني باسمي الأول، قائلا: "تعال، تعال"، تقدمت نحوه ولم يكن بعيدًا عن السيارة التي نزل منها بعد، سألني: "ماذا فعلت، هل نجحت في (مصر)، أم كنت مشاغبًا كما كنت هنا". قلت بثبات أنا نجحت، وقدمت طلبا لدخول المعهد العالي الصناعي في (مصر) وإنني أنتظر النتيجة، سألني هل قدمت طلبًا للحصول على منحة من (الأمم المتحدة) كهؤلاء

الشباب، فأجبته بالنفي لأنني كنت في (مصر)، الحقيقة أنني نسيت إنه قال لي يومًا حينما كنا نخرج لمقابلته ونحن نعترض ونشتكي من عدم جدية الإدارة المصرية في (غَزّة) في حل مشكلة خريجي مركز التدريب المهني، حينها قال لي: "اهتم بدراستك بدلاً من المشاغبة". وقال: "إذا نجحت فإنني سأعمل على إعطائك منحة للدراسة في مصر". ولكن يبدو أنني لم آخذ الأمر جديًا آنذاك لأن شروط الحصول على منحة لا تنطبق عليّ للأسباب التي ذكرتها سابقًا، ولهذا لم أشغل نفسي بتقديم طلب للحصول على منحة، تلك التي كان يحصل عليها عدد محدود من المتفوقين كل عام ممن تنطبق عليهم الشروط التي ذكرتها وشروط أخرى كاليتم وما شابه، لكن العقيد قال لي ونحن ما زلنا قرب السيارة: "حسنا تعال معي". وسرت بجانبه إلى أن وصلتْ إلى أول شاب يقف في أول الطابور داخل المبنى على باب المكتب الذي ستقابل فيه اللجنة طالبي المنح بالاسم واحدًا تلو الآخر، عند الباب قال للشخص الموظف الذي كانت معه قوائم أسماء المرشحين للمنح: "اكتب اسم هذا الشاب في أول القائمة، ودعه يدخل على اللجنة أول واحد في هذا اليوم". وفعل الرجل ما أمر به ووضع اسمي على أول صفحة من القائمة المطبوعة وكتبه بقلم الرصاص، ووقفت في أول الصف بالباب، وكان هذا في صيف سنة ١٩٦٣م، لم تمر سوى حوالي خمس دقائق إلا وبدأت المقابلات وأُدخلت، وجلست أمام اللجنة الثلاثية، بادرني العقيد قائلا: "اسمع نحن سنعطيك منحة ولكن نحن لا نريد مشاغبات ومظاهرات في (مصر)، وإذا فعلت ذلك فإنهم سيضعونك في السجن". لم يترك لي مجالاً للرد حينما حاولتُ أن أقول مستجديًا أنا لن أفعل شيئًا فقاطعني قائلا: "أنا وعدتك، ونحن عند وعدنا". ما كاد ينهي الجملة الأخيرة، إلا وسألني مندوب وكالة الغوث الدولية الذي كانت أمامه الكشوفات، وكان اسمه (عدنان العلمي) كونه ممثل الهيئة الدولية الجهة الممولة للمنح، وربما هو قد استوعب إيحاء مدير الشئون الاجتماعية

للسلطة المصرية، قال (عدنان العلمي) يومها: "أعطيني اسمك بالكامل". وكتب اسمي وقال شكرًا وانصرفت، لكنني كنت مذهولاً للسيناريو السريع الذي حدث، فكل شيء كان مفاجئًا لي فلم يمر أيضًا وقت طويل على كل ما حدث خلال تلك الدقائق القليلة منذ أن شاهدني العقيد خارج المبنى وحتى المقابلة والخروج منها، فربما كل ذلك تم خلال ربع الساعة فقط أو أقل، ولكن هذا ما حدث بالفعل، ولا أدري إن كان حظًا أستحقه أو قضاء وقدرًا أو شيئًا أنا لا استطيع تفسيرًا له، لأنه حدث بطريقة لم يكن تنفيذها سهلاً، كونها تمت بطريقة غير منطقية لأكثر من سبب ومبرر، وكلما تذكرت ذلك وتمعنت بالمشهد كنت أجده لغزًا ولا أستطيع له إجابة، إنها حقًا مشيئة الله وما شاء فعل.

كان يشدني القبول في الجامعة أكثر من أي شيء آخر، ولذلك كان الانتظار صعبًا، وكان الأصعب منه أن معظم نتائج القبول في الجامعات المصرية كانت قد أعلنت إما عن طريق نشرها في الجرائد المصرية أو خلال محطات الراديو وبالذات محطة صوت العرب، وهكذا بدأت جموع الطلبة الذين قبلوا في (مصر) يغادرون قطاع (غَزّة) إلى جامعاتهم ولم أسمع شيئًا عن قبولي، في أواخر شهر أكتوبر قررت السفر إلى (القاهرة) والتوكل على الله لأرى بنفسي ما حدث، ذهبت عشوائيًا ووصلت إلى (القاهرة)، وذهبتُ في صباح اليوم التالي لوصولي إلى مبنى وزارة التعليم العالي، وقيل لي إن نشرات القبول للطلبة الأجانب معلقة على لوحات (نادي الوافدين) الواقع في شارع (القصر العيني) في منطقة (جاردن ستي) الشهيرة بـ (القاهرة)، ذهبتُ إلى هناك وفعلاً شاهدت اسمي مقبولاً في (المعهد العالي الصناعي) الذي تحول فيما بعد إلى (جامعة المنيا) التي تقع في مدينة (المنيا) في جنوب (القاهرة) على مسافة ثلاث ساعات بالقطار، كنت شغوفًا بالدراسة وفرحًا وشعرتُ في ذلك اليوم بفرحة وبكبرياء ليس لهما نظيرًا، فقد وضعت رجلي لأول مرة على الطريق الصحيح منذ عدة سنوات، وأحسست بأنني الآن أستطيع أن أقدم نفسي بفخر وحالي

ينطق بأنني جامعي، وسأصبح مهندسًا وسأجلس في المجتمع في صفوف الطبقة المثقفة، وسيُسمع صوتي وسيكون لي رأي، فقد كنت أرى الناس في مجتمعنا الضيق الكادح لا ترحب بمن يُقدم الكلام والنصائح والإرشاد وهو لا يعمل شيئًا ذا فائدة خصوصًا لنفسه، وكانوا ينتقدون من يفعل ذلك فور ترك المكان الذي كان يجلس فيه ما دام الشخص ليس له عمل مرموق أو لا يحمل شهادة عالية، منذ تلك الأيام بدأت حياتي ترسم بخطوط حمراء يتوجب ألا أتعداها، رأيت عن قناعة أنه لأجل أن يكون لي كيان اجتماعي وتقدير في نظر الناس، عليّ أن أظل متفوقًا في الدراسة، وقد تذوقتُ ذلك من قبل وأثبتُ صحته، عليّ أيضًا إلا أنجرف إلى الفساد الأخلاقي والى أماكن الرذيلة التي تتوفر دائمًا في المدن الكبيرة، تحت مفهوم ديني كنت أقدسه، وكنتُ أفلسف الأمور بطريقة بسيطة، وهي إنني إذا انصرفت إلى الفساد فإن الله لن يتركني وسيسبب لي شيئًا من اثنين، إما أن يصيبني بحادث مروع يودي بحياتي أو بعاهة مستديمة، وإما أن أرسب في امتحان آخر العام، كنت لا أتحمل ولا أتخيل أن يعلم والدي أنني رسبت، ولا أتخيل ذلك أبدًا وكان مجرد مرور هذا كلمحة سريعة في الذاكرة يجعلني أفقد صوابي خلال اللحظة ولا أصحو إلا حينما أطرد هذا الهاجس من عقلي.

بدأت الدراسة في الجامعة وكنت سعيدًا جدًا بأن أكون طالبًا، لأنني كنت في تلك الفترة أظن أن مكاني المناسب في ذلك السن هو أن أكون في الجامعة، وربما لأنني كدت أن أُحرم منها بسبب ما طرأ على مسار حياتي منذ بداية عام ١٩٥٩م حينما ذهبت إلى مركز التدريب المهني وتخليت عن الدراسة في مدرسة (فلسطين) الثانوية.

قبل أن أتوجه للإقامة في مدينة (المنيا) حيث الجامعة، ذهبت إلى مكتب هيئة (الأمم المتحدة) الواقع في حي (جاردن سيتي) بـ (القاهرة) أيضًا، وأعلمتهم بقبولي في جامعة

(المنيا) وأعطيتهم العنوان لأجل أن يحولوا راتب المنحة الشهري حينما يتقرر صرفه، ووُعِدتُ خيرًا من قِبَل مدير المكتب الذي كان من عائلة (أبو خضرا) من أبناء مدينة (غزة)، وأخبروني بأنهم خلال أسبوعين سيجرون اللازم وسترسل كل مستحقاتي منذ بداية العام الدراسي بالجامعة.

في البداية راح والدي يُرسل لي المصروف الشهري، كونه هو المشجع الأول لكي أعود للدراسة، وهو الذي كثيرًا ما لامني على ما حدث أيام التقلب والتعثر، ومن ناحية أخرى، بسبب التزامه الأبوي والأخلاقي تجاهي في مجتمع لا يرحم من يتخلى عن أي فرد في الأسرة.

لم تصلني المنحة الدولية حسب ما وُعِدت، وأرسلت رسالة إلى مكتب الإغاثة بـ (القاهرة) أستفسر وألح بالسؤال، فقيل لي من خلال رد المكتب، ان اسمي لم يرد في كشوفات صرف المنح حتى الآن، وإن وصلهم شيئًا فسيعلمونني فورًا، انتظرت عدة شهور ولكن لم يحدث شيئًا سارًا، فكتبت رسالة شخصية بمناسبة عيد الأضحى في تلك الأيام إلى العقيد مدير الشئون الاجتماعية في قطاع (غَزّة) الذي وعدني وفرضني على لجنة المقابلات، وشرحت له ما حدث من ملابسات بخصوص المنحة وطلبت مساعدته، ورد علي برسالة شكر على التهنئة بالعيد ووعدني خيرًا، إلا أن خيرًا من هذا لم يصلني في ذلك العام، بعد ذلك وكاد العام الدراسي أن ينتهي كتبت رسالة إلى مدير وكالة غوث اللاجئين في الشرق الأوسط في (بيروت – لبنان)، وشرحت له قصتي بصورة كونها حق مقدس استُبِيح، وصلني بعد ذلك خطاب من مكتب (الأمم المتحدة) بـ (بيروت) يقول، بأن تحقيقًا سيجرى للتعرف على ما حدث، وانتهى العام الدراسي ونجحتُ ولكن ليس بتفوق يناسب إصراري وطموحاتي وسعادتي وحبي للعودة إلى الدراسة وباللذات الدراسة الجامعية، وكان أهم أسباب ذلك هو التعديل في تحصيلي العلمي لأنني لم أدرس

بانتظام خلال السنوات الماضية، ولم أكن مثل الطلاب الذين التحقوا بالجامعة، والذين قدموا من المدارس الثانوية العادية، ولأنني درست في عدة أماكن كانت مناهجها موضوعة لتناسب تلك التوجهات التي كان بعضها لا يؤدي إلى الجامعة.

كنت أكلف أسرتنا حوالي خمسة عشر جنيهًا شهريًا في المتوسط، في الوقت الذي كانت أسرة الوالد لا تصرف في الشهر أكثر من سبعة جنيهات في معسكر الشاطئ بـ (غزة)، لهذا كنت أقرأ في الرسائل التي كانت تردني من الوالد كلاما وتهمًا ولومًا على أنني لا أقدر الظروف وأنني مبذر، منذ تلك الأيام بدأ حلمي بأن أحصل على النقود كي أكرم بها على من يحتاجها، وكنت أتمنى لو إنني أقدر يومًا على تعليم أحد الإخوة في الجامعة، وحينها سأرسل له المصروف الشهري ولن أحاسبه على ما يصرف، عدتُ لقضاء الإجازة الصيفية مع الأسرة في (غَزّة) في نهاية العام، وكنت أحس بقلق المسئولية الخفي، والذي بدأ يكبر وينتابني ولو مبكرًا ومن بعيد، وخصوصًا أن الحكاية ليست مزاحًا، وأن أربع سنوات أخرى لا زالت تنتظر وتحتاج إلى مصاريف الجامعة، ومن سيستمر في الصرف عليّ خلال تلك الفترة، وأخي الأستاذ الممول الرئيسي للأسرة راحت مسئولياته تكبر، وأضحى له أطفال وفي زيادة مضطردة، أما دخل حصة والدي من سيارة المرسيدس فبالكاد كان يكفي مصاريف الأسرة في (غزة)، كان والدي على استعداد أن يُكافح من أجل إكمال دراستي الجامعية بدافع الغيرة من الآخرين، ولجعل كبرياء مميز لأسرته، وكان يقول: "إن الحل ومصير الأسرة معلق بيد الله ثم بما ينجزه (عبد الكريم)"، بالنسبة لي كان هذا يؤكد أكثر التزامي بمبادئي وقناعاتي التي كانت لا تختلف عن روح ما ينشده الوالد، بل إنني كنت أتجه دومًا نحو الفضيلة التي يؤمن بها وأضيف عليها يوميًا مما تعلمته وما استوعبته من حضارة وثقافة وفكر، وكنت أُريحه بهذا وأفاجئه دومًا بالجديد الحسن من ناحية التصرفات وعمق التفكير، وكان شغوفًا أن أنهي دراستي الجامعية،

كنت أقضي إجازتين مع الأهل في (غَزّة) كل عام، إجازة الصيف وإجازة نصف العام الدراسي التي كانت مدتها أقل من الشهر.

في السنة الثانية كانت الدراسة أهون في وقعها علي، لأننا بدأنا نتجه إلى التخصص، وأضحى كل ما كان يُلقى علينا في قاعات الدرس جديدًا على جميع الطلبة، لهذا لم أعانِ من صعوبة الدراسة اعتبارًا من عام ١٩٦٥م، في السنة الثانية وبناء على مناهج وزارة التعليم العالي في (مصر)، تقرر أن نقضي مدة تسعة شهور في المصانع الفنية الواقعة في مدينة (الإسكندرية)، تبدأ بعد انتهاء امتحانات منتصف العام الدراسي وتشمل بقية شهور الدراسة وشهور الصيف، وذلك لأجل التدريب العملي هناك، وذلك بعد أن أصبح مستحيلاً أن نذهب للتدريب في (ألمانيا الغربية) كما كان مقررًا أو كما جرت العادة في السابق لمثل الجامعة التي كنت أدرس فيها، لأن (ألمانيا الغربية) في تلك الأيام قد أظهرت مساندتها لإسرائيل بإهدائها مساعدات مالية وعسكرية ضخمة بطريقة سرية، كان زعيم (مصر) (جمال عبد الناصر) في ذلك الوقت يتصدر قيادة النضال العربي في تلك الفترة، ورد على (ألمانيا) بقطع العلاقات الدبلوماسية بينها وبين (مصر)، ولهذا لم نُرسل للتدريب في (ألمانيا) في ذلك العام.

خلال فترة التدريب بمدينة (الإسكندرية)، قررتْ الحكومة المصرية صرف مبلغًا شهريًا لكل طالب مقداره سبعة جنيهات ونصف، سعدت جدًا بهذا الخبر وعوض عن ضياع الفرصة وشغفي للسفر إلى (ألمانيا)، وعلى هذا الأساس وحسب ما تقرر لبدء التدريب، توجهتُ مع جماعة من الطلبة في طريقنا إلى (الإسكندرية) مستقلين القطار، وبسبب بُعد المسافة كانت خطتنا أن نتوقف ليوم واحد في (القاهرة) طلبًا للراحة، ولعدم وجود ما يقلقنا من ناحية واجبات الدراسة التي كانت لا تنتهي بالنسبة للطالب على مدار شهور

الدراسة، لأننا الآن ذاهبون للتدريب العملي في المصانع وهذا في حد ذاته هو جزء من المنهج الدراسي ولا يحتاج إلى دراسة وواجبات دراسية.

كان القطار الذي سنأخذه في اليوم التالي سيتحرك في حدود ما بعد الظهر بقليل، في اليوم التالي لا أدري كيف خطر ببالي أن أمر على مكتب (الأمم المتحدة) بـ (القاهرة) لأسأل عن أخبار موضوع المنحة التي لم أحصل عليها بعد، والتي فقدت الأمل منها في تلك الأيام ولم تعد في الحسبان، إلا أنني لا أدري كيف وجدت نفسي أصل إلى المبنى الموجود في ذلك المكتب بـ (جاردن سيتي)، وكنت أتصور بأنني سأقابل نفس الموظف العربي المتفرنج ليقول لي كما قال سابقًا: "لا أخبار ولم نتسلم شيئًا بعد". وحينها ما عليّ إلا أن أدير له ظهري وأمضي إلى القطار الذي سيوصلني إلى (الإسكندرية)، دخلت مكتب (الأمم المتحدة) ذا البهو الواسع، وأحس بي أحدهم واتجه نحوي مستفسرًا ولسان حاله يقول أية خدمة؟ قلت له ما اعتدت أن أقوله سابقًا حينما كنت أحضر مستفسرًا عن المنحة، ما كاد الرجل يسمع اسم عائلتي إلا وقال: "انتظر"، وعاد إلى خلف الحاجز الذي عادة ما يواجه المراجعين عنده، وراح يقلب بعض الكشوفات المعدة باللغة الإنجليزية، ثم توقف عند أحد الأسماء المطبوعة وقال: "اسمك الأول (عبد الكريم) ووالدك فلان والأسرة كذا؟" وظننتُ للحظة أن تلك المعلومات هي من الرسالة التي كتبتها في العام الماضي إلى هذا المكتب، وأردف الرجل قائلا: "أين أنت، انتظرناك طويلاً ولم تحضر؟" قلت له: "أنا منذ العام الماضي لا زلت طالبًا في جامعة (المنيا)" قال: "أنت محظوظ، كنا سنعيد مستحقاتك إلى (بيروت) لعدم تسلمها، لأنه إذا مر عام على شيء كهذا فلا بد من إعادته لأجل السنة المالية في وكالة الغوث، ولو حدث وأن أعيدت فإن صاحبها سيحتاج إلى وقت وانتظار لأجل استعادتها". كنت شغوفا أن يترجم ما يقوله إلى شيء ملموس، بل كنت أود أن أمسك بأول الطريق، أجرى الرجل عملية حسابية

بسيطة وقال لي، أنت لك في ذمتنا مبلغ كلي مقداره مائة وخمس وستين جنيهًا، واتجه إلى خزنة حديدية صغيرة وفتحها وسلمني النقود وأنا في ذهول، ولو سُئلت في تلك اللحظات عن كلمة كنت قد نطقتها مع الرجل لما تذكرت شيئًا من ذلك، وقال لي الرجل والآن نود أن تُعطينا عنوانًا واضحًا لنحول إليك عليه المنحة الشهرية وهي خمسة عشر جنيهًا في كل شهر، أخبرته بأنني ذاهب إلى (الإسكندرية) للتدريب حتى نهاية الصيف وبعد ذلك سأعود إلى (المنيا) في أول العام القادم، قال حسنًا إن مندوبنا يوزع المنح على الطلبة في (الإسكندرية) في يوم الأحد الذي يلي بداية كل شهر، وأعطاني العنوان الواقع في منطقة (محطة الرمل) بـ (الإسكندرية)، ودخلت عهدًا جديدًا، وبدأت تبتسم لي الأيام من جديد.

ابتداء من التاريخ المقرر وبناء على نظام توزيع المتدربين في الشركات والمصانع، التي كانت مسئولة عنه وزارة الصناعة في (مصر)، ذهبتُ إلى شركة (الرمال السوداء) التي تقع عند (حجر النواتية) بـ (الإسكندرية)، وكان معي ثلاثة زملاء آخرون تقابلنا هناك في الموعد المقرر، كانت فترة التدريب ليست أكثر من إجازة وإقامة في (الإسكندرية)، فلم يكن هناك ما نتدرب عليه بالمعنى العملي، وكانت طبيعة عمل الشركة غير تخصصنا، منذ الأسبوع الأول عملتُ دراسة ميدانية لأقسام الشركة، وأعددتُ لوحة تخطيطية لمراحل الإنتاج، وحفظتها في السكن لأجل أن أقدمها في نهاية المدة إلى مسئول التدريب، كان كل شهرين أو كذلك يأتي إلينا أحد المشرفين من طرف الجامعة للتعرف على أحوالنا، وكنا نأخذه ونقضي معه اليوم خارج الشركة، إما لتناول الطعام في أحد المطاعم أو في السكن، وكان يُسر كثيرًا بهذا، وكان يكتب تقريرًا معقولاً عنا.

١٤-٨ منحة التدريب من وزارة الصناعة.

في (الإسكندرية) تمتعت بكل ما فيها لأن النقود كانت متوفرة، فهاهي المنحة التي رحت أتقاضاها وكانت خمسة عشر جنيهًا شهريًا، كنت خلال فترة التدريب أتقاضى مبلغ السبعة جنيهات ونصف شهريًا أيضًا، وبذلك كنت أحصل شهريًا على ما مجموعه اثنين وعشرين جنيهًا ونصف، في الوقت الذي كان المعيد في الجامعة يتسلم راتبا مقداره ثلاثة وعشرون جنيهًا فقط، في (الإسكندرية) أكلت ولبستُ كما لم أفعل من قبل، واشتريتُ كل ما حلمت به، أضحى عندي بدلة جديدة، واشتريتُ (سنسالاً) ذهبيًا مكتوبًا عليه آية الكرسي، واشتريتُ أدوات شخصية أخرى مختلفة، وذهبت إلى السينما التي أريدها وإلى مدينة الملاهي، والى الكثير من الكازينوهات التي كانت تقع على شاطئ (الإسكندرية)، ولم تضحي المادة عائقًا لأي هدف كنتُ أسعى إليه في حدود المعقول والأخلاق، أما الفلوس الزائدة فقد أودعتها في أحد صناديق التوفير في (الإسكندرية)، وكنت آخذ منها كلما أحتاج، أما الذي زاد الأمور جمالاً فهو عدم وجود واجبات دراسية خلال تواجدي بـ (الإسكندرية) في نهاية كل يوم.

في نهاية فترة التدريب بـ (الإسكندرية)، حزنت كثيرًا حينما حان موعد مغادرتنا لتلك المدينة الجميلة، وكان ذلك في شهر سبتمبر سنة ١٩٦٥م، لم أحب مدينة في الدنيا خارج (فلسطين) كما أحببت مدينة (الإسكندرية)، لقد رأيتها وفيها الشبه الكبير من مناخ ساحل (فلسطين) أو أين ولدت، كان فيها خليط اجتماعي عربي مدني بطيبة سكان أهل السواحل، وفيها لمحة أوربية تجعل النفس تحلق خيالاً وأحلاًما، في آخر يوم كنت هناك ذهبت مع أحد أصدقائي، ومشينا على الكورنيش في المسافة بين منطقة (سبورتنج) و(محطة الرمل)، وبقينا حتى ساعة متأخرة من الليل نودّع (الإسكندرية) مستمتعين

بنسيم البحر، ثم عدنا إلى النوم، وفي الصباح توجهنا إلى القطار الـذاهب إلى (القـاهرة)، ولم أعد إليها منذ ذلك الحين.

١٤-٩ منحة وزارة التعليم العالي.

نجحت في السنة الثانية من دراستي الجامعية، وحصلت على تقـدير عـام "جيـد جـدًا"، وكان هذا يعني الكثير فقد حصـلت بموجبـه عـلى منحـة ماليـة أخـرى مقـدارها عشرة جنيهات شهريًا من وزارة التعليم العالي، ستُدفع طيلة سنوات الدراسة بـما فيـه الإجـازة الصيفية ما دمت أنجح كل عام وما دمت متفوقًا، وبهذا أضحيت بشكل ثابـت أحصـل على مبلغ شهري مقداره خمس وعشرين جنيهًا من منحة (الأمم المتحدة) ومنحة الجامعة، وكنت منذ حصولي على منحة (الأمم المتحدة) في منتصف العام الدراسي في السنة الثانية، قد توقفت عن أخذ أية مصاريف من الأسرة.

كان صيف ١٩٦٦م من أفضل سنوات عمري في (غزة)، كان تكملة للراحة العامة التـي منيت بها في عام ١٩٦٥، وكان امتدادًا لشهور التدريب العملي والارتيـاح مـن الدراسـة التي تظل تثقل فكر الطالب على مدار العام حتى يتقدم للامتحان النهائي في آخر العـام، وكان أفضل الإجازات الصيفية بالنسبة لي، وأحسست فيه بالاستقلال المادي، فقد كنـت مُدخرًا بضعة جنيهات من المنح التي كنت أحصل عليها خلال السنة الدراسية، ولـذلك كنـت أجـد المصروف الـذي أحتاجـه، عوضًـا عـلى أننـي كنـت خـلال وجـودي في (الإسكندرية) أشتري وأجهز أيضًـا لمـا أحتـاج إلى اسـتعماله في (غَـزّة) خـلال الإجـازة الصيفية الطويلة، وماذا يحتاج الطالب غير أن تكون جيبه مملوءة بالمال، وملابسه الأجـود والأحدث بين أنداده.

كانت تلك الفترة أيضًا لا تُضاهى من ناحية أنني قطعت مرحلة في الدراسة، وأصبح لقب مهندس على من يستحقه، وكنت قد تعديت الثانية والعشرين من العمر، وأصبح لي صوت ورأي في محيط الأسرة، كانت تلك الفترة تغذي جوانب كثيرة في كياني الشخصي والإنساني والوطني، فقد صدر في تلك الفترة وفي ذلك العام بالذات قرارًا إداريًا عسكريًا في قطاع (غزة)، فحواه إن على كل من كان يود مغادرة قطاع (غَزّة) من الفلسطينيين، سواء المقيمين الدائمين، أو حتى الطلبة الجامعيين الذين تنتهي إجازاتهم، أو من كانوا يعملون بالخارج من أبناء القطاع ويأتون للزيارة، سواء في دول البترول أو غيرها، كان على كل هؤلاء أن يتم تدريبهم عسكريًا في مراكز التدريب الشعبي التي أعدت لهذا الغرض، وعلى كل شخص أن يُبرز شهادة التدريب لأجل الحصول على إذن المغادرة من القطاع، بالنسبة لي كان التدريب أكثر من لياقة بدنية، وأكثر من وقت فراغ أقضيه مع الشباب من أمثالي في ميدان أحبه كثيرًا وأتمناه، بالنسبة لي كان هذا هواية أعشقها، وكان طريقًا ووسيلة قد تمكنني من فرض إرادتي حين الصدام مع الإنسان الإسرائيلي الذي قدم من خارج المنطقة وراح يحتل بلادنا، ويدعي الآن بأنه صاحب الأرض والحق فيها، وهو الذي راح يغير اسمها من (فلسطين) إلى (إسرائيل)، وكنت أتصور أن الاستعداد هو الوسيلة الوحيدة لإعادة الحق إلى نصابه.

فور أن سمعت بصدور القرار المذكور بادرت فورًا بالتسجيل، والتحقت بمركز التدريب الذي كانت قيادته مجمع مدرسة (فلسطين) الثانوية في مدينة (غزة)، بعد الشهر الأول من بدء التدريب تم اختياري في إحدى طوابير الصباح مع آخرين من كل مئات المتدربين، تم اختيارنا لكي نكون سرية من منطقة مركز التدريب العسكري هذا، وذلك تمهيدا لعمل تدريبات عسكرية مكثفة لنا، وأكثر خشونة عن بقية السرايا الأخرى في المركز، قال قائد مركز التدريب إننا سنغادر إلى (مصر) لأجل أن نشترك مع سرايا أخرى

من قطاع (غزة)، ومع كتائب من جيش التحرير الوطني الفلسطيني ومع القوات الخاصة الفلسطينية، وذلك لنمثل (فلسطين) ونسير في العرض العسكري في يوم الثالث والعشرين من يوليو ذكرى قيام الثورة في مصر.

في (غَزّة) وقبل السفر تدربنا على الضبط والربط، وعلى المشي وعلى حمل السلاح الفردي، ثم تطور هذا إلى كيفية المشي في العروض العسكرية التي تضم أعدادًا كبير من طوابير المشاة، وتدربنا كيف نمشي صفوفا مستقيمة أفقيًا، وكل منها عبارة عن عشرين جنديًا عليهم أن يبقوا خلال المشي على الموسيقى العسكرية في خط واحد، وليتصور المرء رؤية طابور مكون من أربعمائة جندي يسيرون بعشرينات صفوفًا خلف بعضهم البعض، في البداية وخلال التدريب كنا نخطئ كثيرًا وكنا نبذل جهدًا ونعاني قلقًا للحفاظ بالكاد على ماء الوجه، وذلك لأجل أن نتفادى الإهانات التي كانت تُقذف علينا من قبل الضباط المسئولين عن التدريب حينما كان يخطئ أحدنا ويؤدي ذلك إلى اختلال النظام العام في الطابور العسكري.

من ناحية أخرى، لقد قيل لنا على سبيل الإغراء إن مهمتنا لا تعدو أكثر من رحلة، سنتمتع خلالها في الإقامة بـ (القاهرة) وباستعمال وسائل المواصلات العامة مجانًا أو بنصف أجرة، وإن هناك من سيعمل على إعداد رحلات مجانية لنا إلى الأماكن السياحية في (مصر)، وقيل لنا أيضًا إنه في نهاية المطاف سنشترك في طابور العرض لعدة ساعات ثم نستأنف الرحلات وقضاء وقت الفراغ وسنعود إلى (غَزّة) وقتما نريد خصوصًا بعد انتهاء يوم العرض.



١٤-١٠ العرض العسكري في ٢٣ يوليو ١٩٦٦م.

استلمنا الملابس العسكرية ومهمات الجنود المختلفة، وفي الوقت المحدد خرج من (غَـزّة) قطار عسكري من مختلف فئات العسكريين الفلسـطينيين، وكـان ذلـك بصـحبة قـادتهم الفلسطينيين والمصريين، قضى ذلك القطار في الطريق إلى (مصر) طيلة يوم السفر على غير عادة القطارات التي كانت تذهب يوميًا من (غَزّة) إلى مصر، وقـد وصـلنا (القـاهرة) في المحطة المخصصة لإفراغ العسكريين مع مغيب الشمس، وقد اقتدنا بواسطة ضباط كانوا ينتظروننا في تلك المحطة، وسرنا مشيًا على الأقدام، وكنا كجنود نحمل كافة الأمتعة على ظهورنا، وكنا قد خرجنا من (غَزّة) في السـاعة الرابعـة والنصـف صـباحًا، ناهيـك عـن الوقت قبل ذلك الذي احتجناه للصحو وإعداد أنفسـنا والحضـور مـن بيوتنـا إلى محطـة

القطار في (غَزّة) قبل المغادرة، كان الغرض من تلك المسيرة الطويلة المرهقة كما فهمت بعد ذلك هو تعويدنا على التحمل وعلى الصبر على العناء، رأيت الكثيرين ممن كانوا معنا يسقطون على الأرض ويتمنون الموت على هذه الحياة التي خُدعوا فيها على حد قولهم بواسطة المسئولين عن التدريب في غزة، أولئك الذين قالوا لنا، إن رحلتنا ستكون ليست أكثر من فسحة غير متعبة أو مملة، كنت تعبًا بالطبع ولكنني كنت أحب حياة الجيش، وكنت أحبها أكثر حينما أتفوق في اللياقة البدنية والصبر على من يكونون معي.

أخيرًا وبعد عناء دخلنا معسكرات الجيش المصري في (العباسية)، ودخلنا حياة من نوع آخر، كان كل ما هو خارج ذلك المعسكر أفضل من أي شيء داخله، كان به عنابر كبيرة للجيش وكان كل شيء هناك متواضعًا خصوصًا الطعام والخدمات، بعد رحلة يوم كامل بالقطار عبر صحراء (سيناء) من شمالها إلى جنوبها وحتى وصولنا مشيًا على الأقدام إلى ذلك المعسكر، وكل المعاناة التي لقيناها وكل الجوع الكافر الذي أصابنا في ذلك اليوم، فقد أتانا داخل المعسكر من يُعلمنا بأن إدارة الجيش نَسِيّتْ أن تعمل حسابنا في وجبة العشاء، وفي الحادية عشرة مساء جاءت سيارة نقل كبيرة ورمت أمام كل سرية جنود من أمثالنا خيمة كبيرة بأوتادها وحبالها وأعمدتها، وكان علينا أن نُعدها، ومنذ تلك اللحظة فإن تلك الخيمة تعتبر سكننا في ذلك المعسكر مهما طال الزمن أو قصر، كنا نُوقَظ في الساعة الخامسة كل صباح، ونبدأ طوابير التدريب الشاقة التي كانت تستمر حتى الظهر، لنتوقف لمدة ساعة لما كان يسمى بوجبة الغداء ثم نستأنف التدريب، قضينا أكثر من شهر في ذلك المعسكر، وزارنا رئيس منظمة التحرير آنذاك المرحوم (أحمد الشقي ري)، وألقى فينا كلمة وحظيتُ باقترابه منّي خلال الاستقبال، وقف أمامي وسألني عن معنوياتي في تلك اللحظة، قلت له إنها عالية وإننا ننتظر فرصة البدء في تحرير (فلسطين)، ورد علي قائلاً: "بارك الله فيك يا بني".

كان تدريبنا شاقًا وهذا لا غبار عليه، إلا أنه كان ملفتًا للنظر أنّ الإهانات والألفاظ البذيئة التي كان يوجهها الضباط إلينا خلال التدريب، كانت تحط من معنوياتنا لدرجة أننا كنا نفقد توازننا، وكانت أخطاؤنا تزداد بسببها، وحتى إننا كثيرًا ما كنا نقول لبعضنا البعض هامسين بأصوات غير مسموعة من قبل الضباط ومساعديهم: "هيا نخطئ وليذهب هؤلاء إلى الجحيم"، كانت إهاناتهم تحط من روحنا المعنوية كثيرًا، وكأنهم يربوننا على العبودية وعلى الذل بدلاً من الكرامة والكبرياء والمجد، في أحد الأيام ازدادت الإهانات التي كانوا يوجهونها إلينا، من حيث كثافتها ونوعيتها، وكانت تمس أعراض الأمهات والأخوات، ولم نعد نحتمل أكثر، خصوصًا وأن غالبيتنا كنا من الذين لا زالوا طلبة في الجامعات، ومن الذين يأخذون الإهانة في معناها الصحيح، ما كدنا أن نأخذ بضعة دقائق كفسحة بين كل طابور تدريب وآخر كما جرت العادة، حتى عقدنا العزم أن نشتكي لقائد التدريب من سلوك غالبية ضباطه معنا، وفعلاً في أحد الأيام، وبعد انتهاء الطابور مباشرة توجه مجموعة منا وكنتُ أحدهم إلى قائد التدريب في كتيبتنا، وبادرناه بما يضايقنا، وقلت له وكلي ثقة من الظلم الذي شعرت به في تلك الأيام: "يا أفندي إن عهدَنا بمراكز تدريب الجيوش ومفهومنا إن لم نكن مخطئين، هي أنها تصنع الرجال وتبنيهم، ولكننا نشاهد ونلمس هنا أننا نعد لكي نكون عبيدًا لا يحسون بكرامة، فكيف سننتصر على (إسرائيل) ونحن جنود جَوعى، ونحن مسحوقين نتربى على الذل، ونُلقن الإهانات لنتعود عليها حتى تصبح الهزيمة والاستسلام جزء من كياننا، يا أفندي، إذا كان حضرات الضباط المباشرين على التدريب ينشدون أصلاح أخطائنا، وشد انتباهنا لتلافي الأخطاء، فإن عليهم أن يُقنعوننا بهذا، لا أن يوجهوا إلينا الإهانات، نحن متعلمين ونحن جامعيين، وتعلمنا أن قيادة المتعلم ليست سهلة، خصوصًا إذا كان مجبرًا على تلك القيادة، يا أفندي أنا شخصيًا قد رأيت (موشيه ديان) وزير الحرب الإسرائيلي إبان

(حرب السويس عام ١٩٥٦م)، وكنت صغيرًا في تلك الفترة، كان يمر على جنوده في منطقة ميناء (غزة)، رأيت الجنود الإسرائيليين يجلسون على الأرض في أوضاع مختلفة، ويتحدثون ويتمازحون ويدخنون وهو يمر من أمامهم وعن جوانبهم، ولم أرهم مذعورين كما يحدث للجنود المصريين والفلسطينيين في هذا المعسكر، لا لشيء إلا لأن كل إنسان له حق وله كرامة وله حدود".

وأنهيت كلامي بعد أن أفرغت ما كنت أود قوله فأضفت: "من يعرف يا أفندي قد يصبح بعضنا في يوم ما ضباطًا أو مسئولين ونأمل أن نتربى على الكرامة والكبرياء".

رد عليّ قائد التدريب وربما مجاملاً أو مشجعًا أو مطيبًا للخواطر الثائرة في تلك الظهيرة الحارة وقال: "هل أنت تدرس المحاماة في الجامعة؟ وفي أي سنة أنت؟" ورددت قائلاً: إطلاقا يا أفندي، لكن الظلم هو ما دفعنا أن نشكو لك"، قال الضابط الكبير: "عموما أنا سأصدر أمرًا بعد أن تعودوا للتدريب بعد فسحة هذا الوقت، وسآمر بمنع كل أنواع الشتائم من قِبَل الضباط ومعاونيهم". وقد فعل، إلا أنه لم تمض أيام قليلة إلا وعاد الكثير من الضباط يستعملون بعض الألفاظ والشتائم ضدنا، والذي تعود على شيء ليس سهلاً عليه أن يتركه.

أنقذني يومًا قائد التدريب الذي شكوت إليه ضباطه، حينما صدر أمر بقص شعر الرأس لجميعنا على قياس درجة الصفر، وكان لم يبق على عودتنا إلى (غَزّة) سوى أيام قليلة، ومن يقص شعر رأسه سيعاني فترة طويلة وهو بدون شعر بطول معقول، ونحن شباب وشعر الرأس الطويل نسبيًا بطول مناسب هو نوع من الوسامة للشاب، في ذلك الجو المحموم وقبل أن يُمسك بي الجندي المكلف بقص الشعر بعد أن حُشرنا جميعًا في مكان لإجبارنا على قص الشعر قسريًا، ناديت من مسافة بعيدة على ذلك القائد وكان يقف مع آخرين في ساحة المعسكر، فالتفت تجاهي، وقلتُ بصوتي مناديًا: "يا أفندي أود أن أقول

لك شيئًا"، وبينما أنا أقاوم الجندي الذي كان يحاول أن يبدأ إمرار ماكينته اللعينة على شعري، ما كدت أن أسمع من القائد "ماذا تريد؟"، قمت بجذب نفسي من أيدي الجندي وقمت راكضا في اتجاه القائد، وقلت له يا أفندي، بعد عدة أيام ستنتهي مدتنا في هذا المعسكر، وبعدها عندي لقاء في الاتحاد العام لطلبة (فلسطين) الذي كان سيُعقد في مدينة (القاهرة) قريبًا، فكيف سيكون منظري بين الجميع حينما أكون الوحيد بين الحضور بشعر قصير مثل المساجين، سعدت جدًا حينما وافق القائد على استثنائي من قص الشعر على أن أذهب إلى حلاق خاص بعد طوابير التدريب خارج المعسكر وأقصر شعري بشكل ملموس وبقدر الإمكان وعلى طريقتي.

في طابور كتيبة الحرس الوطني يوم الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٦٦م، وكان طابورنا يزيد عن أربعمائة جندي، كنت الدليل الأيمن للطابور الذي كان سيمر قريبًا من المنصة التي كان يجلس عليها زعيم العرب من المحيط إلى الخليج (جمال عبد الناصر)، في يوم العرض (رأيت عبد الناصر) من بعيد وهو جالس على مقعده في المنصة، بينما كانت تمر أمامه طوابير كثيرة من الجيش المصري، وفور اقتراب القوات الفلسطينية من أمام المنصة، وقف (عبد الناصر) وراح يحيينا مصفقًا بيديه، سَرَتْ في كياني رعشة ونشوة كبرياء، وشعرت بمثلها في كل من حولي، ووجدت رغبة جارفة في الصعود إلى المجد والى النصر وإلى التضحية، رأيت في تلك اللحظة بعقلي مجد الكرامة المُهان والعروبة المذلة، ورأيت جحافل اللاجئين المنتظرين في المعسكرات، كان العرض العسكري في عام ١٩٦٦م، آخر عرض يحضره (جمال عبد الناصر) رحمه الله.

في السنة الثالثة نجحت ولم يحدث ما يعكر صفوها، وأضحى هناك الكثير من الطلبة الفلسطينيين في مدينة (المنيا) من الذين يدرسون في كلية الهندسة وكذلك في كلية

الزراعة، وكان يزداد عددهم كلما مرت السنوات، وكان هناك أعداد غير قليلة من الفلسطينيين الذين عُينوا في الدوائر الحكومية من أبناء قطاع (غَزّة)، بالذات من حملة الثانوية العامة وما يعادلها، وحيث إن قطاع (غَزّة) كان تحت الإدارة المصرية، ونظام التعليم فيه حسب المناهج المصرية، والإعلام المتاح هو الإعلام المصري فقد كان غالبية الناس وخصوصًا الشباب يشتعلون ثورة وحماسًا وموالين لشعارات الثورة المصرية ولـ (جمال عبد الناصر)، وكان (عبد الناصر) منقذًا وأملاً وقائدًا في أعين الجماهير، كنت في تلك الفترة ألتهب حماسًا، وكنتُ عضوًا فعالاً في الاتحاد العام لطلبة (فلسطين)، وفي الرابطة الفلسطينية في محافظة (المنيا)، وكان يساعدني آخرون في إعداد جريدة حائط شهرية كانت تعلق في الجامعة تحت اسم (فلسطين)، وكنت مع النشطين نعمل لقاءات جماهيرية كان يحضرها أحيانًا المحافظ وكبار رجال محافظة (المنيا) وجموع الناس، وكنا نعمل مهرجانا كل سنة بمناسبة إعلان دولة (إسرائيل) وطرد الفلسطينيين العرب، وللأمانة كان رجال الأمن والمخابرات المصرية متعاونين معنا كثيرًا في هذه الأمور، ربما لكوننا كنا ناصريين.

الفصل الخامس عشر

١٥-١ حرب ١٩٦٧م.

في أول أيام الحرب، كان الوضع العام في شوارع مدينة (المنيا) بمصر مشوبًا بالحذر، فقد كنت حينذاك طالبًا في الجامعة، كانت الحركة قليلة في الشوارع العامة، ومنظر الحرب وأصواتها وتحركات الجيوش غائبة عن الأنظار والسمع، ولا أحد كان يدري ما هو حادث على أرض المعركة، تعودت منذ أن كنت صغيرًا - منذ حرب السويس عام ١٩٥٦م - أن لا أصدق كثيرًا الإعلام المصري والعربي بصفة عامة، خصوصًا فيما يتعلق بنتائج المعارك العسكرية، ولذلك كنت حريصًا على متابعة الأخبار من أجهزة الراديو من محطة (بي.بي.سي/هيئة الإذاعة البريطانية) التي كانت تُذيع باللغة العربية، وكذلك من محطة دار الإذاعة الإسرائيلية باللغة العربية، إلا أنني كنت أستمع أكثر إلى إذاعة (إسرائيل) بصفة عامة، والى برامجها السياسية الموجهة إلى الفلسطينيين، كانت عواطفي عربية قومية، ولكن معرفة الحقيقة لها طعم أطيب مهما كانت مرة، لهذا كنت أستمع إلى الأخبار الواردة من (إسرائيل) للمقارنة والوقوف على الحقيقة.

كانت عادة راديو (إسرائيل) في كل يوم أن يُذيع نشرة أخبار أخيرة بعد منتصف الليل بنصف ساعة، وكنت في الأيام العادية بين الفينة والأخرى أستمع إليها ولكن ليس بصورة يومية منتظمة، كان الوقت في (مصر) في أغلب أيام السنة متقدمًا على (إسرائيل) بساعة من الوقت، وإن منتصف الليل في (إسرائيل) معناه الواحدة صباحًا في مصر، كانت إذاعة (إسرائيل) أقوى الإذاعات الموجهة الناجحة إلى الدول المحيطة بـ (فلسطين)، كانت برامجها العربية أقرب تراثيًا إلينا، وكانت مدروسة بعناية ومنتقاة، وكانت تصاغ بقالب فلسطيني وبلهجة فلسطينية، وكان الحذر فقط بأن من يملك تلك

الإذاعة هم الأعداء، الذين يعرفون عنّا كل شيء، والذي يفهمون ما نريد من جهاز الراديو.



١٥-٢ برقية إلى جمال عبد الناصر.

كان كثير من الناس في قطاع (غَزّة) يعملون في صيد السمك وقد تعود هؤلاء أن يستمعوا إلى نشرة الأخبار التي يذيعها راديو (إسرائيل) مساء كل يوم، ذلك لأجل أن يصلوا إلى نهاية النشرة ويستمعوا إلى النشرة الجوية بالنسبة لحالة البحر الأبيض المتوسط إن كان هائجًا أو معتدلاً، ومقدار ارتفاع الموج وكذلك شدة الرياح، كان شيئًا عاديًا أن تسمع الناس في المقاهي أو في البيوت يطلبون أن يحول الراديو إلى محطة راديو (إسرائيل) قبل نشرة الأخبار بوقت طويل أحيانًا خوفًا من نسيان الوقت وفقد معرفة حالة الطقس، الإذاعات المصرية القوية التي كانت تُوجه إلى العالم العربي كانت تدعو الجماهير إلى

التغيير وإلى الثورة والوحدة، ولهذا فقد كانت الإذاعة المصرية الموجهة للشارع العربي أكثر تأثيرًا في نواحي الوحدة والقومية والتعبئة المعنوية، وكانت إذاعة (إسرائيل) معلومات وحقائق مدروسة من قبل خبراء إعلام وعلماء نفس متمكنين أفضل، وكانت برامجها الاجتماعية والمسليات تشد الانتباه واهتمام المستمعين بشكل ملموس.

أذكر عشية حرب عام ١٩٥٦م - العدوان الثلاثي على مصر - قبل الهجوم الإسرائيلي على (مصر) بيوم واحد، راحت الإذاعة الإسرائيلية تكرر بين فقرات برامجها، أنها ستبدأ العمل غدًا - أول أيام الحرب - وستبقى تعمل على مدار الساعة، وظلت تكرر هذا لعشرات المرات وكلما كانت تسمح فقرات برامجها بذلك، بعد اشتعال حرب ١٩٥٦م تذكر النشطين والمثقفين سياسيًا من الناس العاديين أن الإذاعة الإسرائيلية حينما كانت تعلن ذلك، كانت تهدف إعلاميًا إلى شد اهتمام الناس إلى إذاعتها خلال بداية الحرب، وذلك لأجل توصيل إعلامها المعادي وحربها النفسية الموجهة إليهم قبل أية إذاعة أخرى خصوصًا الإعلام المصري.

أذكر أيضًا إنه في الواحدة والنصف من صباح الخامس من يونية عام ١٩٦٧م عشية حرب الأيام الستة، حيث كنت كالعادة أقضي معظم الليل ساهرا للدراسة، استمعت إلى إذاعة (إسرائيل) وسمعت إصرار تلك الإذاعة أكثر من مرة خلال نشرة الأخبار، كانت تؤكد وتذكّر المستمعين بأن برامجها في صباح الغد أي في الخامس من حزيران (يونيه)، ستستمر على غير العادة، وستظل تعمل على مدار الساعة في ذلك اليوم، كان أكثر ما علق في ذهني بعد تلك النشرة أو العرض الأخير للأنباء كما كان يُطلق عليه، هو ذلك الإعلان، ولا أدري كيف وجدت أنني أتذكر ما كان الناس يرددونه في قطاع (غَزّة) قبل اندلاع حرب ١٩٥٦م حينما كانت تُعلن (إسرائيل) عبر إذاعتها نفس الشيء، وهذا يعني

بالنسبة لي في تلك الأمسية أن (إسرائيل) ستشن حربًا في الصباح على العرب وبالذات على (مصر)، كان الوضع متأزمًا في ذلك الوقت والحشودات العسكرية على الجانبين تزداد في كل يوم، ومضيق (تيران العقبة) أغلقته (مصر) على (إسرائيل)، وأمرت (مصر) أيضًا بانسحاب قوات البوليس الدولي من قطاع (غَزّة) و(سيناء).
كان الجميع في حالة استنفار قصوى، وكانت جيوش (مصر) الجرارة تتوجه شمالاً إلى (سيناء) في اتجاه (فلسطين) المحتلة، و(إسرائيل) كانت تحشد جيوشها على (مصر) و(سوريا)، والعالم كله كان يترقب من سيطلق الرصاصة الأولى (العرب) أم (إسرائيل).

بعد أن استمعتُ إلى إعلانات الإذاعة الإسرائيلية خلال هذا الجو المحموم الملبد بغيوم الحرب أحسست برهبة، وأحسست بقشعريرة غير عادية سرت في كياني كله، ووقفت مع نفسي وأردت أن أفعل شيئًا، حينها أحسستُ وكأنني الوحيد الذي اخترق الحجب وقرأ ما يفكر به الأعداء، وأنها فرصة لكي أُعلم (جمال عبد الناصر) عما تنويه (إسرائيل)، طبعًا كان هذا تفكيري في ذلك الوقت.
كان من عادتي خلال أيام سنوات دراستي الجامعية - إلا ما ندر - أن أذهب في الصباح إلى الجامعة وأعود بعد الظهر، كنت أتناول وجبة الطعام الرئيسية ثم أذهب إلى النوم حتى الثامنة أو التاسعة مساء، بعد ذلك كنت أصحو وأظل أطالع وأدرس حتى صباح اليوم التالي وبعد ذلك كنت أذهب إلى الجامعة، وهكذا.

في الواحدة والنصف من صباح ٥ يونيه ١٩٦٧م كنت ساهرا كالعادة حسب روتيني المعتاد، استمعت إلى عرض الأنباء من راديو (إسرائيل) باللغة العربية كما أسلفت، وفجأة توقفت عن المطالعة، استبدلت ملابسي وأصبحت مستعدًا للخروج والذهاب إلى مكتب التلغراف لكي أرسل برقية إلى (جمال عبد الناصر) أعلمه فيها بنية إسرائيل، وفجأة

وقفت مع نفسي فإذا بي أشعر بإرهاب فكري، راح يلهب كل خلية إحساس في جسمي وكل عصب في عقلي، وخلال ثوان قليلة جدًا قلبت صفحات الذاكرة وقرأت سيناريوهات كثيرة سمعت عنها، تذكرت أدوات المخابرات والمخبرين وزوار الفجر كما كان يطلق عليهم، تذكرت الأجهزة الاستخبارتية التي كانت ترهب الناس في (مصر) وفي قطاع (غَزّة) التابع إداريًا، كان مثلاً يكفي لإرهاب المثقفين في (غَزّة) ممن ينتمون إلى غير الأحزاب المتحالفة مع توجهات الثورة المصرية، أن يأتي زوار الفجر من أجهزة الاعتقال ويلقون القبض على بعضهم ويلقون بهم في معتقلات الصحاري المصرية بدون محاكمة إلى أجل غير معلوم، وفي لحظات صرت أتخيل أنني أرسلت البرقية لـ (جمال عبد الناصر)، وصرت أتخيل لو أن الحرب لم تحدث في ذلك الصباح، وصرت أتساءل أليس هناك من سيأتي ويعتقلني ويرسلني خلف الشمس بعد متاهة من التحقيقات والتهم، صرفت النظر عن الفكرة، ولم أستعد هدوئي في تلك الليلة إلا بعد أن عدت إلى المطالعة التي صاحبها صوت (أم كلثوم) وأغنية (هذه ليلتي).

١٥-٣ اندلاع الحرب.

في عام ١٩٦٧م كنت في السنة الرابعة هندسة بينما كنت أدرس في (مصر)، وكان قد بقي لي سنة أخرى دراسية، وسارت الأمور حسنة حتى قرب الانتهاء من امتحانات آخر العام التي تجرى عادة في شهر حزيران، وقد كنتُ بالفعل في منتصف فترة الامتحانات حينما أذيع البلاغ الأول من محطة (القاهرة) عن هجوم (إسرائيل) على (مصر) في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م، كنا في تلك الفترة نقدم امتحانًا لمادة واحدة كل يوم بعد يوم، أي يوم امتحان واليوم الذي يليه للاستعداد لامتحان مادة أخرى وهكذا، في ذلك اليوم تغير كل شيء في (مصر) ولم تعد (مصر) التي أعرفها، وتوقفت الدراسة في

الجامعات، وتحولنا إلى متابعة الأحداث عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، شاهدتُ من شرفة السكن عند ظهر من البناية التي كنت أسكن في الدور الثالث منها، شاهدت أربع طائرات جاءت من الجهة الشرقية لمدينة (المنيا)، ورأيتها تأخذ في الارتفاع قليلاً حينما صارت فوق المدينة ثم انقسمت إلى مجموعتين، واتجهتا كلتاهما إلى مطار التدريب الذي كان يقع في ضواحي المدينة، ورأيتها تخفض من سرعتها ومن ارتفاعاتها، وراحت تنقض على طائرات التدريب وهي جاثمة على الأرض وتضربها بقذائفها وتشعل النار فيها فتصاعد دخان كثيف، شاهدت ما حدث وكأني كنت أشاهد فيلمًا سينمائيًا وثائقيًا عن الحرب العالمية الثانية.

في مساء اليوم الأول للحرب التي أطلق عليها (حرب الأيام الستة)، وبعد أن كدت أحفظ عن ظهر قلب كل البلاغات العسكرية التي صدرت عن قيادة الحرب في (مصر) عن العمليات الحربية التي كان يدور رحاها منذ صباح الخامس من يونيه من إذاعات (مصر) الكثيرة التي كانت تُبث للشعب المصري وللأمة العربية، مع ذلك فقد رحت أيضًا منتظرًا ومترقبًا لكي أسمع ماذا تقول (إسرائيل) عن اليوم الأول للحرب ومن المتوجه من الفريقين للنصر مستفيدًا من خبرتي السابقة حينما عايشت ميدانيًا حرب ١٩٥٦م في (غَزّة) حيث كان يقول الإعلام المصري ما هو غير موجود على الأرض من ناحية سير المعارك ونتائجها بين (مصر) و(إسرائيل)، ولهذا كنتُ مضطرًا إلى أن أستمع إلى العرض الأخير للأنباء الذي كان راديو (إسرائيل) يبثه يوميًا منتصف الليل بنصف ساعة بتوقيت (فلسطين) المحتلة الذي كان يلائم الواحدة والنصف صباحًا في (مصر) خصوصًا وأن جهاز الراديو الصغير الذي كنت أملكه آنذاك كان لا يلتقط صوت (إسرائيل) إلا في وقت متأخر من الليل.

مثل كل أبناء جيلي من الفلسطينيين كنت أتابع كل ما كان يحدث في (فلسطين) وفي العالم العربي، وكنت أهتم به مثل الطعام والشراب وأساسيات الحياة، بل هكذا ظل الفلسطينيون يتحفزون عسى أن يجدوا بارقة أمل أو نصرًا يطل من الأفق.

في العرض الأخير للأنباء، أذاع راديو (إسرائيل) في تلك النشرة، أن بيانًا قد صدر عن جيش الدفاع الإسرائيلي يقول إن الطيران الإسرائيلي قد وجه ضربة ناجحة إلى القوة الجوية المصرية، وإنه قد دمر ثلاثمائة وخمس وسبعين طائرةً مصرية وهي جاثمة على الأرض، وقد صنف البيان أنواع وأعداد الطائرات التي دُمرتْ من كل نوع، غامزًا أيضًا بحرب نفسية لاختراق الجبهة الداخلية في (مصر)، وأضاف البيان أن قائد الطيران الإسرائيلي يهنئ الطيارين الإسرائيليين على هذا النجاح المذهل، ويقول لهم بأن مهمتهم لم تنته بعد فقد يُحتاج إليهم في الغد، وقال البيان أيضًا إن القوات البرية الإسرائيلية تقوم في تلك الساعات بحركة التفاف حول مدينة (جِنِين) التي تقع في شمال الضفة الغربية من (فلسطين)، وإن سقوط الضفة الغربية كلها أضحى قضية وقت قصير جدًا.

بعد أن استمعت إلى عرض الأنباء من راديو (إسرائيل) شعرت مع الذين وصلتهم هذه الأخبار بأنها أخبار موثوق بها، ذلك كوني أصبحتُ أميز بين الدعاية والحرب النفسية وبين الحقيقة، وبأننا كعرب قد شربنا الهزيمة مرة أخرى وشعرتُ بالإحباط.

في الحقيقة كانت نشرة الأخبار الإسرائيلية واقعية وعلمية، وكانت تنم عن مسئولية مُترقبة تميل إلى التعقل والحياد أكثر من التضليل، خصوصًا وأن السيطرة الجوية على ميادين المعركة أصبحت مطلقة لإسرائيل ولا تحتاج إلى الشك ولا أحد يستطيع دحضها، لأن بشاعة الكارثة التي حلت بالجيوش العربية والتفوق المطلق لـ (إسرائيل) جعل (إسرائيل) لا تأبه ولا تخاف بأية طريقة من أية ردة فعل عسكري عربي في تلك الأيام، بل ذهب الإعلام الإسرائيلي باللغة العربية إلى أبعد من ذلك، وراح يبث عبر الراديو

مـرات ومـرات كحـرب نفسـية لتعميـق الهزيمـة في نفـس الإنسـان العـربي، راح يبـث تسجيلات المكالمات التليفونية واللاسلكية التي كان يقوم بها الزعماء العرب خـلال أيـام الحرب بين بعضهم أثناء الحرب، أذكر حينما اقتنع الزعماء العرب بهزيمة جيوشـهم وراح الأمر يتداول في مجلس الأمن الدولي، لأجل أن يبقـى بعـض مـن مـاء الوجـه للأنظمـة العربية التي هُزمت ولم تكن الحرب قد وضعت أوزارهـا بعـد، بثـت إذاعـة (إسرائيـل) حديثًا مسجلاً بواسطة أجهزة اسـتخباراتها عـبر الهـاتف كـان قـد دار بـين (جمـال عبـد الناصر) زعيم العرب والملك (حسين بن طلال) ملك (الأردن)، كـان خلالـه الـزعيمان يحاولان أن يتفقـا عـلى نشر بيـان يقـول، بـأن القـوات الأمريكيـة تشـترك مبـاشرة مـع (إسرائيل) في الحرب، وقد استمع إلى هذا الحديث كثير من المواطنين العرب الذين كانوا يتابعون سير الحرب عبر (راديو إسرائيل).

منذ ثاني يوم من اندلاع الحرب لم أتوجه لمعرفة ماذا كان يـدور في سـاحات المعـارك إلا من خلال الإذاعات غير العربية التي كنتُ ألتقطها أيضًا أوقات الليل، لأن كـل مـا كنـا نسمعه في تلك الأيام من إلا

إعلام العربي لم يكن له ترجمه على أرض الواقع، وكـان لا يعـدو عـن عبـارات وبيانـات شبه مكررة من السهل أن يشك في صحتها كل ذي عقل.

١٥-٤ الإخوة في معتقل مديرية التحرير.

لم تمض سوى أيام قليلة أخرى على وقف الحرب، إلا ووصلتني رسالة تبدو من غلافهـا أنها بدائية من حيث مظهر غلافها ومن عالم غير عالمنا، وكانت من أخـواي اللـذين كانـا جنديين خلال حرب ١٩٥٦م وأسَرَتْهُما (إسرائيل) في تلك الحـرب ثـم أطلـق سراحهـما خلال عملية تبادل الأسرى بين (إسرائيل) و(مصر) في ذلك الوقت، ذكرتْ الرسالة بأن

أخواي قد وصلا إلى (مصر)، وأنهما الآن رهن الاعتقال السلمي في منطقة (مديرية التحرير) في الوجه البحري، وأنهما قد وصلا من (غَزّة) إلى مدينة (بور سعيد) الساحلية، بواسطة أحد لنشات صيد السمك الذي يملكه أحد سكان منطقة (معسكر الشاطئ) بـ (غزة)، وأنهما قد غادرا (غَزّة) لأن حياتهما كانت معرضة للخطر على أيدي الجيش الإسرائيلي بعد أن سرت إشاعة في قطاع (غَزّة) بعد الاحتلال الإسرائيلي له، بأن (إسرائيل) تبحث عن كل من كان جنديًا أو من كان معتقلا أيام حرب ١٩٥٦م، وقالت الرسالة بأن الإخوة بعد أن نزلا ميناء (بورسعيد) في (مصر)، فإن السلطات المصرية قد تحفظت عليهما ونقلتهما مع الكثيرين ممن هم على شاكلتهم من الفلسطينيين، وأسكنتهم في مجمعات إحدى المدارس الزراعية الداخلية الخالية من الطلاب في فصل الصيف، وكانت تقع في منطقة (مديرية التحرير)، وحينما فعل الجوع فيهم ما فعل، لجأوا إلى المزارع المحيطة بتلك المدرسة وراحوا بشكل جماعي يمرون على المحاصيل التي فيها الخضار والفواكه الصالحة للأكل لسد قوتهم، عندها تدخلت قوات الجيش المصري التي كانت متاحة في تلك المنطقة، وحاصرتهم وأعادتهم إلى السكن الذي وضعوا فيه، وفرضت عليهم حراسة مشددة من الجيش والشرطة، وتولى أمورهم الإدارية جهاز المخابرات، وقالتْ الرسالة بأن حالتهم بائسة، وكان معهم أربعة آخرين من أبناء عمومتنا.

كان قد صدر قرار في (مصر) وأذيع بالراديو أيضًا بأن الدراسة والامتحانات ستستأنف في الكليات والجامعات اعتبارًا من السبت القادم، وكان لم يبق على هذا سوى ثلاثة أيام، وأصبحتُ أصارع الوقت وأسابق الأيام من أجل أن أقوم ببعض الواجب تجاه هؤلاء الإخوة الذين كانوا يوفرون لي يومًا ما كنت أحتاج إليه، أولئك الذين تركوا خلفهم مأساة جديدة، وعبئًا أكبر من أي وقت مضى، فقد أضحى لهم أسر وأطفال آخرون بلا

عوائل يقومون على رعايتهم، وذاك هو قدَر الشعب الفلسطيني منذ حين في أن يظل بائسًا يركض خلف لقمة العيش والأمان، وأين هو الأمان الآن؟

لم أضيّع دقيقة واحدة فأنا أحتاج ليوم واحد فقط لكي أراجع مادة الامتحان لكل يوم، ولا بد لي أن أكون في السكن يوم الجمعة القادم، أخذني القطار إلى (القاهرة)، ومن هناك أخذني الباص إلى مديرية التحرير، مشيت بين الحقول، وكنت أسترشد بالفلاحين على الطرق الزراعية إلى أن وصلت إلى مدخل نقطة الحراسة القابعة على بوابة المعتقل (المدرسة الزراعية) الذي كان فيه القوم، قدمت نفسي لرجل المخابرات الذي كان يجلس في مكتب قريب من الجنود الذين كانوا يقفون على البوابة، وقلت له إن لي أخوة وأقارب هنا، وقدمتُ له الرسالة التي وصلتني منهم، اطلع الضابط على الرسالة ثم أعادها لي، وقال: "حسنا، أدخل وابحث عن أخوتك فكل الموجودين داخل هذا المعسكر هم من الفلسطينيين". سرتُ إلى الداخل فشاهدت غرفًا كثيرة وكبيرة، وكانت مملوءة بالرجال الذين كان يلبس غالبيتهم الملابس العسكرية القديمة، وكان الغالبية حفاة الأقدام، شاهدتُ الكثيرين من المعارف والجيران بينما كنت مارًا أبحث عن الإخوة والأقارب في الممرات المؤدية إلى صفوف الغرف، وكنت أسلم عليهم وكانوا يرشدونني كيف أكمل طريقي، وصلتُ إلى الإخوة وأبناء الأعمام وسلمتْ عليهم واحدًا واحدًا وحمدتُ الله على سلامتهم، هناك رأيت البؤس على وجوههم، وعلى وجوه كل من كانوا هناك على شاكلتهم، رأيت أغلبهم ينتعلون شباشب مقطعة، وملابس قديمة متسخة، وكانوا ذابلين من قلة التغذية والجوع، وتأثرت كثيرًا وانفطر قلبي حزنًا عليهم، جلستُ بينهم على الأرض، وفي حوالي الظهر تجمعوا وأحضر كل واحد منهم رغيف الخبز اليابس الذي استلمه توا لوجبة الغداء، وأحضروا صحنا من القيشاني القديم كان يتسع لحجم كوب ماء من أي سائل، وأحضروا فيه مخصص الستة من طبيخ الفول، ورأيتهم يختلون

ببعضهم البعض، وذهب أحدهم إلى بوابة المدرسة المعتقل واشترى علبة صغيرة من سمك السردين المحفوظ ربما لأني عندهم كضيف، وقام أحدهم بفتحها وأزال الغطاء ووضعها كما هي بجانب طبق الفول، ونودي بالتسمية بالله والتوكل وبدأنا طعام الغداء، أكلت وأنا غير راغب، ولكن لأبقي فقط على كبريائهم ولأجاملهم لا لأني أحب ذلك الأكل أو لأني جوعان، وبعد أن انتهينا وجدتُ أن لا شيء لي عندهم لكي أفعله، واستأذنتهم وذهبت إلى رجل المخابرات المسئول عن المعسكر، بادرته قائلا، بأنني أريد اصطحاب أقاربي معي، وأنا قادر على إعاشتهم عندي، وأنا على استعداد أن أوقع على ذلك كي أكون مسئولاً عنهم خلال وجودهم في (مصر)، كنت متعودًا على الحديث مع المسئولين، وكنت أجيد الحديث باللهجة (المصرية) إجادة تامة، وكنت إذا لم أقل أنا فلسطيني لمحدثي ظن بأنني مصري، كنت أيضًا ملمًا بالأمور السياسية في (مصر) وفي العالم العربي، وكنت عضوًا نشطًا في الاتحاد العام لطلبة (فلسطين)، وكنت أُربك محدثي أحيانًا خصوصًا حينما أسهب في الحديث عن السياسة وما يتمشى مع الفكر الناصري، ومع ما يتطابق مع الشعارات التي كان يرددها (عبد الناصر) في تلك الأيام، ردّ عليّ رجل المخابرات وكانت تبدو عليه الهيبة والوقار كمدير لذلك المكان ولتلك المهمة، وكان عمره كما يبدو في حدود أكثر قليلاً من الخمسين عامًا، وربما اختير لكفاءته لمواجهة مسئولية بحجم متغيرات الأحداث، قال أقاربك مرتاحون هنا، وهم مبسوطون، وهنا أفضل لهم من أي مكان آخر، ما كدت أسمع ما قال حتى انطلقت مدويًا بصوت راح يرتفع مع اندفاع الكلمات، وراحت العاطفة تتحدث من داخلي فقط وقلت: "ألا يكفي يا بيه بأن هؤلاء قد تركوا كل شيء خلفهم من أجل النجاة بحياتهم ومن أجل الحرية، ولجأوا إلى (مصر) (عبد الناصر)؟ ألا يكفيهم ما عانوه من شقاء خلال تلك الرحلة المحفوفة بالأخطار في البحر، حينما كانت الطائرات الإسرائيلية تغرق لنشات أمثالهم أمام

أعينهم وهي تتجه صوب السواحل المصرية غير المحمية من جيش (مصر)؟ ألا يكفي أن رجال الأمن المصريين في (بور سعيد) قد عاملوهم وكأنهم (إسرائيليين) قبضوا عليهم؟ ألا يكفي أنكم تعتقلونهم كالمجرمين؟ ألا يكفي ما قاسوه من جوع حتى الآن في هذا المكان النائي؟" وأكملت: "أهكذا أوصى (جمال عبد الناصر) الذي كرس كل إمكانات الشعب المصري ووضعها في خدمة المعركة من أجل (فلسطين)؟، فهل أنتم سائرون على طريق (جمال عبد الناصر) وعلى مبادئ الثورة؟" وقلت أيضًا: "يا سعادة البيه إن أحد أسباب قيام الثورة في (مصر) هي قضية (فلسطين) وفشل الجيش المصري في (فلسطين) عام ١٩٤٨م، (عبد الناصر) يريد (مصر) عربية وأنتم تريدونها مصرية إقليمية". بعد أن قلت ما قلت بحماس الشباب، قال ضابط المخابرات: "لماذا أنت ثائر؟" وقال على شكل سؤال: "أتريدهم؟ حسنا سيأتون إليك بعد أسبوع إن شاء الله". وأكمل قائلاً: "أنا أعدك بذلك بشرفي العسكري، وإذا لم يصلوك بعد أسبوع أنا مسئول عن كل كلمة أقولها الآن، لكن المطلوب منك أن تُهدئ من صوتك فلا نريد هنا أي تحريض، ولو حدث ذلك فإن إصابات كثيرة ستحدث بين الجنود ومن بالداخل من الفلسطينيين، خصوصًا إذا اشتبك من في الداخل مع قوات الأمن، وأنت رجل متعلم وتتفهم الأمور، وربما أعلمك أقاربك قبل قليل، عن الفوضى والإصابات التي حدثت في هذه المنطقة قبل أن نضع هؤلاء الناس تحت الحراسة المشددة، خصوصًا حينما اجتاح هؤلاء الناس حقول الفلاحين المجاورة".

هدأت قليلا بعد سماعي لوعده لي، وبعد أن راح يتحدث ببطء شديد ممزوجًا بالمجاملة، وكنت أكرر وأشدد على الوعد الذي قطعه، وبعد ذلك شكرته مقدما وخرجت من المكتب.

عدت إلى الإخوة في الداخل، وقلت لهم وأنا أواجههم بابتسامة بسيطة ممزوجة بالمسئولية وكمن حقق نصرًا، أنتم ستخرجون بعد أسبوع وهاهو عنوان السكن إذا استطعتم الخروج فأنا في الانتظار، وبالنسبة لي فانا أحتاج إلى عشرة أيام من الآن وبعدها أكون قد أنهيت الامتحانات، وإن لم تصلوا عندي خلال هذه الفترة فإنني سأحضر إليكم مرة أخرى، وسأحاول أن أحضر تصريحًا من (القاهرة) لكم بالخروج، فأنا أعرف أن أتدبر الأمور ولي أصدقاء يعملون ضباطًا في الشرطة، وكذلك أعرف ضباط المخابرات في مدينة (المنيا) التي أدرس فيها، وهم سيرشدونني ماذا سأفعل، ثم ودّعت أقاربي وعدت إلى (المنيا) على عجل لكي أستعد لإكمال الامتحانات.

خلال الأيام الأخيرة للامتحانات وحسب ما توقعت، استلمت رسالة أخرى من الإخوة علمت منها، أنهم قد خرجوا من ذلك المكان، وهم الآن موجودون في فندق بور سعيد الشعبي الموجود بـ (القاهرة)، والذي كان يقع قرب بداية سوق (الموسكي) أمام فندق (فلسطين)، بعد الامتحان - تراضيًا - أخلى زملائي في السكن الغرفتين الأخرتين في الشقة التي كنت أسكن فيها بمدينة (المنيا)، وذهبتُ إلى (القاهرة) وأحضرت الإخوة وأبناء العم إلى مدينة (المنيا) التي ما زلتْ أدرس فيها حتى ذلك الوقت وأحتاج لأبقى فيها سنة أخرى.

في (المنيا) بعد الامتحانات كان أخوتي وأبناء عمي محظوظين لأنني كنت في إجازة الصيف الطويلة، وقد ساعدتهم في أمور كثيرة واستقرت حياتهم كثيرًا إلى حد ما من ناحية بقاءهم على قيد الحياة، ولمسوا الكثير من وسائل الحضارة المتاحة في (مصر) مقارنة بالحياة البسيطة في قطاع (غزة)، وانعكس هذا على لبسهم وعلى تصرفاتهم، وأضحوا أكثر مرونة في أمور كثيرة، كنا نقضي الساعات الطوال في السهر أو نتمشى على كورنيش

(المنيا) الجميل، وكنا تناول وجبات الطعام معًا وكنا نُسر بها ونستعيد خلالها الـذكريات، وكنا نتذكر كثيرًا الأقارب والأحباب والأحاديـث الشـيقة، وكنـا نقلـق عـلى عودتنـا إلى (فلسطين)، وكنا نتساءل، هل سينسحب الإسرائيليون مـن (غَـزّة) أم لا، أم إن التـاريخ راح يُعيد نفسه كما حدث عام ١٩٤٨م، كنا في الماضي حينما كان قطاع (غَزّة) مع العرب ننتظر العـودة إلى (فلسـطين)، والآن أضـحينا ننتظـر العـودة إلى قطـاع (غَـزّة) والضـفة الغربية، كان هذا الحديث يخلق الشك وكنا نقول إذا لم نعـد إلى (غَـزّة) فـإلى أيـن؟ ومـا مصير أقاربنا هناك؟ وهل سنراهم بعد هذه الأيـام؟ كنـا كمجموعـة مقبـولين مـن قبـل الناس في مدينة (المنيا)، وكنت أجد المساعدة من الناس العاديين ومن الإدارات الحكومية في كل ما له علاقة بالإخوة الضـيوف والأقـارب، زارنـا يومًـا في السـكن أحـد ضـباط المخابرات من معارفي أو قل ممن كانوا يتابعون الأجانـب خصوصًـا الطلبـة، ودعانـا إلى مكتبه وقدمنا إلى رئيسه، ويبدو أنه اقتنع ورئيسه بأن مجموعتنا لا تمثل شبهة أو خطرًا على الأمن في تلك المنطقة، وزارنا أكثر من مرة أحد ضباط الشرطة، وكان الناس بصفة عامة يُعاملوننا بطريقة اسـتثنائية، ولا أذكـر أن توجهـت إلى جهـة حكوميـة إلا وحصـلت في النهاية على مبتغاي، وكلمة حق تقال، إن الشعب المصري ربما هـو أكثـر شـعوب العـالم العربي طيبة، وأكثرها حبًا للغريب، وسرعان ما يشعر المرء بينه وبـين نفسـه بأنـه قريـب لكل الناس، وإذا كنت سلبيًا فإن النـاس يبـدأون معـك الحـديث ويجعلونـك اجتماعيًـا، والشعب المصري بصفة عامة كريم جدًا في حدود إمكاناته، وهو أيضًا أكثر وأفضـل ممـا قلت هنا بكثير.

أمورنا المادية كانت لا بأس بها بالنسبة لي في (مصر)، فقـد كنـت أحصـل عـلى مـنح بـما مجموعه خمسة وعشرون جنيهًا في الشهر، وقد أشرت إلى هـذا في أكثـر مـن مكـان قبـل الآن، وكانت هذه فقط تكفي لمعيشـة أسرة كبـيرة في (مصر)، أصـبح أبنـاء العـم أيضًـا

تصلهم نقود من أقاربهم العاملين بـ (السعودية) و(الكويت)، وقد تطوع بعض الأقارب من الأصدقاء فكان يُرسل لي قسريًا نقودًا بالبريد أيضًا من إحدى دول الخليج، رغم أنني أكدت له أكثر من مرة بأنني لا أحتاج إلى نقود الآن، وكم رجوته ألا يُرسل شيئًا إلا إذا طلبت منه ذلك حتى امتثل، ومنذ تلك الأيام رحتُ أشارك في المسئولية المادية لكل أفراد أسرة الوالد التي كانت تنجب أسرًا جديدة بسرعة مذهلة، بالنسبة للأهل في (غَزّة) كان الأخ المدرس كعادته هو رجل المهمات الأسرية، وكان يغطى حاجة أسرة الوالد وأسر الإخوة الغائبين بالضروريات، أخي الذي كان يصغرني مباشرة، كان لا يزال في المرحلة الأخيرة من الثانوية العامة، وقد أرسله الوالدين إلى (الأردن) مع توصيته بأن يتصل بي في (مصر)، وذلك لأجل أن أساعده في الخروج من (الأردن) إلى (مصر) كي يكمل دراسته، منذ أن علمت بوصوله إلى (الأردن)، رحت أحاول وجهزت له الدخول في مدارس (القاهرة)، وأرسلت له أوراق التسجيل، واستغرق إحضاره إلى (مصر) بين الدولتين إلى أكثر من عام، حتى إنه حضر إلى (مصر) ولم أكن موجودًا فيها.

كنا نتبادل الرسائل مع الأهل في (غَزّة) بواسطة منظمة الصليب الأحمر الدولي، وكنا أحيانًا نرسل سلاماتنا إليهم بواسطة الإذاعة المصرية من خلال البرنامج الإذاعي الخاص، في السنة النهائية نجحت وحصلت على شهادة بكالوريوس، قسم ميكانيكا، شعبة قوى، وكان ذلك في عام ١٩٦٨م، لم أكد أنهي الدراسة إلا وكان أحد الإخوة واثنان من الأقارب قد حصلا على تصاريح من قبل الصليب الأحمر الدولي بالعودة إلى قطاع (غزة)، واثنان آخران من أبناء الأعمام قد ذهبا ليعملا في صيد السمك في مدينة (الإسكندرية)، وذلك بعد أن علما أن بعض أبناء (غَزّة) من معارفهم يعملون في تلك المهنة هناك، قمت بكل واجباتي تجاه من ذهبوا إلى (غَزّة) وتجاه الشابان اللذان ذهبا إلى (الإسكندرية) من ناحية مساعدتهم بقدر الإمكان ماديًا، وذلك لتسهيل إعدادهم

وتجهيزهم بالملابس أو بنقود قليلة، بعد ذلك ذهبت أنا وأحد الإخوة الذي لم يكن راغبًا في العودة إلى قطاع (غَزّة) في تلك الأيام، ذهبنا للسكن في (القاهرة)، قمنا باستئجار سكن متواضع في منطقة حي (إمبابة) في شارع (الطيار فكري زاهر)، كان أخي هذا غير سعيد من ناحية العمل في قطاع (غزة)، ولهذا فإنه قد أجل تسجيل اسمه لدى الصليب الأحمر الدولي للعودة إلى القطاع، واكتفى مؤقتًا بأن سجل نفسه لدى مكتب إدارة الحاكم العام لقطاع (غَزّة) الذي كان يشرف على شئون قطاع (غَزّة) في (القاهرة)، وساعدت أخي هذا في إثبات أنه كان يعمل بوظيفة فني في جهاز شبه حكومي في مدينة (غزة)، على أثر هذا كان يُصرف له مبلغ سبعة جنيهات ونصف شهريًا، وكان إذا ذهب إلى (غَزّة) فإنه لن يحصل عليها بسبب الاحتلال الإسرائيلي.

في (القاهرة) وبعد انتهاء العام الدراسي مباشرة، توقف صرف المنح الشهرية لي، ذهبت منحة (الأمم المتحدة) وأيضًا منحة التفوق في الجامعة، وحصلتْ فقط على منحة جديدة من جامعة الدول العربية، راحت تُصرف للطلبة، أو لمن كان طالبًا من الفلسطينيين بسبب ظروف الحرب، وكان مقدارها عشرة جنيهات مصرية في الشهر، كانت هذه المنحة لا تكفي لمصاريفي التي اعتدت عليها خلال السنوات الماضية، ولهذا وجدت أنه من السهل عليّ أن أستدين من أحد الأصدقاء الفلسطينيين، ممن كانوا يعملون برواتب زهيدة في (مصر)، وفي النهاية أصبحت مدينًا له بمبلغ مئة وثلاثين جنيهًا.



باختصار، خسر المصريون والعرب حرب ١٩٦٧م، وغيرت تلك الحرب الكثير في النفس العربية، وأنهت عصرًا بالنسبة للصراع العربي الإسرائيلي وأتت بآخر، وأصابت المجتمع العربي في الصميم، وفجرتْ فيه ينابيع الآلام، وكادت أن ترسل الفلسطينيين إلى اليأس، فها هي (إسرائيل) تطبق باحتلالها على كل أرض (فلسطين)، وأضحى كل من كان يعيش في تلك الأيام في الضفة الغربية وقطاع (غَزّة) في الأسْرِ أيضًا، كما وإن نتيجة تلك الحرب قد أيقظت كل العرب على الوهن الذي عندهم في كل المجالات التي يعانيها الإنسان العربي إقليميًا وقوميًا.

بعد هذه الحرب راحت (إسرائيل) بغطرستها تجثم كالهم على صدر الأمة العربية، فها هي قد ابتلعت ما تبقى من الضفة و(غَزّة) في (فلسطين)، هذا بالإضافة إلى أراضي دولتين عربيتين كانتا إلى حد قريب تُعتبران الدرع الواقي للأمة العربية من التوسع الصهيوني، فقد احتلت (إسرائيل) كل صحراء (سيناء) من (مصر) وكل (هضبة الجولان) من (سوريا)، وهكذا استمرت (إسرائيل) كعادتها ومنذ إنشائها وحتى بعد حرب ١٩٦٧م

أن تدير حربًا بشكل أو بآخر ضد العرب كل عقد من الزمان لأجل أن تجهض الطاقات العربية قبل أن تكتمل أو تضحي خطرًا على الدولة العبرية، وكانت لا تعجز عن إيجاد المبرر الذي تدعي به أمام العالم لتعتدي على من تريد من العرب، وأما في الحقيقة وبلا مبالغة، فقد كانت حرب ١٩٦٧م الإسرائيلية-العربية نقطة تحول في تاريخ المنطقة، ترتب عليها كثير من المتغيرات التي ترتب عليها إطلالة جديدة للمنطقة العربية بعد أن بدا كم هي (إسرائيل) متفوقة على العرب أجمعين، وراح الفلسطينيون يبحثون عن وسيلة أخرى.

إلى الجهاد الأكبر.

عام ١٩٦٨م أنهيت دراستي للخمس سنوات الجامعية ولا بد للحياة أن تستمر، ورحت وأمثالي نبحث عن وسيلة رزق للاستمرار في العيش لكي أبني أسرة، ولكي أساعد الأهل الرازحين تحت الاحتلال في قطاع غزة.

الفصل السادس عشر

١٦-١ الاحتلال والعقاب الجماعي.

في أحد الأيام إبان الاحتلال الإسرائيلي لقطاع (غَزّة) على أثر حرب ١٩٦٧م، وتلك مجرد حادثة واحدة من الحالات الكثيرة التي لا يمكن حصرها هنا مما عاناه الفلسطينيون من احتلال إسرائيلي لبلادهم ولحياتهم على مدى عشرات السنين، بل هي ليست أكثر من مجرد نمط ولون من عذابات الناس وهدر كرامتهم وإذلالهم، حدث في ذلك اليوم أن صبيًا ألقى بقنبلة مولوتوف صغيرة على سيارة جيب تابعة للجيش الإسرائيلي كانت تعبر شارع أحد الحارات الواقعة في شمال ميناء (غَزّة) القديم ولم يتأذ أحد من جنود الاحتلال ولا حتى السيارة بسببها، على أثر ذلك صحا الناس في صباح اليوم التالي فإذا بهم يجدون منطقتهم كلها -٤٠ ألف نسمة - وليست حارة واحدة أو شارع فقط، وجدوا أنفسهم موضوعين في إطار طوق كامل من الأسلاك الشائكة كان قد نصبها حولهم الجيش الإسرائيلي خلال الليل.

في الصباح الباكر بدأ سكان المنطقة ممن سيتوجهون كالعادة إلى أرزاقهم بالخروج من بيوتهم، ما كادوا يصلون إلى أطراف منطقتهم فإذا بهم يفاجأون بسور الأسلاك الشائكة ووجدوا الجنود الإسرائيليين المدججين بالأسلحة ينهرونهم ويأمرونهم بالعودة إلى بيوتهم، وأضحى لا يسمح في ذلك اليوم لأحد من سكان المنطقة بالخروج من البوابة الوحيدة في السور التي خصصت للجنود فقط،

وعند شروق الشمس في ذلك اليوم المشئوم، جاءت كتيبة من الجيش الإسرائيلي ليس بالأسلحة النارية وإنما كان كل جندي يحمل هراوة غليظة، كانت الهراوات كلها من نوع واحد وقياس واحد وكأن هذا النوع من العتاد موجود ومتوفر بكثرة في مخازن الجيش

الإسرائيلي المُعدة أدواته لقمع الفلسطينيين والعرب بصفة عامة، راح جنود الكتيبة الذين وُزعوا على عرض تلك المنطقة في ذلك اليوم الحزين، راحوا على شكل جبهة يجتاحون الدور ويدخلون كل دار وكل غرفة فيها من بيوت تلك المنطقة حتى لا يستثنوا أو يسهوا عن أحد، كانت مهمتهم هي أن يؤدبوا السكان العزل ويذلونهم، كون أن قنبلة المولوتوف التي أشرنا إليها قد أُلقيت من منطقتهم، وذلك بأن ضربوهم جميعًا بالهراوات، وذلك ما أكدته الساعات التي تلت بعد ذلك، لم تسلم أي دار أو بيت من دخول الجنود إليها في ذلك اليوم، ولم ينج أحد من سكان تلك المنطقة من الضرب العشوائي المبرح، ضربوا كل الرجال وكل النساء وكل الأطفال ولم يستثنوا أحدًا، قيل إن اختلاط عويل النساء والأطفال، من كل الجهات ومن كل البيوت في آن واحد، وبكاءهم وتوسلهم بأعلى أصواتهم في ذلك اليوم كان مُحزنًا ومُؤلمًا لمن كانوا يسمعونهم من سكان المنطقة المجاورة الواقعة خارج طوق الأسلاك الشائكة، وكان إذلال الرجال وأنينهم المتقطع في تلك الأثناء يُفتت القلوب، قيل إن الكثيرين ممن عاشوا في تلك المنطقة بعد ذلك قد أصيبوا بتشوه وبعاهات دائمة بسبب ما تعرضوا له من ضرب في ذلك اليوم، ولم يسلم الصبي ولا الفتاة ولا العجوز من الضرب العشوائي المؤذي بعصي الجنود الإسرائيليين، كان ما حدث لأولئك الناس ليس حدثًا نادرًا وإنما كان هذا أسلوب مارسته (إسرائيل) بانتظام ضد السكان في الأماكن المختلفة تحت الاحتلال.

قيل أيضًا وعلى سبيل المثال لا الحصر، وهذا موضوع آخر، إن في كل فترة أو في كل أربعة شهور مثلاً كان بشكل استثنائي يُؤتى بقوة حرس الحدود الإسرائيلية إضافة لقوة الاحتلال التقليدية الموجودة، وذلك لتقيم قوة حرس الحدود أيضًا في مدينة (غَزّة) مثلاً لمدة أسبوعين إلى أربعة أسابيع أو حسب الحاجة وبشكل دوري، وذلك لأجل مهمة منشودة، خصوصًا إذا ما كانت تشعر سلطة الاحتلال بأن معنويات الناس قد ارتفعت

قليلاً بسبب إعلام عربي أو (فلسطيني خارجي أو مقاومة أو أي شيء ينم عن احتمال خلاصهم من عبودية الاحتلال، وقوة حرس الحدود هذه كانت قوة من المليشيا الخاصة التابعة للجيش الإسرائيلي تسمى (مشمارڤول)، كان عمل هذه المليشيا خلال وجودها في المنطقة يبدأ بنشر دورياتها في الشوارع العامة يوميًا، وكان عملها الاستفزاز والاعتداء على المواطنين بلا أسباب، والرغبة في إذلالهم، كان الجندي من هؤلاء مثلاً يُنادي على أي رجل أو شاب (فلسطيني يكون عابرًا في سبيله، سواء كان ذاهبًا إلى العمل أو عائدًا إلى بيته أو ماشيًا في أحد الشوارع العامة، خصوصًا إذا ما رآه الجندي معتدًا بنفسه رافعًا رأسه، أو يبدو أو يظهر عليه أي نوع من الأناقة أو الثقة بالنفس، كان الجندي يأمره بالتوقف ثم يأمره بالوقوف بجانب حائط ثم يأمره بالجلوس على الأرض أو يأمره بالاقتراب قليلاً ويسأله عن اسمه أو عن بطاقته الشخصية أو عن أي شيء لكي يسرق انتباهه ويجعله يسهو قليلاً، وخلال ذلك كان يتصيَد الجندي ركل الشخص بقوة بحذاء قدمه أو بتوجيه ضربة خاطفة له بقبضة اليد فيها كل الحقد والجبروت والاحتقار والإهانة والتعالي على البشر غير مهتم بحجم الضرر أو الإصابة التي قد تصيب ذلك الكائن البشري، كان يحدث هذا ليس نادرًا وإنما كان أحد أساليب التخويف والإذلال المستمرة للإنسان الفلسطيني في قطاع (غَزّة) بعد حرب ١٩٦٧م، قِس على ذلك تفنن الجنود وتنوع الحقد بين جندي وآخر من هؤلاء، ومستوى الضمائر وأنواع السلوكيات التي تقود أفراد هذه المليشيا والدوافع التي تقود كل فرد منهم.

لقد كان الاعتداء والتعذيب والإهانة هي القاعدة العامة والقاسم المشترك الذي كان يُمارس ضد الناس، كان ما ذكرناه هنا كان بلا مبالغة يحدث في أغلب الأحوال لأي شاب فلسطيني بائس الحظ يصادفه جنود إحدى الدوريات في الشارع الذي يشاء القدر أن يعبره في وقت معين، وكان يحدث هذا أحيانًا بينما الرجل أو الشاب يصطحب أمه أو

زوجته أو أخته أو طفله، ولنا أن نتخيل كيف يكون شعور الإنسان وكرامته تهدر بهذه الكيفية ليس فقط أمام من يُوَجِه له الإهانة بل أمام من يُفترض أن يكون الحامي لهم من أهله الذين صدفة يكونون برفقته حينما يعترضه الجنود ويعتدون عليه.

لقد زرع اليهود الإسرائيليون الخوف على مدى الأيام في قلوب الفلسطينيين طيلة فترة احتلالهم خلال فترات ما بعد حروب ١٩٤٨/ ١٩٥٦/ ١٩٦٧م، واستمروا في التعالي والغطرسة، وأن للباطل جولة.



١٦-٢ الخوف والفزع.

أذكر خلال فترة الأيام الأولى لدخول الجيش الإسرائيلي إلى مدينة (غَـزّة) عام ١٩٥٦م أننا رُوِعنا بما قام به الجيش الإسرائيلي ضد السكان، أذكر على سبيل المثال لا الحصر أيضًا حالة مما حدث مع أسرتنا، وتلك حكاية أخرى تختلف عما سبق، لأن تلك الرواية هي من النوع المضحك المبكي، كانت القصة مخيفة ومنفرة في حينها أو قل كانت مثل كابوس

أو سوط ألهب ظهورنا لعدة أيام في تلك الفترة العصيبة، لكنها كانت بعد ذلك من القصص والنوادر المضحكة والمسلية للأسرة خصوصًا بعد ذهاب احتلال حرب ١٩٥٦م وتنفسنا الصعداء.

بعد زوال احتلال (إسرائيل) سنة ١٩٥٦م كنا ما زلنا نعيش في (معسكر الشاطئ) للاجئين بمدينة (غزة)، وكانت أسرتنا تجتمع أحيانًا أو كنا نلتقي في المناسبات مع الأقارب أو الأصدقاء، وكان إذا سرقنا الحديث إلى أيام الاحتلال كنا نتذكر تلك الحكاية وكنا نضحك وكان الواحد منا يتذكر العبارات والنصائح البريئة المضحكة التي كان يقولها غيره من أفراد الأسرة خلال المحنة خصوصًا التي أضحى معناها فيما بعد ينم عن السذاجة والعفوية.

الحكاية هي أن الجيش الإسرائيلي عام ١٩٥٦م وكما ذكرنا قد احتل قطاع (غَـزّة) خلال العدوان الثلاثي على مصر، وبينما كان القلق والخوف يساورنا على أخوين لي حدث أنهما كانا جنديين ضمن اللواء الفلسطيني التابع للإدارة المصرية التي كانت تدير قطاع (غزة)، وبينما نحن كذلك واجهت أسرتنا مشكلة كان شعورنا بها وكأننا نلبس ثوبًا مبللاً بالخوف وكأن الدنيا ضيقة إلى حد أننا لا نرى في وجداننًا إلا الجنود الإسرائيليين والموت الذي يوزعونه على الناس، في تلك الأيام كان لدينا بعض الملابس العسكرية الخاصة بالأخوين، إضافة إلى بعض الملابس الداخلية التي كانت توزع عليهما ضمن مخصصات الجنود النظاميين، فقد كان الأخوان خلال إجازاتهما الشهرية يتركان أحيانًا بعض ملابسهما بغرض إعدادها وحفظ بعضها أو لإرسالها لمحل كي الملابس حتى تكون جاهزة إذا ما حضرا في المرة القادمة، بعد دخول الجيش الإسرائيلي إلى قطاع (غَـزّة) على اثر حرب ١٩٥٦م، راح والدي رحمه الله يفكر في طريقة لأن يخفي تلك الأشياء عن أعين جنود الاحتلال إذا ما حضروا وقاموا بتفتيش دارنا، كان دافع الوالد أن تلك

الملابس ضرورية للأخوة لأنها لا زالت عهده عليها كجنديين وهي ملابس جديدة إلى حد ما، وبينما نحن في هذا الحال فجأة أضحت تلك الملابس هي شاغلنا الرئيسي بل إحدى أهم المشاكل عندنا بل أهمها، راح كل أفراد الأسرة بما فيهم الكاتب - ١٣ سنة آنذاك - يقضون الساعات والأيام يفكرون في كل الأوقات وهم قلقين، كان الجميع يبحث عن وسيلة كيف يمكننا أن نخفي تلك الأشياء - ملابس الأخوين - عن أعين الجنود، ما زاد الطين بلة حسب المثل المعروف، هو أن الغالبية منا كانوا يربطون قراراتهم بخوف، كل واحد منهم بالخوف شخصيًا من اليهود الإسرائيليين، هذا بالإضافة إلى القلق على الإخوة أصحاب تلك الأشياء لأن أحدهما كان قد وصل حديثًا إلى دارنا بعد أن صدر قرار انسحاب الجيش المصري الشهير من قطاع (غزة)، وأما الأخ الثاني فقد كان حتى ذلك الوقت غير معروف مصيره إن كان حيًا أو ميتًا، وهكذا كان الخوف والقلق يسكنان في داخل كل واحدٍ منا بلا استثناء، ولذلك كان التردد وإلغاء كل ما كان يُتفق عليه في أي وقت قاسمًا مشتركًا بين جميع أفراد الأسرة، أخيرًا وبعد معاناة قرر والدي أن يضع كل الأشياء العسكرية في جرة كبيرة من الفخار/زير وأن يغلقه جيدا، وقام بحفر جورة في باحة الدار بعمق طول الإنسان العادي، ثم وضع الجرة فيها وردمها بالتراب، لم يمض يوم أو يومين إلا وقد عاد حديث الأسرة عن ذلك الموضوع، تساءل البعض منا قائلا، ربما يأتي الجنود الإسرائيليون إلى دارنا ويغرزون سيخ الحديد/مجَسْ الخاص بالبحث عما تحت الأرض فيعثروا على تلك الأشياء، وعندها ستكون الطامة الكبرى، علمًا بأن مثل هذه الأشياء كانت عادية ولا تحتاج للإخفاء، وقد رأيت في تلك الأيام كثيرًا من الناس يلبسون ملابس الجيش المختلفة بهدف السترة واتقاء شر البرد وذكرت هذا للأهل، إلا أن أحدًا منهم لم يوافق على رأي، وكان ينتصر دائمًا القلق على

أخي الذي كان جنديًا، الذي أضحى موجودًا بيننا، وكان ذلك يجعل الجميع لا يرون غيره.

على أثر هذا الشعور العام عاد والدي وحفر وساعده الإخوة في إخراج تلك الجرة ثانية من تحت التراب، وفي النهاية قرروا أن يتخلصوا من بعض تلك الأشياء، وفرزنا كل شيء عسكري أو شكله عسكري ما عدا الملابس الداخلية فقط التي أبقيناها، لأن الغالبية قالوا هذه لا توحي بأنها عسكرية، وقالوا لي، خذ هذه الملابس العسكرية واحملها علنا بين يديك، وسر بها حتى تصل إلى حافة الماء والقي بها في البحر، لأن لا أحدًا من الجيران يقبل أن تترك في الشارع قرب باب داره أشياء كهذه خوفًا من اليهود، وفعلاً فعلتُ ما أمرني الوالد به.

بعد أيام قليلة مرت سيارة عسكرية إسرائيلية، وكان الميكروفون المثبتْ عليها ينادي بلغة عرية ركيكة محذرًا الناس بأن من يوجد لديه أي قطعة سلاح، عليه أن يُسلمها فورًا وإلا سيتعرض لعقاب شديد، ما كاد أفراد أسرتنا يسمعون ذلك، إلا وعاد الحديث عن ملابس الإخوة الداخلية التي أبقينا عليها علمًا بأنها كانت لا تختلف أبدًا لا في لون القماش ولا حتى في الشكل عما كنا نستعمله من هذا النوع من الملابس عدا إنه كان يوجد رسم صغير على شكل كتابة أو صورة واهية للعلم المصري باللون الأسود على بعض أطراف قطع الملابس الداخلية، وراح الخوف يزداد في قلوبنا بعد سماع تحذير ميكروفون السيارة العسكرية وكأن ما عندنا هي أسلحة وليست ملابس داخلية.

أخيرًا اهتدينا أن نبقي تلك الملابس ولكن بشرط أن نقوم بحذر بإزالة تلك الرسوم إن وجدت وذلك باستعمال مقص القماش، وفعلاً اجتهد الأغلبية منا وتفننوا في عمل الثقوب والدوائر في تلك الملابس بواسطة أدوات قص القماش، وهكذا أعطبنا كل قطع الملابس الداخلية التي أشرنا اليها، ولم يمض ربما يومين إلا وعاد الوسواس ثانية، وكأن

الجنود أو هكذا تخيلنا سيقومون بتفتيش ملابسنا الداخلية أيضًا وسيركزون وسيتعرفون على تلك الأشياء بسبب الثقوب التي كانت بسبب إزالة آثار ماركة الصناعة لتلك الملابس لأن موادها الخام كانت مصرية، وافترضنا أن (إسرائيل) ستعاقبنا بسبب هذه الأشياء إذا وجدتها لدينا لأن (مصر)//(عبد الناصر) رحمه الله كانت العدو الرئيسي في ذلك الزمان لإسرائيل.

حينما وصل الوسواس عندنا إلى هذا الحد، لم نجد بُدًا هذه المرة سوى إشعال نار كبيرة على أرض ساحة الدار وقمنا بوضع قِطع تلك الملابس الداخلية قطعة قطعة في النار، وقلبناها حتى أتت عليها النار كلها وطوينا صفحتها.

لقد ظلتْ تلك الحكاية فيما بعد لعشرات السنين، وما زال الأحياء منا يُكررونها للأبناء والأحفاد كلما كان هناك حديث عن (فلسطين)، لقد كانت صورة مخجلة لسذاجتنا، وكانت مقلقة تذكرنا دائمًا بمأساة شعبنا وما تعرض له من ظلم وكسر هيبة بلا ذنب ارتكبه سوى كونه صاحب الحق الشرعي في (فلسطين).

الفصل السابع عشر

١٧-١ نهاية عصر.

على أثر حرب سنة ١٩٦٧م والهزيمة التي مُني بها العرب أمام (إسرائيل)، تلك الحرب التي أقنعتهم بأن القوة مع (إسرائيل) لن تجدي نفعًا في ظل عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، الذي يُجسد فيها العرب حطام أمة ما زالتْ على أعتاب التحسس في البحث عن هويتها، في هذا الحال وما آلت إليه الأمور في (فلسطين)، جعل كثيرًا من الدول العربية من خلال النظرة الإقليمية الضيقة، أن تعيد حساباتها وتفكر جديًا بالانسحاب من المواجهة الحامية مع (إسرائيل) ممثل الغرب والدول المتنفذة في هذه المنطقة من العالم، وحتى إن (موشيه ديان) وزير الحرب الإسرائيلي في تلك الأيام، قال مباشرة بعد حرب الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧م: "نحن ننتظر الآن قرب الهاتف لنرى مَن مِنَ العرب سيبدأ أولاً بعرض طلب الصلح مع إسرائيل".

كان هذا هو الحال السائد في تلك الأيام، الحال الذي أصبحتْ فيه الأنظمة العربية عاجزة عسكريًا أمام (إسرائيل) وأمام جبهاتها الداخلية أيضًا التي تعتبر بصفة عامة قضية (فلسطين) هي قضيتها القومية الأولى، تلك الأنظمة التي انكشفت أمام جماهيرها، في هذا الفراغ الذي أوجدته المتغيرات الجديدة في الأقطار العربية، في تلك الفترة وجدت الحركة الوطنية الفلسطينية بغيتها عند الشارع العربي والتحمت بالجماهير في أكثر من مكان وأضحت منطقة الجذب القومي، وأجبرت كثير من الأنظمة العربية على مضض للتساهل معها، وعلى مسايرتها من أجل إرضاء الشارع المحلي عندها خصوصًا بعد أن أبلى المقاتلون الفلسطينيون مع الجيش الأردني بلاء لا بأس به في معركة الكرامة الشهيرة عام ١٩٦٨م، إلا أن عنف الردود الإسرائيلية بعد ذلك للمناطق والدول التي كان

ينطلق منها المقاتلون الفلسطينيون جعل تلك الأنظمة تواجه الفلسطينيين بحرب لا ترحم ولا خيار لأحد فيها، فالأنظمة العربية غامرت ورأت أن الأهون لها هو مقاتلة الفلسطينيين الأضعف لاتقاء العربدة الإسرائيلية، والفلسطينيون في الناحية الأخرى، كون أن لهم هدف وقضية نبيلة فقد راهنوا على الشارع العربي ليقف معهم ضد الأنظمة المهزومة فكان الصدام حتميًا.



١٧-٢ المقاومة والأنظمة العربية.

اصطدم الفلسطينيون مع النظام في (الأردن) أولاً ومع (سوريا) ثانيًا ومع (لبنان) بعد ذلك بصور مختلفة، ودفعوا ثمنًا غاليًا في كل مرة، فما لم تستطعه (إسرائيل) ضدهم حتى ذلك الوقت قامت به الأنظمة العربية، وهكذا كانت الأنظمة حليفة بلا خيار وبلا مواثيق رسمية مع (إسرائيل) في إضعاف الفلسطينيين على مدى أكثر من ثلث قرن من الزمان، وليس هذا فحسب بل فقد طورد الفلسطينيون وطردوا وروقبوا وما زالوا،

وشُدد عليهم في أكثر من دولة عربية أخرى ونظام، هذا عدا أخطاء الفلسطينيين أنفسهم في بعض المجتمعات العربية بسبب بعض الممارسات السيئة التي استغلتها الأنظمة ضدهم والتي ضاعفت الخسارة، ما عدا هذا جاءت السبعينات من القرن العشرين، ورغم شروع العرب بحرب العبور سنة ١٩٧٣م تلك الحرب التي لم يتوقف الجدل حولها ضد (إسرائيل)، فقد كان الأمر قد حُسم وظلت نتيجة حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧م توحي بالأسلوب الذي على العرب الضعفاء أن يتبعوه في التعامل مع (إسرائيل)، وبقي الحال كذلك في ثمانينات القرن الماضي أيضًا، وهكذا بقي الفلسطينيون وحدهم يتلقون الصفعة بعد الأخرى، تارة من (إسرائيل) وذراعها العسكرية الطويلة، وتارة من الأنظمة العربية التي جل همها كان البقاء في سدة الحكم، وتارة استغلال أكثر من طرف للتحولات الدولية وما ينجم عنها من أحداث وجعل الفلسطينيين يدفعون الثمن تلو الآخر، سواء لأسباب عربية إقليمية أو أسباب عالمية تسمح بسحب الأنظار عن هذه القضية المحزنة.

ولهذا فمن الطبيعي أن يستمر الضعف العربي أيضًا، وفي النهاية وكنتيجة حتمية وطبيعية اضطر العرب عن ضعف وعن إحباط أن يبحثوا عن ملاذ السلام مع (إسرائيل)، فكان التطبيع مع (مصر) ثم (الأردن) ثم (أُسلوا) الفلسطينية، ولم تتوقف مشاريع التنازلات لـ (إسرائيل) بل ويبدو أنها لن تتوقف حتى تضحي (إسرائيل) العظمى هي القوة الفعلية المهيمنة ويقتنع أهل المنطقة أنفسهم بها إلى درجة بان عليهم أن يصلوا إلى قناعة ويعترفوا طواعية بها، وأن يقروا أمام الدنيا بأن معارضتهم لوجود دولة (إسرائيل) في البداية كان اعتداء على الإنسانية، وهو ما تسعى إليه (إسرائيل) دائمًا.



طفلتان فلسطينيتان هما أمهات الغد، ماذا سيقلن لأبنائهما مستقبلاً؟

طعنو العروبة في الظلام بخنجر [1]

لا تسأليني
يا صديقة، من أنا؟
ما عدتُ أعرف
حين أكتبُ
ما أريدُ.
رحلت عباءاتٌ غزلتُ خيوطها..
وتملَمَلت مني
العيونُ السود..
لا الياسمينُ تجيبني أخبارهُ..
أما البريدُ..

فليسَ ثم بريدُ..
لم يبقَ في نجد
أو في الرصافة..
طائرٌ غرّيدُ..
لا تسأليني عن مخازي أمتي
ما عدتُ أغضبُ – حين أغضبُ –
ما أريدُ..
وإذا السيوفُ تكسرت أنصالُها
فشجاعةُ الكلماتِ، ليسَ تفيدُ..
لا تسأليني ما هو المنصورُ والمأمونُ؟
أو من كان مروانُ
ومن كان الرشيدُ
أيام كان السيفُ مرفوعًا..
وكان الرأس مرفوعًا..
وصوتُ الله مسموعًا..
وكانت تملأُ الدنيا..
الكتائبُ والبنود..
واليوم تختجلُ الرجولةُ من رجولتنا..
ويختجلُ التهافتُ من تهافتنا..
ويلعننا هشامُ، والوليدُ
لا تسأليني

يا صديقة، من أنا؟

ما عدتُ أعرف

حين أكتبُ..

ما أريدُ.

(١)

نزار قباني

(قصيدة غير منشورة)



الفصل الثامن عشر

١٨-١ أين الاستقرار؟

وصلتُ الإمارات العربية المتحدة - الإمارات المتصالحة سابقًا - وكنت مدينًا لأحد أصدقائي من الفلسطينيين في (مصر) بمبلغ مائة وثلاثين جنيهًا مصريًا أيام كان الجنيه المصري له قيمة شرائية كبيرة، ولابن عم لي بمبلغ مائة وخمسين جنيها أخرى، وكنت مدينًا إلى أسرة مصرية صديقة لي ولزوجتي بمبلغ مائتي جنيه كانت عبارة عن مصاريف أساسية للزواج، بالإضافة إلى ما قدمته تلك الأسرة لي تبرعًا ومساعدة لتلك المناسبة من جهد وإمكانات وطيبة خُلق ونفس أصبح دينًا معنويًا وعليّ أن أسدده بطرق مختلفة نقدًا وكرمًا وهدايا وحفظًا للجميل، هذا، وتركتُ خلفي التزامًا ظل ينتظرني حيث كان أخي الذي ما زال يسكن في (القاهرة) في الشقة المستأجرة باسمي، وظلتْ عيني ترقب أخي الأصغر الذي سيأتي إلى (مصر) عن طريق (الأردن) للدراسة في الجامعة، وتركت له الفرصة لأجل أن يسكن مع الأخ الذي تركت له سكني في (القاهرة)، لهذا كنت في حاجة ماسة للعمل لسداد الديون وتغطية الالتزامات الخاصة لأسرتي وللإخوة خارج (فلسطين)، وتركت مؤقتا أيضًا، التزامًا أُسريًا تجاه الوالدين ومَن حولهما، والتزامًا بأن كل الأنظار في أسرة الوالد الكبيرة كانت تحلم وتتطلع أن أفعل شيئًا إيجابيًا لها.

كنت في الحقيقة أحمل التزامًا في عمقي البعيد في أن أصنع حياةً كريمة لكل من أستطيع مساعدته من أسرة الوالد، وأن أعطي نمطًا كيف يكون الإيثار، وأن أجعل المادة ليست أكثر من شيء أو وسيلة لقضاء الحاجات فقط، كان هذا التزامي وتطلع الآخرين ليّ قبل نكسة سنة ١٩٦٧م فما بالنا وقد الظروف ساءت؟ ومرة أخرى ضاع كل ما بنيناه بعد أن كادت أسرتنا تقف على أرجلها، في الحقيقة كان هذا هو حال الفلسطينيين أينما تواجدوا،

وبينما نحن الآن في عام ٢٠٠٨م نجد في كل عشر سنوات أو حوالي ذلك يحصل زلزال يهز المجتمع الفلسطيني ويدمر ما أنجز، إنه قدر هذا الشعب أن يظل عنيدًا من أجل حقوقه المغتصبة ويظل يتحمل التضحيات بكل أنواعها.

عام ١٩٦٨م تزوجت ابنة خالي صديق والدتي الحميم، في تلك الفترة كانت ابنة خالي تقيم مع أسرة أخيها وكانتْ تعمل مدرسة في إمارة (رأس الخيمة) التي كان يعمل بها أخيها أيضًا، كان لزواجي قصة طويلة مثل كل زيجات الأقارب في أغلب الأحيان، لكن الظروف أسرعت - بسبب الحرب - كثيرًا في إتمام هذا الزواج، وساعد أكثر أن أهلنا كانوا أيضًا ميالين إلى المصاهرة، وكانوا قبل الحرب يباركون ويسعون لإتمامها أو بدئها على الأقل، كان الوالدان بسبب القرابة وصداقتهما لخالي - والد الفتاة - يحثاني دائمًا وكثيرًا خلال السنوات الماضية لكي أقبل الارتباط بابنة خالي، وكنت أرفض ذلك لا لسبب إلا لأنني كنت حينها خجلاً أن أرتبط وأنا ما زلت طالبًا، وكنت لا أستطيع أن أتخيل نفسي أجلس بجانب عروس أمام الناس وأنا بعد لم أنهي دراستي ولم أحصل على عمل ولم أدفع حتى مصاريف الفرح من عرقي أو ما يلزم، لكن الآن اختلفت الظروف وتبدلتْ، أنا أنهيت تعليمي وأصبحت مسئوليتي كبيرة، الأهل في (غَزّة) يعيشون تقريبًا على الكفاف، وأخي الذي كان يصغرني لا زال منتظرًا في (الأردن) كي يحضر إلى (مصر) لأجل أن يكمل دراسته، وأنا لا بد لي من حياة جديدة وكريمة، وذكريات الأهل وتبدل الظروف من موت أو حياة راحت تدق الأبواب، كان لزامًا عليّ أن أشمر عن ساعديّ وأنطلق في تحمل مسئولية ومشوار يبدو طويلاً.

أو ليست المسئولية بالنسبة للفلسطينيين يُسلمها جيل لجيل، كثيرًا ما كنت أتساءل، هل سنرى الإخوة والوالدين أو نلاقيهم بعد احتلال (إسرائيل) لما تبقى من (فلسطين) أم لا؟ ثم إن ابنة خالي كانت وفية وكانت تعلم بظروفي ولا تمانع في قبولي وقبول كل ما

عندي، وقد أصبح التزامي تجاهها أدبيًا وأخلاقيًا أن أصنع تصرفًا إيجابيا يتناغم مع كل هذه الشجون، ولهذا وجدتني أجد الزواج من ابنة خالي حلاً وواجبًا والتزامًا، وكان فوق هذا قضاء وقدرًا ولعب النصيب دورًا مهما في إنجازه.

شاءت الأقدار أن خالي كان قد أتى إلى (القاهرة) قبل الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧م بعدة أيام، وذلك لاستقبالها في المطار والعودة بها إلى (غَزّة) لقضاء إجازة الصيف بين ربوع الأهل، لأن لا أحدًا من أسرة أخيها كان يصحبها خلال السفر، حدثت حرب الأيام الستة ولم يتمكن خالي في الأيام التي تلت الحرب أن يعود إلى (غَـزّة) فسكن مع ابنته مؤقتًا في (مصر)، خلال ذلك وبعد أن علمتُ بوجود خالي في (القاهرة)، ذهبت للسلام عليه مع اثنين من إخوتي وكنت لا زلت خلال فترة امتحان البكالوريوس، تكررت زيارتنا لخالي بعد ذلك كلما كانت تسمح الظروف، كنا نزوره وهو يقيم في فندق (فلسطين) بـ (القاهرة)، وكنا نزوره حينما أقام بعد ذلك بصفة دائمة عند أسرة مصرية صديقة لأسرة ابنه كانت تعمل أيضًا بإمارة (رأس الخيمة)، وكانت في ذلك الوقت تقضي الإجازة في بلدتها في (مصر)، وفي الحقيقة كان لتلك الأسرة المصرية فضل كبير عليّ وعلى زوجتي من نواحي كثيرة لا يتسع المجال لذكرها هنا، سواء من ناحية الترحيب بي كلما قدمت لزيارتهم أو من ناحية المساهمة بالكثير في إتمام زواجنا وفي تسليفي مبلغًا من النقود حينما احتجت.

أصرتْ الأسرة المصرية الصديقة أن يتم زواجنا في أحد بيوتها في البلدة، وأمضينا أسبوعًا في بلدتهم ثم اصطحبتُ زوجتى وعدتُ إلى شقتنا التي كنتُ أقيم فيها مع أحد الإخوة بـ (القاهرة)، سكنت وزوجتي في الغرفة الكبيرة، وسكن أخي في الغرفة الأخرى في الشقة المستأجرة، واستمرينا نعيش على الدّين إلا أننا استمتعنا كثيرًا خلال ذلك الصيف أثناء

وجودنا بـ (القاهرة)، في شهر نوفمبر سنة ١٩٦٨م، وبعد حوالي ثلاثة شهور فقط من الزواج، غادرت الزوجة إلى (الإمارات المتصالحة)، لأجل أن تمهد السبيل لكي ألحق بها هناك ولنبني أسرة، كان الذهاب لأمثالي إلى تلك المناطق التي كانت تخضع للاحتلال وللحماية البريطانية ليس سهلاً، لأنني كنت أحمل وثيقة سفر مصرية كان يطلق عليها وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين، و(مصر) أيام زعامة (جمال عبد الناصر) كانت رأس الرمح في العداء ضد (بريطانيا) ودول الاستعمار القديم، ولهذا كانت (بريطانيا) لا تحبذ وجود الرعايا المصريين أو الموالين لـ (مصر)/(عبد الناصر) في المناطق التي تقع تحت حمايتها واحتلالها، وذلك خوفًا من التحريض أو القيام بأعمال عنف أو إرهاب ضد الاحتلال.

استطاعت زوجتي في (الإمارات) أن تجهز الأوراق اللازمة من أجل عمل فيزا لي، وكان الغرض منها هو وصولي إلى (الإمارات) ومن ثم يخلق الله ما لا تعملون، لحقت بها إلى (الإمارات) بعد أن حصلت لي على فيزا، ووصلت إلى مطار (دبي) يوم الجمعة الموافق الثامن من نوفمبر سنة ١٩٦٨م.



١٨-٢ البحث عن العمل.

لم تمض سوى أيام قليلة على وصولي (دبي)، إلا وبدأت مرحلة البحث عن عمل، وما أدراك ما البحث عن فرص العمل إذا لم يكن المرء متعاقدًا من الخارج قبل أن تطأ قدماه أرض البلاد الغريبة، ومع ذلك فقد كنت مسرورًا في أيامي الأولى في (الإمارات)، وكنت مبهورًا بما أرى من عالم جديد لم أعهده من قبل، مجتمع شبه بدائي، أناس يتحدثون بلهجة عربية يصعب فهمها بسبب أن التعليم لم يكن منتشرًا، قدمت إلى (الإمارات) قبل أن تستقل وتصبح دولة فقد كانت تسمى (الإمارات المتصالحة) أو (إمارات ساحل عمان)، وبعد الاستقلال في أواخر سنة ١٩٧١م، أصبح اسمها (الإمارات العربية المتحدة)، لقد لفتت انتباهي عند وصولي لـ (الإمارات) حياة الناس هناك، وشدتني الحياة البسيطة التي كانوا يعيشونها، وسكان (الإمارات) بصفة عامة هم خليط من الأجناس والألوان البشرية في ذلك الوقت، وأظنها ما زالت كذلك وكما هي كل دول الخليج العربي، فقد كانت وما زالت الغالبية هناك من أصل هندي أو فارسي أو من شعوب أخرى غير عربية، والسكان العرب المحليون أو الوافدون من كل الأقطار العربية كانوا لا يتعدون ثلث عدد السكان في المنطقة، وأظن بأن هذه المعادلة ستظل ثابته إلى حد ما، في الأسواق مثلاً وفي الشوارع وفي البنايات وفي كل أماكن الحياة كان الناس يتحدثون لغاتهم الأصلية وكانوا يتعاملون بها، والناس هناك بصفة عامة طيبون وبسطاء، وكانوا أكثر طيبة حينما وصلت إلى تلك البلاد لأول مرة، كان أهم ما يميز تلك البلاد هو وجود البترول فيها، بل هو عصب الحياة هناك ومصدر الدخل الوحيد، ولذلك أضحت (الإمارات) وأمثالها مناطق جذب بشري، وظل يتمناها وأمثالها من الدول كل من يبحث عن إصلاح وضعه المادي من العرب، خصوصًا الفلسطينيين الباحثين عن الرزق الحلال.

في البداية ساعدنا بعض الفلسطينيين المقيمين هناك من ناحية تعرفنا على الحياة وتسهيل سبل عيشنا، وكذلك في البحث عن العمل، منهم من كفلني لعمل الإقامة، ومنهم من كان يساعدني بالتنقل بسيارته ومنهم من استدنت منه بعض النقود، ولأنني كنت حديث التخرج وكان عليّ صعب أن أجد عملاً ذا قيمة فقد توسط لي البعض مع فلسطينيين آخرين كانوا يعملون بوظائف مرموقة في شركة (عبد الرحمن البحر)/(معدات كتربلر)، توسط هؤلاء وأولئك لدى بعض معارفهم، وذلك لكي أعمل مهندسًا تحت التدريب في الشركة بمدينة (دبي)، وذلك تمهيدًا للعمل رسميًا كمهندس في أحد فروع الشركة في منطقة الخليج، وعلى أثر هذا تقرر أن آخذ راتبًا شهريا مقداره ستمائة درهم فقط، أي ما يعادل في تلك الفترة أقل من مائتي دولار أمريكي، وهكذا أضحيتُ أمارس أوضاعًا لم أعتدها أيضًا، فقد أحسست بالظلم وبالعنصرية منذ أول لحظة بدأت فيها العمل، الراتب كان خجولاً وكان لا يصنع لي حياة أبدًا بالمعنى الذي أتمناه، ولا يُحقق ما أتطلع إليه من أحلام، كان عليّ في الصباح أن أصحو مبكرًا قل في الخامسة، وكان علي أن أسير على الأقدام مسافة حوالي نصف الساعة، وكان علي أن أركب عبَّارة للانتقال عبر خور (دبي) من وإلى (بر ديرة)، وكان عليّ أن أركب في صندوق السيارة المفتوحة من الخلف التي كانت تنتظر في ساعة محددة في ضاحية (ديرة) حيث كنت أسكن منطقة (بر دبي)، وقناة الماء الكبيرة أو خور الماء كان الفاصل بين المنطقتين، وكان عليّ أن أتعرض للرياح الباردة في الصباح الباكر، وإلى حرارة الشمس الحارقة خلال النهار، وكان علي أن أركب يوميًا مرتين أحد قوارب نقل الناس والأمتعة التي كانت تُستعمل لنقل الناس من ضفة إلى أخرى حول خور دبي المائي، وكنت يوميًا أخرج مع آذان الصبح وأعود بعد غياب الشمس إلى البيت، وخلال الظهر كنتُ أعود أيضًا إلى البيت لتناول وجبة الغداء مع

زوجتي لمدة ثلاثين دقيقة، وبقية الساعة المقررة كنت أقضيها لفترة الغداء كانت لاستعمال المواصلات لأجل أن أتمكن من الالتزام بدوام الشركة مثل كل العاملين.

بعد حوالي أقل من الشهر في تلك الشركة سعدتُ للحظات حينما قابلت أحد مدراء شركة (كتربلر) العالمية، وكان يزور الفرع الذي كنت أعمل فيه، كان مستر (براون) رجلاً (بريطانيا) مسنًا وكان مهندسًا، تعرف عليّ وعرف عن ظروفي في العمل، ووعدني بعد عودته إلى (دبي) خلال الشهر القادم، أنه سيعيد النظر في أمر الراتب الذي أتقاضاه، وقال إنه يعدني بمستقبل جيد في الشركة، وسيشرف شخصيًا على تدريبي لكي أكون مديرًا للصيانة في الفرع الجديد الذي كان سُيفتتح في دولة (البحرين)، سررت لعدة أسابيع بسبب تأثير ما قاله الرجل البريطاني، وأعطاني هذا شحنة من الانتباه والصبر والاهتمام ثم عاد وتبدد ثانية بعد مرور أكثر من الشهر، سألت الكثيرين في الشركة ممن يعملون في الإدارة عن مستر (براون)، وعلمتُ أن أحدًا لا يعلم متى سيحضر مستر (براون) هذا الذي وعدني بالخير والمستقبل الزاهر، بعد ثلاثة شهور صحوتُ على حقائق جديدة، وجدتُ أنني عاجزٌ عن دفع أجور السكن لمدة ثلاثة شهور، وكان أصحاب البيت الذي كنا نسكنه من العرب البدو من أبناء المنطقة الطيبين، ولم يُلحوا علينا في دفع الأجرة حينما كانت تستحق كل شهر، بل كانوا يقولون لنا على مهلكم، وربما أحسوا وعرفوا ظروفنا المالية الصعبة بطريقتهم.

تحت وطأة تلك الظروف أحسست بالدنيا تميد تحت قدماي وتضيق في وجهي، ولولا أنني أضحيت زوجًا وربَّ أسرة، لولا هذا لتركت كل شيء وعدت إلى (مصر) ثانية لأواجه قدرًا آخر ولن يكون بمثل ذلك الضيق الذي كبلني بديون أكثر، لم أجد إلا أن

أتمرد على عملي الذي لا يوجد أفضل منه بعد فاستقلت من العمل خلال يوم واحد وتركت الشركة غير آسف.

من خلال الأسر القليلة التي كانت تزورنا من المدرسين الفلسطينيين العاملين في منطقتنا سمعت عن إمارة (أبو ظبي)، وأن فيها إنتاجًا عاليًا من البترول وأنها تشهد تطورًا غير عادي في العمران وفي شتى مجالات الحياة، دغدغتني الرغبة في المغامرة والبحث عن عمل هناك، وقلت لنفسي ربما أستطيع، وكنت لا أملك حينها سوى الثقة بالنفس، والحاجة أم الاختراع، والتوكل على الله كان كل ما أملك، كان البناء الذي كنا نسكن فيه، عبارة عن دورين لمبنى قديم، الدور الأول كانت تسكن فيه أسرة المالك، والدور الثاني عبارة عن شقتين، إحداهما صغيرة نوعًا ما وكنت مستأجرها، والأخرى مستأجَره من قبل أسرة فلسطينية، كانت تعمل بالتدريس، استدنتُ من العجوز صاحبة البيت الذي كنا نسكنه مائتي درهم إضافة إلى مستحقات الإيجار، وخلال أيام قليلة أخذتُ وثيقة سفري وأخذت شهاداتي وشهادات زوجتي الدراسية وشهادة الخدمة في العمل، وركبتُ إحدى سيارات الأجرة التي تعمل على خط مدينتي (أبو ظبي - دبي) وسافرت إلى (أبو ظبي)، كان الطريق غير معبد، وكان طريقًا رمليًا قديمًا متعرجًا حسب تفادي النباتات البرية والكثبان الرملية، كانت تستعمله قوات ساحل (عمان) البريطانية بسياراتها التي تصلح للسير على تلك الأرض، وكانت تحتل تلك المنطقة حتى ذلك الوقت، كانت كثبان الرمال تقطع الطريق في كل الأماكن، وتعمل حركة السيارات المختلفة على تسوية تلك الكثبان الرملية بطرق غير منتظمة، كان توجهي إلى (أبو ظبي) في التاسع عشر من يناير عام ١٩٦٩م، وكان الطقس شتاء، ورغم ندرة الأمطار في (الإمارات) إلا أنها سقطت في ذلك اليوم بكمية أثرت على الطريق وجعلت سير السيارات عليها صعبًا، واضطررنا أكثر من مرة أنا وركاب آخرين بأن نُخلي السيارة، وأن ننزل ونساعد السائق

في تحريكها من أماكن الغرز، مما أدى إلى اتساخ حذائي أيضًا، وكذلك أطراف بنطلون البذلة اليتيمة التي كنت أملكها في لك الحين والتي كنت سأقابل بها من سأتقدم إليهم طالبًا العمل لي أو لزوجتي في إمارة (أبو ظبي).

أخيرًا وفي حوالي بعد الظهر وصلنا إلى مدينة (أبو ظبي)، ولم أجد ما أفعله، وقد قارب يوم العمل في الدوائر الحكومية على الانتهاء، ووجدت نفسي أتذكر رسالة الرجل إلى صديقه في (أبو ظبي)، قلت في نفسي، حسنًا سأذهب إلى دائرة الأشغال العامة التي يعمل فيها صديق صديقي، وسأستغل تلك الفرصة وربما أحصل من هذا الرجل على معلومات أكثر عن (أبو ظبي) قد تساعدني في مهمتي، وعلى هذا لم أتمهل في اتخاذ القرار بسبب اقتراب انتهاء الدوام الحكومي وقبل أن يغادر الرجل الذي سأقصده مكان عمله، ركبت إحدى سيارات الأجرة التي تعمل داخل مدينة (أبو ظبي) والتي كانت تتقاضى مبلغ درهمين ونصف في ذلك الحين عن أي مهمة داخل مدينة (أبو ظبي)، ووصلت إلى المكان المقصود، ووصلت إلى الرجل وقدمت نفسي له، وجلست معه في مكتب العمل، وفي حوالي الواحدة والنصف بعد الظهر وهو موعد انتهاء عمله، شكرته على حفاوته وحسن استقباله لي، واستأذنت في المغادرة وقلت له، إنني سأذهب إلى مدينة (العين) لأقضي الليل عند بعض المعارف، وربما أبحث عن عمل لي أو لزوجتي هناك، وقد آتي أيضًا لأبحث عن العمل في (أبو ظبي) ثانية، قال الرجل: "اسمع يا باشمهندس، أنت لا تعلم ما معنى أن صديقي في (دبي) قد أرسل معك الرسالة التي سلمتها لي قبل قليل". قلت مقاطعًا: "إنه صديقك، ويحييك ويود أن يُجدد صداقته معك ويخبرك أنه لم ينسك". قال: "هذا جزء من معنى تلك الرسالة، لكن هذه الرسالة تقول بأنك ستبقى معي إلى أن تنتهي مهمتك على خير في (أبو ظبي) إن شاء الله"، شكرته على شعوره نحوي وقلت له: "لا أريد أن أضيّق عليك وأود أن تكون لك حريتك الشخصية، فأنت متزوج ولك

ارتباطات أسرية". قال: "هذا لن يغير شيئًا". وكان الرجل من النوع الـذي يـوحي لـك أنك لن تغير مما عنده مهما حاولـت، ولم أملـك إلا القبـول بـالرغم مـن عـدم رغبتـي، وتركت الأمر لمشيئة الله وقبلتُ الأمر الواقع.

قضيتُ في بيت هذا الصديق الجديد ثلاثة أيام متتالية، كان يأخـذني في المسـاء إلى بيـوت معارفه وأصدقائه من أبناء الجالية الفلسطينية العاملين في الـدوائر والشركـات والقطـاع الخاص، وكنت أستمع إلى أحاديثهم وأتعرف على أحوال البلد وصعوباتها ونواحي الحياة فيها، كانت إستراتيجيتي الأسرية تقـوم عـلى أن أوجـد عمـلا أولاً لزوجتـي لأن لـديها خبرات في التدريس في منطقة الخليج بصفة عامة، وشهادتها الدراسـية كـدبلوم معلـمات مرغوب جدًا ومطلوب، وكانت تُعطـى الأولويـة لمثـل تلـك الشـهادة في شـئون تعيـين المدرسين الجدد، وقد كانتْ قد عملتْ مدرسة في (رأس الخيمة) من قبل، أما أنا فقدرت بأنني سأحتاج إلى وقت أطول منها، لأنني خريج جامعي حديث وليس لـدي أي خـبرة عمل، و(الإمارات) في ذلك الوقت كانت تُعطي التعليم الأولوية في الصرف المادي على الأعمال الأخرى، ثم إنني سأبحث عن عمل يناسبني.

في صباح اليوم التالي لوصولي إلى (أبو ظبي)، ذهبـت بواسـطة إحـدى سـيارات الأجـرة أيضًا إلى مكاتب دائرة التربية والتعليم، وكانت عبارة عـن عـدة مبـان جـاهزة يقـال لهـا كرافانات ولم تكن مكونة من بنايات ضخمة ودوائر كما هي الآن، في تلك الأيام أيضًا لم يكن في (أبو ظبي) سوى عدة بنايـات صـغيرة لا يزيـد عـددها عـن عـدد أصـابع اليـد الواحدة، وكان لا يتعدى أقصى ارتفاع لها أربعة أدوار، في مكتب شئون الموظفين بـدائرة التعليم قابلت الموظف المسئول، وكان من الوافدين العرب، وبينت لـه رغبتـي في تعيـين زوجتي مدرسة في مدارس (أبو ظبي)، وقدمت له المؤهلات المتوفرة عنـدها، رد الرجـل

عليّ باقتضاب وقال: "قدم طلبًا لزوجتك واترك عنوانك عندنا وإذا احتجنا فسنكتب إليك". أحسست بأن الرجل غير صادق وأن ما قاله هو رفض غير مباشر لأن معلوماتي السابقة أن (أبو ظبي) في حاجة إلى مُدرسين جدد، وأن شهادة معهد المعلمات خصوصًا لتعليم البنات كانت عملة نادرة في تلك الأيام، أو ربما أحسست بهذا الشعور لأن المهم لدي أن أحصل على أي شيء قد يعود علي بفائدة، أو يحل مشكلتنا ولو جزئيًا، انتهى اليوم الأول وأعلمت صديقي الذي كنت أقيم عنده بما حدث معي في مكتب دائرة التربية والتعليم، قال بلا تردد: "ألم أقل لك إن ذلك الرجل - مدير شئون الموظفين - لا يحب الفلسطينيين". وقال أيضًا: "ألم أقل لك إن مهمتك ليست سهلة في هذه الأيام، وإن الأمور ما عادت سهلة كما يظن الكثير من الناس". وأكمل: "على العموم استمر في المحاولة وأرض ضميرك ولا تضعف مهما كانت النتائج، ففرصة كل فلسطيني الآن هي منطقة الخليج بعد أن احتلت (إسرائيل) كل (فلسطين) بعد حرب عام ١٩٦٧م".

جعلني حديث هذا الصديق الجديد ألتفت إلى الذاكرة، وأتخيل الحال في معسكرات اللاجئين، فمر شريط في خيالي وكأنني مررت من (حمامة) حتى وصلت أمامه في (أبو ظبي)، واكتفيت بالاستماع، سألني صديقي هل لدي برنامج معين غدًا، قلت: "لا شيء"، قال: "إذن تجلس معي في مكتب الدائرة وسأعرفك بفلسطينيين آخرين هناك ممن يعملون معي".

في الصباح صحونا مبكرين كالعادة، وذهبتُ معه إلى عمله في دائرة الأشغال العامة، قابلتُ بعض زملائه وأعطوني أسماء بعض الشركات والدوائر الحكومية، علّي أذهب في وقت ما وأسالها عن عمل لي هناك، وفي نهاية اليوم بدأ اليأس يساورني، وأيقنتُ أكثر أن الحياة ليست بتلك السهولة كما كنت أتخيلها قبل التخرج من الجامعة، ولكني ملتُ إلى القناعة أن حظي هو المشكلة وأن فلسطينيتي هي المصيبة.

في الصباح صحوت كالعادة وقلت لصاحبي، إنني سأذهب إلى مدينة (العين) هذا اليوم، وذلك لأجل رؤية قريبي الذي يسكن هناك ولأقضي ليلة عنده، وفي الغد أعود إلى (دبي) ثانية، ولا أستطيع أن أترك زوجتي وحيدة هناك أكثر من ذلك، شكرته ووعدته بأننا سنبقى على اتصال إن شاء الله، وركبنا سويًا سيارة الأجرة وأنزلته أمام الدائرة التي يعمل بها، وقلت للسائق خذني إلى محطة سيارات الأجرة التي تعمل على الخطوط الخارجية تمهيدًا للسفر إلى مدينة (العين)، واتجه بي فعلا إلى الغرب في الشارع الرئيسي في تلك الأيام - شارع المطار القديم بأبو ظبي العاصمة - وكان يُسمى بشارع المطار، وبينما كانت السيارة في ذلك الطريق، لمحتُ كرافانات مكاتب دائرة التربية والتعليم التي مررت عليها قبلاً، ولأنني لا أعرف شوارع (أبو ظبي) سألتُ السائق الذي كان رجلاً عربيًا بدويًا: "أليستْ هذه دائرة التربية والتعليم؟" فقال: "نعم، أتريدها؟" قلتْ: "حسنًا أنزلني من فضلك عندها". وكان لي ما أردت، ذهبتُ وأنا في حالة يأس إلى مكتب شئون الموظفين الذي حضرتْ إليه بالأمس، وسألت عن الرجل المسئول الذي لم أرتح لمقابلته منذ الوهلة الأولى بالأمس، وقال لي أحد الكتبة من العاملين معه إنه سيعود بعد قليل، ولم أدر كيف، إلا أنني قد ارتحت في الحديث مع ذلك الكاتب البسيط، وأكملت الحديث معه وسألته، كيف تتم تعيينات المدرسين في هذه الدائرة، قال سأقول لك بصراحة، ليس لدينا قانون هنا، والتعيين يتم بثلاث حالات: الأولى، يكون التعيين خلالها جماعيًا، ويتم في الصيف حينما تُوضع الموازنة العامة للدائرة، والثانية، بأن الواسطة تفعل فعلها في هذا المجتمع، خصوصًا إذا افتتحت إحدى المدارس الجديدة التي ينتهي بناؤها خلال العام الدراسي، والثالثة، هو التعيين في أي وقت لأن ميزانية التربية والتعليم مفتوحة وغير محددة، والتعيين في هذه الحالة يعتمد على منزلة الواسطة التي تسعى لهذا الأمر.

قلت للموظف: "عفوًا، أتسمح لي بسؤال أخير؟" قال: "تفضل"، قلت: "مَن المدير هنا أو من المسئول الأول؟ وهل يُقيم أيضًا هنا؟ أقصد هل له مكتب هنا؟ أجابني: إن مدير الدائرة هو الدكتور (خالد الهاشمي) وهو عراقي الجنسية، ومكتبه يقع في الخلف من هذه المكاتب بجانب قسم المالية التابع للدائرة"، قلت له: "سأعود إليك بعد قليل كي أقدم طلبًا للعمل لزوجتي بعد عودة الأستاذ رئيسك الذي أخبرني بالأمس بأن أقدم الطلب هنا وإن احتاجت الدائرة فسيرسل إلينا". تركت الرجل واتجهت نحو الباب، إلا أن الرجل قال لي وهو يهم بالجلوس على الكرسي: "إن تقديم الطلب وتركه لا يقدم ولا يؤخر". قلت له وأنا أخرج من الباب: "وهل هناك خيار آخر يا أستاذ؟"

تحركتْ عن غير قصد وبالإيحاء الفطري وكان يقودني الفضول، تحركت في اتجاه المنطقة التي تقع خلف المكاتب، ولم يكن قصدي أبدًا أن أسعى لأي شيء، وسرت على مصطبة الإسمنت التي هي عبارة عن مستوى مكاتب الكرافانات، والتي كانت ترفعها عن مستوى الأرض الرملية في تلك المنطقة، ومررت أمام صف من غرف المكاتب الخلفية، وكنت أنشد تمرير وقضاء عدة دقائق حتى يمر الوقت وأعود إلى مكتب شئون الموظفين لحين عودة مدير القسم الذي سأقدم عنده طلب التوظيف لزوجتي قبل أن اتجه إلى مدينة (العين)، في تلك الأثناء لمحتُ على أحد الأبواب من الخارج لوحة خشب صغيرة مدهونة بالأبيض ومثبته على الباب، ومكتوب عليها عبارة "مدير الدائرة"، صحوت فجأة، وتذكرت ما قاله الموظف في مكاتب شئون الموظفين قبل قليل، عدتُ للخلف بهدوء مارًا مرة أخرى من أمام ذلك الباب لأجل أن أرى ما في الداخل، رأيت شابًا في مثل سني في ذلك الوقت من الوافدين العرب كان يلبس بذلة وربطة عنق، وكان يجلس خلف طاولة مكتب، وليس بجانبه أثاث كثير سوى كرسيين من الخشب، وفجأة استأذنت بالدخول إلى مكتبه، فقال: "تفضل". ووجدت نفسي أقول له: "هل الدكتور

موجود؟" قال: "نعم، ومَن حضرتك؟ قلتُ: "أنا المهندس فلان الفلاني". وذكرت له اسمي، وقلت: "أود أن أقابل الدكتور مدير الدائرة لو تكرمت". قال: "تفضل بالجلوس"، وجلست على كرسي أمام ذلك الشاب، وهنا لا أستطيع أن أجزم لماذا لم يسألني هذا السكرتير عن حاجتي قبل أن يسمح لي بالجلوس، هل هي سذاجة منه وعدم دراية أم إنه أيقن بأنني أحد المهندسين الذين يعملون مع المقاولين الكثر في (الإمارات) في تلك الأيام، والذين كانوا يقومون ببناء المدارس وغيرها لدائرة التربية والتعليم، وإنني قدمت لمناقشة شيء من هذا مع مدير الدائرة.

كان معي في تلك الرحلة حقيبة جلدية كنت أستعملها خلال دراستي الجامعية، والآن رحت أضع فيها الشهادات والأوراق الخصوصية، بعد حوالي دقيقة أو كذلك، دخل السكرتير وفتح بابًا داخليًا وسمعته يقول للدكتور (خالد الهشمي): "دكتور، إن المهندس فلان في انتظارك"، وكان يُشير إلى اسمي الحقيقي للدكتور ثم خرج من مكتب الدكتور وقفل الباب ثانية، بعد حوالي ثلاث دقائق خرج رجل كان في مكتب مدير الدائرة، ورأيت الدكتور يودع ضيفه وهولا يزال في مكتبه، ثم وقف في مدخل المكتب ليدعوني بالدخول، قمت ووقفت، وهكذا أصبحت وجها لوجه مع الدكتور (خالد الهاشمي)، وبيننا فتحة الدخول إلى مكتبه فقط، تحرك قليلاً إلى الخلف وحياني بهدوء، صافحته وبدأت قائلا: "دكتور أنا في الحقيقة ترددت كثيرًا في القدوم إلى مكتبك، ولكنني تشجعت واختفى ترددي حينما عرفت بأنك من العراق". في تلك اللحظة وقبل أن أكمل كلامي، عاد الدكتور في اتجاه كرسي طاولة مكتبه، وقاطعني قائلاً: "تفضل بالجلوس على المقعد وارتاح"، ثم ضغط على جرس مناداة الساعي وطلب القهوة العربية، وبعدها قال: "ماذا أستطيعه لك يا بني؟" قلتُ: "أنا أحمل شهادة بكالوريوس هندسة، ولدي فرصة كبيرة للعمل في مدينة (العين)، وقد سمعتُ أن دائرة التربية

والتعليم قد افتتحت روضة أطفال جديدة في تلك المنطقة، وأنها في حاجة إلى مدرسات جدد، وزوجتي تحمل دبلوم معهد المعلمات ولديها خبرة لا بأس بها"، ورجوته إن كان يرى مناسبًا أن يساعدنا في تحقيق هذا الهدف، وذكّرته بمواقف العراق والتزامه القومي تجاه الشعب الفلسطيني الشقيق، وأن العراق من الدول العربية القليلة التي ظلتْ بحماس حتى ذلك الحين تقف بثبات مع الحق الفلسطيني، قال أعطيني شهادة زوجتك فقدمتها له، واطلع عليها وكتب على ورقة أخرى إلى مدير شئون الموظفين ما معناه، يطّلع على شهادات السيدة فلانة بنت فلان، وذلك تمهيدا لتعيينها مُدرسة في روضة أطفال مدينة (العين)، بعدها لا أدري كيف ودّعته من الفرح وأحسستُ أنّ الدنيا بدأت تبتسم لنا، أخذت ما كتبه الدكتور (خالد الهاشمي) وذهبتُ به إلى مدير مكتب شئون الموظفين ورأسي مرفوعًا هذه المرة، ووضعتُ أمامه الورقة التي وقعها مدير الدائرة، وجلستُ ملتصقًا بطاولة مكتب مدير شئون الموظفين على كرسي خشبي موضوع لهذا الغرض، طلب مني الشهادات ووضع كل شيء أمامه على طاولة المكتب، ولا أدري أحسست أنه راح يُضيع الوقت، وربما كان يودني لو أترك تلك الورقة وأعود في يوم آخر علّ الظروف تتغير، وربما كان يود أن يحجز الشواغر في روضة الأطفال الجديدة في (العين) لبعض معارفه أو أصدقائه، ولكن الله هو الذي كان يعلم فقط ماذا كان يدور في عقل ذلك الرجل الذي افترضت به سوء النية منذ أن التقيته بالأمس، راح كعادته يُماطل في الوقت أو هكذا بدا لي، وكان يجلس قليلاً ويرمقني من طرف خفي بنظرات خفيفة محايدة ولكنها بالنسبة لي كانت غير مرضية، وكان تارة يقف ويفتعل أي حديث مع بعض الموظفين، ولكنني ظللتُ بثباتٍ جالسًا على نفس الكرسي وأين أجد أفضل من تلك الجلسة ومن تلك المناسبة في ذلك اليوم، استمر الحال على هذا المنوال حتى الساعة الواحدة بعد الظهر، ولم يبق على انتهاء العمل في ذلك اليوم سوى نصف ساعة فقط،

وأمضيت جالسًا أمامه ثلاث ساعات ونصف، ويبدو أن صاحبنا هـذا لم يجـد مفـرًا، ولم يجد عذرًا ليوقف عربة فرصتنا، كل ما كلفه الأمر بعد ذلك هو أن أمسك بورقة الدكتور مدير الدائرة ومعها شهادات زوجتي، وقال لأحد الكتبه الذين كانوا يجلسون خلفه عـلى مقاعد أعمالهم: "اطبع كتاب تعيين لهذه السيدة". لم يمض بعد ذلك سوى حـوالي خمـس دقائق إلا وكان الطابع قد أتم مهمتـه وأعـاد الأوراق مـع مـا أضـافه إليهـا مـن أوراق مطبوعة، وقام بوضعها أمام المسئول، اطلع عليها المسـئول وسـلمها لي وطلـب منـي أن أوقعها من مدير الدائرة شخصيًا، في تلك الأثناء أيقنت أن مـدير شـئون المـوظفين هـذا رجل خبيث وماكر ولعين، وأيقنت حينها أنه كان يراهن على مرور الوقـت، وعسـى أن مدير الدائرة لا يكون موجودًا أو أن من عادته أن يُغـادر مبكـرًا أو أن يـذهب في مهـام أخرى بعيدًا عن الدائرة، ثم إنه استهتر بالموضوع كله وأعطـاني أوراق التعيـين لأقـدمها بنفسي للتوقيع بدلاً من إرسالها مع الكاتب، أو أن يأخذها هو بنفسه لكي يوقعهـا المـدير العام، أنا أحمد الله أنني لم أستطع له ضررًا في ذلك اليوم فقد كان الدم يغـلي في عروقـي حقدًا وغيظًا وعداوة لذلك الرجل.

ذهبتُ إلى مكتب مدير الدائرة بالأوراق، ولم يُمهلني السكرتير الشاب الطيب، وفـور أن قلت له، بأنني أود أن أوقع هـذه الأوراق مـن الـدكتور، أشـار لي بالـدخول، فـدخلتُ ووقعت كتاب التعيين الذي كان يتكون من سبع نسـخ، وكـان الوقـت حـوالي الواحـدة وعشرين دقيقة، وأرشدني السكرتير أن أوزع أوراق التعيين هـذه إلى الجهـات المعنيـة في الدائرة التي لم تكن مكاتبها بعيدة عن المكان، وفهمت منه أن بها نسخة لقسم الرواتـب، ونسختين لشئون الموظفين وأخرى لمدير المنطقة التعليميـة بمدينـة (العـين)، وأخـرى إلى مديرة روضة الأطفال بالعين وواحدة لزوجتي، ووزعت كل هذه النسخ في العشر دقائق الباقية على انتهاء الدوام بنفسي ما عدا نسخة المنطقة التعليمية بـ (العين) التـي سـأذهب

لكي أسلمها بيدي أيضًا، بعد ذلك أضحى ذهابي إلى مدينة (العين) أكثر من زيارة لصديقي هناك بل جزء من مستقبلي، بعد الظهر ركبتُ سيارة أجرة مع آخرين وذهبت إلى مدينة العين، وسألت فور وصولي إليها أولا عن بيت مدير المنطقة التعليمية، وكان فلسطينيًا مسنًا من أهل الضفة العربية، ذهبتُ إلى بيته وسلمته نسخة كتاب تعيين زوجتي في روضة الأطفال، وأخبرته بأننا سنحضر في القريب العاجل وإننا نريد سكنًا فقال لي: "نحن لدينا أوامر أن نقدم سكنًا من بيوت الدولة للمدرسين إذا كان الزوج هو الذي يعمل مدرسًا، وفي حالتك هذه فزوجتك لا تستحق سكنًا من الحكومة، ولماذا لم تطلب استثناء من مدير دائرة التربية والتعليم لكي يُرسل لنا كتابًا يذكر فيه بأن تُعطى زوجتك سكنًا كحالة خاصة". قلتُ في نفسي في تلك اللحظات: "أنا بالكاد استطعت أن أحصل على تعيينها فكيف لي أن أحصل على سكن من مدير الدائرة في (أبو ظبي)، ولم أملك إلا أن بادرت مدير المنطقة التعليمية قائلاً قبل تركه بينما أنا يائس من حصولنا على سكن مجاني، قلتُ مدعيًا كذبًا: "أستاذ عبد الفتاح، إن الدكتور (الهاشمي) قال لي بصراحة أن أسلمك كتاب التعيين وقال أيضًا، أما بالنسبة للسكن فلا يود أن يترك سابقة ليكتب لأحد، ومن رأيه أن الأستاذ عبد الفتاح رجل إنساني وسيتدبر الأمور، وإن لم يساعدك فعد إلي وسنفعل لك شيئا"، ما كاد مدير المنطقة التعليمية في (العين) يسمع بما ادعيت به على لسان مدير دائرة التربية والتعليم في (أبو ظبي) حتى قال متدللا ومزهوًا: "الجميع يرسلون لي كل مسئولياتهم ومشاكلهم؟"

وهكذا كبر جهده كما يُقال، وقال لي: "اذهب الآن وتوكل على الله يا بني، وحينما تعود سنتدبر أمر سكنك"، ولكن لا تقل لأحد من أسر المدرسات من أمثالكم في منطقة العين حتى لا يبدأوا بمطالبتنا بسكن أيضًا، بعد ذلك ذهبتُ أبحث عن قريبي فوجدته،

وقضيت تلك الأمسية عنده، وكان عقلي يحلق بعيدًا عبر السنين، في الصباح كنتُ شغوفا لكي أعود إلى إمارة (دبي) لأبشر زوجتي بما حققته ولنبدأ فصلاً جديدًا في هذه الحياة.

عدت إلى دبي، وما هي إلا يومين أو ثلاثة، واستأجرنا سيارة نصف نقل صغيرة/بيك آب مع السائق، واستلفنا مبلغ مائتي ريال ثانية من زوجة صاحب البيت الذي كنا نسكنه في (دبي)، وأخذنا حاجياتنا البسيطة في تلك السيارة، وأوصلنا سائقها إلى مدينة (العين)، فوصلناها عصرًا، وتوجهنا إلى بيت مشرف التعليم الذي سلمته كتاب تعيين زوجتي، وأعلمته بوصولنا، وسألته أن يساعدنا في تدبر أمر السكن الذي وعد به، ساعدنا الرجل، وأعطانا مفاتيح بيت شعبي حكومي من البيوت المخصصة للمدرسين الجدد وأوصلنا إليه، أنزلنا حاجياتنا في البيت، وكان في منطقة بعيدة عن وسط مدينة العين، وكان البيت بدون ماء وبدون كهرباء، وكان علينا أن نتدبر أمورنا، تركتُ زوجتي في البيت وكان لم يبق الكثير من الوقت لمغيب الشمس، وذهبت مع الأستاذ مشرف التعليم في تلك المنطقة، وأخذني إلى بعض المحلات في سوق مدينة (العين)، وقال للبائع الذي يعرفه ويثق به، أعط هذا الشاب ما يحتاجه من أدوات يود شراءها وأنا كفيل بسداد دينه إن تأخر في الدفع، اشتريت في تلك الفترة بعض الأوعية البلاستيكية لحمل الماء وجلبه إلى السكن، واشتريت بعض المصابيح البدائية التي تعمل بالكيروسين لاستعمالها للإضاءة وللأشياء الأخرى، وأعادني الرجل إلى السكن ثانية، وشكرته، وانصرف.

أمضينا عدة أيام في ذلك السكن، وكان العيش فيه مرهقًا، فهو أولا بعيد عن وسط البلدة، ومرهق بالنسبة لجلب المياه من مكان بعيد حيث كنت أنا وزوجتي نُحضر الماء ونساعد بعضنا البعض في حمله.

في صباح أول يوم أمضيناه في مدينة (العين)، جاءت سيارة (لاندروفر) لأن الطرق كانت غير معبدة أو لا توجد طرق في منطقة سكننا، وركبتْ زوجتي مع مدرسات أخريات، وذهبت إلى روضة أطفال مدينة (العين) التي عُينت مدرسة فيها، وفي أحد الأيام ذهبتُ إلى روضة الأطفال لأمر ما بيني وبين زوجتي فشاهدتني عن بعد مديرة الروضة، وكانت سيدة فاضلة من (الأردن) الشقيق، وربما هي عرفت عن ظروفنا من زوجتي، وتأثرت كثيرًا لأنني لم أجد عملاً بعد، وقيل عن تلك المرأة أنها قالت عني: "والله حرام ألا يجد هذا الشاب عملاً فلماذا يلزم أكثر من شهادة الهندسة ليستحق التوظيف؟" وبعد يوم وصلني أن هذه الناظرة قد اقترحت على زوجتي أن نترك ذلك السكن، البعيد وأن المديرة ليس لديها مانع في أن نسكن في أحد فصول روضة الأطفال التي تعمل فيها زوجتي ريثما تصطلح أمورنا، فهي من ناحية في منتصف البلد تقريبًا، وأن الخدمات أفضل من المنطقة التي نعيش فيها في ذلك الوقت، وكان هذا العرض شيئًا سارًا بالمقارنة بما كنا فيه من حال، تكرمتْ علينا مديرة الروضة وتحملت أن تُوحي لسائق إحدى السيارات المؤجرة للعمل لخدمة الهيئة التدريسية للروضة، بأن يساعدنا بسيارته لنقل حاجياتنا إلى مكان إقامتنا في أحد فصول روضة الأطفال الذي أُختير لنا ليكون على حافة المدرسة، كان الماء متوفرا وكذلك الكهرباء، وكان حارس المدرسة يساعدني كثيرًا بمناولتي الماء المثلج بواسطة الثلاجة الصغيرة المخصصة لغرفة الإدارة، كان الحارس رجلاً مسنا من سلطنة (عمان) المحاذية لحدود مدينة (العين)، وكنت بعد ساعات العمل أجلس عنده، وكان يضمنا سور المدرسة، كان يقدم لي القهوة العربية وأحيانًا كنت أجد عنده بعضًا من التمر، ولا أذكر إن كان عندنا فائضًا من شيء تكرمنا به على ذلك الرجل، فقد كانت إمكاناتنا بسيطة جدًا كما أسلفت، سراير نومنا كانت عبارة عن سريرين من الحديد، وكان لدينا أدوات متفرقة قليلة للأكل والشرب، وجهاز

راديو يعمل بالبطارية كنا قد اشتريناه من (دبي) قبل مجيئنا إلى ا(لعين) بمبلغ أربعين درهمًا، كان الصيف حارًا كنا نشرب في أغلب الأحيان من (مطارة) حارس الروضة المصنوعة من القماش الخاص المشمع، كان يملؤها بالماء وكان يعلقها في الظل، فيصبح بعد ذلك الماء مقبولاً أو كالماء الذي ينبع من الأرض، لم يكن في الغرفة التي كنا نسكنها جهاز لتكييف الهواء، كان يوجد في سقف الغرف مروحة كبيرة كانت تسبب لي صداعًا مستمرًا أكثر مما تحل مشكلة حرارة الجو داخل الغرفة، لأن المروحة وأي مروحة لا تفعل شيئًا إذا كان الجو حارًا كما هو في منطقة الخليج أيام الصيف، فهي تحرك الهواء الساخن ولا تفعل غير هذا.

كانت الغرفة التي ننام فيها هي كل شيء لدينا، بعد فترة أعانتنا مديرة المدرسة أيضًا بأن دبرت لنا من مخازن دائرة التربية ثلاجة صغيرة، وضعتها في غرفتنا، وكانتْ شيئًا جديدًا طرأ على حياتنا، في عصر أحد الأيام ذهبت واشتريت ببعض الريالات القليلة التي كانت معنا، والتي كنا نقسطها على الأيام الباقية من الشهر ريثما تتسلم زوجتي أول راتب شهري لها من العمل في الروضة، اشتريتُ صندوقًا من علب العصير الصناعي بطعم العنب، ووضعناه في الثلاجة ليبرد ونشرب منه على هوننا كلما احتجنا، صحوتُ في صباح اليوم التالي، فبهرني أني رأيت كل علب العصير مفتوحة وفارغة، وموضوعة على ظهر الثلاجة العلوي من الخارج، سألت زوجتي ما هذا ومن فعل ذلك، قالت: "أنت، رأيتك في الليل تفتح الواحدة بعد الأخرى وتشربها إلى أن أتيت عليها جميعًا ثم عدت إلى فراشك". لم أتذكر ولم أحس بما حدث فربما من أثر حرارة الجو والإرهاق الذي كان يُسببه، حدث معي ما حدث لتلك العلب.

كان معارفنا قلائل في المنطقة، إلا أننا بدأنا نصبح وجوها مألوفة، فقد تعرفنا على أحد أهالي بلدتنا من مهاجري (غزة)، وكان يسكن مع أفراد أسرته، وكان يعمل ميكانيكيًا في

إحدى الشركات، أما قريبنا الذي قابلناه في بداية وصولنا إلى مدينة العين فقد غادر (الإمارات) كلها، بدأنا نتعرف على الناس من الأغراب من أمثالنا، وذلك عن طريق أسر المدرسات اللواتي كن يعملن مع زوجتي بالتدريس في روضة الأطفال، إلا أنها كانت صداقات بسيطة وغير متينة لاختلاف أشياء كثيرة، واختلاف المفاهيم الاجتماعية واختلاف التوجهات والأعمار، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود صداقات آنية كانت تخدم نفسها حسب مقتضيات الظروف.

في نهاية شهر فبراير عام ١٩٦٩م كانت زوجتي قد أتمت في العمل شهر فبراير كله وبضعة أيام من أواخر شهر يناير من نفس العام، وكنا نتوق بل كنا في أمس الحاجة إلى النقود، وعملنا حسابنا بأنها ستتسلم الراتب الأول، كانت أمورنا المادية في نهايتها، ولكننا فوجئنا بأن راتب الزوجة لم يأت مع رواتب الأخريات، وأعلمتني أن موزع الرواتب الذي حضر إلى المدرسة قد أعلمها، أن عليها أن تنتظر شهرًا آخر لكي تتسلم الشهرين سويًا كما العادة مع الذين يُعينون حديثًا حتى تدخل أسماؤهم جدول الرواتب، لمستُ من الزوجة أنها حاولت كثيرًا أن تُقنع المحاسب لعمل أي شيء لأجل أن تحصل على الراتب هذا الشهر، وأخبرتني بأنها قد فشلت، وعلمت بعد ذلك من بعض زميلاتها المدرسات أنها بكت على أثر ما حدث.

وهكذا، أضحينا في ضائقة مادية وأصبحنا نعيش على الكفاف، لم تسعف محاولاتنا الاستدانة من هنا وهناك بضعة ريالات في كل مرة، بل إنها أربكتنا وجعلتنا نصرف أكثر من المعتاد، وأكثر مما لو كان معنا نقود، فعدم الاستقرار عمل عمله معنا، أذكر أنه مر علينا عيد الأضحى في تلك الأيام، وكنا نملك فقط ريالين ونصف - أقل من دولار أمريكي واحد - وكنا نستطيع أن نشتري بتلك الفلوس أقل من وجبة طعام بسيطة، حضر إلينا في ذلك اليوم ابن بلدتنا الذي أشرت إليه قبل قليل، ومعه حوالي كيلو جرام

واحد من اللحم، تبادلنا تحية العيد وقال: "هذا نصيبكم من ذبيحة ضحينا بها صباح اليوم"، كانت بادرة حسنة منه وكانت في وقتها، ورغم الإحراج والخجل الذي كان ينتابني حينما أكون محتاجًا لاستلاف شيء من أحد وخصوصًا المال، إلا أنني لم أجد بدًا، وتقاويت على نفسي وأعلمته بحاجتنا إلى بعض النقود ولتكن مائتي درهم، ذلك ريثما يمن الله علينا بالفرج، وخصوصًا بعد استلام راتب الزوجة، وفعلاً، ذهب الرجل إلى سكن أسرته الذي كان يقع في ناحية أخرى من مدينة (العين)، ولم يمض وقت طويل حتى عاد ومعه ما طلبت.

كانت الأحوال السياسية والاقتصادية غير مستقرة بصفة عامة في تلك المنطقة من العالم، وكانت (الإمارات المتصالحة)، تقع كلها تحت الحماية البريطانية، وكان الجيش البريطاني مسئولاً عن أمنها، وذلك لحراسة مصالح (بريطانيا) العظمى في شرق (السويس)، وكذلك لأجل حماية المصالح الغربية بصفة عامة، وخصوصًا البترول الذي راح يتدفق بغزارة في هذه المنطقة في ظروف شبه مثالية للمد الروسي الشيوعي المتطلع دائمًا إلى الوصول إلى المناطق الدافئة وإلى مصادر الطاقة وعصب الصناعة الحديثة، وقد كان أيضًا الصراع العربي، الإسرائيلي محمومًا في ذلك الوقت، ونكسة ١٩٦٧م كانت ترخي سدولها على العرب جميعًا، وكان التناقض العربي القومي مع الغرب بصفة عامة بقيادة دول الرفض بقيادة (مصر) (جمال عبد الناصر) يفرض نفسه، ويلح في كل يوم للقضاء على مصالح الغرب وعلى الأنظمة التي تسير في فلكه في المنطقة، كان في المنطقة بدون الجيوش البريطانية ونفوذ (بريطانيا) فراغًا أمنيًا، وكان أيضًا يُغري باستمرار الإمبراطورية الفارسية الشاهنشاهية نسبة إلى الشاه (محمد رضا بهلوي) على ضفة الخليج العربي من الناحية الأخرى في مناخ إقليمي واجتماعي بشري لا ينكر اتصال أهل فارس بتلك

المنطقة ذات الكثافة السكانية القليلة، وكِبَر نسبة عدد السكان من أصل فارسي بين من يعيشون في تلك (الإمارات).

كانت المنطقة تشمل إمارات (أبو ظبي) و(دبي) و(الشارقة) و(أم القوين) و(عجمان) و(الفجيرة) و(رأس الخيمة)، وكانت كل إمارة تحكمها قبيلة عربية/أسرة تعتمد هي ومن في كنفها على خيرات الخليج وقليل من الزراعة، هذا قبل ظهور البترول، ولأن مناطق شبه الجزيرة العربية كان يصعب فصلها عن بعضها البعض جغرافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وتاريخيًا وديمغرافيًا فقد ظلت تشدها التيارات الفكرية هنا وهناك، وكذلك قضايا النفوذ العالمي التي توحي بها القوى المتنفذة في العالم، وخصوصًا التململات والتعديلات التي من الطبيعي كانت تنتج عن الاستسلام القسري الذي راح يفرض نفسه على الاستعمار القديم، والذي راح يحاول أن يبتعد بالإبقاء على قليل من ماء الوجه أمام القوة المهيمنة الفتية الجديدة، (الولايات المتحدة الأمريكية).

كان مركز مصالح الولايات المتحدة في المنطقة في ذلك الوقت يقع في شبه الجزيرة العربية وخصوصًا في (السعودية)، وكانت مصالح (بريطانيا) العظمى في سلطنة (عمان) وفي (الإمارات المتصالحة) وغيرهما من دول الخليج، وكذلك في (قطر) و(البحرين)، وكان بين (الإمارات) وجيرانها كثير من الإشكالات الحدودية المعلقة، التي أبقتها (بريطانيا) ربما عن قصد أو غير قصد بلا حلول، كانت ظاهرة المد القومي العربي في تلك الفترة تلح بالإسراع على إجراء المصالحات الحدودية بين أهل المنطقة، كانت (الإمارات المتصالحة) أضعف تلك الحلقات وأكثر تلك المناطق إغراءً لـ (شاه إيران) (محمد رضا بهلوي) تحت دعوى الحقوق التاريخية لإمبراطورية فارس، وكان يقوي تلك الحجج هو صداقة وتحالف (إيران)/(الشاه) مع الغرب بصفة عامة، كانت (إيران) مع (إسرائيل)

كواجهة للنفوذ الغربي على حدود ومناطق نفوذ (الاتحاد السوفييتي) أقوى عملاق عسكري أيديولوجي يهدد الديمقراطية الغربية أو ما يسمى بالعالم الحر.

كانت القوى العظمى تسعى لإرضاء (شاه إيران) لأكثر من سبب، وكان أهل المنطقة يدركون ذلك، وكان للشاه قوة وأثر في الشارع الإماراتي في أي إمارة، فأهل المنطقة لا يعرفون تقريبًا إلا (إيران) جارًا لهم، وكل ما تسمح به إمكاناتهم هو الوصول فقط والسعي لتقليد الحياة في (إيران)، والأكثر من ذلك أن غالبية المتنفذين من تجار ومستشارين وعمال وخدم أيضًا كانوا من أهل فارس في ذلك الوقت، ولهذا فلا غرابة أن تكون اللغة الإيرانية إحدى اللغات الأساسية المتداولة بين أهل (الإمارات) في الشارع وفي البيوت، ولقد لعبت مربيات الأطفال والخدم دورًا رئيسيًا في نشر اللغة الفارسية بين الناس، ولهذا كانت صور (شاه إيران) المعلقة في البيوت والمحلات التجارية تُعتبر أكثر أو هي الوحيدة في المنطقة، وكان يعتبر (شاه إيران) في نظر الناس من أصول إيرانية أكثر من ملك في (إيران) وأكثر من إمبراطور في فارس، كان سكان (الإمارات) من أهل فارس يعتبرون ولاءهم للشاه مقدسًا، وكان لا يجرؤ أحد بين العامة إلا أن يكون حذرًا في تداول كلمة (شاه إيران) خوفًا من الزلل، أو أن تفسر على نحو يُفهم منه الإساءة لذلك الإمبراطور، قيل في تلك الأيام إن أحد العرب الوافدين إلى (الإمارات) اختلف في أمر ما مع بائع إيراني الأصل كانت صورة الشاه (محمد رضا بهلوي) معلقة في متجره، ولما اشتد الجدل وزاد الخلاف بين الاثنين ما أدى إلى أن يشير الوافد العربي بالسباب على الشاه نكاية بالإيراني، ما كان من الإيراني إلا وقام بطعن الوافد العربي بسكين وألحقها قائلاً، إن تسبني شخصيًا أقبلها، وأما أن تسب سيدي فلا.



١٨-٣ الاستسلام للظروف.

في ظل تلك الأوضاع المرهقة، والجو السياسي المحموم، والنار المتحفزة بكل ألوانها تحت الرماد، كادت الحياة في (الإمارات) أن تتوقف خصوصًا الناحية الاقتصادية، عمّ كساد اقتصادي (الإمارات) منذ عام ١٩٦٨م، السنة التي قدمت فيها إلى تلك البلاد، وصرت أبحث فيها عن عمل محاولاً أن أحقق كل ما وعدت به نفسي وما كانت تنتظره أسرة الوالد مني، كانت المؤسسات الشبه حكومية أو مركز التطوير كما كان يسمى في ذلك الوقت، عبارة عن دوائر كل مستشاريها كانوا من الإنجليز الذين يسعون إلى ربط كل شيء له علاقة بالمستقبل الاقتصادي لتلك المنطقة بـ (بريطانيا) العظمى، شهدت تلك الفترة ركودًا ثقيلاً في سوق العمل، والسبب أن اقتصاد تلك المنطقة التي راحت تجذب الأيدي العاملة من الجهات الأربع للكرة الأرضية قد ابتدأً بالبترول الذي تعود بعض عوائده المالية إلى حكام تلك المنطقة، وحيث إنهم راحوا يصرفون جزء من هذه العوائد

على البناء وعلى شق الطرق وبناء المدن، إلا أن هذا الصرف في تلك الفترة قد توقف تمامًا في ذلك المنعطف الحساس من تاريخ تلك المنطقة، خصوصًا حينما راحت (بريطانيا) تقرر سحب قواتها من مناطق شرق السويس وتصفي مصالحها في منطقة (الخليج العربي) و(عدن) وغيرهما، وأضحت (الإمارات المتصالحة) على أبواب إعطائها الاستقلال مع الحيرة والارتباك في كيفية تكوين شكل وحجم الدولة الجديدة، صدر في تلك الفترة أكثر من قرار بوقف الصرف على المشاريع وبوقف تعيينات الموظفين الجدد.

كنتُ مضطرًا في تلك الأيام أن أبقى قرب الزوجة العاملة في مدينة العين الضيقة والبعيدة عن العاصمة (أبو ظبي) الأكثر حركة والأكثر رواجًا، وحيث كانت المواصلات باهظة كلما حاولت أن أبحث عن عمل فيها، لهذا وبعد عدة محاولات ذهبت خلالها إلى (أبو ظبي) لكي أبحث عن وظيفة، وجدت من الأفضل أن استسلم وأن أبحث عن العمل فقط في مدينة (العين).

كانت دوائر العمل في مدينة العين محدودة ومترابطة وكأنها فروع أو أقسام لدائرة واحدة، وكان يرأسها الشيخ (طحنون بن محمد آل نهيّان) كنائب في المنطقة الشرقية لابن عمه الشيخ (زايد بن سلطان آل نهيّان)، كانت مهمتي ليست سهلة وكذلك فرصتي، كنت من بيئة مختلفة لم تتعود على نمط الحياة في مثل ذلك المجتمع، ومن السهولة أن يجد الإنسان نفسه في وضع لا يُحسد عليه خصوصًا إذا كان قد تخرج توًا من الجامعة، وأما فرص العمل في الشركات التي كانت تقوم بتشطيب أواخر المشاريع التي حصلت عليها من دائرة الأشغال التابعة لإمارة (أبو ظبي)، كانت فرصتي شبه معدومة لأن أغلب تلك الشركات كانت لا تعدو عن فروع للشركات الأم بالخارج التي كانت ترسل طواقم موظفيها من المدراء والمهندسين من أماكن تواجد مكاتبها الرئيسية، وقد عشت الشهور التي تلت قدومي وزوجتي إلى مدينة العين في عذاب ومعاناة جعلاني من قسوة تلك

الظروف أنسى الأهل والوطن وأصدقاء الدراسة، وجعلتني لا أحس إلا بما أعانيه من عسر مادي وضيق وملل يومي، كنت في تلك الفترة في ربيع حياتي العملية ولكن بلا عمل، كانت تحصل زوجتي على راتب مقداره ألف وأربعين ريالاً في الشهر فقط، في الوقت الذي كانت فيه أجرة السكن المكون من غرفتين، المشابه لبيوت ريف البرازيل، بمبلغ خمسمائة ريال في الشهر، ومثلها كانت تحتاجها الأسرة المكونة من شخصين شهريًا لضرورات الحياة من طعام وشراب، كنت أرسل ربع راتب الزوجة الشهري إلى الإخوة في (مصر).

استمر الحال على هذا المنوال لعدة شهور، عانيت خلالها الكثير وكانت قاسية على نفسي في كل دقيقة كانت تمر، وها هو زواجي المبكر قبل أن أعد نفسي واستقر في عمل مناسب يصبح عائقًا في تحركي من أجل العمل في أي مكان سواء في الصحراء أو في الجزر أو في بلاد الواق واق، كان ما يمنعني أن أذهب إلى آخر الدنيا هو بيت الزوجية والبقاء في البيئة الاجتماعية التي يمكن أن تعيش معي فيها الزوجة، كان عمل الزوجة هامًا وأساسيًا في حياة أسرتنا الصغيرة، إلا أن عمل المرأة في مثل مجتمعنا مهما كانت الوظيفة التي تشغلها مقابل أن الزوج لا يعمل تجعل الزوج يضج ويشعر بالمهانة، بالنسبة لي لو كنت أنا الذي يعمل وحتى لو كان راتبي أقل مما كانت تحصل عليه الزوجة كان أفضل عندي من عمل الزوجة، وأفضل لديها أيضًا، لأن الزوجة بصفة عامة تفضل الزوج القادر دائمًا.

وهكذا لم يكن لي الخيار سوى الخروج بعد أن تذهب الزوجة إلى العمل، وقد كنت أقضي الوقت في وسط مدينة العين عند بعض المحلات التجارية الموجودة في السوق، وكنت أعود إلى السكن قرب عودتها من العمل، وفي أقل الأحيان كنت أذهب لكي أبحث عن عمل دون أي أمل في الحصول على شيء منه، بعد الظهر كنت أشعر ببعض الاستقرار

والأمان وكنت أبدًا يومًا أُسريًا جديدًا في تلك البلاد الصحراوية، لو أني لم أسر على ذلك الروتين الممل لكان البديل أكثر مللاً، لأنه كان عليّ أن أبقى مغلقًا باب الغرفة التي كنا نسكنها في المدرسة على نفسي ريثما تعود الزوجة، وكنت في أغلب الأحيان أقول لها أغلقي عليّ باب الغرفة بالمفتاح من الخارج حينما تذهبين إلى العمل، وحتى لا أفاجأ بطريق الخطأ بأطفال المدرسة يفتحون باب الغرفة عليّ وأنا نائم، في أكثر من مرة كان أطفال الروضة/المدرسة خصوصًا في فترات الاستراحة، كانوا يفتحون باب الغرفة ويدخلون وأنا نائم وكنت أصحو، وأقوم ثانية بقفل الباب بعد أن أُخرج الأطفال الذين دخلوا، في بعض المرات صحوت من نوم عميق على حركة غير عادية، ووجدت باب الغرفة مفتوحًا وكان يندفع من بابه العريض عشرات الأطفال من تلاميذ روضة الأطفال، ولم يسعف في تلك اللحظة سوى أن مدرستهم التي كانت تسير خلفهم في ذلك الوقت، وربما هي أخطأت في جلبهم ناحية الغرفة التي كنا نسكن فيها، ورأيتها تُذهل حينما رأتني داخل الغرفة أقوم من نومي والأطفال من حولي، فما كان منها إلا أن نادت على الأطفال، واعتذرت مني وعادت بهم من حيث أتت.

١٨-٤ العمل في بلدية العين.

في تلك الظروف الكئيبة التي لا أجد تسمية مناسبة لها عندي لكي أعطها وصفًا حقيقيًا، كنت قد تعرفت على قلة من الأُسَر الفلسطينية والعربية، في أحد الأيام ذهبتُ مع أحد المعارف وكان رجلاً في الأربعينيات من العمر، وكان يملك بقالة صغيرة في مدينة (العين)، ذهبنا سوية لأمر يهمه هو إلى مكاتب بلدية مدينة العين، وهناك مر بي على مكتب مراقب الصحة في البلدية، وكان ضمن بعثة من جمهورية (السودان)، وحيث كان كل رؤساء الأقسام تقريبًا في بلدية العين كما في بلدية مدينة العاصمة (أبو ظبي)، كانوا

جميعًا من (السودان)، لأن (السودان) قد أرسلت بعثة لإنشاء بلديات في إمارة (أبو ظبي)، وكان (الأردن) أيضًا قد أرسل بعثات لتكوين أجهزة الأمن والشرطة وكذلك للجيش، كان الرجل الذي رافقته إلى مكاتب البلدية يعرف ظروفي جيدًا ويعطف عليها، ورأيته يقول لرئيس قسم الصحة السوداني الذي كنا في مكتبه بحكم معرفته به كزبون يشتري بعض الحاجيات من بقالة صديقي هذا، قال له ان الأخ عبد الكريم خريج هندسة ميكانيكية وليس له عمل، حبذا لو ساعدته، قال الرجل (السوداني المسئول: "والله أنا مسئول عن قسم الصحة وليس لدي ما أستطيع أن أساعد به، ولكننا هنا في قسم الصحة كنا قد استوردنا ماكينات خاصة من نوع (تيفا) الإنجليزية الصنع، وهي أجهزة معقدة نوعًا ما الغرض من استعمالها هو رش المبيدات الحشرية في شوارع وضواحي المدينة، إلا أن هذه الماكينات وعددها ثمانية لم تعمل منذ البداية بصورة حسنة، ولا زلنا ننتظر رد الشركة البريطانية الصانعة، هل يستطيع هذا الأخ المهندس أن يفعل شيئًا لهذه الماكينات"، وأضاف: "لو استطاع شيئًا وأصلح بعضًا منها فسندفع له أجرة التصليح وهذه من صلاحيتي"، وهنا كانت فرصتي للحديث فقلتُ للرجل: "هل لي أن القي نظرة على أي من تلك الماكينات". قال: "حسن، وهيا لنذهب إلى الحظيرة التي تحفظ فيها تلك الماكينات".

ذهبنا إلى جراج بلدية العين وشاهدت لأول مرة تلك الماكينات التي كانت كل واحدة منها عبارة عن وحدة فنية من جزأين، ماكينة ديزل متصلة بجهاز آخر لحرق الكيروسين مع مواد كيماوية أخرى لأجل تذرير الناتج على شكل أبخرة ودخان في الهواء الطلق، وجدت من النظرة الأولى أن فكرة التصميم ليست غريبة وليست معقدة، وظننت أنني ربما استطعت فهمها، ساعدني كثيرًا حينما وافق المسئول على تحميل إحدى الماكينات في إحدى السيارات التي تملكها البلدية وعمل على توصيلها وإنزالها أمام غرفة السكن التي

أعيش فيها مع زوجتي داخل سور روضة الأطفال، وأرسل بناء على طلبي أيضًا بعض المواد والمحروقات اللازمة للتشغيل، وكذلك صندوق كبير كامل من العِدد الميكانيكية التي تلزم لعمليات الفك والتركيب، أظن أن موافقة المسئول على ما حدث، ربما كانت لصداقته بصاحب البقالة الذي رافقته إلى مكتب هذا المسئول، أو ربما لأن هذا الرجل شاهد عليّ الحاجة للعمل، ولذلك فربما أيضًا هو فضل المغامرة وتحمل المسئولية لأسباب إنسانية على الأقل أو لأسباب خاصة به شخصيًا فربما هناك من يلومه على شراء تلك المعدات التي كلفت الكثير ولم تؤت بالمقابل ما كان يتوخى منها.

كنت مرتاحًا وأنا أحاول دراسة فكرة تصميم تلك الماكينة في موقع سكني، كنت أحاول حينما أريد وحينما يكون الطقس مريحًا خصوصًا في الصباح أو قبل مغيب الشمس لأنني كنت أقف تحت الشمس الحارقة بدون ظل بينما كنت أتعامل مع تلك الآلية، استمرت محاولاتي لعدة أيام متواصلة صباحًا ومساء وكلما جدت لي فكرة ما لأقوم بتجربة، كانت زوجتي تقف بجانبي وأحيانًا كانت تمسك معي بعض القطع الفنية أو تناولني أحد العدد وما أطلب منها من ماء للشرب الذي لا غنى لي عنه في تلك الأثناء، وفي النهاية وبعد جهد مضني وإرهاق لا يعلمه إلا الله، استطعت أن أكتشف أن الخلل في تلك الآلية هو خطأ في التجميع السطحي الخارجي، كان عبارة عن خطأ في تثبيت طرف أحد الخراطيم المطاطية التي تسمح بمرور زيت السولار في غير موضعه وعكسه مع خرطوم آخر مشابه له في التصميم، ولم يكلفني تصحيح الخطأ سوى دقيقتين، بعد إجراء التعديل وبحذر شديد قمت بتشغيل الوحدة فعملت بصورة جيدة بل وأفضل من النظام التي كانت تظهر عليه، كانت قبل أن أدخل التعديل تعمل لدقيقة أو دقيقتين ثم تبقى ماكينة الديزل الرئيسية تعمل كالمعتاد أما وحدة الخلط والحرق فكانت تتوقف، بعد أن أجريت التعديل البسيط أضحى بالإمكان لمشغل تلك الماكينات من عمال البلدية، أن يزيد أو

ينقص كثافة البخار المتذرر - نسبة إلى ذرّة - في الهواء، وأضحت هذه ميزة لمسها من يعملون على تشغيل هذا النوع من الماكينات في قسم الصحة في بلدية (العين) فيما بعد.

على أثر تجربة تلك الماكينة أمام مسئولي البلدية في الساحة العامة بعد أن أجريت التعديل المشار إليه، طلب مني مسئول الصحة أن أقدم له فاتورة تكلفة التصليح (الإيجار)، فكتبت له فاتورة بخط اليد وطلبتُ خمسمائة درهم، وقّع على الفاتورة وشهد لي بعمل التصليح اللازم، وكتب ملاحظة لمدير عام البلدية بالتكرم بالإيعاز لمن يلزم بدفع قيمة الفاتورة لي، وقال لي بعد أن تحصل على قيمة الفاتورة، فإنك تستطيع وقتما تشاء أن تعمل نفس الشيء لماكينة أخرى من السبعة الباقية وهكذا، أخذت ما كتبه من توصية إلى مدير عام البلدية، وتوجهت بها إلى مكتب الأخير الذي شعرت من تصرفاته فور أن قدمت له الفاتورة وكأنه على علم بكل شيء، قال لي فورًا: "كنا نود أن نُعينك مهندسًا في جراج البلدية، ولا ننتظر أن ندفع لك فاتورة بمبلغ خمسمائة ريال فقط". قلت على الفور: "إذن اعتبر يا أستاذ بأن ما فعلته من تصليح لتلك الماكينة هو فحص المهنة بالنسبة لي للعمل في جراج البلدية، وهكذا عُينت في البلدية بصورة مؤقتة ووعدت بالتثبيت حينما تقر الموازنة الجديدة ويوضع بند وظيفي لمسمى مهندس ميكانيكي، كون التعيينات كانت مجمدة لأكثر من سبب في ذلك الوقت، أو كما أشرت عن الأوضاع في المنطقة في تلك الأيام.
كان الراتب الذي استطاعت البلدية ان توفره لي، أكثر قليلا من ألف درهم بسبب صيغة التوظيف المؤقت مضافًا إليه بعض ساعات العمل الإضافي، وكنت بالكاد في المجموع أصل إلى حوالي ألف وستمائة درهم، وقيمة الدرهم بالمناسبة هي نفس قيمة الريال.

منذ البداية أحببت عملي لأنني عطش وجائع للعمل، وكنت أتفانى من أجله والله يشهد على ذلك، وكان يساعدني في هذا أن زوجتي كانت من النوع الذي وكأنه خُلق لأن يلبي

ما أريد، ولهذا كنت أعمل في اليوم ساعات العمل الرسمية وحوالي مثلها بعد ساعات الدوام الرسمي وأيام الجمع والعطلات، ولم انتظر شكرًا من أحد ولا ثناء، بل كانت مشكلتي وميزتي في آن واحد، هي، أنني كنت آخذ كل ما كان يعترض حياتي بأسلوب المقاتل والمتحدي للحياة، وكنت لا أرتاح منذ أن أشرع في المضي إلى أي هدف إلا إذا ارتبط ذلك بالحس الفلسطيني الذي كان يصرخ في داخلي في وجه الظلم ويتحدى من أجل استعادة الحق السليب، ولهذا كنت أحس مثل الكثيرين من العرب الوافدين بأن فراغًا قوميًا بكيفية ما هو قابع في منطقة الخليج، وكنت أتصور بأن علينا مسئولية أن نملأ هذا الفراغ بوجود كم عربي، ولا نود أن نرى المنطقة العربية تضيع كما ضاعت (فلسطين)، خصوصًا كلما راحت تتحدث الأخبار عن أطماع خارجية في تلك المنطقة من قِبل (شاه إيران) الذي كانت أخباره تخيف أهل المنطقة.

لذلك كان طبيعيًا أن أكره كل ما هو منتمي لـ (شاه إيران) في تلك الأيام، وكل ما كان يعادي الناصرية التي تطالب بالوحدة العربية الكبرى، كانت نظرتي لهذه الأمور تنم عن وعي سياسي ولا تنم عن حسن تصرف ومعرفة حجمي الحقيقي في تلك البلاد، ولهذا رحت علنًا أُجاهر بإعلان شعوري ورفضي مجرد التعارف أو الاستماع إلى أي شخص يقال عنه إنه إيراني، ربما كان هذا طيشًا وربما كان بسبب ظروفي الاجتماعية أو بسبب البيئة التي نشأت فيها، وسقط بيدي أنني لم أكن أعرف أن الإيرانيين يلبسون أيضًا الملابس التقليدية العربية ويتحدثون اللهجة المحلية أيضًا خصوصًا الذين ولدوا في تلك المناطق أو تربوا فيها، فقد كنت أظن بأن كل من كان يلبس اللباس المحلي هو عربي من أهل المنطقة، ربما كنت معذورًا لأنه لم يمض على إقامتي في (الإمارات) حتى تلك الفترة سوى حوالي ستة شهور، لهذا تكوّن ضدي أول مركز قوى ممن هم من أصول إيرانية في بلدية (العين) وأصبح ينتظر اللحظة المناسبة لكي يسيء إليّ.

كان الفساد الإداري والواسطة والتوصية هي ما تزرعه وما تحصده البيئة في تلك الأيام في تلك البلاد، وكان حول الشيخ (طحنون) نائب الحاكم في المنطقة فئة من المنتفعين والمتسلقين تلتف حوله تعزله عن الناس ليضحي كل شيء لها، بعد أن أصبحتُ مُديرًا لجراج بلدية (العين) بعد صراع لم يأخذ وقتًا طويلا على وظيفة المسئول الأول في جراج البلدية، والذي نشب بيني وبين مهندس من الباكستان كان يعمل معي، وكان له علاقة مع بعض المسئولين في الدائرة، أصبحتْ الكلمة الأولى والأخيرة لي في كل الأمور التي تتعلق بالعمل في جراج دوائر بلدية مدينة (العين)، أصبحت بالطبيعة المسئول على تعيين الفنيين والإداريين الذين يتبعون قسم جراج البلدية وكذلك فروع الخدمات التابعة له في المناطق الأخرى، وكنت مسئولاً عن عهد ومعدات جراج البلدية أيضًا، من الموظفين المحليين الذين عملوا تحت إمرتي في تلك الأيام: (جمعه بن خلفان) وقد عمل مندوبا للمشتريات النثرية، وأصبح بعد الاستقلال وزيرًا للجمارك، ومنهم أيضًا (سلطان بن غنوم الهاملي) وكان كاتبًا في مستود قطع الغيار بجراج البلدية، وأصبح بعد استقلال الدولة أمين سر مجلس الوزراء الاتحادي.

بالنسبة لتعيين الفنيين في جراج البلدية فقد قدمت بدافع قومي عربي مشروعا ظننت بأنني سأحوز به على ثقة الشيخ (طحنون) ابن عم الشيخ (زايد) ونائبه في المنطقة الشرقية، وذلك بأن قلت للشيخ (طحنون) في أحد الأيام، وكان في موقع عملي، قلت إنني على استعداد أن أعيّن بعض أبناء البدو من سكان مدينة (العين) كمساعدين فنيين في مختلف المهن التي نقوم بالعمل بها في جراج البلدية، وإنني سأشرف عليهم بنفسي وباهتمام خاص لأجل أن يتعلموا الحرف حتى إذا ما مر عليهم سنتين أو ثلاثة في هذا المكان، أضحوا من الكفاءة بحيث نستغني بهم عن العمال الإيرانيين والباكستانيين

وغيرهم الذي كانوا يقومون بتلك الأعمال حتى ذلك الوقت، ووافق الشيخ (طحنون) على ذلك الاقتراح بلا تردد.

من عادة الشيوخ في تلك البلاد أنهم يوافقون على كل شيء يقدمه الخبير، ويبقى الخبير صاحب حظوة عندهم حتى يأتي من هو أكثر إقناعًا أو أفضل واسطة ليقنع الشيخ بعكس الرأي الأول فيتخلى عن الخبير الأول.

قمت بالفعل بتعيين عدد لا بأس به من أبناء البادية في جراج البلدية، وكانوا يحصلون على رواتبهم بدون إنتاج على أمل أن يتعلموا المهن التي اقتربوا منها، كان هؤلاء الصنف من الناس بسبب ظروفهم وبيئتهم المحلية الخاصة غير منضبطين، وبسبب رسالتي التي كنت أود أن أحققها لأبناء جلدتنا العرب في تلك المنطقة، فقد كنت صارمًا كعادتي مع من يعملون فلا أتهاون بحق الدولة والمصلحة العامة، وهكذا كنت أحاسبهم على أي تغيّب وأي تأخير وكنت أرفض كثيرًا طلبات إجازاتهم ولم أكن متسامحًا معهم في مثل هذه الأمور، وهو عكس ما كان يفعله بصفة عامة الغالبية من الوافدين العرب ممن كانوا أبعد نظرًا مني وربما أكثر معرفة في بعض هذه الأمور بسبب عامل السن وخبرة التعايش اليومي في تلك المنطقة من العالم، أولئك الذين رأوا أن مساعدة المواطن والتغاضي عن سلبياته، وتلبية طلباته ومسايرته بغض النظر عن المبدأ هو الدعامة الأساسية لهم إذا ما ودّوا أن يستمروا في أعمالهم ووظائفهم، كان هؤلاء البسطاء من الناس ممن قمتُ بتعيينهم هم حضور مجالس الشيخ (طحنون)، وقد علمت أكثر من مرة ممن كانوا يتعاطفون معي من كبار المسئولين المواطنين المقربين من الشيخ، ليس لأنهم على صداقة معي بقدر ما هم كانوا أعداء للذين كانوا ينافسونهم من أمثالهم في الحصول على حظوة عند الشيخ، قال لي هؤلاء أكثر من مرة: "إن الكثيرين يا مهندس يُجيبون الشيخ حينما يذكر اسمك بأنك تكره المواطنين، ويحاولون دائمًا النيل منك ومن نزاهتك في تسيير

العمل لأنك شديد عليهم"، وقال لي أحد الأصدقاء من المواطنين:"أنا أنصحك بأن تجعل لك حضورًا عند الشيخ، فعليك مثلاً أن تزور الشيخ بعد ساعات الدوام مثلما يفعل الكثيرون، وهذا سيمنع الناس من الإساءة إليك". والشيوخ بصفة عامة يحبون من يزورهم، ومن لا يفعل يظنون بأنه متكبر عليهم، لم آخذ بنصيحة ذلك المسئول، بحجة إنه لا يصح إلا الصحيح، فما دمت أقوم بعملي على خير وجه فإن هناك من سيقدر ذلك. وهكذا بقيت على ما أنا عليه، وكثر من كانوا يسيئون لي عند الشيخ وأضحوا واقعًا مؤثرًا في المدى البعيد، وعملوا مع فئة أخرى من رعاة الشيخ نفسه من الحاشية (المطرزية) على جعل الشيخ يصدق أي شيء يقال عني، حتى قيل يومًا إن المهندس غير أمين على المصلحة العامة.

في أحد أيام الجُمَع، وكنت موجودًا منذ الصباح في جراج البلدية مع عدد قليل من الفنيين من مختلف الجنسيات الذين كانوا يعملون كفنيين، خصوصًا من الذين كنت أجاملهم وأرجوهم أن يأتوا يوم الجمعة لكي يساعدوا في إنجاز بعض الأعمال المتأخرة التي لم تُنجز خلال أيام العمل الأسبوعية، كان الغرض الرئيسي منها هو أصلاح بعض السيارات العاطلة عن العمل، خصوصًا تناكر المياه التي كانت ضرورية لدائرة الزراعية لري الشجيرات التي كانت تزرع شتلاتها بين الشوارع قبل أن توصل إليها خطوط المياه بصورة دائمة، في ذلك اليوم جاء الشيخ (طحنون بن محمد) فجأة، وكان معه اثنين من حراسه الخصوصيين، ومر في أكثر من مكان في ساحات العمل بين السيارات والآليات التي كانت موجودة بغرض التصليح هناك، ثم اتجه نحوي وتوقف أمامي لكي يقول: "يقولون بأنك تقوم بإصلاح سيارات الأجرة هنا". وهو يقصد بأنني آخذ أجرة التصليح لجيبي، وأكمل: "إذا لم تعمل جيدًا معنا فإننا سنستبدلك بشخص آخر إنجليزي". أنهى كلامه بتلك العبارة وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى وهمّ بمغادرة

المكان، ما كان مني في تلك اللحظات وبعفوية خاصة إلا ووضعتُ يدي على كتفه الأيمن وأدرته ناحيتي وقلت: "إن عملي لن يتغير أبدًا،ا حتى لو عينتم بدلاً مني إنجليزي أو غير إنجليزي، أنا أعمل بما يمليه علي الضمير ولست بحاجة لنصيحة من أحد وسكتُ". سمع ما قلت ولم يفعل شيئًا ومضى في طريقه.

كلما تذكرت تلك الحادثة بعد ذلك فانني أقف مذهولاً عندها، كان حارسا الشيخ الاثنان المرافقان يحملان رشاشين حديثين، وكان لا يكلف الأمر إلا أن يُشير إلى أحدهما ليوحي له بقتلي، وكان يستطيع أي شيء، ولا أدري لماذا تركني ومضى دون حتى أن يقول شيئًا... حقًا لا أدري حتى الآن، فربما هو كان يعي جيدًا بأنني لا أفهم بعد ذلك المجتمع، أو إنه شعر بطيبة وسذاجة عندي، لكن حقيقة أنا لا أدري ولم أجد تفسيرًا لذلك حتى الآن.

هذا، ومن ناحية أخرى فقد حاولتْ الفئات المقربة من ذلك الشيخ أن تحصل بطريق غير شرعي عن طريقي على مميزات وأدوات مما كان متوفر في مستودعات جراج البلدية، وكذلك على قطع غيار لسياراتهم وغير ذلك، كانوا بصراحة يحاولون السرقة علنًا، وتحت إفهامي أنني إذا لم أفعل ذلك فإنهم سيّسيئون لي عند الشيخ صاحب الأمر والنهي في تلك الديار، لكنني كنت توًا منتهي من الدراسة في (مصر) ولم أمارس عملاً رسميًا أو مسئولاً بمثل ذلك المركز من قبل، وكنت مشحونا بمثاليات الطالب وبالشعارات السياسية التي كنت أسمع (جمال عبد الناصر) يُرددها أمام الجماهير عن العرب والعروبة والوحدة و(فلسطين)، ولم يكن في عقلي مكان لإرهاصات من تلك التي صرت أعايشها صباح مساء في تلك البلاد الجديدة عليّ.

في أحد الأيام حضر أحد أصحاب النفوذ من حاشية الشيخ ممن أشرت إليهم إلى موقع عملي، وكان اسمه (مُشبب)، وكان لا يقل عمره في ذلك الوقت عن ٥٠ سنة، ورجاني أن أصعد معه في سيارته الخاصة وفعلتْ، وخرج بي بعيدًا ثم أخذني إلى موقع سكن قبيلته، وبعد أن تناولنا بعض الفواكه والقهوة العربية، قال لي اسمع يا مهندس، وأكمل قائلاً: "في هذه البلاد من يشكره الناس يشكره الشيوخ، فإن أردت أن تبقى في وظيفتك فعليك أن تساعدنا نحن المواطنين، وعليك إلا تهتم بمصلحة الحكومة كثيرًا، لأن الحكومة غنية وهي موجودة لمساعدتنا، وإذا لم تفعل ذلك فسنقول عنك كل شيء يمكن أن يجعل الشيخ يمل منك". يومها أذكر أنني قلت له عبارة لم أؤمن بها قط على الأقل في تلك الأيام، قلت له: "حسنًا، سأفكر في الأمر"، لكنني لم أفعل شيئًا مما طُلب مني بل أصبحت أكثر وضوحًا أمام هذا النوع من الناس الذين لم أقدّر حجم أثرهم عند الشيخ، الذي لم أكن أعرف حتى تلك الأيام بأنه يملك الأرض وما عليها من البشر.

وهكذا مضيت معزولاً عن هذا المجتمع، مجتمع الشيخ، ولم يبق لي نصير، وربما كان الشيخ من زاوية معينة أو بسبب آراء الآخرين، ربما كان يرى بأنني كنت مظلومًا وأنني أستحق العطف، والعطف ليس دائمًا هو خيمة الحماية للمرء، لأن الاحترام هو الأضمن وهو الأبقى، وقد يسامح أحيانًا من يحوز على الاحترام حتى وإن أخطأ، وأما من يحوز على العطف ففي أغلب الأحيان لا يُسامح إن أخطأ.

بقيتْ هذه المضايقات تغيّب راحة البال والسعادة الكاملة عندي، وكانت قناعتي تنم عن صراع مستمر بين خطين ونهجين، إلا أن أحوالنا المعيشية قد تحسنتْ كثيرًا من ناحية المأكل والملبس وأضحت مريحة أكثر، ولكنها مؤقتة على ما بدا بعد ذلك، ولهذا لم نستطع أنا وزوجتي أن نوفر نقودًا لليوم الأسود حتى ذلك الوقت، ولم نسدد أيًا من ديوننا التي حملناها معنا من (مصر) إلى منطقة الخليج العربي الذي يسميه كل العالم ما عدا العرب

بـ (الخليج الفارسي)، ولم نسدد حتى الديون التي رحنا نتحملها من جراء إقامتنا القليلة في إمارة (دبي).

لكننا وجدنا من الصواب والأصول بعد ذلك، أن نخرج من سكن روضة الأطفال وأن نسكن في بيت مستأجر، وفعلاً قمنا باستئجار بيت عربي من غرفتين في إحدى ضواحي مدينة (العين) الريفية الصحراوية وسكنّا هناك، خصوصًا بعد أن جاءنا المولود الأول في التاسع من أغسطس سنة ١٩٦٩م في الصيف الذي حط فيه أول إنسان قدمه على سطح القمر، ولذلك أسميناه (رائد) من وحي تلك المناسبة، وقد صادف ميلاد (رائد) أيضًا بالنسبة لي ولزوجتي، أنه ولد في نفس اليوم بعد عام واحد بالضبط من زواجنا سنة ١٩٦٨م.

في أحد الأيام تقابلت صدفة في أحد مكاتب بلدية العين مع (خليفة المزروعي) أحد المسئولين في مدينة (العين)، كان رجلاً في حدود الأربعين من عمره، وكان يعمل مديرًا لباصات البلدية، وكانت تجمعني به علاقة: عدو عدوي هو صديقي وليس أكثر، فقد كان الرجل ينافس الكثيرين للحصول على حظوة الشيخ (طحنون) ممن كانوا يكرهونني، كنت أكن لذلك الإنسان احترامًا أيضًا لأنني لم أذكر أن ذلك الرجل قد حاول أن ينهب من إمكانات البلدية مثل غيره، وخصوصًا مما كان تحت إمرتي من المعدات مثلما كان يسعى الآخرون، في تلك المقابلة لامني الرجل لأنني لا أجامل الشيخ كما كان يفعل أغلب موظفي دوائر مدينة (العين) من الوافدين العرب، وقال حتى إنني لا أزور الشيخ في المناسبات العامة أو الخاصة كما يفعل الآخرون، وقال أيضًا: "ماذا سيكلفك يا مهندس لو أنك ذهبت إلى قصر الشيخ وجلست مع كل الناس، أو تعرفتْ على الشيخ أكثر"، وأضاف قائلاً: "أتعلم بأنه قد يقدّر الشيخ مثل تلك المبادرة وإن كان في خاطره شيء ضدك، أو أن أحدًا قد حرضه عليك، فإن هذا لو حصل منك فإنه سيزيل كل

وشاية أو ضغينة من نفسه"، وأنهى نصيحته قائلا أيضًا: "والله يا مهندس بأنك من أفضل من عملوا في هذه البلاد، ولكن يلزمك قليلاً من المرونة وأن تتحرك".

راقت لي تلك الفكرة وجعلتني أستسيغها بل وأحسست بصدق النصيحة من صديق، وكان ذلك اليوم الذي التقينا فيه هو يوم الخميس، في يوم الجمعة بعد الظهر، قررت الذهاب إلى قصر الشيخ (طحنون)، وقلت لنفسي حينها: "لو رأيت سيارات كثيرة أمام قصره فسأدخل، وإن لم يكن فسأعود أدراجي ولن أغامر بالدخول وحيدًا". في ذلك اليوم لبستُ بنطالاً وقميصًا، وكانت موضة البنطلونات في تلك الأيام هي ذات الأرجل الضيقة من أسفل، وصلت إلى المكان وكانت سيارات كثيرة على غير العادة أمام قصر الشيخ، أوقفت سيارتي بين السيارات خارج القصر، ودخلتُ إلى المكان وكان الجميع جالسين على الأرض المغطاة بالبلاط في ظل أحد ممرات القصر القريبة من المدخل الرئيسي، كان الشيخ طحنون في تلك الأثناء يجلس على كرسي مصنوع من الخيزران، وبجانبه كرسي أخر مثل الذي كان يجلس عليه، وكان موضوع عليه راديو ترنزستور يعمل بالبطارية الجافة ومفتوح على محطة إذاعة (البحرين) بصوت منخفض، وبالمناسبة لم تكن لـ (الإمارات) محطة إذاعة بعد في تلك الأيام.

١٨-٥ الجلوس بجانب الشيخ (الأمير).

عندما اقتربت من الجمع طرحت السلام عليهم، ووقف الشيخ ووقف الجميع وسلمت عليه وعلى ثلاثة آخرين ممن كانوا قريبين من مجلسه، وقلت للباقين تفضلوا بالجلوس ولم أكن أريد أن يبقي الشيخ والجمع واقفين طويلاً حتى اتمم مصافحة كل واحد منهم على حدة، وقد كانوا حوالي ثلاثين رجلاً كلهم كانوا بالملابس المدنية في ذلك اليوم، إلا أن أغلبهم كانوا من ضُباط الجيش والشرطة من مواطنين ووافدين، هذا بالإضافة إلى مدراء

الدوائر الأخرى مثل دائرة الزراعة والمحاكم والعمل والعمال وغيرها، وحسب طبيعتنا كبشر فإننا من العادة أن نبدأ التفكير واختيار موقع الجلوس حتى ولو كنا نبدو مشغولين بأمور ظاهرة، وهذا ما حدث بالنسبة لي، فبعد أن سلمتُ على الشيخ وعلى الثلاثة الآخرين، اخترت أن أغلق الراديو الموضوع على الكرسي الثاني الواقع بجانب كرسي الشيخ، وأنزلت الراديو على الأرض وجلست على الكرسي بجانب الشيخ.

جلس الشيخ وجلس الجميع ثانية وصمتوا وكأن على رؤوسهم الطير، بعد ثوان مرت كدهر بالنسبة لي أحسستُ وكأنني وقعتُ في محك لا أُحمد عليه، ولا أعرف كيف أتصرف خلاله، وظننت للحظة بسبب جهلي بعادات أهل تلك البلاد في ذلك الحين، إن هذا الصمت الذي راح يخيم على الحضور، ربما يطلب مني كضيف أن أبدًا بالحديث وبهذا أفكُ عنان هذا الصمت، فقلت موجها حديثي للشيخ (طحنون): "كيف الحال؟" التفت تجاهي بحركة من وجهه وببطء رد عليّ قائلاً" "أرجوك ألا تكلمني"، قلت بسرعة مستغربًا وبتصرف عفوي وبكبرياء مُستَفَز: "أنا لم آت لطلب شيء"، فقال مرة ثانية أيضًا: "أرجوك ألا تكلمني". بعد أن سمعت ذلك، وقد ألحقه أحد علية القوم في مجلس الشيخ، والذي كان أيضًا يجلس على الأرض مع الجالسين، وأشار لي بحاجبي عيناه، وبطرف خفي ما معناه أسكت.

لم أقل شيئًا بعد ذلك، وسكتَ الجميع مرة أخرى، وبقوا هكذا ربما لثلاث دقائق أو حوالي هذا، ثم راحوا يتحدثون بصوت منخفض كان يزداد صوتهم ارتفاعًا كلما استمروا، بعد حوالي خمس دقائق استأذنت بالخروج ومضيت إلى خارج القصر دون أن يودعني أو يهتم بي أحد، في اليوم التالي وفي حوالي منتصف أوقات الدوام، حضر أحد موظفي البلدية على غير العادة، وأحضر رسالة شخصية لي في مظروف مغلق، وقعتُ له

على استلامها واختفى من أمامي بسرعة البرق، كان في الرسالة "إن بلدية العين قررت الاستغناء عن خدماتي لأسباب إدارية".

فهمتُ بعد ذلك أن الشخص الذي أحضر لي رسالة الاستغناء عن خدماتي هو أحد الإيرانيين الذي تنافسوا في ذلك اليوم بشماته لتسليمي تلك الرسالة، كان من عادة أهل المنطقة أن يُصدروا قرارات ضد أحد الموظفين، وكان كثيرًا ما يعود الموظف المستغنى عن خدماته إلى الشيخ مثلاً، ويستسمحه عن خطأه أو يدعي بأنه أخطأ ويعتذر ويرجوه، وفي أغلب الأحوال كان يُعاد إلى وظيفته، إلا أن شيئًا كهذا رفضتُ أن أفعله رغم نصائح الكثيرين، بعد عدة أيام وكنت أهم بالخروج من باب إحدى البقالات في وسط مدينة العين، وقبل أن أخرج دخل شخص آخر وواجهني متعمدًا وسد بجسده علي باب الخروج، توقفت أمامه، وكذلك فعل هو أيضًا، كان هذا الشخص هو أحد العاملين في بلدية العين وكان يعمل عندي بمهنة سائق، وكنت أحيانًا أطلب منه أن يعمل بعد ساعات الدوام بساعات إضافية، إلا أنني كنت أرفض رفضًا باتًا أن أزيد له دقيقة في التقرير زيادة عما كان يستحقه، قال لي الرجل وهو يسد طريق خروجي من البقالة" "انظر يا مهندس، لقد وقفتُ أنا أمامك وإنني أضحيت أمنعك من الخروج، فكيف تستطيع أن تخرج الآن إذا لم أبتعد من طريقك؟ ثم أكمل، أنت كنت هكذا فاعل بنا، أنت كنت تمنعنا نحن المواطنين من السير في الطريق الذي نريده". وأنهى شماتته في فصلي من العمل قائلاً: "أنا فرح لأن البلدية استغنت عن خدماتك، وثق أن الكثيرين من أمثالي قد فرحوا كثيرًا أيضًا".

كان لفقداني العمل في بلدية (العين) صدمة كبيرة صحوتُ عليها في تلك الأيام، وكان لم يمض على دخولي الحياة العملية بعد التخرج سوى عام واحد فقط، بما فيه الاستعداد للسفر من (مصر) إلى منطقة الخليج، وكذلك الإقامة في إمارة (دبي)، ومعاناة الانتظار

والمحاولات المضنية للبحث والحصول على العمل، وحتى هذا العمل الذي فقدته والذي حسدني الكثيرون عليه لم يكن منصفًا لي من ناحية الراتب ومزايا الوظيفة التي كنت أشغلها، هذا عدا أنني قد أحسست يوم حصولي على ذلك العمل، بالكرامة وبالثقة بالنفس وكيف لا وقد أصبحت عضوًا نافعًا وفعالاً في المجتمع، وقيادة اجتماعية أيضًا، صرت مديرًا لجراج البلدية.

بعد الاستغناء عن خدماتي أحسست باليأس وبالتعاسة، وأصبحت أشعر بأنني عاجز عن فعل شيء مفيد، كان ما يضايقني أيضًا هو أن الكثيرين ممن هم في مثل سني، كانوا يذهبون إلى أعمالهم في الصباح ويبقون هناك حتى إلى ما بعد الظهر، وبعدها يعودون إلى سكناهم وبعد الظهر قد يكون لي فرصة للقاء بعضهم للتسلية ولقضاء الوقت.
ساءت أحوالنا المادية ثانية وأضحى العبء كله على راتب الزوجة الذي كان في تلك الأيام لا يفي إلا للغذاء ولإرسال مبلغ من المال إلى الأخوان في (مصر)، في الشهر الذي تم فيه الاستغناء عن خدماتي من العمل دفعتُ من حقوقي عن أجزاء ذلك الشهر آخر إيجار للبيت الذي كنا نستأجره، وأضحى بأننا سنواجه مشكلة في أول الشهر القادم بالنسبة للإيجار، وأضحى يرتمي أمامنا سؤال: أين المفر؟ وبينما أنا في تلك الحيرة والضياع، مهمومًا وحزينًا ويائسًا من أي أمل، فإذا بالزوجة تعود من المدرسة مبكرة في أحد الأيام على غير العادة، وفور أن قابلتها مدت يدها على شنطة يدها وفتحتها، وقالت وهي تخرج مجموعة من مفاتيح الأبواب والغرف المختلفة، خذ هذه المفاتيح التي تعود للبيت الحكومي الشعبي الذي تقرر السماح لنا بالعيش به، وهو من ملاك وزارة التربية التي أعمل معها، وقد توسطت ناظرة المدرسة التي أعمل بها لدى المسئولين من أجلنا ولأسرة زميلة أخرى مثلنا في حاجة ملحة إلى سكن.

في اليوم التالي وبواسطة سيارة بيك آب تعمل مع المدرسة التي تعمل بها الزوجة، قمت بنقل أشياءنا القليلة إلى البيت الجديد، الذي كان مفروشًا من قبل الحكومة، وحيث كان هذا النوع من البيوت يُمنح لأصحاب العقود الخارجية من المعارين للعمل في الدولة، حُلت مشكلة السكن ولكن الحال لم يتغير كثيرًا من الناحية الاعتبارية والمادية في مجتمع لا يؤمن بعمل المرأة، وأن الرجل ما دام لا يعمل وليس هو القائم على البيت فإن هناك خللا في الأصول والصح والخطأ، عوضًا عن أننا لا زلنا نعاني ماديًا والمشكلة لم تحل، وأنا أيضًا لا زلت ضجرًا من الجلوس والانتظار في بلد لا يأتيه الناس للفسحة أو للسياحة، وهو ليس أكثر من ورشة عمل كبيرة، والجميع قد أتوا لكي يحصلوا على النقود والعودة إلى بلادهم، ومن لا يعمل فإن وقتًا يضيع عليه ويتأخر ركبه وتتواضع طموحاته، والآخرون إن ضاقت بهم البلد فإن لهم أوطانًا يعودون إليها متى يشاءوا، وأما نحن فلن نذهب إلى بلد.

مضت الأيام ثِقالاً وعانيتها لحظة بلحظة، وراح اليأس يتسرب إلى نفسي بشكل لم أعهده منذ أن أضحيت طالبًا في الجامعة، خجلت من نفسي، فكل من كانوا في مثل سني كانوا يعملون، وصحيح أن أعمالهم ووظائفهم كانت متواضعة وكذلك رواتبهم أيضًا، لكنهم على الأقل يعملون ويأتون بمصاريف الحياة، ويشعرون بالاستقرار الذي أفتقده أنا كثيرًا، حتى إنني تمنيت أن أعمل بوظيفة إداري أو كاتب مثل الآخرين الذين لا يحملون المؤهلات الجامعية لكي أتمتع مثلهم بالراحة النفسية.



١٨ -٦ العمل في مزرعة الدواجن.

بعض الأصدقاء العرب من الوافدين وكان يكبرني بعشرين عامًا تقريبًا، عرض علي أن أعمل سائق سيارة في إحدى مزارع الدواجن التي أُنشئت حديثًا في إحدى ضواحي منطقة مدينة العين، كان أحد المستثمرين (منير بولس) فيها يعمل مديرًا لشركة (اتحاد المقاولين) (سي سي سي) المعروفة عالميًا، وكان لها فرع في مدينة (العين) يختص بإنشاء الطرق والبنايات الكبيرة.

رافقت صديقي إلى مكتب مدير شركة (اتحاد المقاولين)، وقدمني صديقي إليه بأنني السائق الجديد، وأعطاني مذكرة صغيرة إلى شريكه العربي الوافد أيضًا، ورحت أعمل سائقًا لسيارة جلب كتاكيت الدجاج الصغيرة القادمة من (لبنان) إلى مطار (أبو ظبي)

وإحضارها إلى موقع المزرعة في مدينة (العين)، كان الراتب خجولاً ولكنه كان جيدًا بالنسبة لمن يود العيش.

أحسستُ كثيرًا بالمهانة وأنا أعمل في مزرعة الدواجن، وحيث كنت أيضًا أصحو مبكرًا لكي أرافق المسئول الذي كان يقوم بتوزيع لحوم الدجاج إلى محلات السوبر ماركت في مدينة (أبو ظبي) بالإضافة إلى مدينة (العين)، كنت أحس بالمهانة والإحراج وأنا أعمل في غير تخصصي، وكان الأصعب على النفس من هذا كله اختلاف المزاج والوعي والاهتمامات بيني وبين مجموعة العاملين في تلك المزرعة، الذين كان علي أن أتعامل معهم يوميًا، وحقيقة فقد أحسست بكل أطياف الإهانة والإذلال وأنا أعمل هناك، ولم أتحمل فعملت على ترك ذلك العمل.

١٨-٧ العمل مع شركة (اتحاد المقاولين).

بعد عدة أيام أفقت وتذكرت أن لي باقي حساب عن عملي في مزرعة الدواجن فذهبت إلى مدير شركة (اتحاد المقاولين) الذي ساعدني في العمل في مزرعة الدواجن، دخلت مكتبه وحييته وقلت بحركة مرحة، إن شركتكم (مزرعة الدواجن) مدينة لي براتب أيام العمل المتبقية وصمتُ، رد عليّ قائلاً - وكان كيّسًا ومهذبًا - "أنت تقول بأنك مهندس ميكانيكي، فلماذا لا تعمل عندنا في شركة (اتحاد المقاولين) بمهنتك؟" وربما هو كان يعلم منذ أن التقيته أول مرة حينما أحضرني الصديق الذي توسط لي للعمل كسائق، بأنني أحمل شهادة هندسة، وربما كان قد أخبره أيضًا عن كل قصتي في مدينة (العين) وعن ظروفي كما يعرفها، قلتُ ردًا على سؤاله وتساؤله: "وهل هناك فرصة؟" ما كان منه إلا أن التقط سماعة التليفون وطلب قسم الصيانة في الشركة، وأوصى بحضور مديرها إلى مكتبه في الحال، وفعلاً لم تمض سوى دقائق قليلة، وكنت ما زلتُ واقفًا في مكتبه، إلا

وحضر المهندس البريطاني الجنسية، الذي كان يعمل مديرًا للصيانة، وقال له: "قابل هذا كمهندس، وذلك تمهيدًا لإعطائه مسئوليات المهندس الميكانيكي"، وتم ذلك وبدأت العمل.

كان الرجل البريطاني لطيفًا ولكنه لم يوصِ براتب كبير أو معقول، وربما هذا كفترة اختبار وبعدها أُقيّم على أسس سليمة، إلا أن الرجل كان دمث الخلق، وعيننني مساعدًا له، وكان يوكل ليّ مهمات عمل لا يشاركني بها أحد تقريبًا سوى بعض الفنيين المساعدين.

حينما كنت أعمل مع شركة (اتحاد المقاولين) بمدينة (العين)، أعلمني أحد المعارف ممن كانوا يعملون في نفس الشركة، ولم يكن قد مضى على عملي سوى شهرين وبضعة أيام فقط، أعلمني بأنه قد أصبح يعمل مع شرطة (أبو ظبي)، وأن دائرة الشرطة تُعلن عن حاجتها لتعيين مهندس ميكانيكي لقسم المشاغل والنقليات، وحثني أن أقدم طلبًا للعمل هناك، لم أعط الأمر في البداية اهتمامًا إلا أن الرجل بعد عدة أيام عاد وكرر لي النصيحة بعد أن قابلته بالصدفة مرة ثانية، بعد حوالي شهر من حديثه معي عن هذا الأمر أول مرة، قررت الذهاب إلى مدينة (أبو ظبي) لبحث هذا الموضوع، دون أن أعتمد على أحد، وحتى إنني لم أكن أعرف عنوان المكان أو أين أقدم طلب العمل في جهاز الشرطة، ذهبت بسيارتي القديمة محاولاً الذهاب إلى (أبو ظبي) العاصمة، ولم أكد أن أصل إلى حدود مدينة (العين) ناحية (أبو ظبي)، فإذا بماكينة السيارة تُصدر صوتًا غير عادي وتنخفض سرعتها تدريجيًا على الطريق العام، وتوقفت لاستطلاع الأمر فوجدت من الاستماع إلى صوت الماكينة، ومن واقع خبرتي الفنية، أن ماكينة السيارة قد تلفت وصارت تحتاج إلى عَمْرَة كاملة.

١٨ -٨ العمل مع الإدارة العامة للشرطة.

فشلت الرحلة وعدت أدراجي محاولاً إرجاع السيارة إلى البيت، وذلك بقيادتها بسرعة متدنية حتى لا يتفاقم حجم الضرر حتى أوصلتها، في أوقات الفراغ وبمساعدة أحد الأشخاص قمنا بفك ماكينة السيارة، وعملنا على إصلاحها بقدر الإمكان والإمكانات القليلة، وفعلاً تم أصلاحها، ولكن ليس كما يجب ولكن بحال يمكن استعمالها به، حددت يومًا معينًا ورتبت أموري وذهبت إلى (أبو ظبي)، ومن هناك وبعد السؤال عن عنوان دائرة الشرطة، ذهبتُ إلى قسم السجل بالدائرة وقدمتُ طلبًا للعمل، وتم تحويلي فورًا للمقابلة في القسم المقرر أن أعمل فيه تمهيدًا للفحص العملي، وإعداد تقرير عن رأي المسئولين هناك عن خبراتي وعن مدى الاستفادة مني في العمل.

في قسم المشاغل قابلت رجلاً من أهل المنطقة، كان يقوم بمهام رئيس القسم الذي صادف أن يكون أردني الجنسية وكان يقضي إجازته في بلده، وهو ضمن البعثة الأردنية التي كانت تنشئ وتدير جهاز الشرطة في إمارة (أبو ظبي) في تلك الأيام، وفور أن قدمتُ أوراقي إلى الرجل المواطن رحب بي واستمع إليّ جيدا، أو قل إنه يريدني أن أعمل معه.

اصطحبني إلى أماكن تواجد الوحدات الفنية في المواقع المختلفة في مدينة (أبو ظبي)، وراح يراقب تصرفاتي وأنا أناقش الفنيين من مختلف المهن، وكذلك وأنا أسأل عن نظام الصيانة وحجم العمل، أو وأنا أقدم الاقتراحات والحلول المناسبة للقضايا الفنية التي كانت بين أيدي بعض الفنيين، كان الرجل نائب المدير هذا يوجه لي من طرف خفي بعض الملاحظات والتساؤلات عما إذا تم الموافقة على تعييني للعمل في جهاز الشرطة فهل سأكون وفيًا له وسأساعده شخصيًا أو هكذا فهمت، وكنت أظن بأنه يقصد، هل

سأكون مخلصًا للمصلحة العامة مثلاً، أذكر أنه قال في ذلك اليوم" نحن - ويقصد نفسه شخصيا - نُساعد إخواننا العرب، ولكن لا ندري إن كانوا سيردون لنا الجميل". أكدت له أكثر من مرة في ذلك اليوم، بأن الأيامتر ُ يه كيف أكون مقدرًا وقوفه بجانبي إذا ما تم تعييني في جهاز الشرطة، في نهاية جولتنا عدنا إلى مكتبه أو مكتب المدير الذي كان يجلس فيه، وأمر مدير القلم بأن يكتب إلى وكيل الوزارة برغبته في تعييني بوظيفة مهندس على الملاك العسكري، وقد اشتمل تقريره بعد إجراء المقابلة والفحص لي، على أنني مهندس بدرجة ممتاز، وهو يقصد الإصرار والإسراع في تعييني، وليس من ناحية الكفاءة، وربما كان يقصد أن أبدًا العمل لأكون معه قبل أن يعود المدير من (الأردن)، وتبين بعد ذلك أن هناك لوبي من المواطنين كانوا يتمردون من طرف خفي على إدارة البعثة الأردنية لجهاز الشرطة، وذلك طمعًا في الحصول على المراكز والمسميات الوظيفية التي أوجدتها هذه البعثة خلال عملها لتطوير هيكلية جهاز الشرطة في (الإمارات)، وكان الشباب المواطنون ينجذبون إلى المظاهر في وطن المتعلمون فيه كانوا حتى ذلك التاريخ قلائل، ولا يُوجد من يزن الأمور بميزان دقيق.

تم تعييني في سلك شرطة (أبو ظبي)، وأضحيت مسئولا عن المشغل العام في (أبو ظبي)، وعن الوحدات والفنيين على طول وعرض إمارة (أبو ظبي)، ولكن تحت الإشراف المباشرة لرئيس القسم، ولأنني الرجل الفني المسئول فقد أضحيتُ كل شيء منذ اليوم الأول، وساعد على ذلك أن صديقي المواطن المسئول وثق بي منذ البداية وسهّل لي كل الأمور، ولأن الناس كلهم بشر ولكل واحد منهم عقل، فليس كل متعلم ذكي، وليس كل من أصاب قليلاً من التعليم ليس بذكي، كان نائب المدير الذي ساعد في تعييني في العمل رجلاً ذكيا يعرف هدفه ومصلحته جيدًا، وربما منذ تلك الأيام قد وضع نصب عينيه لكي يخلف مدير القسم الحالي الذي لا زال يقضي الإجازة في مدينة

عمان بـ (الأردن)، ولهذا سمح لي الرجل أن أغير وأن أقرر مـا قـد أراه مناسـبًا في نظـام العمل، يُساعده في ذلك أن لي رغبة وحاجة ماسة لأن أفعل شيئًا في الجهاز الذي عُينـت فيه، وأنني كنت أريد أن أترك أثرًا يُشعر المسئولين الكبار في جهاز الأمن أن هذا الجهـاز يتطور وليس بدائيًا كما كانوا يظنون دائمًا قبل مجيئي.

١٨-٩ مُضايقات العمل.

ما كاد المدير العائد من (الأردن) بعد الإجازة يبدأ العمل، إلا ولمس معظم العاملين معنا من فنيين وإداريين أنه أصبح مذهولاً من كثرة التغييرات الجذرية التي أحـدثتها في نظـام العمل في تلك الفترة القصيرة، كان كلما سأل أحدًا عن أي وضع جديد بدا له في العمل أو عندما يقول، مَن أمر بهذا التغيير؟ كان يُقال له لقد فعل هذا المهندس بموافقـة نائـب المدير، منذ أول يوم عاد للعمل فيه بعـد الإجـازة اشـترى عـدائي، وأضـحى يُضـايقني ويحث العاملين معنا على عدم تنفيذ أوامري، وإذا ما قررت شيئًا عليهم أن يعـودوا إليـه في الموافقة أو الرفض، على أثر هذا بدأت الإشكالات وأزمة الثقة التي ولـدت بيننـا، في هذا الوقت اتضح لي أن الرجل قد أعلن عداءه لي، وهو بصراحة وكما كان ينقل عنه بأنه لا يريدني، ورأيه أن العمل لا يحتاج إلى وجود مهندس في هذا القسم، بقي مـوقفي قويًـا أمام الرجل منذ البداية لسببين، الأول أن المواطن الطامع في وظيفة المدير كـان يُسـاندني بكل ما له من علاقة مع أمراء (آل نهيان)، وقد أمضى حياته وتربى عندهم، وعمل سائقًا معهم إلى أن عُين في دائرة الشرطة بوظيفة شرطي سـائق في البدايـة، والسـبب الثـاني أن كافة الضباط المواطنين يفهمون أن تعيين أي مواطن مسئول يعتـبر مكسـبًا لهـم، وذلـك أيضًا يُتيح لهم الفرصة في الحصول على مكاسب عينية من إمكانات الشرطـة مـن أدوات

وغيره، ولأن ذلك أيضًا كان لا يمكن أن يتم تحت نظام عسكري أردني صارم لا يسمح بالتسيب، وتلك حقيقة.

أضحت العلاقة بيني وبين المدير كلعبة القط والفأر، كنا نعطي العمل قليلاً، ونستغل أغلب ساعات الدوام لكتابة التقارير والشكاوي ضد بعضنا البعض للجهات العليا في جهاز الشرطة، وأضحى الخلاف سافرًا وعلنًا، وأضحى يعرفه من يعمل معنا أو تحت إمرتنا أو العاملون في أجهزة الشرطة المختلفة من المهتمين، وانقسم ولاء مئات العاملون في قسمنا، إما للمدير وإما لي، كان بعض ضباط البعثة الأردنية يساندون علنًا مدير القسم، وكان كل ضباط الشرطة المواطنين يساندون موقفي، وكان الفضل يعود إلى نائب المدير الذي عبّد كل الطرق، وكان متفرغًا وبلا مسئولية رسمية في العمل، وكان بإمكان المدير أن يُحيل إليه بعض الأعمال ويشغله بدل أن يشغله بنفسه وبمنافسته، ولكن المدير لم يحسن التصرف فلم يكن ذا تعليم عالي وإن كان ذا رتبة عسكرية عالية وإن كان معتدًا بنفسه كثيرًا أيضًا، ومثل هذا النوع من الناس أخطاؤهم لا تغتفر، هذا، وكنت قد استفدت كثيرًا من تجربتي في العمل بمدينة (العين) وحكاية الشيخ وجلوسي على الكرسي بجانبه وقد ظلت ماثلة أمامي، وكنت عازمًا ألا أفرط بالعمل هذه المرة فصرت آخذ الأمور وكانها لعبة أو مباراة رياضية بيني وبين المدير، الأمهر هو الذي سيفوز في النهاية، وصرتُ أعزي نفسي قائلاً لها: "كيف تسمح وترضى بأن يتفوق عليك من هو أقل تعليمًا منك؟" منذ ذلك الحين أضحيت والزميل المواطن ثنائي، التقت مصالحنا في العمل وتطابقت أهدافنا، هو يريد أن يكون مديرًا، وأنا أريد مديرًا مريحًا، هكذا ببساطة.
لقد ساهم الزميل المواطن كثيرًا في ازدياد تمسك المواطنين بي، وقد ساعدني أيضًا في العمل الوضع السياسي القومي أيضًا في الشرق الأوسط، وحيث إن قضية (فلسطين) هي قضية العرب الأولى بلا منازع لدى كل الشعوب العربية خصوصًا عند البسطاء،

وحيث إن العرب جميعًا حكاما ومحكومين يعترفون بحجم الظلم الذي وقع على الفلسطينيين، كل ذلك ومع أنني ابتدأت العمل في شرطة (أبو ظبي) بعقد محلي ولم أنضم إلى الشرطة من خلال البعثة الأردنية مثلاً، جعل المواطنين ينظرون إليّ على أنني لا أمثل خطرًا على أحد منهم، ولن أنافسهم على وظيفة قد يطمعون فيها، فأنا لا أمثل خطرًا مُنظمًا، أو أستند إلى جهة اعتبارية ذات سلطة وصلاحيات كالبعثة الأردنية مثلاً، هذا عوضًا عن أنني فلسطيني بلا وطن وبلا جواز سفر، وأحمل مأساة إنسانية لم آت إليهم إلا بسبب حاجتي وحاجة أسرتي.

كانت القضية الفلسطينية هي رمز الرفض العربي للضعف، وكان أنينها شعارات الكرامة والكبرياء التي كان الزعماء أو الحكومات العربية يكررونها أمام الشعوب، كانت القضية الفلسطينية وسيلة السلطة في أغلب الأحيان لتخوين الزعماء الآخرين، وكانت أوسمة الوطنية للذين يتغنون بها من الحكام، وكانت أداة التبرير والستار الذي يتخذه الحكام لإرهاب شعوبهم، خصوصًا المعارضة السياسية، لقد غذى تعصب بعض الضباط المواطنين لي أيضًا خصوصًا الضباط الشباب ممن كانوا في مثل سني، والذين حصل بعضهم على دورات دراسية في (مصر) و(الأردن)، وأصبح لهم دراية أكثر بشعارات المد القومي العربي الذي كان يجسده نظام (جمال عبد الناصر) في (مصر)، وما طرحه من شعارات رنانة وملتهبة من أجل الوحدة العربية و(فلسطين)، هذا وإن حربًا أهلية في عام ١٩٧٠م، كانت تدور رحاها في (الأردن) بين فصائل المقاومة الفلسطينية وبين الجيش الأردني، وذلك من أجل السيطرة على الشارع الأردني الذي يمثل الفلسطينيون فيه سبعين بالمائة من عدد السكان، وهي السنة التي عُينت فيها في جهاز الشرطة وصادفت اختلاف المدير معي.

كانت حكاياتي مع المدير والمدراء أطول من ذلك بكثير، لكن الأمر حُسم في النهاية وأُنهيت خدمات المدير وسافر إلى بلده إلى غير رجعه، بعد ذلك وكان لا يزال للبعثة الأردنية نفوذ في جهاز الشرطة، فقد عُمل على تعيين مدير أردني من أفراد البعثة اسمه (عادل العرموطي)، وللأمانة كان هذا دمث الأخلاق ومتوازن وذكي وشهم ولا يملك المرء إلا أن يحترمه، أقول هذا عنه الآن رغم أنه كان حذرًا مني وكان متوجسًا.

بعد المدير الأخير جيء بأحد المواطنين من أصل عماني كان يحمل شهادة دبلوم زراعة حصل عليها من السعودية، كان هذا المدير - لا أدري لماذا - لا يرتاح للعرب الأجانب، لأن أصله غير معروف إن كان من أصول عربية أم لا، ولهذا كانت تصرفاته ينطبق عليها شعار، الغاية تبرر الوسيلة، كنتَ تراه ناعمًا ومطيعًا كالأطفال عند حاجته، وشرسًا فظًا متعاليًا حينما لا تكون له حاجة عندك، أسلوبه في العمل لم يرحني وتجنبت الصدام معه بقدر المستطاع، ليس لأنه صاحب حجة وكفاءة إنما الصدام مع المواطنين معناه خسارة مُحققة لا يفوز فيه أي أجنبي مهما كان.

في العرف المحلي هناك، المواطن في حالة أي خلاف أو طمع أو فجور، هو على حق، إما لأنه في نظر أولي الأمر بسيط وأن الأجنبي خَدَعه، وإما أنه قوي ويستطيع أن يأخذ ما يريد بسلطته وأصدقائه والقانون الذي لا يُطبق إلا لصالحه.

لهذا كنت اشتري الوقت، وفي إحدى السنوات صرت أرتب أموري واستعد للاستقالة والخروج بشرف من وجه هذا المدير الذي قد يلفق لي تهمة ما لو أراد، لكن القدر لم يمهله كثيرًا ويبدو أن آخرين لهم مصلحة أيضًا في إزاحته من العمل من قسمنا، وفي النهاية جيء بالرجل الطيب واسع الصدر، الذي قابلته أول مرة في جهاز الشرطة الذي ظل طيلة المدة منذ تعييني في العمل يعمل بمركز نائب للمدير بدون أية مسئولية.

كان صيف ١٩٧٥م ساخنًا وحارًا، وكان مستقبلي على مفترق الطرق، وكنت قلقًا إلى حد ما، ولا أدري ماذا سيحدث، وبينما كنت هكذا وقد حان موعد عودتي إلى العمل بعد إجازة متواصلة مدتها ثلاثة شهور، ولم يبق سوى أسبوع واحد فقط،، حدث وأن قابلتُ نائب المدير وأخبرته بأنني لن أجعل اليوم الأول يمر على بداية عملي بعد الإجازة إلا وسأقدم استقالتي من الخدمة، وسأطلب تنفيذ ذلك في أقرب فرصة ممكنة حتى لا أجهد نفسي بمتابعة أي عمل وحتى لا أصبح مسئولاً ولو من الناحية الأدبية فقط عن أي تخاذل أو قصور، والأهم حتى لا أُجبر على الصدام مع المدير الحالي، وحتى لا أدخل معركة خاسرة لا يفوز فيها سوى المواطن/المدير.

ما كاد أن يسمع نائب المدير وجهة نظري وإصراري على ما أقول إلا وانزعج وقال: "قلتُ لك تمهل". وأكد لي أن الأمر يكاد أن يكون مقضيًا، وأن كتاب نقل المدير الحالي من القسم الذي نعمل فيه أضحى مؤكدًا، وهو على طاولة مكتب الوزير في انتظار التوقيع ليس أكثر، وقال لي: "انتظر وسترى".

وفعلا ما كاد يمضي على لقائنا الأخير يومان وبعض اليوم إلا وصدر كتاب نقل المدير اعتبارًا من يوم بداية مباشرتي للعمل، وقد جاءني نائب المدير إلى البيت وأراني صورة عن ذلك الكتاب، وفي أول يوم عدت فيه إلى العمل بعد الإجازة، وكنتُ أداوم في مكان غير مكان دوام المدير، ولكن في موقع أيضًا داخل مدينة (أبو ظبي)، ما كدت أن أصل إلى موقع عملي المعتاد كما كان قبل الإجازة، فإذا بي أجد خبرًا لدى الكاتب، مفاده بأن عليّ أن أذهب إلى الإدارة الرئيسية لعملنا للأهمية القصوى، ما كدت أن أصل إلى مكتب المدير، فإذا بي أجد أن كافة المسئولين عندنا في مكتبه الواسع، والكل في ترقب وتحسب وصمت، وكان المدير جالسًا على مكتبه يوقع بعض المعاملات الروتينية المستعجلة، والصمت مطبق على الآخرين، دخلت المكتب وطرحتُ تحية الصباح على الجميع،

وسلمتُ على المدير وعلى الذين كانوا هناك من رؤساء الفروع، لم يقل المدير شيئًا، وما عدا الساعي الذي كان يقدم الشاي والقهوة للموجودين بقي الجميع في صمت وترقب، بعد حوالي الربع ساعة من بدء الدوام الرسمي، وصل نائب المدير سابقًا وقد صدر مرسوم من مدير الشرطة بأن يُصبح هو مديرًا خلفًا لمن تقرر نقله إلى وحدة أخرى، ابتدأت مراسم النقل عمليًا بين المدير القديم والجديد.

١٨-١٠ الاستقرار في العمل.

بعد تلك الدقائق الفاصلة بين عهدين في تلك الفترة، انفض الاجتماع وذهب كل إلى عمله وكان أغلب من حضروا يعملون في المشغل الرئيسي، وخرج المدير المنقول وذهب إلى غير رجعه، بقيت مع المدير الجديد في مكتبه قليلاً، وقد لا حظ علي وكنت أتململ وأهم بالمغادرة إلى مكان عملي، وكان قد سمعني بينما كنت أجيب بعض صف الضباط من العاملين معنا، بأنني سأذهب إلى مكتبي بعد قليل، ويمكنه أن يقابلني هناك، انتبه المدير الجديد، وقال مستغربًا ولائمًا ومازحًا: "أتقول بأنك ستذهب إلى مكتبك، وأين هذا المكتب الذي تتحدث عنه، اسمع يا باشمهندس نحن نريد من يعملون وليس من يجلسون في المكاتب، وعمل المهندسين في مواقع العمل وليس بالجلوس أمام المكيفات وتناول المشروبات الساخنة والمرطبات". وفي الحقيقة كان يذكرني بنكتة كنا نتداولها في السنة الأولى من بداية عملي بالشرطة سنة ١٩٧٠م، بعد ذلك ضغط على أحد أزرار الهواتف الداخلية، واستدعى مدير القلم وقال له، بأن يعد أمرًا إداريًا بتعييني ضابطًا عامًا للمشغل الرئيسي اعتبارًا من اليوم، وأن تكون أول مهمة أقوم بها هي إجراء التنقلات المناسبة بين الفنيين في كافة الفروع التابعة في إمارة (أبو ظبي)، وذلك حسب ما

تقتضيه المصلحة العامة وكما لزم، وقال موجهًا كلامه مباشرة لي: "تستطيع الآن أن تقوم بعملك يا مهندس".

لم يمض وقت طويل وربما عشرة أيام، فإذا بالمدير الجديد يصنع المستحيل ويفاجئني، أيضًا بإحضار قرار وزاري بترقيتي إلى رتبة عسكرية أعلى، وهكذا أصبحتُ الرجل الأول وصاحب القرار بلا منازع في ذلك القسم من أجهزة الشرطة، وأصبحتُ مسئولاً عن العمل في المشغل الرئيسي، وفي الأقسام الأخرى بما فيه الأعمال المماثلة الموجودة في المدن كمدينة (العين) والقرى ومراكز الحدود وكذلك الجزر في الخليج العربي.

منذ تلك الأيام اتخذت العمل كمقاول أو كملكية خاصة من حيث التفاني وحرصي على إنجاحه، وفعلاً بدأ ذلك يثمر منذ اللحظة الأولى، ولم يمض أقل من عام إلا وقد أصبح هذا العمل من أرقى الأجهزة المماثلة في منطقة الخليج العربي مقارنة بالأجهزة المماثلة في دول الجوار، وخصوصًا في الإمارات الأخرى، ولا أبالغ إن قلت بأن الجهاز الذي عملت فيه كان أفضل الأقسام المماثلة في الدول المحيطة، وقد ساعدني على القيام بهذا اعتباران:
الأول الصلاحيات والثقة التي منحها لي المدير الجديد، وإطلاق يدي في كل زاوية وناحية لها علاقة من بعيد أو قريب بعملنا حتى ولو كانت بعيدة عن تخصصي، مما أعطاني الفرصة بأن أضع السلم الهرمي الوظيفي أو الهيكل التنظيمي لكل ما هو تابع لنا.

الاعتبار الثاني هو الإمكانات المادية المصرح بها في أي وقت خصوصًا لأجهزة الدفاع وأجهزة الأمن في الدولة، وقد كانت هذه لا تتقيد بالموازنة السنوية كالوزارات والدوائر المدنية الأخرى، ولذلك كنت أستغل ذلك وكنت أطلب بين الحين والآخر العدد والأجهزة والمعدات المتطورة والمواد الخام التي ترفع من مستوى العمل، وتعوّد الفنيين

على الدقة والنظافة، وعلى استعمال الوقت بطريقة منظمة، ساعد أيضًا أننا بعد أقل من عام واحد استلمنا مشروعًا كاملاً بمخططات حديثة لقسم المشاغل والنقليات، مما جعل هذا القسم من أفضل أقسام شرطة (أبو ظبي)، حتى إن وزارة الداخلية الاتحادية اتخذتنا نموذجًا ليقتدي به، وجعلتني مرجعًا لمقابلة وتعيين المهندسين الذين كانت تُعينهم، كما إن وزارة الداخلية الاتحادية قد اختارتني لكي أكون العضو الفني الدائم للعمل على توحيد الأجهزة المماثلة في (الإمارات) مع اللجنة المختصة.

خلال عملي رُقيت أكثر من مرة، وحصلت على زيادات في الراتب وعلى علاوات، وعُينت بأكثر من مسمى وظيفي على مر السنوات، وآخر وظيفة قمت بها كانت تعييني مديرًا للصيانة بما في ذلك وحدة مولدات الطاقة التي كانت تتبعني مباشرة، والتي كانت من أكبر الأعمال التي أنجزتها، وإذا كان العمل في قسم المشاغل هو مسئولية الجميع ويعود الفضل للجميع في حال نجاحه، فإن نجاح أو فشل محطات الكهرباء الموجودة في مراكز الشرطة وفي الجزر المختلفة وعلى الحدود هي لي شخصيًا.
كنت لا أود أو أتخيل أن يُستغنى عني من العمل، فلو حدث فأين المفر وقد أضحي لدي أسرة وأطفال، والوطن لا زال يرزح تحت الاحتلال، ووالداي والإخوة الصغار ما زالوا يعتمدون عليّ في معاشهم، وأخي الذي يصغرني مباشرة لا زال في حاجة إلى مساعدتي لإكمال دراسته الجامعية في مصر، والإخوة الكبار يعيشون مع أُسَرِهم في فقر أو تحت مستواه، وكان عليّ أن أحارب على أكثر من جبهة، وكنت أسيرًا لمسئوليتي الأُسرية التي نصّبت نفسي لها، وكنت أفكر بعقلية الأسرة الكبيرة ونجاحها أكثر مما أفكر في مستقبل أسرتي الصغيرة، وكنت حينما أخلو بنفسي كم أتألم وأتحسر من الخوف أن تمضي السنين ولا أستطيع أن أفعل شيئًا بجهدي وطاقتي من أجل (فلسطين) غير اقتطاع نسبة ٥ % من الراتب التي كانت تذهب لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وهكذا، مضتْ السنوات وكان فيها الحلو وكان فيها المر، وقد شبعنا الخبز وتمتعنا في حدود، ولكن بحذر وترقب وعدم استقرار، كنت أحمل وثيقة سفر فلسطينية صادرة من (مصر)، ولم يكن مصرحًا لي بموجبها بالعودة إلى (مصر) إلا إذا حصلتُ مسبقًا على فيزا، أما الدول الأخرى فلم تُكن تصرح لأمثالي بالتنقل فيها إلا في حدود ضيقة جدًا، وعلى فترات، وحسب نوع الحكم الذي يقبض على السلطة في فترة ما.

وبقي الفلسطيني مهما وصل من مركز في العمل، ظل في نظر ابن البلد، غازيًا وأقل في كل شيء، أقل احترامًا وأقل راتبًا بالقياس إلى نظيره ممن كانوا يسمون مواطنون هناك، كان الفلسطيني لا يُعطى الاستقرار أو الصلاحيات، وكان لا يُترك لكي يستقر أو يرتاح، كنت مثلاً محسودا على تمكني من العمل بمهنة ضابط في شرطة (أبو ظبي)، وحصولي على الراتب المغري نسبيًا والسكن المجاني المفروش، وتحصني خلف متراس البذلة العسكرية التي كنت ألبسها، ومع كل ذلك قال لي أحد الضباط الزملاء يومًا، كل واحد منكم أيها الفلسطينيون جاء إلينا إما لأنه حرامي ويود أن يسرقنا وإما لأنه جوعان ويود أن نرمي له لقمة ليعتاش، ولذلك عليكم ألا ترفعوا رؤوسكم أبدًا أمام المواطنين هكذا. وبالرغم أنني قد أصبحت مديرًا للصيانة في قسم المشاغل والنقليات التابع لشرطة (أبو ظبي)، وبالرغم من صلاحياتي الكبيرة وحجم الاعتماد عليّ، وحجم ما بنيته في ذلك البلد وما أعطيته من ربيع العمر كما فعل الكثيرون من العرب الوافدين، فقد كانت هناك أمور واعتبارات أمنية لا يُباح لي عنها من قبل سلطة العمل لأني فلسطيني وليس أكثر، وفي أغلب الأحيان كان يُستدعى من قسمنا أو يُكلف من هم أقل رتبة وأقل مسئولية وعدم مقدرة وأقل خبرة من الإخوة المواطنين لحضور الاجتماعات الأمنية الهامة التي لها علاقة بالعمل الذي كنت أشرف عليه.

في إحدى المرات وبينما كنت أقوم بتدريب مجموعة من سائقي الشرطة عمليًا على قيادة مصفحات مكافحة الشغب التابعة للشرطة، قلت لأحد من كنت أقوم بتدريبهم حاثا إياه بلا قصد: "انتبه، وخذ بالك، واستوعب التدريب جيدًا وبسرعة"، وأضفت مازحًا ومداعبًا له، بأنه إذا لم يفعل فسأرسل إليه زميله الذي كان يضايقه في المزاح أحيانًا في أوقات الراحة، ما كدت أذكر له اسم صديقه هذا، إلا واعتدل الشرطي وهو لا يزال على ظهر المصفحة، وقال بصوت عالي موجها كلامه لي: "اسمع يا مهندس، صديقي هذا هو من (الإمارات) وهو من بلدي، وأنا أتشرف بأن يكون مسئولاً عليّ، أما أنت، فأنت فلسطيني ولا يُشرفني أن تكون مسئولاً عليّ ولكنها الظروف". ما كدت أسمع هذا الرد إلا وأسقط بيدي، لأنني لم أتوقعه أبدًا من شرطي يعمل تحت إمرتي، وشعرتُ بأنني في موقف حرج، وخلال تلك اللحظات مر شريط طويل في ذاكرتي، وقد أكون قد استعرضت فيه كل ما مر في حياتي، وبالأخص الحاجة إلى العمل، ولعنها الله من حاجة، لكنني أحرجت وبلعت الموقف، لكنه ترك أثرًا مرًا في حلقي، وفي داخلي، ولكن... أين المفر.

في إحدى السنوات تقرر أن تُعقد أول قمة لملوك ورؤساء دول مجلس التعاون الخليجي في عاصمة دولة (الإمارات) (أبو ظبي)، وبدأت الاستعدادات على قدم وساق، وكان للشرطة دور كبير وخاصة الجهاز الذي كنت أعمل فيه، كان علينا أن نصنع كافة الحواجز والبوابات المعدنية التي تؤدي إلى وخارج مجمع مباني فندق (إنتركنتنتال أبو ظبي) الذي كان سُيعقد فيه المؤتمر، وكان علينا أيضًا أن نقدم مولدات الكهرباء المحمولة على عجلات لتوفير الإضاءة في المنطقة المحيطة بالفندق المشار إليه لدواعي الأمن، وكان علينا أن نُبقي وحدات خاصة من الفنيين على مدار الساعة، لتظل متفرغة لما قد تحتاجه الشرطة خلال أيام المؤتمر، وكان عليّ شخصيا أن أعد وأجهز وأدير وحدة آليات الأمن

وآليات مكافحة الشغب لأن حتى ذلك الوقت كان لا يوجد من يقوم بتلك المهمة غيري، هذا، وقد وُضِع معظم ضباط الأمن في حالة استنفار، وكان ذلك أيضًا على مدار الساعة بما فيه قيامهم خلال ذلك بأعمالهم العادية اليومية، بل أضحى الجميع ينامون ويصبحون ويعملون ويظلون في أماكن أعمالهم وهذا كله قبل انعقاد المؤتمر.

يوم بدء المؤتمر طُلب مني رسميًا، أن أبقى في بيتي لا لكي أرتاح من عناء الأيام الماضية، ولكن لإبعادي عن الأنظار، ولإبعادي في الحقيقة عن الاقتراب من الملوك والرؤساء والأمراء المشاركين في المؤتمر حفاظًا على سلامتهم، أو هكذا فهمت، وكان عليّ أن أبذل قصارى جهدي، وذلك بعمل الاستعدادات اللازمة والعمل على إتمامها كما يجب، وكان عليّ أن أمكث خلال أيام المؤتمر مع أسرتي وألا أغادر شقة سكني، وأن أظل بجانب جهاز اللاسلكي الذي أُعطي لي خصيصا لتلك المهمة، وكان عليّ أن أنتظر ما قد يُطلب مني، وهكذا ما كان، وبينما أنا في البيت خلال المؤتمر تم الاتصال بي أكثر من مرة لاسلكيا وعبر الهاتف، وذلك للاسترشاد عن أمور لا يستطيع القيام بها أحد غيري، وفي نهاية المؤتمر وزعت الميداليات على الضباط الذين اشتركوا ظاهريًا في واجبات الشرطة، ولم أحصل على شيء، وعَرَض علي مدير القسم ميداليته التي حصل عليها كتقدير منه واعتراف بما قدمته من جهد، وقال مجاملاً: "هكذا هم العرب يا أخ أبو رائد... إن بعض الجهلاء في قيادة جهاز الشرطة يظنون بأن كل فلسطيني يُعتبر خطر على الأمن ولهذا أبعدتك اللجنة". رفضتُ أخذ تلك الميدالية منه لأنها من حقه هو، لأن القضية في نظري أكبر بكثير من مغزى الحصول على ميدالية، واكتفيت بأخذ ساعة اليد التي وزع منها الكثير، وكانت في نظري مكسبًا ماديًا وليس وسام تقدير.



١٨-١١ الإقليمية.

في إحدى السنوات راح يتقرب مني أحد كبار ضباط الشرطة، وكان من الـذين يعملـون في الإدارة العامة للشرطة، وكان يشغل مركزًا حساسًـا وفعـالاً في جهـاز الأمـن، كنـت أعرف أن من كان يتقرب مني بتلك السرعة من الضباط المواطنين، لا بـد أن يكـون لـه هدف من وراء تقربه، دعاني هذا الضابط في إحدى المرات مع رجـل عـربي كـان يعمـل بوظيفة أمين مخزن في مستودعات الأثاث التابعة للشرطة، وقال لي: "إن له مزرعة تقع في إمارة الشارقة التي تبعد مسافة مائتي كيلو متر من مدينة (أبو ظبي)، وإنه يحتـاجني كـي أساعده أخويًا في عمل الدراسة اللازمة لأجل حساب الكهرباء اللازمة لتشـغيل وإنـارة الفيلا التي بناها هناك". وفعـلاً في أحـد أيـام الخمـيس، وبعـد انتهـاء سـاعات العمـل الرسمي، ذهبنا بسيارة هذا الضابط إلى مزرعته، ولم يأخذ الأمر كثيرًا مـن الوقـت لكـي

أحدد قوة مولد الإنارة الذي يلزم هناك، بعد عدة أيام وبشكل رسمي وبواسطة الهاتف طلبني المدير العام للشرطة، وقال إنه لا يمانع في مساعدة ذلك الضابط بإعطائه أحد مولدات الكهرباء إن توفر طلبه عندنا، وفعلاً ساعدته بحجم ما كان شائعًا من تسيب في مقدرات الدولة للمواطنين المتنفذين، وعادة ما تكون المهمة سهلة على أمثالي في التسهاهل خصوصًا حينما يكون الأمر صادرًا من أعلى سلطة حيث يصبح العطاء والأخذ علنًا بلا خجل أو وجل.

ذهبت مع الرجل إلى مزرعته بعد المرة الأولى مرتين، الثانية كانت للتأكد من تركيب المولد حسب الأصول وقد كان مجموعة الفنيين من عندنا قد قاموا بهذه المهمة، والمرة الثالثة بسبب الحاجة وربما كان يستثمر في العلاقة للمستقبل، بالنسبة لي لم أكن من مدرسة ذلك الرجل، ولكنه كان في حوالي مثل سني وكان يُجيد القراءة والكتابة، إلا أننا كنا نختلف بحجم أنني فلسطيني وهو من (الإمارات)، وكنت سأحاول في أقرب فرصة الاعتذار عن مصاحبته إلى المزرعة، خصوصًا وأننا أحيانًا كنا نقضي الليل هناك ونعود في اليوم التالي، وكان هو كما عرفت بعد الاقتراب منه كأغلب أمثاله يعربدون في الفساد بكل أنواعه وخصوصًا شرب الكحوليات، وكنت مثل غالبية أمثالي الذين يسعون من أجل العيش الكريم والستر، ولا بد لي من الصبر ومن التحمل.

في المرة الثالثة التي كنا فيها في مزرعة ذلك الضابط وكان معنا أيضًا الرجل العربي الذي كان يستغله أيضًا للحصول على بعض الأثاث من مخازن الشرطة، وبينما كانت الساعة تقارب منتصف الليل، وكنا نجلس خارج الفيلا ونقوم بشي لحم الخروف على النار الطبيعية في الهواء الطلق، وكان أمامنا مختلف أنواع الطعام والخضار والفواكه التي تنتج في المزرعة، وكنا نتسامر ونتجاذب الحديث في أكثر من أمر، وكان أخونا الضابط يعب

الكأس تلو الآخر من الويسكي الاسكتلندي، وكنا لا نقل متعة عنه في ذلك الجو الشاعري الرطب، ولم أشاركه الشرب في تلك الليلة لا لسبب إلا حياءً بسبب وجود الموظف اللبناني الذي كان يعمل أيضًا في جهاز الشرطة وكنت لا أود غدا أن يتحدث هذا الشاب عني أمام موظفينا، كان الحديث بيننا يمر من هنا وهناك على وتيرة واحدة، أو كمن يتقاذفون كرة بينهم ببطء ودقة وحنان، وفجأة قال أخونا الضابط/المواطن، وكان يعمل مديرًا للشئون الإدارية بالإدارة العامة للشرطة في ذلك الوقت، قال مرة واحدة موجهًا كلامه لاثنينا: "أتدرون بأن الفلسطينيين أوباش وأنهم حقيرون وخصوصًا اللاجئين منهم".

فور أن سمعت كلمة اللاجئين ربطتها بشخصي، وأحسست بوقع ما قاله وكأنه نزل عليّ كالصاعقة فانتبهتُ وصحوتُ، وكأنني كنت في حلم أو خيال وقد صحوت على حقيقة، وتبين لي منذ الوهلة الأولى بأن الخمر قد فعلت فعلها مع ذلك الوغد، ولكنني سرعان ما استبعدت ذلك لأنه لم يتناول منها كثيرًا في تلك الليلة لعدم مشاركة أحدنا له، وقلتُ له متسائلا: "لماذا تقول هذا عن اللاجئين الفلسطينيين؟" قلت ذلك كمن كان يتمنى عليه أن يُعيد صياغة كلماته لتكون ألطف مما وصل إلى آذاننا، أو لنطرد الإحراج الذي راح يخيم على تلك السهرة اللعينة، رد علي وقال: "تخيل أن لك بيتًا وأنت في بلدك، وقام شخص بالاستيلاء عليه وراح يحرمك من خيراته أو يشاركك بها". وأضاف: "هكذا فعل الفلسطينيون في لبنان، وإذا كانوا يودون بلادهم فمدنهم وقراهم في (فلسطين) وليس في لبنان"، وأضاف سائلاً ومتسائلاً: "أليس كذلك؟" قلت له: "أظن بأن الأمور لا تؤخذ هكذا، وليس بالصورة التي تتحدث أنت بها الآن، هناك الكثير من الأمور كان لا بد من الوقوف عندها يا أخي العزيز". رأيته وربما قد شعر بفارق الثقافة والوعي بيننا وأردف قائلا: "لا يا أخي، الفلسطينيون سفلة وفاجرون".

ما كدت أسمع ما قال إلا وقلت له: "أنت إنسان لا تلم كثيرًا بالقضية الفلسطينية، ولذلك أنت تقول ما قلت، ولكن ثق، ما دام يوجد بيننا عرب من أمثالك فثق بأن العروبة و(فلسطين) ستظل في خسارة".

ولم أستطع أن أقول علنًا لذلك الرجل أكثر من هذا، لكنني أكملت في داخلي ولعنتُ حظي، ولعنتُ نفسي وظروفي وحياتي كلها، قال رادًا عليّ والشاب الرجل العربي لم ينبس ببنت شفة، لكن من نظراته التائهة أحسست بأنه غير راضي عما قاله الضابط، وأكمل أخونا موجها كلامه لي: "كيف تظن أنك تعيش في (الإمارات) على كيفك؟" وكان يقصد هل أنا حر في إقامتي وأسرتي بـ (الإمارات)، وأكمل: "أنت يا حضرة المهندس يمكن أن تُسفّر خلال يوم واحد من الدولة". وقال مؤكدًا على قوله: "أتعلم ذلك؟" على أثر هذا الضغط النفسي العنيف بدأت أشعر بحرج أكثر، واهتزت أعصابي وراحت تتوهج، وقلت لاهثًا عساي أن أتجنب هذا المأزق المحرج، وأخرج ببعض ماء الوجه، وأتفادى الصدام مع هذا الجاهل الحقير المغرور الحاقد، قلت: "أنا في (الإمارات) لأنني عربي، و(الإمارات) بلد عربي وهي تحتاجني كي أشارك في بنائها كما أحتاج أنا وأسرتي أيضًا العيش فيها". قال: "لا أبدًا، وأنت في يدنا". وهو يعني نفسه أي إنه قادر على أي شيء بما في ذلك تسفيري من (الإمارات)، وقال أيضًا: "ونستطيع متى شئنا أن نطردك من هذا البلد". نظرت إليه بكل احتقار واشمئزاز وغضب وقلت: "اسمع يا أخ، أنت لا تستطيع شيئًا مما قلته، وإني أتحداك أن تفعل ذلك". بمعنى أن انتقامي بكيفية أو بأخرى سيكون شديدًا لو حدث لي ما قال. ثم أكملت قائلاً: "إنك لست مقياسًا للإنسان الإماراتي العربي الطيب، وربما أنت أسوا الناس في (الإمارات)، وسكتُ وسكتَ هو أيضًا".

مر صمت قصير وكأنه دهر، وكنا قد توقفنا ثلاثتنا عن تناول الطعام، ومضت ربما عدة دقائق ونحن في صمت، ولكنني لم أكن صامتًا بمعنى نسيان ما حدث، فقد كنت مُحرَجًا وسجينا لتلك اللحظات، وكان بوسعي لو كانت سيارتي معي أن أترك المكان وأعود إلى (أبو ظبي) في الحال، ولكن الحظ السيئ أبى إلا أن أكون هكذا، أضف إلى ذلك أن المكان الذي كنا فيه لا يقع على طرق رئيسية عسى أن يكون هناك أي نوع من المواصلات، كان في منطقة (الذيد) بإمارة (الشارقة) والمزارع لأصحاب الكروش الكبيرة توًا أنشئت، وحتى ذلك الوقت كانت قليلة، مرت اللحظات والدقائق وكنت وأنا لا أدري قد أشحت بوجهي عن الطاولة التي كنا نجلس حولها حتى لا ترى وجهه عيناي، ورحت أنظر عشوائيًا دون أن أركز نظري على شيء، ودون أن أعي شيئًا مما حولي، وغطاني حرج وخجل وحزن على نفسي، وكنت في موقف نفسي داخلي لا أُحمد عليه أبدًا، يبدو أن الضابط المواطن قد أحس بحرجي وبما أنا فيه من حال، وربما أراد أن يشملني بعطف إنساني، ولكن هيهات فأنا أميز جيدًا بين العطف والاحترام، واخترتُ منذ زمن طويل، وفضلتُ أن يحترمني الآخرون لا أن يعطفوا عليّ، ولذلك لم يغير كثيرًا من نفسيتي ومن حالي حينما راح الرجل يقول: "أتركنا من هذا يا باشمهندس، ودعنا من السياسة ومن الحديث عنها، - كأنه كان يتحدث سياسة - وهيا بنا نستأنف الطعام". وألح في ذلك، بالنسبة لي ما كُسر قد كُسر، وما أُعطب قد أعطب، ويستحيل أصلاحه أبدًا، ولم أكمل الطعام لأنني أصررتُ على القول، بأنني قد شبعتُ قبل هذا، وانفضتْ السهرة على تلك الكيفية، نمتُ تلك الليلة هناك، وفي اليوم التالي ألححتُ بالعودة مبكرين على غير العادة إلى (أبو ظبي)، وهكذا ما كان.

مع مرور الأيام، القسم الذي كنت أعمل فيه كان يتوسع والمسئولية تزداد، وأصبحت أشارك في أكثر من مهمة ومن عمل تابع للشرطة، لقد كنت المسئول عن استلام المشاريع الفنية التي تنفذها شركات المقاولات العامة، وكنت أشترك في لجان الشرطة لاستلام أو معاينة قوارب خفر السواحل التي تقوم بشرائها وزارة الداخلية، وكنت أرأس أو أشارك في أعمال اللجان المختلفة لاستلام المعدات والآليات والأدوات العسكرية، هذا، عدا لجان فحص واستلام الآليات الجديدة والمستعملة وحسب ما كان يتوجب من مهام في حدود مسئوليات قسم المشاغل والنقليات، كنت أيضًا العضو الفني في مناقشة ميزانية الإدارة العامة للشرطة في (أبو ظبي)، وكان هذا من واجبات مدراء الأقسام فقط، إلا أن كبار المسئولين في اللجنة العليا لشرطة (أبو ظبي) رأوا منذ مدة أن أحضر مع رئيس القسم تحت مبرر أن الرئيس ليس فنيًا وهذا لا يعيبه، ومثل تلك الأعمال تحتاج إلى مهندس مختص.

في أحد الأيام دُعيت لحضور اجتماع اللجنة العليا لتنظيم الشرطة، وكان لأجل مناقشة الميزانية السنوية للمديريات والأقسام، ومن ضمنها قسم المشاغل والنقليات الذي كنت أعمل فيه، كان أعضاء تلك اللجنة هم كبار ضباط الشرطة من مدراء الإدارات، وكان يرأس هذه اللجنة المدير العام للشرطة في (أبو ظبي)، كان المدير العام للشرطة ذا شخصية مميزة يختلف بها عن غيره، وكان ذا شخصية عدوانية ويخافه كل الضباط تقريبًا، وكانت علاقتي به لا بأس بها إلى أن كان ما كان.



١٨-١٢ العنصرية.

في أحد الاجتماعات لإقرار الموازنة، وبناء على دعوتي لحضور الاجتماع لمناقشة ما يخص القسم الذي كنت أعمل فيه، بدأ الاجتماع كالعادة إلى أن وصل إلى بند الأجهزة والمعدات التي كنتُ قد طلبتها مسبقًا، أذكر أن المدير العام يومها قال موجها كلامه لي: "هل هذا حسنا؟" وكان يحمل بيده صورة عن الكتالوج المقدم من إحدى الشركات، وكان يجلس بعيدًا عني بمسافة لا تقل عن أربعة أمتار، وكنت حقيقة لا أستطيع تمييز ما كان يشير إليه بسبب المسافة التي تفصلنا، وبسبب الضوء الخافت نسبيًا في تلك القاعة، وأنهى كلامه منتظرًا الرد مني، قلت بوقار وهدوء يليق بكرامة تلك الجلسة: "سيدي، أنا لا أستطيع رؤية صورة الكتالوج فكيف لي أن أميز المواصفات المطبوعة بخط صغير، أظن من الأفضل أن أطلع على العطاءات الأخرى المقدمة من الشركات الأخرى للمقارنة من حيث المواصفات، وذلك لاختيار الأفضل من حيث الأداء والإنتاج

ولسهولة الاستعمال والصيانة". كان رد المدير العام الفوري: "هل أنت لا تعرف عملك؟" قلت بلا وعي وفورًا: "ولماذا استدعيتني إن كنتُ لا أعرف؟" لم يعجبه ردي وراح يقول: "أتظن بأنك أستاذ هنا جئت لتعلمنا الأصول"، قلت: "أبدًا، ولكن الأصول سيدي، تُوجب أن نعرف جميعًا، بأننا لسنا في ميدان معركة لنأخذ الأوامر وننفذها، وأننا نجلس لمناقشة موضوع موازنة سنوية، فيها أمور تستدعي المرونة واستعمال العقل أكثر من تنفيذ الأوامر". راح على أثر ذلك يُهمهم بكلمات لم أفهم لها معنى سوى أنه قد أضحى في قمة غضبه، ويود أن يضايقني أو يسيء إلي بأيّة وسيلة يستطيعها، وهو الذي استطاع افتراس الجميع وإخافتهم وترويعهم بما تعنيه الكلمة، وخصوصًا الضباط المواطنين، وهو الآن مُحرج أمامهم، ولمس بأنه إن زاد معي في الخطاء فقد لا يقف ردي عليه عند حد معين، أما في الحقيقة فقد شعرتُ حينها أن عملي في جهاز الشرطة سينتهي على يد ذلك الرجل ابتداء من صباح اليوم التالي، ولذلك أصبحت على استعداد أن أقول له ما أريد، وأن أسجل موقفًا تاريخيًا بأنني الوحيد في تلك الأيام الذي رد له الصاع بالصاع، لكي يتحدث عني العاملون في أجهزة الشرطة لسنين طويلة، وقد رأيته يذهب أبعد في استفزازي قائلاً: "هل أنت فلسطيني؟ هل تبرعت بالدم من أجل (فلسطين) عن طريق مكتب منظمة التحرير في (أبو ظبي)؟

وكانت (إسرائيل) في ذلك الوقت تجتاح (لبنان) لأول مرة أيام أن وصلت قواتها إلى (نهر الليطاني) في جنوب (لبنان)، وكان هذا الاجتياح قبل الاجتياح الحاسم في عام ١٩٨٢م بشهور، كان الفلسطينيون وحلفاؤهم من الطوائف اللبنانية هم القوة الرئيسية الموجودة على الساحة في (لبنان)، ولذلك كانت ضحاياهم كثيرة كما هي دائمًا، من ناحية أخرى، إن المدير العام للشرطة لم يكن يعني حتي حقيقة على العطاء من أجل (فلسطين) بقدر ما كان ميالاً لإحراجي ومضايقتي في ذلك الاجتماع.

قلت له وأنا أشعر بأنني على وشك فقدان العمل تقريبًا: "اسمع يا سيدي، أنا لست على استعداد للحديث عن (فلسطين) هنا، فهي مقدسة ولا يستحسن الاقتراب منها في جلسة كهذه". همهم هامسًا أيضًا وكأنه يستغرب التمادي من قِبَلي في الإجابة على كل ما كان يصدر منه، وقال مختصرًا: "لازم تذهب إلى مكتب المنظمة وتتبرع بالدم"، قلت: "لا أود الذهاب ولن أذهب، وإن كنت حريصًا كما تقول فلتذهب معي كي نتبرع سويًا لـ (فلسطين)، وسكتَ كل منا، أما الآخرون فقد كانوا صامتين وكأن على رؤسهم الطير، وذلك من شدة جبروت ذلك الرجل الذي يترأس اللجنة التنظيمية العليا للشرطة، والتي كان مفترضًا فيها أن يكون له صوت واحد مثل أي عضو آخر، إلا أن هذا الرجل كان بيده كل شيء، كان يرفض ما لا يحبه ويختار ما يحب ولا ينازعه في ذلك أحد، كان أيضًا هو صاحب القرار في جهاز الشرطة في كل الأمور، يُعز من يشاء ويذل من يشاء، إذا غضب على أحد نفاه بالنقل للعمل في إحدى الجزر أو في منطقة صحراوية، كان يستطيع أيضًا حسب قانون الشرطة أن يعفي من يريد من الخدمة.

بعد ذلك الاجتماع العتيد عدتُ إلى أسرتي، وقلتُ يومها للزوجة: "ربما ستنهى خدماتي من العمل صباح الغد". وكنت مرهقا للغاية، لا بسبب خوفي من إنهاء خدماتي ولكن مما حدث لي من تركيز ذهني وإحراج أمام الآخرين، ورحت في نفسي أندب حظي وألعن تلك الظروف.

في اليوم التالي، ذهبت كالعادة إلى العمل، ووجدت مديري ينتظرني على غير عادته في كل يوم، فقد كان من عادته أن يتأخر لحوالي نصف الساعة عن بدء الدوام، فور أن وصلت اتصل بي بالتليفون الداخلي، وطلب مني الحضور إلى مكتبه، وطلب مني عدم الجلوس في مكتبه أثناء عدم وجوده فيه، ولأدع تلك المهمة لضابط آخر، وذلك لأجل ألا يحدث احتكاك بيني وبين المدير العام الذي كان يتصل بالهاتف عادة لأمور العمل مع رؤساء

الأقسام، مرتْ الأيام وكان المدير العام لا يُحادثني حينما كان يحضر إلى منطقة عملنا، وكان مجمع عملنا في منطقة تبعد حوالي كيلومترين عن مباني الإدارة العامة للشرطة التي يوجد فيها مكتب المدير العام، كرهتُ ذلك الرجل كثيرًا وربما هو كذلك كرهني أيضًا، وكان من جراء هذا أن تأخرتْ ترقيتي أربع سنوات، علمتُ بعد ذلك أن المدير العام كان قد قرر إنهاء خدماتي على أثر ما حدث في الاجتماع الشهري الذي اصطدمت فيه معه، إلا أن مديري الذي كنتُ أعمل معه كان قد أثنى المدير العام مع آخرين عن قرار الاستغناء عن خدماتي، ولا أدري كيف أو ماذا قالوا له لكي يجعلوه يعيد النظر في ذلك.

مضينا سويًا أنا ورئيسي في العمل، هو خدمني في أشياء، وأنا بقيت وفيًا له كما وعدته أول مرة إلى أن دخلنا في ثمانينات القرن العشرين، الجميل في عملي مع ذلك الرجل أنه أعطاني كل الصلاحيات كما أسلفت، لهذا أسست جهازنا من كل النواحي الإدارية والفنية بالطريقة التي ارتأيتها، وهو ما يُشعر المرء بمعزة الجهاز الذي ينتمي إليه وكأنه ملك، قل قد يكون هناك من اعترض عليّ لكنني شعرت دائمًا خلال عملي في الإدارة العامة للشرطة بـ (أبو ظبي) بأنني ما فعلت شيئًا لم يكن ضميري راضيًا عنه.

الفصل التاسع عشر

١٩-١ (الإمارات) وطني.

منذ أن تخرجت من الجامعة لم أعمل إلا في (الإمارات)، وقضيتُ كل سنوات العمل تقريبًا مع الحكومة، وأعطيتُ أفضل سنوات الشباب من عمري لعملي ولمهنتي، أحببت العمل منذ البداية، وكلما كانت السنوات تمر كنت أزداد حبًا لـ (الإمارات)، ولم أغفل التزاماتي تجاه الوالدين والإخوة وأُسَرِهِم، فلم يمض على وجودي في (الإمارات) سوى حوالي ثلاث سنوات، إلا وقمت سنة ١٩٧٢م بإحضار أخي الذي كان يكبرني من (مصر)، وأوجدت له عملا في (أبو ظبي)، وراح يُعين أسرته بما تحتاجه من النقود في مدينة (غزة).

وفي العام التالي أي في عام ١٩٧٣م، أحضرتُ أخي الذي يصغرني، وكان قد أنهى دراسته الجامعية في (مصر) في ذلك العام، ووُفقتُ أن أجد له عملا كمدرس في وزارة التربية والتعليم، وتمكن خلال عام واحد أن يتزوج وأن يستقر، وبعد ذلك أحضرت أخي الذي يلي أخي الأصغر مني من (غَزّة) في سنة ١٩٧٤م في ظروف خاصة جدًا، وذلك بسبب سفره من (غَزّة) إلى (قبرص) فـ (تركيا) فـ (الإمارات)، وترتبت أموره في العمل وتزوج فيما بعد وبنى أسرة، وفي عام ١٩٧٦م أحضرت ابن الأخ الأكبر الذي تحدثت عنه في غير مكان من هذا الكتاب، وأوجدت له عملا أيضًا، ولم يكن ذلك سهلا بدون مساعدتي.

هذا، وخلال زياراتي الصيفية إلى (غَزّة) عام ١٩٧٤م وعام ١٩٧٦م، تعرفتُ على أحوال الكثيرين من أسر الأعمام والأقارب، واتجهت كخطوة أخرى لمساعدة البعض منهم أو

كلما أستطيع، منطلقا من قناعتي بأن الأقربون أولى بالمعروف، ومبررًا مبادرتي واهتمامي بأنني أُساهم أيضًا في إنقاذ الشعب الفلسطيني باعتبار أن أية مساعدة لأية أسرة فلسطينية، سواء كانوا أقارب أو ليسوا أقارب، هي مساندة لتلك الأسرة للبقاء متمسكة بالأرض فيما تبقى من (فلسطين).

أحضرتُ أحد أبناء الأعمام إلى (الإمارات)، وفتحت له مجالاً للعيش لمساعدة أسرته الصغيرة وأسرة والديه وإخوته، وأحضرت بعد ذلك إلى (الإمارات) ابن عم آخر أو ابن العم من الدرجة الثانية، وأعانني الله أن أفتح له باب رزق أيضًا، وفعلاً عمل وساعد أسرته وتزوج وبنى أسرة.

لم أغفل عن بقية أسرة الوالد، فقد كنت أنتظر على مدى السنوات الصغير من أبناء الإخوة حتى يكبر وحتى يصبح عمره قانونيًا لإمكان حصوله على الأوراق الثبوتية، وكنت أنتظر أحيانًا لينهى الشخص دراسته إذا كان طالبًا في المدرسة، وكنتُ بعد الدراسة أحصل له على فيزا، وكنت أُحضره إلى (الإمارات)، ولم يمض وقت آخر إلا وأحضرت ابن الأخ الذي يكبرني إلى (أبو ظبي) وصار يعمل، وهكذا سارت الأمور فقد عملتُ على إحضار أختي أيضًا عام ١٩٧٥م إلى (أبو ظبي)، وتمكنت من توظيفها لتعمل مُدرسة مع وزارة التربية والتعليم بـ (أبو ظبي)، وساعدت نفسها ماديًا وساعدت الوالدين، وتقدم بعد ذلك مَن طلب يدها من الفلسطينيين على سنة الله ورسوله وتزوجتْ، بعد ذلك أحضرتُ الابن الأكبر لأخي الثاني الذي يلي أخي الكبير من (غزة)، وفعلاً ساعدته وفُتح له باب رزق، وتزوج فيما بعد وما زال في (الإمارات) حتى كتابة هذه السطور، هذا، وبلا فخر فقد ساعدت خلال عملي بـ (الإمارات) أيضًا كثيرًا من الأغراب في ظروف مختلفة من فلسطينيين وعربًا وآخرين وبدوافع إنسانية بحته، وقد

أكرمني الله خلال وجودي في (الإمارات)، بأن استقدم الوالدين إلى (الإمارات) للزيارة ثم اصحبهما في نهاية زيارتهما لأسرتي إلى مكة والمدينة المنورة لقضاء فريضة الحج.

لكن الرياح لا تجري دائمًا كما تشتهي السفن فلكل شيء ثمن لا بد أن يُدفع، وهناك ضريبة على الفلسطيني أن يدفعها حتى لو لم تخنقه (إسرائيل)، وإن العمل مهما كان المركز الوظيفي مرموقًا فيه فإن عدم الاستقرار ظل ملازمًا للفلسطيني فإن لم يكن بسبب الإقليمية والعنصرية فإنه يكون بسبب الكرامة، لأن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط.



١٩-٢ الولاء للإمارات.

كنت قد وصلت إلى قناعة وكانت تزداد كلما تقدمت سنوات إقامتي في (الإمارات)، بأن اعتبرت (الإمارات) بلدي الثاني، وكان مبرري للتغاضي عن العنصرية التي كانت تُمارس ضدنا في كثير من الأحيان بطرق مختلفة من قِبَل أغلب المواطنين، كان مبرري لها في

البداية أن هؤلاء الناس - أي المواطنين - يفعلون ذلك لأنهم لا يدرون ونتيجة جهل ليس أكثر، وكنت أُعزي النفس بذلك لأن نسبة التعليم عندهم كانت متدنية، فقد رأيت نفسي في (الإمارات)، وربما كان هذا شيئًا طبيعيا فمنذ تخرجي من الجامعة ابتدأت الحياة فيها ومنها انطلقت لكي تصبح هي الأساس بعد ذلك في تكوين أسرتي، لقد عرفت الكثيرين من أبناء (الإمارات) وحفظت جغرافيتها وتعرفت على تاريخها، لقد أجدت اللهجة المحلية بنسبة كبيرة، وهي اللغة العربية التي يتحدث بها الناس المحليين في (الإمارات)، ولم يفتنا كأسرة بأن نتمثل بحياة الناس هناك وننقل عنهم بعضًا من سلوكياتهم وطريقة حياتهم وكل الأشياء التي كنا نتقبلها ونستسيغها، وكان يوجد من هذه الأشياء الكثير الذي زاد من متعة العيش في (الإمارات).

كنت في أحايين كثيرة ألبس زي أهل المنطقة، ولهذا كان من الطبيعي أن تكون للإمارات مكانة خاصة في نفسي، وكيف لا وقد وُلد فيها كل أبنائي، ودخلوا كلهم مدارسها الابتدائية، وأخذوا من كل ما أحاط بهم من بيئة ومن ظروف اجتماعية، في السنوات الأولى لقدومي إلى (الإمارات)، كان بإمكاني أن أحصل على جنسية تلك الدولة خصوصًا من إمارة (الشارقة) أو (عجمان)، ولكنني لم أهتم كثيرًا بهذا، لأن (الإمارات) كانت دولة صغيرة وغير معروفة عالميًا، ولم يكن في ذلك الوقت قوانين وضوابط ومميزات للمواطن على غيره من الوافدين، بل إن راتب الوافد في العمل كان في أغلب الأوقات أكبر بكثير من راتب أي مواطن، لم يكن هناك قانون للخدمة المدنية مثلاً، لم تكن هناك مشكلة عندنا من ناحية التصريح بالإقامة في (الإمارات)، فقد كان سهل على أي شخص يصل إلى (الإمارات) سواء بالطرق المشروعة أو حتى عن طريق التهريب، وسواء كان ذلك عن طريق مياه الخليج أو عبر حدود الدول المجاورة، كان القادم يجد تسهيلات من السلطات المحلية في عمل إقامة قانونية له، والأهم من ذلك أن العمل كان

متوفرًا وسهلاً خصوصًا في السبعينيات، كان مستوى المعيشة منخفضًا أيضًا، وكانت تكاليف الحياة رخيصة كثيرًا بالمقارنة لما أصبحتْ عليه اعتبارًا من عام ١٩٧٣م وما تلاه من قوانين وضبط للأمور في شتى المجالات، ولهذا كله لم آبه في ذلك الوقت المبكر بموضوع الحصول على جواز السفر الإماراتي الذي كان لا يُقدم لي ميزة في تلك الأيام.

١٩-٣ (الإمارات) دولة مستقلة.

مضت السنوات بعد ذلك، وحصلت (الإمارات) على الاستقلال من (بريطانيا) العظمى في ٢/١٢/١٩٧١م وهكذا شرُع في بناء الدولة وبناء مؤسساتها، ووضع الدستور، وصدرت القوانين التي اشتقت واستنبطت ونقلت عن كل دول العالم وشعوبها التي يمكن الاستفادة منها في الدولة الفتية، الجميل في نظام (الإمارات) أنه كنظام إقليمي خاص لم يكن جامدًا في يوم من الأيام، فقد كان هذا النظام مرنا وكانت قوانينه تتطور وتتبدل بسهولة، وكون أن العيش في (الإمارات) من أعلى المستويات في العالم في ذلك الوقت، فقد كانت (الإمارات) نقطة جذب للخبرات والأيدي العاملة من كل جهات الأرض التي تتطلع للحصول على المادة والربح الوفير، ولذلك كانت المنافسة كبيرة بين الناس، واستفادت تلك الدولة من الخبرات التي كانت تدق أبوابها باحثة عن فرص العمل، ولهذا كانت (الإمارات) تتطور بسرعة فائقة، وكان المرء وليس هذا مبالغة، كان إذا غاب عن (الإمارات) خصوصًا مدينة (أبو ظبي) ستة شهور فقط وعاد ثانية إليها، كان يجد (الإمارات) غير (الإمارات) التي تركها من حيث التطور والعمران.

في ظل قوانين العمل الجديدة فيما بعد أصبحت الرواتب تتفاوت، وأضحى يؤخذ في الاعتبار المؤهل العلمي ومسمى الوظيفة والمنصب والمواطنة، وعلى أثر هذا رؤي أن

يكون للمواطن نوع من الرعاية والحماية، لأنه ند غير منافس للوافد العربي مثلاً من ناحية الخبرة والمستوى التعليمي، ولهذا أضحى للمواطن علاوات وميزات في الوظيفة، وحتى هذه لم تكن شيئًا ذا قيمة مقارنة بما أضحى المواطن يحصل عليه من أشياء وأرباح كانت تضعه بين يوم وليلة لكي يكون مليونيرًا، فالبترول يتدفق بغزارة ويزداد إنتاج الدولة منه وأسعاره في ارتفاع مستمر والدولة تزداد غنى، كان المواطن المحتاج في تلك الفترة مثلاً - وهذا ليس مبالغة - كان يكفيه أن يعرف أين يقضي الشيخ رئيس الدولة أوقات فراغه، وكان ما على هذا المواطن إلا أن يذهب إلى الشيخ، وإذا استطاع ذلك، كان ما عليه إلا أن يرجو الشيخ فقط، كأن يَقل له مثلاً: "يا طويل العمر، أنا مواطن وليس لدي عمل، أود أن أحسن من دخلي، وأرجوك يا شيخنا، امنحني قطعة أرض كي أؤجرها أو أقم عليها مبنى صغيرًا للإيجار لأجل أن يدر عليّ دخلا". كان الشيخ رئيس الدولة إذا سمع مثل هذا الالتماس من البدوي البسيط،، كان في مثل هذه الحالات يعطي البدوي الذي استجداه ورقة صغيرة مكتوب فيها بخط يده أمرًا إلى رئيس البلدية أو دائرة الأراضي بأن يعطى الرجل قطعة أرض مثلاً في أي مكان من العاصمة (أبو ظبي)، هذا إذا كان المواطن من سكان العاصمة، كان البدوي على أثر ذلك يذهب ويقدم وثيقة الملكية التي يحصل عليها إلى أي بنك من البنوك العاملة بالدولة، وكان يتعاقد هذا البدوي مع البنك، وذلك لاستثمار الأرض وحيث يقيم البنك في أغلب الأحيان عليها بناية كبيرة، وكان يستثمرها لمدة عشر سنوات أو أكثر، وعلى أثر ذلك ومنذ بدء سريان العقد، كان يعطى البدوي سنويًا مبلغًا لا يقل عن مليون درهم من عائد الإيجار، وبعد مدة التأجير أو الاستثمار كانت تؤول الأرض وما عليها للمواطن، من هنا ومع مرور الأيام أضحى دخل الوظيفة ليس ذا قيمة تذكر بجانب الأعمال التجارية والاستثمارات، وأصبح كل كبار الموظفين من الأجانب فقراء مع استمرار ارتفاع مستوى المعيشة المحلي

والعالمي مقارنة بأي مواطن يملك أي عقار، ولهذا بدأ بعض الوافدين من أمثالي يتطلعون إلى الحصول على جنسية (الإمارات)، واستطاع قلة ممن اهتموا وانتبهوا منذ البداية إلى ما يجري وحصلوا فعلاً على الجنسية التي عادت عليهم وعلى أسرهم بالاستقرار وبالكثير من الفوائد، إلا أنه يجب التنويه هنا بأن غالبية الذين حصلوا على جنسية (الإمارات) ولا أقول كلهم، حصلوا عليها بطرق خاصة، إما أنهم قد تملقوا وجاملوا إلى أبعد الحدود التي لا يرضاها لنفسه الإنسان العادي، وإما أنهم كانوا مقربين من الأسرة الحاكمة، حتى وإن كانوا عُمّالا في أعمال الزراعة والحدائق وما شابه.

١٩-٤ البحث عن جنسية (الإمارات) / (الإقامة الدائمة).

بحكم عملي كضابط مهندس بالإدارة العامة للشرطة بـ (أبو ظبي) في تلك الأيام، كانت لي علاقة ود مع وزير الدولة للشئون الداخلية (حمودة بن علي)، وكانت علاقتي به بعيدة عن أية مصالح خاصة، وبعيدة عن العمل أيضًا، ذلك منذ أن كان الوزير مُديرًا للشئون الإدارية بشرطة (أبو ظبي) ثم وكيل وزارة (فوزير) للشئون الداخلية، وأما في الحقيقة فقد كانت معرفتي بالوزير قد تمت قبل أن أعمل في شرطة (أبو ظبي)، ففي أحد الأيام كنت قد أصحبتُ كبير مهندسي شركة (العين للبناء) وكان من (لبنان)، وحيث كان أحد أصدقائي من الفلسطينيين يعمل معه في تلك الشركة، في أحد الأيام كنتُ في زيارة صديقي الفلسطيني في مقر الشركة وطلب مني وديًا كبير المهندسين بأن اصحبه إلى بيت الوزير (حمودة بن علي) بمدينة (العين)، وذلك عسى أن أُعينه في معرفة المكان وكمؤنس في الطريق، كانت تلك الشركة تقوم ببناء بيت جديد للوزير في مدينة (العين) التي كنت ما أزال أقيم فيها حتى ذلك الوقت، هناك التقيت الوزير وتعرفت عليه، وفي إحدى المناسبات في بداية عملي مع شرطة (أبو ظبي) وقبل أن أحول سكني من مدينة (العين)

إلى العاصمة (أبو ظبي)، دعوته وأحد إخوته وأصدقاء لي يعرفونه إلى تناول العشاء في البيت الذي كنت أقيم فيه في مدينة (العين)، كان للرجل الوزير مميزات كثيرة أهمها أنه كان متواضعًا وإنسانيًا وذكي، ومنذ انتسابي للشرطة في سنة ١٩٧٠م بقيت علاقتي به، بل وأضحت مستمرة، وكنت أزوره في بيته بـ (أبو ظبي) ليس أقل من مرة في الأسبوع الواحد خصوصًا في المساء حينما كنت ألتقي في بيته مع بعض ضباط الشرطة الذين كانوا يترددون على زيارته مثلما كنت أفعل.



في سنة ١٩٧٠م دب خلاف إداري بيني وبين أحد الضباط الكبار من الوافدين العرب ممن كنت أعمل معهم، وارتفع الخلاف إلى مستوى المسئولين الأوائل في شرطة (أبو ظبي)، وتم حسمه بأن أُنصفتُ بناء على نتائج لجنة التحقيق العسكرية التي شُكلت للتحقيق في الاتهامات التي تبادلتها مع الضابط الآخر، كانت نتيجة التحقيق لصالحي،

وكانت النتيجة بأن الضابط الآخر هو المخطئ، وأوصت اللجنة بأن يُعفى ذلك الضابط من الخدمة في شرطة (أبو ظبي)، تمت المصادقة على قرار لجنة التحقيق وتم التنفيذ، مضت الأيام وبعد فترة التقيت بأحد ضباط الشرطة من الوافدين العاملين في نفس الجهاز، وتبادلنا أحاديث عامة عن العمل، وبطريقة عفوية انزلق حديثنا إلى ذكر الضابط الذي كان على خلاف معي الذي وتم الاستغناء عن خدماته، ففاجأني من كان يتحدث معي بأن قال: "أنت عملتها مع الوزير"، كان وقع ما قال الضابط كالصاعقة على نفسي، لأنني شعرت بأنه مقتنع بأن الوزير وقف بجانبي على حساب الضابط المستغنى عن خدماته، وغامزًا في قناة علاقتي الشخصية بالوزير، منذ ذلك الحين توقفتُ عن زيارة الوزير في بيته عدا أيام المناسبات الرسمية كالأعياد الدينية والوطنية مثلاً، ذلك لأجل ألا أترك لحاسد أو من يظن بأنني استغل تلك العلاقة مع الوزير لأشياء خاصة، حتى إنني بعد ذلك حينما كنت ألتقي الوزير مصادفة وجها لوجه في مكان ما من العمل أو في مناسبة ما، كان يلومني مازحًا وقائلاً: "أين أنت، كنا نراك وما عدنا الآن؟" حدث ذلك لمرتين على ما أذكر، وكان ردي على الوزير في إحداها لم يكن كيسًا أو كما يليق، قلت للوزير يومها: "أنت الآن وزير وأعمالك كثيرة، وأنا عملي في المشاغل والنقليات، وأنا هناك، فلو كان لديك شيء يخص العمل فما عليك إلا أن تأمرني بالتليفون". أذكر بان ردي لم يعجبه وبان ذلك على وجهه وكونه مهذبًا ما كان منه إلا أن قال لمن حوله: "أتسمعون ماذا يقول المهندس؟"

منذ تلك الأيام صرتُ أكثر بعدًا عن مشاهدة الوزير للسبب الذي ذكرت ولأسبابي الخاصة، ولأن الوزير أصبح أكثر مسئولية بسبب تطور علاقة دولة (الإمارات) مع دول العالم وتطور علاقة وزارة الداخلية مع الوزارات المماثلة في الدول الأخرى، وأضحيت أشاهد الوزير فقط في وسائل الإعلام، أو أقرأ التعميمات الإدارية التي كانت تصدر من

مكتبه التي كانت تتعلق بمهام العمل، وللأمانة أقول إنه لم يحدث يومًا أنني طلبتُ شيئًا أو خدمة من الوزير خلال تعاملي معه، في الوقت الذي كنتُ أشاهد فيه الكثيرين من مواطنين ووافدين يأتون إلى بيته حينما أكون موجودًا عنده، وكانوا يترجون ويلتمسون مساعدته في كثير من الأمور، كان منهم أصحاب شركات وأطباء فتحوا عيادات، وكثير ممن كنت أشاهدهم هناك أصبحوا بعد ذلك مواطنين يحملون جنسية الدولة، في الوقت الذي كانت علاقتي مع الوزير فوق أي مصلحة شخصية، بل إنه لم يخطر ببالي أن اطلب شيئًا شخصيًا منه، لأن العلاقة من ناحيته ربما كانت بسبب تقارب السن بيننا، وحبه للتعرف على ظروف الآخرين، وبالنسبة لي كانت العلاقة استدراك ومعالجة لما حدث معي في مدينة (العين) حينما عملتُ مع الشيخ (طحنون بن محمد) في جراج البلدية، وأهملت أن أضع نفسي في المشهد العام في عيون المسئولين، كنتُ أشعر بأن الوزير يُريد صداقتي، وكان يُرحب بقدومي، فربما لأن ميوله كانت قومية مثلي كما كنت أشعر، فقد كان كثيرًا ما يبتسم حينما كنت أقول رأي بصراحة خلال أحاديثنا عن الأنظمة العربية، وخصوصًا عن سلوكيات حكام الخليج.

حينما تُوفت والدة الشيخ (زايد) بعد فترة وجيزة من وفاة (جمال عبد الناصر) تقرر الحداد أيضًا في (الإمارات) لمدة أسبوع، وكان ضمن ما جاء في نص خبر الحداد من راديو (أبو ظبي) التالي: لقد فقدت الأمة العربية والإسلامية والدة الشيخ (زايد بن سلطان آل نهيان)، الخ.

كان الخبر مماثلاً في النص تمامًا مثلما تم نعي (جمال عبد الناصر) عبر راديو (أبو ظبي) عدا تبديل الأسماء، وعلى أثر ذلك تم تعطيل الدوائر والمؤسسات لمدة أسبوع كامل حدادًا على روح الفقيدة، كان خبر إعلان الحداد لمدة أسبوع على والدة الشيخ (زايد) موضع تندر بين الكثيرين في (أبو ظبي)، لربطه بخبر الحداد على (جمال عبد الناصر)،

خلال أسبوع الحداد كنتُ قد اغتنمت الفرصة فصحبت أسرتي إلى مدينة (العين) وقضينا تلك الأيام في زيارة لأسرة فلسطينية صديقة، ولم أزر الوزير في بيته في (أبو ظبي)، وحينما عدنا للعمل وقمت بزيارته ما زحني قائلاً: "أين أنت؟"، وهو يقصد بأنني لم أعبر عليه خلال أسبوع الحداد حيث لا عمل كان يمنعني، ما كان مني إلا أن قلتُ عفويًا: "كنت يا أبو علي حادًا على فقيدة الأمة العربية والإسلامية". فضحك وفهم ما أقصد، لم أكن استطيع أن أمازح أحدًا بهذه الكيفية من المواطنين، خصوصًا المسئولين، حتى وإن كانوا من فئة أدنى درجات المسئولية، فالناس هناك مسكونون بتقديس الحكام ويعتبرونهم فوق النقد والتندر، كانت علاقتي بها شيء من الصراحة والود مع ذلك الوزير الفطن، وكان يمنحني بعض الثقة وقد أباح لي كثير من أسراره الشخصية التي ربما لم يقلها لغيري من الوافدين، حتى وإن كانت مراكزهم الوظيفية أعلى من وظيفتي، وربما كما أسلفت لأنه كان عروبيا ومعجبًا بالناصرية التي كنت متحمسا لها، ومع هذا فقد ابتعدت عن الوزير كما ذكرت بسبب غمز ذلك الضابط الذي أوحى لي بأنني أستغل تلك العلاقة مع الوزير على حساب الآخرين، علما بأن هذا الوزير كان من الناس القلائل ربما في عالمنا العربي من المسئولين الذين كانوا يفصلون بشفافية شبه مطلقة بين العلاقة الخاصة والعمل الرسمي، وبسبب دماثة خلقه وشفافيته كان المرء يخجل أن يفكر في أن يطلب منه شيئًا خاصًا، وهكذا، مرّت الأيام وكذلك السنون، وسارت الأمور على منوال شبه روتيني بعد ذلك.

في دائرة الشرطة استطاع عدد من الضباط الوافدين العرب، الذين لا يزيد عددهم عن أصابع اليد الواحدة، استطاعوا أن يتكتلوا سويًا وأن يقدموا عريضة واحدة اشتملت على أسمائهم فقط إلى وزير الداخلية صديق الجميع، والتمسوا أن يُساعدهم في الحصول على إصدار مرسوم أميري من رئيس الدولة يقضي بأن يحصلوا على جنسية (الإمارات)،

وكنتُ قد علمتُ بما سعت إليه مجموعة هؤلاء الضباط، وقمت بفتح الموضوع مع زميلي ومديري المباشر، فما كان منه إلا أن قال لي: "لا عليك فلن يحصل أحد من أولئك الضباط قبلك على جنسية (الإمارات)"، وأكد لي بما لا يدع مجالاً للشك وموظِفَا الثقة والصراحة التي كانت بيننا، أكد لي بأن ذلك لن يحدث لأنها سياسة الدولة في هذه المرحلة.

وعندما أكدتُ له بعد فترة، بأن الوقت أخذ يمر، وأنني بدأت أعلم أن رئيس الدولة على وشك أن يوقع المرسوم لمنح الجنسية لأولئك الضباط أو هكذا تتسرب الأخبار، وأن عليه أن يساعدني عند الوزير كي يُضاف اسمي مع القائمة التي كانت تضم الأسماء، ما كان منه إلا أن قال أيضًا: "كما أكدتُ لك سابقًا، لن يحصل هؤلاء على الجنسية، وأنت يا أبو رائد لك سمعة طيبة بين الجميع، وأنت معروف ومشهور بوطنيتك واعتزازك بأصلك الفلسطيني". وقال أيضًا: "وأنت عليك ألا تضيِّع هذه السمعة". وحينما قلت له على شكل رهان بين صديقين: "وإن حصلوا على الجنسية ما العمل". قال: "سآخذ طلبك للحصول على الجنسية حينها شخصيًا وسأذهب به إلى وزير الداخلية، وإلى رئيس الدولة لو تطلب الأمر، وسأحصل لك على المرسوم الأميري، ولن أرضى أبدًا أن يأخذ أحد الجنسية وأنت لا".

سمعت ووثقت واكتفيت بهذا الرد، وكان الرجل من واقع خبرتي وعلاقتي الطويلة معه، كان حقيقة إذا نوى وكان صادقًا، كان يستطيع إنجاز ما يهدف إليه.

مرت الأيام، وبعد فترة ليست طويلة، صدر فعلا المرسوم الأميري، وحصلت مجموعة الضباط الوافدون الذين أشرت إليهم على جنسية دولة (الإمارات)، وبناء على ذلك، حصل كل واحد منهم على ميزات خيالية بالنسبة لأمثالي فقد مُنح كل واحد منهم قطعة أرض في أحسن مناطق العاصمة (أبو ظبي)، وأُعطي كل واحد منهم هدية لا تسدد ولا

ترد، أعطي مبلغ حوالي المليون درهم، وكانت شيئًا كثيرًا في ذلك الوقت لكي يُنشئ على الأرض الفيلا التي كان يحلم بها لأسرته، هذا عدا التأمينات والتسهيلات وتعليم أبنائهم في جامعات الدولة أو على نفقة الدولة في الخارج، وإلى غير ذلك من ميزات لا تُمنح إلا للمواطنين من موظفي الدولة، وخصوصًا من هم على الملاك العسكري، هذا، عدا أن جواز (الإمارات) كان يتيح لهم ولأبنائهم دخول كل دول العالم بلا عوارض أو متاعب أو عقبات، وبكل ترحاب وتسهيلات تامة، في مقابل ذلك ظل الفلسطيني ووثيقة سفره تهمة لمن يحملها مهما كانت القيمة البشرية لهذا الإنسان، ومهما كان المركز الذي كان يشغله.

حينما عدت لمديري، وقلت له: "والآن ما العمل، وأين الوعد والعهد". قال: "أعطني فرصة". مرت الأيام والشهور، وحين سألته ثانية، راح يتململ وظننتُ أنه كان حائرًا من أين يبدأ السعي لتحقيق هدفي، وظننتُ أن عدم الإسراع في رد فعله كان يعود إلى طبيعته الخاصة كإنسان، وقلت في نفسي حينها، نحن بشر ونحن نختلف عن بعضنا البعض، فهذا ذو دم حار وهذا ذو دم بارد وهذا بين هذا وهذا، ورحت أتحين الفرص، ورحت أساهم أو أحاول أن أساهم ولو بأي جهد في موضوع حصولي وأسرتي على جنسية (الإمارات) قبل الاعتماد على المدير، بل وقلت لنفسي بحسن نية، ما عليّ فهو عليّ، وما على المدير فليكن عليه، أو بمعنى أن عليّ أن أخطو الخطوة الأولى كما قال لي بعض الأصدقاء من المواطنين خارج دائرة العمل.

كان ابني الأكبر (رائد) قد أصبح في الثالثة عشر من عمره، وراح وإخوته الأصغر منه يميزون بين أن يكون الطالب في المدرسة مواطنا أو غير مواطن، وبدأوا يتعرفون على الفوارق والمميزات التي يتمتع بها المواطنون، والتي كان يفتقدها غير المواطنين من أمثالهم، وراحوا يطلبون مني بطريقتهم الأسرية الخاصة، أن أحصل لهم على الجنسية، من

ناحية ثانية، بدأت أدرك أيضًا أن مستقبل هؤلاء الأبناء أنا مسئول عنه، وعليّ أن أُسهّل مهمتهم في العيش الكريم بدل أن يظلوا فلسطينيين على الأوراق الثبوتية، أو أن يظلوا يرزحون تحت نير العنصرية والتمييز والمعاملة بالدرجة الثانية والثالثة أينما عاشوا وحيثما حلوا، كل ذلك راح يدفعني، وأضحى موضوع الجنسية بعد عام ١٩٨٢م، هو شاغلي الأول في الليل وفي النهار، ورأيت أن أعتمد على نفسي فيما أستطيع، وأن أخطوا خطوة ولو صغيرة إلى الأمام في سبيل العمل على الحصول على جنسية الدولة.

في أحد الأيام من نفس السنة، وفي خلال ساعات العمل الرسمي، وكنا في شهر رمضان الكريم، وقد أضحى موضوع حصولي على جنسية (الإمارات) هو شاغلي الأول، كتبت بخط يدي رسالة شخصية موجهة إلى وزير الداخلية، وكانت كلمات الرسالة صادقة ومنتقاة، واستدعيت أحد الكتبه من الأرشيف وكان من العرب الوافدين، وقلت له، خذ هذه واطبعها على الآلة الكاتبة ثم أعدها لي بعد الطباعة، وقلت له أيضًا، ولتكن هذه الرسالة سرًا بيني وبينك، ورجاء بأن لا تحفظ نسخًا منها في أي ملف عندكم.

استخبرت عن وزير الداخلية وأين سيتناول إفطاره مساء ذلك اليوم هل في مدينة (أبو ظبي) أم في مدينة (العين) وكان يقيم بين المدينتين، وتأكدت أنه سيكون في (أبو ظبي) في ذلك اليوم، في المساء تناولتْ طعام الإفطار بسرعة مع أسرتي، ولم أمكث بعد آذان المغرب سوى ربما ربع الساعة فقط، وغادرت متجهًا إلى بيت الوزير قبل أن يخرج من بيته بعد الإفطار وحتى لا تضيع عليّ مقابلته في ذلك المساء، وفعلاً وصلت إلى هناك وكان جالسًا بعد الإفطار يحتسي القهوة العربية مع أحد إخوته واثنين من الأغراب ممن تناولوا معه طعام الإفطار، حييتُ القوم وسلّمت على الجميع وتبادلنا التحية، وكعادة

الذين يعرفون بعضهم البعض سألني عن أحوالي وعن الأسرة والأبناء، وأكمل الحديث مع الموجدين وكان حديثا عامًا متنوعًا.

بعد أن شربنا القهوة العربية مرة ثانية، استأذن الرجلان الغريبان، وكعادة التعامل مع المسئولين في تلك البلاد، قمت من مكاني في المجلس الواسع، وجلست على الكنبة التي كانت تقع بجانب مقعد الوزير مباشرة لكي يسمعني بهدوء، وخاطبته قائلاً: "إن لي عندك طلب يا أبا علي"، وقد كانت هذه هي كنيته لأن والده اسمه علي وابنه اسمه علي، ردّ عليّ وقال: "على الرحب والسعة وأنا حاضر وأمر يا مهندس". قدمت له الرسالة التي أعددتها قبلاً، وقد كانت مغلفة في مظروف مغلق تمامًا، استلمها بيده وهمّ بفتح المظروف، وقبل أن يفعل، قلتُ: "لا، ليس الآن يا أبو علي". استغرب مما قلت، وبدا ذلك من خلال نظره نحوي، وقال: "ألا تود أن أفتحها؟" قلت له: "إنها ليست مستعجلة ولا ملحة، وتستطيع فتحها بعد أن أخرج لو أردت". كنت في الحقيقة لا أستطيع أن أحتمل أن يُرفض طلبي في وجهي فقد كنت من النوع الذي يستطيع أن يطلب للآخرين ويعجز عن الطلب لنفسه.

ساد بعد ذلك صمت للحظات أحسستُ بها وكأنها ساعات طوال، وبعد ذلك طلب الوزير من الخادم أن يصب القهوة ليخترق الصمت، وربما طلبًا لكسب الوقت بينما هو يفكر، وفعلاً شربنا القهوة مرة أخرى، وما كدت أن أنهي فنجاني، واستأذنت بالخروج ثانية فإذا به وقد أمسك بذراعي وقال: "مهلا، انتظر". ثم فتح الرسالة وقرأها وتمعن فيها، كان الرجل ذكيًا وحساسًا ومتفوقا بذكائه المميز، قال موجها كلامه لي ثانية: "إن مبدأ المساعدة موجود عندي، وأنت تستحق المساعدة وقد خدمت هذا البلد، وأنا الآن نعم وزير الداخلية إلا أنني مُقيد بالقوانين، عموما نحن الآن نُعد لقانون الجنسية الجديد،

ومتى أفرج عن هذا القانون ستلقى العون مني شخصيًا". كان ردي على ما قاله يومها: "المهم رأيك وما قد تراه يا أبو علي". لم أتوسل أو أرجو كما كنت أشاهد الآخرين يفعلون أمامي حينما كنت في الماضي أزوره في بيته فلم أستطع، بل ولم أقو على ذلك وأنا في أمس الحاجة، استأذنته ثانية في المسير والخروج من عنده فرفض مغادرتي، وربما قد لمس خجلي وشعوري بالحرج وعدم رضاي، وربما قد لمس أيضًا عدم توسلي وحيائي، وهو ابن قبيلة (الظواهر) المعروفة في (الإمارات)، ويأبى أمثاله أن يخرج الناس من بيته مكسوري الخاطر أو غير راضين، أمسك بالرسالة ووضعها على علبة ورق المحارم التي كانت بيني وبينه على طاولة الجنب، والتقط قلمًا جافًا كان في جيب صدر جلبابه، وكتب على نفس الرسالة عدة عبارات موجهة إلى مدير الهجرة والجنسية يُوصيه بأن يقبل رسالتي هذه وبأن يعاملها كطلب للتجنيس، وأن يُقدمها له - أي للوزير - بعد صدور قانون الجنسية في (الإمارات).

وبالفعل ففي اليوم التالي أخبرت مديري بما حدث، وقلتُ له: "هيا الآن، فقد خطوت أنا الخطوة الأولى فهيا افعل أنت شيئًا أو كما وعدت"، وفعلاً، ذهبنا سويًا وبصحبتنا ضابط آخر أخذناه معنا عن قصد، ومضينا إلى دائرة الهجرة والجنسية وقابلنا مدير الدائرة هناك، وأعطيناه الرسالة وعليها ملاحظة الوزير، وهناك وعدَنا الرجل خيرًا، بعد ذلك كنتُ أسأل بطرقي الخاصة عن مصير رسالتي في أرشيف دائرة الهجرة، وكنت أعلم بأنها في مكانها ولم يطرأ على وضعها أيّ جديد، بعد عدة شهور فتحتُ الموضوع ثانية مع رئيس القسم الذي أعمل فيه، والذي رُقي إلى رتبة عقيد في تلك الأيام بفضل عملي معه وإخلاصي له، فلم أجد منه أية جدية في تداول موضوع حصولي على الجنسية، وكنتُ حينما أعود بعد ذلك لطرق هذا الموضوع معه، كنت لا أجد منه في كل مرة بعد ذلك سوى طلبه مني أن أنتظر.

راحت الأيام تمضي وأضحى الوضع مملاً، وتملكني شعور وإحساس الإنسان البسيط القانع بأنني في (الإمارات) قد حققت كل شيء تقريبًا ما عدا الجنسية، زاد قلقي أكثر حينما أدركت بشكل واضح، أن جميع جامعات دول العالم العربي المشهورة أصبحت ترفض تقريبًا قبول الطلبة الفلسطينيين في كلياتها العملية مثل الطب والهندسة وما شابه، كان هذا بالنسبة لنا نحن الفلسطينيون إحساسًا بالمذلة والعنصرية والتمييز، وبالنسبة لي وكفلسطيني رحتُ لا أشعر بنعمة الراتب الجيد والعيش في (الإمارات)، وكنت أقول لمن حولي، ما فائدة الحياة في غنى إذا كان الإنسان بلا كرامة ولا يشعر بالمساواة مع الآخرين، وقلت أيضًا خلال جلسات الأصدقاء، ثم إذا كان جيلنا قد استطاع أن يتغلب على صعوبات الحياة فما هو مصير الجيل الثاني من الأبناء.

وهكذا أصبحت قلقًا، وقد لمس العاملون معي هذا، وتبدل على غير قصد تفكيري وسلوكي في العمل.

١٩-٥ فقدان الثقة مع رئيس العمل.

في إحدى المرات التي كان يزورنا فيها خلال ساعات العمل كالعادة بعض المواطنين، زارنا أحد الأصدقاء منهم، وكان يشغل مركزًا حساسًا في جهاز الرقابة الخاص بتصدير النفط بالدولة في المنطقة الغربية من إمارة (أبو ظبي)، بل كان هذا الشخص ممثلاً للشيخ (زايد) لدى الشركات التي تنتج النفط في تلك المنطقة، وكان هذا أيضًا صديق وقريب من بعيد لرئيسي المباشر، والمميز أن هذا الشخص كان أيضًا يكن لي شخصيًا احترامًا خاصًا، وكنت أبادله نفس الشعور رغم الفوارق الكثيرة الموجودة بيننا، في ذلك اليوم لمس هذا الضيف ضجري وعدم سروري العام، وعلم أن سبب ذلك هو موضوع الجنسية، فقال لي: "هل أدلك يا مهندس على أسهل الطرق لأجل أن تحصل على جنسية

الدولة؟" قال هذا بينما كنا نتمشى سويًا في ممرات ساحات مواقع العمل، قلت له: "هات ما عندك، وكيف وأنا كلي آذان صاغية". قال: "اكتب ما تود أن تقوله لرئيس الدولة، وبالأخص اذكر له بأنك ضابط في شرطة (أبو ظبي)، وأنك تعمل برتبة نقيب مهندس، وقل في كتابك أيضًا، بأنك مقيم في (الإمارات) منذ عام ١٩٦٨م، أما أنا فسآخذ كتابك بيدي، وسأجعل رئيس الدولة يوقع عليه شخصيًا، فأنا وبعض المواطنين نلتقي معه بواقع كل يوم تقريبًا خصوصًا حول مرابط جمال السباق التي يُحبها كثيرًا الشيخ (زايد)، وبهذا ستختصر كل الروتين الموجود في الدولة وسترتاح من عناء القلق على المستقبل، ومتى كان توقيع رئيس الدولة صريحًا بمنحك جنسية الدولة فلن يستطيع أحد مهما كان أن يؤجله، وسيكون هو في حد ذاته مرسومًا بما يعنيه مضمون الكتاب، ولكن بشرط واحد." قلت: "وما هو هذا الشرط؟" قال: "أن يوافق أولاً قريبي رئيسك في العمل على ذلك". قلت: "ولماذا موافقة رئيسي في العمل ما دامت الموافقة ستأتي من خارج جهاز الشرطة؟" قال: "لأنه صديقي وقريبي وأنت تعمل معه، وليس من الأصول أن أتدخل في شئونه الخاصة بلا إذن". قلتُ: "وهل تظن أن (فلان) قريبك لا يُسعده أن تفعل شيئًا حسنًا لي؟ بل هو الصديق الصدوق الذي أكلنا معه عيشًا وملحًا، وعملنا سنين وسنين معًا، ولا أظن أن مثله يتأخر عن فعل شيء يسرني، هيا إليه لنسأله وسترى بنفسك".

ذهبنا في اتجاه مكتب رئيس القسم، وقلت لأحد السعاة، أن يقول للمدير بأننا ننتظره بالخارج لأجل أن يتمتع معنا في الجو الشتوي المشمس.

وفعلا حضر رئيس القسم، وذكرت له ما اقترحه الصديق، وتندرت وقلت له مستغربًا: "تصور يا أخ (فلان) بأن صديقنا هذا يود التصريح منك لكي يحصل لي على موافقة رئيس الدولة حتى أحصل أنا وأسرتي على جنسية (الإمارات)؟" ما كدت أن أنهي

كلامي هذا، وإذا رئيس القسم يقول - وكأن ما قاله مفاجأة حقيقية لي - قال إنه غير موافق على تلك الفكرة، لأن ذلك إن حدث فلن يُسر المدير العام للشرطة الذي نتبعه جميعًا، ولن يسر هذا أيضًا وزير الداخلية الذي سنتخطاه بهذا الفعل، وأضاف ناصحا، إن من الأفضل لي أن أنتظر، وسأحصل مستقبلاً في يوم ما على جنسية (الإمارات).

ما كدت أسمع ذلك إلا ووقع هذا على نفسي كالصاعقة، واكتشفت شيئًا جديدًا لم أتوقعه من صديق العمر الذي أقسمت بأن أظل مخلصًا له، وبسبب جهدي المتواصل وأخذي مسئولية العمل، وصل هذا الشخص إلى رتبة عقيد وهو لا يستحق، بل وكان الضابط الوحيد من رؤساء الأقسام الذي لم ينقل إلى قسم آخر من أقسام الشرطة بسبب رضاء المسئولين عما يجري عندنا في القسم من تقدم وتطوير وسرعة استجابة لمتطلبات الشرطة وانجاز، لقد فوجئت حينها كيف ينظر هؤلاء البشر إلى الفلسطينيين أو إلى كل من يعيش على أرضهم وكأننا أنعام يتحكمون في مصائرها، اكتشفت، أو هكذا ظننت بأن هؤلاء الناس يظنون بأنهم يملكون مصير وحياة الذين يعملون معهم، وأنهم يودون أن نظل بين الحياة والموت بلا راحة تامة وبلا استقرار، اكتشفتُ أيضًا بأن الدنيا كم هي ضيقة وكم تصغر في نظر الإنسان، وتذكرت أيضًا أن الإنسان لا يحيا بالطعام والشراب فقط، فهناك الكرامة والاحترام أيضًا، فإن غابا تكون الحياة بلا معنى للإنسان.

مرت الأيام بعد ذلك رتيبة وثقيلة على النفس ومملة، ولم أعد أتحدث أبدًا عن موضوع الجنسية مع رئيسي وكدت أن أنساه، واستبدلتُ ذلك بعدم الرغبة في الاستمرار في هذا العمل، ولكن ما البديل، وهكذا فقد عقدت العزم أن أترك العمل وأنا أعلم أيضًا بأن رئيسي لا يستطيع الاستمرار بدوني معه في هذا الجهاز، وسيخسر الكثير من المميزات،

وأردت أن أعاقبه، وصرت أفتش عن طريق كيف أترك هذا العمل ولكـن ببـديل يحفـظ الكرامة.



١٩-٦ شركات الهجرة.

في عام ١٩٨٤م بالتحديد، وربما كان هـذا مصـادفة، رأينـا عـددًا مـن الوكـالات ومـن المندوبين وقد راحوا يجوبون البلاد في (الإمارات) طولاً وعرضًا، وكانوا يـدعون النـاس للهجرة إلى (أستراليا) والى (نيوزيلاندا) وإلى (كندا)، والى عـدد كثـير مـن دول أمريكـا اللاتينية، رأيت نفسي وبلا قصد مع أحد الأصدقاء الوافدين ممن كانوا يعملون في شركة بترول (أبو ظبي) الوطنية، وقد رحنا نسعى ونقابل مندوبي شركات الهجرة على اختلاف أنواعها في (أبو ظبي)، كنا نبحـث عـن هـؤلاء المنـدوبين، وكنـا نسـعى إلـيهم ونـتلقط أخبارهم لأجل التعرف على شروط الهجرة لكل بلد.

مرت الأيام وراح اهتمامنا يزداد كلما اكتشفنا ميزة في البلاد الداعية للهجرة، استمعنا إلى العروض الكثيرة والشروط البسيطة التي كانت كلها تركز على المادة، وتبين لنا في أقصى الأحوال، أن كل أسرة تملك مبلغًا من المال يزيد على المائة وخمسين ألف دولار أمريكي يمكنها الحصول على حق الهجرة إلى إحدى الدول التي ذكرتها خصوصًا إذا كان البالغون من أفراد الأسرة غير مشبوهين أمنيًا، وإذا كانوا أيضًا معافين صحيًا ولا يحملون أمراضًا معدية.

لم نصدق أنا وصديقي في بادئ الأمر، أن بلدًا في هذا العالم قد يوافق على أخذ أسرة فلسطينية، ويمنحها المواطنة الكاملة بما يعني هذا من معنى، وبقي الشك يسكن قلوبنا بلا تردد، في البداية أخذنا الأمر كتسليه أو كهواية أو كبالون اختبار، أما في داخلنا فلم نكن في الحقيقة جادين في مشروع الهجرة مائة بالمائة، وقلنا ما دمنا لا نخسر نقودًا فلماذا لا نكمل المشوار للتعرف على ميدان جديد ونجمع معلومات ونتسلى، ونتعرف على ما يدور في هذه الدنيا، وقد نفوز بالمعلومات العامة على الأقل.

قررنا أن نختار (كندا) من حيث المبدأ، لأنها بلاد واسعة وعدد سكانها قليل بالنسبة إلى مساحاتها الشاسعة، ولأن إحدى اللغتين الرسميتين هي الإنجليزية التي نعرفها إلى حد ما، والتي تعتبر اللغة الثانية تقريبًا في العالم العربي، ولأن (كندا) أيضًا تقع بجانب الولايات المتحدة الأمريكية، ومواطني الدولتين يدخلون ويخرجون من والى الدولتين بواسطة البطاقات الشخصية، وهكذا مضينا في بحثنا عن موضوع الهجرة، في عام ١٩٨٥م كان عليّ أن أتقدم لامتحان الماجستير في مدينة (لوس أنجلوس) بولاية (كاليفورنيا) في (الولايات المتحدة)، واغتنمتها فرصة وحصلت على فيزا لزيارة (كندا) أيضًا، وذلك لأجل أن أتأكد مما قيل لنا وأخبرنا به مسوقوا الهجرة الذين عجت صحف

(الإمارات) في تلك الفترة بإعلاناتهم عن (كندا)، وكنت قد اتفقت مع أحد مندوبي شركات الهجرة لاستقبالي في مدينة (مونتريال) بـ (كندا).

وفعلاً، وفي الموعد المحدد وصلتُ إلى (مونتريال)، وكان ذلك في شهر يوليو سنة ١٩٨٥م، وكان مكتب الهجرة قد رتب لي للإقامة بفندق (لا شنجريلا) الذي كان يقع في شارع (شير بروك) الشهير في وسط مدينة (مونتريال)، خلال تلك الزيارة زرت بعض مناطق مدينة (مونتريال)، وأُعجبت بالنظام وبالنظافة وبالخدمات العامة وبمظاهر الحضارة الاجتماعية بين الناس، في مكتب شركة الهجرة أيضًا اطلعت أكثر على شروط تقديم الطلبات، وفهمت أن هذه الشركة ستقوم بكل شيء إذا ما فوّضتها بعمل الإجراءات اللازمة، وذلك مقابل مبلغ ستة آلاف دولار أمريكي تدفع كأتعاب عن خدماتها، وعليّ أن أقوم بدفعها بعد حصولي على كتاب الموافقة الذي سيصدر عن وزارة الهجرة في (كندا)، قبلتُ الشرط، وهكذا وجدت نفسي أسير في الطريق المؤدي إلى الهجرة إلى (كندا).

على أثر ذلك قامتْ الشركة بإعداد الأوراق والنماذج الرسمية وغير الرسمية التي استعملت، ولم أتكلف من جهد سوى إعطاء البيانات عني وعن أسرتي ووضع تواقيعي أين ومتى لزم، لم تمض سوى أربعة أيام على وصولي لمدينة (مونتريال)، وإذا بي أتمكن من مقابلة مندوب وزارة الهجرة في مكتبه بناء على ترتيبات مسبقة من قبل شركة خدمات الهجرة التي اتفقت معها.

في الوقت المحدد استقبلني مندوب وزارة الهجرة في مكتبه، اطلع على ملفي الذي أعدته شركة الهجرة، وأجبت على أسئلته القليلة الاجتماعية التي وجهها لي شفاهيًا، ثم قال لي مبروك، وقال أيضًا، إنه قد وافق على طلبي، وقال: "بعد ثلاثة أيام سيصدر كتاب

الموافقة الرسمي، وسيُرسَل لي على عنواني بالبريد في (الإمارات)، وبعدها يبقى عليّ وعلى أسرتي فقط اجتياز الفحص الطبي لكل فرد منا". وقال أيضًا: "إن عملية الهجرة بصفة عامة تحتاج إلى حوالي العام لأجل أن أحصل على فيزا الهجرة لي ولأفراد أسرتي، ذلك لأجل أن يُسمح لي بالقدوم إلى (كندا) للإقامة". و رغم أن مندوب الحكومة هذا كان قد أخبرني وهنأني بالقبول كما ذكرت إلا أنني في الحقيقة لم أصدق ما قاله لي في ذلك الوقت، وظل الشك يساورني، فقلت لنفسي: "ربما لن يصلني الكتاب الذي ذكره الرجل، وقد لا يصلني شيء أبدًا، ومن يدري ماذا سيحدث بعد أن أغادر (كندا) عائدًا إلى الشرق الأوسط". فما كان مني إلا أن قلتُ للرجل وأنا ما زلتُ لم أغادر مكتبه بعد: "هل لي أن أعود بعد ثلاثة أيام كي أتسلم الكتاب بيدي، فأنا سأبقى في (كندا) لعدة أيام أخرى، وسأذهب لزيارة (شلالات نياجرا) في إقليم (أنتاريو)"، وفي الحقيقة قد قمت باختراع فكرة الذهاب إلى الشلالات حتى أجد مبررًا للانتظار لتسلم الكتاب من دائرة الهجرة بنفسي وليس بالبريد، وذلك للتغلب على الشك الذي ساورني، والذي أوجده في كياني الواقع الذي عشته وأمثالي في بلادنا العربية العتيدة، كان رد الرجل ببساطة على ما اقترحت: "نعم يمكنك ذلك". إلا أنني وبعد أن عدتُ إلى الفندق قررتُ فعلاً الذّهاب إلى (شلالات نياجرا) للزيارة، لأن البقاء لمدة ثلاثة أيام في محيط الفندق وفي حياة شبه مغلقة بدون عمل مفيد وبلا هدف سيكون مملاً.

في الموعد المحدد، أي بعد ثلاثة أيام من المقابلة وبعد عودتي من زيارة الشلالات، عدت إلى مكتب الحكومة الذي سيصدر الكتاب، وبمجرد أن دخلتُ إلى الاستقبال سألتني إحدى السكرتيرات عن هدفي فقلت لها إن لي كتابًا... وقبل أن أُكمل، سألتني عن اسمي، ذكرت لها الاسم فما كان منها إلا أن مدت يدها وكأنها كانت تنتظرني، وناولتني المغلف الذي يحوي الكتاب المنشود، خارج المبنى فتحت المغلف، وقرأت الكتاب الذي

كان موجهًا لي من وزارة الهجرة الكندية، وبعد قراءته أحسست برهبة لم أعهدها من قبل، كان الكتاب يحوي معاني لم أعهدها من قبل، كان يقول في معناه العام، بأنني قد قبلت كي أكون مواطنًا كنديًا، وفور أن أصل وأسرتي إلى أرض (كندا) سأعامل مثل أي كندي مولود على أرضها، لي حقوق وعليّ واجبات، وأن (كندا) تُرحب بي وبأسرتي لكي نُثري المجتمع الكندي المتعدد الثقافات بما عندنا من ثقافة، ولنشارك في بنائها ليستمر ازدهارها.

لم أكد أصدق ما رأته عيناي وما قرأت في الكتاب، وكنت في البداية وحتى حينما رحت وصديقي نتابع أخبار الهجرة في (أبو ظبي)، كنت لم أضع عمليًا في اعتباري أن هناك شعب يعيش على كوكبنا سيقبل الفلسطيني وسيعامله بمساواة مع أبناء جلدته، ولهذا لم أتصور نفسي وأسرتي بأننا سنُقبل رسميًا في دولة مثل (كندا)، لأن مفهومنا عن (كندا)، أنها دولة راقية، وأن شعبها وجد ليكون سيدًا للآخرين لا لأن يتساوى معهم، رحتُ وأنا في طريقي إلى الفندق أقارن بين ما يقولونه من هم ليس لي رابطة معهم في (كندا) وبين ما كان يعاملنا به شعبنا العربي من عدم مساواة في أغلب الأحيان.

أذكر أنه في عام ١٩٧٧م أنني ذهبت بطريق البر بسيارتي الخاصة من (الإمارات) إلى (السعودية)، وذلك بهدف الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول الكريم، وكان برفقتي والداي المسنان، وعند أول مركز حدود سعودي في منطقة (سلوى) الواقع على حدود دولة (قطر)، ما كان مني إلا أن قدمت إلى موظف الجوازات السعودي مثل الآخرين وثيقة سفري الفلسطينية، فتصفحها موظف الجوازات الذي كان يجلس في الكابينة الخاصة، وقال سائلاً وهو يعلم كل شيء عني وعن وثيقة سفري: "هل أنت فلسطيني؟" قلت: "نعم"، ما كان منه إلا أن أشاح بيده التي تمسك بوثيقة سفري، ورمى وثيقة سفري قاذفا بها نحوى بطريقة اختلفت عما فعله مع الجنسيات الأخرى التي

كانت هناك، ولم أتمكن من التقاط وثيقة السفر بيداي لقوة وسرعة رميها نحوي، سقطت الوثيقة على الأرض وانحنيت والتقطتها ولم يعتذر الموظف لي، إلا أن ما آلمني أكثر هو نظرات الاستحسان والعطف التي منحها لي بعض الأشخاص الذين كانوا مثلي يعبرون إلى السعودية من أناس عرب لا أعرف جنسياتهم، إلا أن حظهم كان أفضل مني فقد كانوا غير فلسطينيين.

وفي رحلة العودة بعد أداء فريضة الحج وبينما كنت عائدا في اتجاه (الإمارات)، كان على المسافر بطريق البر أن يعبر دولة (قطر) من نقطتي الحدود (أبو سمرة)، و(سود النثيل)، لأن جزء من تلك الدولة كان يقع على الطريق بين (الإمارات) و(السعودية)، وحينما وصلت إلى نقطة العبور الأولى من جهة السعودية وكنت في غاية الإرهاق من تعب السفر، قدمتُ وثيقة سفري، ففوجئت برجل الشرطة الذي كان يتعامل مع جوازات السفر، يقول لي: أنتَ لا تستطيع المرور من أراضي دولة (قطر) إلى (الإمارات)، استغربت مما قاله فتساءلت: "سيدي أنا قبل أقل من شهر قدمت من (الإمارات) مرورا بدولة (قطر)، وعن طريق هذا المكان أيضًا، وها هو ختم دولة (قطر) على وثيقة سفري" فقال: "أنا أعلم ذلك ولكنك لا تستطيع الآن". رجوته أكثر من مرة، وكانت حجته في الرفض بأن وثيقة سفري لا تحمل خاتم العودة، وأن الخاتم الذي عبرت به أول مرة كان لسفرة واحدة، وكنتُ قد حصلتُ عليه بسهولة من السفارة القطرية في عاصمة (الإمارات) (أبو ظبي) قبل أن أتوجه إلى فريضة الحج في (السعودية).

سألت: "الرجل ما العمل الآن؟ قال: "لا شيء"، كنتُ تعبًا من قيادة السيارة، فقد قطعت مسافة ألفي كيلو متر خلال أقل من يومين من مدينة (جدة) إلى الحدود القطرية، وكنت وحيدًا لأن والداي اللذان رافقاني في الذهاب وحسب رغبتهما وطلبًا للراحة كانا

قد سافرا بالطائرة من (جدة) إلى (الأردن) ومن هناك سيذهبان إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة، وبقيتُ واقفًا أو مرتكزًا على نافذة مكتب الجوازات القطري ربما لمدة ساعة ونصف تقريبًا وأنا على ذلك الحال البائس، بعد ذلك وصلتْ سيارة إلى تلك المنطقة وكان بها ثلاثة رجال كانوا يتحدثون اللهجة الشامية، رأيت أحدهم يقدم جواز سفرة للرجل الجالس في المكتب ومع الجواز ورقة نقد بقيمة عشرة دراهم من نقود (الإمارات) - دولارين ونصف دولار أمريكي - وقال للشرطي: "أعطني تذكرة مرور"، وفعلاً ختم له الشرطي على الجواز ختمًا مشابها للختم الذي دخلت بموجبه في المرة الأولى، لم تمكث السيارة الخاصة بالسوريين سوى دقائق قليلة ثم انطلقت في طريقها في اتجاه نقطة الخروج القطرية الثانية الواقعة على حدود (الإمارات)، وكانت تبعد مسافة ستة وثمانين كيلو مترًا عن النقطة الواقعة على الجانب السعودي التي كنتُ أقف عندها، بعد أن خلا الرجل القطري إلى نفسه ولم يكن أحدًا ليشغله، قلت له: "لماذا لا أعامل مثل الإخوة السوريين الذين كانوا هنا قبل قليل؟ قال: "لقد دفع كل واحد منهم مبلغ عشرة دراهم، ألم ترى بنفسك، وهي رسوم ختم العبور، أما أنت فلم تدفع". قلتُ: وإذا دفعت الآن، هل سأحصل على إذن العبور؟ قال: نعم. قلت: ولماذا لم تطلب مني هذا قبل ساعتين؟ قال: ولماذا لا تعرف واجبك بنفسك، وأضاف، أنتم الفلسطينيون، ألم تدّعون بأنكم أكثر الناس تعليمًا بين العرب.

انتظرت حتى ختم وثيقة سفري بعد أن دفعت له مبلغ العشرة دراهم، ولم أقل شيئًا خوفًا أن يتراجع عما فعله، استلمت وثيقة السفر وخطوت خطوات قليلة مبتعدًا، وقلت موجهًا كلامي لنفس الرجل بصوت مسموع: "أرى بأنكم تُعاقبون الفلسطينيين على تعليمهم بدلاً أن تفعلوا مثلهم". ولم أسمع رده أو ماذا قال.

خلال المرة الوحيدة سنة ١٩٨٢م التي سافرت بها إلى (الأردن) مع أسرتي عن طريق البر بالسيارة حيث كنا وأسرة أحد أقاربنا المقيمين بـ (السعودية)، وبعد أن وصلنا نقطة الحدود الأردنية قادمين من السعودية، رأينا معاملة سيئة أيضًا ولكن من نوع آخر، فبالإضافة إلى التعالي والأوامر التي كان يتلفظ بها العاملون من رجال الأمن والخدمات ومن يتبعهم هناك، فقد وجدنا احتقارا وامتهانا بإنسانية البشر ينـدى لها جبين الانتماء القومي في بعض الحالات، وكانت زوجة قريبي وأطفالها الصغار في حالة من شبه الغيبوبة التامة تقريبًا من إعياء السفر والنعاس، وكان الوقت ليلاً وربما كانت الساعة الواحدة ليلاً، وبعد أن انتظرنا طويلاً، قيل لنا، إن علينا إذا كنا نود الحصول على التصريح بدخول (الأردن) أن نُحضر كل من هم معنا إلى مكتب الجوازات كي يراهم الرجل بنفسه ويتأكد من شخصياتهم، وكانت سياراتنا واقفة بمسافة لا تزيد عن الخمسين مترًا أمام المكاتب، قلنا للرجل المسئول، هل لك أن تتشرف أو ترسل من تثق به ليتأكد بنفسه من شخصيات النائمين بالسيارات، وخصوصًا سيارة قريبي التي كان الأطفال فيها نائمين، وقلنا لرجل الجوازات متوسلين أيضًا، إن من بالسيارة لا يستطيعون المشي ونائمون وتعبون، رفض الرجل وأصر على ما أمر به، ولم نملك إلا أن ذهبنا وأيقظنا من بالسيارة وأحضرناهم في حال إنساني لا يليق.

بعد تلك الرحلة لم أسافر عن قصد إلى أي بلد عربي، وكنتُ حينما أزور الوالدين في الأراضي المحتلة، كنت أستقل الطائرة إلى (قبرص) فمطار (اللد) الإسرائيلي للأسف، ذلك بعد أن أصبحتْ أحول للتحقيق في دوائر المخابرات حينما أمر ببعض المطارات العربية لا لسبب إلا لأني فلسطيني، علمًا بأنني لم أتشرف حتى الآن بإيذاء دولة الاحتلال الصهيوني، فكيف يمكن أن أكون خطرًا على بلد عربي؟!

لو أردت أن أُحصي أنواع المعاملات السيئة التي كان يلقاها الفلسطينيون على أيدي الأنظمة العربية لاحتجت إلى صفحات كثيرة، وليتصور المرء هذا الحال الذي ساد على مدى أكثر من ستين عامًا، منذ إنشاء دولة (إسرائيل) وعاشه الفلسطينيون.
ليس غريبًا لو قلت إنني كنت مبهورًا وأنا أقرا عبارات كتاب وزارة الهجرة الكندية، وكان استغرابي أكثر لأن (كندا) على استعداد أن تعطي أسرتي الأمن والاستقرار والمواطنة، ولم يعطينا هذا أهل (الضاد) الذين تربطنا بهم اللغة والثقافة والماضي وكل ما ينطق بأننا أمة واحدة.

عُدتُ من زيارة (كندا) إلى (الإمارات) بقناعة وبفكر جديد، وأخبرتُ زوجتي بما حدث، وقلتُ لها، إن علينا أن نستعد، ولكن علينا أيضًا بأن نُبقي هذا سرًا بيننا، وذلك حتى لا نتعرض إذا ما فشلتْ مهمتنا للإحراج والشماتة والاستخفاف بنا، أو بما قد يؤثر على استمرار عملي في وزارة الداخلية، كانت زوجتي قد أعفيتْ مع غيرها من عملها في وزارة التربية والتعليم في (الإمارات)، وذلك حسب خطة من قبل السياسة العامة للدولة التي كانت تهدف ألا يُعمر الموظف الوافد طويلاً فيها، كنا نستغرب نحن الوافدين الذين كانت عيوننا دائمًا مفتوحة من باب الخوف والقلق والحرص على الاستمرار، وكنا نتساءل بسذاجة في البداية، خصوصًا حينما كان يُستغنى عن بعض الموظفين الوافدين.

لقد عملتْ زوجتي على سبيل المثال مثل ألآف الفلسطينيين والفلسطينيات مُدرسة ومُديرة مدرسة، ومع ذلك تم الاستغناء عنها وكانت ما زالت في أوائل الأربعينيات من العمر ولم تصل بعد إلى سن تقاعد كبر السن، وحقيقة لم أندم أو أغضب بسبب الاستغناء عن عملها، ولكن هذا قد أوجد بي شعور أن كل غريب ليس له مقام، وإن

طالت به الأيام، خصوصًا في كثير من بلاد العرب التي راحت تضرب في أعماقها الإقليمية.

وهكذا، رحتُ أمهد ببطء وبهدوء لإعلان قرار الهجرة في الوقت المناسب لمن حولي خصوصًا للدائرة الصغيرة من الأقارب الذين كانوا يعيشون في (الإمارات)، إلا أن السرّية العامة كان لها الأولوية في ذلك الوقت لمن هم خارج دائرة الأقارب، ولهذا فكل ما كنت أقوله في البداية أمام الإخوة والأقارب في (أبو ظبي)، هو إنني أفضل الهجرة إلى أي دولة غربية، وكنت بلا تحديد أكثر الحديث في هذا الموضوع، وكنت لا أعطي معلومات أوسع من ذلك، وطبعًا لم أقل مثلاً بأن لي معاملة هجرة كانت تأخذ مجراها الآن في (كندا)، ولكن وحسب قواعد الأخلاق العامة لم أستطع إلا أن أُلمح على الأقل للأقارب وذلك حتى لا أُتهم بالخبث أو المكر، أو أن حاجاتي لا أقضيها إلا في الظلام.

استمرت حالة القلق والترقب تسيطر على كياني، وبقيت أيضًا غير مصدق بأنني سأحصل على تصاريح الهجرة الكندية لأسرتي، ولم أتخيل نفسي في تلك الأيام مسافرًا إلى عالم كل ما فيه بالنسبة لأسرتي مجهول، مضتْ الأيام وأنا أعدها يومًا وأسبوعًا وشهرًا، وبعد حوالي أربعة شهور على عودتي من (كندا) إلى (الإمارات)، وصلتني رسالة من مكتب الهجرة الكندية الذي كان يقع في (روما) بـ (إيطاليا)، وأُخبرت بأن مندوبًا خلال خمسة عشر يومًا من تاريخ الرسالة سيتصل بي بعد حضوره إلى (الإمارات)، وذلك لعمل مقابلة لي ولزوجتي للاطلاع والتأكد من الأوراق والشهادات التي كنت قد أشرتُ إليها في طلباتِ الهجرة في ملفي بمدينة (مونتريال)، وفعلاً حضر مندوب الهجرة وقابَلَنا، ولم تكن هناك صعوبات تذكر، وعلى أثر ذلك أعطاني معاملات الفحص الطبي لكل فرد من أسرتي، وأرشدنا إلى عيادة خاصة لأحد الأطباء الموثوقين بالنسبة لدائرة الهجرة الكندية،

وكان يُقيم هذا الطبيب في مدينة (أبو ظبي) التي كنّا نقيم فيها، أجرينا الفحص الطبي وأرسلنا النتيجة بعناية خاصة إلى مكتب (روما) كما كان يتوجب، بعد حوالي ثمانية شهور على بدء معاملة الهجرة، وصلتنا تصاريح الهجرة أو الفيزا ومعها أوراق أخرى كثيرة، وهكذا أضحى الباب مفتوحًا لنا كي نسافر إلى (كندا) وقت ما نشاء.

خلال الأشهر القليلة الباقية لعطلة المدارس عملنا على إعداد وترجمة شهادات ميلاد أفراد الأسرة وكذلك الشهادت الدراسية وكافة ما يلزم في هذا القبيل، وأبقينا هذه التفاصيل أيضًا سرًا على كل الناس، بعد انتهاء العام الدراسي للأبناء، طلبتُ إجازة سنوية لمدة خمسة وأربعين يومًا، وأخبرت المحيطين بي في العمل بأنني ذاهب والأسرة لزيارة (فلسطين) المحتلة، أما الأقارب والأصدقاء المقربين جدًا فقد أخبرتهم بحقيقة الأمر، بأننا ذاهبون إلى (كندا) أو كما هو العرف والعادة.



١٩-٧ الهجرة إلى (كندا).

في الأول من يوليو سنة ١٩٨٦م، وكان يُرافقنا أسرة فلسطينية أخرى، سافرنا بالطائرة متجهين إلى (كندا)، كان خط رحلتنا يبدأ من (أبو ظبي) ومنها إلى (لندن) العاصمة البريطانية لكي نستريح لساعات قلائل، ومن هناك نتجه إلى العالم الجديد، وكانت غايتنا (كندا).

بينما كنت أجلس خلال أغلب ساعات الرحلة على مقعدي في تلك الطائرة كنت في أغلب الوقت أحاول الهروب من ذلك الواقع مستعينًا بالنوم، وكان الركون إلى الهدوء والدعة فرضا عليّ وعلى غيري وليس غاية، ولهذا فمن الطبيعي حينما يفرض السكون على حركة الجسم البشري فإن الفكر يسرح ويبني غيوم الخيال، ولا تجد النفس البشرية إلا أن تعتلي ظهر تلك الغيوم وتبدأ الكر والفر، كانت تتقاذفني في تلك الرحلة أفكار وأفكار، وكنت أحاول في حلمي وأنا بين النوم واليقظة أن أمسك بخيط ولو رفيع من المستقبل المجهول الذي أنا ذاهب إليه، فلم أستطع، كنت أستعيد ذكريات الوطن (فلسطين)، وكانت الأفكار في مخيلتي تتقاذف يمنة ويسرة، وكانت تختلط مع بعضها، وكان يصعب عليّ الفصل بينها لتزاحمها وكثافة محتوياتها، كنت أسأل نفسي: ما هذا الذي أنا فاعله بي وبأسرتي؟ وهل هو حلم أم علم؟ وماذا يقول الأهل والأقارب عني خصوصًا في الوطن (فلسطين)؟ وهل يقبل ذلك والدي حينما تصله الأخبار؟ ثم ما هو مستقبل ومصير أبنائي؟ فهل سيتغلبون على الحياة الجديدة؟ وهل سيستوعبون اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية لذلك البلد؟ وهل سيصيبون قسطا من التعليم كما نحلم وكما هو هدفنا وأحد أسبابنا الهامة لاتخاذ قرار الهجرة؟ وما هو مستقبلنا ومستقبلهم؟

كنتُ أسهو قليلاً وأنا على هذا الحال، وربما كنت أغطس في بعض وديان النوم الضحلة إلى أن أصل إلى محطة لا للصحو ولا للنوم، كنت أصحو فجأة على هدير تربينات الطائرة وكأنني أسمعها لأول مرة، وكنت أفتح عيناي وأعتدل قليلاً وأُلقي نظرة سريعة في أي اتجاه قبل أن أعود لأكمل أو أكرر ما كنتُ فيه على ظهر الغيم، كنت أقول لنفسي: مَن يدري فقد لا توافق علينا (كندا) لسبب أو لآخر؟ وربما يقولون لنا في المطار عودوا من حيث أتيتم؟

وكان يخفف وقع هذا على نفسي بأن إقامتي لا زالت صالحة في (الإمارات) وأنا لم أستقل بعد، وهم في (الإمارات) لا يعرفون ما أصنعه الآن، بل يعتقدون أني أمارس إجازتي السنوية، وحتى لو فشلت واكتشفوا الأمر فسأعمل على محاولة تكذيب الخبر لأن لا أحد يستطيع إثبات ذلك على الأقل، كان يقطع حبل تفكيري أحيانًا صديقي الذي كان يسافر وأسرته معنا على نفس الطائرة، كان يمر وكان يتوقف أحيانًا بجانب المقاعد التي كنا نجلس عليها أنا وأسرتي، وكان يقول لي، هيا نجلس في بعض المقاعد الخلفية التي كانت خالية من الركاب لأجل تناول بعض المرطبات ونتحدث، وكنت أقضي معه في كل مرة حوالي نصف الساعة، كنا نتجاذب خلالها ما يخطر على بالنا من مواضيع وأحاديث، إلا أن القلق والحذر كانا القاسم المشترك بيننا كما كانا طيلة العام الماضي، الذي شرعنا فيه البدء في مشروع الهجرة.

في مطار (هثرو) بـ (لندن) عوملنا معاملة خاصة كوننا ركاب الخطوط الجوية البريطانية المتجهين إلى أمريكا الشمالية، وكان علينا أن ننتظر مدة ست ساعات هناك في قاعة خاصة كانت معدة خصيصًا لمن يعبرون من أمثالنا المحيط الأطلنطي، كان يتوفر مجانًا في تلك القاعة أغلب وسائل الراحة من كافة أنواع المشروبات والمكسرات والأكل السريع والحلويات والصحف والمجلات، وكذلك مشاهدة برامج التليفزيون، وكان يستطيع المرء

بحرية تامة أن يأخذ حمامًا باردًا أو ساخنًا في داخل تلك الاستراحة لو أراد، نمت في تلك القاعة على كرسي خاص ومريح لمدة تزيد على الساعتين، ارتحت خلالها كثيرًا مما أصابني من إعياء بسبب إقلاعنا متأخرين من مطار (أبو ظبي)، وحينما أزفتْ ساعة الشروع في إكمال الرحلة، وبدأ المسافرون يدخلون الطائرة التي ستقلنا من لندن إلى (كندا)، رُحب بنا عند مدخل الطائرة مثل كل المسافرين أجمل ترحيب، وقدم لنا طاقم الطائرة الحلويات وميداليات صغيرة ترمز إلى (كندا)، وقد علمنا حينها أن يوم الأول من يوليو الذي كنا نسافر فيه هو اليوم الوطني الكندي، وهو ذكرى قيام (الاتحاد الكندي) في شمال القارة الأمريكية، كانت الرحلة طويلة المسافة والزمن وقد غطيناها بخليط من الأمل والقلق والشك والتفاؤل والخوف الذي كان الفكر يأخذنا إلى شطآنها المختلفة.

١٩-٨ رسالة لا تنسى.

في مطار ميرابيل بمدينة (مونتريال) بـ (كندا) وجّهَنا المسئولون إلى ركن خاص بالمطار كوننا لسنا مسافرين عاديين، واستقبلنا رجالٌ ونساء متخصصون في شئون الهجرة والتعامل مع البشر، كان الجانب الإنساني عندهم رفيعًا جدًا، رحبوا بنا أجمل ترحيب، واطلعوا على كل ما يهمهم من وثائق وأوراق لدينا، ودونوا كل ما احتاجوا إليه من معلومات عنّا، وقدموا لنا عناوين الدوائر والخدمات الحكومية، وقدموا لنا معلومات كثيرة عن الخدمات المتوقع لنا أن نحتاجها في البلد الجديد، وربما هم قد استقوها من التجارب على مدى السنين، ففي (كندا) وزارة هجرة، ودوائر متخصصة ومكاتب لا حصر لها لشئون الهجرة، وكلها تعمل من أجل القادمين الجدد، و(كندا) تختلف بهذا عن دول كثيرة في هذه المعمورة، كنا نحمل معنا أربعة عشرة حقيبة سفر من جميع الأشكال والأحجام، كانت محتوياتها هي كل ما حاز على اهتمامنا من حاجاتنا الموجودة في (أبو

ظبي)، وخصوصًا الملابس والأشياء الخاصة جدًا، أرشدنا بعد ذلك إلى ناحية قسم الجمارك في المطار، وقد حمّلنا حقائبنا على ثلاث عربات من عربات المطار التي تدفع باليد، وأضحى جل همنا هو أن نتمكن بسهولة ويسر فتح تلك الحقائب واحدة تلو الأخرى، وذلك لكي يتم تفتيشها كما تعودنا دائمًا حينما كنا نُسافر من دولة إلى أخرى في بلادنا العربية، همست للزوجة والأبناء القادرين، أن يبدأوا في فتح أقفال تلك الحقائب، على أن تظل مغلقة وفي مكانها على العربات، وذلك بهدف حتى إذا جاءنا الدور قمنا بإلقائها بسرعة واحدة تلو الأخرى على طاولات التفتيش، وذلك لنختصر ونوفر الوقت بعد تلك الرحلة المرهقة الطويلة.

في تلك الأثناء كان رجل الجمارك يقوم بتفتشيش حقيبة يدوية لرجل كان يبدو أوروبيًا أو كنديًا كان يقف أمامنا على الدور، وقد استغرق تفتيش حقيبة الرجل وأنا أرقب الأمر من بعيد مدة لا تقل عن عشرين دقيقة، ورأيت رجل الجمارك يلتقط بعض العلب الصغيرة وما يشابه الأدوات الشخصية والأدوية من حقيبة الرجل وكان يدون أحيانًا بعض الملاحظات في نموذج من الورق الرسمي كان موضوعًا أمامه، وبينما كنت أشاهد هذا قلتُ عن بعد هامسًا لزوجتي بلغتنا العربية، انظري، إذا كان هذا المسافر بحقيبته الصغيرة التي تعتبر أصغر من أي حقيبة معنا يمضي هذا الوقت كله من أجل التفتيش فكيف سيكون الأمر معنا ونحن قادمين بأربع عشرة حقيبة، يا ويلنا.

ثم جاء دورنا أمام مسئول الجمارك، وكنتُ وبقية الأسرة وكأننا في حالة استنفار وكنا متيقظين وقد جمعنا كل ما بقي لدينا من طاقة بعد عناء سفر سبع عشرة ساعة أو خمس وعشرين ساعة بما فيها الانتظار في المطارات، وبمجرد ما أن أشار لي رجل الجمارك بالتقدم نحوه، وقبل أن تتحرك إحدى قدماي بأي خطوة، قلتُ لأسرتي، هيا، وكنت

أعني أن يضعوا كما أفهمتهم حقيبتين مرة واحدة على طاولة التفتيش التي لا تسمح مساحة سطحها بأكثر من ذلك، وفعلا قمنا وطرحنا حقيبتين على الطاولة، وضغطتُ على أزرّة إحدى الحقيبتين محاولا فتحها، وإذا برجل الجمارك يُفاجئني معترضًا، وقال بلهجة ثابتة: "لا، ليس الآن يا سيد".

كان تفسيري اللحظي لما قال رجل الجمارك، بأنه أيضًا سيقوم بالتفتيش ولكن في وقت هو سيحدده، وسيختار الكيفية التي يراها، كان في داخلي وفي قناعتي بأن التفتيش لا بد أن يحدث، وهو في الحقيقة ما تعودت عليه كفلسطيني خصوصًا في بلاد العرب، قال الرجل، أعطني أولاً ما معك من أوراق ومعاملات هجرة، مددتُ إليه مجموعة الأوراق، وقد كانت كل ما معي في ذلك الوقت، ولم يهتم بوثائق سفرنا الفلسطينية فقد أعادها لي دون أن يفتح صفحة واحدة من إحداها، واهتم فقط بالأوراق الكندية، وراح يُقلبها ويعطيني بعضها ويأخذ بعضها الآخر، وكان يقول: "هذه لك" ويقدمها لي، و"هذه لي" ويضعها بجانبه، وكرر تلك الكلمات "وأصبحتْ من الذكريات".

بعد أن أنهى الرجل التعامل مع الأوراق الرسمية، قال" انتهى، فهمت من تلك الكلمة أن الدور الآن أتى لتفتيش حقائب السفر، وهكذا وجدت نفسي أستدير ناحية الحقيبتين الموضوعتين على الطاولة، ومددت يداي لإكمال فتحها، فقال الرجل: "لا، لقد انتهينا يا سيدي"، وأكمل قائلاً أيضًا" "أنت وأسرتك تعبتم كثيرًا خارج (كندا)، وأنتم الآن قادمون إلى بيتكم، أهلا وسهلا بكم، وحظًا سعيدًا".

ما كدت أن أسمع تلك العبارات حتى رحتُ أشعر وكأنني أرتفع عن الأرض، ورحت للحظات لا أشعر بأي شيء في هذه الدنيا سوى وقع كلماته في نفسي، تلك الكلمات التي سكنت كياني كله، وأنستني إرهاق السفر، ويبدو أنني كنت بحاجة ماسة إلى ذلك العزاء، بعد رحلة العمر التي رأيت فيها ألوان التمييز والعنصرية وعدم المساواة، ما

كدت أسمع تلك الكلمات وإذ بي أمد يدي عفويًا لمصافحة الرجل بحرارة، وشعرت بأنه عزيز عليّ، وأضحت كلماته بعد ذلك أهم ما ظل يذكرني بانتمائي لبلدي العظيم الثاني (كندا)، وما كدتُ أنهي مصافحته ولكن هيهات، فقد بقيت واقعًا تحت تأثير ما قاله، وتحركت وأسرتي في اتجاه بوابة الخروج، فإذا بي أيضًا وقد رحت أصافح كل من قابلته وظننتُ أنه من موظفي المطار، وذلك بطريقة عفوية وساذجة.

هذا، وكنت بواسطة الهاتف من (أبو ظبي) قد كلفتُ مسبقًا مكتب الهجرة بحجز شقة لي في وسط مدينة (مونتريال) تقريبًا، كما يُفضل دائمًا الأغراب وسط المدن، وتمكن فقط ذلك المكتب من استئجار شقتين صغيرتين مفروشتين ومنفصلتين عن بعضهما البعض، وكان ذلك في بناية (ليمون فورت) التي تقع في شارع (مازونيف)وسط مدينة (مونتريال).

في مدينة (مونتريال) ابتدأنا حياة جديدة من الصفر، ولم يكن لدينا شيء سوى النقود، وهي ليستْ دائمًا كل شيء، تقابلنا أنا وصديقي الذي جاء معي على نفس الطائرة بأحد المعارف الآخرين من الفلسطينيين، الذي وصل إلى مدينة (مونتريال) بعدنا بأسبوع قادما أيضًا من (الإمارات)، وأصبح ثلاثتنا نتعاون في بعض الأشياء البسيطة، ورحنا نتعكز أو نرتكز على بعضنا البعض، ورحنا نتشاور فيما يتوجب عمله، وشرعنا في تأكيد مصالحنا وخاصة أطفالنا فيما يهم من ناحية تسجيلهم بمدارس الدولة مثلاً، وحصلنا أيضًا على بطاقات التأمين الاجتماعي لكل فرد من أفراد أرنا، وكذلك على البطاقات الصحية، وفتحنا الحسابات البنكية، ولم يكن كل ذلك سهلاً في مدينة (مونتريال) التي يُفضل غالبية أهلها أن يتحدثوا بالفرنسية التي لا أجيده،ا حتى في الدوائر العامة.

١٩-٩ الاستقالة من العمل.

أمضيتُ مع الأسرة في (مونتريال) فترة الإجازة السنوية، وكنتُ قد غيرت سكن الأسرة بعد حوالي أسبوعين، واستأجرت شقة أخرى في عمارة سكنية يتوفر حولها كل الخدمات العامة التي تلزم للأسرة والأطفال، وكانت تقع في وسط مدينة (مونتريال) في بناية (شاتو لنكولن رقم ١٩٥٠) في شارع (لنكولن)، وكانت بالدور الرابع، كانت الشقة عبارة عن غرفتين نوم فقط، وكان أفضل ما تمتاز به هو الأمان ويستطيع الساكن أن يرى عبر شاشة خاصة وهو في شقته من سيزوره قبل أن يضغط على زر فتح الباب الرئيسي الخارجي للعمارة، كنت قد أكملت الشقة بضرورات الأثاث والأدوات المنزلية وبما يستوعب حجمها الصغير نسبيًا ومساحتها، قضيت معظم إجازتي السنوية في ترتيب الحياة العامة للأسرة، واللافت للنظر هو أننا كنا نتخذ القرارات بالعقلية التي أتينا بها، وحسب متطلبات الحياة الشرقية، لم نقابل في تلك الأيام سوى أفرادا قلائل من العرب الموجودين في (كندا)، وحتى هؤلاء فقد كانوا يختلفون عنا كثيرًا في أكثر من مجال أو مفهوم، لأنهم قد أتوا من بيئات غير بيئتنا، ومن ظروف اجتماعية تختلف عن ظروفنا، وجاؤا إلى (كندا) وهم صغار السن وكبروا فيها وشربوا عاداتها، وكنا نشعر بخيط رفيع فقط بما يربطنا معهم هذا بالإضافة إلى اللغة العربية، ماذا تنفع اللغة إذا كانت العقلية والعادات والتقاليد مختلفة، ونبع التراث قد انقطع منذ زمن، ولذلك كان أغلب هؤلاء الإخوة يتصرفون بتصنع أحيانًا، ولندرة وجودهم حولنا فقد كانت مساعداتهم وإرشاداتهم محدودة، بل محدودة جدًا.

شعرت بشيء من الراحة بعد أن أتممت الإقامة في (مونتريال)، وأسعدني أيضًا أنني أصبحت أشعر أن لي بيتًا في هذه المدينة الشهيرة، وبدأ يتطرق إلى نفسي بأنني أصبحت

مثل المترفين الذين كنت أسمع عنهم من حيث ملكيتهم أو أن لهم شققًا في (بريطانيا) أو (فرنسا) أو غيرها، وقد كنت أسمع قبل هذا عن مثل هذه الأمور، وكنت أحسد أولئك الناس الذي يستطيعون أن يتمتعوا بالاستقرار حتى في أرقى بلاد العالم حضارة، تلك البلاد التي كنت أحلم فقط أن أزورها.

بعد أن أزفت ساعة العودة إلى (أبو ظبي) وقاربتْ الإجازة على الانتهاء، رتبتُ أموري الخاصة والعامة، وفي اليوم المحدد لمغادرتي (كندا)، رحت أودع وأسلم على أفراد أسرتي وأحدًا تلو الآخر كعادتي حينما كنتُ أسافر خارج البلد الذي يقيمون فيه، وما أكثر ما سافرت خلال عملي بـ (الإمارات)، لقد كان الوداع في المرات السابقة روتينيا، وكنت أكرر فيه عبارات مصكوكة ومعروفة ولا أستطيع غيرها، كنت أقول للأسرة مثلاً" ديروا بالكم"، وكان هذا موجهًا للزوجة، وأقول للأبناء: "شدوا حيلكم واهتموا بالدراسة وأطيعوا والدتكم". وكنت أقول أشياء أخرى من هذه المعاني، وكنت أطبع قبلاتي على وجنات الأطفال، واحدة على جهة اليمين والأخرى على جهة اليسار، وكانوا هم أيضًا يفعلون بالمثل.

في يوم السفر من مدينة (مونتريال) بتاريخ ١٦/ ٨/ ١٩٨٦م، تنقلتُ مودعًا بين ابن وابن، وكنتُ أتعانق مع كل واحد منهم، وكان مصادفة أن تكون الابنة (ريم) آخرهم في الوداع والمعانقة، كان عمرها في ذلك الحين اثنا عشر عامًا، قبّلتها كما فعلت مع إخوتها، وما كدت أنهي عبارة "ديري بالك يا ريم"، فإذا بها وعلى غير العادة تمسك بقميصي بيديها وبكل قوتها وبتشبث لم أعهده أبدًا من قبل، وشرعت تقول:"أبي، أبي لا تتركني، لا تتركني وحدي هنا، حرام عليك لا تتركني". ما كدت أن أسمع تلك العبارات حتى أصابني الذهول، أو كأنني غير مصدق ما أسمع أو ما أرى، استطعت أن أتمالك نفسي

بالكاد، وقلت لها، ما هذا الذي تفعلينه يا (ريم)، أنا سأعود بإذن الله، وأنا ذاهب كي أقدم استقالتي من العمل، وأردفتُ قائلاً لها، ألم أقل لك ذلك من قبل؟ وكلكم تعرفون هذا؟ وحاولتُ برفق أن أفك يديها عن قميصي، ما كدت أنهي كلامي هذا حتى رأيتها وقد تشبثت أكثر بالقميص وأحكمت مسكتها، وراحت تكرر: "لا تتركني يا أبي، لا تتركني هنا، حرام عليك، الله يخليك، لا تتركني وحدي". بعد أن اخترقتني توسلاتها فقدت السيطرة على نفسي وضعفت قوتي أمامها، ولم أعد أقاوم وتركت يديها ممسكتين بقميصي، وأضحيت حائرًا ماذا أفعل، أما يداي فقد كانتا حول يديها ما بين الكوع والكفين ترتكزان برفق وحنان، وفي الحقيقة كان بداخلي رغبة أن أمسك بها أكثر مما هي ممسكة بي، كل ذلك حدث خلال ثوان معدودة، وصنعتْ توسلات (ريم) شعورًا غريبًا في داخلي لم أشعر به قبلاً، أو كأنها قد أيقظتني على أشياء جديدة، في تلك الأثناء رأيت الزوجة تتقدم نحونا، وقد بدأت الدموع تترقرق في عيناها حزنًا على ما رأت، وكانت توجه نظرها تجاه أيدينا، رأيتها وقد مدت يديها إلى أيدي ابنتها، وراحت تحاول برفق تخليص قميصي منها، وقالت لها: "خلاص، خلاص يا (ريم)، سيعود يا ماما، سيعود".

لا أدري كيف تخلصت منها، ولم أصحو على نفسي إلا وأنا في الشارع خارج البناية متوجهًا على الأقدام سيرًا إلى موقف باصات المطار أمام فندق (الملكة اليزابيث) الواقع في منتصف مدينة (مونتريال)، والذي لم يكن يبعد عن سكننا سوى مسافة دقائق، ولم تكن معي حقيبة سفر من أي نوع، واكتفيت فقط بما علي من قميص وبنطال ووثيقة السفر الفلسطينية والفيزا الكندية فقط، وذلك لأن الخطة كانت أن نحضر معظم أشياءنا من (أبو ظبي) بقدر الإمكان، ركبتُ الباص متوجهًا إلى مطار (مرابيل) الذي يبعد حوالي الساعة عن وسط المدينة، وبالطائرة عدتُ إلى (الإمارات).

وصلتُ إلى (أبو ظبي)، وفي أول يوم عدت فيه إلى العمل بعد الإجازة، تقابلتُ مع المدير في مكتبه، سلمتُ عليه سلام العائدين من الإجازة، وكانت معنوياتي عالية جدًا في ذلك الصباح، وكنتُ أرغب أن أُسمعه الخبر اليقين، وأن أُعطيه فكرة عن إنني أستطيع فعل شيء حتى وإن كنت فلسطينيًا جار عليه الزمان، جلستُ على إحدى الكنبات وكان هناك اثنان آخران من الضباط المواطنين من الذين كانوا يعملون معنا في نفس الجهاز، وراح المدير يُدير الحديث كما هي العادة، وسألني مازحًا: "أين أنت يا (أبا رائد)، كنا نتصفح الجرائد كل اليوم لكي نعرف ماذا حدث لك، أو هل اعتقلتك (إسرائيل)". وكنت قد أخبرته سابقًا قبل ممارسة الإجازة، بأن حجتي وإصراري على طلبها في ذلك الوقت بالذات خلال الصيف، بأنني ذاهب لزيارة مدينة (غَزّة) التي يُقيم فيها الأهل، فقد كان من عادة المديرية العامة للشرطة أن تنظم الإجازات السنوية للضباط حتى لا يتأثر العمل، وخصوصًا وأن الغالبية كانت تُفضل أخذ الإجازات خلال أشهر الصيف الحار جدًا في تلك البلاد، أجبتُ على مزاح رئيسي في العمل وقلت: "في الحقيقة أنا لم أذهب إلى (غَزّة) لأنني لم أحصل على تصريح للزيارة بعد، وبدلاً من ذلك فقد ذهبتُ والأسرة لزيارة (كندا)"، ولم أترك فراغًا لأحد لكي يقاطعني لماذا ذهبت إلى (كندا)، وأردفتُ قائلاً: "وقد أعجبتني تلك البلاد وقد حصلنا على الإقامة فيها، ولذلك تركتُ أسرتي هناك". وأكملت قائلا أيضًا: "وجزآكم الله خيرًا في شرطة (أبو ظبي) إذا استغنيتم عن خدماتي، وبسرعة رجاء."

قلت هذا وأنا في أعلى درجات النشوة والشعور بالانتصار، وكأنني أقول له، حينما أحجمت بصدق عن مساعدتي في الحصول على جنسية (الإمارات)، فسأدعك الآن لكي تكون في موقف لا تُحمد عليه بسبب الفراغ الذي سأتركه في العمل، وعليك أن تواجه المجهول في العمل من بعدي، والذي لن يكون أبدًا أفضل مما كنت معك فيه بأي حال

من الأحوال، مجرد ما ذكرت له ذلك ردًا على مزاحه، رأيت وجهه وقد امتقع وتغير لونه، وأهل تلك المنطقة بصفة عامة لهم بشرة خاصة، هم ليسوا سودًا ولكن السواد أو الحنطية تغلب عليهم، ومع السواد تشع لمعة على وجوههم، أما هو في تلك اللحظات فقد رأيت تلك اللمعة وقد خبت، واستقر مكانها شيء من العبوس الخفي، وازداد وصار وجهه يميل إلى الزرقة، صمت قليلاً ربما لنصف دقيقة ثم قال متسائلا بشيء من الجدية هذه المرة: "وماذا ستفعل في (كندا) يا أبا رائد؟" قلت: "أنا مهندس، وهل نيستَ ذلك؟" قال وقد بلع ريقه وصدّق ما قلت: "وكم من الراتب ستتقاضى هناك؟" قلتُ بلا تفكير: "أربعة آلاف دولار"، وكنت أعلم بأن هذا المبلغ يساوي حوالي ما كنت أتقاضاه شهريًا خلال عملي مع الشرطة في (أبو ظبي) في ذلك الوقت، وأضفتُ أيضًا قائلا: "وهذا الراتب مع وجود الاستقرار وفرصة تعليم الأبناء مجانًا مُستقبلاً يعني الكثير مقارنة مع ما أحصل عليه من راتب كبير بلا مميزات في (أبو ظبي)". وتوقف الحديث عند هذا الحد في ذلك الصباح.

بعد يومين بالتحديد، وكنا نجلس في مكتبي هذه المرة، قال المدير: "حسنا يا (عبد الكريم)، لتبق أسرتك في (كندا)، وتستطيع أن تبقى أنت أيضًا في العمل في (أبو ظبي)، وإنك لست الوحيد الذي يعمل هنا دون أن تكون أسرته عنده". وأكمل: "يوجد الكثيرين كما تعلم من الإخوة العرب، سواء من (مصر) أو (سوريا) أو (لبنان) أو غيرهم ممن يعملون هنا وأُسَرهم تعيش في بلادها، وتستطيع أن تفعل ذلك مثلهم أيضًا". وقال محاولا توصيل قناعاته إليّ: "بعد سنتين أو ثلاثة تستطيع أن تقارن أين الأفضل وأيهما الأفيد لك ولأسرتك، وحينها تكون أكثر حرية في اتخاذ القرار المناسب". كان ردي على كل هذا بأنني من النوع الذي يهتم بشيء واحد فقط، ولا أفضل أن أكون مشغولاً باستمرار، وقد اتخذت قرار الهجرة بعد تفكير عميق، ولا أود أن أعود لعمل

الحسابات من جديد، وقد أمضيتُ سنتين مع تلك الحسبة كنتُ أضيف إلى هنا وأنقص من هناك حتى كان القرار النهائي.

كان رئيس القسم فيما قاله - وإن بدت حجته منطقية - يهتم بمصالحه وليس بمصالحي ومصالح أسرتي، وهو من النوع الذي يستطيع التبرير وإعطاء ما يقول صفة الصواب، إلا أنني لم أعد أثق به بعد، وكنت أعلم أن علاقتنا هي علاقة مصالح متوازنة، وقد شعر الآن فقط بأن عمله ومستقبله قد أصبحا مهددين، في العمل الذي كان يُدر عليه فوائد لا تُعد ولا تحصى من أوجه الحياة، وأين لهذا الرجل الذي لم يصب أي قسط من التعليم في أن يجد عملاً مماثلا لمهنة عقيد في شرطة (أبو ظبي)، وأين له أن يرأس حوالي خمسة آلاف عسكري ومدني من الإداريين ومن الفنيين عسكريين ومدنيين، لقد كان يتقاضى راتبًا خياليًا بما فيه العلاوات الكثيرة التي كان المواطنون يمتازون بها عن الوافدين، وحتى هذا لم يكن شيئًا يذكر مُقابل منح قطع الأراضي الزراعية والتجارية والسكنية والصناعية في دولة ناشئة ضامنة لكل ما كان يسعى إليه المواطن ولا يتجاوز تعداد أهلها المائة والخمسين ألفًا من البشر، كان للمواطن وحسب المكانة التي كان يشغلها في الدولة يحصل على التصاريح وعلى الرخص المختلفة للبناء والتجارة والاستثمار، كان رئيس القسم وأمثاله يتخذون أماكن أعمالهم وكأنها ملكيات خاصة، كما كان الحال عند من هم أعلى مركزا أو أدنى منهم، وكانت هذه المعادلة مقبولة ما بين المواطنين، وكان شعارهم دائمًا، إن الدولة غنية وقد وجدت لمساعدة المواطنين، وفي مقابل ذلك الويل والثبور وعواقب الأمور إذا استفاد أحد الأجانب شيئًا مهما كان ضئيلاً من مجال عمله، لقد كان يتعرض الأجنبي أو الوافد للمحاكمة والسجن والتسفير من الدولة كلها، كان رئيس القسم وأمثاله يستعملون مقدرات العمل المادية والعينية لمصالحهم الخاصة، كان مثلاً يستعمل أكثر من أي سيارة من أملاك الشرطة أو الدولة في أموره الأسرية مهما كانت

تافهة، وكثيرًا ما كان خدمه في بيته مثلاً يُعينون تحت أسماء مهن فنية أو إدارية على ملاك القسم الذي نعمل فيه، وكانوا يتقاضون رواتبهم من الدولة، ولا نراهم بعد ذلك إلا في كشوف أسماء الموظفين والمراسلات الإدارية، وكان ينطبق هذا أيضًا على السائق الخاص وعلى المزارعين والحراس وغيرهم ممن كانوا يعملون عنده، كان أيضًا يأخذ ما يريد من الأشياء الفنية التي تملكها الشرطة، كان يأخذ مثلاً أحد مولدات الكهرباء التي تعمل بالديزل، وكان يضعه ويستعمله في مزرعته الخاصة خارج العاصمة ولا يُعيده إلا إذا انتهى أجله من حيث القدم أو لإصلاحه، كان يأخذ قطع الغيار والخامات من المستودعات بكميات مذهلة، خصوصًا تلك التي كانت تلزم في أعمال الصيانة الميكانيكية والكهربائية، لأعمال شركته التي أضحى يملك بموجبها أسطولاً من الناقلات العملاقة التي كانت تعمل في النقل ما بين الإمارات، وكنا نتندر نحن الوافدين ونقول، نحن نتقاضى مقابل ما نقدمه من جهد في وظائفنا رواتب هزيلة مثل طوابع البريد مقارنة بما كان يحصل عليه المواطنون.

بعد أسبوعين من استئنافي للعمل قدمتُ استقالة خطية موجهة إلى المدير العام للشرطة حسب ما هو متبع، وقدمتها للمدير لكي يضع عليها شروحاته لأجل أن يرفعها للإدارة ومن ثم إلى وزير الداخلية، في البداية تلكأ رئيس القسم في إرسالها، وفاوضني بأن أكمل حتى شهر يونية القادم حيث نهاية التعاقد مع الشرطة الذي كان يُجدد كل سنتين تلقائيًا لأمثالي، إلا أنني ذكّرته بأنني لستُ مواطنًا وكما أن للشرطة الحق في إيقافي عن العمل في أي وقت تشاء كما كان يحدث للوافدين أحيانًا فيحق لي أيضًا بأن أقدم استقالتي وقت ما أشاء، وهكذا بقيتُ مصرًا بثبات على الاستقالة، أخيرًا، وفي جو ودّي في يوم آخر حددنا بداية الاستقالة لكي تصبح فعاليتها نافذة اعتبارًا من ٣ يناير عام ١٩٨٧م، وكانت حجته في إقناعي بذلك، أن هناك مؤتمرًا سينعقد في (الإمارات) هو مؤتمر القمة الخليجي الرابع،

وذلك في شهر نوفمبر من عام ١٩٨٦م، وإن العمل، بل هو شخصيًا في حاجة ماسة لي خلال تلك الفترة، وسيكون لي فرصة أن أقضي فترة وداع خاصة مع الأصدقاء والزملاء، أحسستُ حينها أن رئيس القسم في حاجة ماسة لي، وأن عليّ واجبًا تجاه الحد الأدنى الذي تفرضه الصداقة والزمالة والعيش والملح، وتذكرت بأن للرجل بعض الجمائل السابقة، وإنني أكاد أن أكون حرًا الآن، وأصبحتُ سيد أمري ولا أخضع لأحد، ولذلك قبلتُ - كرمًا - البقاء حتى شهر يناير، ولم أفاوض كثيرًا من أجل الحصول على وقت مبكر إلى (كندا)، خصوصًا وإنني كنتُ بحاجة أيضًا إلى بعض الوقت في (الإمارات) لكي أصفي أموري، ولأجل أن أتخلص مما تبقى من الأثاث والحاجيات الأسرية بطريقة أو بأخرى، وكي أُسلم ما بحيازتي من عُهد في مجال العمل، وكي أُسلم الشقة التي كنا نسكنها والتي كانت على نفقة الدولة، وأما في الحقيقة فقد تمتعت كثيرًا في تلك الفترة خصوصًا بصيد السمك الذي أعشقه كثيرًا، وحيث كنتُ مع الأصدقاء الذين كانوا يملكون القوارب السريعة، كنا نذهب للصيد لمسافات بعيدة في لجج الخليج ونقضي وقتًا ممتعًا.



بسم الله الرحمن الرحيم

الإدارة العامة للشرطة / أبوظبي
الشؤون الذاتية

الرقم : ٣١٤٣ /
التاريخ : ٨ / ربيع أول / ١٤٠٧هـ
الموافق : ٥ / نوفمبر / ١٩٨٦م

قرار وزاري

استنادًا للصلاحيات المخولة لي بموجب قانون الشرطة والأمن رقم ١٢ / ١٩٧٦ أقرر مايلي :-

المادة الأولى

الموافقة على استقالة النقيب مهندس رقم ٣١٤٣ عبد الكريم محمود حسن عبد الهادي الحسيني / تشادي الجنسية ومن مرتب قسم المشاغل والنظم .

المادة الثانية

تنسب المذكور للخدمة بتاريخ ١٩٧٠/٨/٣٠ وبذلك يستحق مكافأة نهاية الخدمة على النحو التالي :-

أ . راتب شهر عن كل سنة من سنوات خدمته الخمس الأولى .
ب . راتب شهر ونصف عن كل سنة من سنوات خدمته الخمس الثانية .
جـ . راتب شهرين عن كل سنة باقية من خدمته .
د . راتب (١٨٠) يوماً عن اجازاته المتأخرة .

المادة الثالثة

ينفذ هذا القرار اعتباراً من ١٩٨٧/١/٣ .

اللواء /
وزير الدولة للشؤون الداخلية
- حمود بن طي -

تسلمت الى :-
- وكيل الوزارة / الشؤون الذاتية
- مدير ادارة الحسابات / الرواتب .
- شاشتي التوزيع أ ، ب .
- م . شؤون الضباط .

على مدى ثمانية عشر عامًا قضيتها في العمل بدولة (الإمارات)، لم أشعر خلالها أو في أي يوم من الأيام بالاستقرار كما يفهمه البشر، نعم كنتُ أعمل في وزارة الداخلية، وكان مطبوع خاتم كبير على وثيقة سفري كشهادة إقامة شرعية على أرض الدولة، وكان مؤشرًا خلالها بأنني أعمل في الإدارة العامة للشرطة، وهي أقوى الأجهزة التي تشرف على الأمن والاستقرار وعلى الأجانب في المجتمع، ومع ذلك فلم أشعر قط أيضًا بالاستقرار، ولست مبالغًا حينما أقول، بأنني ما من مرة كنت فيها خارج (الإمارات) إبان الإجازات السنوية وأحسستُ بالاستقرار أو بأنني سأعود مقبولاً في أرض

(الإمارات)، سواء كنتُ في إجازة أو في رحلة عمل أو في دورة دراسية أو تدريب أو غير هذا، كنت أتوقع في أي مرة أصل فيها مطار (أبو ظبي) عائدًا من إحدى تلك الرحلات، كنت أتوقع أن يُقال لي: "إنه غير مصرح لك بالدخول إلى الدولة"، وكان هذا فقط لو حدث فإنه كان يكفي لإلغاء وجودي كله في (الإمارات) وكأنني لم أكن يومًا هناك، هذا، ورغم كل ما ذكرت عن (الإمارات) فقد كانت (الإمارات) - وللأمانة - أفضل من يُعامل الوافدين بصفة عامة مقارنة بدول الخليج العربي الأخرى، وهذا ما لم يختلف عليه وافد عربي لسنين طويلة بشهادة القاصي والداني ممن عملوا في تلك الدول، لكن المعاملة العربية للفلسطينيين بصفة عامة هي الأدنى بالنسبة لمعاملة الدول الأجنبية لهم ما عدا (إسرائيل).

١٩-١٠ مغادرة (الإمارات).

قبل يوم واحد من مغادرتي أرض (الإمارات) نهائيًا، ذهبت بصحبة مديري – سابقًا – إلى مكتب المدير العام للشرطة، واستقبلني الأخير بترحاب وبابتسامة، وبعد أن جلسنا وشربنا الشاي والقهوة كما هي العادات، بادرني بالقول كمن يود أن يجامل ويتحدث في أي شيء وبأي شيء خصوصًا وأن علاقتي معه كانت شبه معدومة حتى سنوات قليلة خلت بعد أن شابها الفتور، وبقيت كذلك إلى أن طمستْ الأيام الأسباب التي جعلتها على تلك الشاكلة، أذكر في ذلك اليوم أن المدير العام للشرطة قال مجاملاً، لماذا تترك (الإمارات) يا (أبا رايد)؟ وكان أهل (الإمارات) يلفظون اسم (رائد) هكذا، وقال أيضًا في نفس الوقت: "إن (فلسطين) ليست قريبة من (كندا) وهنا هي أقرب"، وكان كما أظن يقصد أن العمل بحاجة لي أو هو نوع من المدح والمجاملة غير المباشرة، ما كان مني إلا أن رديت على تلك المجاملة وبطريقة عفوية: إن (فلسطين) قريبة إلى هناك أيضًا يا

سيدي". وكنتُ أقصد في نفسي، أنني أملك على الأقل في (كندا)، أن أخدم (فلسطين) بحرية الكلمة والرأي غير المتاحة لي في كثير من البلاد العربية، قال: "لماذا تركت العمل؟"، قلت: "لأنني أخذت نصيبي منه واكتفيت، ولا أريد أن أمثل على نفسي بالاستمرار".

اعتدت أن أكون دائمًا شبه رسمي في المواقف العامة، خصوصًا مع من هم أعلى مركزًا في العمل، وأنا أعترف بأنه يعوزني بعض من البروتوكول في بعض المواقف، ولهذا تراني أحيانًا أتحدث بأسلوب غير ما أود إيصاله إلى الطرف الآخر، ولذلك كثيرًا ما كنت أخسر في النتائج من حيث كان في نيتي أن أكسبها.
أذكر أن هذا هو كل ما دار في ذلك اللقاء في مكتب المدير العام للشرطة، وفي النهاية أخرج المدير العام للشرطة من درج مكتبه هدية مغلفة، وقام بتقديمها لي، وقال: "هذه هدية رمزية يا (أبو رايد)"، وأنهى كلامه بالقول لي، بأنه يمكنني وقتما أريد، أن أزور (الإمارات) سواء الأصدقاء أو الزملاء أو الأقارب أو أزوره هو، وأضاف أيضًا: "قد تكون بيوتنا صغيرة ولكن قلوبنا أكبر". ودّعته وشركته وبقيتْ كلماته ذكرى أعتز بها ولكن...

كان مشروع الهجرة بالنسبة لي، ولأغلب من قدموا من الفلسطينيين إلى (كندا)، خلال الفترة ما بين منتصف الثمانينيات ومنتصف التسعينات من القرن العشرين، لإعطاء الأبناء فرصة التعليم في الجامعات الكندية بصفة عامة، وذلك بعد أن أخذ الفلسطينيون يتعرضون لعدم القبول في معظم الجامعات العربية، وإن قُبلوا كانت الخيارات المتاحة لهم محدودة من ناحية التخصص، وكان لا يُرحب بهم في الكليات العملية كالطب والهندسة مثلاً كما أشرت في مكان آخر من هذا الكتاب، كان الهدف الثاني لهؤلاء المُهاجرين هو

السعي لأن يحصلوا وأفراد أسرهم على جنسية وجوازات سفر، ذلك بعد أن ذاقوا ألوانًا من العذاب بسبب فلسطينيتهم التي تنطق بها وثائق السفر التي كانت بعض الدول العربية تصدرها للفلسطينيين، لقد قدم في تلك الفترة إلى (كندا) حوالي ألفي عائلة معظمهم من الفلسطينيين الذي كانوا يُقيمون أو يعملون في دول مجلس التعاون العربي، وهي (السعودية) و(قطر) و(الكويت) و(البحرين) و(عمان) و(الإمارات) وغيرها.

١٩-١١ حقائق جديدة.

منذ أن حضرتُ إلى (كندا) أقمت وأسرتي في إقليم (كويبك)، وطويت صفحة من الحياة وفتحت أخرى، رحتُ أفكر في بناء بيت للأسرة، ولم يأخذني التفكير طويلا قبل أن أقرر أن أملك بيتًا لأول مرة في حياتي بعد أن علمت أنه لا يوجد شريك مواطن أو كفيل أو كما كان يحدث في بلادنا العربية العتيدة، وفعلاً اخترت موقعًا من الأرض وتعاقدت على بناء بيت كان أول ملكية عقارية لي في حياتي، لم يهتم معظم المهاجرين من أمثالنا بموضوع العمل في البداية، وفي الحقيقة لم نوليه اهتماماتنا كما أعطينا مثلاً موضوع الحصول على جنسية الدولة وتعليم الأبناء، وكان لكل رب أسرة اعتباراته وحساباته الخاصة، وكان أغلبنا ميسوري الحال بنسب متفاوتة، وكانوا يستطيعون أن يعيشوا معتمدين على مدخراتهم النقدية، وهذا ما أثبتته بعد ذلك الأيام والسنين الكثيرة التي مرتْ بعد ذلك، لكن الحقيقة أيضًا، هي، أن الكثيرين منا قد ظنوا في البداية أن موضوع العمل والنجاح فيه لا يحتاجان إلى جهد كبير في دولة مثل (كندا)، وأننا بمائة ألف دولار أمريكي مثلاً نستطيع شراء العمل الذي نريده، ويمكننا أن نضع فيه الموظفين الأكفاء من الكنديين الذين سيتعاملون أفضل منا مع العملاء كونهم من نفس العقلية، وكنا موقنين

بأننا سننجح كما نجحنا في الماضي في منطقة الخليج، ولقد غاب عنا أمران لم نأخذهما في الاعتبار، ولم نعمل لهما حسابا أبدًا، ولم يخطران لنا على بال.

الأمر الأول: كوننا عملنا في منطقة الخليج، فهذا لأن الناس هناك لم يكونوا يرقون إلى مستوى مهاراتنا ومستويات التعليم التي وصلنا إليها بصفة عامة، ونتج عن ذلك أن المنافسة بيننا وبين أهل الخليج كانت شبه معدومة، ولهذا بقينا نسير في غيّنا، وظللنا أسرى فهمنا على أننا ناجحون لأننا متفوقون على من حولنا، وحينما جئنا إلى المجتمع الكندي الذي لم يتطور ولم يتفوق ولم ينجح إلا بالمنافسة، بل بالمنافسة المستمرة القائمة على قدم وساق، والتي لا تعرف استقرارًا أبدًا، لم نستطع أن نثبت وجودنا، خصوصًا جيل الآباء.

الأمر الثاني: كان قد تأكد لنا قبل مجيئنا إلى (كندا) بأن أي عمل لا يرعاه صاحبه ولا يكون عموده الفقري وجود صاحبه على رأسه، لا يُكتب له النجاح خصوصًا في مجتمع (كندا) أو ما شابهه.

ولهذا ظلتْ قناعاتنا أنه لا بد من الحصول على عمل راق وأن نكون على رأسه، بل على مستوى الحياة المترفة نسبيًا أو كما تعودنا، وكذلك على المراكز الوظيفية العالية التي كان قد شغلها الكثيرون منا في البلاد العربية، ولكن أين هي الأعمال التي نرضى بها؟ وكنا أيضًا نطمع في الربح الكبير والسريع دون عمل الحسابات ودراسات الجدوى الاقتصادية المتأنية، وهذا على عكس الدراسات المتأنية والدقة المتناهية التي يتبعها الناس عادة في (كندا)، ولهذا حاول الكثيرون منا في مختلف الاتجاهات الاستثمارية والعملية وبأدوات ووسائل مختلفة، ولم يكتب النجاح الكامل لأحد منا أبدًا في هذا المضمار، ومرت السنوات ورحنا نصحو مع الأيام، وأصبحنا نجد أن الوقت لم يعد يعمل لصالحنا،

وأضحى عامل السن يحد من طموحاتنا كلما مرتْ السنوات والأيام، ولهذا رحنا مع الوقت نستسلم وأحدًا تلو الآخر بعد أن خاض معظمنا تجارب مريرة في الاستثمار الفاشل، ورحنا نصرف النظر عمليًا عن السعي لإيجاد عمل أو استثمار نطمئن إليه بعد أن قام كل واحد منا بتجربة عمل واحدة على الأقل ولم ينجح.

كنا في الحقيقة أسرى لمفاهيم لم نستطع التغلب عليها، وحينما بدأنا نستوعب ما كان يجري حولنا وبدأنا نفكر بمفهوم وعقلية المجتمع الجديد كان الوقت قد فات، وأصبح عائق السن وعدم المقدرة على مجارات الجديد، يعمل على انطوائنا وعزلنا رويدًا رويدًا عما يحدث حولنا، وأصبح كلما علمنا بجديد نضعف أكثر ونتقوقع حول أنفسنا، ورحنا نتأخر حسب قانون الحياة إلى الصف الخلفي بالنسبة لأبنائنا الذين كانوا يكبرون مع الوقت وصار الوقت يعمل لصالحهم بسرعة فائقة ويعمل ضدنا نحن الآباء والأمهات بنفس السرعة، بالنسبة لي كثيرًا ما تطرق إلى نفسي الندم حينما تنازلتُ عن عملي بـ (الإمارات)، لكنني كنت سرعان ما أعزي النفس بقرب حدوث المستقبل الزاهر للأبناء والتمتع بحمل الجواز الكندي.

كان العيش والتفكير في مثل هذه الظروف التي كنت أنام وأصحو عليها، كان يسرق الأيام وكان يسرق مواهبي وطاقاتي الفكرية التي كان يتوجب أن توضع في خدمة كل طموح لي من أجل أن تصبح أحوالنا كأسرة أفضل من أي وقت مضى، حاولتُ أن ادخل سوق الأعمال وليتني ما حاولت، لأنني لم أُخلق تاجرًا أو رجل أعمال، لكنني لم أندم، كان العزاء لفشلنا هو أننا كنا نحقد أكثر على (إسرائيل) ونغضب أكثر على أمتنا العربية لأنها السبب فيما أضحينا فيه.

١٩-١٢ الاستثمار في (كندا).

عام ١٩٨٨م مثلاً اشتريت بناية تجارية صغيرة شراكة مع أحد الفلسطينيين من أمثالي، واشترينا البقالة التي كانت بها، ورغم أنني لا أجيد إدارة مثل هذا العمل ولا أحبه، إلا أن صديقنا - شريكي الفلسطيني - شجعني وأصر على شراكتي، ولأنني أريد أن أفعل شيئًا قبلتُ، لكننا بعد عامين ونصف قمنا ببيعها غير نادمين بسبب الإرهاق الذي قاسيناه من العمل الذي لم نعتد عليه.

الثاني عشر من سبتمبر عام ١٩٨٩م كان يومًا فاصلا في حياتي، وكان يومًا فاصلا بين حدين أو مرحلتين أيضًا، كان علي أن أعبره ما دمت على قيد الحياة، وكان عليّ أن أتحمل تجرع مرارته لحظة بلحظة، في الصباح الباكر في ذلك اليوم صعقتُ بسماع خبر وفاة والدي عبر الهاتف القادم من مدينة (غزة)، كان والدي شيئًا كبيرًا وكان هامًا بالنسبة لي، كان رجلاً بسيطًا وطيبًا وصريحًا وصادقًا في كل ما يقول، وكان لا يخاف في الله لومة لائم، كنت أحترمه وكنت أحبه بقدر ما أهابه وأخاف منه، ولم يتغير هذا الإحساس وذاك الشعور حتى بعد أن كبرتُ وبعد أن أصبح لي قيمة في المجتمع، وبعد أن أصبحتُ ربَّ أسرة، وبعد أن رحت أنتج وأعمل وأساعده وأساعد الآخرين من أفراد أسرتنا.
لقد كان والدي أكثر إنسان حثني بطريقة أو بأخرى بأسلوبه البسيط ومعانيه العميقة لأن أكون شيئًا ما في هذه الحياة أو شيئًا له قيمة، لقد كان أكثر إنسان شجعني وكنت أحس بفرحته حينما أنجز شيئا، وحيث كانت فرحته في حد ذاتها هي تشجيعا لي لأن أمضي إلى الأمام وبلا حدود، كان يقول مثلاً وكمن كان يتساءل: "إن عبد الكريم رجل". وهو يعني أنني مميز، وكان يوجه كلامه هذا إلى والدتي بعد أن يسمع عن تصرف حسن أو فعل جميل أو موقف عام صدر عني، سواء كان هذا في حضوره أم في غيابه، وسواء وأنا

في (غَزّة) أو في (الإمارات)، خصوصًا ما كان له علاقة بالمواقف العامة تجاه الآخرين من الناس، كان والدي يحب الشهرة في مجتمعه وكان يحلم بالتفوق، وقد حققتُ لـه مـا أراد وكل ما أراد في محيطه الصغير في مجتمعنا الضيق، كان والـدي يعتـبرني هامًـا في التـوازن الاجتماعي مـع الآخـرين والمنافسـة الشريفـة التـي كثـيرًا مـا كانـت تحـدث في مجتمعنـا الفلسطيني بين الأُسَر في تلك الأيام.

لكن الحياة هي الحياة ولا بد لها أن تستمر ففي سـنة ١٩٨٩م كنـتُ قـد اشـتريت قطعـة أرض سكنية بهدف الاستثمار في موقع اسـتراتيجي مميـز عـلى نهـر (سـانت لـورنس) في (مونتريال) وبعد عام ونصف بعتهـا بـربح الفائـدة البنكيـة في ذلـك الوقـت، وفي عـام ١٩٩٠م اشتريت مزرعة بها أشجار غير منتجة وبعتها في نفس العام ولم تربح أيضًا، ولمـا كانت أراضي (كندا) شاسعة فإن أسعار الأراضي الزراعية خـارج المـدن تعتـبر رخيصـة جدًا مقارنة بأسعار الأراضي في البلاد العربية مثلاً، ففي عـام ١٩٩١م اشـتريت مزرعـة أخرى مساحتها ما يزيد عن (١٠٠٠ دونـمًا) أو(٢٤٠ فـدانًا) بحـوالي مائـة ألـف دولار أمريكي فقط، كان بها بيت وأشجار كثيفة غير مثمرة، والنصف الثاني من المزرعة كان به أشجار الصنوبر المزروعة بيد الإنسان بغرض استثمارها كأخشاب بعـد أن تُصـبح أقطـار جذوعها أكثر من اثنا عشرة بوصة للواحدة منهـا، وهـذا يحتـاج إلى عشرات السـنين، لم تُساعدني الظروف في استثمار تلك الأرض الشاسعة في أي شيء، لا بزراعة أجـزاء منهـا ولا بعمل إنتاج حيواني مفيد، لأنني لستُ مزارعًا في الأساس، وإن كنتُ من أسرة ريفية الأصل، وكان ما زال الأبناء أطفالاً ومراهقين وأصبحتْ اهتماماتهم تميل إلى ناحية الثقافة الغربية في غياب التغذية الثقافية العربية، التي كم حاولتُ أن أبقيهم عليها، لكن الهجمة الثقافية الأخرى كانت أقوى مني أحيانًا، ذلك لأن الطفـل كـان يـذهب في الصـباح إلى المدرسة مع الآخرين، والمدرسة هي مصنع الفكر من مُـدرس ومُدرسـة وزمـلاء ومـادة

تعليمية، وفي نهاية اليوم كان الطالب يعود إلى البيت مرهقًا، كان يأكل ويعمل واجباته المدرسية، ويشاهد قليلاً من التلفاز باللغة الأجنبية التي هي أيضًا برامج من ثقافة أخرى ثم ينام ليصحو ويتكرر هذا في اليوم التالي، ومع الوقت فبدلاً من أن نسحب الأبناء في اتجاهنا، أصبحنا نحن الكبار نتقبل بعضًا مما يفضلون حتى نبقي اللحمة الأسرية بيننا، كوننا قد تلمسنا طريقنا واقتنعنا أنه لا يمكن أن يحب الابن الشيء الذي أحبه الوالدان دائمًا، كنا نغري الأبناء بقدر ما نستطيع لحضور أنشطة الجاليات العربية، ونصحب بعضهم إلى الصلاة في المساجد مثلاً، وحينما تمكنا من التقاط القنوات الفضائية العربية عملنا على جلبها بجانب القنوات الأجنبية وصاروا يشاهدون معنا برامج عربية أحيانًا، وتمكنا من اجتياز المرحلة الخطرة من حياة الأبناء بسلام ولكن بشيء من الخسارة، لكن إلى أي مدى سيكون عليه الأحفاد مستقبلاً؟ فالله وحده يعلم فقط ذلك.

كان منا من اهتم وعمل ما عليه بأكثر مما ذكرت هنا تجاه الأبناء من أجل إبقائهم على عادات أهلهم، ومنا من عمل أقل مما ذكرت، ومنا من ترك الحبل على الغارب لأبنائه لكي يعيشوا في المجتمع بالطريقة التي يفضلها الشاب أو الفتاة.

١٩-١٣ الجنرال (جفاركزكوف).

في تلك الفترة من النصف الأول من تسعينات القرن العشرين، كنت قد قرأت كتاب مذكرات الجنرال (جفاركزكوف) قائد القوات الأمريكية في الشرق الأوسط، الذي قاد حملة ما سمي بـ (حرب تحرير الكويت سنة ١٩٩٠/ ١٩٩١م)، رغم أني كنت في ذلك الوقت مقلا بالقراءة بسبب الانشغال بالحياة الجديدة، لكن أخبار العالم العربي و(فلسطين) وما له علاقة من بعيد أو قريب، ظلتْ كما كانت دائمًا فرضًا مثل شروق

الشمس وغروبها، ولم يتبدل منذ ١٥ مايو سنة ١٩٤٨م حينما أُعلن إنشاء دولة لليهود في (فلسطين).

لقد قرأت في مذكرات ذلك الجنرال بأنه قرأ هو أيضًا شيئًا بخصوص الأبناء لشاعر لبناني الأصل هو (جبران خليل جبران) الذي أبدع حينما قال التالي عن الأبناء وأراح نفوس كثير من الآباء والأمهات:

You may give them your love
But not your thoughts
for they have their own thoughts

you may house their bodies
But not their souls
for they their souls dwell in the house of tomorrow
which you can't visit even in your dream

الترجمة المتواضعة لما سبق كفكرة وليس الترجمة الحرفية، هي:

الأبناء

يمكنك أن تعطيهم

حبك وحنانك ورعايتك

ولكن ليس فلسفتك في الحياة

لكي يكونوا كما تريد لهم أنت.

يمكنك أن تُسكن أجسادهم

في بيتك

ولكن ليس أرواحهم

فأرواحهم تحوم بعيدًا عنك

في بيت الغد

إنها تطير هناك

في المستقبل البعيد

الذي لا تعرفه

حتى في أحلامك.

لا أذكر خلال السنوات العشر الأولى لوجودنا على أرض (كندا)، أنني استطعت أن أحصل على دخل سنوي يكفي لمصاريف الأسرة، وهكذا استمرت أمورنا المادية مقلقة في متاهة لا تعرف الاستقرار، عشتُ في قلق وظننتُ بسببه أن الإنسان ربما لا يصيبه الوهن والكبر إلا إذا وجد أنه لا يستطيع الخروج من سجنه الفكري، وأن أمراض الغنى والسعي إليه لا تقل ضررًا من أعتى الأوبئة والأمراض التي تصيب الإنسان، كان لجوئي للاستثمار الصامت مثل شراء قطعة أرض أو مزرعة وما شابه ذلك هو نتيجة لعدم النجاح في الاستثمار المتحرك المباشر الذي يُعتبر أكثر ربحًا أحيانًا وأكثر خطرًا في نفس الوقت.

١٩-١٤ رفض التصريح بالإقامة في (الإمارات).

في عام ١٩٩٣م رأيت بأن أشيح وجهي عن الاستثمار في (كندا)، لقناعتي بعدم النجاح وعدم المقدرة، وأكثر من ذلك عدم فهم دورة الاقتصاد، ورأيت أن أحول وجودي في (كندا) إلى ميزة، ورأيت نفسي وبناء على خطة ظننتها نافعة أن أنشئ شركة للاستيراد والتصدير، وأن يكون ميدانها البيع إلى منطقة الخليج العربي التي أعرف عنها الكثير، ولأنها سوق استهلاكية مثالية مقارنة بمناطق العالم الأخرى، كونت الشركة حسب الأصول وسجلتها حسب القوانين الكندية، ورحت أقوم بالاتصالات الكثيفة مع معظم

الدول والشركات، وكانت ثورة الإنترنت في بدايتها، وساعدت كثيرًا حيث رخص المراسلات الصادرة والواردة، اتصلت بغرف التجارة العالمية، وسجلتْ شركتي في أكثر من نادي تجاري عالمي، وحصلتُ على عناوين لا حصر لها من الشركات المصدرة أو المستوردة، وصرفتُ الكثير على القرطاسية، وعلى الاتصالات الهاتفية الدولية، وأرسلت المطبوعات والكتالوجات، وسافرت إلى منطقة الخليج العربي و(الأردن) و(اليمن) مُتقصيًا ومحاولاً فتح المجال للتجارة لهذه الشركة، وأضحيتُ كما يُقال قاب قوسين أو أدنى من النجاح، لكنني فوجئت بعد وصولي بفيزا ترانزيت إلى (الإمارات العربية المتحدة)، وجدت أن تلك الدولة التي سكنتُ فيها ثمانية عشر عامًا لا توافق أبدًا على إقامتي، ولا حتى على تكرار الزيارة لسبب لا أعلمه حتى الآن، وربما سيظل إلى الأبد لغزًا، وكل ما أعلمني به كل من رحب بعمل شراكة معي من الشركات المحلية، أن المخابرات في تلك الدولة ترفض إقامتي فيها، بعد حوالي الثلاثة أشهر مقيمًا ومتنقلاً بين (الإمارات) و(عَدَن) بـ (اليمن)، ولم أعدم وسيلة شرعية أو أخلاقية إلا واتبعتها في سبيل تحقيق هدفي التجاري، وجدت نفسي أعود بخفي حنين من تلك البلاد التي خدمتها وأعطيتها زهرة أيام شبابي، وشاركت في بنائها وعملتُ في جهاز أمنها الذي قال لي فيها المدير العام للشرطة مودعًا "قد تكون بيوتنا صغيرة، إلا أن قلوبنا أكبر إذا ما قدمت زائرًا يا أبا رائد".

أحسستُ في نهاية تلك الرحلة بأن لا مكان لي في تلك المنطقة ولن يكون، خصوصًا عندما رُفض طلب زيارتي رسميًا لسلطنة (عمان) أيضا، التي لم أدخلها في حياتي قط، وليس لي اسم في سجلاتها الرسمية، إلا أن سبب الرفض كما أعلمني الكفيل التاجر العماني في مدينة (البريمي) المُلاصقة لمدينة (العين) التابعة لإمارة (أبو ظبي)، وهو من

قدم لي طلب الزيارة إلى سلطنة (عمان)، قال: "إن أمن منطقة الخليج واحد، وإن هناك تنسيق بين الأجهزة الأمنية في المنطقة، وحيث إنني قد رفضت من (أبو ظبي) و(الإمارات)، فإن ذلك يُنقل أولاً بأول عبر شبكة أمنية بواسطة الحاسب الآلي/الكمبيوتر إلى كل الأجهزة الأمنية في دول مجلس التعاون".

عدت إلى (كندا)، وفي المطار لولا خجلي أن يقول الناس، ماذا حدث لهذا الرجل، لانحنيت ساجدًا كي أقبل ترابها، بعد أن عايشت ما حدث لي خلال الثلاثة شهور الماضية التي قضيتها في بلاد (العَرَب)، ومنذ عودتي خبا في نفسي طموح العمل التجاري أيضًا مع (الخليج العربي)، وقد كان فرصة كم تمنيت أن تتم، لأنها كانت لتحقيق أكثر من هدف نبيل، فهي عوضًا عن أنها ستوجد عملاً ناجحًا لي، وتعيد لي متعتي في الإقامة في تلك المنطقة التي عرفتها جيدًا، والتي كانت ستمكنني وأسرتي من قطف ميزات (كندا) و(الإمارات) في آن واحد، فقد كان هناك أيضًا سبب إنساني هام جدًا، كان له علاقة بأختي الوحيدة المتزوجة والمقيمة بـ (الإمارات) التي فقدت السعادة والاستقرار منذ أن هاجرتُ وأسرتي إلى (كندا).

عدت إلى (كندا) وأنا لا أدري ما هو سبب رفض إقامتي من قِبَل أجهزة الأمن في (الإمارات) وفي غير (الإمارات)، ورغم أنني سألتُ أكثر من صديق هناك له علاقة بالمخابرات، وكلفتُ أكثر من جهة للوصول إلى ملفي الأمني إن وجد، كان جواب الجميع بأن في ملفي لدى المخابرات توجد شكوى أو تقرير وتحفظ،، ولكن لم توضع تفاصيل أكثر من ذلك، وحينما تبرع لي أحد الأصدقاء من الضباط المواطنين لأن يحل المشكلة، وكان له قريب نشط في جهاز المخابرات في وظيفة عالية، كان رد قريبه بأن قيادة المخابرات قد درست موضوعي من كل الجوانب، ووجدت أن مستوى رفع الحظر عن عدم إقامتي على أرض الدولة لا يستطيعه إلا جهة عليا بحجم أحد (الشيوخ) من

الأسرة الحاكمة فقط، وبخصوص هذا الموضوع اتفقتْ وجهات نظر الكثيرين من العارفين ببواطن الأمور في ذلك البلد، على أن من وضع الوشاية ضدي لدى المخابرات هو شخص نافذ له علاقة مع جهات عليا نافذة، وقد وضعت صيغة الاعتراض ضدي في الملف بطريقة وبأسلوب ماكر، ولتظل لغزًا لا يُحل بسهولة، وكأن الهدف ألا أعود بأي شكل إلى (الإمارات)، ولهذا راح شكي يتفاوت بين أن يُشار بإصبع الاتهام إلى بعض الحسودين من العرب الوافدين أو إلى بعض المواطنين من زملاء العمل الغيورين أو الذين أوقفتُ لهم مصالح كانت تتعارض مع المصلحة العامة إبان عملي في الشرطة.

على أثر ما حدث لم يعد للشركة التي أسستها في (كندا) أي قيمة أو فعل، وقد تكلفت بسببها خسارة مصاريف لا تقل عن خمس وعشرين ألف دولار أمريكي هذا عدا الوقت والجهد، ولم أجد في النهاية بعد عودتي إلى (كندا) لأجل وقف نزيف المصاريف التي كانت بلا عائد سوى إلغاء الشركة.

١٩-١٥ اتفاقية (أسلو).

في الثالث عشر من سبتمبر عام ١٩٩٣م ابتدأت رسميًا عملية السلام في الشرق الأوسط بين (إسرائيل) والفلسطينيين، وذلك بعد مفاوضات مضنية علنية وسرية جَرَتْ بين الأطراف المتعددة برعاية (الولايات المتحدة)، التي أضحت القوة العظمى الوحيدة في العالم منذ تفكيك (الاتحاد السوفيتي)، في ذلك اليوم تم التوقيع في احتفال رسمي في حديقة (البيت الأبيض – واشنطن) اتفاق مبادئ السلام على أرض (فلسطين) التاريخية أو ما سُمي اتفاق (أسلو)، وذلك تمهيدًا لاقتسام (فلسطين) بكيفية ما بين الفلسطينيين و(إسرائيل)، كان هؤلاء الإسرائيليون قد توجوا سعيهم بكل الوسائل، إضافة إلى

حروبهم على مدى مائة عام بقيادة الحركة الصهيونية، توجوا سعيهم بإنشاء الدولة العبرية على أنقاض الشعب الفلسطيني، وتم إعلانها رسميًا في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨م، كان روح اتفاق المبادئ الذي قَبِلَه الفلسطينيون غير مخيرين، يقوم على إعادة الأرض التي احتلتها (إسرائيل) في عام ١٩٦٧م مقابل أن يُقر الفلسطينيون باعترافهم بالدولة العبرية على باقي الأراضي التي أنشأ عليها اليهود دولتهم.

فور توقيع كل من (ياسر عرفات) الزعيم التاريخي لمنظمة (التحرير الفلسطينية) و(إسحاق رابين) رئيس وزراء (إسرائيل) في ذلك الوقت على الاتفاق المذكور، وكان ذلك بحضور وتحت مظلة رئيس (الولايات المتحدة - بل كلينتون) في حديقة البيت الأبيض، على أثر هذا رحت بشكل لافت للنظر وعلى غير العادة، رحت أكتب بكثافة في الصحافة الكندية الاغترابية عن موضوع السلام بالإضافة إلى ما كنت أكتبه في الصحافة المحلية في (فلسطين)، وخصوصًا في جريدة الكرامة التابعة لحركة (فتح)، وحتى أوضح الصورة أكثر هنا، فحينما تم التوقيع على اتفاق (أسلو) كنت شخصيًا ضد عملية السلام كما الكثيرون من الفلسطينيين، وبعد فترة خلط وتقييم ومراجعة أصبحتُ في النهاية متحمسًا لهذا السلام من الناحية العملية والمنطقية ما دام الفلسطينيون ومعهم كل العرب من المحيط إلى الخليج لا يستطيعون أن يفرضوا إرادتهم بالقوة المسلحة في ميادين القتال، ولأنه ببساطة أيضًا كان السلام المتاح وسيلة لكي ننقذ ما يمكن إنقاذه.

وفي هذه المناسبة، أذكر بأنني في إحدى سنوات سبعينيات القرن العشرين، كنت قد زرت (إسبانيا) لعدة أيام بينما أنا كنت في طريقي إلى إحدى الدول الأوروبية الأخرى لبعض أمور التدريب المهني الخاص بعملي كمهندس، كان لي صديق طبيب من أصل فلسطيني مقيم في مدينة (غرناطة) الإسبانية التي يوجد فيها (قصر الحمراء)، الأثر الإسلامي

الشهير، وقد حللتُ على ذلك الصديق ضيفًا عزيزًا لعدة أيام، وكان يأخذني كل يوم إلى منطقة من (إسبانيا)، ولهذا فقد زرت هناك أماكن كثيرة كانت تنطق بالحضارة العربية، وحتى إنه كان يتبادر لي في كثير من اللحظات وأنا هناك، بأن تلك الأرض/إسبانيا هي بلاد عربية، أو أن ما كنت أراه من بشر حولي لا يعدون بلا مبالغة عن كونهم سياحًا مثلي يزورون تلك البلاد، وقد كان هذا مغايرا لما كنت ألمسه أو أشعر به خلال زياراتي لـ (فلسطين) المحتلة في نفس الفترة.

عند زيارتي لـ (إسبانيا) أحسستُ بسبب رؤيتي للتراث العربي الإسلامي الغني هناك، وكأن العرب كانوا في تلك البلاد منذ فترة وجيزة، أو قل وكأنهم كانوا هناك منذ خمس وعشرين عامًا مثلاً، أما عند زيارتي لـ (فلسطين) ويا لهفي على بلدتي (حمامة) التي أزال اليهود بيوتها عن الخريطة، وجدت وكأننا قد تركناها منذ ألف عام، لأن اليهود كانوا قد أتوا على كل شيء بالتغيير في (فلسطين) العربية، في المتحف الحربي الإسرائيلي مثلاً بمدينة (عكا) الخالدة، رأيت وقد كُتب كل شيء فقط باللغات العبرية والإنجليزية والفرنسية، ولم أر هناك أثرًا للغة العربية ولا حتى في الصور والنقوش التي يعج بها متحف (عكا) الإسرائيلي، وقد رأيت أيضًا في المتحف ما كتب عن الحروب الإسرائيلية وخصوصًا حرب ١٩٤٨م، وحيث قيل عن تلك الحرب هناك، أنها كانت حربًا يهودية تحريرية ضد القوات البريطانية التي كانت تحتل (فلسطين) اليهودية، أما الحروب التي تلت بعد ذلك في عام ١٩٥٦م وعام ١٩٦٧م وعام ١٩٧٣م فهي حروب دفاعية ضد العرب المعتدين الغزاة الطامعين في أرض بني صهيون، لهذا كتبتُ مؤيدًا واقعية السلام، لأن الهزيمة التي مُني بها الفلسطينيون هي ليست هزيمة فلسطينية بقدر ما هي هزيمة عربية عامة، وهزيمة إسلامية حضارية بكل الأبعاد والمقاييس، وإن مسئولية تلك الهزيمة أيضًا لا تقع على دولة واحدة أو على زعيم عربي واحد ممن عاشوا تلك الفترة، ولا هي تقع على عاتق

جيل عربي واحد أيضًا، ولهذا أيضًا فإن (منظمة التحرير) لا تتحمل منطقيًا وزر الهزيمة أو التنازل عن الحق كما كثر الحديث في تلك الأيام، وإنني من ناحية ثانية، أضحيتُ أتفهم الاعتدال الذي أبدته القيادة الفلسطينية في سياستها مع (إسرائيل) القوية والمتفوقة.

١٩-١٦ زيارة الوطن.

في ١٨ يوليو عام ١٩٩٥م توجهت إلى (فلسطين) بغرض زيارة مدينة (غَزّة) التي ترعرعتُ فيها، كانت زيارتي لقطاع (غَزّة) في تلك السنة نقطة فارقة بعد أن كدت أن أندمج أكثر في (كندا)، وكان فيها الكثير من المفاجآت، وجدت المجتمع الفلسطيني هناك هو غيره الذي تعودت عليه في سنوات ما قبل الانتفاضة التي سبقتْ اتفاقية (أسلو)، تلك الانتفاضة التي استمرت ست سنوات متواصلة ضد الاحتلال الإسرائيلي، ورأيت كيف تبدلتْ في هذا المجتمع الكثير من الأمور والظواهر الاجتماعية غير المحببة والمفاهيم السلبية بين الناس، وجدت مثلاً أن هذا المجتمع وقد ذهب عمليا إلى التديّن أكثر من أية حقبة أخرى عرفتها في السنوات الماضية منذ ١٩٤٨م، كان السبب يعود من وجهة نظري إلى أن الشعب هو كالفرد أو كالإنسان العادي أحيانًا، فحينما يجد لا حول له ولا قوة ضد ظالميه، فإنه يتجه ويسعى للبحث عن قوة قادرة أو قوة خارقة لكي يستعين بها أو ليركن إليها ضد ظالميه، والشعب الفلسطيني بعد أن يأس من كل العرب المحيطين به، لم يجد سوى التوجه إلى الله والى دين الإسلام مستعينا به ضد عدو ظالم جبار وربما كان يعود إلى أن (إسرائيل) رغم ظهورها بمظهر العلمانية، فهي في الأساس ما كانت لتعيش طويلا وتستمر لولا أنها دولة تقوم على أسطورة دينية، تقول، إن اليهود هم شعب الله المختار، وإن (فلسطين) هي أرض الميعاد.

هذا ومن ناحية أخرى أيضًا، وبحسابات الجمع والطرح، وجدتُ أيضًا مفارقة في (فلسطين) وللأسف، ورغم ظاهرة التديّن التي تغطي المجتمع الفلسطيني في تلك الظروف، فقد وجدت أن الأهل والأقارب مثلاً ليسوا هم الأهل الذين تعودت عليهم، وهذا ما أقره أيضًا كل الذين زاروا تلك البلاد من أمثالي من المغتربين من ذوي الأصول الفلسطينية، واكتشفنا جميعًا أن هناك الكثير من الأمور التي تُفرقنا ولا تجمعنا مع الأهل خصوصًا من ناحية العقلية ومفاهيم العصر، وكذلك من ناحية السلوك الاجتماعي أيضًا بصفة عامة، وهو ما جعلني أتخبط ولا أدري ما أنا فاعل هناك، خصوصًا من ناحية اتخاذ القرارات المتسرعة في بعض الأحيان، أصبح المجتمع الفلسطيني بصفة عامة هو مجتمع كل الأجناس بعد أن عاش طويلاً بين أقوام ودول وبشر يختلفون عن بعضهم، فماذا يجمع مثلاً بين الجيل الثالث من الفلسطينيين الذين ولدوا في إفريقيا السوداء أو في تايلاند أو روسيا أو بلاد أوروبا وأمريكا الشمالية والبلاد العربية بلهجاتها وخصوصياتها المختلفة مع الفلسطينيين الذين لم يخرجوا أبدًا من (فلسطين)؟

هذا، وربما أن الأفضل لنا الآن، هو، أن نعود إلى الرحلة من بدايتها، أقصد رحلة زيارتي لـ (فلسطين) عام ١٩٩٥م:

في ظل الظروف لتي أشرتُ إليها، وصلت إلى مطار (اللد) قادمًا من مدينة (مونتريال) مباشرة، وكان ذلك في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا، ومن هناك أخذتُ سيارة أجرة، وتوجهتُ بها جنوبًا صوب حدود قطاع (غَزّة) الشمالية عند بلدة (بيت حانون)، وكان يُطلق منذ بداية احتلال قطاع (غَزّة) على نقطة التفتيش التي تفصل قطاع (غَزّة) عن بقية (فلسطين) المحتلة (إسرائيل) (ايرز) أو (مخصوم ايرز)، وهي كلمات عبرية ومعناها (أرض إسرائيل)، مررتُ من هناك، وعبرتُ نقطة أمنية إسرائيلية، واتجهت بعد ذلك إلى نقطة أمنية فلسطينية كانت تبعد عن النقطة الإسرائيلية مسافة حوالي كيلو متر

واحد تقريبًا أو أقل، خلال تلك المسافة ولجهلي بالمنطقة وبالظروف وبلوائح وقوانين الحدود هناك، لم أجد وسيلة نقل كي أقطع بها المسافة بين النقطة الأمنية الإسرائيلية والنقطة الأمنية الفلسطينية، فما كان مني والأمر كذلك، إلا أن رحت أجر حقيبة سفري بيدي على أرض الشارع المرصوف، وأحيانًا كنت أحملها على كتفي، واستمر حالي هكذا ولم أشعر بالتعب أو الإرهاق، لأن اهتمامي وانشغالي كان بالرهبة وبالتساؤلات التي كانت لا تتوقف في داخلي، كنت أسير وبينما أنا كذلك، كنت ألقي بنظري من طرف خفي هنا وهناك، وكنت أشاهد وأرقب حركة بعض السيارات العسكرية الإسرائيلية الخفيفة التي كانت تمر عن جانبي بينما أنا متجه في طريقي، ثم وصلت إلى النقطة الأمنية الفلسطينية، وتحت مظلة الحاجز الأمني هناك شاهدت عنصرين من قوات الأمن الفلسطينية بلباسهم العسكري، وفي الحقيقة شاهدتهم وكأنني يومها لا أصدق ما كنت أشاهد، وكأنني كنت أتساءل: هل هذا معقول؟ وهل معقول أن الجندي الفلسطيني هنا بل على مرأى من الجندي الإسرائيلي؟ وهل يوجد سلام حقيقي؟ ورحت أقول لنفسي أيضًا يومها: "الظاهر أن السلام قد أصبح حقيقة"، وكنت مندهشًا وغير مصدق أو كأنني لا أود أن أصدق، لقد كنتُ مبهورًا بما كنت أرى، ولا أنكر هنا في أن أقول أيضًا، بأنني شعرت في تلك اللحظات بخليط من الأشياء التي لا أستطيع أن أسميها سعادة، إلا أنه راح يتأكد لي بأننا كشعب فلسطيني لم ننتهِ فنحن حقيقة على الأرض، وها هم يعترفون بوجودنا بعد أن أنكروه طويلاً، بل نحن موجودون على أرضنا وسنكبر وسيكبر أثرنا.

تخطيت تلك المسافة ولم يعترضني أحد، ولم أسأل من قبل أحد أفراد الأمن الفلسطيني الذين كانوا هناك، وابتعدت قليلاً عن مركز الأمن الفلسطيني في تلك المنطقة ناحية قطاع (غزة)، وما كِدت أخطو عدة خطوات وأقف قليلاً على جانب الطريق المرصوف،

فإذا بي أجد أخي الأكبر مع أحد أبنائه وقد جاءا لكي يصطحباني إلى بيتهم الكائن في منطقة (الشيخ رضوان) بمدينة (غزة)، في الطريق طلبتُ منهما أن أمر على القبر الذي يحوي رفات أبي، وذلك لكي أقرأ على روحه الفاتحة وأترحم عليه... وصلنا إلى المقبرة وطلبتُ من أخي وابنه أن يتركاني عند القبر وحيدًا، وقلت لهما إذا ما انتهيتُ فانني سأخرج إلى الشارع العام لكي ألتقي بكما، وصلتُ إلى قبر والدي، وقد دلني عليه ابن أخي في البداية، وهو الذي ما كاد يشعر بأنني قد عرفت القبر إلا وانسحب دون أن يقول شيئًا، وغادر المكان.

زيارة قبر الوالد.

عند القبر وقفتُ، وقلت بصوت خافت مسموع: "السلام عليكم، ها أنا ذا قد جئت يا أبي..." بعد ذلك نسيتُ كلَّ ما كان حولي، بل إنني تخيلت في ذلك الوقت الرهيب، وكأن والدي يقف أمامي منتصبًا لكنه يشيح بوجهه عني، عاتب عليّ، لأنني لم ألبي نداءه بالحضور حينما طلبني خلال مرضه، استمر الحوار الصامت بيننا، وقلت له، ها أنا ذا قد عدت يا حاج، ألم تطلب مني ذلك، كنت في الحقيقة أشير إلى حلم كان قد أيقظني من نومي في عام ١٩٨٩م بينما أنا مقيم مع أسرتي في مدينة (مونتريال)، وقد حدث ذلك الحلم قبل أربعة أيام فقط من سماعي بخبر وفاته، في ذلك الحلم الذي لم أرتح له بعد ذلك، رأيت نفسي وكنت مع الوالد خلال إجازة صيف حضرتُ خلالها من (أبو ظبي) إلى (غَزّة) أو كما كنت أفعل في السنين التي سبقتْ هجرتي إلى (كندا)، وبينما كنت معه خلال الحلم فقد ذهبنا إلى أحد بيوت الأقارب، ووجدنا جمعًا كبيرًا من الرجال الذين كنا نعرفهم، وعندما وصلناهم وقفوا مرحبين، وأجلسوا والدي بينهم على إحدى الكراسي المتوفرة هناك، واخترت أنا مقعدًا مماثلا لكنني جلست قبالة الجمع، ما كان من والدي إلا وخاطبني قائلاً: "تعال واجلس هنا يا بني". كان ردي عليه: "دعك مني وخليك

مرتاح يا حاج، فأنا لا أود أن أضيّق عليكم في الجلوس وأنا مرتاح أيضًا في مكاني". ما كان من والدي كما شاهدته في ذلك الحلم، إلا أن أصر عليّ في أن أجلس بجانبه، وحينما كررت له بأنني مرتاح في مكاني، وأفضل أن يظل هو ومن حوله في بحبوحة وبلا مضايقة خلال الجلوس، فاجأني وقال حانقا وبصوت حاد: "تعال هنا، تعال، واجلس هنا أحسن لك، تعال عند الناس يا رجل".

صحوتُ بعد ذلك الحلم منزعجًا من نومي، واستعذت بالله من الشيطان، إلا أن الحلم بقي ماثلاً في مخيلتي وحُفر في ذاكرتي، بعد أربعة أيام من ذلك الحلم، وصلني نعي الوالد، وحزنت كثيرًا، وبقيت حائرًا أمام ذلك الحلم الذي لم أجد له تفسيرًا، إلا أنه ربما كان وصية من الوالد ينصحني فيها بأن أعود للعيش بأي ثمن في (فلسطين)، خصوصًا وإنني شخصيًا لم أُسَر أبدًا منذ أن قدمت إلى (كندا) واتخذتها وطن الإقامة الدائمة، لأنني لم أوفق فيها أيضًا على الصعيد المادي الذي يحكم كثيرًا من الأمور الحياتية، خصوصًا من ناحية الكسب المباشر، ولهذا لم أجد إلا أن أفكر في كيفية قلب الأوضاع رأسًا على عقب، وأفتش عن طريقة كريمة للعودة وللعيش في (فلسطين)، حتى لو عدت في النهاية مع زوجتي فقط بدون الأولاد الذين لهم مستقبل في (كندا) أفضل من أي مكان آخر.

لقد ظل هذا الخاطر يراودني وبقيت حائرا في كيفية تحقيق ما طلب مني الوالد في ذلك الحلم، ولهذا أيضًا تذكرت ذلك الحلم حينما كنت أقف أمام قبر والدي مكسور الخاطر، وكنت حينها أحاول أن أتماسك، وكنت أحاول أن أتمالك نفسي بقدر الإمكان، أذكر عند القبر، بأنني وجدت نفسي بسذاجة أبدًا بقراءة ما كان مكتوبًا على الضريح، وكنت لا أستوعب كل ما كنت أقرأه، ولذلك كنت أعود لكلمات العبارة الواحدة مرات ومرات،

أذكر بأنني كنت أترحم بالأدعية المسموعة، وكنت أقول من أعماقي كما لـو أننـي لم أقـل ذلك من قبل: "ألله يرحمك يا حاج، الله يرحمك، الله يرحمك، الله يسهل عليك".

وقلت أيضًا: "سامحني يا أبي، سامحني..."

وبينما أنا هكذا فقد كدتُ أن أصحو في بعض الأحيان على ما كنت فيه، أذكر بأن نظـري في تلك اللحظات لم يكن يرى شيئًا مما كان في ذلك المكان، وأذكر بأنني شعرتُ وكـأنني لا أرى إلا ما كان في داخلي من ذكريات، أذكر في تلك اللحظـات، بـأنني قـد شـاهدت شريطًا من الذكريات المختلفة والمتباعدة، رأيت من هذه الذكريات علاقتـي مـع الوالـد، وتصفحتها مشهدًا مشهدًا منذ أن كنتُ صغيرًا، وحتى آخر مرة ودّعته فيها في أحد أيـام صيف سنة ١٩٨٣م حينما كانت آخر اللحظات التي شـاهدته فيهـا، حيـنما كـان عـليّ أن أغادر داره/دارنا، بعد الظهر إلى مطار (اللد - بن جوريـون) لكـي اسـتقل الطـائرة إلى (قبرص) ومن هناك لأتجه إلى (الإمارات)، قلتُ له في آخر وداع بينما كنت أهم بالخروج من الدار، سامحني يا حاج فقد أثقلتُ عليك في هذه الإجازة، ولم أكد أنهي كلامي بتلك الجملة يومها حتى رأيته وقد انتفض فجأة ووقف على رجليه، وقال مجاملاً ومودعًا في آن واحد: "لا يا (أبو رائد)، اسمع، أستحلفك بالله بأن تظل تـأتي إلى هنـا، وتظـل تـأتي إلى هذه الدار، فأنا لا أمل الضيف". وقال: "أنا أحب الضيوف".

شعرتُ حينها وكأنه كان يخاطب شخصًا غريبًا، وكانت هي عادته رحمه الله حيـنما يتعلـق الأمر بمبادئه وما اعتاد عليه في الكرم.

أذكر بأنني قد صحوت بعد ذلك على نفسي وأنا ما زلت أمام القبر أتصفح ذكريـاتي مـع الوالد، فإذا بي أشاهد القبر وما كان يجـاوره مـن قبـور أخـرى، وقبـل أن ألتفـت لكـي أتحسس طريقي وأودع ذلك المكان، رحتُ أجفف بسرعة بعـض الـدموع التـي فاضـت رغمًا عني بينما أنا أقرأ الفاتحة.

كانت خطتي في تلك الأيام أن أعود في أقرب فرصة ممكنة إلى (كندا)، ولا أمكث في (غَزّة) أكثر من عدة أيام، قُلْ مثلاً خمسة أيام فقط أو سبعة، وفي أكثر تقدير كنت أتوقع عشرة أيام، كنت أشعر بأنني لن أتحمل أن أقضي وقتلاً طويلاً في مدينة (غَزّة) لعدم وجود المبرر اليومي الآني هناك، وكنت لا أود أن أثقل مضايفتي على من سأحل عنده من أُسَرِ الإخوة، وكنت أود أن تكون زيارتي الأولى للاستطلاع فقط وجمع أكبر قدر من المعلومات ثم العودة إلى (كندا)، وهناك بهدوء أتخذ القرار المناسب.

وجدت في (فلسطين) الجديدة، (فلسطين) ما بعد الثورة/الانتفاضة الأولى، و (فلسطين) بدء مشاريع السلام، و(فلسطين) الظروف الاقتصادية السيئة التي أخذت لأول مرة تهتز تحت وطأة الضغط الإسرائيلي على الناس وعلى السلطة الفلسطينية الحاكمة هناك، وجدت هناك أيضًا (فلسطين) الغربة، ووجدت غيابي عنها الذي امتد سنين وسنين، هناك في مدينة (غَزّة) انشغلت في تلك الفترة قليلاً بما كان يحدث حولي من ظروف وتاريخ كان يُكتب لأول مرة في تلك المنطقة من العالم، ورحت أحاول أن أتفاعل مع ذلك المجتمع الجديد ذي المواصفات الخاصة التي صنعتها الظروف، ورحت أحاول أن أضع قناعتي بالقضية الفلسطينية العادلة فوق كل اعتبار، ورحت أرى بأن عليّ كما إنه على كل فلسطيني إن استطاع أن يفعل شيئًا للصالح العام أن يفعله، ولهذا سعيت عن رغبة وعن قناعة لشراء شقة سكنية في إحدى البنايات الجديدة، لأجل أن أستقر بها مع الزوجة في نهاية المطاف، هذا إذا كان في العمر بقية، خصوصًا وإنني بدأت أشعر أنه لن يكون لنا استقرار أو سعادة إلا إذا عشنا في (فلسطين).



١٩-١٧ التقدم لخدمة الوطن.

اشتريت شقة في مدينة (غَزّة) ومنذ البداية عزمت أيضًا أن أزوّدها بالفرش وبالأدوات المناسبة، وذلك لأجل أن يصبح وجودي في (غَزّة) واقعًا، وعيشي حقيقة، ولهذا فبدلاً أن تكون زيارتي لعدة أيام فقط، أمضيت أربعين يومًا في (فلسطين)، وعدتُ أزف للأسرة خبر شراء الشقة التي سجلتها رسميًا باسمي، وذلك بعد أن كان هذا محظورًا على أمثالي إبان الاحتلال الإسرائيلي المباشر لتلك المنطقة.

هذا، وخلال زيارتي تلك لمدينة (غَزّة) تعرضتُ لضغط من قبل بعض الأقارب والأصدقاء القدامى، وذلك لأجل أن أتقدم من أهل السلطة الفلسطينية الحاكمة في المناطق المحررة لكي أنضم إلى الخدمة العامة في الوطن الفلسطيني الفتي، ذكّرني هؤلاء الناس بتمنياتي وآمالي الكثيرة في الأيام الخوالي حينما كنتُ أرددها أمامهم خصوصًا وأنهم يعلمون بأنني قد عمِلتُ مهندسا وضابطًا أيضًا في جهاز أمن دولة (الإمارات العربية

المتحدة)، لقد كنت أقول دومًا - وهذه حقيقة - بأنني أُعد نفسي كي أقدم خبرتي وجهدي من أجل (فلسطين)، لقد كنت في الحقيقة تواقًا لأن يكون لنا وطن وتكون لنا دولة، وكنت أحلم أن أقدم خدماتي قبل أن أموت أو قبل أن أهرم أو أطعن في السن، كان الأقارب والأصدقاء يلحّون عليّ خلال وجودي في (غَزّة) بأن أفعل شيئًا، وكنت أرد عليهم وأقول كسبًا للوقت وليس أكثر: إن الشعب الفلسطيني أصبح كبيرًا في كل شيء، وإن في السلطة وفي (منظمة التحرير الفلسطينية) ربما يوجد الكثيرون من أمثالي أو ممن هم حتى أكثر خبرة"، وكنت في الحقيقة غير مستعد للعمل من الناحية النفسية في تلك الفترة، كوني أضحيت أحمل الجنسية الكندية، وكون ظروفي العامة والخاصة أصبحتْ متشعبة، وإن التحاقي بالعمل في القطاع الحكومي الفلسطيني يحتاج إلى الكثير من التعديل والتضحية في حياتي اليومية، ولأن معناه أيضًا أنه يتوجب عليّ أن أعيش بصورة دائمة في (فلسطين) مثلاً.

لم أستطع في النهاية أن أقاوم إلحاح ورغبة من طلبوا مني الانضمام إلى جهاز الأمن الفلسطيني، ووجدت نفسي بتثاقل أُعد كتابا موجهًا إلى رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية (ياسر عرفات)، والتمست منه الموافقة على إلحاقي بقوات الشرطة الفلسطينية، أودعتُ الكتاب في دائرة الأرشيف التابعة للسلطة الوطنية الفلسطينية، وأذكر بأنني في تلك الفترة انتظرت قليلاً رد الرئيس الفلسطيني على كتابي، وحينما لم يأت الرد سافرتُ في ٣٠ أغسطس ١٩٩٥م عائدًا إلى (كندا)، وفي الرابع من نوفمبر من نفس العام، حضرتُ مع زوجتي لزيارة الوطن ثانية، وبعد أن وصلتُ إلى مدينة (غَزّة) بعدة أيام، ذهبت إلى مكتب الأرشيف العام للسلطة الوطنية الفلسطينية، واستفسرت عن مصير كتابي الذي وجهته إلى الرئيس.

هناك وجدت ردًا تحريريا على شكل توصية شبه عامة من مكتب الرئيس موجهة إلى مدير الشرطة الفلسطينية، وذلك للنظر في أمري أو أمر كتابي، أخذتُ نسخة توصية مكتب الرئيس واحتفظتُ بها ولم أذهب بها إلى مديرية الشرطة، وذلك لعدم قناعتي حتى ذلك الوقت في طلب العمل في جهاز الشرطة للأسباب التي ذكرتها سابقًا، وكنت أقول لمن حولي، بأن الوضع العام والوضع المالي الفلسطيني وعدم اكتمال اتفاقيات السلام ستؤدي كلها إلى عدم إنجاح وتحقيق تلك الرغبة.

في الزيارة الثانية لمدينة (غَزّة) أمضيت ثلاثة شهور هناك، أذكر بأنني في الشهر الأخير لتلك الزيارة، وبسبب إلحاح الأقارب والأصدقاء علي للتقدم بطلب للعمل في جهاز الشرطة، طلبتُ من بعض الأصدقاء الجدد من الذين تعرفت عليهم في مدينة (غزة) - وكان هذا يعمل في جهاز الأمن الفلسطيني - قلتُ لهذا الصديق عن موضوع عملي ونيتي في الالتحاق بجهاز الشرطة، وسألته إن كان يستطيع أن يُقدم مساعدة إيجابية، وحينما وجدت منه تجاوبًا واستعدادًا، أخبرته عن موضوع توصية مكتب الرئيس التي لا زلتُ أحتفظ بها مع أوراقي، وكنت قد أحضرتُ معي من (كندا) في هذه المرة الكثير من الشهادات الدراسية التي تجمعتْ لدي على مدار السنوات، وكنتُ قد أعددت تلك الشهادات والخبرات في دوسيه مناسب ومنظم ومريح لمن يود الاطلاع عليه.

ما كاد ذلك الصديق يطلع على كتاب توصية مكتب الرئيس وعلى الشهادات والخبرات إلا وقال لائمًا: "لماذا أنت ساكت حتى الآن؟" فما كان منه إلا وأن قام بالاتصال فورًا بالعقيد (عبد المعطي السبعاوي)، مدير العمليات في الشرطة الفلسطينية، وأعلمه بواسطة الهاتف بما رأى عندي، ورغم أن الوقت كان متأخرًا ليلاً، أذكر بأن الساعة في ذلك اليوم كانت تقترب كثيرًا من منتصف الليل، وكانت حجة صديقي في ذلك الاتصال، بأن مدير

العمليات في الشرطة الفلسطينية يقضي كثيرًا من الليل في مكتبه بمديرية الشرطة، وأذكر بأن رد مدير العمليات في الشرطة الفلسطينية على تلك المكالمة أنه طلب من صديقي بأن يحضر له أوراقي فورًا في تلك الساعة المتأخرة، وذلك لكي يطّلع عليها في صباح اليوم التالي، أعطيت الملف لذلك الصديق وقلت له: "بأنني لن أراجع ولن أستجدي أحدًا، وإن كان المسئولون هنا هم كما نسمع يدعون كل فلسطيني لأن يأتي، لأجل المشاركة في بناء هذا الوطن، فإن من يود أن يخدم وطنه لا يحتاج واسطة ورجاء عندهم". ورجوت صديقي أيضًا، أن يُعلم المسئولين في جهاز الشرطة بأن دوافعي ليستْ مادية من أجل الحصول على الراتب، وإنها دوافع وطنية بحته فرضها شرف الانتماء، وقلتُ له أنا بهذه الكيفية أُريح ضميري.

وهنا إذا كان لا بد من كلمة أخرى في هذا المجال، فإنني أقول بصدق وأمانة، بأن دوافعي هي فعلاً لم تكن من أجل الراتب الذي كان يسعى إليه كل الناس هناك بسبب الظروف الاقتصادية السيئة، وكنت في الحقيقة في غنى عن العمل في مدينة (غَزّة) في تلك الظروف السياسية والأمنية والاجتماعية الصعبة التي كانت تخيّم على حياة من يعيشون هناك، ولكن الوفاء لقناعاتي ورغبتي في المشاركة في بناء وطن كم تمنيت أن أُساهم في بنائه كانتْ هي كل دوافعي وليس أكثر.

وللتاريخ فقط، فقد تمنيت مثلاً وأنا في (الإمارات)، وبينما كنت في قمة عطائي وفي قمة رضائي وفي قمة كسبي المادي، تمنيتُ أن أعمل في وطن اسمه (فلسطين)، وكنت في الحقيقة وبطريقتي الخاصة أعد نفسي لمثل ذلك اليوم، كنت أطّلع كثيرًا، وكنتُ أقرأ كثيرًا، وكنت أذهب على نفقتي الخاصة خلال إجازاتي السنوية إلى كثير من البلاد الأجنبية من أجل الدراسة، وكنت أحضر الدورات التدريبية الفنية الكثيرة التي كان لها علاقة بعملي وتخصصي كمهندس وكخبير فني في معدات مكافحة الشغب، لم يكن ترددي المبدأي في

الإصرار على متابعة السعي للانضمام إلى جهاز الأمن الفلسطيني، إلا بسبب ضبابية الظروف العامة التي تُحيط بالقضية الفلسطينية، وبسبب عدم وضوح الموقف الإسرائيلي وجديته في عملية السلام مع الفلسطينيين، ولوجود سبب آخر، وهو الغيبة الطويلة عن الشرق الأوسط التي امتدت إلى ما يقرب من العشر سنوات، وكذلك العيش المستمر في (كندا) الذي أوجد في داخلي الكثير من المفاهيم المتضادة، وأثر أيضًا على نظرتي لكثير من الأمور، ومما أدى أيضًا إلى إيجاد بعض الفوارق بين بعض ما أضحى عندي وما هو عند أهلنا في (فلسطين)، إلا أن هذا من ناحية أخرى قد أثرى الخبرة عندي وجعلني أشعر أن الوطن في حاجة كبيرة لأمثالي في أكثر من صعيد وأكثر من ميدان.

علمت بعد عدة أسابيع وعن طريق صديقي الذي أخذ ملف شهاداتي إلى إدارة الشرطة، علمت بأن مدير الشرطة ومستشاريه قد أعجبوا كثيرًا بما لدي من خبرات، وأن مدير الشرطة (غازي الجبالي) قد وجه كتابًا إلى الرئيس (ياسر عرفات) باعتباره القائد الأعلى، والتمس منه الموافقة على تعييني ضابطًا فنيًا في الشرطة الفلسطينية، وجاء رد الرئيس وطُلبت لمقابلة نائب مدير الشرطة، وتمت المقابلة وأجبت على أسئلته، وفهمتُ حينها بأن الرتبة التي يمكن أن تُمنح لي هي رتبة مقدم وليس أكثر من ذلك، كان من ضمن الأسئلة التي وجهت لي خلال المقابلة "إلى أي تنظيم من الفصائل الفلسطينية تنتمي؟" وكانت إجابتي واضحة، حيث قلت بأنني أنتمي لـ (فلسطين)، للشعب وللقضية دون تحديد، ويبدو أن تلك الإجابة لم ترق لا للرئيس (ياسر عرفات) ولا لمدير الشرطة.

بعد ذلك جاء رأي آخر من الرئيس يوصي فيه بأن تُعمل لي مقابلة ثانية على أثر المقابلة الأولى، وفعلاً قابلت نائب مدير الشرطة الذي كان حلقة الاتصال بين موضوعي وبين مدير الشرطة، خلال اللقاء أيضًا تحدثنا عن طبيعة العمل وعن خبراتي الفنية، وعن

إمكانية تعديل في السطح العلوي لدبابة (الوليد) التي تملك السلطة الفلسطينية عددًا منها، ومدى إمكانية تركيب حامل رشاش بدلاً من شكلها الحالي، وخلال ذلك أيضًا كرر السؤال العتيد، لأي تنظيم فلسطيني انتمي، وأجبته بما أجبته قبلاً، ثم بعد ذلك استأذنني وذهبَ وأخذ معه ملفي وقصد مكتب مدير الشرطة، وبعد حوالي ربع ساعة عاد لكي يقول لي" "إن مدير الشرطة لا يضمن لي رتبة أكثر من رتبة رائد، وهي الرتبة الأقل مباشرة من رتبة مقدم، وبأنني سأعمل تحت إمرة شخص يحمل رتبة مُقدم". وحينما سالتُ نائب مدير الشرطة: "وهل الشخص المتوقع أن أعمل تحت إمرته فني في الأساس؟" قال: "هو ليس فنيًا ولا يحمل مؤهل علمي لكنه إنسان جيد". وحينما قلتُ له إن الرتبة العسكرية لا تهمني بقدر ما أنا أطلب صلاحيات حتى أستطيع أن أطور وأنشئ جهازًا حديث لكي نفتخر به جميعًا، فإن كنت سأعمل مع إنسان غير فني وغير متعلم فستكون المعوقات كثيرة. أجابني: "لا عليك، لو حدث أي إشكال بينك وبين المسئول فيمكنك أن تأتي لي ويمكن أن نسوي الأمور".

طبعًا لم يعجبني هذا التسطيح والتبسيط، لكيف يمكن أن يُدار جهاز حساس يُراد إنشاؤه مثل جهاز مكافحة الشغب بما يحوي من معدات وأدوات وآليات وأجهزة قذف قنابل غاز مسيل للدموع وقنابل دخان وبنادق إطلاق رصاص مطاطي، وآليات حديثة تُقاوم اشتعال النيران، وتقاوم رصاص الأسلحة الفردية، وتسير على أي نوع من الأرض وما شابه، فما كان مني إلا أن ألمحت لنائب مدير الشرطة بهدوء، بأنني غير مرتاح لما قال، ووجدته يقول لي بدماثة خلق: "إن آليات الأمن وآليات مكافحة الشغب موضوع تخصصك تلك التي قد نهتم بها، مرتفعة الثمن ويتجاوز ثمن الآلية الواحدة عدة ملايين من الدولارات". وقال: "كما ترى يا باشمهندس، نحن في السلطة الفلسطينية في حاجة إلى كل دولار لأمور أهم، لأن مواردنا كما تعلم محدودة وخجولة". وفي نهاية اللقاء أخذ

رقم هاتفي، وقال سنكتب للرئيس (أبو عمار) ثانية، وإن رد الرئيس سيكون إيجابيًا، وإن مدير الشرطة مهتم شخصيًا بموضوعي، وقضية المراسلة بين جهاز الشرطة ومكتب الرئيس ليست أكثر من روتين وأن الموافقة مضمونة، ولن يتعدى تأخر الرد على الأكثر مدة أسبوعين أو ثلاثة.

خرجت من مكتب نائب مدير الشرطة، وفي قرارة نفسي أنني لن أعود إليه ثانية، لأن الفساد المالي والإداري بما في ذلك المحسوبية كان متفشيًا، وإن القائمين على الجهاز غير جادين عدا اهتمامهم بالمظاهر والمصالح الخاصة، رحم الله الأموات وأصلح حال الأحياء.

عدتُ إلى (كندا) وفور أن وصلتُ، وجّهتُ رسالة مختصرة إلى مدير الشرطة شكرته وقلت فيها ما معناه، إنني قد صرفت النظر عن متابعة التحاقي للعمل بجهاز الشرطة الفلسطينية، وذلك لأسباب خاصة اجتماعية وصحية، وأغلقت ذلك الموضوع.

الخاتمة

لا أستطيع النوم يا أبتي.

كنا خمسة من المخضرمين الفلسطينيين ممن طوحت بهم وبعائلاتهم مأساة (فلسطين) وأضحوا يعيشون في البلاد البعيدة عن (فلسطين)، في أحد الأيام كان معنا عددٌ لا باس به من الإخوة والأخوات الآخرين من أمثالنا ومن إخوة عرب آخرين أيضًا، كان جمعنا يلتئم كالعادة أو كما كان يحدث دائمًا في أيام كثيرة ضمن لقاءات حوارية فكرية تتم على أحد برامج الانترنت التي تسمح بالحوار بالصوت وبالكتابة، وكنا كعادتنا نلتقي تقريبًا في كل يوم بنفس الطريقة ولكن ليس بالضرورة نفس الأشخاص،

في أحد لقاءاتنا - أذكر بأننا كنا خمسة هم من أشرت إليهم في صدر هذه السطور - اثنين منا يعيش كل واحد منهما في أحد أقاليم (كندا) الشاسعة المساحة، وآخر كان يعمل طبيبًا ويقيم بـ (اليونان)، ورابع كان يُقيم في (بريطانيا)، والخامس يعيش في (الولايات المتحدة)، والباقين من أمثالنا كانوا يستمعون للحوار أو يحاورون بالكتابة بجمل وكلمات توافق هذا المتحدث أو تعارض ذاك أو ترفض أو تتساءل أو تستغرب.

في كل مرة كنا نلتقي بصفة عامة مع الآخرين، كان أحدنا يقترح موضوعًا في أي مجال من مجالات الحياة، سواء كان اقتصاديًا أم دينيًا أم فلسفيًا أم عن حقوق الإنسان أو غيرها من المواضيع، بل ما أكثر اهتمامات البشر وما أكثر ما يمكن أن يتحدث عنه المرء ويختلف أو يتفق به مع الآخرين، ولذلك كان لا يعجز من يود أن يضع موضوعًا للتحليل أو يود أن يُمرر قناعاته عن الشروع في ذلك، كان يقدم كل من يود رؤيته، وما قد يراه مِن كيف إلى أين وماذا ولماذا أو هذا صواب وذاك خطأ.

كان الحوار أحيانًا يسخن فينسى الواحد منا نفسه وينطلق في قوله، وكأنه الناطق الرسمي باسم كل الفلسطينيين أو مرشد الأمة الإسلامية، أو أبو العروبة والقومية، أو كأنه خبير الاقتصاد الذي لا يُشق له غبار، أو أبو الفلك وعلوم الفضاء، وكان يمضي الحال على هذا المنوال إلى أن كنا نستفيق في النهاية فتتصالح ثانية على وعد بأن نلتقي في يوم جديد.

هكذا مضينا على هذا الحال نتابع الأخبار والأحداث ونلوك ذيولها، وفي أغلب الأحوال كنا نخرج من الحوار فريقين بوجهتي نظر مختلفتين إما أسود وإما أبيض، لكن الجميل هو أننا لم نكن نتحزب للأشخاص عدا القلة منا، ولهذا أنا أتفق اليوم في أمر ما مع صديقنا الذي يسكن (بريطانيا)، وغدًا في موضوع آخر أو في يوم آخر قد يكون اتفاقي مع زميل غيره مثلاً.

كان آخر الموضوعات التي ناقشناها بالأمس، هو: هل الديمقراطية المُطالبين بها في العالمين العربي والإسلامي من قبل (أمريكا) صحيحة؟ وهل (أمريكا) جادة في دمقرطة العالم العربي؟ وهل هي فرصة أن يقتنص الإنسان العربي في هذه البلدان الفرصة؟ وأن ينحاز لما تدعو إليه (أمريكا) وكأنه هدية أتت من السماء؟ أم هو غير ذلك؟

قال المتحدث الأول، وكان قد أخذ الدور الأول في الشروع في الحوار، قال: وماذا نُريد أفضل؟ أو ليست الديمقراطية الأمريكية هي ملاذ ومنقذ لما هي فيه غارقة شعوبنا العربية من تغييب وتجهيل وكبح وقمع وضياع حقوق الإنسان وغياب للقانون وشيوع الفساد بشتى أنواعه وألوانه؟

وأضاف: أنا ديني هو الإنسانية فقط ولا ما نع لدي أن يحكمني الأمريكي، فمهما يكن سيكون الحاكم الأمريكي أفضل ألف مرة من الحاكم العربي الذي جعل حياتنا ظلامًا وأبقانا في آخر سلم الحضارة بين البشر.

قال المتحدث الثاني موجه كلامه لمن سبقه في الحديث، ولمؤيدي هذا الطرح من المستمعين الذين كانوا يضعون إشارات الاتفاق كتابة مع من أنهى حديثه قبلاً، قال: يا أيها العقلاء، وهل تصدقون أن الإنسان العربي في هذا العصر يُعتبر جاهزًا للديمقراطية بقيمها الغربية؟ هل نسيتم بأن لدينا هوية ثقافية وحضارية تختلف اختلاف الليل والنهار عن مثيلتها الأمريكية الغربية؟ وأن الديمقراطية بمفهومها الحالي تحتاج إلى تربية نشئ كامل وتطبيق نهج؟

وقال: لا يمكن أن يصبح الشعب العراقي مثلاً ديمقراطيًا ما دام لا يذهب أبناؤه إلى صناديق الاقتراع لكي يختاروا ممثليهم في الجمعية الوطنية العراقية إلا إذا أفتى لهم بالموافقة (آية الله العظمى السيد الإمام) صاحب مرجعية العراق الشيعية أو سمح لهم بذلك، فهل الإنسان الذي يأتمر برأي غيره ديمقراطي؟ وهل سيطبق الديمقراطية في ميادين الحياة في مجتمعه؟ أين رأيه إذا كان لا يأخذ إلا برأي غيره؟ إذن أين الأساس الديمقراطي لكي يُبنى عليه؟

وأكمل حديثه قائلاً: يا إخوان إذا لم تنبع الديمقراطية من مجتمعاتنا فلن تعيش بيننا الديمقراطية التي تأتي بها الدبابة وطائرة (الأباتشي) وصواريخ (توما هوك) والعصا الإسرائيلية.

قال المتحدث الثالث، بعد أن رفع يده طالبًا الكلمة، وكان قد وصله الدور لكي يتحدث، قال: الله أكبر يا عالم، أي ديمقراطية هذه التي تأتي على ظهر الدبابة؟ وأداة الإقناع فيها هي الإذلال والتجويع والقتل والسجن والاعتقال وانتهاك الأعراض والتطويع القسري بشتى الألوان التي عرفها البشر؟ أي ديمقراطية هذه التي مشروعها من أوله إلى آخره لا يعدو أكثر من العمل على إزاحة كل عقبة من أمام استقرار (إسرائيل) وأمنها وازدهارها على حساب من حولها مهما كان الثمن الذي سيدفعونه؟

ثم توقف الكلام فجأة في حلق صاحبنا المتحدث الثالث، وقد استشاط غضبًا وصار عاجزًا عن القول من شدة الحنق ونزق الغيرة على القضية، وصار عاجزًا عن تجميع كلمات الجمل المفيدة، وابتعد عن الميكرفون، وقال: خذوا عني هذا، إن ما أسمعه من البعض هنا ليس له معنى.

وجاء دوري الافتراضي في الكلام فقلت: صدقوني يا إخوان إن ما يحدث لا يعدو عن عملية تنعيم وتليين لحكامنا ولشعوبنا إغراءً وإرهابًا كمقولة العصا والجزرة، فها هي (البحرين) وقد تحولت إلى مملكة، و(قطر) مركز الإشعاع للتطبيل وقيادة مسيرة التطبيع مع إسرائيل، والأسرة الحاكمة في (السعودية) عام ٢٠٠٥م أصدرت مرسومًا بإعفاء الشعب السعودي من تقبيل أيادي الأمراء، و(مصر) فيها انتخابات بشرط أن يبقى الحاكم الذي تريده (أمريكا)، و(الأردن) مهما كانت الأسباب يجب أن يظل كيان مُعزز لكي يمنع وحدة خمس كيانات إقليمية عربية تحده، ويحمي بطن (إسرائيل)، وكل زعيم عربي أو نظام عربي لا ترضى عنه (إسرائيل) على (أمريكا) أن تُسقطه بأية وسيلة، وفي المناطق الفلسطينية يجب أن تكون ديمقراطية ولكن بشروط إسرائيلية، ومن لا يقبل بتلك الشروط فلينتظر الثبور وعواقب الأمور، ومع الأيام سيظل الموقف يعد تنازلا إلى أن يُقزم الحق إلى الحجم الذي تقبل به (إسرائيل) العظمى، منذ عام ١٩٤٨م بقينا هكذا، نجتر ضعفنا ونذل ونتنازل في كل مرة، أليس كذلك؟

ثم نادينا على الصديق الخامس، وكان يعمل طبيبًا ويُقيم في (اليونان) أو هكذا تخيلنا المشهد، وقد بدا الصديق صامتًا طيلة الوقت بينما الحوار كان على أشده حتى إنه لم يترك كلمة في منطقة الكتابة تدل على أنه يسمع ما نقول، إلى أن ظننا بأنه لم يكن متابعًا الحوار الحامي الذي كنا فيه ناسين أنفسنا موالاة لقناعاتنا، وظن بعضنا بأن صديقنا هذا يجلس بعيدًا عن الاستماع أو مشغولا في أمر من أمور الحياة في بيته، وكيف سنعرف إن كان

متابعًا معنا، وكل واحد منا كان يتحدث من بيته عبر الكمبيوتر ومن قارة ودولة أخرى ولا نرى بعضنا إلا بحاسة السمع؟

كانت مفاجأتنا هي ان صديقنا الطبيب كان على غير توقع منا قد استجاب فورا لندائنا، فما كان منه إلا أن صعد إلى الميكرفون لكي يتحدث، وظننتُ بأنه سيأخذنا في حكاية بعيدًا عما نحن فيه من معاناة الإنسان العربي، وقد عوّدنا هذا الصديق في كثير من المرات بأن يأخذنا بأسلوبه المميز إلى حكايات جانبية تأخذ بالرمزية ولها مدلول، وإن بدا في بداية أحاديثه أو كعادته مختلفًا عما يكون النقاش عليه إلا أنه كان يلتقي في النهاية مع المضمون العام للنقاش الذي يكون في العادة دائرًا.

كان صاحبنا إذا تحدث، يصوغ حكايته بطريقة مشوقة، إلا أن مدلولها كان من النوع الذي يبقى في الذاكرة ولا يضيع، ورغم هذا كنا ما زلنا مفترضين بأن صديقنا هذا كان غائبًا عن الحوار كوننا لم نشعر لحظة بأنه كان معنا، لأن أكثر من شخص من الموجودين كتب له في منطقة الكتابة وغمز في قناته بكلمات وعبارات قليلة عما إذا كان موجودًا أو متابعًا الحوار في حينه أم لا، ذلك بينما كنا نحن نتحدث بأصواتنا، لكنه لم يجب أحدًا ولم يرد بكلمة واحدة على ما كُتب له قبلاً، ولهذا أيقن أغلبنا - وكنتُ وأحدًا منهم - بأنه كان بعيدًا ولم يسمع شيئًا مما قيل، وهو الآن ربما سيفتح موضوعًا جديدًا للحوار أو سيقول نادرة أو نكته أو يضع أغنية من التراث القديم الذي يُحبه لـ (فيروز) أو قصيدة شعر لـ (محمود درويش)، لكنه فاجأنا بلا مقدمات، وراح يسرد علينا الحكاية التراثية المشوقة التالية:

قال:

حدّثني والدي حينما كنتُ شابًا متحمسًا وغاضبًا لما يحدث لعالمنا العربي، قال والدي: يا بني إن حالنا مثل رجل من أبناء الريف كانت له زوجة وابن عمره ست سنوات، وكانوا

يعيشون في إحدى البلدات، وكانت ظروفهم المعيشية على قد الحال كما يُقال باللغة الدارجة، كان للأسرة بيت صغير مكون من غرفتين إحداهما صغيرة، بالكاد كانت تتسع لنوم الابن ذي الست سنوات مع بعض الحاجيات القليلة، وكان للأسرة مزرعة صغيرة بالكاد كانت تدر من المحاصيل ما يكفي سد رمق الأسرة ودوابهم، كانت الأسرة تملك حمارًا كأداة للنقل والمواصلات، وماعزًا واحدة للحصول على بعض اللبن، وكلبًا للحراسة، وقطةً لصيد الفئران التي تفعل ما تفعل بأشياء الفلاحين.

في إحدى الليالي بعد صلاة العشاء، وكان رب الأسرة عائدًا من مجلس مختار القرية ناشدًا النوم والراحة من عناء العمل اليومي المضني في الحقل، ما كاد أن يهيئ نفسه للنوم وراح يغفو فإذا به يسمع نداء ابنه الصغير الذي كان ينام في غرفته الصغيرة المجاورة، كان ينادي على والده، وربما قد شعر الطفل بعودة الوالد إلى البيت من خلال دخوله من باب الدار الخشبي الذي كان يُصدر صوتًا مُميزًا إذا ما فُتح أو أُغلق، أو من صوت نباح الكلب المعلن عن ولائه لصاحبه كلما رآه، ومن حركة الحمار والغنمة اللذان كانا ما يكاد يمر من جانبهما صاحب الدار إلا وظنا بأنه سيضع لهما طعامًا جديدًا فيقفان من رقادهما ويبدآن في حركتهما الدائرية حول مرابطهما في باحة الدار.

راح الابن ينادي على والده وكأنه يعترض على ما هو فيه من عدم رضا، نادى: "والدي، والدي..". إلى أن رد عليه الوالد: "ما بك يا بني؟" قال الطفل بتوسل: "لا أستطيع النوم يا أبتي، فالغرفة صغيرة وأكاد أحس وكأني سأختنق". ردّ عليه الوالد: "نم وستتعود".

صمتَ الولدُ قليلاً، وما هي إلا برهة صغيرة من الزمن وعاد الرجل إلى النوم، فإذا به يصحو ثانية على نداءات الطفل "لا أستطيع النوم يا أبتي، المكان ضيق". هنا قال الوالد

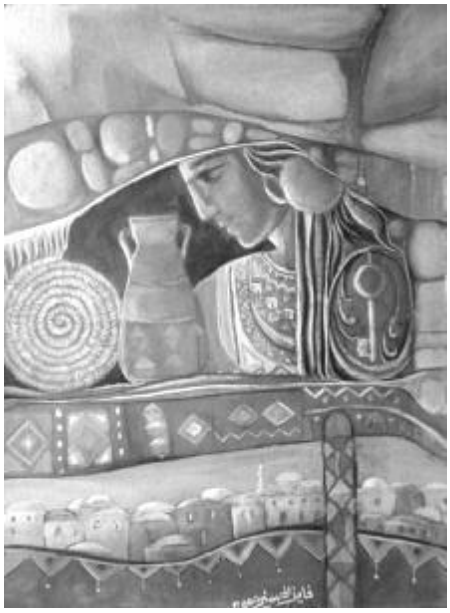
بحنق ونادى زوجته وأيقظها من النوم قائلاً لها: "أريد أن أنام قليلاً يا امرأة، أسكتي هذا الولد". ردّت الزوجة: "وماذا أفعل يا زوجي؟" لكنها أكملت: "لا عليك يا زوجي العزيز، أنت فقط أرشدني وأنا سأقوم بالباقي ونَم أنت وارتاح". قال الزوج: "لا تناقشيني رجاء ولا تجادليني، وأود أن أنام، روحي الآن وفكي الغنمة من وتدها وضعيها مع الولد في غرفته وأغلقي عليهما الباب". نَفَذَت الزوجة بلا تردد ما أمرها به الزوج، وكانت مطيعة ثم عادت للنوم بهدوء حتى لا تزعج الزوج الذي شرع في النوم ثانية.

في غرفة الابن صار هناك ضجيج وحركة وعاد الولد يصرخ مناديا والده: "يا والدي لا أستطيع النوم." صحي الأب ثانية وقال للزوجة: "حطي القطة مع الابن وكذلك الغنمة". وفعلتْ، بعد ذلك صاح الولد مناديا أباه: "يا أبتي لا أستطيع النوم، وأنا صرت منزعجًا أكثر". أمر الوالد زوجته بأن تضع الكلب أيضًا مع الابن في الغرفة ومع الغنمة والقطة، وفعلتْ، لكن الطفل راح ينادي مرة ثانية على والده: "لا أستطيع النوم يا أبتي". قال الوالد لزوجته: "فكي رسن الحمار من وتده وخذيه إلى غرفة الطفل وضعيه مع البقية واحكمي غلق باب الغرفة خوفًا أن يفتحها الحمار ويخرج". وفعلت ما أُمرت به، حدثتْ جلبة وصراخ واختلطت أصوات مواء القطة ومأمأت الغنمة ونباح الكلب ونهيق الحمار وصراخ الصبي، واختلطت الأمور مما جعل الابن ينادي أباه بيأس، وبأعلى صوته، ناداه هذه المرة وكأنه على وشك أن يفقد الوعي، قال: "يا أبتي لا أستطيع النووووووووووووم، لا أستطيع النووووم، لا استطيع النوم".

هنا قال الأب لزوجته: "اذهبي الآن وأخرجي الحمار من غرفة الطفل، وستنعمين بعدها براحة وستنامين بهدوء". ذهبتْ الزوجة وفعلت ما طلب الزوج منها، أخرجت الحمار

وأعادت ربطه بالوتد في باحة الدار ورجعتْ إلى فراشها، لم يعد الطفل ينـادي عـلى أبـاه ونام مع الكلب والغنمة والقطة.

وأكمل صديقنا الطبيب حكايته قائلاً على لسان والده رحمة الله عليـه: "تلـك يـا إخـوان حالنا سواء في (فلسطين) أم في (العراق) أم في أي بلد عربي، (أمريكـا) والغـرب بصـفة عامة يضيقون علينا كثيرًا ويوسعون قلـيلاً، وهكـذا ظلـوا يلينـوا مواقفنـا تـارة بالعصـا وأخرى بالجزرة ولا زلنا نتنازل منذ عام ١٩٤٨م".



فإذا كان الوطن العربي في هذا العصر كله في مهـب الـريح وفي خطـر، فلابـد أن تكـون الأوطان الصغرى كـ (فلسطين) في خطر أشد، لهذا تمنينا أن يكون ما حل بـ (فلسـطين) عِبرة لكل مواطن عربي حتى لا تتكرر مأساة فلسطيننا في مكان آخر مـن بـلاد العـرب، فمن الناس مَن {أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلا أن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ }، وحُرموا نعمـة

العودة إلى السهول والبطاح والى الديار، ذلك بدون ذنب ارتكبوه أو جرم اقترفوه، إن لهم شوق إلى الوطن موصولاً لا ينقطع أو يُنسى، حتى صار صعبًا على الأيام أن يتبدل، فتعانق مع الأحداث والتصق بها وأصبح محمولاً في القلوب وفي الصدور وفي الأحداق، فلا يغيب إن سرّهم دهرٌ أو أصابهم قهر.

إن الشوق والحنين يشدانا أحيانًا لزيارة الأقطار المجاورة لـ (فلسطين)، لأننا نأمل أن تصلنا نسمة من هواء الوطن، أو تعبر نفحة من عبير الليمون ورائحة زيت الزيتون مما لا تستطيع الحدود حجبه، نحن لا نستطيع مقاومة خواطرنا ومشاعرنا، ترانا ننطلق نرقب سير القمر والنجوم وانعكاساتها على المباني وفوق البطاح والأشجار، وفوق الأودية والهضاب وقمم الجبال وحولنا، إن ذكرى الوطن تحفل بالوطن فنلحظ تمايل ظلال الأشجار طولاً وقصرًا تبعًا لدعابات النسائم العابرة، فيثير هذا فينا الكوامن التي اختزنتها نفوسنا من مشاعر وهموم وأفكار، هكذا يمضى الوطن يدندن فينا كلامًا صامتًا لا تسمعه آذاننا.

ترى ما حال الديار وما حال بساتين البرتقال؟

ما حال كروم العنب؟ أما زالتْ على عهدنا؟

ما حال أماكن لهونا ومدارج طفولتنا ومراتع آباءنا وأجدادنا؟ أما زالتْ خطانا بادية على ثراها؟

كيف الروابي والتلال، كيف رمال الشاطئ وزرقة ماء البحر؟

كيف مرابع سهولنا الفسيحة، أما زال الربيع يزورها في كل عام؟

أما زال القمر يأتي في الليل ويحكي كما كان يقص حكاياته في سالف الأيام.



سلام على (حمامة)

المراجع

١. الذاكرة الفلسطينية: الدكتور وليد الخالدي.

٢. بلادنا (فلسطين): مصطفى خليل الدباغ.

٣. (حمامة) (عسقلان): خليل حسونة.

٤. معجم بلدان (فلسطين): محمد محمد حسن شراب.

٥. مذكرات: هارون هاشم رشيد.

٦. نشأة (حمامة): الحاج حسين أبو صفية.

٧. التراث الشعبي: نوبا.

٨. اللهجات العربية: المعجم.

عبد الكريم الحسني

§ كاتب وروائي فلسطيني، ولد في الحرب العالمية الثانية في بلدة حمامة الساحلية بفلسطين سنة ١٩٤٣م

§ هاجر قسراً ولجأ مع أسرته إلى قطاع غزة في عام ١٩٤٨م وعاش حياة اللاجئين.

§ اهتم بالعمل الوطني إبان سطوع نجم الناصرية، وأنخرط بالأنشطة الطلابية كإتحاد طلبة فلسطين في الوجه القبلي بمصر.

§ عمل بعد التخرج من الجامعة في دولة الإمارات (١٩٦٨-١٩٨٦م).

§ هاجر مع أسرته إلى كندا سنة١٩٨٦م.

§ صدر له :

- من حمامة إلى مونتريال : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٠٩م

§ الموقع الإلكتروني : www. hamama.ca

§ البريد الإلكتروني : hampal48@yahoo.ca

فهرس المحتويات

شكر ٧

إهداء ٩

المقدمة ١١

§ الفصل الأول

١–١ (حمامة) قبل عام ١٩٤٨م. ١٣

١–٢ (حمامة) كانت البداية. ١٤

١–٣ مشاهد من الذاكرة. ١٥

§ الفصل الثاني

٢–١ حقائق عن بلدة (حمامة) ٢٥

٢–٢ معلومات عن (حمامة) قبل الاحتلال. ٢٩

٢–٣ احتلال البلدة وتطهيرها عرقياً. ٣١

٢–٤ المستعمرات الصهيونية على أراضي البلدة. ٣٣

٢–٥ نشاطات أهل البلدة. ٣٩

٢–٦ الأدوات المستخدمة في بيت القرية. ٤٢

٢–٧ اللهجة الفلسطينية. ٥٤

§ الفصل الثالث

٣–١ كنتِ يا (حمامة). ٦٩

٣–٢ (حمامة) السكان. ٧١

٣–٣ إدارة البلدة. ٧٢

٣–٤ النشاط الاقتصادي. ٧٣

٣–٥ تقسيم الأراضي. ٧٤
٣–٦ مخطط الحمايل والعائلات. ٧٦

§ الفصل الرابع

٤–١ موسم الحصاد. ٨٥
٤–٢ جني المحصول. ٨٧
٤–٣ منتصف النهار. ٨٩
٤–٤ درس المحصول. ٩٠

§ الفصل الخامس

٥–١ الصيف في حمامه. ٩٣

§ الفصل السادس

٦–١ الأعياد والمناسبات. ١٠٧
٦–٢ أفراح العيدين. ١٠٩
٦–٣ عيد وادي النمل. ١١٨
٦–٤ موسم روبين. ١٢٠
٦–٥ أربعاء أيوب. ١٢٢
٦–٦ عاشوراء. ١٢٣
٦–٧ عيد خميس البيض. ١٢٣

§ الفصل السابع

٧–١ الزواج. ١٢٧
٧–٢ الخطبة. ١٢٩
٧–٣ عقد القران وجهاز العروس. ١٣٥
٧–٤ ليلة الحناء. ١٤٠

٧–٥ زفة العروس. ١٤٣
٧–٦ موكب العروس. ١٤٤
٧–٧ صباحية العروس. ١٥٠

§ الفصل الثامن

٨–١ التعليم. ١٦١
٨–٢ مدارس الكتاتيب. ١٦٤
٨–٣ مدرسة البلدة. ١٦٨

§ الفصل التاسع

٩–١التراث. ١٧٣
٩–٢ صور من التراث. ١٨٥
٩–٣ الألعاب التراثية. ١٨٩

§ الفصل العاشر

١٠–١ حرب ١٩٤٨م. ٢٠٧
١٠–٢ الدبابة البريطانية وأشجار العنب. ٢٠٩
١٠–٣ التحرشات الصهيونية. ٢١٠

§ الفصل الحادي عشر

١١–١ المقاومة. ٢١٩
١١–٢ الفوضى. ٢٢٦
١١–٣ الدول العربية تدخل الحرب. ٢٣٦

§ الفصل الثاني عشر

١٢–١ الرحيل. ٢٤١
١٢–٢ الخروج بلا متاع. ٢٤٨

١٢–٣ الشتات الفلسطيني. ٢٥١
١٢–٤ عيش البؤساء. ٢٥٥
١٢–٥ المغامرة. ٢٦٦
١٢–٦ حافة الحياة. ٢٧٢
١٢–٧ الخيمة بيتنا. ٢٧٦
١٢–٨ أصبحت تلميذاً. ٢٨٣
١٢–٩ السكن في معسكر الشاطئ. ٢٨٧

§ الفصل الثالث عشر

١٣–١ حرب ١٩٥٦م. ٢٩١
١٣–٢ حكاية الأسطول الروسي. ٢٩٣
١٣–٣ الإسرائيليون يدخلون غزة. ٢٩٦
١٣–٤ النساء يطعمن الجنود المصريين. ٣٠١
١٣–٥ قتل الفلسطينيين بدم بارد. ٣٠٤
١٣–٦ الإسرائيليون يستبيحون الأعراض. ٣١٢

§ الفصل الرابع عشر

١٤–١ فتى من اللاجئين. ٣١٧
١٤–٢ المدرسة الداخلية. ٣٢٣
١٤–٣ محاولة السفر إلى (ليبيا). ٣٢٩
١٤–٤ التخبط. ٣٣٢
١٤–٥ خيط الأمل. ٣٣٨
١٤–٦ معادلة الشهادة. ٣٤٣
١٤–٧ منحة دراسية من (الأمم المتحدة). ٣٤٩
١٤–٨ منحة التدريب من وزارة الصناعة. ٣٥٩

١٤–٩ منحة وزارة التعليم العالي. ٣٦٠
١٤–١٠ العرض العسكري في ٢٣ يوليو ١٩٦٦م. ٣٦٣

§ الفصل الخامس عشر

١٥–١ حرب ١٩٦٧م. ٣٦٩
١٥–٢ برقية إلى (جمال عبد الناصر). ٣٧٠
١٥–٣ اندلاع الحرب. ٣٧٣
١٥–٤ الإخوة في معتقل مديرية التحرير. ٣٧٦

§ الفصل السادس عشر

١٦–١ العقاب الجماعي. ٣٨٧
١٦–٢ الخوف والفزع. ٣٩٠

§ الفصل السابع عشر

١٧–١ نهاية عصر. ٣٩٥
١٧–٢ المقاومة والأنظمة العربية. ٣٩٦

§ الفصل الثامن عشر

١٨–١ أين الاستقرار؟ ٤٠١
١٨–٢ البحث عن العمل. ٤٠٥
١٨–٣ الاستسلام للظروف. ٤٢٥
١٨–٤ العمل في بلدية (العين). ٤٢٨
١٨–٥ الجلوس بجانب الشيخ (الأمير). ٤٣٩
١٨–٦ العمل في مزرعة الدواجن. ٤٤٤
١٨–٧ العمل مع شرطة (اتحاد المقاولين). ٤٤٥
١٨–٨ العمل مع الإدارة العامة للشرطة. ٤٤٧

١٨–٩ مضايقات العمل. ٤٤٩
١٨–١٠ الاستقرار في العمل. ٤٥٤
١٨–١١ الإقليمية. ٤٦٠
١٨–١٢ العنصرية. ٤٦٦

§ الفصل التاسع عشر

١٩–١ (الإمارات) وطني. ٤٧١
١٩–٢ الولاء للإمارات. ٤٧٣
١٩–٣ (الإمارات) دولة مستقلة. ٤٧٥
١٩–٤ البحث عن جنسية (الإمارات) (الإقامة الدائمة). ٤٧٧
١٩–٥ فقدان الثقة مع رئيس العمل. ٤٨٧
١٩–٦ شركات الهجرة. ٤٩٠
١٩–٧ الهجرة إلى (كندا). ٥٠١
١٩–٨ رسالة لا تنسى. ٥٠٣
١٩–٩ الاستقالة من العمل. ٥٠٧
١٩–١٠ مغادرة (الإمارات). ٥١٦
١٩–١١ حقائق جديدة. ٥١٨
١٩–١٢ الاستثمار في (كندا). ٥٢١
١٩–١٣ الجنرال (جفاركزكوف). ٥٢٣
١٩–١٤ رفض التصريح بالإقامة في (الإمارات). ٥٢٥
١٩–١٥ اتفاقية أسلو. ٥٢٨
١٩–١٦ زيارة الوطن. ٥٣١
١٩–١٧ التقدم لخدمة الوطن. ٥٣٨

الخاتمة ٥٤٥
المراجع ٥٥٤
المؤلف في سطور ٥٥٤
فهرس المحتويات ٥٥٧



سلام على (حمامة)

شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net